من فكر آل البيت

صحيح
شرح العقيدة الطحاوية
أو
المنهج الصحيح
في
فهم عقيدة أهل السنة والجماعة
مع التنقيح

تأليف

حسن بن علي السقاف القرشي الهاشمي الحسيني
عفا الله تعالى عنه

دار الإمام الرواس
بيروت - لبنان

صحيح
شرح العقيدة الطحاوية

جميع حقوق الطبع محفوظة
للمؤلف
السيد حسن بن علي السقاف

الطبعة الرابعة
معدلة ومضاف عليها ومنقحة
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

دار الإمام الرواس
بيروت- لبنان

رقم الهاتف الدولي /٠٠٩٦٢٦٥٩٣٠٠١١/
البريد الالكتروني /hasan_alsaqqaf@maktoob.com/

من فكر آل البيت

صحيح
شرح العقيدة الطحاوية

أو

المنهج الصحيح
في
فهم عقيدة أهل السنة والجماعة مع التنقيح

تأليف

حسن بن علي السقاف

القرشي الهاشمي الحسيني

عفا الله تعالى عنه

دار الإمام الرواس
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

قال العلامة مؤمن بن حسن الشبلنجي رحمه الله تعالى

إذا استعرتَ كتابي وانتفعت بهِ   فاحذرْ وقيتَ الردى مِنْ أَنْ تغيرهُ
وارددهُ لي سالماً إني شُغفتُ بِهِ   لولا مخافة كتمِ العلمِ لَمْ تَرَهُ

وقال الإمام أبوبكر بن شهاب السقاف الباعلوي رحمه الله تعالى :

صحتُ في صحبي بمجلسهم   بين مُثريهم ومُفْلسهمْ
جئتُ بالحق الصريح لهم   واضحاً يُتلى بمدرسهمْ
جئتُ من آي الكتاب ومن   خبر الهادي بمخرسهمْ
فأبوا إلا مكابرة   وتمادوا في تغطرسهمْ
عظموا أعداء خالقهم   وتناسهوا خبث مغرسهمْ
أوَّلوا نصَّ الدليل بما   جاء في فُتْيا مُدَلّسِهِمْ
هل كتابُ اللهِ تنسخه   نفثاتٌ من موسوسهمْ
أو حديثُ المصطفى تبعٌ   لهواهم في تهوسهمْ
آفةُ التقليد مهلكةٌ   تخنقُ الأسرى بمحبسهمْ
بَيدَ أن الأكثرين وقد   عرفوا تلويث ملبسهمْ
سكتوا جُبْنَاً وبعضُهُمُ   حسداً من عند أنفسهمْ

نسب المؤلف

حسن بن علي بن هاشم بن أحمد بن علوي (مُفْتي الشافعية ، وشيخ السادة بمكة المحميّة المتوفى سنة ١٣٣٥ هـ مُصَنِّف ترشيح المستفدين) ابن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله بن حسين بن عيدروس بن أحمد بن (أبي بكر باعقيل) ابن عبدالرحمن بن عمر بن عبدالرحمن بن عقيل بن عبدالرحمن السقاف ابن محمد ابن علي بن علوي بن الفقيه المُقَدَّم محمد بن علي بن محمد بن علي بن علوي بن محمد بن علوي بن عبيدالله بن أحمد المهاجر ابن عيسى بن محمد النقيب ابن علي العُريضي ابن جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن سيدنا الحُسين السبط ابن سيدنا الإمام علي بن أبي طالب وابن السيدة فاطمة الزهراء بنت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

قال الله تعالى : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى** ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كلُّ سَبَبٍ ونسب مُنْقَطِعٌ يوم القيامةِ إلا سببي ونسبي »(١) .

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ١٤٢) عن سيدنا عمر بن الخطاب ، ورواه الطبراني عنه وعن سيدنا ابن عباس ، قال الهيثمي في « المجمع » (٩/ ١٧٣) : « رجاله ثقات » . وانظر « سير أعلام النبلاء » (٣/ ٥٠٠) وهو صحيح .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملك العظيم ، العليم الحليم ، ذي الطَّول الكريم ، والمَنّ الجسيم ، والعز المديد ، والمَحَال الشديد ، وولي الحق ونصيره ، وماحق الباطل ومُبيره ، المتكفّل بالنصر والتمكين ، والتأييد والتحصين ، لأوليائه المتقين ، وللعلماء العاملين ، الذابين عن دينه ، والقائمين بإبراز قوانينه ، من كتابه الكريم ، وسُنَّة رسوله الرؤوف الرحيم ، الدالين على توحيده ، الشارحين لمناهج عقائد تمجيده ، فقد وعد سبحانه بإعلاء كلمتهم ، وإفلاج حجتهم ، وتأييد محجتهم ، كما وعد بإنزال قوارع بأسه على من عصاه وحادَّه ، وصدّ عنه فنادّه ، وقضى بعواقب الحسنى لمن أسلم وجهه إليه ، وتوكل في بثّ الحق وإعلاء منار الدين عليه ، فضلاً منه وعدلا ، قضاء فصلا ، وهو الحَكَمُ العدل الذي لا يظلم الناس شيئاً ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون .

أحمده حيث منح فأجمل ، وأعطى فأجزل ، من نِعَمِهِ السابغة ، وآلائه المتابعة ، حمداً يوجب منه المزيد ، ويستدعي المنن والتجديد ، ويؤيد الإسلام بباهر الإعجاز ، ويقصم مُعاديه بوشيك الإنجاز ، حيث أخمد كل دين وأعلاه ، ورفض كل شرع واجتباه ، وجعله نوره اللامع ، وظله الماتع ، وابتعث به السراج المنير ، والبشير النذير ، فأوضح مناهجه ، وبيَّنَ مدارجه ، وأنار أعلامه ، وفصَّل أحكامه ، وسَنَّ حلاله وحرامه ، وبعثه من أكرم عُنْصُرٍ وَنَبْعَه ، وأظهر مِلَّتَهُ وَشَرْعَه ، وأنزل عليه كتاباً من وحيه حكيماً غير ذي عِوَجٍ قيِّماً بديع النظام ، داخلاً في الأفهام ، خارجاً عن جميع الكلام ، ليس كسجع الكهان ، ولا كتحبير ذوي اللَّسْنِ والبيان ، وقد تفرّقت بالأمم أهواؤهم ، وتوزعت آراؤهم ، فضلّت أحلامهم ، وعميت أفهامهم ، واستحوذ عليهم الشيطان ، فشبّهوا وعبدوا الأصنام والأوثان ، جهلاً بعبادته وتنزيه الرحمن ، فدعاهم إلى الإقرار بخالقهم وإلههم ، وعبادته وترك ما عكفوا عليه من أوثانهم وأصنامهم ، وهو جادٌّ في الاجتهاد ، هاجر للدَّعة والمهاد ، صابر على تكذيبهم ، رادٌّ على تفنيدهم ، ينصح لهم فستكبرون ، ويهديهم

فيضلّون ، ويحذرهم فيستهزئون ، حتى أظهر الحق والدين ، وطمس الكفر وأقاويل المشركين ، فظهرت في الخلق بركتُهُ ، وفُضِّلَتْ على الأمم أُمَّتُهُ ، وعَلَت على الملل مِلَّتُهُ ، صلى الله عليه وسلم أفضل صلاة المُصلّين ، وسلّمَ وزاده شرفاً في العالمين ، وكذا على آله الأطهار الطيبين ، ورضوان الله تعالى على صحابته الشُمِّ المتقين ، وعلى مَن تبع الحق بإحسان وتمسّك بالثقلين إلى يوم الدين .

أما بعد :

فهذا شرح لطيف على متن عقيدة الإمام أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي الحنفي المصري المتوفى سنة (٣٢١) هـ بَيّنْتُ فيه معاني عباراته ، وفحوى إشاراته ، وناقشته في بعض كلماتها ، وأيدته ودلّلت على كلامه في غالب فقراتها ، ولم أختصر اختصاراً مُخِلاً ، كما لم أُسْهِبْ إسهاباً مملاً ، حرصاً على أن يكون هذا الكتاب منهجاً لتدريس العقيدة متميزاً حديثاً ، في كل جامعة ومعهد يصبو فيه أربابه إلى الأسلوب الواضح السهل المشحون بالأدلة من القرآن والحديث ، وقد طلب مني كثيرون ، وراسلني عديدون ، يسألون عن شرحٍ لعقيدة الطحاوي يوافق المعتقد الحق كما يطالبون بشرح جديد عليها يستوعب منها الأركان والمباني ، ويتعرّض للمهم من تلك المعاني ، فلم أجد بُدّاً عن الإجابة ، فشرعت في كتابة هذا الشرح متوكلاً على المولى سبحانه ، مبيناً فيه كل ما اعتقده حقاً ، ومزيفاً فيه كل ما أراه زيفاً ، وأسأله سبحانه أن ينفع به ، وينفعني بثواب ما كتبت فيه ، إنه سميع مجيب الدعاء(٢) .

---

(٢) مع ملاحظة أننا لسنا مقلدين في هذا الشرح لأحد كما سيري القارئ الكريم إن شاء الله تعالى ، وإنما أخذنا كما سيتبين لكل منصف من كتاب ربنا سبحانه وسنة نبينا الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم الصحيحة الثابتة عنه (غير المعارَضة) ، وقد نصَّ أهل العلم على عدم جواز التقليد في مثل هذه الأبواب ومن ذلك قول العلامة اللقاني في جوهرته :

إذا كلُّ مَنْ قَلَّدَ في التوحيدِ ... إيمانُهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ تَرْدِيدِ

وقد صار الأمر في الأعصار الأخيرة إلى أنه إذا أراد أحد أن يصنّف في علم من العلوم كالتوحيد مثلاً فإنه يرجع إلى شروح المتن الذي تصدّى لشرحه فَيُخرِجُ من تلك الشروح وينتقي منها ما يراه مناسباً . ثم ينظر في باقي كتب التوحيد فينقل الأقوال والنصوص فيها دون أن يُعْمِلَ عقله وفكره في البحث عن

ولا بُدَّ قبل الشروع في المقصود أن أُبين قضايا وأموراً تتعلـق بـالموضع فـأقول مستعيناً بالرحمن ، الخالق الديان :

أدلّتها التي أخذت منها !! فلا يُعَرّجُ على التأمل في مستند تلك الأقوال من الكتاب والسنة !! وإنمـا هـو التقليد فقط !! فكان من واجبنا لّما رأينا ذلك أن نُخْرِجَ كتاباً يعتمد على الدليل ويقـارع الحجـة بالحجـة ويذكر البرهان تلو البرهان ، نناقش فيه كثيراً من المسائل المطروحة في الساحة اليوم والتي لم تذكرها أو لم تُرَكِّز عليها الكتب السابقة ، خدمة لعقيدة الإسلام الحقة ، وبياناً لمذهب أهل السنة والجماعة ، وشفاء لما في صدور كثير من طلبة العلم في مشارق الأرض ومغاربها ، لا سيما وأن المصنفين السابقين رحمهـم الله تعالى كانوا قد صنّفوا بأساليب تناسب أزمانهم وبينوا المسائل وشرحوها بطرق كانت منتشرة في أيامهم ، وما كان لنا أن نتابعهم في خطأ مشى عليه المتأخرون منهم بعد وضوح الدليل بخلافه !!

وإننا مع ذلك ندعو لأولئك المصنّفين السابقين متقدّميهم ومتأخريهم ونقول : رحمهم الله تعالى وجزاهـم الله خير الجزاء عمّا قاموا به من جهد جهيد في البيان والتصنيف والتأليف والإيضاح ؛ آمين آمين يا رب العالمين .

تمهيـــــد ومقدمـــــــــــة

فصل

وجوب اتصاف حامل عقيدة الإسلام بالأخلاق الفاضلة الحسنة

يجب على المسلم الذي عَرَفَ دينه وتمسَّك به وفهم عقيدته أن يتحلّى بكريم الأخلاق والصفات ، فيقتدي بنبيه الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال له خالقه سبحانه ﴿ **وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم** ﴾ القلم : ٤ ، وقال الله تعالى لنا في كتابه الكريم : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾ الأحزاب : ٢١ .

ومن قرأ القرآن والسنة وتدبّر فيهما وجد أنه يجب عليه أن يترك كل خُلُقٍ ذميم كالغش والخداع والمكر والخبث والحقد والحسد وأكل أموال الناس بالباطل والتعدّي عليهم بالقتل والسرقة والسلب والنهب والضرب بغير حق ، وكذا الفحش والسب والشتم والنطق بالكلمات النابية والسخرية والاستهزاء والكذب والنميمة والغيبة والغضب لغير الله تعالى والطمع والبخل والظن السيء بلا دليل والظلم وحب الجاه والسمعة والمدح والرياء والكِبْر والعجب والغرور ...

وبالمقابل يرى أنه يجب عليه أن يتحلّى بكل خُلُقٍ سامٍ سَنِيٍّ كالصدق والأمانة وطيب الكلام والتبسم والحلم والإعراض عن الجَهلة والإصلاح بين الناس والتواضع والكرم والسخاء والشجاعة والإذعان للحق والرجوع عن الخطأ والاعتراف بالذنب واحترام الآباء والأُمهات ومن هو أكبر منه سِنّاً وتوقير العلماء والصالحين والرحمة بالصغار والرفق بالحيوان وغيرهما مما هو مبسوط في محلّه ، وقد تولّى الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه « الإحياء » شرح كثير منها وبيان تفاصيلها فليرجع إليه طالب الآخرة .

ومن الأخلاق التي يجب على المسلم الموحّد التحلّي والالتزام بها ويجدر

التنبيه عليها ههنا :

ترك فضول الكلام والخوض في الباطل والمراء والجدل بالباطل ، قال الله تعالى : ﴿ **لا خيرَ في كثيرٍ من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله** ﴾ أي ناوياً التقرب لله تعالى بأفعاله ﴿ **فسوف نؤتيه أجراً عظيماً** ﴾ النساء : ١١٤ .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى وأعلى درجته :

[فضول الكلام مذموم وهو يتناول الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة ، فإنَّ مَنْ يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره ، ومهما تأدّى مقصوده بكلمة واحدة فَذَكَرَ كلمتين فالثانية فضول أي فضل عن الحاجة وهو أيضاً مذموم لما سبق وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر ...

وأما الخوض في الباطل وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفسّاق وتنعم الأغنياء وتجبّر الطغاة ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة فإنَّ كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام ... أكثر الناس يتجالسون للتفرّج بالحديث ولا يعدو كلامهم التَّفَكُّه بأعراض الناس أو الخوض في الباطل ، وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا .

وَحَدُّ المِرَاء : هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه ، إمّا باللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المتكلّم ، وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض . فكل كلام سمعته فإنْ كان حقاً فصدّق به ، وإن كان باطلاً أو كذباً **ولم يكن متعلقاً بأُمور الدين** فاسكت عنه(٣) .

---

(٣) مثال ما ينبغي السكوت عنه وعدم المِراء فيه الكلام الفارغ الذي يتداوله كثير من الناس ويجادلون فيه مما ليس فيه منفعة ولا فائدة تعود منه في الدنيا ولا في الدين .

ولاحظ هنا أن الإمام الغزالي استثنى أمر الدين ؛ ومنه يتبين أنه لا يجوز السكوت على المُبْتَدِع أو الذي يفتي ويتكلّم في أمور الدين بما هو باطل ومردود لقوله تعالى : ﴿ **وجادلهم بالتي هي**

وأما المجادلة فعبارة عن : قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه ، وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروهاً عند المجادل ، فيحب أن يكون هو المُظْهِر له خطأه ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه ، ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأثم به لو سكت عنه .

وأما الباعث على هذا فهو الترفّع بإظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير بإظهار نقصه . وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها : أما إظهار الفضل : فهو من قبيل تزكية النفس ؛ وهي من مقتضى ما في العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء وهي من صفات الربوبية . وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السَّبُعِيَّةِ فإنه يقتضي أن يُمَزِّقَ غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه ، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان ، وإنما قُوْتُهُما المراء والجدال ، فالمواظب على المِراء والجدال مقوٍّ لهذه الصفات المهلكة .

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلّم : « إنَّ مِنْ أَحَبِّكم إليَّ وأقربِكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإنَّ من أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدّقون والمتفيقهون » قالوا : يا رسول الله : قد علمنا الثرثارين والمتشدّقين فما المتفيقهون ؟! قال : « المتكبرون » . رواه الترمذي (٤/ ٣٧٠ برقم ٢٠١٨) وقال : حسن غريب .

والخصومة مذمومة وهي وراء الجدال والمراء ؛ فالمراء طعن في كلام الغير

أحسن ﴾ وقوله تعالى ﴿ **قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **لا خير في كثير من نجواهم إلا مَنْ أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس** ﴾ وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى في « شرح صحيح مسلم » (٦/ ١٥٤) : « فمن الواجب نَظْمُ أدلة المتكلّمين للرد على الملاحدة والمبتدعين وشبه ذلك » . والقائم بهذا يحتاج لدفع كلام الخصم وبيان بطلانه من جوانب عديدة . لكن ينبغي بل يتحتم على القائم بذلك أن لا يستعمل فحش الكلام ولا البذاءة ولا السب والشتم للمردود عليه وكذلك لا يجوز التنابز بالألقاب والأسماء لقوله تعالى ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان** ﴾ ، ويجوز أن يبين جهل المبتدع أو المردود عليه أو تناقضه بعبارة واضحة لأنَّ هذا لا يعتبر من السب والشتم في مقام الردود العلمية .

بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير ، والخصومة لجاج في الكلام ليستوفي به مالاً أو حقاً مقصوداً] انتهى من الإحياء مختصراً بتصرّف يسير .

هذا ما أردنا التنبيه عليه بإيجاز من ضرورة التزام حامل عقيدة الإسلام بالخُلُق الفاضل السَّنِيِّ أي الطيب ، وإذا وصل الكلام بنا إلى هنا وتم القصد ؛ ناسب أن ننتقل إلى التعريف بصاحب هذه العقيدة فنقول :

ترجمة الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى مختصرة :

قال الحافظ الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٥/ ٢٧) :

« الإمام العلامة الحافظ الكبير ، محدّث الديار المصرية وفقيهها ، أبوجعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك الأزدي الحَجْري المصري الطَّحَاوي الحنفي ، صاحب التصانيف من أهل قرية طَحَا من أعمال مصر ومولده في سنة تسع وثلاثين ومائتين .

وسمع من : عبد الغني بن رفاعة ، وهارون بن سعيد الأيْلي ، ويونس بن عبد الأعلى ، وبحر بن نصرة الخولاني ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وعيسى بن مَثْرُود ، وإبراهيم بن منقذ ، والربيع بن سليمان المرادي ، وخاله أبي إبراهيم المُزَني ، وبكّار بن قتيبة ، ... وطبقاتهم .

وبرز في علم الحديث وفي الفقه ، وتفقه بالقاضي أحمد بن عمران الحنفي وجَمَع وصنَّف .

حدّث عنه : يوسف بن القاسم الميانجي ، وأبوالقاسم الطبراني ، ومحمد بن بكر بن مطروح ، وأحمد بن القاسم الخشاب ، وأبوبكر بن المقرئ ، وأحمد بن عبد الوارث الزّجاج ، وعبد العزيز بن محمد الجوهري قاضي الصعيد ، وأبوالحسن محمد بن أحمد الأخميمي ، ومحمد بن الحسن بن عمر التنوخي ، ومحمد بن المُظَفَّر الحافظ ، وخَلْقٌ سواهم من الدماشقة والمصريين والرحَّالين في الحديث .

وارتحل إلى الشام في سنة ثمانٍ وستين ومائتين ، فلقي القاضي أبا خازم ، وتفقه أيضاً عليه .

ذكره أبو سعيد بن يونس فقال : عداده في حجر الأزد ، وكان ثقة ثَبْتاً فقيهاً عاقلاً ، لم يخلّف مثله (٤) » انتهى .

---

(٤) وقد ذكر الحافظُ ابن حجر في « لسان الميزان » (١/ ٢٧٤ هندية) الإمامَ الحافظَ الطحاويَ رحمه الله تعالى !! ومقام الإمام الطحاوي أجلُّ وأعلى من أن يُذْكَرَ في كتاب قد وُضِعَ في ضعفاء الرجال وفيمن

إن الناظر المتفحص في متن عقيدة الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى يلاحظ من خلالها الأمور التالية :

أولاً : أثبت الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى في عقيدته هذه بأنه يعتقد عقيدة أهل الحق في الجملة ، وهي العقيدة المبنية على تنزيه الله تعالى وصفاته عن التشبيه والتجسيم وعن مشابهة الحوادث والخَلْق ، لا سيما وهو يقول مثلاً فيها : (**تعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات ، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات**) وقوله فيها أيضاً (**ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر**) .

ثانياً : ذكر الإمام الطحاوي في هذه العقيدة أهم القضايا العقائدية ولم يتعرّض لذكر بعض الأمور ، وذكر فيها مسائل فقهية أيضاً ليست من مسائل العقيدة كالمسح على الخفين ونحوه ، وركّز على قضايا يظهرُ لنا أنها كانت مهمة في نظره يومئذٍ كمسألة القضاء والقدر ، فكان كلّما تكلّم عليها وتركها ليتكلّم في غيرها رجع إليها وأعاد الكلام فيها كرات ومرات .

وهذا مما حدانا وألجأنا إلى :

١ ـ أن نُرَتِّبَ متن هذه العقيدة ترتيباً جديداً حيث ضمننا العبارات في

تُكُلِّمَ فيه منهم !! وكم في كتب الجرح والتعديل والضعفاء من رجال مظلومين تُكُلِّمَ فيهم وهم أئمة ثقات لا يقدح فيهم كلام مَنْ تَكَلّم فيهم !!

والإمام البيهقي رحمه الله تعالى تعرّض للإمام الطحاوي في معرفة السنن والآثار (٢/ ٦٠ ـ ٦١ و٧١ و٩٢ و٩٧ و٩٨ ...) ودقق في الرد والتنقيد عليه مع أن البيهقي يخالف غير الطحاوي من الفقهاء والعلماء والحفاظ فلم يدقق معهم كما فعل مع الطحاوي !!

وفي « معرفة السنن » (٢/ ٦٠) وقعت عبارة موهمة ، يتوهم منها القارئ أن الإمام أحمد بن حنبل رد على الطحاوي والعبارة هي : « قال الإمام أحمد رحمه الله زعم الطحاوي أنه تتبع الآثار ... » والمراد بذلك : الإمام أحمد البيهقي وليس الإمام أحمد بن حنبل ، لأن أحمد بن حنبل لمّا توفي كان عمر الطحاوي ثلاث عشرة سنة على أبعد الأقوال بين وفاة هذا وولادة ذاك فكيف يصح أن يقال إنه ردَّ عليه ؟!!

الموضوع الواحد وجمعناها في موضع واحد .

وسنذكر إن شاء الله تعالى في آخر هذا الشرح متنَ الطحاوية كما صنفه ورتبه الإمام الطحاوي ثم نذكر مقابل كل جملة أو فقرة منها رقم الصفحة التي أثبتت فيه في هذا الشرح والله الموفق .

٢ - أن نستكمل ذكر ما لم يذكره من أمور العقيدة والتوحيد في الشرح مع بيان واستيفاء الكلام عليه بما يناسب المقام .

٣ ـ أن نُرتب مواضيع الكتاب وأبحاثه على حسب ترتيب كتب العقائد المعروفة لتسهيل مراجعة المواضيع فيها ، ليصبح كتاباً يمثل نموذجاً مثالياً في تدريس العقيدة الإسلامية وفق منهج تعليمي جديد سهل مشحون بالأدلة مع مناقشة المخالف وبيان حججه ودحضها في المسائل المطروقة .

حدّثني بها سيدي الإمام المحدِّث المفيد أبو الفضل عبدالله بن محمد بن الصّدّيق الغماري (٥) الحسني الطنجي بثغر طنجة ، عن الشيخ المعمَّر محمد دويدار التلاوي ، عن الشيخ إبراهيم الباجوري ، عن الأمير الكبير ، عن البدر الحفني ، عن العلامة البديري ، عن إبراهيم الكردي ، عن صفي الدين القشاشي ، عن الشمس الرملي ، عن الإمام العلامة الشيخ زكريا الأنصاري ، عن الحافظ أبو نُعَيم المستملي ، عن الشرف أبو طاهر بن الكويك ، عن إبراهيم بن بركات البعلي المعروف بابن الفريشة ، عن الحافظ اليونيني ، عن الحافظ أبو موسى محمد بن أبي بكر المديني ، عن أبي الفتح إسماعيل بن الفضل بن أحمد السراج بن الإخشيد ، عن أبي الفتح منصور بن الحسين التالي ، عن الحافظ أبو بكر محمد بن إبراهيم بن علي المقري ، عن الإمام الحافظ أبي جعفر الطحاوي رحمه الله تعالى به .

وبهذا الإسناد المتقدّم إلى الإمام العلامة الشيخ زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى ، قال : ثنا الحافظ ابن حجر العسقلاني ، عن أبي هريرة ابن الحافظ الذهبي ، عن الحافظ الذهبي قال : كتب إلينا عبد الرحمن بن محمد الفقيه ، أخبرنا عمر بن طَبَرْزَد ، أخبرنا محمد بن عبد الباقي ، حدثنا أبو محمد الجوهري إملاءً ، حدّثنا محمد بن المظفّر ، قال حدثنا أبوجعفر الطحاوي رحمه الله تعالى به .

مع ملاحظة أنني في شك من ثبوت هذه العقيدة ونسبتها للإمام أبي جعفر الطحاوي ولكننا مع هذا سنتناولها بالشرح والحوار والنقاش والرد والأخذ .

---

(٥) ولد رحمه الله تعالى وأعلى درجته في غرّة رجب سنة ١٣٢٨ هـ بثغر طنجة وتوفي يوم الخميس ٢٠/ شعبان / ١٤١٣ هـ الموافق ١١/ ٢/ ١٩٩٣ م الساعة الثانية والنصف ظهراً بعد الزوال رحمه الله تعالى وجعله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ونفعنا بعلمه وبركته آمين .

فصـــــــــل

قال الإمام الحافظ السُبكي في كتابه « معيد النِّعَم ومبيد النِّقَم » ص (٦٢) :

« وهؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة ولله الحمد في العقائد يد واحدة كلّهم على رأي أهل السنة والجماعة ، يدينون الله تعالى بطريق شيخ السنَّة أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى ، لا يحيد عنها إلا رَعاع من الحنفية والشافعية لحقوا بأهل التجسيم ، وبرَّأ الله المالكية فلم نر مالكياً إلا أشعرياً عقيدة ، وبالجملة عقيدة الأشعري هي ما تضمَّنته عقيدة أبي جعفر الطحاوي التي تلقاها علماء المذاهب بالقبول ورضوها عقيدة » .

قلت : تشبث بكلامه هذا رحمه الله تعالى بعض المجسمة والمشبهة في هذا العصر فذكروا كلامه هذا ولم يذكروا فيه ثناءه على الأشعري بل حذفوه منه ، ووضعوه على غلاف شرح ابن أبي العز على الطحاوية ترويجاً لذلك الشرح الذي فيه مخالفات صريحة للقرآن والسنة والعقيدة الحقه(٦) .

أما قول الإمام السبكي بأن الحنفية يدينون بطريق الأشعري فليس صواباً على إطلاقه ، وإنما الصواب أنهم يدينون الله تعالى بطريق أبي منصور الماتريدي المستقي من الإمام أبي حنيفة عليه الرحمة والرضوان ، وعلى هذا جمهورهم ، وإن قَصَدَ الإمامُ بأنهم يتفقون مع الأشعري في التنزيه ونبذ التشبيه والتجسيم فهذا صواب وحق .

واعلم أن الإمام الغزالي رحمه الله تعالى يقول في كتابه (فيصل التفرقة) :

[فإني رأيتك أيها الأخ المشفق ؛ والصديق المتعصب ؛ موغر الصدر ؛ منقسم القلب ؛ لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة ؛ على بعض كتبنا المصنفة في

---

(٦) وقد ذكرت بعض تلك الأمور التي خالف فيها الشارح ابن أبي العز القرآن والسنة وإجماع الأمة في بعض كتبي ككتاب « التنديد بمن عَدَّد التوحيد » وذكرت هناك أن منها قوله :
بإثبات الحد لرب العالمين ، وقوله : بأن الحوادث تقوم به سبحانه عما يقول ، وأن العالَم قديم بالنوع ، وأن الله تعالى يتكلّم بحروف وأصوات إلى غير ذلك من مستشنعات ، تعالى المولى سبحانه وتعالى عما يقول هذا الشارح وأضرابه .

أسرار معاملات الدين وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين ؛ والمشايخ المتكلمين ، وأن العدول عن مذهب الأشعري ولو قيد شبر كفر ؛ ومباينته ولو في شيء نزر ضلال وخسر ... فهون أيها الأخ المشفق المتعصب على نفسك ..... وإياك أن تشتغل بخصامهم ؛ وتطمع في إفحامهم ؛ فتطمع في غير مطمع ، وتصوت في غير مسمع ؛ أما سمعت ما قيل : كل العداوة قد ترجى سلامتها إلا عداوة من عاداك في حسد ....

فإن زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعري ، أو مذهب المعتزلي ؛ أو مذهب الحنبلي ؛ أو غيرهم فاعلم أنه غر بليد ؛ قد قيده التقليد ؛ فهو أعمى العميان ؛ فلا تضيع بإصلاحه الزمان ؛ وناهيك حجة في إفحامه ؛ مقابلة دعواه بدعوى خصومه ؛ إذ لا يجد بين نفسه وبين سائر المقلدين المخالفين له فرقاً وفصلاً . ولعل صاحبه يميل من بين سائر المذاهب إلى الأشعري ؛ ويزعم أن مخالفته في وارد وصادر كفر من الكفر الجلي ؛ فاسأله من أين ثبت له أن يكون الحق وقفك عليه ، حتى قضى بكفر الباقلاني إذ خالفه في صفة البقاء لله تعالى ؛ وزعم أنه ليس هو وصفاً لله تعالى زائداً على الذات ، ولم صار الباقلاني أولى بالكفر بمخالفته الأشعري من الأشعري بمخالفته الباقلاني ؟ ولم صار الحق وقفاً على أحدهما دون الثاني ؟ أكان ذلك لأجل السبق في الزمن ؟فقد سبق الأشعري غيره من المعتزلة فليكن الحق للسابق عليه ! أم لأجل التفاوت في الفضل والعلم ؟ فبأي ميزان ومكيال قدّر درجات الفضل حتى لاح له أن لا أفضل في الموجود من متبوعه ومقلده ؟ فإن رخّص للباقلاني بمخالفته فلم حجره على غيره ؟ وما الفرق بين الباقلاني والكرابيسي والقلانسي وغيرهم ؟وما مدرك التخصيص بهذه الرخصة ؟وإن زعم أن خلاف الباقلاني يرجع إلى لفظ لا تحقيق وراءه كما تعسف بتكلفه بعض المتعصبين زاعماً أنهما جميعاً متوافقان على دوام الوجود والخلاف في أن ذلك يرجع إلى الذات أو إلى وصف زائد عليه خلاف قريب لا يوجب التشديد فما باله يشدد القول على المعتزلي في نفيه الصفات وهو معترف بأن الله سبحانه وتعالى عالم محيط بجميع المعلومات قادر على جميع

الممكنات ؛ وإنما يخالف الأشعري في أنه عالم وقادر بالذات أو بصفة زائدة .فما الفرق بين الخلافين ؟ ....

فإن تخبط في جواب هذا أو عجز عن كشف الغطاء فيه ؛ فاعلم أنه ليس من أهل النظر وإنما هو مقلد ! وشرط المقلد أن يسكت ؛ ويُسكت عنه ! لأنه قاصر عن سلوك طريق الحجاج ! ولو كان أهلا له كان متبعا لا تابعا ! وإماماً لا مأموماً ، فإن خاض المقلد في المحاجة فذلك منه فضول ؛ والمشتغل به صار كضارب في حديد بارد ؛ وطالب لصلاح الفاسد .وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟] انتهى ما أردنا نقله من كلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى وهو حري أن يكتب في المعاهد والمدارس ويرقم في قراطيس العلم بمداد من ذهب حتى يعتبر به المتعصبون الذين تغلفت عقولهم بغلاف الحسد !

وقول السبكي (وبرّاً الله المالكية فلم نر مالكياً إلا أشعرياً عقيدة) إن عنى الشيخ به أنه لم ير في حياته من الأحياء الذين لقيهم من علماء السادة المالكية إلا أشعري العقيدة فالظاهر أنه مصيب لكن السياق والكلام لا يدلُّ على أنه أراد هذا المعنى ، وإن أراد أن المالكية ليس فيهم مجسمة ومشبهة خلافاً لبقية المذاهب فليس هذا بصواب قطعاً ، وذلك لأن الطَلَمَنْكيَّ المالكي مشبِّه مجسِّم أثبت عضوَ الجَنْبِ لله تعالى كما نقل ذلك عنه الحافظ الذهبي في ترجمته في « سير أعلام النبلاء » (١٧/ ٥٦٩) ، ومثله ابن أبي زَمَنِين وابن رشد الحفيد الفيلسوف(٧) وغيرهم لكنهم قليل في المذهب .

وقوله (بأن علماء المذاهب تَلَقَوا عقيدة أبي جعفر الطحاوي بالقبول ورضوها عقيدة) لا ينفي أن يكون فيها خطأ أو ما هو منافٍ للصواب أو ما لا

---

(٧) وهو مع كونه فيلسوفاً فإنه مجسم مشبه !! فإن ابن رشد هذا عقد باباً في كتابه مناهج الأدلة ص (١٧١) من طبعة مكتبة الأنجلو المصرية سماه : [القول في صفة الجسمية] قال فيه : « فإن قيل : فما تقول في صفة الجسمية هل هي من الصفات التي صرَّح الشرع بنفيها عن الخالق أو هي من المسكوت عنها ؟ فنقول : إنه من البيِّن من أمر الشرع أنها من الصفات المسكوت عنها ، وهي إلى التصريح بإثباتها في الشرع أقرب منها إلى نفيها ..... » .

يقبل النقاش ، لأنها ليست قرآناً ولا كلاماً لنبي معصوم ، والمجسمة والمشبهة في هذا العصر تشبثوا بهذا الكلام فزعموا بأن شرح هذه العقيدة لابن أبي العز هو عقيدة السلف !! مع أنهم خالفوا الإمام الطحاوي صاحب المتن في بعض ما قال ، وذلك حيث خالفوه في مثل قوله : (**تعالى ــ الله ــ عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات ، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات**) فأثبتوا الجهة والحَدَّ لله عز وجل تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً !!

ونحن نقول : إن كلام الإمام السبكي هذا يوهم أن عقيدة الطحاوي هذه مجمع عليها وبالتالي حصل الاتفاق والإجماع على كل حرف أو عبارة منها ، والواقع ليس كذلك حقاً بل إن فيها عبارات إما أن يقال فيها مختلف في قضاياها ويجب أن نأخذ بالصحيح الراجح ، وإما أن يقال أخطأ فيما ذهب إليه في تلك العبارات ؛ ولنا أن نقول : إنَّ عقيدة الطحاوي تمثل عقيدة واحد من السلف (وهو الطحاوي لا غير) وتخبرنا بأن السلف ليس لهم مذهب مُوَحَّد لا في الفقه ولا في العقيدة ولا في الجرح والتعديل ولا في غير ذلك كما سنبين ذلك مختصراً إن شاء الله تعالى في الكلام على الأدلة الموهومة الباطلة التي يستدل بها بعض الناس في العقيدة والتي منها فهم السلف ، وهي نقطة مهمة جداً ينبغي للمتصدّي والمشتغل في العقائد بل ينبغي للأمة كلها أن تعرفها معرفة جيدة وهي أنه ليس للسلف في جميع القضايا الشرعية مذهب يصح أن يقال فيه هذا مذهب السلف ، اللهم إلا ما وقع الإجماع عليه وتحققنا من وقوعه لأنه قد ادّعى أُناس الإجماع في أمور عقائدية عديدة ثم تبين لنا أنها من الخلافيات أو أن الإجماع منعقد بخلافها !! كمن ادّعى بأنّ هناك إجماعاً على إثبات الحد أو أن كلام الحق سبحانه حروف وأصوات ثم تبين أن الإجماع منعقد بضد ما ادّعى وزعم !!

ولذلك نقول لا يصح لأحدٍ أن يتبنّى عقيدةً ثم يقول إن هذه العقيدة مذهب السلف لأن السلف ليس لهم مذهب مُوَحَّد بل إن المَعْنِيين من السلف هم الأئمة المجتهدون ولكل منهم رأيه ومذهبه في بعض مسائل الاعتقاد كما سنبين في فصل أدلة العقائد الموهومة من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، وكذا لكل منهم اجتهاده

في الفقه والتشريع كما تجد ذلك بمئات الأمثلة في مثل مُصَنَّفيْ الحافظَيْنِ عبد الرزاق وابن أبي شيبة ، وكُتُبِ المذاهب الأربعة أكبر شاهد على ذلك حيث أن أئمتها من علماء السلف بلا شك ولا ريب ، وكذلك أهل الحديث من السلف والخلف أيضاً ليس لهم مذهب موحَّد حتى في صناعتهم في التعديل والتجريح بل هم مختلفون في ذلك فهذا يوثّق زيداً وذاك يضعِّفه وَيَجْرَحُهُ وذلك يُمَشّيه ويعتبره وسطاً وهكذا وكتب الجرح والتعديل طافحة بالأمثلة المبرهنة على هذا .

وتلقي الأمة لكتاب بالقبول لا يعني أن كل ما فيه صحيح ، فقد ذكر العلماء مثلاً أن مسند أحمد تلقته الأمة بالقبول وهذا لا يعني عندهم أنه ليس فيه حديث ضعيف أو مردود ؛ ومن ذلك قول الحافظ السيوطي في « تدريب الراوي » (١/ ١٧٢) :

[وقد ألَّفَ شيخ الإسلام(٨) كتاباً في رد ذلك سماه القول المسدد في الذب عن المسند . قال في خطبته :

فقد ذكرت في هذه الأوراق ما حضرني من الكلام على الأحاديث التي زعم بعض أهل الحديث أنها موضوعة وهي في مسند أحمد ذباً عن هذا التصنيف العظيم **الذي تلقته الأمة بالقبول والتكريم** وجعله إمامهم حجة يرجع إليه ويعول عند الاختلاف عليه] .

---

(٨) المقصود بشيخ الإسلام هنا هو الحافظ ابن حجر العسقلاني ، وإطلاق شيخ الإسلام على أي عالم عندنا لا يجوز ! ويحرم خاصة على مثل ابن تيمية الحراني الذي يقول بعقائد فاسدة وباطلة كتشبيه الله بالشاب الأمرد وغير ذلك مما هو مشهور ! وكتاب ابن ناصر الدين الدمشقي المسمى بالرد الوافر حاول فيه مؤلفه أن يرد به على العلاء البخاري الحنفي الذي قال : (كل من يطلق شيخ الإسلام على ابن تيمية يكفر) فأورد أقوالاً لبعض العلماء ولبعض المتعصبين من شيعة ابن تيمية فيها إطلاق شيخ الإسلام على ابن تيمية ! أما العلماء الأفذاذ كابن دقيق العيد وأبو حيان وغيرهما فقد رجعوا عن ذلك كما تجد ذلك من يطالع ترجمة ابن تيمية من الدرر الكامنة للحافظ ابن حجر أو يتتبع حال أولئك العلماء في رجوعهم عن ذلك ، وأما القسم الذي بقي يطلق عليه ذلك فلا عبرة بهم والعبرة بالدليل .

فصل

في مميزات شخصية المسلم والمؤمن

نظرة الإسلام إلى الكون والإنسان والحياة

(كلام للطحاوي يناسب أن يكون في المقدمة قبل شرح العقيدة)

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ولا تثبت قَدَمُ الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام ، فمن رام عِلْمَ ما حظر عنه علمه ، ولم يقنع بالتسليم فهمه حجبه مَرَامه عن خالص التوحيد وصافي المعرفةوصحيح الإيمان ، فيتذبذب بين الكفر والإيمان والتصديق والتكذيب ، والإقرار والإنكار ، مُوَسْوساً تائهاً ، شاكّاً ، لا مؤمناً مصدّقاً ولا جاحداً مُكذباً) .

الشرح :

حَوَتْ هذه الفقرة عدة مسائل وقضايا لا بد من التنبيه عليها :

القضية الأُولى : وجوب تعلّم العقيدة الإسلامية على كل فرد مسلم في المجتمع ذكراً كان أو أنثى ، صغيراً أو كبيراً ، ليتبنى الفرد عقيدة الإسلام في حياته ويطبقها على أفعاله وأقواله في جميع أحواله ، وليكون تفكيره بالأمور وتقييمه وفهمه لكل شيء ومناقشته للمواضيع منطلقاً من عقيدته التي درسها وفهمها وأمعن النظر فيها وتَشَرَّبها قلبه .

وإن لم يفعل ذلك فإنه سيكون ضائعاً حائراً متذبذباً شاكاً غير مُكْترثٍ ولا مُبَالٍ ومُضَيِّعاً لدينه ، وهذا هو سبب هذا المرض الذي نراه اليوم عاماً وفاتكاً بأكثر أفراد المجتمع الذي نعيش فيه ، لذلك نراهم يهتمون بكرة القدم وبالرياضة وبالموسيقى والفنانين والمغنين وباللعب والتسلية وما إلى ذلك دون الأهم ، معرضين عن الأمر الذي يُصَيِّرهُمْ سادة قادة ، كما نجدهم لا ينكرون منكراً ولايرون معروفاً فضلاً عن الأمر به ، فضلاً عن العمل به ، ولذلك سقط المجتمع

وهوت الأمة فصارت ذيلاً لأمم أخرى بدل أن تكون رأساً وأنموذجاً صالحاً لبقية الأمم والشعوب .

ثم رأينا من يتزعم الأمور الدينية ليجعلها مراسم وحركات ومناصب وأقوالاً وقوالب عارية عن الروح التي تكون بها حية متحركة مثمرة ، ورأينا من يُعَظِّم الألقاب ويتطلّع للمناصب وهو ليس أهلاً لها بوجهٍ من الوجوه ، ولسان الحال يقول :

مات أهلُ العلم لم يَبْقَ سوى ... مُقْرَفٍ او مَنْ على الأصل اتَّكلْ

ويصح لنا أن ننصح فنقول :

أيْ بُنيَّ اسمع وصايا جُمّعت ... حِكَمَاً خُصَّت بها خير الملل
اطلب العلم وحصله فما ... أبعد العلم على أهل الكسل
لا تقل قد ذهبت أربابه ... كل مَنْ سار على الدرب وصل
واحتفل للفقه في الدين ولا ... تشتغل عنه بمال وخول
واهجر النوم وحصّله فمن ... يعرف المطلوب يحقر ما بذل

فأين العلماء المخلصون وأين الطلبة الصادقون ؟! والواقع يشهد بأن أمور الدين لن ترجع إلى نصابها إلا إذا وجد العلماء المخلصون الصادقون العابدون القانتون السائرون في ظاهرهم وباطنهم على قَدَمِ النبوة ، ولا يتم الأمر إلا إذا قُيِّمَ العالِم على حقيقة ما عنده من علم وتقوى فَقُدِّمَ واحترم وانتبه أهل المجتمع واستيقظوا لمن يحمل شهادات تُمَثِّلُ دراسة أمور جزئية مبنية على أنظمة أجنبية وأصحابها أبعد الناس من العلم والتقوى والورع والخوف من الله تعالى ، فضلاً عن بُعدِهِم من البحث والدراسة للمستجدات ، والحرقة من انتهاك المحرّمات ، والسهر على مصالح المسلمين ، والتخطيط لتنفيذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومحاربة المبتدعة والملاحدة والمرتدين .

ونستطيع أن نقول : بأن الله تعالى ذكر لنا في أوائل سورة الحج نظرة الإسلام إلى الإنسان والكون والحياة حيث ذكر الله تعالى أن هذا الكون خلقه الله تعالى

وسخره للإنسان ليعمره بطاعة الله تعالى وأن الإنسان لم يوجد عبثاً ولن يترك سدى ، وأنه يجب عليه أن يعتقد عقيدة الإسلام الحقة وأن يعمر الأرض ولا يجوز له أن يعبد الله على حرف فيغير عقيدته للمصالح أو للعوامل التي تمر عليه بل يجب عليه أن يصبر لأنه يعلم بأن هذه الحياة الدنيا فانية وأن الله تعالى وعده بالثواب والحياة الباقية إن أحسن وبالعقاب والنار إن أساء قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ

مَا يَغِيظُ (١٥) ﴾ الحج : ١-١٥ .

قال السيد الزمزمي ابن الصديق الحسني في كتابه « الطوائف » :

« أما الحكم بالقرآن والسنة والشريعة الإسلامية فقد أضاعه المسلمون وحكموا بالقانون يُحلّون ما أحله القانون وإن حرّمه الله ورسوله وكان فاعله عند الله من الملعونين ، ويحرّمون ما حرّمه القانون وإن أمر الله به ورسوله وجعله من فرائض الدين ، فأحلّوا بذلك ما حرّم الله ، وضيّعوا حقوق عباد الله (٩) ، وأحلّوا بأنفسهم عذاب الله وهم يضحكون .

استباحوا بالقانون الربا والزنا والخمر والخنزير والتجاهر بالفواحش والمنكرات ، واستباحوا بالقانون الطعن في الإسلام والتجاهر في انتقاده في الجرائد والإذاعات والحفلات !! فتمكّن مَنْ يحارب الإسلام من أعدائه من التجاهر بتكذيب القرآن والطعن في الإسلام بين أظهر المسلمين وعلى رؤوس أشهادهم !! وهم آمنون مطمئنون !! فلما ذكرناه يكون السواد الأعظم من المسلمين أول طائفة من الطوائف المخالفة للسُنَّة (١٠) في هذا الوقت » اهـ .

ومن ذلك أنه لا يؤدي الزكاة منهم إلا القليل ، ويتهاونون بالمعاصي المحرّمات فيشربون الخمر ويلعبون القمار ، وانتشار الزنا بينهم لا حصر له ، ولا يُعَظّمون حرمات الله تعالى ومن ذلك أنهم يستعملون ورق الجرائد والمجلات المذكور فيها أسماء الله تعالى وأسماء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كمحمد وموسى وعيسى وداود وغير ذلك فيما يمتهن ويلقونه في القمامة والقاذورات ويدوسون عليه ، وكذا سبهم للدين والرب سبحانه عند تشاجرهم !! ولا يرون ذلك ذنباً فضلاً عن

---

(٩) ومن دلائل هذا أنك تجد الفقير الذي لا واسطة له ، مظلوماً مقهوراً مغلوباً على أمره !! ولا تجد الحنان والعطف والمواساة بالمال والكلمة الطيبة بين أغلب أفراد المجتمع الواحد ، بل تدخل إلى كثير من بلدان الإسلام فتجد أهلها قد خلعوا ثوب الإسلام والعروبة ولم يبق من ذلك إلا كلمات تتردد على ألسنة بعضهم ، ثم هم لا يقصدون معناها ، وإنما هو كلام ببغاء !! بل يستهزئون بالله تعالى ورسوله ﴿ **وَلَئِن سألتهم ليقولنّ إنما كنّا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته وروسوله كنتم تستهزئون ، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم** ﴾ !!

(١٠) بل للإسلام نفسه ولا ينكر هذا عاقل !!

كونه كفراً وارتداداً عن الملة الحنيفية !!

ومن قبائحهم أيضاً مقابلة المرأة وتسليمها مصافحةً لأقاربها الأجانب وأقارب زوجها الذين ليسوا من محارمها ، كابن خالها وابن خالتها وابن عمها وابن عمتها وأخو زوجها وعمه وخاله ... ، وكذلك سفر المرأة وحدها إلى بلدان بعيدة دون قيد أو شرط ، وذهابها إلى الحفلات والنوادي واختلاطها بالرجال الأجانب ، كما وجدنا أولئك المتطفّلين على موائد الشريعة قد أحلوا للعامة آلات اللهو وادّعوا ضعف الأحاديث فيها ، وهم أبعد الناس عن معرفة صحيح الحديث من ضعيفه ، فضلاً عن فهمهم لمقاصد الشريعة وغاياتها .

ومن ذلك فساد معاملاتهم في المعاشرة وفي البيع والشراء والإجارة وظلمهم لبعضهم ، وفُشُوّ النفاق والكذب والخيانة والغش والأذية والغيبة والنميمة والمداهنة وأكلهم الربا ، وعدم السؤال عن الطريق التي يأتيهم منها المال وعن الطريق التي يكتسب بها ، وقد اتفق على هذه الخصال عالمهم وجاهلهم ، ودخل في ذلك أيضاً المصلّون منهم الذين يملأون المساجد ويحجّون كل عام ويصومون رمضان بمكة في كثير من الأحيان ، لأن الحج والعمرة أصبحا نزهة وتجارة لديهم !! وتجد هؤلاء المُصَلّين مَنْ يَتَّجُر بالمحرّمات ، دون التفات إلى ما يجوز بيعه شرعاً مما لا يجوز .

فنجدهم يتاجرون أيضاً في الأشياء الممنوعة التي يترتب عليها الإفساد في الدين والإضرار بالمسلمين .

ومن ذلك أنهم لا يرجعون للعلماء في حل مشاكلهم ومصائبهم وقضاياهم إنما يلجأون للعرّافين والمشعوذين والكهان والسحرة ، ويتعلّقون بالخرافات الواهية المنافية للعقل والدين ، فذلك دينهم الذي يموتون عليه ولا يسمعون فيه نصيحة ولا يخافون لومة لائم .

ومن ذلك تشبههم بالكفار والغربيين ، ومن تشبّه بقوم فهو منهم ، حتى نجد مَنْ لا يفهم الإنجليزية مثلاً يستمع للأغاني الغربية تقليداً لا بصراً وتحقيقاً ، ونرى الشباب اليوم أيضاً وقد ركضوا وراء الغربيين حتى في حلاقتهم لشعورهم فنرى

أحدهم قد حلق حول رأسه وترك أعلى رأسه دون حلق ، وهذا هو القزع الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال : « احلقوه كله أو اتركوه كله » .

وكل ذلك سَبَّبَ لهم الوقاحة وقلّة الحياء لذا أصبح صغيرهم لا يوقّر كبيرهم وجاهلهم لا يحترم عالمهم ، وفاسقهم لا يستحي من صالحهم ، وأولادهم لا يمتثلون أوامر الآباء ولا يقيمون لهم وزناً للاشتراك في الفسق ، وفقد المُرَبين والمعلّمين المتقين المخلصين ، ولذلك نرى الجاهل يدخّن أمام العالم في المواقف المحترمة ، والعامي البليد يقول لصاحبه لا تقل للعالم ولمن هو أكبر منك سناً (يا سيدي) ، بل (سيدي وسيدك الله) وكأنه يعرف الله تعالى أو يمتثل أمره سبحانه أو يعظمه !! ولا حوّل ولا قوّة إلا بالله !!

فغياب العقيدة وعدم تطبيقها في الساحة عند العامّة ونوم العلماء المربين هو السبب الذي آل بالناس إلى ما ذكرنا ، ونحن نرجو الله تعالى أن نكون هداة مهديين لا ضالين ولا مضلّين دعاة للخير مصلحين ، ياالله يارب العالمين .

القضية الثانية : عدم جواز خوض الإنسان المسلم وتجرئه في الحكم على الأمور دون علم بها ، أي عدم جواز إعطائه الحكم وإفتائه في أمر يجهل حكمه ولم يدرسه ويستوعبه ولم يُحِط به من جميع أطرافه وقد نصت الشريعة على تحريم الإفتاء بغير علم ... وقد وردت نصوص مشهورة ومعلومة في القرآن والسنة منها قوله تعالى ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم** ﴾ الإسراء : ٣٦ وقال تعالى : ﴿ **وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم** ﴾ النور : ١٥ .

القضية الثالثة : ينبغي أن يستعمل الإنسان عقله وان لا يكون إمَّعَةً يُفكر بعقل غيره ، بل ينبغي لمن أراد أن يخرج من دائرة الحيرة والشك والضياع أن يستخدم عقله وينبذ التقليد ، فالتقليد لا يأتي بخير ، ونعني بالتقليد هنا أن يبقى الشخص مُقْنِعَاً نفسه بأنه لن يصل إلى مقام العلماء ، أو الصالحين الأتقياء ، أو أنه قاصر عن الوصول للفهم المراد ، أو استيعاب الأمور على ما يراد ، وليس له إلا

الهرب ، وهنا يكمن السقوط والعطب .

القضية الرابعة : ترك التميّع في العقيدة والفقه الإسلامي ، فلا يجوز لإنسان أن يقول : هذه مسألة اختلف الناس فيها فلي أن أعمل بما شئت من الأقوال الواردة فيها ، ولي أن أتخير من المذاهب ما وافق مرامي ومرادي ، بل يحرم عليه ذلك ، فإن كان المسلم مقلّداً لمذهب من المذاهب الأربعة لا يستطيع النظر والاجتهاد فيجب عليه أن يقلّد إمامه الذي ينتسب إليه ، وإن كان قادراً على النظر والاستدلال والاجتهاد فيجب عليه أن يأخذ بالصحيح الراجح من حيث الدليل وإلا فهو آثم بالإجماع ودلائل الكتاب والسنة .

كما لا يحل ولا يجوز له أن يتهرب ويتفلّت من القضية محتجاً بأنهم اختلفوا في المسألة والأولى الابتعاد ، فإن تهرّب كان آثماً لقوله تعالى ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله** ﴾ الحجرات : ٩ .

انظر كيف أَمَرَ الله تعالى في هذه الآية المؤمنين أن يبحثوا عن الطائفة التي على الحق وينصروها ، لأن نصر الحق واجب ؛ ولا يجوز لهم أن يعتزلوا الطوائف لأجل الخلاف وينصروها ، لأن نصر الحق واجب ولا يجوز لهم أن يعتزلوا الطوائف لأجل الخلاف بل يجب عليهم البحث عن الحق والقول به ونصرته والإصلاح .

وقد ذكرت في كتابي « صحيح صفة صلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم » ص (١٧ ـ ٢٢) الأدلة الشرعية ونصوص العلماء الدالة على وجوب الأخذ بالحق وبالصحيح من الأقوال وترك غيرها وعدم التلفيق واتّباع الرُّخَص والتأويلات الفاسدة ، وإنني أرى أن أنقل ذلك الفصل هنا لشدّة أهميته في دفع التميع والتسيب الذي وصفه الإمام الطحاوي بقوله (فيتذبذب بين الكفر والإيمان ، والتصديق والتكذيب ، والإقرار والإنكار ، موسوساً تائهاً شاكّاً ، لا مؤمناً مصدّقاً ولا جاحداً مكذباً) . فأقول وبالله التوفيق :

فصل

في تحريم تَتَبُّعِ رخص العلماء وإفتاء الناس بالأسهل والأهون

اعلم يرحمك الله تعالى أنه يحرم على الإنسان المسلم أن يُلَفِّقَ بين الأقوال ويتتبَّع رخص العلماء ، ويبحث عن الأسهل والأهون الذي يُلَبِّي له شهواته وأغراضه حيث يختار لنفسه الأسهل والأهون من غير دليل مُعْتَبَر شرعاً !! يُرَجِّحُ أو يصحح تلك المسألة وإنما هو هوى النفس المجرّد الذي يغطيه ويستره بِحُجَّةِ أنَّ في « المسألة قولان » !! واختلفوا فيها !!

والإنسان الذي يتظاهر باتّباع أقوال العلماء فينتقل من مذهب إلى مذهب ويقفز من قول إلى قول لتلبية شهوات نفسه وإن تَغَطَّى وتستَّر أمام الناس بالشريعة والاقتداء بالعلماء ، فإنه في الحقيقة عند الله تعالى مُتَّبِعٌ لهواه يركض وراء شهوات نفسه ، قال تعالى : ﴿ **أفرأيت مَنِ اتَّخذَ إلهه هواه أَفَأَنْت تكون عليه وكيلاً ، أم تَحسَبُ أنَّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضَلُّ سبيلاً** ﴾ الفرقان : ٤٤ وقال تعالى ﴿ **أفكلَّما جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفُسُكُم استكبرتم** ﴾ ؟! البقرة : ٨٧ ، وقال تعالى : ﴿ **كلَّما جاءهم رسولٌ بما لا تهوى أنفُسُهُم فريقاً كذّبوا وفريقاً يقتلون** ﴾ المائدة : ٧٠ ، وقال تعالى : ﴿ **فلا تتَّبعوا الهوى وإن تَلْووا أو تعرضوا فإنَّ الله بما تعملون خبيراً** ﴾ النساء : ١٣٥ ، وقال تعالى : ﴿ **ولا تتَّبِعِ الهوى فيُضلَّكَ عن سبيل الله** ﴾ سورة ص : ٢٦ ، وذم الله رجلاً في كتابه العزيز كان عالماً في قومه فقال : ﴿ **أخْلَدَ إلى الأرض واتبع هواه** ﴾ الأعراف : ١٧٦ ، وقال تعالى : ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطاً** ﴾ الكهف : ٢٨ ، وقال تعالى ﴿ **فاعلم أنّما يتّبعون أهواءهم ، ومَنْ أضَلُّ مِمَّن اتَّبع هواه** ﴾ القصص : ٥٠ ، وقال تعالى ﴿ **ثُمَّ جعلناك على شريعة من الأمرِ فاتّبِعْها ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذين لا يعلمون** ﴾ الجاثية : ١٨ ، وقال تعالى ﴿ **ولا تتّبعوا أهواء قَوْمٍ قد ضَلُّوا من قبل**

وأضَلُّوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ المائدة : ٧٧ .

فمن هذه الآيات الكريمة نعلم علماً مؤكداً بأنَّ من أصول الدين عدم اتّباع الهوى ، وتَتَبُّعُ رخص العلماء نوع من أنواع اتباع الهوى فهو محظور لذلك ومحرّم كما سيتبين لك من كلام العلماء الذي سيأتي إن شاء الله تعالى .

وعن سيدنا أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمكاره ، وحُفَّتِ النار بالشهوات » رواه مسلم (٤/ ٢١٧٤) .

ومُتَتَبِّعُ رخص العلماء وأقوال الناس راكض وراء شهواته ، وقد أجمع العلماء الذين يُعْتَدُّ بهم على تحريم التساهل في الفتوى والحَيْدِ عن القول الصحيح الراجح ، فيجب على مَنْ كان مجتهداً أن يتبع الدليل وعلى مَنْ كان مُقَلَّداً أن يَتْبَعَ الصحيح الراجح المعتمد في مذهب إمامه ، وإليك نصوص العلماء في هذا المعنى :

١ ـ **قال الحافظ ابن عبد البر في** « جامع بيان العلم وفضله » (٢/ ١١٢) بعد أنْ روى قولَ سليمان التيمي « لو أخذتَ برخصة كُلِّ عالِمٍ اجتمع فيك الشر كله » ما نصه : « وهذا إجماع لا أعلم فيه خلافاً » .

٢ ـ وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى في « شرح المهذب » (١/ ٥٥) : « لو جاز اتّباع أيِّ مذهب شاء لأفضى إلى أن يَلْتَقِطَ رُخَص المذاهب مُتَّبِعاً هواه ، ويتخيَّر بين التحليل والتحريم والوجوب والجواز وذلك يؤدّي إلى الانحلال من رَبْقَةِ التكليف » انتهى .

وقد نصَّ على ذلك أيضاً الحافظ ابن الصلاح رحمه الله تعالى في كتابه « أدب المفتي والمستفتي » (١/ ٤٦) .

٣ ـ **وقال الإمام النووي** رحمه الله تعالى أيضاً في « شرح المهذب » (١/ ٤٦) : « يَحْرُمُ التساهل في الفتوى ، ومَنْ عُرِفَ به حَرُمَ استفتاؤه » انتهى .

٤ ـ **وقال العلامة الشاطبي في** « الموافقات » (٤/ ١٣٤) : « ... فإنَّه يُفْضِي إلى تَتَبُّع رُخَص المذاهب من غير استناد إلى دليل شرعي ، وقد حكى ابن حزم الإجماع على إنَّ ذلك فسق لا يَحِلُّ » انتهى .

وقوله (من غير استناد إلى دليل شرعي) أي مُعْتَبَرٍ ، وإلا فتارك الصلاة قد

يَحْتَجُ بقوله تعالى ﴿ **فويلٌ للمصلين** ﴾ !!

٥ ـ **وقال الحافظ الذهبي** في « سير أعلام النبلاء » (٨/ ٩٠) :

[ومَنْ تتبَّعَ رُخَص المذاهب وزلّات المجتهدين فقد رقَّ دينه ، كما قال الأوزاعي وغيره : « مَنْ أخذ بقول المكيين في المتعة ، والكوفيين في النبيذ ، والمدنيين في الغناء ، والشاميين في عصمة الخلفاء ، فقد جمع الشر » وكذا مَنْ أخذ في البيوع الربوية بمن يتحيَّلُ عليها ، وفي الطلاق ونكاح التحليل بمن توسَّعَ فيه ، وشبه ذلك فقد تعرّض للانحلال ، فنسأل الله العافية والتوفيق] انتهى بنصه .

٦ ـ **وقال الإمام الحافظ تقي الدين السبكي** في « فتاواه » (١/ ١٤٧) فيمن يتتبَّع رُخَصَ المذاهب : « يَمْتَنعُ لأنَّه حينئذٍ مُتَّبِعٌ لهواه لا للدين » .

ويدخل في ذلك مَنْ يَنْتَقي الأقوال ويتتبعها في المذهب الواحد حسب مزاجه .

[تنبيه] : استدلَّ بعض الناس اليوم على جواز تتبّع الرخص والأخذ بالأسهل بقول السيدة عائشة رضي الله عنها « ما خُيِّرَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما » وهذا الاستدلال خطأ محض !! قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٦/ ٥٧٥) في شرحه :

[(بين أمرين) : أي من أمور الدنيا ، يدلُّ عليه قوله « ما لم يكن إثماً » لأنَّ أمور الدين لا إثم فيها ...] انتهى فتدبّر !!

وذلك لأنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم تكن أمَامَهُ مذاهبٌ وأقوال فينتقي منها ، إنما كان ينزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم الوحي فيقول له : إن الله يأمرك بكذا وينهاك عن كذا ولم يقل له قط في هذه المسألة قولان أو ثلاثة أقوال !! أو اختلف فيها أهل العلم فَخُذْ بالأسهل والأهون !! فتدبّر !!

وإنما كان صلى الله عليه وآله وسلم إن نزل مثلاً على رجل ضيفاً فقال له : هل آتيك يا رسول الله بخلٍّ أو لحم فكان يقول له صلى الله عليه وآله وسلم إيتني بالأيسر عليك .

وبذلك يتبين أن المحتج بقول السيدة عائشة « ما خُيِّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما » لا يعرف الاستدلال أو يريد أن يوهم العامة ـ تلبيساً ـ أنَّ ما جاء به

يصلح أن يكون دليلاً لما يريد !! والله المستعان .

ومن هذا الباب أيضاً استدلال بعض المعاصرين بسماحة الشريعة الإسلامية !! ونحن نقول : لا يُنْكِرُ عاقلٌ سماحةَ الشريعة ، إنما ننكر كما يُنْكر الأئمة من أهل العلم التوصل بمثل هذه العبارات إلى استحلال ما هو محرم أو تَتَبُّع الرخص والتأويلات الباطلة !! ومعنى سماحة الشريعة الإسلامية مثلاً أن الله تعالى خَفَّفَ على المريض فأجاز له أن يصلي قاعداً ونائماً ومضطجعاً ، ورخَّص لمن لم يجد الماء للوضوء أو للغسل أو خاف من استعماله ضرراً أن يتيمم ، وهكذا ، وليس معنى ذلك أن يُلَفِّق ويَتَّبِعَ رُخَصَ العلماء والأقوال الضعيفة أو الباطلة !!

نقل الحافظ الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٣/ ٤٦٥) عن الإمام الحافظ إسماعيل القاضي رحمه الله تعالى أنه حدّث بأنه دخل على الخليفة المعتضد يوماً حيث قال : « ودخلتُ مرّة ، فدفع إليَّ كتاباً ، فنظرت فيه ، فإذا قد جُمِعَ له فيه الرخص من زلل العلماء ، فقلت : مُصَنِّفُ هذا زنديق . فقال : ألم تصح هذه الأحاديث ؟! ؛ فقلت : بلى ، ولكن من أباح المسكر لم يبح المتعة ، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء ، وما من عالم إلا وله زلّة ، ومن أخذ بكل زلل العلماء ذهب دينه ، فأمر بالكتاب فأُحرق » .

ولنا رسالة خاصة في المنع من تتبع رخص العلماء وأخذ الأقوال بالتشهي ، فلتنظر !! والله الهادي .

[فائدة] : وأما حديث « اختلاف أُمَّتي رحمة »[١١] فحديث موضوع ، وحديث « إنَّ الله يُحبُّ أن تُؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه »[١٢] فلا دلالة فيه على تتبع رُخص العلماء وإنما فيه إن صح ولا أراه كذلك !!الأخذ بالرخصة

---

[١١] أورده الحافظ المحدّث السيد أحمد ابن الصدّيق الغماري في كتابه « المغير على الأحاديث الموضوعة في الجامع الصغير » ص (١٦ ـ ١٧) . ونَصَّ على وضعه .

[١٢] رواه أحمد (٢/ ١٠٨) وابن حبان في صحيحه (٦/ ٤٥١) والبيهقي (٣/ ١٤٠) وغيرهم من حديث ابن عمر وابن عباس وابن مسعود ، والصحيح عندنا أنه موقوف ، وقد أخطأ من صححه مرفوعاً ، ورواه عبدالرزاق في « المصنف » (١١/ ٢٩١) من قول الشعبي .

التي رخّصها الله تعالى في كتابه لعباده ، كالتيمم عند فقد الماء ، والإفطار للمسافر والمريض في رمضان ونحو ذلك مما هو معلوم ومشهور ، وفَرْقٌ بين هذه الأمور وبين مَنْ يركض وراء التلفيق واتباع رخص العلماء وأقوالهم التي يصيبون في بعضها ويخطئون في بعضها ، فافهم هداك الله تعالى .

[تنبيه مهم] : وينبغي أنْ نُنَبِّه هنا إلى أنَّه بعدما تقرر بأنَّ تتبُّع رخص العلماء والتأويلات الباطلة وتلفيق الأقوال وكذلك الإفتاء بالأسهل والأهون فسق بالإجماع وهو منهي عنه في القرآن والسنة ، فلا يُلْتَفَتُ إلى قول الذاهب إليه ولا يقام له وزن .

نقول مع ذلك إننا نحترم كل قول أو مَذْهب بعيد عن الهوى والعصبية المجرّدة ولو خَالفنا طالما أن صاحبه يبتغي به وجه الله تعالى فيما يَظْهَرُ لنا ، ويَبْذُلُ وُسعَهُ في الاجتهاد للوصول إلى الحق وقد توفَّرت فيه أهلية النظر وآلة الاجتهاد ، ما دام بعيداً عن الشذوذ وعن مخالفة إجماع الأمة .

أما مَنْ اجتهد في غير مواضع الاجتهاد كمن اجتهد في مورد النص بعد ثبوته المطلوب في مثل بابه ، أو خالف إجماع المسلمين ونصوص الكتاب والسنة زاعماً أنه مجتهد وأن له أجراً إن أخطأ وأجرين إن أصاب !! محاولاً أن يَظْهَرَ بمظهر فحول العلماء وهو يحكي بانتفاخه صولة الأسد ! ويدّعي أنه مُجَدِّدٌ ومُبْتكر صاحب فكر ناضج !! مع كونه مفلساً في الحقيقة فهذا مما لا يقام له وزن مع كونه آثماً فيما أقدم عليه مُضَلِّلاً لغيره فيما هو فيه !! فلا يُلْتَفَتُ إلى كلامه بل يُرمى في كل حزن ووعر ولله الأمر من قبل ومن بعد .

قواعد وأصول
في العقيدة والتوحيد

علم التوحيد

تعريفه وأهميته وموضوعه

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله : الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجَنَان . وأن جميع ما أنزل الله في القرآن وجميع ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الشرع والبيان : كله حق . والإيمانُ واحدٌ ، وأهله في أصلِهِ سواءٌ ، والتفاضل بينهم بالخشية والتُّقَى ، ومخالفة الهوى ، وملازمة الأولى . والإيمان : هو الإيمان بالله ؛ وملائكته ؛ وكتبه ؛ ورسله ؛ واليوم الآخر ؛ والقدر خَيْرِهِ وشرِّهِ ، وحُلْوِهِ ومُرِّهِ ، من الله تعالى ونحن مؤمنون بذلك كله) .

الشرح :

قال الله تعالى في كتابه الكريم : **﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ، قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين ، قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾** الأنعام : (١٦١ ـ ١٦٤) .

/ فهذه الآيات فيها حث من الله سبحانه على الدخول في الإسلام واتباع شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم والاقتداء به ، وهو الذي على ملة أبيه سيدنا إبراهيم عليه السلام وفيها حضٌّ على الثبات على ذلك والإخلاص لله في الأعمال الشرعية وأن أعمال الإنسان من خير أو شر سيحاسب عليها . وقال تعالى : **﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملّة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾** النساء : ١٢٥ ، وقال تعالى : **﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾** النحل : ١٢٣ .

وقال تعالى : ﴿ قُل صدق الله فاتبعوا مِلة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ، إن أوّل بيتٍ وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدىً للعالمين ، فيه آيات بيناتٌ مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ، قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعلمون ، قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداءُ وما الله بغافل عمَّا تعملون ، يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أُتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تُتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم ، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حُفْرَةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أُمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأُولئك هم المفلحون ﴾ آل عمران : (٩٥ ـ ١٠٤) .

وقال جل جلاله : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأُمي إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ، ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ، ولا أعلم ما في نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ، أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنتُ عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد ﴾ المائدة : (١١٦ ـ ١١٧) .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك مِنْ رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ الأنبياء : ٢٥ ، فهذه الآيات فيها وجوب الإيمان بالله تعالى وأن هذا الأمر قد بعث به جميع الأنبياء .

وقال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ، فمن تولى بعد ذلك

فأولئك هم الفاسقون ، أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ آل عمران : (٨١ ـ ٨٣) .

وهذه الآيات فيها وجوب الإيمان بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأن الله أخذ العهد والميثاق بالإيمان به على جميع الأنبياء وأن يأمروا أممهم بذلك .

وقال تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ آل عمران : ١٩ .

وقال تعالى : ﴿ **ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين** ﴾ آل عمران : ٦٧ .

وقال تعالى : ﴿ **قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ، كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين ، أُولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ، إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفروا لن تقبل توبتهم وأُولئك هم الضالون ، إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أُولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين** ﴾ آل عمران : (٨٤ ـ ٩١) .

وهذه الآيات فيها الإيمان برسالة جميع الأنبياء وضلال مَنْ كَفَرَ بواحدٍ منهم وأنهم جميعاً يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وفيها بيان حال المرتدين وحكم من مات على الردة والعياذ بالله تعالى ومن تاب .

وهذه الآيات المتقدّمة بمجملها فيها أصول التوحيد وقواعده وهناك آيات كثيرة أخرى في ذلك أيضاً يمر بعضها إن شاء الله تعالى في هذا الكتاب عند التعرض للمسائل المتعلقة بها .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « مَن شهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبدالله ورسوله

وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » . رواه البخاري (٣٤٣٥) ومسلم (٢٨) .

ومعنى قوله في الحديث (وكلمته ألقاها إلى مريم) أي بشارته أرسلها بواسطة المَلَك إلى السيدة مريم قبل أن تحمل به ، قال الله تعالى : ﴿ **إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين** ﴾ آل عمران : ٤٥ ، والمعنى الشمولي لذلك أن سيدنا عيسى خلقه الله تعالى بقدرته من غير أب لأنه سبحانه ﴿ **إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ آل عمران : ٤٧ ، وهو قوله تعالى أيضاً : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ آل عمران : ٥٩ .

ومعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم فيه « **وروح منه** » أي أن المسيح عليه السلام روح من الله خَلْقَاً وتكويناً ؛ لا جزءاً ، وهذا مثل قوله تعالى ﴿ **وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه** ﴾ الجاثية : ١٣ ، فقوله هنا في الآية الكريمة (منه) كما هو ظاهر أي : منه خلقاً وتكويناً لا جزءاً ، والله تعالى ليس روحاً لأن الروح مخلوقة والله سبحانه ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ الشورى : ١١ .

ومثل هذا قوله تعالى ﴿ **ونفخت فيه من روحي** ﴾ الحجر : ٢٩ ، أي ونفخت فيه من الروح التي خلقتها وأضفتها إليَّ لأُشرِّفها ، وهذا مثل إضافته سبحانه البيت العتيق إليه في قوله ﴿ **أنْ طَهِّرا بيتيَ** ﴾ وقوله في الناقة ﴿ **فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها** ﴾ الشمس : ١٣ .

فمن اعتقد بعد هذا بأن الله سبحانه وتعالى روح وأنه اجتزأ من تلك الروح قطعة فكانت سيدنا آدم أو سيدنا عيسى أو غير ذلك فقد كفر وارتدَّ ، فهذا معنى الحديث وهو من الأحاديث المهمة في هذا الباب .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في « فتح الباري شرح صحيح البخاري » (٦/ ٤٧٥) :

« قال النووي(١٣) : هذا حديث عظيم الموقع وهو أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد ، فإنه جمع فيه ما يُخْرِجُ عن جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها ، وقال غيره : في ذكر عيسى تعريض بالنصارى وإيذان بأن إيمانهم مع قولهم بالتثليث شرك محض ، وكذا قوله (عبده) ... تعريض باليهود في إنكارهم رسالته وقذفه بما هو منزّه عنه وكذا أمه » انتهى .

فصل

تَبَيَّنَ من الآيات والحديث المتقدّم أنّ علم أصل الدين هو علم التوحيد ، وهو أجلُّ العلوم وأشرفها وأعظمها على الإطلاق ؛ وتَعَلُّمُهُ وتعليمه من أهم الواجبات لقوله تعالى : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلاّ الله** ﴾ ، ولقوله تعالى : ﴿ **ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنّا أعتدنا للكافرين سعيراً** ﴾ .

وكيف يمكن علم لا إله إلا الله ، والإيمان بالله عزّ وجل ورسوله دون تعلم هذا العلم الذي يتميز به المؤمن المسلم عن غيره ؟! ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ وهل يتصور أن يعرف العبد ما يجب لله عزّ وجلّ وما يجوز وما يستحيل دون العكوف على دراسة القواعد التوحيدية الموجودة في الكتاب الكريم والسنة المطهرة وتفهمها جيداً ؟!

ومن ابتعد عن معرفة هذه المعارف والعلوم التي أمرنا الله عز وجل بمعرفتها وطلب علمها استحق أن يقال له يوم القيامة توبيخاً وتقريعاً ، كما قال تعالى : ﴿ **أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أمّاذا كنتم تعملون** ﴾ وتلخيصاً لفضل علم التوحيد قال أحد العلماء :

أيها المغتدي لتطلب علماً ... كل علم دون علم الكلام
تطلب الفقه كي تصحح حكماً ... ثم أغفلت مُنْزِلَ الأحكام

معنى البيتين :

---

(١٣) أي : في « شرح صحيح مسلم » (١/ ٢٢٧) .

أي أيها الطالب الغادي أي الذاهب لطلب العلم ، اعلم أنَّ جميع العلوم في الأهمية دون علم التوحيد وأنّه هو أعظمها ، وإنني أسألك كيف تطلب تصحيح الأحكام الشرعية وأنت لم تعرف بعد ولم تتعرف بحق على الآمر بتنفيذها وهو الله سبحانه وتعالى الذي أنزلها ، ولذلك قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : « لا تصح العبادة إلاّ بعد معرفة المعبود » .

وقال الإمام المَقَّري في الإضاءة :

وعلمُ أصل الدين مشهورُ الشَرَفْ   وفضلُهُ المنثور ماله طَرَفْ
وكيف لا وهو المفيدُ للورى   علماً بمن أنشاهم وصوّرا
فعلمه على البرايا انحتما   وبالنجاة فاز مَنْ له انتمى
لأنّه بنوره يُنْقِذُ مِنْ   ظلمةِ تقليدٍ فنفعه ضَمِنْ

فلنشرع في تعريف هذ العلم ورسم حدود هذا الفن قبل أن نبدأ بالاسترسال في شرح مسائله وقضاياه وإيضاحها وبيانها لنتصوّره تصوّر العاقل العالم المُدْرك قبل الدخول فيه ، وقد جمع بعض العلماء ما ينبغي أن يُعرف عن كل علم قبل الدخول فيه في أبيات ثلاثة فقال :

إنَّ مبادي كلّ فنٍّ عَشَرَهْ   الحدُّ والموضوعُ ثُمَّ الثمرَهْ
وفضلُهُ ونسبةٌ والواضعْ   والاسم الاستمداد حكم الشارعْ
مسائل والبعض بالبعض اكتفى   ومَنْ درى الجميع حاز الشرفا

معنى الأبيات : اعلم أن مبادئ أي أُصول أو أطراف كل فنٍ عشرة ينبغي لطالب ذلك الفن أن يعرفها قبل الدخول فيه :

(أوّلها) : الحد : أي التعريف ، وتعريف علم التوحيد هو : علم يستطيع مَنْ تَعَلَّمَهُ أن يُثْبتَ به العقائد الدينية بالأدلة اليقينية القطعية من الكتاب والسنة والإجماع والعقل(١٤) ، وأنْ يُلْزِمَهَا لغيره ، أي يقنع بها غيره بدفع الشُبَه التي يوردها

---

(١٤) يظن بعض المعاصرين أنَّ العقل لا يصح أن يكون من الأدلة الشرعية وخصوصاً في التوحيد ، وأن اعتباره من الأدلة نوع من الاعتزال ، وهذا خطأ فادح وكلام لا قيمة له ، لأن العقل

أيُّ إنسان ، وإيراد الحجج والبراهين والأدلة عليه .

(ثانيها) : الموضوع : علم التوحيد هو ذات الله تعالى من حيث ما يجب في حقه سبحانه وما يجوز وما يستحيل ، وذات الرسل عليهم الصلاة والسلام من حيث ما يجب في حقهم وما يجوز وما يستحيل ، وكذلك من موضوعه الأُمور السمعية وهي الغيبيات كالملائكة والجن والحشر والجنة والنار ونعيم القبر الذي هو في البرزخ حقيقة وكَنَفْي كون الملائكة عليهم السلام إناثاً وغير ذلك مما سيمر إن شاء الله تعالى .

(ثالثها) : الثمرة : وثمرة التوحيد هو معرفة الله تعالى بالأدلة القطعية والفوز بالسعادة الأبدية .

(رابعها) : فضله : فضل التوحيد أنَّه أشرف العلوم وأفضلها كما تقدّم لِتَعَلُّقِهِ بذات المولى سبحانه وتعالى ، وكذا ذات الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين هم من أفضل الخلق .

(خامسها) : نسبته : نسبة هذا العلم لباقي العلوم أنه أصل العلوم جميعها فباقي العلوم تعتبر فروعه وممن أوضح ذلك الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في مقدمة كتابه « المستصفى » من علم الأصول .

(سادسها) : الواضع : واضع علم التوحيد حقيقة هو الله عز وجل لأنّه أرسل الرسل والأنبياء به من لدن سيدنا آدم حتى سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد حاجَجَتِ الانبياءُ بهذا العلم الشريف وجادلت به الطغاة والكفرة حتى أفحمتهم ، كسيدنا إبراهيم في مناظرته للنمروذ وسيدنا موسى في مناظرته

أساس التكليف ، وقد أرشد الله عز وجل في كتابه الكريم في آيات كثيرة إلى تعين الاستدلال به منها قوله تعالى ﴿ **إنَّ شرَّ الدوابِّ عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون** ﴾ سورة الأنفال : ٢٢ .

وبالجملة فإن القرآن يحض على تشغيل العقل واستعماله وعدم إهماله في أمر من الأمور ، حتى أن الإيمان بالغيب الذي لا يستطيع العقل أن يدركه لا يتم إلا باستعمال العقل ، وأيضاً مثل قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ مسألة توحيدية وهي مفوّضة للعقل في تنزيه الله عزّ وجل عن كل شيء يمكن أن يدركه العقل وسيأتي ذلك موسعاً موضحاً في فصل خاص مع الأدلة إن شاء الله تعالى والله الموفق .

لفرعون ، ومن ذلك قول الله تعالى لسيدنا رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ **وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ . وقوله له ﴿ **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ .

وأما واضع مسائله أي الذي رتّبها ووضعها في مصنّفات خاصة لهذا العلم فجماعة من أئمة آل البيت جمعوا أقوال سيدنا علي عليه السلام كسيدنا زيد بن علي عليه السلام والإمام الصادق ثم الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى ورضي عنه ، وبعده ابن كُلاَّب وعلى مذهبه كان البخاري كما نص على ذلك الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١/ ٢٤٣) ثم جاء البخاري فصنّف فيه كتاب « خلق أفعال العباد » ثم صنّف فيه جماعة من أئمة المعتزلة ثم جاء أبو الحسن الأشعري فألف فيه وصنّف المصنّفات في الرد على المشبهة والمجسمة والجهميّة وكذا ردَّ على المعتزلة وأورد شبه خصومه وردّ عليها ، إلا أنه أخطأ في مسائل ردَّ فيها على المعتزلة لأن الصواب فيها قولهم لا قوله . فقال جماعة من أهل العلم خطأً حينئذٍ أبو الحسن واضع هذا العلم ، وليس كذلك .

(**سابعها**) : **الاسم** : أي أنَّ معرفة اسم العلم الذي نريد الخوض فيه ودراسته من المهمات ، تماماً مثل معرفة اسم مؤلف كل كتاب نريد قراءته وكذا معرفة مذهبه وما يتصل بذلك من المهمات .

فاسم هذا العلم كما هو معلوم « علم التوحيد » أي شهادة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) المعبّر عنها بكلمة التوحيد أو جملة التوحيد .

إذن علم التوحيد هو معنى جملة التوحيد (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله) وما يتصل بها من أبحاث ، ولذلك سمي علم التوحيد .

وأما ما قاله بعضهم من أنَّ هذا العلم سُمّيَ بعلم التوحيد لأنَّ مبحث الوحدانية من أهم مباحثه فضعفه ظاهر وفيه نظر .

وسُمّيَ بعلم الكلام لأنَّ الذي يريد أن يتكلم في مسائله يحتاج لكلام كثير حتى يثبت الحق ويبطل الباطل عند ظهور المبتدعة وأشباههم .

(**ثامنها**) : **الاستمداد** : استمداد هذا العلم ومصادر أدلته من الكتاب والسنة

والإجماع والعقل كما سيأتي دليل ذلك إن شاء الله تعالى .

(تاسعها) : حكم الشارع فيه : الوجوب ، وهو فرض عيني على كل مسلم بحسب الطاقة . بدليل قوله تعالى : ﴿ **ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنَّا أعتدنا للكافرين سعيراً** ﴾ وبدليل أنَّ الله تعالى بعث جميع الأنبياء بتقرير التوحيد ودعوة الناس إليه ونبذ التشبيه وتنزيه الله سبحانه عما لا يليق به ، يوضح ذلك قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ وقوله ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون** ﴾ .

(عاشرها) : قول ناظم الأبيات **(مسائلٌ)** أي مسائل هذا العلم هي القضايا التي تبحث فيما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الله سبحانه وتعالى وكذلك في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، والسمعيات أي الأمور الغيبية وما يحدث في المستقبل من حيث تصديقها . (والبعض) من العلماء اكتفى (بـ) معرفة (البعض) من هذه المسائل العشر ، (و) لكن (مَنْ درى الجميع) بتمامها (حاز الشرفا) أي كمال العلم المطلوب ، والله الموفق .

تكملة في كلام العلماء فيما يتعلق بمعنى التوحيد وتعريفه :

اعلم أنَّ من معاني الدين : التوحيد والعقيدة وهو صريح في حديث البخاري (٣٤٤٣) : « الأنبياء إخوة لِعَلّات أُمهاتهم شتى ودينهم واحد » ورواه مسلم أيضاً (٢٣٦٥) .

ويأتي الدين بمعان أخرى منها : الطاعة والعبادة ، والجزاء والحساب كما يطلق أيضاً : على ما شرعه الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من أحكام . والدين ما ينقاد الإنسان له سواء كان حقاً أو باطلاً فيقال : أديان باطلة ومحرمة ودين صحيح هذا تعريفه اللغوي .

وأما التعريف الشرعي للدين : فهو وضع إلهي يسوق أهل العقول السليمة بعد إرشادهم دون إكراه بل باختيارهم المحمود إلى ما هو خير لهم في الدنيا والآخرة .

واعلم أن علامات الدين في الإنسان أي العلامات الدالة على تدينه بالدين الصحيح المقبول عند الله تعالى وهو الإسلام أربعة : كما قال الإمام النووي : **الأولى** : صدق قصده وعلامته أداء العبادة بالنية والإخلاص . **والثانية** : وفاء العهد وعلامته الإتيان بالفرائض . **والثالثة** : ترك المناهي ، وعلامته اجتناب المحرمات . **والرابعة** : صحة العقد : وعلامته الجزم بعقائد أهل الحق والإنكار على أهل البدعة .

[مسألة] : قد ذكرنا معنى الدين فيما تقدم ، وذكرنا أن من معانيه التوحيد فلنتكلم على معنى التوحيد على حسب ما يناسب المقام فنقول :

التوحيد : هو علم تَعْرِف به ما يجب في حق الله تعالى وما يجوز وما يستحيل ، وكذلك ما يجب في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام وما يجوز وما يستحيل ، وبه يتم معرفة السمعيات والإيمان بها على الوجه المطلوب شرعاً بعد معرفة وجود الله جل جلاله والإذعان والخضوع له والامتثال لرسوله ، والسمعيات هي كوجود الجنة والنار وعالم البرزخ الذي ينتقل إليه الإنسان بعد موته ويبقى فيه إلى يوم القيامة وكعذاب أهل البرزخ في البرزخ وهو المسمى بعذاب القبر مجازاً وكنعيم أهل البرزخ وكالحوض ونحو هذه الأمور مما ستمر مفصّلة إن شاء الله تعالى في موضعها من هذا الكتاب .

وأما تعريف التوحيد عند أهل السنة : فقد قال الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في « فتح الباري » (١٣/ ٣٤٤) :

[وأما أهل السنة ففسروا التوحيد بنفي التشبيه والتعطيل ، ومن ثم قال الجنيد فيما حكاه أبو القاسم القشيري : « التوحيد إفراد القديم من المُحْدَث » وقال أبوالقاسم التميمي في كتاب « الحجة » : التوحيد مصدر وَحَّدَ يُوَحِّدُ ، ومعنى وَحَّدْتُ الله : اعتقدته منفرداً بذاته وصفاته لا نظير له ولا شبيه ، وقيل وحّدته : علمته واحداً ، وقيل سلبت عنه الكيفية والكميّة فهو واحد في ذاته لا انقسام له ، وفي صفاته لا شبيه له ، وفي إلهيته وملكه وتدبيره لا شريك له ولا رب سواه ولا خالق غيره ، وقال ابن بطّال : تضمنت ترجمة الباب أن الله ليس بجسم لأنَّ الجسم

مركب من أشياء مؤلّفة] انتهى المقصود منه .

والتشبيه مضاد للتوحيد وقد ورد في الكتاب والسنة وفي كلام السلف الصالح ذم التشبيه كما سيأتي في فصل خاص إن شاء الله تعالى ؛ ومن ذلك ما روى الترمذي (٥/ ٤٥٢) والحاكم في مستدركه (٢/ ٥٤٠) بسند صحيح عن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه أن المشركين قالوا : « يا محمد أُنْسُبْ لنا ربك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ قال : الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ، وإن الله لا يموت ولا يورث ولم يكن له كفواً أحد ، قال : **لم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء** » .

قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقرّه الذهبي هناك ؛ وهو كذلك ، واستدل بالحديث الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١٣/ ٣٥٦) : ثم قال بعده مباشرة : [قال البيهقي : معنى قوله ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ ليس كهو شيء .] من « الفتح » .

وفي كتاب التوحيد للشيخ الصدوق عن سيدنا الإمام جعفر الصادق عليه السلام والرضوان أنه قال :

« من شَبَّه الله بخلقه فهو مشرك ؛ إن الله تبارك وتعالى لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء وكل ما وقع في الوهم فهو بخلافه » .

وقال الإمام القشيري في أوائل « الرسالة » :

[سمعت أباحاتم السجستاني يقول : سمعت أبا نصر الطوسي السراج يحكي عن يوسف بن الحسين قال : قام رجل بين يدي ذي النون المصري فقال : أخبرني عن التوحيد ما هو ؟ فقال :

« هو أن تعلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا مِزَاج ، وصُنْعَهُ للأشياء بلا علاج ، وعلّة كل شيء صنعه ولا علّة لصنعه ، وليس في السموات العلى ولا في الأرضين السفلى مُدبّر غير الله ، **وكل ما تصوّر في وهمك فالله بخلاف ذلك**] .

وروى القشيري بإسناده عن أبي بكر الشِّبْلي أنه قال : « الواحد المعروف قبل الحدود وقبل الحروف » . ثم قال : وهذا صريح من الشبلي أنَّ القديم سبحانه لا

حَدَّ لذاته ، ولا حروف لكلامه .

وروى القشيري عن رُوَيْم وقد سئل عن أول فرض افتراضه الله عز وجل على خلقه ما هو ؟ فقال : المعرفة ، لقوله جلّ ذِكْرُهُ ﴿ **وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون** ﴾ قال ابن عباس : إلاّ ليعرفون .

قلت : وذلك لا يتم إلا بمعرفة علم التوحيد .

وحكى القشيري أيضاً عن الجنيد رحمه الله تعالى وقد سئل عن التوحيد فقال : هو إفراد الموحَّد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته أنه الواحد الذي لم يلد ولم يولد بنفي الأضداد والأنداد والأشباه بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وقال أبو الحسن النوري : التوحيد كل خاطر يشير إلى الله تعالى بعد أن لا تزاحمه خواطر التشبيه .

وروى القشيري بإسناده أنَّ أبا عليٍّ الروذباري سئل عن التوحيد فقال : « التوحيد استقامة القلب بإثبات مفارقة التعطيل وإنكار التشبيه ، والتوحيد في كلمة واحدة : كل ما صَوَّرَتْهُ الأوهام والأفكار فالله سبحانه بخلافه ، لقوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ » .

قلت : فتحصّل من ذلك أن التوحيد : إثبات وجود الله تعالى والخضوع والتذلل له ووصفه بكل كمال في حقه وتنزيهه عن كل نقص في حقه مع مجانبة التعطيل والتشبيه ، والتصديق برسوله والإذعان والخضوع والتسليم له والعزم على الثبات على ذلك مدى الدهر .

ويجمع ذلك كله أن تقول وأنت معتقد الحق الذي جاء في القرآن والسنة الصحيحة ومخلصاً لله تعالى صادقاً محباً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فإن الله عز وجل جعل فيها سراً خفياً هو أُسُّ التوحيد .

فصل

في بيان معنى علم الكلام وحكم تعلمه وتعليمه

يروّج المجسمة والمشبّهة أنَّ علم الكلام علم مذموم وأن السلف حكموا على من يشتغل به بالبدعة والزندقة وغير ذلك من عبارات الذم ، والحق ليس كذلك والهدف من هذا الترويج أمران أو ثلاثة :

أما الأوّل : فَلِيَحْكُموا على من لا يوافقهم في آرائهم بالبدعة والزندقة دون أن يستطيع أحد أن يعارضهم ويتسنّى لهم ساعتئذٍ الخوض فيما يريدون من مسائل فلسفية كلامية .

والثاني : لِيُدْخِلُوا في قلوب العامة وأشباههم من حملة الشهادات الخوف من الخوض في تعلّم هذا العلم وتعليمه حسب الأصول من قواعده ومبادئه المعروفة التي أسسها العلماء الجهابذة استنباطاً من نصوص الكتاب والسنة .

والثالث : رمي العلماء الذين يخالفونهم في آرائهم الفاسدة والأئمة الكبار بالجهمية احتجاجاً بكلام بعض أئمة السلف الذين تنقل عنهم عبارات في ذم الكلام حيث يضعونها في غير موضعها .

إيضاح مسألة ذم بعض علماء السلف لعلم الكلام وبيان أنه محمود :

لما ظهرت المبتدعة في أواخر القرن الثاني والقرن الثالث ونشأت فرق مختلفة من طوائف المبتدعة وأظهروا أقوالاً شاذة رديئة وخصوصاً في العقائد كقول داود الجواربي ـ كما يحكون ـ في دعواه أن معبوده لحم ودم على صورة الآدمي(١٥) ودعوى الكرّامية(١٦) أن معبودهم ذو نهاية من الجهة التي يلاقي منها

---

(١٥) كما ذلك الحافظ الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٠/ ٥٤٤) وداود الجواربي هذا مبتدع ضال من السلف الطالح ترجمته في « لسان الميزان » (٢/ ٥٢٣ دار الفكر) .

(١٦) الكرامية : هم فرقة من المجسمة كانوا في القرن الثالث الهجري اتباع محمد بن كرَّام السجستاني

العرش (١٧) إلى غير ذلك من مقالات فاسدة وأقوال باطلة تجد نماذج منها في كتاب « أصول الدين » للإمام الأستاذ عبدالقاهر البغدادي (١٨) ص (٣٣٥ ـ ٣٣٨) ، فسمّى علماء الإسلام هؤلاء المبتدعة أصحاب الكلام ، أي الذين تكلّموا في أمور باطلة فاسدة زعموا أنها هي علم التوحيد الحق ، فقام الأئمة بالرد عليهم إما بالكلام الشفهي في المناظرات التي عقدوها بينهم وبين أولئك المبتدعة أو بالتصنيف والتأليف .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في « الإحياء » (١/ ٩٦) : « وأوّل مَن سَنَّ دعوة المبتدعة بالمجادلة إلى الحق : علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، إذ بعث ابن عباس رضي الله عنهما إلى الخوارج فكلّمهم فقال : ما تنقمون على إمامكم ؟! قالوا : قاتل ولم يَسْبِ ولم يغنم ، فقال : ذلك في قتال الكفار ؛ أرأيتم لو سُبِيَتْ عائشة رضي الله عنها في سهم أحدكم أكنتم تستحلّون منها ما تستحلّون من ملككم وهي أُمّكُم في نص الكتاب ؟! فقالوا : لا ، فرجع منهم إلى الطاعة بمجادلته ألفان ، وروي أن الحسن ناظر قدرياً فرجع عن القدر ... » .

بيان أنّ علم الكلام ليس مذموماً :

لقد أرشد القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى التفكّر في خلق السموات والأرض وما فيهنَّ للاستدلال بذلك النظر على وجود خالقهن الله سبحانه وتعالى وهذا هو من مبادئ علم الكلام ـ التوحيد ـ الذي نقول به ونحضُّ الناس على تَعَلُّمِهِ وتعليمه ، ومن ذلك قول الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ...** ﴾ وقال سبحانه مُثْنِياً على عباده

المتوفى (٢٥٥ هـ) .

[١٧] كما نقل ذلك أيضاً الشيخ عبدالقاهر البغدادي في كتابه « الفرق بين الفرق » ص (٣٢٣) وعبد القاهر البغدادي ممن لا يعول على كلامه كثيراً وخاصة فيما يحكيه ويقوله عن المعتزلة .

[١٨] المتوفي سنة (٤٢٩) هـ ولكنه كما قدّمنا لا يعول على ما يقوله عن الآخرين الذين هم من غير مذهبه وخاصة المعتزلة .

المؤمنين : ﴿ **الذين يتفكّرون في خلق السموات والأرض** ﴾ وقال سبحانه مبيناً أحد مسائل علم التوحيد المهمّة ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ ؛ وقال تعالى مُبيناً لنا مناظرة سيدنا إبراهيم للنمروذ في علم الكلام وإفحامه إيّاه ﴿ **ألم ترَ إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه** ﴾ إلى قوله ـ ﴿ **فبُهِتَ الذي كفر** ﴾ ، وقال تعالى في معرض الثناء على سيدنا إبراهيم عليه السلام في مجادلته وإفحامه لخصمه : ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه** ﴾ وقال سبحانه موضحاً لنا حال سيدنا نوح عليه السلام ﴿ **قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا** ﴾ وقال تعالى في قصة فرعون ومناظرة سيدنا موسى له ﴿ **وما رب العالمين** ﴾ إلى قول سيدنا موسى ﴿ **أولو جئتك بشيء مبين** ﴾ ، وبالجملة فالقرآن من أوّله إلى آخره محاجة مع الكفار ، فعمدة أدلة المتكلمين في التوحيد قوله تعالى : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ ، وفي النبوات عمدتهم قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾ وفي السمعيات والبعث قوله تعالى : ﴿ **قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرة** ﴾ إلى غير ذلك من الآيات والأدلة .

وأما السلف الصالح فقد ناظر الإمام الشافعي رحمه الله تعالى حفصاً الفرد في علم الكلام وأثبت له كلامه المذموم بالكلام المحمود وحكم بكفره[(١٩)] . وقال الشافعي رحمه الله تعالى أيضاً مبيناً ضابط علم الكلام المحمود وعلم الكلام المذموم كما في « سير أعلام النبلاء » (١٠/٢٠) :

« كلُّ مُتَكلّم على الكتاب والسنة فهو الجِدّ وما سواه فهو هَذَيان » .

أي أنَّ كل من تكلَّم في علم الكلام فأخذ من الكتاب والسنة معلوماته ولم يخالف النصوص الشرعية فهو على الحق وما سوى ذلك كمن انخراط في سلك التجسيم والتشبيه وأعراض عن قواعد تنزيه الله تعالى فهو الهاذي المخطئ .

وكذلك الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى ردّ على كثير من المبتدعة حتى قال كما في « سير أعلام النبلاء » (٧/٢٠٢) :

---

(١٩) كما يقال وهو مذكور في عدة مصادر منها « سير أعلام النبلاء » للحافظ الذهبي (١٠/٢٨ ـ ٢٩) .

« أتانا من المشرق رأيان خبيثان : جهم مُعَطِّل ، ومقاتل مُشَبِّه » .

وقد صنّف الإمام أبو حنيفة كتاب « الفقه الأكبر » وكتاب الوصيّة وغيرهما في علم الكلام على ما يقال(٢٠) .

وكذلك صنّف الإمام مالك في علم الكلام ، ففي « ترتيب المدارك » (١/ ٢٠٤) للقاضي عياض ، وفي « سير أعلام النبلاء » (٨/ ٨٨) للحافظ الذهبي ، أن الإمام مالكاً ألَّف رسالة في القَدَر كتبها إلى ابن وهب ، قال الذهبي : « وإسنادها صحيح » .

وكذلك البخاري رحمه الله تعالى صنّف في علم الكلام كتابه المشهور « خلق أفعال العباد » وهو متداول مطبوع(٢١) .

وأحمد بن حنبل الذي يُنقل عنه أنه قال : علماء الكلام زنادقة ، صنّف كتاب « الرد على الجهمية » كما تزعم المشبهة ، وموضوعه مسائل كلاميّة ، كما أنه ناظر خصومه في علم الكلام وقال : « القرآن كلام الله غير مخلوق » وهذه العبارة غير موجودة في القرآن الكريم ولا نطقت بها السنة المطهرة ، وهي من علم الكلام .

وكذلك الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى وهو من أئمة السلف (ت ٣٢١ هـ) صنَّف العقيدة الطحاوية المشهورة ونص فيها على تنزيه الله عن الحد والجهة والأعضاء فقال :

« وتعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات » .

وذكر في مقدمتها أن هذه عقيدة الإمام أبي حنيفة وصاحبيه رحمهم الله تعالى فهذه العبارة من علم الكلام المحمود بلا شك .

---

(٢٠) والتحقيق عندنا أن الإمام أبا حنيفة لم يصنف شيئاً في علم الكلام وكذا الشافعي ولكننا نورد أمثال هذا لأن كثيراً من مخالفينا يقولون بذلك .

(٢١) وأعتقد أن مقدمة الكتاب التي فيها تكفير القائلين بخلق القرآن مدسوسة على الكتاب لأن ما بعده يخالفها ! ولأن البخاري صنف الكتاب ليثبت أننا مخلوقون ومُحْدَثُون وما يصدر عنا من أعمال وأفعال وألفاظ مخلوق حادث مثلنا ، وكم من دليل رائع أتى به في ذلك الكتاب !

وهنا نسأل فنقول : إذا كان علماء الكلام زنادقة كما يُنقل عن أحمد بن حنبل فلماذا يخوض هو في علم الكلام فيقول : القرآن كلام الله غير مخلوق ؟! ولماذا يصنّف كتاب « الرد على الجهمية » كما تزعم المجسمة الذي موضوعه علم الكلام ؟!

الجواب : أن كلامه في ذم علم الكلام خاص بالمبتدعة الذين أتوا بأقوال منافية في نصوص الكتاب والسنة ومعارضة لها ؛ والإمام الشافعي رحمه الله تعالى لولا أنه من علماء الكلام ومتقن لهذا العلم ، لما استطاع أن يناظر حفصاً الفرد ويفحمه ويحكم بكفره وارتداده وهكذا .

ومن الناس مَنْ يذم تعلُّم علم العقيدة والتوحيد في هذا العصر ويقول هذه أمور خلافية والأولى الابتعاد !! ويقول : نحن على عقيدة الصحابة وعلى الفطرة ولا نريد الخوض في هذه المسائل !!

والواقع يشهد بأنَّ هؤلاء يتهربون من العلم والتعليم الذي حضَّ على تعلمه وأمر بمعرفته ربنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ، وكذا نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في سنته فيردونه بهذه الحجج الفاسدة الهزيلة .

وهؤلاء الذين يقولون بهذا القول البعيد عن هدي النبوة يخالفون في الواقع مبادئ الإسلام العامة ، والصحابة الذين مكث فيهم صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث عشرة سنة في مكة يُعَلِّمُهُم العقيدة والتوحيد حتى يُعَلِّموا الأُمة من بعده .

وهؤلاء المنكرون الذين يتهربون من تعلم العقيدة بل يحاربون تعلم العقيدة والرد على شبه الملاحدة والمبتدعة لا يعرفون عقيدة الصحابة ولا أهل الفضل المشهود لهم لو اختبرناهم أو امتحناهم !! وإنما هم يردّدون هذه العبارات دون استيعاب لها ، وأما الفطرة التي يتشبثون ويشدّقون بها فسيأتي بيان أنها حجة داحضة وسراب بِقِيْعَةٍ ، وأن الله تعالى قد هدم لهم هذا التشبث بقوله سبحانه ﴿ **والله أخرجكم من بطون أُمهاتكم لا تعلمون شيئاً** ﴾ كما سنذكر ذلك إن شاء الله تعالى في الفصل الخاص الذي فيه ذكر الأدلة الموهومة الباطلة في العقيدة ، والله الموفق .

[فائدة] : اعلم يرحمك الله تعالى أنَّ المشبهة والمجسمة وضعوا على الإمام الشافعي رحمه الله تعالى كتابين في العقيدة ليقنعوا مَنْ لم يعرف حقيقة هذا التزوير أن الإمام الشافعي وهو إمام كبير من أئمة السنة ومن السلف الصالح يقول بقولهم ويعتقد ما يعتقدون !! واسم الكتابين : الأوّل : عقيدة الشافعي ، والثاني : وصية الشافعي ، وقد طبعت وصية الشافعي حديثاً (طبعها زهير الشاويش / المكتب الإسلامي / تلميذ الشيخ المتناقض !!) سعياً من هؤلاء في إذاعة عقائد المشبهة الفاسدة ونشر الأمور المكذوبة الملفقة على أئمة السلف رحمهم الله تعالى !! في سبيل نصر بدعتهم ولو بالطرق العرجاء العوجاء الملتوية المُرْدِية لأصحابها في النهاية !!

أما الكتاب الأول : فراويه ابن كادش والعُشَاري وهما كذابان حنبليان مشهورانو**أما الكتاب الثاني** : فراويه أبو الحسن الهكّاري الملقب عند المجسمة بشيخ الإسلام !

وهو أحد الكذابين الوضاعين كما هو مدوّن في كتب الجرح والتعديل كما بينت ذلك مُفَصَّلاً في مقدمة كتاب (دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه) في الصحيفة الثانية والسبعين وما بعدها معزواً موثقاً وبالله تعالى التوفيق .

فصـــــــل

في مناقشة دعوى رجوع بعض الأئمة عن علم الكلام

اعلم يرحمك الله تعالى أن مذهب المجسمة والمشبهة مبني على إذاعة الشائعات المغرضة ونشر الترهات والأقاصيص المكذوبة مع نكولهم عن مناهضة الدليل بالدليل ومقارعة الحجة بالحجة !! وهذه الطريقة العرجاء هي شر الطرق المُرْدية لأصحابها ، التي تكشف ضعف حججهم وعدم إخلاصهم في اعتقاداتهم لأن غاية أمرهم مذاهب وأهواء شخصية يتعصبون إليها ؛ وليس ديناً قيماً حنيفاً ينافحون عنه ؛ إذ لو كان الأمر قد بني على الإخلاص والتقوى والورع والخوف من الله تعالى والحرص على التمسك بالحق والإذعان له لما سلكوا تلك المسالك الملتوية !!

ولما آل أمرهم إلى الانكشاف السيء الذي نراه اليوم !!

فإذا عرفت هذا فأقول لك : زعمت المجسمة والمشبهة أن إمام الحرمين والرازي والسمعاني وأمثالهم من أئمة الأشاعرة رجعوا آخر حياتهم عمّا كانوا عليه من الاعتقاد ! وزعموا أن هؤلاء قالوا : « نموت على ما عليه العجائز »[٢٢] !! وزعموا أيضاً أنهم أوصوا الناس بذلك !! ونحن هنا نبين إن شاء الله تعالى عدم صحة هذه الدعاوى التي انغرَّ بها علماء كثيرون فضلاً عن طلاب العلم والمبتدئين !! وينبغي أن يعرف القاصي والداني أنه لو رجع خمسة من العلماء أو عشرة أو اثنان عن مذهبهم فإن ذلك لا يعني بطلان مذهبهم القديم ؛ كما أن رجوع بعض مَنْ صحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن دين الإسلام لا يدّل على فساد العقيدة التي كان يحملها صلى الله عليه وآله وسلم ويدعو لها ؛ فقد نقل العلماء كالحافظ ابن حجر في مقدمة كتابه « الإصابة في تميز

---

[٢٢] انظر ما قررناه وبيّناه في الحجج الموهومة التي احتج بها بعض المبتدعة في العقائد والتي منها دين الصبيان والعجائز ص (٢١٠) من هذا الكتاب وقد ذكرنا هناك الكلام عن الإمام السمعاني وأن ذلك لا يثبت عنه .

الصحابة » (١/ ٨) أن ممن ارتد من الصحابة ومات على ردّته وكفره : عبيد الله بن جحش ؛ وعبدالله بن خطل ؛ وربيعة بن أمية بن خلف ؛ وكذلك ارتدَّ بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم جمع كثير فقاتلهم سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله تعالى عنه والصحابة الثابتون على الحق الذين بايعوا عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حروب طويله تسمى حروب الردة .

فرجوع بعض الأفراد عن مذهب ما لا يدل على فساد ذلك المذهب ؛ وإنما يجب علينا إذا أردنا أن نعرف فساد ذلك المذهب أو صحته أن نعرض أفكاره ومبادئه على نصوص الكتاب والسنة ؛ فإذا وجدناها موافقة للنصوص أو لها أدلة معتبرة فيتبين ساعتئذٍ أنه من مذاهب أهل الحق أو هو مذهب أهل الحق والعكس بالعكس ، وقد يكون فيه بعض الأفكار المردودة وكثير من الأفكار الصحيحة المقبولة وحينئذٍ نأخذ بالمقبول الصحيح ونترك المردود القبيح ؛ فلا تغفل عن هذا ، وإذا فهمت هذه القاعدة فلن يستطيع المبتدعة والمجسمة أن يتلاعبوا بأفكارك وعقلك !!

واعلم أن أولئك الأئمة الذين ذكرنا أسماءهم من أهل العلم (إمام الحرمين ؛ والفخر الرازي ؛ والإمام السمعاني ؛ وغيرهم) أشاعرة في الاعتقاد ؛ ولّما كان أهل التشبيه والتجسيم يناصبون الأشاعرة وغيرهم من أهل التنزيه العداء لأنهم يخالفونهم في تنزيه الباري سبحانه وقد عجزوا عن مواجهتهم ومناظرتهم بالدليل والحجة والبرهان عمدوا إلى التشويش عليهم وزعموا أنهم ارتدوا عن مذهبهم الأشعري في آخر حياتهم ورجعوا عنه !! وهذا الأمر وإن كان لا يضيرنا نحن أهل الحق ولن يؤثّرَ علينا لو كان صحيحاً وخبراً صادقاً !! لكننا سنبين أن إثارة هذه الشائعة عن هؤلاء الأئمة ما هي إلا كذب وافتراء بحت !! ﴿ **إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون** ﴾ النحل : ١٠٥ ﴿ **وذلك إفكهم وما كانوا يفترون** ﴾ الأحقاف : ٢٨ .

ذكر من رُوِيَ عنهم الرجوع عن مذهبهم :

١ ـ إمام الحرمين عبدالملك الجويني رحمه الله تعالى :

زعم بعض الناس أن إمام الحرمين رجع في آخر عمره عن الاشتغال بعلم الكلام !! قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٨/ ٤٧٤) والإمام السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » (٥/ ١٨٦) :

« قال الحافظ محمد بن طاهر : سمعت أبا الحسن القيرواني الأديب ـ وكان يختلف إلى درس الأستاذ أبي المعالي في الكلام ـ فقال : سمعت أبا المعالي اليوم يقول : يا أصحابنا : لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفتُ أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به » .

قلت : هذه حكاية مكذوبه على على إمام الحرمين !! وقد نص على ذلك الإمام السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » (٥/ ١٨٦) حيث قال :

« يشبه أن تكون هذه الحكاية مكذوبة ؛ وابن طاهر عنده تحامل على إمام الحرمين ، والقيرواني المشار إليه رجل مجهول ، ثم هذا الإمام العظيم الذي ملأت تلامذته الأرض لا ينقل هذه الحكاية عنه إلا رجل مجهول ، ولا تُعْرَف من غير طريق ابن طاهر !! إن هذا لعجيب !! **وأغلب ظنّي أنها كذبة ؛ افتعلها مَنْ لا يستحي ؛ وما الذي بلغ به رضي الله تعالى عنه علم الكلام ؟ أليس قد أعزَّ الله به الحق ، وأظهر به السنة ، وأمات البدعة ؟!** » **انتهى** .

ومن الكذب المبين ما أورده الذهبي أيضاً في « السير » (١٨/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥) والإمام السبكي في « الطبقات » (٥/ ١٩٠) أن أبا جعفر الهمذاني ـ الملقب غلطاً بالحافظ ـ قال : « سمعت أبا المعالي الجويني وقد سئل عن قوله تعالى ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ فقال : كان ولا عرش ، وجعل يتخبّط في الكلام .

فقلت : قد علمنا ما أشرت إليه ، فهل عند الضروريات من حيلة ؟

فقال : ما تريد بهذا القول ، وما تعني بهذه الإشارة ؟

قلت : ما قال عارف قط يا رباه إلا قبل أ ن يتحرك لسانه قام من باطنه قصد

لا يلتفت يمنة ولا يسرة (يقصد الفوقية) ؛ فهل لهذا القصد الضروري عندك من حيلة فَبَيِّنها نتخلّص من الفوق والتحت » .

وفي رواية الذهبي قال الهمذاني :

« فهل عندك دواء لدفع هذه الضرورة التي نجدها ؟ فقال : يا حبيبي ما ثَمَّ إلا الحيرة ، ولطم على رأسه ، ونزل ، وبقي وقت عجيب ، وقال فيما بعد : حيَّرَني الهمذاني » .

أقول : هذه حكاية مكذوبة موضوعة : وإن صحت فمعنى الكلام : حيرني هذا الجاهل الذي لا يفهم ولا هو مستعد لأن يفهم !! والقضية بسيطة جداً إذ لا نعجز نحن عن الإجابة عليها فضلاً عن إمام الحرمين !! فأمّا قوله فيها (ما قال عارف قط : يا رباه إلا وقام من باطنه قصد لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، يقصد الفوقية) فغير صحيح ؛ لأن هذا يتضمّن أنه اطلع على بواطن العارفين وهذا كذب ظاهر !! وإنما قاس هذا الرجل بواطن العارفين على باطنه الذي تشرب العقيدة الفاسدة عقيدة التجسيم !! فهل هذا الرجل ﴿ **اطّلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً** ﴾ ؟!

والأصل في هذا الباطن الذي قام عند هذا الرجل وأمثاله هو قياسهم الخالق المنزه عن الجهات على المخلوق المتصف بها !! ولذلك فكل من لم يتمكن من فهم العقيدة الإسلامية الصحيحة تخطر له هذه الخواطر في باطنه !! وأحياناً يَرِدُ على قلوب بعض البشر أشياء باطلة (**يُلْقيها الشيطان في القلب**) يجب أن يعتقد الإنسان حين ورودها على قلبه أنها باطلة كما يجب عليه أن يكرهها ويستعيذ بالله تعالى منها ، ومن هذا الباب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم للصحابة فيما رواه البخاري (٣٢٧٦) ومسلم (١٣٤) : قال البخاري : « باب صفة إبليس وجنوده » ثم روى من حديث أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : مَنْ خلق كذا ؟ مَنْ خلق كذا ؟حتى يقول من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته » .

وقال الحافظ ابن حجر هناك في « الفتح » في شرح الباب (٦/ ٣٤٢) وفيه :

« أن الله جعل للشيطان قوّة على التوصل لباطن الإنسان » !!

وقال الحافظ أيضاً هناك ص (٣٤٠) :

« قوله (مَنْ خلق ربك فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته) أي عن الاسترسال معه في ذلك ، بل يلجأ إلى الله في دفعه ، ويعلم أنه يريد إفساد دينه وعقله بهذه الوسوسة ؛ فينبغي أن يجتهد في دفعها ... » .

قلت : فما قاله ذلك الرجل الهمذاني لإمام الحرمين على فرض صحته مما زعم أنه يوجد في باطنه فهو إلقاء شيطاني بنص هذه الأحاديث وهو مخالف لما هو مقرر في الكتاب والسنة من تنزيه الله تعالى عن الزمان والمكان فافهم هذا ولا تغفل عنه !!

وقد ظن المشبهة والمجسمة أنَّ ما يلقيه الشيطان في قلوب الناس من أن الله في جهة العلو (الحسي) وأن جواب بعض الناس من العامة والأطفال عندما يُسْأَلون أين الله ؟ فيقولون في السماء . أن جوابهم بذلك هو الشرع الواجب اتباعه دون آيات الكتاب العزيز والسنة المطهرة والنصوص الشرعية العديدة التي تقرر تنزيه الله تعالى عن الزمان والمكان !! فهل يتصوّر عاقل أن نترك نصوص الكتاب والسنة لما يتخيله الأطفال[٢٣] والعامة البلهاء في ذات الله تعالى ؟!! أو مَنْ يدّعي الاطلاع على بواطن العارفين ؟! هذا هو منطق المجسمة والمشبهة المضلّلين !!!

فليفهمه وليحذره أهل العلم والعقلاء !!!

ومن الأحاديث الصحيحة التي تؤكد ما قررناه أيضاً ما جاء في صحيح مسلم (١٣٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله

---

[٢٣] ومما يجب أن يعلمه القاصي والداني أن كثيراً من الأطفال الذين يجيبون بأن الله في السماء عندما يُسْأَلون : أين الله . إنما يقولون ذلك لأنهم سمعوه من المجتمع الذي يعيشون فيه أو تصوّرته أذهانهم وأفكارهم لذات الله تعالى ، لا أن هذه المعلومات ولدت معهم !! أو أنها شرع يجب اتباعه !! أو يُحْتَجُ به !! وذلك لأن الإنسان عندما يولد لا تولد معه معلومات البتة وليس هناك معلومات فطرية كما يزعم البعض لصريح قوله تعالى ﴿ **والله أخرجكم من بطون أُمهاتكم لا تعلمون شيئاً** ﴾ !! فاعرف ذلك !! وقد رددنا عمّا يسمّى بالفطرة في باب الأدلة الموهومة في العقائد من هذا الكتاب فارجع إليها للتوسع !!

عليه وآله وسلم فسألوه : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلّم به . فقال لهم : « وقد وجدتموه ؟! » قالوا : نعم . قال : « ذاك صريح الإيمان » .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في « شرح صحيح مسلم » (٢/ ١٥٤) :

« معناه استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان ، فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً وانتفت عنه الريبة والشكوك » .

فإذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يخطر في قلوبهم بعض الأمور المخالفة للعقيدة إما وسوسة أو خطوراً ، وقد شَكَوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فما بالك بمن سواهم وخاصة من العامة والرعاع الذين لم ينهلوا من مشكاة النبوة ؟!! فتأمل جيداً !!

وبذلك ينكسر استدلال أهل التشبيه والتجسيم في هذا الباب وينهدم هدماً تاماً والله الهادي . وقال الإمام الحافظ السبكي في رد هذه الحكاية المكذوبة عن إمام الحرمين في « الطبقات » (٥/ ١٩٠) ما نصه :

« **قلت** : لقد تكلّف لهذه الحكاية وأسندها بإجازة على إجازة ، مع ما في إسنادها ممن لا يخفى محاطُه على الأشعري ، وعدم معرفته بعلم الكلام .

ثم أقول : يالله ويالمسلمين !! أيقال عن الإمام إنه يتخبّط عند سؤال سأله إياه هذا المحدّث[٢٤] ، وهو أستاذ المناظرين وعَلَمُ المتكلّمين ؟! أوَ كان الإمام عاجزاً عن أن يقول له كذبتَ يا ملعون ، فإنَّ العارف لا يحدِّث نفسه بفوقية الجسمية ، ولا يحدّد ذلك إلا جاهل يعتقد الجهة !!

بل نقول : لا يقول عارف : يا رباه ، إلا وقد غابت عنه الجهات ، ولو كانت جهة فوق مطلوبة لما مُنِعَ المصلّي من النظر إليها ، وشُدِّدَ عليه في الوعيد عليها .

وأما قوله (صاح بالحيرة) وكان يقول : (حيّرني الهمذاني) **فكذب**

---

[٢٤] الصواب أن هذا الهمذاني ليس محدّثاً وإنما هو من المسندين خلافاً لما زعمه الذهبي فقد نقل الذهبي نفسه في ترجمته في « السير » (٢٠/ ١٠٢) عن الإمام السمعاني أنه قال فيه « كان خطه رديئاً ، وما كان له كبير معرفه بالحديث على ما سمعت » .

ممن لا يستحي ، وليت شعري ! أيُّ شُبْهَةٍ أوردها ، وأي دليل اعترضه حتى يقول : حيرني الهمذاني .

ثم أقول : إن كان الإمام متحيّراً لا يدري ما يعتقده ، فواهاً على أئمة المسلمين من سَنَة ثمان وسبعين وأربعمائة إلى اليوم فإن الأرض لم تخرج من لدن عهده أعرف منه بالله(٢٥) ، ولا أعرف منه ؛ فيالله ماذا يكون حال الذهبي وأمثاله إذا كان مثل الإمام متحيّراً ؟! إن هذا لخزيٌ عظيم . ثمَّ ليت شعري ! مَنْ أبو جعفر الهمذاني في أئمة النظر والكلام ؟ ومَنْ هو من ذوي التحقيق من علماء المسلمين ! ثم أعاد الذهبي الحكاية عن محمد بن طاهر ، عن أبي جعفر !! وكلاهما لا يقبل نقله ، وزاد فيها أن الإمام صار يقول (يا حبيبي ما ثَمَّ إلا الحيرة) فإنا لله وإنا إليه راجعون ، لقد ابتلي المسلمون من هؤلاء الجهلة بمصيبة لا عزاء بها .

ثم ذكر أنَّ أبا عبد الله الحسن بن العباس الرُستُمي(٢٦) قال : حكى لنا أبو

---

(٢٥) لا نوافق السبكي على مثل هذه العبارة .

(٢٦) الرستمي : هذا عدو للأشاعرة فلا غرابة في أن يروي هذه الحكايات المكذوبة عن مثل إمام الحرمين ، وذكر الذهبي في ترجمته في « السير » (٢٠/ ٤٣٥) عن أبي موسى المديني أنه قال : « وكان من الشُّداد في السنة » أي في التشبيه .

ونقل الإمام المحدِّث الكوثري عليه الرحمة والرضوان في تعليقه على « ذيول الحفاظ » ص (٢٦٣) أن هذا الرستمي قال بكل وقاحة :

الأشعرية ضُلال زنادقة   إخوان مَنْ عبد العُزّى مَعَ اللاتِ
بربهم كفروا جهراً وقولهم   إذا تدبّرتَهُ من أسوى المقِالاتِ
ينفون ما أثبتوا عَوْذاً لبدئهم   عقائدُ القوم من أوهى المحالاتِ

ثم قال الإمام الكوثري هناك : « وهذا الرستمي كأنه هو الذي يقول فيه الشاعر :

كُفْراً بعلمكِ يا ابن رُسْتُمَ كُلّهُ   وبما حفظتَ سوى الكتاب المنزل
لو كنت يُونُسَ في رواية نَحْوه   أو كنت قطربَ في الغريب المشكل
وحويت فقهَ أبي حنيفة كُلّهُ   ثُمَّ انتميتَ لرُسْتُم لم تُنْبَل » .

فتكون نقول هذا الرستمي عن الأشاعرة غير مقبولة جزماً فتنبه !!

الفتح الطبري الفقيه ، قال : دخلنا على أبي المعالي في مرضه فقال : اشهدوا عليَّ أني رجعت عن كل مقالة يخالف فيها السلف ، وإني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور .

وهذه الحكاية ليس فيها شيءٌ مستنكر إلا ما يوهم أنه كان على خلاف السلف . ونقل في العبارة زيادة على عبارة الإمام(٢٧) » انتهى كلام السبكي من « الطبقات » .

ومن المسالك الملتوية أيضاً التي سلكها المجسمة في نشر الإشاعات المكذوبة المرجفة لنصر مذهبهم ومحاولة تمكينه عند العامة والدهماء ولو بالأكاذيب وباطل القول !! أنهم حذفوا كلمات من عبارات نقلوها من كتاب « الرسالة النظامية » لإمام الحرمين رحمه الله تعالى لا توافق مبادءهم ليوهموا مَنْ يثق بكلامهم ونقولاتهم أنه رجع في آخر حياته إلى مذهبهم وأعلن أنه على مذهب السلف الذي يعنونه هم ويقصدونه والذي هو في الحقيقة مخالف تماماً لما عليه سلف الأمة ؛ وكل ذلك مما لا ينطلي على الصيرفي النَّقَّاد بإذن الله تعالى !! قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٨/ ٤٧٣) :

[قال أبو المعالي في كتاب « الرسالة النظامية » : اختلفت مسالك العلماء في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة ، وامتنع على أهل الحق فحواها ، فرأى بعضهم تأويلها والتزم ذلك في القرآن وما يصح من السنن ، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب

---

(٢٧) مما هو معروف ومعلوم عند أهل العلم وكذلك المشتغلين بالتحقيق اليوم أن الذهبي كان يتصرّف في عبارات الأئمة عند نقلها وكلام الإمام السبكي هنا أكبر شاهد على ذلك ؛ وسيمرُّ معنا إن شاء الله تعالى بعد قليل أن الذهبي حذف من فقرة نقلها ، من العقيدة النظامية لإمام الحرمين عبارة لا توافقه !! وقد قال السبكي في « الطبقات » (٥/ ١٨٨) إن الذهبي كان « يسمع خرافات من طلبة الحنابلة فيعتقدها حقاً ويودعها تصانيفه » !!

وقد شهد على ذلك أيضاً محققا الجزء الحادي والعشرين من « سير أعلام النبلاء » ص (٦٨) حيث قالا هناك في الحاشية ما نصه :

[تصرّف الذهبي تصرفاً كبيراً بعبارات ابن الأبار وهذه عادته رحمه الله ...] فتأمّلوا !!

تعالى ؛ والذي نرتضيه رأياً وندين الله به عقداً اتباع سلف الأمة فالأولى الاتباع ...] .

أقول : (أولاً) : حُذِفَ هنا من وسط هذه العبارات جملة مهمة فيها تغيير معنى العبارة !! أذكرها من الأصل وهو « الرسالة النظامية » ص (٢٣) وأجعلها باللون الأسود العريض الواضح للبيان والتنبيه عليها ؛ فإليكم هذا النص الذي نقله الذهبي عن إمام الحرمين من النظامية غير محذوف منه :

[فصل : قد اختلف مسالك العلماء في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة ؛ وامتنع على أهل الحق فحواها **وإجراؤها على موجب ما تبرزه أفهام أرباب اللسان منها**(٢٨) ؛ فرأى بعضهم تأويلها والتزام هذا المنهج في آي الكتاب وفيما صح من سنن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؛ وذهبت أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب سبحانه ؛ والذي نرتضيه رأياً وندين الله به عقداً اتباع سلف الأمة فالأولى الاتباع وترك الابتداع ...] . انتهى .

(ثانياً) : وهذا الكلام من إمام الحرمين فيه ميل إلى أحد مذهبي الأشاعرة في مسائل الصفات وهو مذهب التفويض الذي يعده ابن تيمية الحرّاني من شر أقوال أهل البدع والإلحاد !! لأن مذهب الأشاعرة في هذه المسائل إما التفويض المطلق وهو تفويض المعنى والكيف وإما التأويل كما قال صاحب الجوهرة العلامة اللقاني الأشعري :

---

(٢٨) ودليل كلامه هذا رحمه الله تعالى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنما نزل كتاب الله عزَّ وجلَّ يُصَدّق بعضه بعضاً ، فلا تكذبوا بعضه ببعض ؛ فما علمتم منه فقولوه ، وما جهلتم فكِلُوهُ إلى عالمه » . رواه الإمام عبدالرزاق في « المصنف » (١١/ ٢١٦) وأحمد في « المسند » (٢/ ١٩٥) وابن ماجه (١/ ٣٣) والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٦٠) وهو حديث صحيح .

وقوله فيه (فما علمتم منه فقولوه) دليل على بيان معناه وهو التأويل ، ثم قوله فيه (وما جهلتم فكلوه إلى عالمه) دليل على تفويض فيما لا يُعلَمُ معناه ، فيكون كلام إمام الحرمين رحمه الله تعالى هنا وما بعده تطبيق حرفي لنص هذا الحديث وهذا ما ندعو له ونبينه في هذا الكتاب .

وقد صرّح إمام الحرمين هنا بتفويض المعنى حيث قال في النص السابق « وتفويض معانيها إلى الرب سبحانه » وهذا يعارض تماماً رأي الشيخ الحرّاني وسلفه وأتباعه القائلين بعدم جواز تفويض المعنى !! فلا دلالة بعد هذا البيان للمجسمة بأن إمام الحرمين رحمه الله تعالى رجع إلى مذهبهم في آخر حياته !!

فتنبهوا !!

(ثالثاً) : ولا أريد الإسهاب في بيان أمور أخرى في هذا النص إلا أنني الآن أقتصر على التنبيه السريع على أنَّ إمام الحرمين رأى هنا تفويض بعض الألفاظ الواردة في مسائل الصفات التي تعذر فهمها بموجب اللسان العربي أي في اللغة فهذه التي رأى تفويضها لا سيما وقد ثبت أن السلف من الصحابة فمن بعدهم أوّلوا كثيراً من آيات وأحاديث الصفات كما نجد ذلك في تفسير الحافظ السلفي ابن جرير الطبري وفيما نقلته في مقدمة كتاب « دفع شبه التشبيه » وفي هذا الكتاب من تأويل السلف للصفات !! فاعلم ذلك ولا تغفل عنه !!

فإذا علمت هذا وفهمته عرفت وتحققت أن ما يشيعه المجسمة والمشبهة في كل عصر ومصر من رجوع إمام الحرمين عن علم الكلام وقوله بدين العجائز ما هو إلا خرافة وكذب لا أساس له من الصحة ، وقد انغر بهذه الشائعة المتهافتة بعض أهل العلم والطلبة فنقلوها على أنها من الأمور المسَلّمات ولم يدركوا أنها من الشائعات المغرضات المضلات !! وزعمهم أن إمام الحرمين رجع عن علم الكلام في الرسالة النظامية ما هو إلا هراء لا ينطق به إلا من حُرم التبصر والتفكير في أن نفس الرسالة النظامية هي أحد مصنفات إمام الحرمين في علم الكلام !! والله الهادي إلى سواء السبيل .

ثاني من زعموا أنه رجع عن علم الكلام وعن مذهبه :

٢ ـ الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى :

ذكر الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٢١/٥٠١) في ترجمة الإمام الرازي ما نصه : « وقد اعترف في آخر عمره(٢٩) حيث يقول : لقد تأمّلتُ الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في الإثبات ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ ، ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب** ﴾ واقرأ في النفي ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ ومَنْ جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي » انتهى .

أقول : للأسف الشديد لم يقل الرازي هذا الكلام في وصيته وهذا من الكذب البحت عليه وإليكم ما قاله في وصيته التي نقلها بتمامها الإمام الحافظ السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » (٨/٩١) :

[..... اعلموا أني كنت رجلاً مُحِبّاً للعلم ، فكنت أكتب من كل شيء شيئاً لأقف على كميته وكيفيته سواء كان حقاً أو باطلاً ؛ إلا أن الذي نطق به في الكتب المعتبرة أن العالم المخصوص تحت تدبير مدبّره المنزه عن مماثلة المتحيزات موصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة ؛ ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن(٣٠) لأنه يسعى في تسليم

---

(٢٩) انظر كيف عمّى الذهبي الكلام هنا فلم يذكر عمّاذا اعترف الرازي في آخر عمره !! حيث اقتصر على قوله « وقد اعترف في آخر عمره » !! فنقول له بماذا اعترف وعماذا اعترف ؟!

(٣٠) وهذا تصريح منه رحمه الله تعالى بأنه عرف الفلسفة ولم يأخذ بها واشتغل طيلة حياته بتفسير القرآن العظيم الذي سمّاه « التفسير الكبير ومفاتيح الغيب » الواقع في ستة عشر مجلّداً وَحَمْلُ الذهبي عليه مما لا يجوز التعويل عليه وقد بيّن الإمام السبكي أن الذهبي تعصب في كتبه كثيراً على أهل الحق !! ورد مثل الشيخ شعيب الأرناؤوط والشيخ عبدالفتاح ابوغدة في تعاليقهما أحياناً على الإمام السبكي ودفاعهما عن الذهبي وتسويغ تعصبه وزعمهم أن السبكيَّ جار واشتطَّ و .... الخ على شيخه الذهبي مما لا ينبغي أن يقيم له طالب الحق وزناً لأنهما مُكْرَهان على ذلك كما يعرف ذلك القاصي والداني وللمكره أحكام ، كما يعلم القريب والبعيد أنهما لا يعتقدان كثيراً مما يقولانه ويدوّنانه في تعاليقهما على الكتب ؛ وهل يجوز لعاقل أو طالب أو باحث أو منصف أن يعوّل على كلامهما في هذا الأمر

العظمة والجلال لله ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات وما ذاك إلا للعلم بأنَّ العقول البشرية تتلاشى في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية ؛ فلهذا أقول :

كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء كما في القدم والأزلية والتدبير والفعالية فذلك هو الذي أقول به وألقى الله به ، وأمّا ما ينتهي الأمر فيه إلى الدقة والغموض وكل ما ورد في القرآن والصحاح المتعين للمعنى الواحد فهو كما قال ، والذي لم يكن كذلك أقول : يا إله العالمين إني أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين فكل ما مدّه قلمي أو خطر ببالي فأستشهد وأقول : إن عَلِمْت مني أني أردت به تحقيق باطلٍ أو إبطال حق فافعل بي ما أنا أهله ؛ وإن علمت مني أني ما سعيت إلا في تقديس اعتقدت أنه الحق وتصوّرت أنه الصدق فلتكن رحمتك مع قصدي لا مع حاصلي ؛ فذاك جهد المقل(٣١) ...] .

فأين ما زعمه الذهبي ؟!!

ومن الكذب المبين على الإمام الرازي ما نقله ابن تيمية في « منهاج سنته »

خاصة بعد ثبوت تعصب الذهبي في أرض الواقع على أهل التنزيه وكل كتبه ناطقة بذلك مع شهادة كبار الحفاظ في عصره وبعده عليه بذلك ؟! فقد وصفه بالتعصب السبكي في الطبقات (٨/ ٨٨) وغيرها ؛ والحافظ ابن حجر في [« لسان الميزان » (٥/ ١١٤) هندية] في عدّة مواضع منها : في ترجمة ابن حبان حيث وصفه بالتعصب الزائد على المؤولين ، وكذا وصفه بالتعصب الحافظ العلائي كما في « الطبقات » (٢/ ١٣) والسخاوي [كما في « الإعلان بالتوبيخ » ص (١٣٥) حيث قال :
« مع أني لا أُنزّه الذهبي عن بعض ما نسبه إليه » أي من التعصب] والحافظ السيوطي [كما في مقاماته (٢/ ٩١٧)] .

وسأتكلّم في إثبات تعصب الذهبي على أهل الحق وقدحه فيهم بغير حق بإبراز الأدلة الواقعية المحسوسة من كتبه التي لا يمكن لأي عاقل أن ينكرها حتى يتبين من ذلك ما قررناه من إحقاق الحق وبيانه وتزييف الباطل وكشف هوانه !! وبيان خطأ من تطاول على الإمام السبكي ورد عليه في ذلك ووصفه بأنه [أسرف في حق شيخه وبالغ حتى أفرط !! ومال حتى قسط !! ووقع في الشطط والغلط !!] وسأبين بإذن الله تعالى في كتاب خاص في هذا الموضوع أن من وصف السبكي بذلك قد أخطأ والله الهادي .

(٣١) هذه العبارات من الإمام الرازي في وصيته تثبت كذب من قال إنه رجع عن عقيدته .

(٣/ ٦٩) أن الإمام الرازي أنشد هذه الأبيات(٣٢) :

« نهاية إقدام العقول عقال   وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا   وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا   سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا»

وقد وقع ذلك في « منهاج سنة ابن تيمية » المُحَقَّق في المجلّد الخامس ص (٢٧١) وقد أنصف المعلّق عليه هناك حيث قال :

« وكذا جاء النص في درء ... ١/ ١٦٠ . وذكرت هناك أنني لم أجد هذا الكلام والكلام التالي فيما بين يدي من كتب الرازي المطبوعة أو المخطوطة ، وأن ابن تيمية يذكر أن الرازي كان يتمثَّل بهذا الكلام في كتابه أقسام اللذات وهذا الكتاب مخطوط بالهند ولم يذكره بروكلمان ضمن مؤلّفات الرازي ؛ وذكرت في تعليقي على درء .. أن ابن تيمية يذكر هذا النص كثيراً في كتبه ؛ مثل مجموع فتاوى الرياض (٤/ ٧١) الفرقان بين الحق والباطل ص (٩٧) من مجموعة الرسائل الكبرى ط صبيح . معارج الأصول ص (١٨٥) من المجموعة السابقة » انتهى .

وهذا مما يؤكد لنا أن هذا كله مكذوب على الإمام الرازي ولا شك في ذلك عندنا ؛ وقد أخذه مجسمة العصر من كتب ابن تيمية وأذاعوه في المشرق والمغرب ، فلتعلموا أنه كذب بحت على الإمام الرازي !!

والله المستعان !!

وأقول : إن هذه الأبيات هي من نظم ابن تيمية وكأنه يصف بها نفسه .

---

(٣٢) وقد ذكرها السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » (٨/ ٩٦) وعزاها للفخر الرازي دون أن يذكر سندها أو في أي كتاب ذكرها ! وعلى فرض ثبوتها عنه لا تفيد أنه تراجع عن مذهبه !

ثالث من زعموا أنه رجع عن علم الكلام :

٣ ـ الإمام الآمدي رحمه الله تعالى :

قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٢٢/ ٣٦٦) :

« قال لي شيخنا ابن تيمية : يغلب على الآمدي الحيرة والوقوف حتى أنه أورد على نفسه سؤالاً في تسلسل العلل وزعم أنه لا يعرف عنه جواباً وبنى إثبات الصانع على ذلك فلا يقرر في كتبه إثبات الصانع ولا حدوث العالم ولا وحدانية الله ولا النبوات ولا شيئاً من الأصول الكبار »[٣٣] !!

قلت : قد كفانا مؤنة الرد على ابن تيمية في هذه الدعوى تلميذه الذهبي حيث قال عقب ذلك مباشرة :

« **قلت** : هذا يدلُّ على كمال ذهنه ؛ إذ تقرير ذلك بالنظر لا ينهض وإنما ينهض بالكتاب والسنة ؛ وبكلٍّ قد كان السيف غاية ؛ ومعرفته في المعقول نهاية ؛ وكان الفضلاء يزدحمون في حلقته » انتهى . فتأمّلوا !!

وبذلك نخرج بقاعدة مهمة جداً وهي أن كل ما يحكيه ابن تيمية عن هؤلاء الأئمة الفحول ليس صحيحاً !! فتنبهوا لذلك ولا تغفلوا عنه !!

ومن الغريب العجيب ما قاله الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٢٢/ ٢٩) في ترجمة الفيلسوف غلام ابن المنّي الأزجي الحنبلي أنه قرأ المنطق والفلسفة على ابن مرقش النصراني فكان يتردد إلى البيعة (أي الكنيسة) !! ثم قال الذهبي ص (٣٠) هناك :

« **قلت** : أخذ عنه الشيخ مجد الدين ابن تيمية » .

وبذلك ظهر جلياً من أين أخذت عائلة ابن تيمية الفلسفة التي خاض فيها ابن تيمية . وانظرلزاماً كتابنا « تهنئة الصديق المحبوب » ص (٦١ ـ ٦٦) !!

(فائدة) : ومما يتعلّق بهذا الموضوع من كذب المجسمة والمشبهة في إذاعة الإشاعات المكذوبة قولهم بأنّ خالد القسري الأمير ضحّى بالجعد بن درهم !! وإن

---

[٣٣] وكل ذلك الذي حكاه عن الآمدي ليس صحيحاً ولا وجود له إلا في ذهن الشيخ الحراني لا غير !!

هذا لشيء عجاب !!! وهذه فرية بلا مرية !!!

قال الإمام الكوثري عليه الرحمة والرضوان في كتابه « تأنيب الخطيب » . [ص (٦٢) من الطبعة القديمة و ص (١٢٣) من الطبعة الحديثة] ما نصه :

[والقسري هذا هو الذي بنى كنيسة لأمه تتعبّد فيها ؛ وهو الذي يقال عنه : إنه ذبح الجعد بن درهم يوم عيد الأضحى أُضحية عنه . والخبر على انتشاره وذيوعه غير ثابت ؛ لانفراد القاسم بن محمد بن حميد المعمري بروايته ، ويقول عنه ابن معين : « كذاب خبيث » كما في ميزان الذهبي .

وما كان العلماء ليسكتوا في ذلك العهد أمام استخفافه لشعيرة من شعائر الدين لو فُرِضَ وقوع مثل هذا من خالد . وسفك دم مَنْ وجب قتله شيء ، وذبحه على أن يكون أضحية شيء آخر ، وكانت سيرة خالد وصمة عار في تاريخ الإسلام .

وذكر ابن كثير قتل الجعد في أنباء سنة ١٢٤ ، وكان القسري عُزل عن ولاية العراق قبل ذلك بأربع سنين] . فتأمّلوا !!!

وليعلم أهل العلم وطلابه أن الأمير خالد القسري الفاسق الناصبي الخبيث(٣٤) لم يكن فيه من الدين والإيمان ما يجعله من الذين يغارون على حرمات الله تعالى حتى يُعَاقِبَ من يستحل حرمات الله ويقول في دين الله تعالى ما لم ينزل الله به من سلطان ؛ بل هو وأمثاله من المشجعين لانتهاك حرمات الله تعالى والتمرد على أوامر رب العزة سبحانه !!

---

(٣٤) خالد بن عبد الله بن يزيد القسري الدمشقي أمير العراقين لهشام ، وولي قبل ذلك مكة للوليد بن عبد الملك ، ثم لسليمان . قال ابن مَعين : « خالد بن عبدالله القسري رجل سوء يقع في علي ، وقال فضل بن الزبير : سمعت القسري يقول في علي ما لا يحل ذكره » . وقال الأصمعي : خُبِّرْتُ أن القسري ذم زمزم ، وقال : يقال : إن زمزم لا تنزح ولا تذم ، بلى والله إنها تنزح وتذم ، ولكن هذا أمير المؤمنين قد ساق لكم قناة بمكة .

انظر ترجمته في « سير أعلام النبلاء » (٥/ ٤٢٩) . وما ساقه ابن كثير في البداية (١٠/ ٢٠ و ٢١) من قوله بأنه كان قائماً في إطفاء الضلال والبدع وقتل الجعد الملحد !! فهراء لا قيمة له وهو مجانب للحقيقة والواقع والعلم !! فتنبه !!

وأما الجعد بن درهم فما نسبوه إليه هو كذب بحت كما نسب إلى الحسين بن منصور الحلاج ، إذ أن كلاً منهما قُتِل وصلب لأسباب سياسية في ذلك العهد لا لكونهما قد خالفا عقيدة أو قالا في دين الله تعالى بالباطل والزندقة خلافاً لما قد ذيع عنهما ؛ فتنبّه (٣٥) !!

[**فائدة**] : وأما ادِّعاء المشبهة والمجسمة المتمسلفين أن الأشعري رجع عن مذهبه الذي عليه الأشاعرة من بعده وأنَّ له ثلاثة مذاهب الاعتزال ثم التأويل والتفويض ثم مذهب السلف الذي يريدونه وهو التجسيم ففرية بلا مرية ! وهو أمر لا أساس له من الصحة ولا دليل عليه لا سيما والإبانة مليئة بالنصوص القاطعة لشغب هؤلاء ، وهب جدلاً أنه رجع كما يزعمون زوراً فما لنا وله ؟! والحق أحق أنّ يُتبع !! لا ما رجع إليه فلان وفلان !!(٣٦)

---

(٣٥) قال المعلّق على « سير أعلام النبلاء » (٥/ ٤٣٣) :

« قال ابن كثير في « البداية » ١٠/ ١٩ : (كان الجعد بن درهم من أهل الشام وهو مؤدب مروان الحمار ولهذا يقال له : مروان الجعدي ، فنسب إليه ، وهو شيخ الجهم بن صفوان الذي تنسب إليه الطائفة الجهمية الذين يقولون : إنَّ الله في كل مكان بذاته تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وكان الجعد بن درهم قد تلقى هذا المذهب الخبيث عن رجل يقال له أبان بن سمعان ، وأخذه أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم ، عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودي) . قلت : ولم يذكر ابن كثير سنده في هذا الخبر حتى ننظر فيه ، ويغلب على الظن أنه افتعله أعداء الجعد ولم يُحْكِمُوه لأن أفكاره التي طرحها في العقيدة مناقضة كل المناقضة لما عليه اليهود ، فهو ينكر بعض الصفات القديمة القائمة بذات الله ويؤولها لينزه الله تعالى عن سمات الحدوث ، ويقول بخلق القرآن وأنَّ الله لم يكلم موسى بكلام قديم بل بكلام حادث ، **بينما اليهود المعروف عنهم الإغراق في التجسيم والتشبيه** ، ويرى بعض الباحثين المعاصرين أنَّ قتل الجعد كان لسبب سياسي لا لآرائه في العقيدة ، ويعلل ذلك بأن خلفاء بني أمية وولاتهم كانوا أبعد الناس عن قتل المسلمين في مسائل تمتُّ إلى العقيدة » انتهى .

(٣٦) راجع مقدمتنا لكتاب « الإبانة » للأشعري المطبوعة حديثاً وكذلك تعليقاتنا على ذلك الكتاب ، فإن من راجع تلك المقدمة وتلك التعليقات فإنه سيطلع على جلية الأمر .

فصل

في المكلّف والتكليف

وما يتعلق بهما

قال الله تعالى : ﴿ **لا يُكَلِّفُ الله نفساً إلا وسعها** ﴾ .

المعروف المشهور أنَّ المُكَلَّف هو : العاقل البالغ سليم الحواس الذي بلغته الدعوة . فلا بُدَّ لنا أنْ نفهم أصل التكليف الذي انبثق من هذه الأمور الأربعة ، **وهو الفهم** فنقول :

قال الله تعالى : ﴿ **ففهمناها سليمان** ﴾ الأنبياء : ٧٩ ، واتفق العقلاءُ على أنَّ شرط المُكَلَّفِ أن يكون عاقلاً فاهماً للتكليف ، لأنَّ التكليف خطاب ، وخطابُ مَنْ لا عقل له ولا فهم محالٌ ، كالجماد والبهمية ، ومَنْ وُجِدَ منه أصل الفهم لأصل الخطاب ، دون تفاصيله من كونه أمراً ونهياً ، ومقتضياً للثواب والعقاب ، ومن كون الآمر به هو الله تعالى وأنّه واجب الطاعة ، وكون المأمور به على صفة كذا وكذا ، كالمجنون والصبي الذي لا يُمَيِّز ، فهو بالنظر إلى فهم التفاصيل كالجماد والبهمية بالنظر إلى فهم أصل الخطاب ، ويتعذّر تكليفه أيضاً لأنَّ التكليف كما يتوقَّفُ على فهم الخطاب يتوقف أيضاً على فهم تفاصيله .

فالصبي المميز وإن كان يفهم مالا يفهمه غير المميز ، غير أنَّه أيضاً غَيْرُ فاهم على الكمال ما يفهمه كامل العقل ويعرفه من وجود الله سبحانه وتعالى ، وأنه سبحانه وتعالى قد أمر عباده وكلّفهم بأوامر ونهاهم عن أشياء ، وكذلك هو غير فاهم لوجود الرسول الصادق المُبَلّغ عن الله تعالى ، وغير ذلك مما يتوقف عليه مقصود التكليف .

فنسبةُ الصبي المميز إلى غير المميز كنسبة غير المميز إلى البهيمة فيما يتعلق به من فوات شرط التكليف .

وإذا كان الصبي المميز مُقارباً لحالة البلوغ بحيث لم يَبْقَ بينه وبين البلوغ سوى

لحظة واحدةً ، فإنه وإن كان فهمه كفهم البالغ الموجب لتكليفه بعد لحظة ، ولكون العقل والفهم فيه خفياً ولكون الفهم يظهر شيئاً فشيئاً فيه على التدريج ، ولم يكن له ضابط يعرف به ، جعل له الشرع علامة وضابطاً يُعرف به وهو البلوغ ، وحطَّ عنه التكليف قبله تخفيفاً عليه فقال صلى الله عليه وآله وسلم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى :

« رُفِعَ القلم عن ثلاثة : **عن الصبي حتى يبلغ** ، وعن النائم حتى يستيقظ ؛ وعن المجنون حتى يفيق » وفي بعض الروايات « وعن المجنون حتى يعقل » وفي بعضها « وعن المعتوه حتى يعقل »(٣٧) .

والذي يجمع هذا كله العقل الذي يمكنه به فهم خطاب الشارع واستيعاب أمره ونهيه .

ألا ترى إلى من توفَّرت فيه شروط التكليف الأربعة التي ذكرناها وهي كونه : عاقلاً بالغاً سليم الحواس وقد بلغته الدعوة إلا أنه لم يُفَهَّمْ ما سيقوم به فإنه غير مكلّف به إلا بعد البيان والإيضاح .

ومنه نفهم أنَّ الفهم هو أساس التكليف وقد قيده الشرع بالفهم المطلق المتعالي عن فهم البهمية للأكل والشرب والجماع لأنَّ هذه غرائز لا تجعل صاحبها يُفكِّر ويعلو عن هذه الرتبة مُحَلِّقاً في رتبة استيعاب الأمور على الوجه المطلوب لذلك ضبط الشرع ذلك الفهم بكونه واقعاً من بالغٍ بلغته دعوة الإسلام .

ولم نقل من فاهم عاقل لأنه لا يوجد الفهم المقصود والمطلوب إلا من عاقل ، ولا يمكن فهم نصوص الكتاب والسنة إلا بالعقل الذي هو أساس التكليف وأصله .

---

(٣٧) صحيح . رواه أحمد (٦/ ١٠٠) والبخاري في صحيحه معلقاً (٩/ ٣٨٨) و (١٢/ ١٢٠) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه وهو حديث صحيح ، رُوي مرفوعاً من حديث سيدنا علي والسيدة عائشة وأبي هريرة رضي الله عنهم ، وأخرجه النسائي (٦/ ١٥٦) وأبوداود (٤/ ١٤٠) والترمذي (٤/ ٣٢) وابن خزيمة (٢/ ١٠٢) وابن حبان (١/ ١٧٨) وسعيد بن منصور في سننه (٢/ ٦٨) والدرامي (٢/ ١٧١) والبزار (٢/ ٢١٢ كشف الأستار) والدارقطني (٣/ ١٣٩) وابن الجارود في المنتقى (برقم ١٤٨ و ٨٠٨) وابن ماجه (١/ ٦٥٨) والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩) وصححه ، والبيهقي (١/ ٥٦) وغيرهم .

كما لم نقل : من سليم الحواس لأن فاقد الحواس المَعْنِيَّة هنا وهي فقدان حاسة البصر وحاسة السمع معاً غير مُكَلَّفٍ لأنه لا يمكن إيصال الفهم والمعلومات من أوامر ونواهٍ إليه فهو غير مكلف لذلك .

قال الإمام الراغب الأصفهاني في « المفرادات » في مادّة (فهم) :

« الفهم هيئة للإنسان بها يتحقق معاني ما يَحْسُنُ ، يقال فَهِمْتُ كذا ، وقوله تعالى ﴿ **ففهمناها سليمان** ﴾ وذلك إما بأنْ جعل الله له من فَضْلِ قُوَّة الفَهْم ما أدرك به ذلك . وإما بأنْ ألقى ذلك في رُوْعِه أو بأن أوحى إليه وخصَّه به . وأَفْهَمْتَهُ إذا قلتَ له حتى تصوَّره ، والاستفهام أن يطلب من غيره أن يُفَهِّمَهُ » انتهى .

فإن قال قائل : إذا كان الصبيُّ والمجنون غير مكلَّفٍ فكيف وَجَبَتْ عليهما الزكاة والنفقات والضمانات وكيف أُمِرَ الصبيُّ المميز بالصلاة ؟

قلنا : هذه الواجبات ليست مُتَعَلِّقَة بفعل الصبي أو المجنون إذ ليس واحدٌ منهما محلاً للخطاب أي لا يُخَاطب واحدٌ منهما ولا يوجَّه إليه أمر ، إنما تعلَّقَ الوجوب بماله أو بذمته ، فإنهما أهلٌ ليتعلّق المال بذمتهما بإنسانية كل منهما المتهيئة لقبول فهم الخطاب عند البلوغ بالنسبة للصبي وعند البُرْء والعافية بالنسبة للمجنون ، بخلاف البهمية ، والذي يتولى أداء الزكاة عنهما وكذا النفقات والضمانات هو الولي ، أو هما بعد البلوغ والإفاقة ، وليس ذلك من باب التكليف لهما قبل البلوغ والإفاقة .

وأما أَمْرُ الصبي المميز بالصلاة فليس من جهة الله تعالى مباشرة وإنما هو من جهة الولي ، بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع ... »(٣٨) وذلك لأنه يَعْرِفُ الوليَّ ويفهم خطابه ويدركه بخلاف خطاب الشارع فإنه لا يدركه حسب المطلوب .

فإذا أدركنا أنَّ أصل التكليف ينبني على الفهم فلا بُدَّ أن نَعْرِفَ بأنَّ الشرع قيد ذلك بقيود ذكر أصولها في حديثين :

---

(٣٨) رواه أحمد (٢/ ١٨٧) وابو داود (١/ ١٣٣) وغيرهما وهو حديث صحيح .

(الأوّل) : حديث سيدنا علي عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبي حتى يدرك وعن النائم حتى يستيقظ »(٣٩) .

قلت : رُفِعَ عن هؤلاء قَلَمُ التكليف لفقدان العقل الذي يترتب عليه الفهم الذي هو سِرُّ التكليف وكذلك رفع عنهم قلم المؤآخذة .

وأما قلم الثواب فغير مرفوعٍ عنهم لعدة أدلة :

أما الصبي : ففي « صحيح مسلم » (٢/ ٩٧٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : رَفَعَتِ امرأةٌ صبياً لها فقالت : يا رسول الله ألهذا حَجٌّ ؟ فقال : « نَعَمْ وَلَكِ أَجْرٌ » .

قال الإمام النووي في « شرح مسلم » (٩/ ٩٩) : « فيه ... أن حج الصبي منعقد صحيح يثاب عليه وإن كان لا يجزيه عن حجة الإسلام » .

وأما النائم : ففي « النَّسَائي » (٣/ ٢٥٧) عن السيدة عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« ما من امرئٍ تكون له صلاة بليل فغلبه عليها نومٌ إلا كتب الله له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه »(٤٠) وهو صحيح .

وأما المجنون : فلحديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال : أتت امرأة سوداء النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : إني أُصرع وإني أتكشَّف ، فادع الله لي . قال : إن شِئتِ صَبَرْتِ ولك الجنة ، وإن شئتِ دَعَوْتُ الله أن يعافيك فقالت : أصبرُ . فقالت : إنّي أتكشَّف ، فادعُ الله لي أن لا أتكشف ، فدعا لها »(٤١) .

(الحديث الثاني) : حديث سيدنا ابن عباس وثوبان وأبي ذر وأبي بكرة قال

---

(٣٩) رواه البخاري في « صحيحه » (٩/ فتح٣٨٨) بهذا اللفظ معلقاً موقوفاً عن سيدنا علي رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح مرفوع رواه أحمد (٦/ ١٠٠) وغيره وتقدّم تخريجه موسعاً .

(٤٠) ورواه ابن خزيمة في صحيحه (٢/ ١٩٥) وابن حبان (٦/ ٣٢٣) وغيرهم .

(٤١) رواه البخاري (١٠/ ١١٤) وغيره .

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « رُفع عن أُمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »(٤٢) .

قال « سيدي » الإمام المحدث عبدالله ابن الصديق الغماري رفع الله تعالى درجته في كتابه « الابتهاج بتخريج أحاديث المنهاج » ص (١٣٠) :

[**تنبيه** : نقل عبدالله بن أحمد عن أبيه أنَّه أنكر الحديث جداً ؛ ونقل الخلال عنه أنّه قال : مَنْ زعم أن الخطأ والنسيان مرفوع فقد خالف كتاب الله وسنة رسوله الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنَّ الله أوجب في قتل النفس الخطأ الكفارة . انتهى

قلت : هذا غريب من أحمد فإنَّ الحديث صحيح باعتبار طرقه وقد صححه ابن حبان والحاكم ، وحسَّنه النووي في الروضة والأربعين ، وليس فيه ما يخالف كتاباً ولا سنة ، إذا المراد من رفع الخطأ والنسيان رفع المؤاخذة بهما كما قال علماء الأصول ، لا رفع حكمهما كما توهمه !! والكمال لله تعالى] .

قلت : والأصل فيما قرره سيدي عبدالله ابن الصديق وحكاه عن أهل الأصول في رفع المؤاخذة عن الناسي والمخطىء قوله تعالى ﴿ **ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم** ﴾ الأحزاب : ٥ ، وما في هذا المعنى من الأحاديث الصحيحة التي منها :

في الخطأ : قول الرجل الذي لقيَ راحلته في الصحراء بعدما ضلَّت عنه ولم يجدها وعليها طعامه وشرابه فقال من شدّة الفرح : « اللهم أنت عبدي وأنا ربك **أخطأ من شدّة الفرح** »(٤٣) .

وفي النسيان : قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « مَنْ نسي صلاة أو

---

٤٢) رواه الطحاوي في « شرح معاني الآثار » (٣/ ٩٥) وابن حبان في صحيحه (١٦/ ٢٠٢) والدارقطني (٤/ ١٧٠) والحاكم (٢/ ١٩٨) والطبراني في « الكبير » (٢/ ٩٧) وفي « الصغير » (٢/ ٥٢ الروض الداني) ، وغيرهم وهو صحيح .

(٤٣) رواه البخاري (١١/ ١٠٢) ومسلم (٤/ ٢١٠٥ برقم ٢٧٤٧) واللفظ له .

نام عنها ؛ فكفارتها أن يُصَلِّيها إذا ذكرها »(٤٤) .

وفي لفظ آخر : « مَنْ نَسِيَ صلاةً فليُصَلِّها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك »(٤٥) .

وفي النوم : حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« ليس في النوم تفريط إنما التفريط على مَنْ لم يصَلِّ الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى »(٤٦) .

والأصل في عدم المؤآخذة والإثم عند الاستكراه قوله تعالى : ﴿ **إلاّ مَنْ أُكره وقلبُهُ مُطمئنٌ بالإيمان ولكن مَنْ شرح بالكفر صَدْراً** ﴾ النحل : ١٠٦ ، وقال تعالى ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾ البقرة : ٢٥٦ .

وعن محمد بن عمار بن ياسر قال أخذ المشركون عمّار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه ، فلما أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ما وراءك » قال : شرٌ يا رسول الله !! ما تُرِكْتُ حتى نِلْتُ منك وذكرتُ آلهتهم بخير ، قال : « كيف تجد قلبك » ؟ قال : مطمئناً بالإيمان قال : « إن عادوا فَعُدْ »(٤٧) .

---

(٤٤) رواه مسلم (١/ ٤٧٧) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٤٥) رواه البخاري (٢/ ٧٠) ومسلم (١/ ٤٧٧) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٤٦) رواه البخاري (١/ ٤٤٧) من حديث عمران بن حصين ، ورواه مسلم (١/ ٤٧٣) بهذا اللفظ من طريق أخرى .

(٤٧) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ١٤/ ١٨٢) والحاكم (٢/ ٣٥٧) وصححه على شرطهما والبيهقي (٨/ ٢٠٨) في باب المكره على الرِّدة ، وهو صحيح .

حكم أهل الفترة

نجاتهم وعدم تكليفهم

أهل الفترة هم الذين لم يُبْعَثْ فيهم نبي قبل مبعث سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل الحجاز ـ أي مكة والمدينة وما حولها ـ خاصة من أهل الفترة .

قال الإمام الراغب الأصفهاني في « المفردات » ص (٣٧١) في مادة فتر :

« الفتور سكون بعد حِدّة ؛ ولين بعد شدّة ؛ وضعف بعد قوّة ؛ قال تعالى : ﴿ **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم على فترة من الرسل** ﴾ أي سكون حال عن مجيء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقوله (لا يفترون) أي : لا يسكنون عن نشاطهم في العبادة » .

وقال مجد الدين في « القاموس المحيط » : « الفترة ما بين كل نبيين » .

وروى البخاري (٧/ ٢٧٧) عن سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : « فترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلّم ستمائة سنة » .

وأهل الفترة ناجون لأنهم غير مكلّفين بشريعة نبي لقوله تعالى ﴿ **وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ الإسراء : ١٥ ، ولقوله تعالى ﴿ **ذلك أنْ لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون** ﴾ الأنعام : ١٣١ .

يؤخذ من هذه الآيات أن كل مَن لم تصله دعوة نبي فهو ناج في الجنة وليس عليه عذاب في الآخرة ، وهذه قاعدة عظيمة ثابتة غير قابلة للنقاش ، فإن ورد ما يخالفها من الآحاد أو من ظنّي الدلالات رددنا ما أفاده ولم نقبله لأنَّ معناها قطعي مأخوذ من القرآن الكريم .

إذا عرفت ذلك فاعلم أنَّ القوم العرب الذين بُعِثَ فيهم صلى الله عليه وآله وسلم لم يأتهم رسول قبله صلى الله عليه وآله وسلم لصريح قوله تعالى ﴿ **لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلّهم يهتدون** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وما أرسلنا إليهم**

قبلك من نذير ﴾(٤٨) سبأ : ٤٤ ؛ وسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يُبْعَثْ إليهم إنما بُعِثَ إلى أهل العراق ، وقدم مكة أياماً يسيرة لبناء الكعبة وزيارة ولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ؛ وسيدنا إسماعيل ابنه عليه السلام بُعِثَ للجُرْهميين الذين خرجوا من مكة وأفناهم الله تعالى ولم يُبْعَثْ في القرشيين ولا إليهم !! كما صرّح بذلك القرآن وعلينا أن نؤمن بذلك(٤٩) !!

---

(٤٨) الأصل في كل أمة خلت قبل مبعث سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون قد أتاهم نذير لقوله تعالى ﴿ **وإن من أُمّة إلا خلا فيها نذير** ﴾ أي نبي أو رسول ؛ إلا مَنْ استثناهم الله تعالى وهم : قوم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين استثناهم القرآن في الآيات المذكورة آنفاً والتي منها قوله تعالى ﴿ **وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون** ﴾ الزخرف : ٢١ ، فاعلم ذلك !!

وأما قضية وصول دعوة رسول إليهم ؛ فلا دخل لها في قوله تعالى ﴿ وإن من أمّة إلا خلا فيها نذير ﴾ فإنه اشترط في هذه الآية أن يكون هذا النذير قد [خلا فيهم] وواقع أهل مكة وما حولها ممن بُعِثَ فيهم صلى الله عليه وآله وسلم لم يأتهم من نذير قبله ؛ أضف إلى ذلك أنه يشترط في دعوة الرسول التي تصل إليهم أن تصل صحيحة غير مُحَرَّفَة ولا مُبَدَّلَة إن قلنا بها وهم ليسوا كذلك بدليلين ؛ **الأول** : من القرآن كمثل قوله تعالى ﴿ **قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين** ﴾ ؛ **والثاني** : أن سيدنا عمر رضي الله عنه وأهل العلم اعتبروا نصارى العرب في زمن سيدنا عمر ممن لا يجوز أكل ذبائحهم ولا نكاح نسائهم كما هو مدوّن في كتب السنن والفقه لأنهم ممن دخلوا في النصرانية بعد التبديل والتحريف ؛ فافهم !!

ثمّ إن دعوة كل نبي كانت خاصة بقومه ؛ فغير قومه مكلّفين بها وأمّا دعوته صلى الله عليه وآله وسلم فللناس كافة لقوله تعالى ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ سبأ : ٢٨ . ولقوله صلى الله عليه وآله وسلم كما في البخاري (١/ ٥٣٣) ومسلم (١/ ٣٧٠) : « أُعْطِيْتُ خمساً لم يعطهنّ أحد من الأنبياء قبلي : ... وكان النبي يبعث إلى قومه خاصّة وبعثت إلى الناس كافة » .

(٤٩) ومنه نعلم خطأ مَنْ قال في « صحيحته » !! (١/ ٢٤٧) :
« إن أهل الجاهلية الذين ماتوا قبل بعثته عليه الصلاة والسلام معذّبون بشركهم وكفرهم ، وذلك يدلّ على أنهم ليسوا من أهل الفترة الذين لم تبلغهم دعوة نبي ، خلافاً لما يظنّه بعض المتأخرين ، إذ لو كانوا كذلك لم يستحقوا العذاب ؛ لقوله تعالى ﴿ **وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ وقد قال النووي في شرح مسلم : إن رجلاً قال يا رسول الله أين أبي ؟ قال في النار ... الحديث ، قال النووي (١/ ١١٤) طبع الهند : فيه أنّ مَنْ مات على الكفر فهو في النار ، ولا تنفعه قرابة المقرّبين ؛ وفيه أنّ مَنْ مات على الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار ؛ وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ

[تنبيه مهم جداً] : إذا علمت ذلك عرفت أنَّ والديه صلى الله عليه وآله وسلم وأجداده ناجون لأنهم من أهل الفترة وهذا مقطوع به ؛ وما ورد من أحاديث الآحاد مما يخالف ذلك فلا يجوز الأخذ بها إطلاقاً ، لأنَّ العاقل لا يمكن أن يترك نصاً مقطوعاً به في القرآن الكريم ويأخذ بحديث آحاد خالفه كما قرر ذلك العلماء في علم الأصول ومصطلح الحديث وقواعده وغير ذلك !! ومن أبى ذلك فهو مكابر معاند يُخشَى على إيمانه وإسلامه إن عاند !! ويعذر مَنْ جهل أو لم يعلم !!

الدعوة ؛ فإنَّ هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم » . وكذا نعلم أيضاً خطأ كلامه في « صحيحته !! » (١/ ٤٤٣) حيث قال :

« وفيه دليل أيضاً على أن أهل الجاهلية الذين ماتوا قبل البعثة المحمدية ليسوا من أهل الفترة الذين لم تبلغهم دعوة رسول ؛ إذ لو كانوا كذلك لم يستحق ابن جدعان العذاب ولما حبط عمله الصالح ، وفي هذا أحاديث أخرى كثيرة سبق أن ذكرنا بعضها » .

أقول : هي أحاديث آحاد متكلّم في أسانيدها ومتونها وهي معارضة للقرآن ؛ والآيات الكريمات مثل قوله تعالى ﴿ **لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلّهم يهتدون** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير** ﴾ مع قوله تعالى ﴿ **أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون** ﴾ قاطعة للشغب في هذه القضية ؛ والنووي رحمه الله تعالى أخطأ هنا !! وأعجبُ كيف قلّده هذا القائل فلم يتأمّل في القرآن وهو يدّعي الاجتهاد ونبذ التقليد !! ولله خلقه شؤون !!

فصل

في ذكر الأحاديث الشاذة التي وردت في هذا الموضوع

أولاً : ذكر أخبار شاذة مردودة خالفت القرآن فيها أن والديه صلى الله عليه وآله وسلم في النار :

ومن منكرات المشبهة والمجسمة النواصب وبدعهم قولهم بأن والدي الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في النار !! كبرت كلمة تخرج من أفواههم !! وقد استندوا في ذلك على روايتين شاذّتين :

(أولاهما) : ما جاء في « صحيح مسلم » (٦٧١/٢) عن أبي هريرة مرفوعاً : « استأذنت ربي أن أستغفر لأمّي فلم يأذن لي ؛ واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي » وفي الحديث أنه بكى وأبكى مَنْ حوله !! ولا دلالة في هذا لأمور :

١ ـ لأنه معارض للقرآن وهو قوله تعالى : ﴿ **وما كنّا مُعَذِّبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ وهم من أهل الفترة وأهل الفترة ناجون كما تقدّم .

٢ ـ أن بكاءه صلى الله عليه وآله وسلم على والدته لا يدلُ على أنها من أهل النار بدليل أنه صلى الله عليه وآله وسلم بكى على ابنه إبراهيم عليه السلام وقال : « إنَّ العين تدمع ، والقلب يحزن ؛ ولا نقول إلا ما يُرْضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون » رواه البخاري (١٧٣/٣) ومسلم (١٨٠٨/٤) .

٣ ـ لـمَّا أَذِنَ الله تعالى له بزيارة قبرها دلَّ على أنها ليست كافرة ولا من أهل النار ؛ لأنَّ الله تعالى نهاه صلى الله عليه وآله وسلم أن يقوم على قبور الكفار والمنافقين بقوله تعالى ﴿ **ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون** ﴾ .

٤ ـ وفي سند هذا الحديث من طريقيه عند مسلم : يزيد بن كيسان وهو ضعيف ، قال يحيى القطان : « ليس هو ممن يعتمد عليه ، هو صالح وسط » وقال ابن أبي حاتم عن أبيه : « يكتب حديثه ؛ محلّه الصدق ، صالح الحديث . قلت له :

يحتج بحديثه ؟ قال : لا ، هو بابة فضيل بن غزوان وذويه ، بعض ما يأتي به صحيح وبعض لا ، وكان البخاري قد أدخله في كتاب الضعفاء فقال أبي يحوّل منه » .

فهذا الراوي صدوق في نفسه لا يتعمد الكذب إلا أنه ضعيف الحفظ لا يحتج بحديثه لأنه يخطىء ويخالف كما قال ابن حبان . [انظر « تهذيب الكمال » (٣٢/ ٢٣٢) وقال الحافظ في التقريب : « صدوق يخطىء » فإذا كان مَنْ هو فوقه في الحفظ والضبط والتوثيق لا يقوى خبره على معارضة القرآن فكيف بهذا ؟!! وبهذه الأمور وغيرها تم الحكم على هذا الحديث بالشذوذ والضعف والنكارة !!

(ثانيتهما) : الحديث الذي فيه أن رجلاً قال : يا رسول الله أين أبي ؟ قال : « في النار » فلمّا قضى دعاه فقال : « إنَّ أبي وأباك في النار » رواه مسلم (١/ ١٩١) .

قال الإمام الحافظ السيوطي كما في « الحاوي » (٢/ ٢٢٦) في رسالته « مسالك الحنفا في والدي المصطفى » ما نصه في الجواب على الاستدلال بهذا الحديث : [**الجواب** : أن هذه اللفظة وهي قوله : « إن أبي وأباك في النار » لم يتفق على ذكرها الرواة ، وإنما ذكرها حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس ؛ وهي الطريق التي رواه مسلم منها ؛ وقد خالفه مَعْمَرُ عن ثابت فلم يذكر « إن أبي وأباك في النار » ولكن قال له : « إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار » : وهذا اللفظ لا دلالة فيه على والده صلى الله عليه وآله وسلم بأمر البتة ؛ وهو أثبت من حيث الرواية ؛ فإنَّ مَعْمَرَاً أثبت من حماد ؛ فإنَّ حماداً تُكُلّم في حفظه ووقع في أحاديثه مناكير ؛ ذكروا أن ربيبه دسّها في كتبه ؛ وكان حمّاد لا يحفظ فحدّث بها فوهم فيها ؛ ومن ثَمَّ لم يخرج له البخاري شيئاً .... وأمّا معمر فلم يُتَكَلَّمْ في حفظه ولا استنكر شيء من حديثه ؛ واتفق على التخريج له الشيخان فكان لفظه أثبت ؛ ثمَّ وجدنا الحديث ورد من طريق سعد بن أبي وقاص بمثل لفظ رواية معمر عن ثابت عن أنس ؛ فأخرج البزار والطبراني والبيهقي من طريق إبراهيم بن سعد عن الزهري عن عامر بن سعد عن أبيه أنَّ أعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أين

أبي ؟ قال : « في النار » . قال : فأين أبوك ؟ قال : « حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار »(٥٠) . وهذا إسناد على شرط الشيخين فتعيّن الاعتماد على هذا اللفظ وتقديمه على غيره ...] انتهى ما أردنا نقله من كلام الإمام السيوطي(٥١) .

قلت : ومنه يتبين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل « أبي وأباك في النار » ولا دلالة في هذه اللفظة الشاذة على ما أرادت المشبهة والمجسمة النواصب فعلينا أن نستمسك بما هو مقطوع في القرآن وهو الذي قررناه ، وقد بَيَّنْتُ هذه المسألة أيضاً ببعض توسّع في آخر كتابي « إلقام الحجر » ؛ وقد ذكر هذين الحديثين سيدي الإمام المحدّث عبدالله ابن الصدّيق الغماري في كتابه الفذ « الفوائد المقصودة في بيان الأحاديث الشاذة المردودة » ص (٩٢ ـ ٩٧) ؛ والله الموفق والهادي .

ثانياً : ذكر أخبار شاذة مردودة في مسألة الفَتْرة :

عن الأسود بن سريع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « أربعة يحتجون يوم القيامة : رجلٌ أصم ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات في الفترة ، فأمّا الأصمُ فيقول : يا رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً ؛ وأما الأحمق فيقول : ربِّ قد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر ؛ وأما الهرم فيقول : ربّ لقد جاء الإسلام وما أعقل ، وأما الذي مات في الفترة فيقول : ربّ ما أتاني لك رسول ؛ فيأخذ مواثيقهم لَيُطيعُنَّه ؛ فيرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار ، قال : فوالذي نفسي بيده لو دخلوها كانت عليهم برداً وسلاماً »(٥٢) .

---

(٥٠) وقد روى هذا الحديث بهذا اللفظ ابن ماجة أيضاً في « السنن » (١/ ٥٠١) من حديث ابن عمر بسند صحيح .

(٥١) وإنني أقترح على القارئ الكريم إذا وصل إلى هذا الموضع أن يقرأ رسالة الحافظ السيوطي هذه ـ مسالك الحنفا في والدي المصطفى ـ المطبوعة في كتاب « الحاوي للفتاوي » (٢/ ٢٠٢) فإنّ فيها تحريراً وإجابة عن كثير من الاستفسارات الدائرة حول هذه القضية .

(٥٢) هذا حديث صحيح الإسناد شاذ المتن مردود كما سنبين بعد قليل إن شاء الله تعالى .
رواه أحمد (٤/ ٢٤) وابن حبان في « صحيحه » (١٦/ ٣٥٦) والبزار (٣/ ٣٣ كشف الأستار) والطبراني في « المعجم الكبير » (١/ ٢٨٧) والبيهقي في الاعتقاد ص (١١١) . وقد رواه البزار والبيهقي وغيرهما عن أبي هريرة بسند صحيح أيضاً ؛ قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد »

ورواه الإمام ابن جرير الطبري من طريقين في « تفسيره » (٩/ ١٥/ ٥٤) عن معمر عن همّام **موقوفاً من حديث أبي هريرة**(٥٣) :

« إذا كان يوم القيامة ؛ جمع الله نسم الذين ماتوا في الفترة والمعتوه والأصم والأبكم والشيوخ الذين جاء الإسلام وقد خَرِفُوا ثمَّ أرسل رسولاً أن ادخلوا النار ؛ فيقولون : كيف ولم يأتنا رسول وأَيْمُ الله لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً ، ثم يرسل إليهم فيطيعه مَن كان يريد أن يطيعه قبل » .

قال أبوهريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿ **وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ .

قلت : أورد هذه الأحاديث ابن كثير في « تفسيره » (٣/ ٣١-٣٤) من طرقها العديدة ثم قال عند الكلام على امتحان الأطفال يوم القيامة :

« ومنهم من ذهب إلى أنهم يُمْتَحَنُون يوم القيامة في العرصات فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة ؛ ومَنْ عصى دخل النار داخراً وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة ؛ وهذا القول يجمع بين الأدلّة كلّها وقد صرّحت به الأحاديث المتقدّمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض . وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة وهو الذي نصره الحافظ أبوبكر البيهقي في كتاب الاعتقاد وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنُقَّاد . وقد ذكر الشيخ أبو عمر بن عبد البَّر النمري بعدما تقدّم من أحاديث الامتحان ثم قال :

وأحاديث هذا الباب ليست قوية ولا تقوم بها حجة وأهل العلم ينكرونها لأنَّ الآخرة دار جزاء وليست بدار عمل ولا ابتلاء فكيف يكلّفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين والله لا يكلّف نفساً إلا وسعها .

والجواب عمّا قال : إن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيحٌ كما قد نصَّ

(٧/ ٢١٦) : « رجال أحمد في طريق الأسود بن سريع وأبي هريرة رجال الصحيح ، وكذلك رجال البزار فيهما » .

(٥٣) وهذا يثبت عندي أنه من الإسرائيليات لثبوت رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ولأن النص يعارض القواعد .

على ذلك كثير من أئمة العلماء ومنها ما هو حسن ومنها ما هو ضعيف يتقوّى بالصحيح والحسن ؛ وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها(٥٤) .

وأما قوله : إن الدار الآخرة دار جزاء فلا شك أنها دار جزاء ولا ينافي التكليف في عَرَصَاتها قبل دخول الجنة أو النار(٥٥) كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة من امتحان الأطفال(٥٦) ؛ وقد قال الله تعالى يوم يُكْشَفُ عن ساق ويدعون إلى السجود الآية (٥٧) ؛ وقد ثبت في الصحاح وغيرها

---

(٥٤) **قلت** : الصواب هنا أن الأمر ليس كذلك !! فلا يستفيد الناظر منها حجة لوجود المعارض القطعي الثابت في القرآن !! وكان يمكن قبولها في أمر فرعي لو لم يعارضها شيء قطعي فافهم !!

(٥٥) بل ينافي التكليف بعد خروج الروح من الجسد قولنا إن في قولنا إن عرصات القيامة تكليف لبعض الناس دون بعض ؛ لأنَّ الأحاديث الصحيحة الأخرى الموافقة للآيات الناصة على عدم عذاب مَنْ لم تصله دعوة الرسل تعارض تلك الأحاد التي تقول بالإمتحان في عرصات القيامة ؛ ومنها ما رواه البخاري (١٢/ ٤٣٩) وأحمد (٥/ ٩) وغيرهما في حديث الرؤية الطويل وفيه قوله صلى الله عليه ، آله وسلم « وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم ؛ وأما الولْدان الذين حوله فكلُّ مولود مات على الفطرة » قال : فقال بعض المسلمين : يارسول الله وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « وأولاد المشركين » .

(٥٦) ليس ما نقله أبو الحسن الأشعري مذهب أهل السنة والجماعة !! بمعنى أنهم لم يُجْمِعُوا على هذا الرأي حتى يصح أن يقال فيه هذا مذهب أهل السنة والجماعة !! بل الواقع أن هذه المسألة بالذات وقع الخلاف فيها بين أهل السنة والجماعة قديماً وحديثاً وقد نص الحافظ ابن حجر العسقلاني في « الفتح » (٣/ ٢٤٦) على ذلك حيث قال : « واختلف العلماء قديماً وحديثاً في هذه المسألة على أقوال » وسيأتي إن شاء الله تعالى أيضاً نقل ذلك الخلاف عن الحافظ ابن عبدالبر !! فيكون من قال بوقوع السؤال والامتحان لهؤلاء في الآخرة غالطاً !! ويكون ابن كثير قد هوّل الأمر فصوّر أن القول الذي يريد نصرته هو مذهب أهل السنة والجماعة قاطبة نقلاً عن الأشعري تصويراً مخطئاً !! ونحن نقول بأنَّ ما ذهب إليه هو ومن يوافقه في هذه المسألة قد أخطأ !!

(٥٧) قوله تعالى : ﴿ **يوم يُكْشَفُ عن ساق ويُدْعون إلى السجود فلا يستطيعون** ﴾ لا يفيد أنهم مكلّفون أو أن هذا تكليف يقع على العباد أو على بعضهم يوم القيامة ؛ لأنَّ هذا توبيخ وتقريع وكشف لهم يوم القيامة ؛ وهو جزءٌ من جزائهم وعذابهم الذي سيلقونه في عرصات القيامة قبل آن يدخلوا النار !! ثمّ إن لذلك قرائن ولا يقال إنها تكليف ولا امتحان بل يقال هي توبيخ وتقريع للمنافقين والكفار وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ **يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم**

أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة وأنَّ المنافق لا يستطيع ذلك ويعود ظهره كالصفيحة الواحد طبقاً واحداً كلّما أراد السجود خرَّ لقفاه(٥٨) ؛ وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجاً منها أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه ألا يسأل غير ما هو فيه ويتكرر ذلك مراراً ؛ ويقول الله تعالى : يا ابن آدم ما أغدرك ؛ ثمَّ يأذن له في دخول الجنة(٥٩) .

وأما قوله : فكيف يكلّفهم الله دخول النار وليس ذلك في وسعهم فليس هذا بمانع من صحة الحديث(٦٠) فإنَّ الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط ؛ وهو جسر على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة(٦١) ويمر المؤمنون عليه

ولا يظلمون فتيلاً ﴾ فكما أن لفظة (ندعو) هنا لا تدلُّ على تكليف المؤمنين وغيرهم بشيء فكذلك لفظة ﴿ **يوم يدعون إلى السجود** ﴾ لا تدلُّ على التكليف أيضاً !! كما أن مثل حديث « مَنْ أرى عينيه ما لم تريا كُلِّفَ أن يعقد بين شعرتين وما هو بعاقد » لا يسمّى هذا تكليفاً وإنما هو خزي وتوبيخ وتقريع !! وبذلك يتبين أن ما ذكره لا دليل فيه على ما يريده البتة !! كقوله تعالى : ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾ تقريع وليس تكليفاً .

(٥٨) ولا دلالة في هذا أيضاً على مايريد الاستدلال عليه وما يقال فيما قبله يقال هنا في جوابه !!

(٥٩) لا دلالة في هذا الحديث على ما يريد البتة !! وهذا حديث آحاد لو كان فيه دلالة على ما يريد فإنه لا يقوى على معارضة أو نقض الثابت القطعي في كتاب الله تعالى !! هذا مع التنبيه إلى أن هذا الحديث هو جزء من حديث الصورة الشاذ الذي تكلمنا على جزء منه في « دفع الشبه » ص (١٥٧) في الكلام على الحديث الخامس هناك .

(٦٠) بل هو مانع منه لقوله سبحانه ﴿ **لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ ولقوله تعالى ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثير التي يفهم المقصود منها من معناها !!

(٦١) قضية أن الله تعالى يأمرهم بأن يمشوا على جسر أدق من الشعرة وأحد من السيف قضية باطلة كما ستبين ذلك عند الكلام على الصراط في هذا الشرح !! ولم يثبت في القرآن ولا في حديث صحيح أن الصراط أدق من الشعرة وأحد من السيف كما تجد ذلك عند استعراض روايات (أدق من الشعرة وأحد من السيف) حيث أوردها الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١١/ ٤٥٤) ولذا قال الدردير في « شرح الخريدة » ص (٥٤) : « وأنكر القرافي تبعاً لشيخه العز كونه ـ أي الصراط ـ أدق من الشعرة وأحد من السيف » . وكذا أنكر ذلك الزركشي .

ومن هذا يتبين أن استدلاله هنا غير صحيح زيادة على كون الدليل ضعيف جداً بل باطل !!

بحسب أعمالهم كالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب ، ومنهم الساعي ومنهم الماشي ومنهم من يحبو حبواً ؛ ومنهم المكدوش على وجهه في النار ؛ وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم[٦٢] ؛ وأيضاً فقد ثبتت السُّنَّة بأنَّ الدجال يكون معه جنة ونار وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار فإنه يكون عليه برداً وسلاماً ؛ فهذا نظير ذاك[٦٣] ؛ وأيضاً فإنَّ الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفاً[٦٤] ... » هذا كلام ابن كثير .

وقد لخّص الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٣/٢٤٦) كلام ابن كثير هذا عند الكلام على أولاد المشركين (الذين ماتوا قبل البلوغ هل هم في الجنة أم في النار ؟)[٦٥] فقال ما نصه :

[واختلف العلماء قديماً وحديثاً في هذه المسألة على أقوال : ... سابعها أنهم يُمْتَحَنُون في الآخرة بأن ترفع لهم نار ؛ فمن دخلها كانت عليه برداً

---

(٦٢) كيف يكون المرور من فوق النار أطم واعظم من الدخول فيها ؟! ثمَّ إن ما ذكره هنا هو من حشو الكلام الذي لا فائدة منه بعد معرفة أن دليل ما ذهب إليه من كون وجود صراط أدق من الشعرة وأحد من السيف غير صحيح !!

(٦٣) كيف يكون هذا نظير ذاك وهذا في الدنيا وذاك في الآخرة وأنت تقول في كتبك بأن أمور الآخرة لا يقاس عليها أمور الدنيا ؟! ثم إن ثبت هذا الدليل الذي أوردته وجماعة من العلماء ينازعونك في ثبوته !!

(٦٤) لا فائدة من هذا الكلام وما بعده طالما أنه أمر تكليفي على قوم في الدنيا !! وقضية النزاع واقعة في الآخرة والمسألة بعينها هي قضية النزاع فكيف يستدلُّ بها عليها ؟!!

(٦٥) نحن نقطع بأنهم في الجنة ولا شك عندنا في ذلك للأدلة القاطعة في هذه المسألة ؛ والتي منها قوله تعالى : ﴿ **وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ ولقوله تعالى : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا** ﴾ الإسراء : ٣٦ ، فبين الله تعالى أن أدوات الفهم هي السمع والبصر والعقل الذي عبّر عنه بالفؤاد ، والصبي لا يعقل بمستوى يؤهله للتكليف ، وقد بيّنا ذلك في الكلام على المكلّف فلا نعود إليه ، وكذا من لم يأته نبي (وهم أهل الفترة) والأصم الأبكم والمجنون وغيرهم مما لا يقع التكليف عليهم في الدنيا كلّهم في مقام من لم تصلهم دعوة نبي وقد قطع القرآن بأنَّ مَنْ كانت هذه صفته فليس بمعذّب !! ونحن نعرض هذه الأقوال لنجمع حجج القائلين بها حتى نفنّد أدلتهم ونبين عدم صحتها للاستدلال في هذه القضية ؛ والله الموفق .

وسلاماً ، ومَنْ أبى عُذِّب ؛ أخرجه البزار من حديث أنس وأبي سعيد ؛ وأخرجه الطبراني من حديث معاذ بن جبل . وقد صحّت مسألة الامتحان في حق المجنون ومن مات في الفترة من طرق صحيحة ، وحكى البيهقي في كتاب الاعتقاد أنه المذهب الصحيح ؛ وَتعُقّبَ بأنَّ الآخرة ليست دار تكليف فلا عمل فيها ولا ابتلاء ، وأجيب بأن ذلك بعد أن يقع الاستقرار في الجنة أو النار(٦٦) ، وأمّا في عرصات القيامة فلا مانع من ذلك ، وقد قال الله تعالى ﴿ **يوم يكشف عن ساق وَيُدْعَون إلى السجود فلا يستطيعون** ﴾ وفي الصحيحين « إن الناس يؤمرون بالسجود ؛ فيصير ظهر المنافق طبقاً فلا يستطيع أن يسجد »(٦٧)] .

وعلى فرض صحة أحاديث الابتلاء والامتحان هذه يوم القيامة فقد قال الحافظ ابن حجر كما نقل عنه الحافظ السيوطي في رسالته « مسالك الحنفا في والدي المصطفى » المطبوعة في كتاب « الحاوي » (٢/٢٠٧) :

« والظن بآبائه صلى الله عليه وآله وسلم كلّهم يطيعون عند الامتحان(٦٨) لِتَقرَّ بهم عينه صلى الله عليه وآله وسلم » .

وبعد أن فنّدنا في حواشي هذه الورقات رأي من قال بالامتحان يوم القيامة نقول : لقد نص جماعة من المحققين أيضاً على أن حديث الامتحان مخالف لقواعد الدين منهم الإمام الحليمي شيخ الإمام البيهقي فقد نقل عنه الإمام القرطبي في « التذكرة » (٢/٦١١) أنه قال : « قال الحليمي : وهذ الحديث ليس بثابت **وهو مخالف لأصول المسلمين** ؛ لأنَّ الآخرة ليست بدار امتحان فإنَّ المعرفة بالله تعالى فيه

---

(٦٦) وهذا تلخيص منه لكلام ابن كثير وقد تقدّم رد هذا وما بعده من الحجج .

(٦٧) هذا الحديث تفرَّد البخاري بروايته ولم يروه مسلم بهذه الصورة وبوجود لفظ (فيصير ظهر المنافق طبقاً) وهذا نصه في البخاري (٤٩١٩) : عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « **يكشف ربنا عن ساقه** فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة فيبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً » . أقول : هذا حديث باطل موضوع ! وتنزه الباري جلَّ وعلا أن يكون له ساق وأنه يكشف عنها وهذا الحديث الباطل يؤسس الصنمية والوثنية في الإسلام ! وننزه الحبيب الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم عن أن يكون قاله !

(٦٨) هذه من الأمور المضحكات حقاً ! ولم يقل ذلك إلا لأنه يرى صحة هذا الحديث الشاذ !

تكون ضرورة ولا محنة مع الضرورة ؛ ولأنَّ الأطفال هناك لا يخلون من أن يكونوا عقلاء أو غير عقلاء ، فإن كانوا مضطرين إلى المعرفة فلا يليق بأحوالهم المحنة ؛ وإن كانوا غير عقلاء فهم من المحنة أبعد » .

وأيد ذلك القرطبي في التذكرة وفي « تفسيره » (١٠/ ٢٣٢) أيضاً .

ونقل القرطبي في « التذكرة » (٢/ ٦١٢) : أيضاً عن الحافظ ابن عبد البر أنه قال عن أحاديث الامتحان : « هذه الأحاديث من أحاديث الشيوخ وفيها علل وليست من أحاديث الأئمة الفقهاء ؛ وهو أصل عظيم ، والقطع فيه بمثل هذه الأحاديث ضَعْفٌ في العلم والنظر مع أنه قد عارضها ما هو أقوى منها .. »(٦٩) .

وقد ذكر أنها مردودة أيضاً شيخنا الإمام المحدّث سيدي عبد الله ابن الصدّيق في « الفوائد المقصود في بيان الأحاديث الشاذة المردودة » ص (٩٧) .

وقد تبين لي أمر آخر أيضاً في تعليل أحاديث الامتحان وهو أن أحاديث الامتحان نصّت على أنَّ هؤلاء المُمْتَحَنين الذين عصوا الله تعالى بعدم دخولهم النار يكونون بعد ذلك من أهلها فيدخلون فيها !! وهو ظاهر في تخليدهم فيها مع أهلها الخالدين فيها !! وهذا مخالف لما هو مقرر في الشريعة من أنه لا يخلد في النار أحد بمعصية وإنما يخلد بالكفر بالله تعالى كما هو مقرر عند أهل السنة ؛ وهؤلاء لم يقع منهم كفر حينئذٍ ؛ فإن قيل : وقع منهم الكفر في الدنيا !! قلنا : وأولئك الذين يدخلون النار عند أمرهم ولا تحرقهم وقع منهم الكفر في الدنيا أيضاً كما زعمتم فكيف يدخلون الجنة ساعتئذ بكفر في الدنيا مقرون بطاعة من الطاعات ؟!

وبذلك تبطل أحاديث الامتحان من حيث معناها والله الموفق .

وبذلك يتلخّص هذا البحث في أن أهل الفترة ناجون وأنهم في الجنة وأن منهم والديه صلى الله عليه وآله وسلم والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

ومن بديع ما قاله بعض أهل العلم في هذا المعنى نظماً ؛ ما قاله العلامة عبدالله العلوي الشنقيطي في نظم النوازل (٧٠) :

---

(٦٩) هو في كتاب التمهيد للحافظ ابن عبد البر (١٨/ ١٣٠) .

(٧٠) انظر كتاب « مرجع المشكلات في الاعتقادات والعبادات والمعاملات والجنايات » وهو شرح نظم

مـن قال في دعاهُ رَبِّ يَخْرقُ   أُمَّ النبي كافرٌ يُحَرَّقُ
ومَنْ يقلْ في النار والدُ النبي   فهو لعينٌ قاله ابن العربي
وسب نجله مَن استخفّا   بحقّه زندقة لا تَخفَى

والله الهادي .

فصل

في زيادة الإيمان ونقصانه

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى : (والإيمان واحدٌ ؛ وأهله في أصله سواء ؛ والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الأولى) .

الشرح :

قال الإمام البخاري في « صحيحه » (١/ ٤٥) :

[كتاب الإيمان : وهو قول وفعل ، ويزيد وينقص . قال الله تعالى ﴿ **ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم** ﴾ ﴿ **وزدناهم هدى** ﴾ ﴿ **ويزيد الله الذين اهتدوا هدى** ﴾ ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾ ﴿ **ويزداد الذين آمنوا إيماناً** ﴾ وقوله : ﴿ **أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً** ﴾ وقوله جلَّ ذكره ﴿ **فاخشوهم فزادهم إيماناً** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً** ﴾ .

والحب في الله والبغض في الله من الإيمان وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عَدِي بن عَدِي : إنَّ للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً ، فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، فإن أَعِش فسأُبينها لكم حتى تعملوا بها ، وإن أَمُت فما أنا على صحبتكم بحريص .

وقال (سيدنا) إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) ﴿ **ولكن ليطمئنَّ قلبي** ﴾

النوازل للشيخ أبي القاسم بن محمد التواتي الليبي ص (١٦٩) .

وقال معاذ : اجلس بنا نؤمن ساعة ...] . انتهى وما بين القوسين ( ) من زياداتي أدباً .

أقول : وروينا بإسنادنا المتصل إلى سنن ابن ماجه (١/ ٢٥ برقم ٦٥) حيث روى من طريق أبي الصلت الهروي رحمه الله تعالى أنه قال : حدثنا علي بن موسى الرضا ، عن أبيه (موسى الكاظم) ، عن جعفر (الصادق) بن محمد (الباقر) عن أبيه (الباقر) ، عن علي بن الحسين (زين العابدين) عن أبيه (سيدنا الحسين بن علي السبط) عن (سيدنا ومولانا) علي بن أبي طالب قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« الإيمان معرفة بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالأركان » .

قال أبو الصلت (وكان خادماً لعلي بن موسى) : لو قرئَ هذا الإسناد على مجنون لبرأ .

قلت : لأنه مسلسل بأئمة فضلاء من صلب آل البيت عليهم السلام .

وهذا حديث صحيح في غاية الصحة ، وقد أجمع أهل الحق على معناه وأبو الصلت إمام ثقة .

ومن أوضح ما رأيته في هذه المسألة من البيان هو ما قاله الشيخ عبدالسلام اللقاني في شرح منظومة أبيه (الجوهرة) حيث قال هناك :

[(**وَرُجِّحَتْ زيادةُ الإيمان**) أي وَرَجَّحَ جماعة من العلماء القولَ بقبول الإيمان الزيادةَ ووقوعها فيه (**بما تَزيدُ طَاعَة**) أي بسبب زيادة طاعة (**الإنسَان**) وهي : فعلُ المأمور به واجتنابُ المنهي عنه (**ونَقْصهُ**) أي الإيمان من حيث هو ، لا بِقيْدِ محل مخصوص ؛ فلا يرد الأنبياءُ والملائكةُ ؛ إذ لا يجوز على إيمانهم أن ينقص (**بنقصها**) يعني الطاعة إجماعاً ، هذا مذهبُ جمهور الأشاعرة ، قال البخاري : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قولٌ وعمل ، ويزيد وينقص ، مُحْتَجِّينَ على ذلك بالعقل والنقل :

أما العقل فلأنه لو لم تتفاوت حقيقة الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة ــ بل

المنهمكين على الفِسْقِ والمعاصي ـ مساوياً لإيمان الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام ، واللازم باطل ؛ فكذا الملزوم .

وأما النقل فلكثرة النصوص الواردة في هذا المعنى ، كقوله تعالى ﴿ **وإذَا تُلِيتْ عَلَيْهِمْ آياته زَادتهم إيماناً** ﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام لابن عمر رضي الله عنهما ـ حين سأله الإيمان يزيد وينقص ؟ ـ قال : « نعم ، يزيد حتى يُدْخِل صاحبه الجنَّة ، وينقصُ حتى يُدْخِلَ صاحبه النار »(٧١) وقوله عليه الصلاة والسلام : « **لو وُزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به** »(٧٢) وكلُّ ما يَقْبَل الزيادة يقبل النقص ، فيتم الدليل .

(**وقيل**) أي : وقال جماعة من العلماء أعظمهم الإمام أبوحنيفة وأصحابه وكثير من المتكلمين : الإيمان (**لا**) يزيد ولا ينقص ، لأنه اسم للتصديق البالغ حدَّ الجزم والإذعان وهذا لا يتصور فيه ما ذكر ، فالمصدِّق إذا ضَمَّ إلى تصديقه طاعة أو ارتكب معصية فتصديقه بحاله لم يتغير أصلاً ، وإنما يتفاوت إذا كان اسماً للطاعات المتفاوتة قلة وكثرة .

وأجابوا عما تمسك به الأولون بأن المراد الزيادة بحسب زيادة ما يؤمن به ، والصحابة رضي الله عنهم كانوا آمنوا في الجملة ، وكانت الشريعة لم تتم ، وكانت الأحكام تنزل شيئاً فشيئاً ، فكانوا يؤمنون بكل ما يتجدَّد منها .

ويحتمل أن يكون المصنف رحمه الله تعالى أراد أن الإيمان يزيد ولا ينقص كما ذهب إليه الخطّابي حيث قال : الإيمان قول وهو لا يزيد ولا ينقص ، وعمل وهو يزيد وينقص ، واعتقاد وهو يزيد ولا ينقص ، فإذا نقص ذهب .

---

(٧١) لا وجود لهذا الحديث بهذه الصورة ومن حديث عبدالله بن عمر فهو موضوع جزماً وانظرإلى بقية ألفاظ الحديث التالفة في « تنزيه الشريعة المرفوعة » (١/ ١٥٠) .

(٧٢) الصواب (بهم) بدل (به) وهذا ليس بحديث وإنما هو قولٌ لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه ، رواه البيهقي في « الشعب » (١/ ٦٩) بسند صحيح كما قال الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » ص (٣٤٩) وابن عساكر في تاريخه في ترجمة أبي بكر . واعلم أنه ممن لو وزن إيمانه بإيمان الإمة لرجح بهم أيضاً : مثل السيدة خديجة والسيدة فاطمة وسيدنا علي وسيدنا ومصعب وعمار وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم .

(وقيل) أي : وقال جماعة منهم الفخر الرازي : إنه **(لا خُلْفَ)** أي : ليس الخلفُ بين الفريقين حقيقاً ، وإنما هو لفظي(٧٣) ؛ لأن ما يدل على أن الإيمان لا يتفاوت مصروف إلى أصله ، أعني التصديقَ ، وما يدل على أنه يتفاوت مصروف إلى ما به كماله ، وهو الأعمال ؛ فالخلاف في هذه المسألة فرعُ تفسير الإيمان ، فإن قلنا « هو التصديق فقط » فلا تفاوت ، وإن قلنا « هو الأعمال مع التصديق » فمتفاوت .

وأشار بقوله **(كَذا قَدْ نُقِلا)** إلى التَّبري من عُهْدة صحة هذا القيل ؛ لأن الأصح أن التصديق القلبي يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة وعدم ذلك ، ولهذا كان إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريه الشبهُ ، ويؤيده أن كلَّ أحدٍ يعلم أن ما في قلبه يتفاضل حتى يكون بعض الأحيان أعظمَ يقيناً وإخلاصاً منه في بعضها ، فكذلك التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها ، على أن هذا القيلَ خلافُ المعروف بين القوم أن الخلاف حقيقي] .

وأقول بعد هذا : هذه مسألة وقع الخلاف فيها بين السلف ، وليست هي من أصول الاعتقاد ولو لم يعلمها الإنسان ولم يعرفها لا شيء عليه .

---

(٧٣) قال الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد في تعليقه على هذا النص : لو كان كل القائلين بقبول الإيمان الزيادة يفسرونه بما يشمل العمل ، وكل القائلين بعدم قبوله الزيادة يفسرونه بالتصديق وحده لكان الخلاف لفظياً ، لكنك قد علمت أن من القائلين بقبوله الزيادة مَن يفسره بالتصديق وحده ، وهم الأشاعرة ؛ فلا يمكن أن يكون الخلاف لفظياً . انتهى .

لقب الإسلام خاص بأُمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء عليهم الصلاة والسلام

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى : (ودينُ الله في الأرض والسماء واحد ، وهو دينُ الإسلام ، قال الله تعالى ﴿ إن الدين عند اللهَ الإسلام ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾) .

الشرح :

اعلم أنَّ لقب الإسلام خاص بهذه الملة الشريفة ، ووصف المسلمين خاص بهذه الأُمة المحمدية ، ولم يوصف به أحد من الأُمم السابقة سوى الأنبياء فقط ، فشرفت هذه الأُمة بأنْ وصفت بالوصف الذي كان يوصف به الأنبياء تشريفاً لها وتكريماً .

هذا هو الصحيح الذي تدل عليه نصوص الكتاب والسنة الصريحة خلافاً لبعض أهل عصرنا حيث شذ ، فقال : يصح أن يقال : مسلم موسوي ، ومسلم عيسوي ، وإليك الأدلة التي وردت في ذلك(٧٤) :

(الدليل الأول) : قول الله تعالى : ﴿ **وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل** ﴾ الحج : ٧٨ .

قال الحافظ ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/١٧/٢٠٨) : حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد ﴿ **هو سمّاكم المسلمين** ﴾ قال : ألا ترى قول سيدنا إبراهيم ﴿ **واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لك ومن ذريتنا أُمة مسلمة لك** ﴾ قال : هذا قول إبراهيم ﴿ **هو سمّاكم المسلمين** ﴾ ولم يذكر الله بالإسلام والإيمان غير

---

(٧٤) كما أوردها الحافظ السيوطي وأخذناها منه في رسالته « إتمام النعمة في اختصاص الإسلام بهذه الأمة » انظر الحاوي للفتاوي (٢/ ١١٥) .

هذه الأُمة .

(الدليل الثاني) : قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ **ربنا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لك ومن ذريتنا أُمة مسلمة لك** ﴾ دعا بذلك لنفسه ولولده وهما نَبِيَّان ، ثم دعا به لأُمته من ذريته وهي هذه الأُمة ولهذا عَقَّبَ ذلك بقوله : ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم** ﴾ وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالإجماع ، فأجاب الله تعالى دعاءه بالأمرين ، ببعث سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتسميتهم مسلمين .

(الدليل الثالث) : قوله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ المائدة : ٤ . ظاهر في اختصاص أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الوصف .

(الدليل الرابع) : قوله تعالى : ﴿ **إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا** ﴾ وبهذه الآية استدل العلماء على أن الإسلام كان وصف الأنبياء دون أُممهم ، لأنه سبحانه وتعالى لم يقل عن أتباعهم ﴿ **للذين أسلموا** ﴾ بل قال ﴿ للذين **هادوا** ﴾ فتأمل .

(الدليل الخامس) : قوله تعالى : ﴿ **وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً** ﴾ وهذه الآية صريحة في أن اليهود والنصارى لم يدّعوا قط اسم الإسلام .

(الدليل السادس) : قوله تعالى : ﴿ **ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً** ﴾ فهذه الآية دالة بصراحة ووضوح على أن شريعة سيدنا موسى تسمى اليهودية ، وشريعة سيدنا عيسى تسمى النصرانية ، وشريعة سيدنا إبراهيم تسمى الحنيفية وبها بعث سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهي صريحة في أنَّ اليهود والنصارى لم يدّعوا قط أن شريعتهم تسمى الإسلام ولا أنَّ أحداً منهم يسمى مسلماً .

(الدليل السابع) : قوله تعالى ﴿ قل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا ﴾ هذه الآية دالة على أن الإسلام خاص بهذا الدين وإلا

لكان أهل الكتاب يقولون إذا قيل لهم ءأسلمتم يقولون : نحن مسلمون وديننا الإسلام .

(الدليل الثامن) : رواه البخاري (٤) ومسلم (١٦٠) في حديث بدء الوحي من قول الراوي في حق ورقة بن نوفل : « وكان امرءاً تَنَصَّرَ في الجاهلية » ، فلو كان الدين الحق من ملة سيدنا عيسى يسمى إسلاماً وصاحبه مسلم لقال : « وكان امرءاً أسلم في الجاهلية » .

وأما قول الله تعالى : ﴿ **فأخرجنا مَنْ كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾ فالمراد بيت سيدنا لوط عليه الصلاة والسلام ولم يكن فيه مسلم إلا هو وبناته وهو نبي فصح إطلاقه عليه بالأصالة وإطلاقه على بناته إما على سبيل التغليب وإما على سبيل التبعية ، إذا لا مانع من أنْ يختص أولاد الأنبياء بخصائص لا تشاركهم فيها بقية الأُمة ، كخصائص آل البيت بتحريم الصدقة عليهم .

وحيثما جاءت لفظة المسلمين لغير هذه الأُمة فالمراد بها المعنى اللغوي وهو انقياد واستسلام هؤلاء القوم لنبيهم ، أو أنَّ في القوم نبي فإنَّه وإن كان في جماعة كبيرة فإن وصفه يغلب لشرفه على الجميع ، ومن هذا الباب قول الله تعالى : ﴿ **وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾ وكان في القوم أخوه سيدنا هارون عليه السلام .

وكذلك قول الله تعالى حكاية عن أولاد سيدنا يعقوب عليه السلام : ﴿ **قالوا نعبد إلهك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ونحن له مسلمون** ﴾ فإنَّ فيهم سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام وهو نبي مسلم غلب وصفه عليهم ، أو على سبيل التبعية كما قدمنا فإن أولاد الأنبياء تبع لآبائهم في كثير من الأوصاف أو الخصوصيات والمراد بأبنائهم مَنْ آمن بآبائهم منهم .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ **وإذ أوحيتُ للحوارين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون** ﴾ فإنَّ الحواريين منهم أنبياء والدليل على ذلك من نفس الآية الكريمة وهو قوله تعالى : ﴿ **أوحيت للحواريين** ﴾ والإيحاء بالمعنى

تنبيه مهم

لا يجوز أن يقال « الأديان السماوية » وهذه العبارة خطأ محض ، بل الصحيح أن يقال « الشرائع السماوية » وذلك لأن الدين هو العقيدة وهي لا تتغير من شريعة نبي إلى شريعة نبي آخر ، بل الذي يتغيّر ويتبدّل الفروع الفقهية (الأحكام الشرعية) فتنسخ من شريعة إلى شريعة وأما التوحيد فمحكم لا يدخله النسخ بتاتاً(٧٦) ، وقول الله تعالى : ﴿ **إنَّ الدين عند الله الإسلام** ﴾ وقوله ﴿ **وجعلنا لكل منكم شِرْعة ومنهاجاً** ﴾ صريح فيما نقول ، وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « الأنبياء أخوة لعَلاّت أُمهاتهم شتى ودينهم واحد » رواه البخاري (٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥) وغيرهما ، قال الحافظ ابن حجر في شرح الحديث في « فتح الباري » (٦/ ٤٨٩) :

« ومعنى الحديث أنَّ أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع » .

ومعنى أخوة لِعَلاّت : أي إخوة من ضرائر وهذه كناية عن اتحاد الدين الذي هو العقيدة واختلاف الشرائع وهي الأحكام التشريعية الفرعية ، فعلى هذا يجوز أن يقال : الشرائع السماوية ولا يجوز أن يقال أديان سماوية البتة بل يحرم ذلك لأن في ذلك مصادمة نصوص الكتاب والسنة وما عليه العلماء الراسخون الذين يُرْجَعُ إليهم ويعوّل على كلامهم . والله الموفق .

---

(٧٦) كثير من الكتب التي تبحث في الشرائع السماوية اليوم يطلق عليها مؤلفوها اسم « مقارنة أديان » والصحيح أن يقال : « مقارنة الشرائع » فافهم !!

فصل

مسألة تقسيم التوحيد إلى أُولوهية وربوبية وعرضها على أدلة الكتاب والسنة

لقد أرسل الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بكلمة التوحيد (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله) وحثَّ عليها ووعد قائلها ومعتقدها الجنة ، وقد وردت بذلك الآيات والأخبار الصحيحة ، منها قول الله تعالى : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلاّ الله** ﴾ سورة سيدنا محمد : ١٩ ، ومنها قوله : ﴿ **وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بالله ورسوله فإنا أَعْتَدْنَا للكافرين سعيراً** ﴾ الفتح : ١٣ ، وعن عبادة رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من شهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله ، وأنَّ عيسى عبدالله ورسوله وكلمته(٧٧) ألقاها إلى مريم وروح منه(٧٨) ، والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من عمل » رواه البخاري (٦/ ٤٧٤/ ٣٤٣٥فتح) ومسلم (١/ ٥٧ برقم ٤٦) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أُمرتُ أنْ أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله ، فإذا قالوها عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها ، وحسابهم على الله » رواه البخاري (٢٥) ومسلم (٢١) .

فمن هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة يتضح وضوحاً جلياً أنَّ الله سبحانه بيّن لنا أنّ التوحيد هو (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله) ، ولم يذكر الله تعالى في كتابه ، ولا النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سنته أنَّ التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام توحيد ربوبية وتوحيد أُلوهيّة وتوحيد أسماء وصفات ، بل لم ينطق بهذا التقسيم أحد من الصحابة ، بل ولا أحد من التابعين ، بل ولا أحد من

---

(٧٧) معنى (وكلمته ألقاها إلى مريم) أي : بشارته ارسلها بواسطة المَلَك إلى السيدة مريم .

(٧٨) معنى (وروح منه) أي : منه خلقاً وتكويناً ، لا جزءاً كما تعتقد النصارى .

السلف الصالح رضي الله عن الجميع (٧٩) .

وقد تبين لنا مما تقدّم أنَّ التوحيد الذي جاء به صلى الله عليه وآله وسلم هو (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) وتكفي هذه الكلمة لمن نطق بها صادقاً من قلبه وعمل بمقتضاها أن يدخل الجنة (٨٠) وبذلك وردت الأخبار والنصوص والآثار .

روى الإمام مسلم في صحيحه (١/ ٦١ برقم ٥٣) عن سيدنا أنس بن مالك مرفوعاً : « ما من عبد يشهد أن لا إله إلاَّ الله ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله إلا حرّمه الله النار » .

وفي البخاري (فتح ١/ ١٠٣) من حديث سيدنا أنس أيضاً مرفوعاً : « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن بُرَّة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذَرَّة من خير » .

---

(٧٩) وقد اعترض علينا بعض المبتدعة في ذلك فزعم أن السلف قالوا بذلك !! والحق أنه لم يستطيع أن يثبت ذلك عن أحد منهم رغم عرضه لبعض نصوصهم التي استنبط منها هذه البدعة التقسيمية !! ولم يستطع أنْ يثبت هذا التقسيم عن أحد قبل المبتدع المشهور ابن بطة الحنبلي وهو من الخلف وقد ولد سنة ٣٠٤ هـ وتوفي سنة ٣٨٧ هـ وهو سلف ابن تيمية في هذا التقسيم المبتدع المحدث !! لكن المؤسس الحقيقي لهذا التقسيم هو ابن تيمية الحراني .

(٨٠) فالأحاديث الواردة في موضوع (من شهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة) مقيدة بقيدين : **الأول** : أن يقولها صادقاً من قلبه أي مخلصاً فيها ، **والثاني** : أن يسدد أي يعمل بمقتضاها فيقوم بالفروض ويجتنب الكبائر .

قال صاحب القاموس في مادة (سدد) : « سدَّدَه تسديداً : قوَّمه ، ووفقه للسداد ، أي : الصواب من القول والعمل » ، ويؤيد هذا أنه لم يرد في القرآن الكريم الإيمان إلا مع العمل في مثل قوله تعالى ﴿ آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وقال تعالى مبيناً ذلك كله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ هود : ٢٣ ، والآيات في ذلك عديدة ، والله تعالى أعلم .

فقد قيد البخاري حديث « وإن زنى وإن سرق » (٥٣٧٩) بقوله بعدما أخرجه في الصحيح : « قال أبو عبد الله : هذا عند الموت أو قبله إذا تاب وندم وقال لا إله إلا الله غُفر له » .

فإذا علم هذا فيتضح أن هذا هو التوحيد الذي جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكم ثبت من حديث في تحريم قتل الكافر بعد أن قال : لا إله إلا الله ، أي ومحمد رسول الله . انظرصحيح مسلم (١/ ٩٥) وغيره .

وبذلك يبطل قول من زعم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاء بتوحيدين أو ثلاثة : توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وبعضهم يزيد توحيداً ثالثاً وهو توحيد الأسماء والصفات ، والذي ادّعى تعدد التوحيد وانقسامه إلى ربوبية وألوهية يقول : إن توحيد الربوبية هو كونهم مؤمنين بأنَّ الله تعالى هو الخالق الرازق المحي المميت كان حاصلاً عند الكفار ، وإنما جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليقرر لهم توحيد الألوهية وهو توحيد عبادة الله فقط !!

وقد انغرّ بهذا الكلام المتهافت المنقوض الذي تَرُدُّهُ أدلة الكتاب والسنة وكذا الواقع أناس كثيرون في هذه الأَزمان انخداعاً منهم بشرح ابن أبي العز على الطحاوية ، وقد صَنَّفْتُ رسالة أبطلت فيها هذا التقسيم بالأدلة الواضحة ، والاستدلالات الباهرة وسميت تلك الرسالة بـ (التنديد بمن عدد التوحيد)[٨١] فليراجعها مَنْ شاء ، وإنني أنقل الآن إن شاء الله تعالى جُمَلاً مختصرةً منها في تفنيد تقسيم التوحيد إلى توحيد ألوهية وتوحيد ربوبية فأقول :

أصل احتجاج من قسم التوحيد إلى قسمين أنّه زعم أن الكفار وخصوصاً الذين بعث فيهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يؤمنون بوجود الله وأنه المحيي المميت لكنهم ما كانوا يعبدون الله تعالى أو لم يفردوه بالعبادة ولهم بشكل عام دليلان :

الأوّل : قول الله تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾ قالوا : فدلّ ذلك على إقرارهم بوجود الله تعالى وأنه هو الخالق .

والثاني : قولهم كما حكى الله تعالى عنهم : ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ فدلّ ذلك منهم على اعترافهم بوجود الله وأنّه هو الإله الحقيقي .

---

(٨١) وقد استفدنا كثيراً في تلك الرسالة من كتاب العلامة الكبير الشيخ محمد العربي التباني الذي سماه (براءة الأشعريين من عقائد المخالفين) فجزاه عنا وعن أهل الحق خير الجزاء .

والجواب على ذلك من أوجه :

الأوّل : هذه الأقوال التي نطق بها المشركون وأوهمت أنهم كانوا يقرّون بوجود الله عز وجل ، هي كذب منهم حقيقة ولا يعتقدونها ، وإنما قالوها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عند مناظرته ومجادلته لهم وإفحامه لهم في ذلك الجدال بإثبات وجود الله تعالى الذي أمره بجدالهم في قوله سبحانه : ﴿ **وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ فكانوا لا يدرون بم يجيبون ، ويُصِرُّون على عدم ترك آلهتهم وأوثانهم التي يعتقدون أنها تنفعهم وتضرهم وتمطرهم ، فكانوا يُرْضُونه عند اضطرارهم ليتخلّصوا من الإحراج في موقف الإفحام في المناظرة ، والدليل على ما قلناه أنَّ الله عز وجل بَيَّنَ في آخر تلك الآيات أنهم كاذبون وكافرون فقال عز وجل : ﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلاّ ليقرِّبونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذب كفَّار** ﴾ الزمر : ٣ .

فأثبت الله عز وجل كذبهم ومبالغتهم في الكفر فقال : كَفَّار مبالغة في وصفهم بالكفر : كما تقول ضارب وضرّاب ، فكذلك كافر وكَفّار .

وقال تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ، فأنى يؤفكون** ﴾ العنكبوت : ٦١ ، والإفك : هو أشد الكذب ، قال القرطبي في تفسيره (١٣/٣٦١) : « أي كيف يكفرون بتوحيدي وينقلبون عن عبادتي ! » .

أي بعد اعترافهم أن الله خالق السموات والأرض !! وهذا دليل على أنهم قالوا غير معتقدين بها بل هم مضطرون لها عند الإفحام .

الثاني : لا يجوز شرعاً ولا عرفاً ولا للتعليم أن يوصف أولئك الكفار المشركون بالتوحيد أو أنهم كانوا يُوَحّدُون توحيد ربوبية والله تعالى حكم عليهم بالكفر فقال : ﴿ **إن الله لا يهدي من هو كاذب كفَّار** ﴾ البتة .

الثالث : وهناك نصوص أُخرى وأدلّة صريحة تثبت أن أولئك الكفار كانوا لا يقرون بوجود الله ولا بوحدانيته ولا أنه هو المحيي المميت الخالق فيسقط بهذه

الأدلة الاستدلال بالآيتين الشريفتين السابقتين على أنَّ أولئك كانوا يوحّدون ما يسمى بالربوبية ، ومن تلك النصوص الصريحة قول الله تعالى :

﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ، قال من يحيي العظام وهي رميم ؟! قل يُحْييها الذي أنشأها أول مرّة ﴾ سورة يس : ٧٨ .

فهذا السائل يجهل بأن هناك خالقَ يحيي العظام وهي رميم ، بل يستهزئ بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي يصدع بذلك ! وقد رد الله عليه في كتابه الكريم ، فهل يقال عن مثل هذا إنه يوحد توحيد ربوبية ؟!

وخصوصاً أن الله أخبر عن حالهم فقال في كتابه العزيز : **﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يظنون ﴾** الجاثية : ٢٤ .

ولو كان أولئك يقرّون بتوحيد الربوبية وأن الله هو الخالق لما قال الله لهم :

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقَتْ ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ، فَذَكِّرْ إنَّما أنتَ مُذَكِّر ﴾ وكذلك لما أورد الله عز وجل لهم آيات كثيرة فيها أدلة وفيرة على إثبات وجوده والتأمل في هذه المخلوقات والحض على التفكُر في خلق السموات والأرض ، ومنها قوله تعالى :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ أي يعقلون وجود الله تعالى ويعقلون أنّ هذه المذكورات من خلقه .

وأكّد عليهم أن يتدبّروا ذلك فقال لهم : **﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾** ووصف أولي الألباب بكونهم **﴿ يتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾** .

ولو كان أولئك يقرّون بالربوبية لله تعالى لما قال الله عنهم : **﴿ وإذا قيل لهم**

اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً ﴾ فإذا كان الله إله آلهتهم كما يزعمون وهم يقولون حقاً إنهم يعبدونها لتقربهم منه فلماذا يرفضون السجود له سبحانه ؟!

الجواب : لأنهم لا يقرون بأن الله سبحانه موجود وأنه خالق محي مميت ، وقد قدّمنا من الأدلة ما يقنع كل لبيب ، وجمعنا بين الأدلة ، والجمع بينها واجب باتفاق ، ومنه يتبين أن كل مَنْ قسّم التوحيد إلى نوعين أو ثلاثة مخالف لأدلة هذه الشريعة بعيد عن تفهم الكتاب والسنة ، وأنه مخطىء في قوله كائناً من كان .

الرابع : أن واقع أولئك المشركين يُكَذِّبُ أنهم كانوا يُقِرُّون بربوبية الله تعالى وقد انتشر في شعرهم وفي كلامهم الإلحاد بوجود الله ، فقد كانوا يقولون :

أشاب الصغير وأفنى الكبير كَرُّ الغداة ومَرُّ العشي

واشتهر أنهم كانوا يقولون : (ما هي إلاّ أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر) وبعد هذا : فهل يقول عاقل بأن الرسل ما جاءت إلا لتقرير توحيد الألوهية الذي هو توحيد العبادة وإن توحيد الربوبيّة كان معروفاً حتى عند الفراعنة ؟! مع أن فرعون كان يقول تارة : ﴿ **ما علمت لكم من إله غيري** ﴾ وتارة ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ وكان اللازم على زعم من قال إنه كان يُوَحِّدُ ربوبية لو كان ذلك حقاً أن يقول : (أنا إلهكم الأعلى) وكذلك لَمَا قال سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام :﴿ **ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾ ولما قال الله تعالى : ﴿ **واتخذوا من دونه آلهة لعلهم ينصرون** ﴾ .

ولو كان الناس يقرون بتوحيد الربوبية دون الألوهية كما يزعم هؤلاء لما كان سؤال المَلَكَين في القبر[٨٢] (أي في البرزخ) لهم كما جاء في الحديث الصحيح : « مَنْ رَبُّك ؟ » بل كان ينبغي أن يكون على الزعم المخطىء (مَنْ إلهك ؟) فلماذا اكتفى المَلكان بتوحيد الربوبية ولم يسألا عن توحيد الألوهية ؟!

ونصوص الكتاب والسنة طافحة بإثبات هدم تقسيم التوحيد إلى ألوهية

---

[٨٢] على قولهم واعترافهم بهذا السؤال !

وربوبية وإلى إزهاق الآراء الفاسدة التي قدّمنا الكلام عليها والبراهين على ذلك كثيرة وقد اكتفينا بالقليل عن الكثير في هذا المقام ، فليتنبه إلى ذلك وأولوا الألباب .

الخامس : التوحيد هو أهم الأشياء التي بَيَّنَهَا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم لنا ولو كان هناك توحيدان حقاً أو ثلاثة لما سكت عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا سيما وقد علّم أصحابه حتى الشرك الأصغر ودخول الخلاء ، فلمَّا لم يذكر ذلك ولا جاء على ألسنة الصحابة والتابعين وأئمة السلف ذِكْرُ شيء من ذلك التقسيم ، عَلِمنَا **أن هذا التقسيم بدعة خَلَفيَّة مذمومة مخالفة لنصوص الكتاب والسنة ،** وممن وقع في ذلك شارح الطحاوية وهو من الخلف من أهل القرن الثامن الهجري وأئمته ومشايخه الذين ينقل عنهم كذلك من الخلف ، والشريعة بريئة من هذا التقسيم المُخْتَرَع الذي جاؤوا به كما قدمنا .

السادس : وهناك ثَمَّة ملاحظة مهمة جداً يجب أن يدركها كل مسلم وهي :

أنَّ من كان يعرف أنَّ الله تعالى موجود خالق رازق محي مميت ، ولكنه لا يريد أن يذعن له ولا أن يعبده ، أو كان أنكر شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة كالمرتد فإن ذلك الإنسان لا يسمى في الشرع وفي العرف موحداً بأي نوع من التوحيد إنما يطلق عليه كافر ، والدليل على ذلك أن الله تعالى أطلق عليه الكفر في قوله سبحانه : ﴿ **ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم** ﴾ فسماه الله كافراً بعد إسلامه ومعرفته بوجود الله سبحانه وأنه هو الحي المميت الرازق ، والشريعة لا تعرف إلا مسلماً أو كافراً والمسلم درجات ، والكافر دركات ، ولا منزلة بين المنزلتين عند مَنْ يقول بهذا التقسيم .

وأما تشتيت عقول عوام المسلمين وطلاب العلم بهذا التقسيم فنكول عن الجادة الحقة والصراط المستقيم وبالله تعالى التوفيق .

بيان أن من اعترف بوجود الله ولم يُوَحِّدْ فهو كافر إجماعاً ولا يسمى موحداً توحيد ربوبية بنص القرآن الكريم

وتنزّلاً مع بعض الناس وعلى سبيل الجدل المنصوص على جوازه في القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ **وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ أقول :

هب أن هناك قسماً من الجاهلين أو من أيِّ طائفة من طوائف الكفار فيها أشخاص يقرّون ويعترفون في غير مجال المضايقة في المناظرة ، بأنَّ الله هو الخالق المحي المميت ، فإنّ هذا الإقرار منهم أو هذه المعرفة لا تجعل صاحبها يُسّمى أو يطلق عليه مؤمناً أو موحِّداً لا شرعاً ولا لغة ولا عرفاً البتة .

أما شرعاً فلأدلةٍ منها قوله تعالى : ﴿ **ألا لله الدين الخالصُ ، والذين اتَّخذوا من دونهِ أولياءَ ما نعبدهم** إلاّ لِيُقَرِّبونا إلى الله زُلْفى إنّ الله يحكُمُ بينهم في ما هم فيه يختلفون إنّ الله **لا يَهْدي مَنْ هو كاذب كفّار** ﴾ الزمر : ٣ ، فقد صرّح هذا النص لنا بأنَّ المرء من أولئك مع قوله : ﴿ ما نعبدهم إلا لِيُقربِّونا إلى الله زلفى ﴾ وتسليمنا جدلاً بأنّه مُقِرّ بقلبه بأنّهُ معترف بوجود الله تعالى !! وهو ما يُسَمِّيه الآخرون « توحيد الربوبية » ومع ذلك كلِّه أطلق عليه الله تعالى في كتابه كما ترون بأنه ﴿ **كاذبٌ كفّار** ﴾ .

وأما اللغة والعُرْف فلم يَرِدْ عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سُنَّتِهِ الواسعة أنه سمّاهم مُوحّدين للربوبية ، ولم يُنقل عن أحدٍ من الصحابة أنه قال في حقهم أو عنهم « إيمان دون إيمان » مثل ما نقل عن بعضهم كابن عباس رضي الله تعالى عنهما وغيره أنه قال في بعض الأُمور « كفرٌ دون كفر » وهذا مما يُؤكِّدُ لنا ويدلُّ بأنَّ اللغة التي كان صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ينطقون بها والعُرْف الذي كان سائداً بينهم يمنعان إطلاق موحِّد أو توحيد ربوبية على ذلك الإنسان .

ثُمَّ إنَّ الإيمان والتوحيد والعقيدة هو « ما وَقَرَ في القلب ونطق به اللسان وصدّقه العمل » وتعريف الإيمان والتوحيد واضح من حديث سيدنا جبريل في السؤال عنه الذي رواه مسلم ، وظاهر في كتب التوحيد التي نصَّت على أن الإيمان أو الدخول في التوحيد هو « الإتيان بالشهادتين لساناً مع الإقرار القلبي بكل ما جاء عن الله تعالى ورسوله مع الإذعان » فأين ذلك من هذا ، وبذلك اتَّضح جلياً بطلان هذا التقسيم والله الموفق .

فصل

في إبطال القسم الثالث

من التقسيم المزعوم وهو توحيد الأسماء والصفات

توحيد الأسماء والصفات عند مَنْ أثبته من المشبهة والمجسمة هو الأخذ بظواهر النصوص وفهمها بغير الأسلوب واللسان العربي في سبيل إثبات أعضاء وجوارح لله سبحانه وتعالى من ظواهر نصوص لم يُرِد الشرع منها إثبات جوارح ولا أعضاء وإنما أراد معاني مجازية معروفة في لغة العرب التي نزل بها القرآن ، فمثلاً قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ **واخفض جناحك للمؤمنين** ﴾ لا يراد منه ظاهر هذا اللفظ وهو إثبات جناح لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإنما المراد الحض على الرأفة والرحمة بهم ، وكذلك قوله تعالى ﴿ **يا حسرتى على ما فرّطت في جنب الله** ﴾ لا يراد ظاهره ؛ وهو إثبات جنب لله تعالى وإنما المراد يا حسرتي على ما فرطت في حق الله بتضييع أوامر الله تعالى .

وكذلك قوله تعالى ﴿ **بل يداه مبسوطتان** ﴾ لا يدل على إثبات جارحة اليد ، ولا قوله تعالى ﴿ **ولتصنع على عيني** ﴾ وقوله ﴿ **فإنك بأعيننا** ﴾ إثبات عين وأعين لله سبحانه وتعالى ، كما سيتبين عند الكلام عن الصفات والقواعد المتعلقة بها .

وقد ذهب المجسمة والمشبهة الذين اخترعوا وابتدعوا هذا القسم من التوحيد وهو القسم الثالث عندهم إلى هذا التقسيم ليرموا من يخالفهم في إثبات ما اثبتوه من صفات ـ يتنزه الباري سبحانه وتعالى عن أن يوصف بها ـ إلى أنه مشرك أو غير كامل التوحيد وأن في إيمانه نقصاً ، وكذا ليرهبوا كل من خالفهم في هذا الأمر مهددين بأن مخالفهم ناقص الإيمان حتى يخشى مخالفتهم ويقول بقولهم فيقع في مصيدتهم ، وكل هذا التقسيم في الأصل برمته باطل ومخالف للشريعة .

واعلم يرحمك الله تعالى أنّ أهل الحق من المسلمين يثبتون لله من الصفات ما أثبت لنفسه ، وما يشوشه المجسمة عليهم من أنّهم معطلة وجهمية تشويش فارغ لا

قيمة له بعد التمحيص العلمي والتدقيق (٨٣) .

فأهل السنة (الأشاعرة والماتريدية وغيرهم من أهل الحق المنزهين) يثبتون لله تعالى العلم والقدرة والإرادة والمشيئة والرحمة والحياة والسمع والبصر والكلام وغير ذلك من الصفات ، وينزهون الله سبحانه عمّا لا يليق به ، ولا يطلقون بعض الألفاظ والإضافات الواردة في الكتاب والسنة والتي لا يراد منها حقيقتها صفات لله تعالى ، لأنّ نفس القواعد التي أسستها آيات القرآن المحكمة وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصحيحة ترفض ذلك .

فمثلاً لا يُثبتون صفة النسيان مع أنّ لفظ النسيان ورد مضافاً لله تعالى في القرآن ، قال تعالى : ﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ التوبة : ٦٧ ، **فلم يصفوا الله بذلك ـ أعني النسيان ـ لأنّ الله تعالى يقول أيضاً : ﴿ وما كان ربك نسيّاً ﴾** مريم : ٦٤ ، وكذلك لفظ الهرولة والضحك والمرض والجوع وردت في أحاديث لا يجوز لأي عاقل أنّ يطلقها صفات على الله سبحانه ، فالحديث الصحيح الذي فيه : « ومن أتاني ماشياً أتيته هرولة » لا نثبت به صفة الهرولة لله سبحانه التي معناها الحقيقي في اللغة المشي السريع ، بل يعرف جميع العقلاء ويدركون بأنّ المراد بذلك هو المعنى المجازي في اللغة وهو : (مَنْ أطاعني وتقرّب إليَّ تقربت إليه بإكرامه والإنعام عليه أكثر وأسرع) .

وكذلك ما جاء في الحديث القدسي الصحيح : « عبدي مرضتُ فلم تعدني .. » الحديث رواه مسلم (٤/ ١٩٩٠ برقم ٢٥٦٩) ، لا نقول أنَّ الله أثبت لنفسه مرضاً وأضافه إليه فنحن نثبت له صفة المرض ، بل لا يقول بهذا عاقل ، وقد أرشد الحديث إلى أنّ الصفة للعبد ، وإنما صَرَفْنا تلك الصفة من أن نعدّها من صفات الله لقواعد التنزيه المأخُوذة من الكتاب والسنة الناصّة على أنّه سبحانه ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ .

---

(٨٣) والمؤمن لا ينغر بالشعارات ولا بالإشاعات ، وإنما يَتَثَبَّت مِنْ كُلُ أمرٍ يسمعه ويُمحِّص ويبحث بنفسه ، وأسأل الله أن لا ينطبق علينا نحن الأمة الإسلاميّة قول أحد أعدائنا فينا : هذه أُمّة تسمع ولا تقرأ !

والضحك كذلك لا يليق أن يُطلق حقيقةً على الله تعالى ، وإنما يُطلق على سبيل المجاز ، وتأويله عند أهل العلم الرضا أو الرحمة ، فإذا ورد في حديث أنَّ الله يضحك إلى فلان فالمراد به أنه يرضى عنه ويرحمه وهكذا ، فهناك قواعد وأُصول لا بُدَّ أنْ نرجع إليها ضَبَطَها أهل العلم من الأئمة الراسخين الربانيين وقد عرضناها وبيّناها في التعليق على « دفع شبه التشبيه » .

ذكر الإمام البيهقي في كتاب « الأسماء والصفات » ص (٢٩٨)(٨٤) أن البخاري رحمه الله تعالى أوَّل الضحك بالرحمة ، وهذا هو نهج السلف والمحدّثين والبخاري بلا شك من أئمة المحدّثين ومن أهل القرون الثلاث ، قرون السلف المشهود لها بالخيرية .

وسيأتي الكلام على هذا القسم مفصلاً موضحاً عند الكلام على صفات الله سبحانه وتعالى وسيتبين معنى هذا القسم هناك إن شاء الله تعالى .

ومن العجيب الغريب أن بعض المجسمة المعاصرين أحدث قسماً رابعاً للتوحيد وهو توحيد الاتّباع بزعمه وآخر أحدث قسماً خامساً وهو توحيد الحاكمية بزعمه !! ولهم في كل يوم تقسيم جديد !! ولعل لهم في ذلك مزيداً !! ولله في خلقه شؤون !!

---

(٨٤) بتحقيق الإمام المحدّث الكوثري عليه الرحمة والرضوان ، طبعة دار إحياء التراث .

(تنبيه) : لقد طُبع كتاب « الأسماء واالصفات » للحافظ البيهقي الذي قدّم له وعلّق عليه كتاب « فرقان القرآن » للشيخ العزامي رحمه الله تعالى كما حُذِفَ منها مقدمة العلامة الكوثري ، **والثانية** : طبعة بصف جديد لم يكتب عليها أن التعليقات التي عليها هي للعلامة الكوثري ، **ثم رأيت طبعة ثالثة** :بصف وتنضيد جديد أيضاً حذفت منها تعليقات المحدث الكوثري ، ثم رأيت من يحيك هذا التلاعب ممن يأمر تُجار الكتب قد طبعوا كتاباً آخر سمّوه « الأسماء والصفات » بشكل وبحجم كتاب « الأسماء والصفات » للحافظ البيهقي ، ولكنه باسم ابن تيمية الحرّاني ، ليضللوا القارئ عن كتاب الحافظ البيهقي بشكل عام !! وليبعدوه عن تعليقات ومقدّمة العلامة المحدث محمد زاهد الكوثري بشكل خاص !! فلتكونوا جميعاً على علم تام بهذا لتلاعب المشين !!

فصل

في

أدلة التوحيد

لا بد أن نتعرّض في هذا الكتاب إلى أدلة التوحيد التي تنبني عليها مسائل هذا الفن ، ثمَّ نبين بعد ذلك على الترتيب في فصول خاصة بَعْضَ الأدلّة الوهمية التي يظنها بعضُ الناس أدلّة تصلح أن يستدلّوا بها على ما يريدون من مسائل التوحيد .

الدليل الأول القرآن الكريم

لا شك أن القرآن الكريم هو الأصل الأصيل في الأحكام الشرعية ومنه تسْتَمدُّ كلُّ فنونٍ وعلومِ الشريعة الإسلامية ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم ولعلّهم يتفكرون** ﴾ النحل : ٤٤ .

وقد تقدّم معنا في أول هذا الكتاب آيات عديدة فيها ذكر الأمور الأساسية التي ينبني عليها التوحيد وعلم العقيدة الإسلامية ، فالله سبحانه وتعالى ذكر الإيمان به فقال : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله** ﴾ وذكر وجوب التفكر والنظر في هذا الكون وهذه المخلوقات لنستدلّ منها على وجود صانعها سبحانه فقال : ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقَتْ ، وإلى السماء كيف رُفِعَتْ ، وإلى الجبال كيف نُصِبَتْ ، وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾ الغاشية : ١٧ ـ ٢٠ .

وذكر في القرآن الكريم أيضاً المعاد والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب وصفات الله تعالى والأنبياء عليهم الصلاة والسلام والملائكة والجن وغير ذلك من أصول التوحيد .

فعلى هذا يعتبر القرآن الكريم هو الدليل الأهم والمصدر الأول في تلقي علم التوحيد منه وبناء المسائل العقائدية عليه ، ومن المعلوم أن لذلك ضوابط وقواعد

مقررة ومبثوثة في نصوص القرآن نفسه وفي حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فمثلاً :

النسيان : ورد ذكره مضافاً إلى المولى سبحانه وتعالى في آيات مثل قوله تعالى عن المنافقين ﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ التوبة : ٦٧ ، وقوله تعالى عن الكافرين ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ الأعراف : ٥١ ومع ذلك فليس النسيان من صفات الله تعالى وإن ورد في القرآن وذلك لأن النسيان يدل على النقص لا الكمال ؛ لا سيما وقد قال تعالى في القرآن الكريم ﴿ **وما كان ربُّك نسيّاً** ﴾ مريم : ٦٤ فنفى سبحانه وتعالى عن نفسه النسيان في هذه الآية مع أنه أضافه لنفسه في آيات فيتضح لنا إذن أنه ليس كل لفظ ورد في القرآن الكريم يصح إطلاقه على الله تعالى ؛ والمثال الذي أوردناه شاهد واضح ودليل ساطع على ما قلناه ، ولْنَتَنَبَّه هنا إلى أن أقواماً من المجسمة الذين يشبّهون الله تعالى بخلقه استغلّوا المقولة المشهورة (**لا نصف الله تعالى إلا بما وصف به نفسه**) فذهبوا يصفون الله تعالى بما لا يصح أن يكون وصفاً له بل يتنزّه عنه .

فمثلاً وصف أحدهم الله تعالى بأنه له جنب مستدلاً بالآية الكريمة ﴿ **يا حسرتى على ما فرّطت في جنب الله** ﴾ مع أن جميع العرب الذين نزل هذا القرآن الكريم بلغتهم لا يفهمون من هذه الآية الكريمة إثبات الجنب لله تعالى وإنما يفهمون من هذه الآية أن معناه : يا حسرتي على ما فرّطت في حق الله أو في أمر الله ، كما تجد ذلك مبسوطاً واضحاً مرويّاً عن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين رحمهم الله تعالى في تفسير الحافظ ابن جرير الطبري (مجلّد ٥/ جزء ٨/ صحيفة ٢٠٢) بالأسانيد الصحيحة المتصلة وهو من أهل القرن الثالث (توفي ٣١٠ هـ) .

وممن قال بإثبات الجنب لله تعالى أبو عمر الطَّلَمَنْكي قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٧/ ٥٦٩) :

« رأيتُ له كتاباً في السنة في مجلّدين عامّته جيد ، وفي بعض تبويبه ما لا يُوَافَقُ عليه أبداً مثل : باب الجنب لله وذكر فيه : ﴿ **يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله** ﴾ فهذه زلة عالم » انتهى .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أموراً في القرآن الكريم لا يمكن أن تؤخذ على ظواهرها بل الذي يراد منها معانٍ مجازية وراء تلك الألفاظ ؛ فمثلاً قوله تعالى عن القرآن الكريم ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾ لا يُسْتَدَلُ منه أن للقرآن يدين ثنتين البتة !! ومن أثبت مثلاً من هذه الآية الكريمة يدين للقرآن ضحك منه جميع العرب الذين نزل القرآن بلغتهم !!

والضابط في ذلك أن كل لفظ أشعر بإثبات عضو أو صورة أو شكل وهيئة أو نقص فالله تعالى مُنَزَّهٌ عن أن يوصف بذلك وإن ورد في القرآن ؛ لأن المقصود في لغة العرب ليس ظاهر ذلك اللفظ بل ما وراءه من المعنى المجازي ، وسيمر ذلك مفصلاً إن شاء الله تعالى في الكلام على صفات الله تعالى .

فتلخّص من ذلك أن القرآن هو أول مصادر الأدلة في علم التوحيد وهو أهمها وينبغي أن يُفهم بفهم ومراد أولئك العرب الأقحاح الذين نزل هذا القرآن بلغتهم لا غير قال تعالى ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين** ﴾ الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥ **وقال تعالى** ﴿ **إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلّكم تعقلون** ﴾ يوسف : ٢ . وأصول العقائد جميعا مذكورة في القرآن .

وآيات القرآن الكريم قطعية الثبوت ويكفر مَن خالف في ذلك لكن بعضها قطعي الدلالة وبعضها ظني الدلالة ، فالقُرْءُ مثلاً في قوله تعالى ﴿ **والمطلّقات يتربّصنَ بأنفسهن ثلاثةَ قروء** ﴾ البقرة :٢٢٨ له معنيان متضادان في لغة العرب وهما : الحيض والطهر ؛ فمن استدلّ من القرآن الكريم على أن عدّة المطلّقة ثلاث حيضات لم يكن قاطعاً بذلك ومن استدلّ من الآية على أن عدّتها ثلاثة أطهار أصاب ولكن لم يقطع بذلك أيضاً ، وإنما هو نظر واجتهاد يفيد الظن ولا يفيد العلم والقطع .

والعقيدة مبنية على القطع لا على الظن وهي منصوص عليها لا يجوز في أصولها الاجتهاد البتة .

قاعدة

في كيفية التمييز بين أصول العقائد وفروع العقائد

الصواب في معرفة هذا الأمر ؛ أن أصول العقائد هي الأمور الثابتة بقطعي الدلالة وقطعي الثبوت ، وهي التي وردت في القرآن وأجمعت فرق الإسلام المعتد بها عليها ؛ وفِرَق الإسلام الموجوده والمعتد بها هي : الزيدية والمعتزلة والإباضية والشيعة وأهل السنة ، ويخرج منهم أي من أهل السنة كل من انتسب إليهم وكان في الحقيقة مُشَبِّهَاً أو مُجسّماً بمعنى أنه كرّامي المشرب ، ويخرج من كل فرقة أيضاً الشذاذ المشهورون كابن الوزير والشوكاني عند الزيدية وابن الراوندي عند المعتزلة ونحوهم عند غيرهم أيضاً(٨٥) .

---

(٨٥) وممن نقل اتفاقات ومسائل لا اختلاف فيها عند أهل الإسلام ابن حزم في كتاب مراتب الإجماع ص (١٦٧) وأما الإمام عبدالقاهر البغدادي رحمه الله فلا يُسَلَّم له في كل ما نقله من إجماعات كقوله بالإجماع على عدم حركة الأرض ودورانها وأنها ساكنة ، وهذا مما يعلم بطلانه بداهة ، وغيرها من الإجماعات التي لم يراع فيها القاعدة التي ذكرناها ، ثم إن حَمْلَه على المعتزلة في بعض أقوالهم حمل ظالم أخطأ فيه ولا معنى له .

الدليل الثاني من أدلة العقيدة :

الحديث النبوي الشريف

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى : (ونتَّبِع السُّنَّة) .

الشـــرح :

الحديث النبوي هو ثاني الأدلة والمصادر العامة في علم التوحيد وهو ينقسم إلى حديث متواتر وإلى آحاد ، فالحديث المتواتر يفيد العلم أي القطع أي ما نسبته ١٠٠ ٪ كالقرآن من حيث الثبوت وهو إما قطعي الدلالة أو ظني الدلالة كالقرآن .

ولا يُسَلَّم لدعوى التواتر في حديثٍ إلا بعد الفحص والنظر والتتبع (٨٦) .

وحديث الآحاد يفيد الظن ولا يفيد العلم على الصحيح كما سيأتي إن شاء الله تعالى في فصل خاص مفصلاً .

والظن هو النسبة التي تتراوح من ٥١٪ ـ ٩٩٪ فإذا صارت النسبة ٥٠٪ صار شكاً وأقل من ذلك يقال له وهم كما هو مقرر في علم الأُصول .

وإذا عرفنا بأن القرآن الكريم يجب فهمه بمقتضى لسان العرب الذين نزل القرآن بلغتهم وبضوابط قواعد التوحيد المبثوثة في نصوص الكتاب والسنة فينبغي أن نعرف أن فهم نصوص الحديث النبوي يخضع أيضاً لتلك الضوابط ، وقد نص عليها أهل العلم وبينوها .

قال شيخنا الإمام المحدث سيدي عبدالله ابن الصديق الغماري أعلى الله درجته في كتابه « فتح المعين » ص (١٢) :

[الفروع الفقهية المتعلقة بالعبادات والمعاملات مبنية على الظن ، واليقين فيها قليل ولذلك حصل فيها الخلاف بين الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب ، وكان فيهم المخطئ والمصيب ، ولم يضلل أحد منهم مخالفه إذا أخطأ بل يعتقدون أنهم

---

(٨٦) وكتاب العلامة الكتاني (نظم المتناثر من الحديث المتواتر) لا يُسَلَّمُ له بتواتر جميع ما هو مذكور فيه ، بل إنَّ فيه ما هو ضعيف وآحاد ، وكذا مثله من كتب المتواتر فتنبه لذلك .

جميعاً على هدى وسنة وأن المخطئ مأجور على اجتهاده .

أما التوحيد فالأمر فيه يختلف لأن اليقين في مسائله مطلوب حتماً خصوصاً ما يتعلّق بصفات الله تعالى ، فلا يجوز أن نثبت له صفة إلا بشروط : **أحدها** : أن يثبت التصريح بها في آية أو حديث مقطوع به . **ثانيها** : ألا يدخلها احتمال المجاز أو التأويل . **ثالثها** : ألا يكون من تصرّف الراوي إذا جاءت في حديث » . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٣/ ٣٥٤) :

« ومع احتمال أن يكون هذا اللفظ من تَصَرُّفِ الرواة لا يتم الاستدلال » .

وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١/ ٢٢٥) أيضاً :

[قوله (حَدِّثُوا الناس بما يعرفون) ... وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة[٨٧] ، ومثله قول ابن مسعود : « ما أنت مُحَدِّثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنه » رواه مسلم . وممن كرّه التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان ، ومالك في أحاديث الصفات[٨٨] ، وأبو يوسف في الغرائب ، ومن قبلهم أبوهريرة كما تقدّم عنه في الجِرَابَيْنْ وأن المراد ما يقع من الفتن ، ونحوه عن حذيفة وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العُرَنيين لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي ، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوّي البدعة **وظاهره في الأصل غير مراد**[٨٩] ، فالأمساك عنه عند من يُخْشَى عليه الأخذ بظاهره مطلوب والله أعلم » . ولنبين بعض ما يتعلق بموضوع الاحتجاج بالسُّنة في العقائد من الأمور المهمات التي يكثر الكلام فيها في هذا الباب فنقول :

---

[٨٧] وقد نقل هذه الفقرة الطويلة متناقض عصرنا !! في صحيحته (٣/ ٢٩٩) ولم يذكر في أولها هذا الكلام الذي ذكره الحافظ لأنه يصادم رأيه وهواه !! فالله المستعان !!

[٨٨] فالمجسمة يكونون بذلك قد خالفوا منهج السلف فحدّثوا العامة بالأحاديث التي يسمونها بأحاديث الصفات فشوّشوا بذلك قلوب العامة !! فوجب علينا الإيضاح والبيان لإخراج العامة من الحيرة واللبس !!

[٨٩] قوله (وظاهره في الأصل غير مراد) فيه دليل واضح على وجوب التأويل وبيان المعاني التي لا يفهمها من ينظر إلى ظواهر الألفاظ !! فافهم .

فصل

إثبات أنَّ خبر الواحد يفيد الظن ولا يفيد العلم عند السلف وأئمة المحدّثين وأنه لا يبنى عليه أصول الاعتقاد

اعلم يرحمك الله تعالى أن العلماء الحفاظ المُتْقِنين نصوا على أنَّ حديث الآحاد يفيد الظن وأنَّ الحديث المتواتر يفيد العلم ، وعلى ذلك فلو عارضَ حديثَ الأحادِ نصُّ القرآن أو حديث متواترٌ أو إجماع أو الدليل العقلي المبني على قواعد الكتاب والسنة أسقط الاحتجاج بخبر الآحاد لمعارضته لما يفيد القطع والعلم ؛ وإنني أفتتح بذكر كلام شيخ المحدّثين في وقته وهو الحافظ الخطيب البغدادي لأنّه استوعب ما ذكرته هنا ، ثُمَّ أُرْدِفُ ذلك بدليل من السُنَّة الصحيحة على هذه المسألة ، ثم أذكر أنَّ ما قلته هو مذهب الصحابة رضي الله عنهم ومَنْ بعدهم من السلف وأئمة المحدّثين ، فأقول وبالله تعالى التوفيق .

قال الحافظ الخطيب البغدادي في « الفقيه والمتفقه » (١/ ١٣٢) :

« باب القول فيما يُرَدُّ به خبر الواحد :

.... وإذا روى الثقة المأمون خبراً متصل الإسناد رُدَّ بأُمور :

أحدها : أن يخالف موجبات العقول فيعلم بطلانه ، لأنّ الشرع إنّما يَرِدُ بمجوِّزات العقول وأمّا بخلاف العقول فلا .

والثاني : أن يخالف نصَّ الكتاب أو السُنة المتواترة فيعلم أنّه لا أصل له أو منسوخ .

والثالث : يخالف الإجماع فَيُسْتَدَلُّ على أنه منسوخ أو لا أصل له ...

والرابع : أن ينفرد الواحدُ بروايةِ ما يجب على كافّة الخلق علمه فيدلُّ ذلك على أنه لا أصل له لأنّه لا يجوز أن يكون له أصل وينفرد هو بعلمه من بين الخلق العظيم .

الخامس : أن ينفرد برواية ما جرت العادة بأن ينقله أهل التواتر فلا يُقْبَل لأنه

لا يجوز أن ينفرد في مثل هذا بالرواية » انتهى كلام الحافظ البغدادي .

وينبغي أن يَعْرِفَ القاصي والداني أن خبر الآحاد مقبول عندنا ، معمول به في جميع الأبواب إلا في باب أصول العقائد فإننا بالاستقراء التام لها وجدناها قد ثبتت بالقطعي من الكتاب والسنة ؛ ولأن المطلوب في هذا الباب عقد القلب على الثابت الذي لا يطرأ عليه خطأ ولا وهم ؛ كما سيأتي بعد قليل إن شاء الله تعالى مُفَصَّلاً ، فإيّاك أن تمزج بين هاتين القضيتين :

(الأولى) : حديث الآحاد مقبول غير مردود يفيد العمل في جميع الأبواب الفقهية وفي فروع الاعتقاد إذا لم يعارض معناه القرآن أو ما هو مقطوع به .

(الثاني) : أن دلالة حديث الآحاد ظنية وليست قطعية ، وبذلك يفارق القرآن والحديث المتواتر والإجماع .

ومَنْ نَظَرَ في قضايا الاعتقاد الأصلية كوجود الله تعالى ، وقدمه ، وعدم مشابهته لخلقه ، وقدرته ، وسمعه ، وبصره ، وإثبات اليوم الآخر والحساب والعذاب والثواب والمعاد والجنة والنار وأشباه هذه الأشياء وجدها قد ثبتت في القرآن بأدلّةٍ قطعية الدلالة والثبوت ، وهي أُصول الاعتقاد وليست محتاجة لأحاديث آحاد وهذه هي أصل الدعوة التي كانت تصل إلى البلدان والنواحي بطريق الاستفاضة والتواتر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا بعث رسله إلى النواحي والأقطار بعثهم ليشرحوا لهم أحكام الإسلام التي وصلت إليهم بطريق التواتر والاستفاضة مجملة ، على أننا لا نُسَلِّمُ البتة بأنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يرسل إلى النواحي رجلاً واحداً فتصل إلى أهل تلك النواحي الأحكام والعقائد بطريق هذا الواحد ، وبذلك لا يصح لهذا القائل الاستدلال على أن العقائد يؤخذ بها بخبر الواحد .

ونوضح فنقول : اعلم أنَّ أحكام الإسلام كانت تصل إليهم بطريق التواتر وإليك بعض ذلك :

أوّل ما بُعِثَ صلى الله عليه وآله وسلم واستفاض أمره استفاض أيضاً أصل ما يدعو إليه ، وذلك أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يلتقي في الموسم

عند حج العرب إلى مكة بأفراد كل قبيلة تحج ؛ فيدعوهم إلى ما أمره الله تعالى به من أُصول التوحيد الذي بُعِثَ به ، وبقي صلى الله عليه وآله وسلم يبلّغهم مُدَّة إقامته في مكة وهي الثلاث عشرة سنة قبل أن يهاجر ، وهذا ممّا يجعل أصول دعوته في التوحيد تنتشر عنه إلى النواحي وقبائل العرب بعدد التواتر لا محالة ، لأنَّ كل قبيلة من قبائل العرب لا يتصوّر أن يَفِدَ ويحج منها أقلَّ من عشرة أنفس .

ثُمَّ لـمَّا هاجر عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم استفاض الأمر أكثر وانتشر بين القبائل وفي البلدان وذاع أصل ما يدعو إليه أكثر وأكثر ، وأوسع وأبلغ وأشهر ، وكانت الوفود من قبائل العرب تَرِدُ عليه وفيهم أهل التواتر بلا مثنوية وإليك أمثلة على بعض ذلك معزوّةً مُوثَّقَةً :

١ ـ قوم مسيلمة الكذاب قدموا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكانوا وفداً كبيراً واجتمعوا به صلى الله عليه وآله وسلم ونقلوا ما أخذوه عنه صلى الله عليه وآله وسلم إلى قومهم نَقْلَ أهل التواتر ، روى البخاري في صحيحه (فتح ٨/ ٨٩) وغيره من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال :

« قَدِمَ مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجعل يقول : إنْ جعل لي محمدٌ الأمر من بعده تبعتهُ . **وقَدِمَها في بَشَرٍ كثيرٍ من قومه**(٩٠) ، فأقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه ثابت بن قيس بن شمّاس ، وفي يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قطعة جريد ، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال : لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ولن تعدوَ أَمْرَ الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، وإني لأراك الذي أُريتُ فيه ما رأيت وهذا ثابت يجيبك عني . ثم انصرف عنه صلى الله عليه وآله وسلم » هذا لفظ البخاري في صحيحه . فهذا مثال على مَنْ كان يَرِدُ من الوفود على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

٢ ـ وأما مثال من كان يرسلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى القبائل

---

(٩٠) تدبّر قوله فيه « وقَدِمَها في بَشَرٍ كثير من قومه » وأنّه بالتقاء هؤلاء البشر بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يحصل نقل أصل التوحيد إلى أهل اليمامة بواسطتهم بالتواتر .

والبلدان ليعلّموهم فأمامَ أعيننا قصة قُرّاء بئر معونة رضي الله عنهم الذين غُدِر بهم وكانوا سبعين رجلاً أرسلهم صلى الله عليه وآله وسلم ليُعَلّموا إحدى القبائل وهم يزيدون على عدد التواتر بكثير وقصتهم في البخاري (٦/ ١٩ فتح) و (٧/ ٣٨٥ فتح) .

دحض استدلال من زعم أن خبر الواحد يفيد العلم بقصة إرسال سيدنا معاذ لأهل اليمن

وهذا سيدنا معاذ الذي بعثه صلى الله عليه وآله وسلم إلى اليمن لم يبعثه صلى الله عليه وآله وسلم على جَمَلٍ وحده كما يتخيّل بعضهم ، بل ذهب في جماعة من الصحابة كما هو المعروف والمألوف وكان هو على رأسهم ، ففي تاريخ الحافظ ابن جرير الطبري (٢/ ٢٤٧) :

« عن عبيد بن صخر بن لَوْذان الأنصاري السُّلمي وكان فيمن بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم **مع عُمّال اليمن** في سنة عشر بعدما حج حجَّة التمام : وقد مات باذام ، لذلك فرّق عملها بين شهر بن باذم ، وعامر بن شهر الهَمْدَاني (٩١) ، وعبدالله بن قيس أبي موسى الأشعري ، وخالد بن سعيد بن العاص ، والطاهر بن أبي هالة ، ويعلى بن أُمية ، وعمروبن حَزْم ، وعلى بلاد حضرموت زياد بن لبيد البياض وعُكّاشة بن ثور بن أصغر الغوثي .. ومعاوية بن كندة ، وبعث معاذ بن جبل معلّماً لأهل البلدين : اليمن وحضرموت » وانظر تخريج الحافظ ابن حجر للكشاف (٤/ ٥٥) .

قلت : فهؤلاء بعض مَنْ كان مع سيدنا معاذ حين بعثه صلى الله عليه وآله وسلم إلى اليمن من المسؤولين ما عدا الآخرين الذين كانوا أيضاً بصحبته ، والمترددين من أهل اليمن بين بلادهم والمدينة ممّن نقل أصل الدعوة وأُصول التوحيد والعقيدة إلى تلك البلاد كالأشعريين الذين منهم أبو موسى الأشعري

---

(٩١) الهَمْدَاني : بفتح الهاء وإسكان الميم وفتح الدال المهملة قبيلة باليمن وهو المراد هنا .
وأما الأسماء الأخرى التي فيها الهَمَذَاني بفتح الهاء والميم والذال المعجمة بلدة بناها هَمَذَان بن لفولج بن سام بن نوح في بلاد فارس .

وأصحابه ، فأين هذا عن عقل مَـنْ يتخيَّـل أنَّ سيدنا معـاذاً ركـب جَمَلاً وحـده وذهب مبعوثاً فريداً إلى اليمن من علمه بنهي النبي صلى الله عليه وآله وسـلم عـن سفر الرجل وحده ؟!

روى البخاري في « الصحيح » (٦/١٣٨) : مـن حديـث ابـن عمـر رضـي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم ما سار راكبٌ بِلَيْلٍ وحدَه » .

وأزيد مؤكِّداً على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يبعـث إلى ناحيـة مـن النواحي رجلاً واحداً وإنما كان يبعث بَعْثاً ـ عدداً من الصحابة ـ وإنما كـان يُسمّى الرجل الواحد منهم لأنه أمير ذلك البَعْثِ بدليـل مـا رواه الإمـام أحمـد في مسنده (٥/٣٥٦) أثناء قصةٍ عن بُرَيدة قال :

« بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بَعْثين إلى اليمن ، علـى أحدهمـا علي بن أبي طالب ... » وإسناده حسن ، وفيه تأكيد أيضـاً علـى أن سـيدنا معـاذاً كان في بَعْثٍ ـ أي جماعة ـ لمّا ذهب ولم يكن وحـده ، فبطـل اسـتدلال مـن يسـتدل بقصته في خبر الآحاد والحمد لله .

وهل بعد هذا البيان والإيضاح يصح لعاقل أن يستدل علـى أن خـبر الواحـد يفيد العلم أو نحو هذه المغالطات بقصة سيدنا معاذ رضي الله عنه ؟!

دحض استدلال من زعم أن خبر الواحد يفيد العلم بقصة إرسال سيدنا مصعب لأهل المدينة قبل الهجرة

وقال قوم : إن في إرسال النبي صلى الله عليه وآله وسلم سـيدنا مصعب بـن عمير إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها صلى الله عليه وآله وسلم ليعلّـم أهلهـا الديـن دليل واضح على قبول خبر الواحد في العقائد وجعله أصلاً تبنى عليه !!

ونقول : إن هذا من أعجب العجب !! وهذه مغالطة واضحة !! أَوَلَـمْ يتذكّـر هؤلاء أن أهل المدينة (الأوس والخزرج) قد اجتمعوا به ثلاث مرّات وقد عـرض

النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذه المرّات الثلاث عليهم الإسلام ، ففي أوّل مرة اجتمع بستة أو ثمانية منهم (روايتان) ثم عادوا في العام التالي فبايعوه بما يسمّى (بيعة العقبة الأولى) وكانوا اثني عشر رجلاً ، وقد ذكر الحافظ ابن جرير في « تاريخه » (١/ ٥٥٨) أسماءهم وهذا يحصّل التواتر قطعاً ؛ وليس في ذلك ما يصح أن يقال فيه إنه خبر آحاد ، ومما جاء من النصوص في ذلك : قال البخاري في صحيحه (٧/ ٢١٩) : [باب وفود الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة وبيعة العقبة] ثم روى فيه عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال : « إنّي من النُقباء الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : وقد بايعناه على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ... » .

وقال الحافظ في الشرح هناك (٧/ ٢٢٠) :

« قال ابن إسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه (قالوا)[٩٢] : لما رآهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : مَنْ أنتم ؟ قالوا من الخزرج . قال : أفلا تجلسون أُكلّمكم ؟ قالوا : نعم **فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن** ... فآمنوا وصدّقوا وانصرفوا إلى بلادهم ليدعوا قومهم فلمّا أخبروهم لم يبق دُور من قومهم إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى إذا كان الموسم وافاه منهم اثنا عشر رجلاً » وهو حديث صحيح .

ثم عادوا في العام التالي مع مشركي قومهم وكانوا ثلاثة وسبعين أو سبعين رجلاً [كما تجد ذلك في « صحيح ابن حبان » (١٥/ ٤٧١) ، و « دلائل النبوة » (٢/ ٤٤٢) للإمام البيهقي ، و « الفتح » (٧/ ٢٢١)] .

وفي البخاري أيضاً (٧/ ٢١٩) عن كعب بن مالك رضي الله عنه [وهو من

---

[٩٢] في الفتح (قال) وفي « تاريخ ابن جرير » (١/ ٥٥٨) (قالوا) وهو الأصح الذي أثبتناه هنا . وعاصم بن عمر هذا خزرجي وهو من رجال الصحيحين إمام ثقة عالم بالمغازي . وروايته هنا متصلة لأن الأشياخ الذين حدّثوا بالقصة قد اجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فهم صحابة ثقات ولا يضر تصحيح حديثهم هنا إبهامهم فافهم !!

الانصار ومن السبعين الذين شهدوا العقبة كما في ترجمته في « تهذيب الكمال » (٢٤/ ١٩٤)] قال : « ولقد شهدت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام » .

وفي البخاري (٧/ ٢٦٠) عن البراء بن عازب رضي الله عنه (وهو أنصاري أوسي) قال : « أوّل مَنْ قدم علينا مصعب بن عُمَير وابن أُمّ مكتوم ثم قدم علينا عمار بن ياسر وبلال رضي الله عنهم » .

وقال الحافظ في « الفتح » (٧/ ٢٦١) : [وقد تقدّم في أوّل الهجرة « أن أوّل من قدم المدينة من المهاجرين عامر بن ربيعة ومعه امرأته أم عبدالله بن حَثْمَة ، وأبوسلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة ، وأبوحذيفه بن عتبة بن ربيعة ، وشماس بن عثمان بن الشريد ، وعبدالله بن جحش » فيجمع بينه وبين حديث البراء ....] . وبذلك يتبين لنا أن أصول دعوة الإسلام وما يطلب فيه التواتر من الضروريات التي هي أصل الإسلام وَلُبُّهُ كانت قد حصلت ووصلت لأهل المدينة قبل الهجرة بالتواتر ، ثمَّ ما نقله سيدنا مصعب رضي الله عنه من المعلومات لأهل المدينة شهد له النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنها عِلْمٌ مأخوذ عنه صلى الله عليه وآله وسلم بحضور عدد التواتر .

وقد جاء في روايات منها عند البيهقي في « دلائل النبوة » (٢/ ٤٣٨) : « عن عبدالله بن المغيرة بن مُعَيقيب قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مصعب بن عمير ... إلى المدينة يُفَقِّه أهلها ويقرئهم القرآن ... » .

ثم إن أصول ما كان يدعو إليه صلى الله عليه وآله وسلم كان قد انتشر بواسطة حديث أهل مكة في تجاراتهم وفي لقاءاتهم وفي اتصال العرب بهم ورواحهم وقدومهم وترددهم لحاجاتهم إلى مكة إلى غير ذلك مما أدّى إلى انتشار ومعرفة أصول الدين الذي كان يدعو إليه صلى الله عليه وآله وسلم ومبادئه .

وإذا وصلنا إلى مثل هذا المقام وانتسفت أدلة مَنْ يجعل خبر الواحد دليلاً في أصول الاعتقاد ويزعم أنه يفيد العلم فلا بُدَّ أن نذكر أدلّتنا في ذلك فنقول وبالله تعالى التوفيق :

/ فرع / نص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أن حديث الآحاد لا يفيد العلم

١ ـ ثبت في صحيح البخاري (فتح١/٥٦٦) ومسلم (١/٤٠٣برقم٥٧٣) أنَّ ذا اليدين قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لّما صلى الظهر أو العصر ركعتين : يا رسول الله أنَسيتَ أم قُصِرتِ الصلاة ؟! فقال له : « لم أنْسَ ولم تُقْصَرْ » ثم قال للناس : « أكما يقول ذو اليدين ؟ » فقالوا : نعم . فتقدَّم فصلّى ما ترك ثم سلَّم ....

قلت : لّما قال ذو اليدين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أنسيت أم قُصِرَت الصلاة) أفاد ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الظنَّ لاحتمال الوهم والخطأ على ذي اليدين مع كونه راوياً عدلاً ضابطاً ثقة وهو صحابي ، فسأل رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم الناسَ وفيهم أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما فلمّا صدّقوا خبر ذي اليدين وهم عدد التواتر تحقق عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الخبر وأفاد العلم .

فاستفدنا من ذلك أنَّ خبر الواحد وهو ذو اليدين لم يُفِدْ عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا الظن لا أنّه لا يُعْمَلُ به ؛ بدليل أنَّ أحاديث أُخرى من أخبار الآحاد عَمِلَ بها الصحابة بإقرار النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم .

أما حديث انحراف أهل قباء أثناء صلاة الجماعة لما أتاهم آتٍ فشهد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم توجَّه نحو القبلة كما في البخاري (فتح ١/٥٠٢) فقد ذكر الحافظ أن هناك رواية في صحيح البخاري بدل **(رجل)** : **(رجال)** وهي رواية المستملي والحموي لصحيح البخاري انظر الفتح (١/٥٠٣) وهذا ممّا يعكّر الاستدلال بهذا الحديث بخبر الواحد جزماً .

والبخاري رحمه الله تعالى أورد في صحيحه حديث ذي اليدين في كتاب أخبار الآحاد مما يدل على رفض خبر الواحد إذا ارتيب فيه وكذا أورد غيره مما يؤكّد أن خبر الواحد الذي لم يُعَارض حجة في العمليات دون الاعتقاديات ، وهذا يَدُلنا

دلالة أكيدة على أن البخاري يرى أنَّ من أخبار الآحاد الصحيح ما هو مقبول ومنه ما هو غير ذلك ، ويشهد لهذا ويعضده أن السلف من أئمة الحفاظ والمجتهدين والمحدّثين ردّوا أخباراً أسانيدها صحيحة في الظاهر ولم يقبلوها ؛ ومنها ما هو في الصحيح كما سيأتي بعد قليل إن شاء الله تعالى عن الإمام أحمد بن حنبل وغيره ، ولم يُعْهَدْ عن أحد منهم أنه رَدَّ آية في كتاب الله تعالى مما يدلُّ ويؤكد أن القرآن يفيد العلم ولا يجوز رده بحال وأن الحديث الصحيح يفيد الظن فيجوز ردّه بما هو أقوى منه إن عارضه ولم يمكن الجمع بينهما ، وسيأتي في ذلك أمثلة عديدة لا تجعل في ما قررناه أدنى شك وبالله تعالى التوفيق .

/ فرع / رد الصحابة بعض أحاديث الآحاد الثابتة واستيثاقهم منها أحياناً أخرى

٢ ـ روى الإمام مسلم في « الصحيح » (١١١٨/٢) أن فاطمة بنت قيس جاءت إلى سيدنا عمر تروي أن زوجها كان قد طلّقها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبتَّ طلاقها ، فلم يجعل لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفقة ولا سكنى ، وقال لها « اعتدِّي في بيت ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى » فلم يقبل سيدنا عمر ذلك منها وقال : « لا نترك كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندري لعلّها حفظت أم نسيت » قال الله عز وجل : ﴿ **لا تُخرِجُوهُنَّ من بيوتِهنَّ ولا يَخرُجْنَ إلا أن يَأتينَ بفاحشة مُبيِّنَةٍ** ﴾ .

قلت : وثبت في مسلم (١١١٦/٢) أيضاً إنكار السيدة عائشة لذلك ، مثل سيدنا عمر رضوان الله تعالى عليهما .

فانظرهنا كيف لم يقبل سيدنا عمر خبر فاطمة بنت قيس مع كونها صحابية موثوقة لمعارضة خبرها للآية ، ومنه يتبين أن خبر الواحد يحتمل الخطأ ويُرَدُّ إذا عارض ما هو ثابت ومقطوع به ، وإذا كان سيدنا عمر رضي الله عنه قد ردَّ خبر الواحد في مسألة فقهية فما بالك في مسألة عقائدية تحتاج لنص مقطوع به لا يجوز أن يدخله الخطأ والغلط ؟!!

٣ ـ ردت السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها على سيدنا عمر في حديث « تعذيب الميت ببكاء أهله عليه » .

روى البخاري (فتح ٣/١٥١ ـ ١٥٢) ومسلم (٢/٦٣٨ ـ ٦٤٢) أن سيدنا عمر وابنه عبدالله رويا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إنَّ الميت يُعذَّب ببكاء أهله عليه » فردّت ذلك السيدة عائشة وقالت كما في صحيح مسلم (برقم ٢٧ في الجنائز) عن عَمْرَة أنها سمعت السيدة عائشة وذُكِر لها أنَّ عبدالله بن عمر يقول : إنَّ الميت لَيُعَذَّبُ ببكاء الحي . فقالت السيدة عائشة : يغفر الله لأبي عبدالرحمن . أما إنَّهُ لم يكْذِبْ ، **ولكنه نَسِيَ أو أخطأ** . إنّما مَرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على يهودية يُبكى عليها فقال : « إنّهم ليبكون عليها ، وإنّها لتُعذَّبُ في قبرها » .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في « شرح صحيح مسلم » (٦/٢٢٨) :

« وهذه الروايات من رواية عمر بن الخطاب وابنه عبدالله رضي الله عنهما ، وأنكرت عائشة ، ونسبتهما إلى النسيان والاشتباه عليهما ، وأنكرت أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ذلك واحتجَّت بقوله تعالى ﴿ **ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى** ﴾ قالت : وإنّما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في يهودية إنها تعذب وهم يبكون عليها يعني تُعَذَّب بكفرها في حال بكاء أهلها لا بسبب البكاء » .

قلت : وجاء في عدة أحاديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكى على الميت وسكت عمّن بكى على الميت أيضاً .

فمن تأمّل هذا الحديث « الميت يعذّب ببكاء أهله عليه » الثابت في الصحيحين وهو من أخبار الآحاد وردّ السيدة عائشة له بالنص القطعي في القرآن ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ عرف أن حديث الآحاد ولو رواه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إثنان فإنه لا يفيد إلا الظن ، وما لا يفيد إلا الظن أي يحتمل فيه الخطأ كيف تُبنى عليه العقائد ؟!!!

وهل يجوز أن يعتقد المسلم في ذات الله تعالى بأشياء يحتمل أن يظهر له بعد

ذلك أنها خطأ ؟!! ولماذا سمّيت عقيدة إذاً إذا لم تكن مبيّنة على الثوابت التي لا يمكن أن يطرأ عليها ما يزيلها ؟!!

٤ ـ ردّت السيدة عائشة على من قال أو روى أن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم رأى ربه وهو ابن عباس رضي الله عنه وغيره ، ففي صحيح مسلم (١/١٥٨ برقم ٢٨٤ و ٢٨٥) عن عطاء عن ابن عباس قال : « رآه بقلبه » وقال : « رآه بفؤاده مَرَّتين »(٩٣) .

قلت : وقد قال الحافظ في « الفتح » (٨/٦٠٨) أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « رأيت ربي » ، وذكر قبل ذلك بتسعة أسطر أن ابن خزيمة روى بإسناد قوي عن سيدنا أنس أنه قال : « رأى محمد ربه » .

قلت : ردّت السيدة عائشة رضي الله عنها جميع ذلك كما في البخاري (فتح ٨/٦٠٦) ومسلم (١/١٥٩ برقم٢٨٧) عن مسروق قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : يا أُمّتاه ، هل رأى محمد ربَّه ؟ فقالت : « لقد قَفَّ شعري مما قُلْتَ ، أين أنت من ثلاثٍ من حدَّثكهنَّ فقد كذب : مَنْ حدَّثك أنَّ محمداً رأى ربَّه فقد كذب ، ثم قرأت ﴿ **لا تُدْركه الأبصار وهو يُدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ ﴿ **وما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب** ﴾ ... » .

قلت : فانظر كيف ردّت السيدة عائشة التي تفقهت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الظنّيَّ بالقطعي .

فهذا فِكْرُ مَدْرَسَة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

٥ ـ وردّت السيدة عائشة رضي الله عنها على من قال : « بال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائماً » لأنّها لم تره صلى الله عليه وآله وسلم يبول إلا قاعداً أو أنه أخبرها بذلك فكان ذلك من اليقينيات عندها ، ومن حدَّث أنه بال

---

(٩٣) وقول ابن عباس هذا عندنا على التحقيق هو قول لكعب الأحبار نقله ابن عباس عنه فظنه من رواه عنه أو سمعه منه أنه قول ابن عباس نفسه واجتهاده ، فنسبوه إلى ابن عباس وهو على التحقيق قول كعب الأحبار ، وقد بينت ذلك موثقاً في كتابنا (مسألة الرؤية) ص ٧٠ وكتاب العلو ص (٣٢٥-٣٢٧) .

قائماً مظنون عندها . فرؤياها له أو تحديثه لها يقيني عندها ؛ ورواية من قال : « بال قائماً » ظني عندها فردّته .

وروى البيهقي (١/ ١٠١) عن السيدة عائشة قالت :

« ما بال رسول الله قائماً مذ أنزل عليه القرآن »[٩٤] وعند النَّسَائي (١/ ٢٦) والترمذي (١/ ١٧) وابن ماجه (١/ ١١٢ برقم ٣٠٧) بلفظ : « مَنْ حَدَّثكم أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يبول قائماً فلا تصدّقوه »[٩٥] .

٦ ـ وأنكرت السيدة عائشة على أبي هريرة في حديثٍ آخر أيضاً :

روى أبوداود الطيالسي في مسنده ص (١٩٩) بسند صحيح على شرط مسلم عن علقمة قال : كنا عند عائشة ؛ فدخل عليها أبوهريرة فقالت يا أباهريرة أنت الذي تُحَدِّث أنَّ امرأةً عُذِبَتْ في هرة لها ربطتها لم تطعمها ولم تسقها ؟ فقال أبوهريرة : سمعته من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالت عائشة :

أتدري ما كانت المرأة ؟! قال : لا ، قالت : إنّ المرأة مع ما فعلت كانت كافرة ، إنّ المؤمن أكرم على الله من أنْ يُعَذِّبه في هرة ، فإذا حدّثت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانظركيف تُحدِّث .

وفي هذا الإنكار بيان صريح بأن خبر الواحد يحتمل الخطأ فكيف يبنى عليه أصل الدين ؟!

٧ ـ وأنكرت السيدة عائشة أيضاً على أبي هريرة رضي الله عنه في حديث آخر :

روى أبوداود الطيالسي ص (٢١٥) عن مكحول قيل لعائشة إنَّ أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الشؤم في ثلاثة في الدار والمرأة

---

[٩٤] رواه أيضاً الحاكم في المستدرك (١/ ١٨١) وصححه ووافقه الذهبي وهو على شرط مسلم .

[٩٥] روى أبو داود في سننه (٢٢) وغيره عن عبد الرحمن بن حسنة قال : انطلقت أنا وعمرو بن العاص إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؛ فخرج ومعه دَرَقَة (أي درعاً من جلد) ؛ ثم استتر بها ، ثم بال ، فقلنا : انظروا إليه ! يبول كما تبول المرأة ..... الحديث ، وهذا من مثالب عمرو بن العاص حيث يقول مثل هذا القول في سيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم !!

والفرس » فقالت عائشة : لم يحفظ أبوهريرة لأنّه دخل ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول :

« قاتل الله اليهود يقولون إن الشؤم في ثلاثة في الدار والمرأة والفرس » سَمِعَ آخر الحديثِ ولم يسمع أوّله .

قلت : مكحول لم يسمع من السيدة عائشة كما في « الفتح » (٦/ ٦١) إلا أن لهذا الأثر أو الحديث متابعة قال الحافظ هناك :

روى أحمد وابن خزيمة والحاكم من طريق قتادة عن أبي حسان : أن رجلين من بني عامر دخلا على عائشة فقالا : إنَّ أباهريرة قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الطيرة في الفرس والمرأة والدار » فغضبت غضباً شديداً وقالت : ما قاله ! وإنما قال : « إنَّ أهل الجاهلية كانوا يتطيرون من ذلك » .

قلت : والأصل لا طيرة في الإسلام من شيء وإنما المشؤوم العمل السيء الطالح الذي يجر صاحبه إلى النار والعياذ بالله تعالى ، قال الله تعالى **﴿ قالوا إنّا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنّكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم ءإن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴾** يس : ١٨ ـ ١٩ .

وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الطِيَرَةُ شرك » قال الحافظ المنذري في الترغيب (٤/ ٦٤) : « رواه أبوداود والترمذي وقال : حسن صحيح » لذلك ردّت السيدة عائشة رضي الله عنها ذلك ، وظهر لنا بردّها أنَّ الراوي لخبر الآحاد ولو كان في أعلى مراتب التوثيق كأبي هريرة الصحابي رضي الله عنه فإن خبره يفيد الظن ولا يفيد العلم ولذلك جاز ردّه خلافاً للآية والخبر المتواتر .

٨ ـ خبر الواحد يفيد الظن ولا يفيد العلم عند سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه :

قال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » (١/ ٢) :

« وكان ـ أبوبكر ـ أوّل من احتاط في قبول الأخبار ، فروى ابن شهاب عن قبيصة بن ذويب أنَّ الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تُورَّث فقال : ما أجدُ لَكِ

في كتاب الله شيئاً وما علمتُ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذكر لَكِ شيئاً ، ثم سأل النّاس فقام المغيرة فقال : حضرتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُعْطيها السدس ، فقال له : هل معك أحد ؟! فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه أبوبكر رضي الله عنه »(٩٦) .

٩ ـ خبر الواحد يفيد الظن دون العلم عند سيدنا عمر رضي الله عنه أيضاً :

قال الحافظ الذهبي في ترجمة سيدنا عمر رضي الله عنه في « تذكرة الحفاظ » (٦/١) ما نصه :

« وهو الذي سَنَّ للمحدّثين التَّثَبُّتَ في النقل **وربما كان يَتَوَقَّفُ في خبر الواحد** إذا ارتاب(٩٧) ، فروى الجَرِيري عن أبي نضرة عن أبي سعيد أنَّ أبا موسى سلَّم على عمر من وراء الباب ثلاث مرات فلم يؤذن له فرجع فأرسل عمر في أثره فقال : لِمَ رجعت ؟! قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إذا سلّم أحدكم ثلاثاً فلم يُجَبْ فليرجع » .

قال : لتأتيني على ذلك ببينةٍ أو لأفعلنَّ بك ، فجاءنا أبوموسى منتقعاً لونه ونحن جلوس ، فقلنا : ما شأنك ؟ فأخبرنا وقال : فهل سمع أحد منكم ؟

فقلنا : نعم كلّنا سمعه فأرسلوا معه رجلاً منهم حتى أتى عمر فأخبره(٩٨) .

أَحَبَّ عمرُ أن يتأكد عنده خبرأبي موسى بقول صاحبٍ آخر ، **ففي هذا دليل على أنَّ الخبر إذا رواه ثقتان كان أقوى وأرجح مما انفرد به واحد ، وفي ذلك حَضٌّ على تكثير طرق الحديث لكي يرتقي عن درجة الظن إلى درجة العلم** ، إذ الواحد

---

(٩٦) رواه أحمد في المسند (٤/ ٢٢٥) وابن الجارود في المنتقى (٩٥٩) وعبدالرزاق في المصنّف (١٠/ ٢٧٤) والبيهقي في سننه (٦/ ٢٣٤) والحاكم (٤/ ٣٣٨) وصححه وأقرّه الذهبي ، وابن حبان في صحيحه (موارد ١٢٢٤) ومالك في الموطأ (٢/ ٥١٣) وأبوداود (٣/ ١٢١) والترمذي (٤/ ٤١٩) وهو صحيح .

(٩٧) ونحن وكل عاقل إن ارتبنا في حديثٍ من أحاديث الصفات لم نقبله لاختلاف ألفاظه في كل موضع ولمعارضته للقطعي عندنا كما يتبين تفصيل ذلك في التعليق على أحاديث « دفع شبه التشبيه » وما علقناه على كتاب « العلو » للذهبي .

(٩٨) رواه البخاري (فتح ١١/ ٢٧) ومسلم وغيرهما .

يجوز عليه النسيان والوهم ولا يكاد يجوز ذلك على ثقتين لم يخالفهما أحد » انتهى كلام الحافظ الذهبي .

فالحافظ الذهبي أيضاً ممّن يقول إن خبر الواحد يفيد الظن وأنَّ الخبر كلما إزداد رواته ارتقى إلى درجة العلم أكثر وقَرُبَ منها .

١٠ ـ خبر الواحد ينبغي التثبت منه ولو كان راويه صحابياً ويفيد الظن عند الإمام علي رضي الله عنه وأرضاه :

روى الإمام أحمد في المسند (١/ ١٠) بإسناد صحيح عن أسماء بن الحكم الفَزَاري قال : سمعت علياً قال : كنتُ إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حديثاً نفعني الله به بما شاء أن ينفعني منه ، **وإذا حدّثني غيري عنه استحلفته** ، فإذا حلف لي صدّقته ، وحدّثني أبوبكر وصدق أبو بكر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« ما من عَبْدٍ مؤمن يذنبُ ذنباً فيتوضأ فيحسن الطهور ثم يصلي ركعتين فيستغفر الله تعالى إلا غفر الله له » ثم تلا : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومَنْ يغفر الذنوب إلا الله ولم يُصِرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾ الآيات آل عمران : ١٣٦ .

أقول : لو كان خبر الواحد يفيد العلم ولا يفيد الظنَّ لاكتفى سيدنا علي عليه السلام ورضي الله عنه بسماع خبر الواحد ولما استحلفه لأنه باستحلافه يُؤكِّدُ خبره ، أو يصرح الراوي بأنه غير متأكّدٍ من الخبر ، هذا وليس في السند بالنسبة لسيدنا علي كرم الله وجهه إلا رجل واحد وهو صحابي ، فكيف بسندٍ فيه خمسة رجال مثلاً ، ليس جميعهم صحابة ؟! ألا يُفيد ذلك الظنَّ ؟!

خبر الواحد يفيد العمل والظن دون العلم عند أئمة السلف أيضاً

١١ ـ **قال الحافظ ابن عبدالبر في « التمهيد » (١/ ٧) :**

« واختلف أصحابنا وغيرهم في خبر الواحد العدل هل يوجب العلم والعمل جميعاً ، أم يوجب العمل دون العلم ؟ والذي عليه أكثر أهل العلم منهم أنه يوجب العمل دون العلم ، وهو قول الشافعي وجمهور أهل الفقه والنظر ولا يوجب العلم عندهم إلاّ ما شهد به على الله وقطع العذر بمجيئه قطعاً ولا خلاف فيه .

وقال قوم من أهل الأثر وبعض أهل النظر : إنه يوجب العلم الظاهر(٩٩) والعمل جميعاً ، منهم الحسين الكرابيسي وغيره ، وذكر ابن خواز منداد أنَّ هذا

---

(٩٩) اي علم الفروع دون الأُصول ـ اي العقيدة ـ قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في المستصفى (١/ ١٤٥) : [**القسم الثاني من هذا الأصل : في أخبار الآحاد . وفيه أبواب :**

الباب الأول : في إثبات التعبد به مع قصوره عن إفادة العلم . وفيه أربع مسائل :

مسألة : اعلم أنا نريد بخبر الواحد في هذا المقام مالا ينتهي من الأخبار إلى حد التواتر المفيد للعلم ، فما نقله جماعة من خمسة أو ستة مثلاً فهو خبر الواحد ، أما قول الرسول عليه السلام مما علم صحته فلا يسمى خبر الواحد . وإذا عرفت هذا فنقول : خبر الواحد لا يفيد العلم ، وهو معلوم بالضرورة فإنا لا نصدق بكل ما نسمع ، ولو صدقنا وقدّرنا تعارض خبرين فكيف نصدّق بالضدين ؟ **وما حكى عن المحدثين من أن ذلك يوجب العلم فلعلهم أرادوا أنه يفيد العلم بوجوب العمل ، إذ يسمى الظن علماً ؛ ولهذا قال بعضهم : يورث العلم الظاهر . والعلم ليس له ظاهر وباطن وإنما هو الظن] .**

أقول : والصواب في قوله (وما حكى عن المحدثين) أن يقال بدله : عن بعض المحدّثين ، لأن جمهور أهل الحديث يقولون بأن حديث الواحد وخبر الآحاد يفيد الظن ولا يفيد العلم .

وقد اعترض علينا معترضون في هذا النقل عن الحافظ ابن عبد البر وزعموا بأننا لم ننقل تمام كلامه ، وليس هذا بشيء !! بل إن كلامه الذي زعموا أننا لم نذكره لن يفيدهم شيئاً لأنَّ ظاهره يوهم أنه يناقض ما جزم به ابن عبد البر هنا وفي مواضع متعددة من كتبه منها قوله في التمهيد (٧/ ١٧) بعد ذلك :

« فالله أعلم بما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله (في السماء) إن كان قاله ، فإن أخبار الآحاد لا يقطع عليها » ، ومنها قوله أيضاً في التمهيد (٩/ ٢٨٥) : « لأنَّ أخبار الآحاد لا يقطع على عينها وإنما توجب العمل فقط » . فتأمل جيداً !!

القول يخرج على مذهب مالك [١٠٠] ، قال أبو عمر ـ ابن عبدالبر ـ :

« **الذي نقول به إنه يوجب العمل دون العلم كشهادة الشاهدين والأربعة سواء وعلى ذلك أكثر أهل الفقه والأثر** » انتهى كلامه .

١٢ ـ والأمام الشافعي يصرّح بذلك أيضاً :

قال سيدنا الإمام الشافعي رحمة الله عليه ورضوانه :

« الأصل القرآن والسُنَّة وقياس عليهما ، والإجماع أكبر من الحديث المنفرد » انتهى رواه عنه : أبونُعَيم في « الحلية » (٩/ ١٠٥) وأبوحاتم في « آداب الشافعي » (٢٣١و٢٣٣) والحافظ البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٣٠) .

قلت : إنما قال الإمام الشافعي « الإجماع أكبر من الحديث النفرد » لأنَّ الإجماع يفيد العلم والقطع والحديث المنفرد الذي هو آحاد يفيد الظن فقط ، فتأمّل وتدبّر .

١٣ ـ وعلى ذلك الإمام البخاري رحمه الله تعالى أيضاً :

قال الإمام الحافظ البخاري رحمه الله تعالى في كتاب أخبار الآحاد من صحيحه (فتح ١٣/ ٢٣١) ما نصه :

« باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام » .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرحه عليه :

« وقوله والفرائض بعد قوله : في الأذان والصلاة والصوم من عطف العام على الخاص ، وأفراد الثلاث بالذكر للاهتمام بها ، قال الكَرْماني : لِيُعْلَمَ إنّما هو

---

[١٠٠] هذا قول شاذ لا يثبت عن الإمام مالك رحمه الله تعالى ، وقائله ابن خويزمنداد مشهور بنقل الأقوال الشاذة عن الإمام مالك كما بين ذلك الحافظ ابن حجر في « لسان الميزان » (٥/ ٢٩١ هندية) حيث قال :

« عنده شواذ عن مالك ، واختيارات وتأويلات لم يُعَرِّج عليها حُذّاق المذهب كقوله إن العبيد لا يدخلون في خطاب الأحرار وإن خبر الواحد مفيد العلم ... وقد تكلّم فيه ابو الوليد الباجي ، ولم يكن بالجيد النظر ولا بالقوي في الفقه ، وكان يزعم أن مذهب مالك أنه لا يشهد جنازة متكلم ولا يجوّز شهادتهم ولا أماناتهم ، وطعن ابن عبد البر فيه أيضاً » انتهى .

في العمليات لا في الاعتقاديات » انتهى من الفتح .

١٤ ـ **الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى** لا يفيد خبر الواحد عنده إلا الظن **ومتى عارضه شيء من القطعي أو ما هو أقوى منه ضرب عليه ، ولو كان يفيد العلم لما ضرب عليه ؛ وهذا مذهبه الذي كان عليه في مرضه الأخير الذي توفي فيه .**

روى البخاري (فتح ٦/٦١٢) ومسلم (٢٩١٧) وأحمد (٢/٣٠١) حديث :

« يُهْلِك أُمتي هذا الحيُّ من قريش قالوا ما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : لو أنَّ الناس اعتزلوهم » .

قال عبدالله ابن الإمام أحمد هناك في المسند عقب هذا الحديث مباشرة :

[قال أبي في مرضه الذي مات فيه : اضراب على هذا الحديث فإنه خلاف الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعني قوله « اسمعوا وأطيعوا واصبروا »] . وهذا تضعيف من أحمد بن حنبل لأحد الأحاديث المروية في الصحيحين .

قلت : الأحاديث التي فيها « اسمعوا واطيعوا واصبروا » أفادت عند الإمام أحمد القطع أو ما قارب العلم ، وحديث « لو أن الناس اعتزلوهم » ظنّيٌّ عارض الثابت عنده فأسقطه ، وفي ذلك دلالة واضحة على أن الخبر الذي صح إسناده يفيد الظن عنده ولا يفيد العلم ، ولو أفاد العلم أو غلب على ظنه أنه صح لأوَّلَهُ كما أوَّلَ حديثَ مُسْلِمٍ : « تأتي البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان » فقال : « إنما هو الثواب » ولم يأمر بالضرب عليه !

فنستطيع أن نقول : بأن أحاديث الصحيحين لا تفيد إلا الظن عند أحمد ويمكن الضرب على بعضها إذا تبين فيها خلل كما فعل هو في مسنده .

فرع

الأئمة وكبار الحفاظ والمحدثين على ذلك أيضاً

١٥ ـ قال شيخ المحدّثين في وقته الحافظ الخطيب البغدادي في كتابه : « الكفاية في علم الرواية » ص (٤٣٢) :

« باب ذكر ما يُقبل فيه خبر الواحد وما لا يقبل فيه :

خبر الواحد لا يُقْبَل في شيء من أبواب الدين المأخوذ على المكلَّفين العلم بها والقطع عليها ، والعلة في ذلك أنه إذا لم يعلم أنْ الخبر قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان أبعد من العلم بمضمونه ؛ فأما ما عدا ذلك من الأحكام التي لم يوجب علينا العلم بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرّرها وأخبر عن الله عز وجل بها فإن خبر الواحد فيها مقبول والعمل واجب » .

وقال مثله ص (٢٥) في الكفاية وعقد باباً سمّاه :

« **ذكر شبهة من زعم أنْ خبر الواحد يوجب العلم وإبطالها** » .

١٦ ـ الإمام الحافظ البيهقي رحمه الله تعالى يقول ذلك أيضاً :

قال الحافظ البيهقي في كتابه « الأسماء والصفات » ص (٣٥٧) :

« ولهذا الوجه من الاحتمال ، ترك أهل النظر من أصحابنا الاحتجاج بأخبار الآحاد في صفات الله تعالى ، إذا لم يكن لما انفرد منها أصل في الكتاب أو الإجماع واشتغلوا بتأويله » .

١٧ ـ الإمام الحافظ النووي رحمه الله تعالى يصرّح بذلك أيضاً :

قال الإمام الحافظ النووي في « شرح مسلم » (١٣١/١) :

« وأما خبر الواحد ، فهو ما لم يوجد فيه شروط المتواتر سواء كان الراوي له واحداً أو أكثر ، واخْتُلِفَ في حكمه فالذي عليه جماهير المسلمين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من المحدّثين والفقهاء وأصحاب الأصول أن خبر الواحد الثقة حجة من حجج الشرع يلزم العمل بها **ويفيد الظن ولا يفيد العلم ...** » .

١٨ ـ الحافظ ابن حجر العسقلاني يرى أيضاً أن حديث الآحاد يفيد الظن ولا يفيد العلم وكذلك الشيخ علي القاري في شرح النخبة :

قال الحافظ ابن حجر الشافعي في شرح نخبة الفِكَر والشيخ علي القاري الحنفي في شرحه عليها ص (٣٧) ما نصه وما بين الأقواس وبالأسواد الواضح كلام الحافظ ابن حجر :

[**(وفيها أي في الآحاد)** أي في جملتها خاصة ... **(المقبول وهو ما يوجب العمل به عند الجمهور)** احتراز عن المعتزلة فإنّهم أنكروا وجوب العمل بالآحاد[١٠١] بدليل ما نقل عنهم من استدلال بخبر الواحد **(وفيها)** أي أحاديث الآحاد **(المردود وهو الذي لم يرجح صدق المخبر به لتوقف الاستدلال بها على البحث عن أحوال رواتها دون الأوّل)** أي القسم الأوّل وهو المتواتر **(فكلّه)** ضميره راجع إلى المتواتر **(مقبول)** أي قبولاً قطعياً لا ظنّياً **(لإفادته)** أي الخبر المتواتر **(القطع بصدق مخبره بخلاف غيره من أخبار الآحاد)**] انتهى من شرح القاري على شرح النخبة لابن حجر ، [وانظرنزهة النظر شرح النخبة للحافظ أيضاً ص (٢٥ ـ ٢٦) طبع دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠١ هـ] .

١٩ ـ الأُستاذ أبو منصور عبدالقاهر البغدادي[١٠٢] المتوفى (٤٢٩هـ) يرى ذلك أيضاً :

قال الأُستاذ البغدادي في كتابه « أصول الدين » ص (١٢) ما نصه :

« وأخبار الآحاد متى صحّ إسنادها وكانت متونها غير مستحيلة في العقل كانت موجبة للعمل بها دون العلم » .

٢٠ ـ اعترف ابن تيمية الحرّاني في « منهاج سنته » بأن خبر الآحاد لا يبنى عليه أصل الاعتقاد :

لقد اعترف ابن تيمية في « منهاج سنته » (٢/ ١٣٣) بذلك فقال :

---

[١٠١] المعتزلة لم ينكروا وجوب العمل بالآحاد وإنما أنكروا أنه يفيد العلم كباقي العلماء ولم يبنوا عليه أصول الاعتقاد مثلهم مثل الأشاعرة وغيرهم من أهل السنة .

[١٠٢] وقد وصفه بالأُستاذ الحافظ ابن حجر العسقلاني في « فتح الباري » (١٣/ ٣٤٥) .

« الثاني : أنَّ هذا من أخبار الآحاد فكيف يثبت به أصل الدين الذي لا يصح الإيمان إلاّ به ؟! » انتهى .

قلت : وأستطيع أن أقول بعد هذا البيان المُفَصَّل أن حديث الآحاد لا يفيد إلا الظن ولا يجوز أن نبني عليه أصول الاعتقاد وخصوصاً إذا كان في رواته من هو مُتَكَلَّمٌ فيه ، أو كان معارَضاً بما هو أقوى منه ، ومن شاء الزيادة في ذلك فليقرأ وليتدبر ما كتبناه من تعليقات على كتاب « دفع شبه التشبيه » وكتاب « العلو » فإنه سيخرج بنتيجة قطعية في هذه المسألة والله الموفق(١٠٣) .

[تنبيه] : واعلم يرحمكم الله تعالى أن حديث الآحاد يفيد الظن دون

---

(١٠٣) وأمّا ما يستدل به بعض الطلبة المبتدئين الذين لا غور لهم في فهم أدلة الشرع على حجية خبر الواحد في العقائد بقوله تعالى : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ فلا علاقة لها بموضوعنا هذا . وذلك لأن هذه الطائفة مؤمنة بنص الآية وقد حصل لديها وللفرقة التي نفرت منها الإيمان بأصول الدين والعقائد قبل ذلك . والمطلوب منها هو التفقه في دقائق الشرع لِيُعَرِّفُوا فرقتهم بالأحكام التفصيلية التي لا يشترط فيها التواتر بل يكفي فيها خبر الواحد ، فإذا عُلِمَ ذلك فلا ضير في اعتبار الطائفة واحداً أو أكثر ، على أننا لا نُسَلِّمُ البتة بأن الطائفة هي واحد ، وقوله في الآية ﴿ **لينذروا** ﴾ دليل واضح على أنهم جماعة مع كون هذا النُفُر يتعلق في غير أُصول الدين التي يتناقلها المسلمون جيلاً عن جيل .

قال الإمام القرطبي في تفسيره (٨/ ٢٩٤) :

[الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ** ﴾ قال الأخفش أي فهلا نفر . ﴿ **مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ** ﴾ الطائفة في اللغة الجماعة ، وقد تقع على أقل من ذلك حتى تبلغ الرجلين ، وللواحد على معنى نفس طائفة . وقد تقدّم أن المراد بقوله تعالى : ﴿ **إنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً** ﴾ رجل واحد ولا شك أن المراد هنا جماعةٌ لوجهين : أحدهما : عقلاً ، والآخر : لغة . أما العقل فلأن العلم لا يتحصل بواحد في الغالب ، وأما اللغة فقوله : ﴿ **لِيَتَفَقَّهُوا في الدين ولِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم** ﴾ فجاء بضمير الجماعة . قال ابن العربي : والقاضي أبو بكر والشيخ أبو الحسن قبله يرون أن الطائفة هاهنا واحد ، ويَعْتَضِدون فيه بالدليل على وجوب العمل بخبر الواحد ، وهو صحيح لا من جهة أن الطائفة تنطلق على الواحد ولكن من جهة أن خبر الشخص الواحد أو الأشخاص خبر واحد ، وأن مقابله وهو التواتر لا ينحصر] .

ونحن نعتقد أنَّ أخبار الآحاد في العقيدة مقبولة في الفروع أو إذا اندرجت ووافقت القطعيات في الأصول لأنَّها تؤيد ما ثبت بالقطعي لكننا نقول إنَّ خبر الواحد المعارَض بقواعد الشرع الثابتة مرفوض وغير مقبول حتى في الطهارة فما بالك في أُصول الدين ؟!

العلم حتى عند القائلين بأنه يفيد العلم والذين يصنّفون في ذلك ويشنعون على مَنْ يقول بأنه يفيد الظن فقط ولا يفيد العلم !! وذلك لأن إنكارهم لذلك نظري لا غير على التحقيق ؛ أما عند التطبيق فلا ، فواقعهم عند اشتغالهم بالتصحيح والتضعيف والمحاورة يدل على ذلك ، والدليل عليه أنهم حكموا بشذوذ كثير من الأحاديث بعد اعترافهم بصحة سندها !! وأمامنا أمثلة لا نكاد نحصرها في ذلك منها : أن متناقض عصرنا !! مثلاً ـ الذي يزعم بأن خبر الواحد يفيد العلم ـ حكم بشذوذ حديث مسلم (١/٢١٤٨ برقم ٢٧٨٨) الذي فيه « ثم يطوي الأرضين بشماله » في تخريج المصطلحات الأربعة في القرآن للمودودي ص (١٣٢)(١٠٤) .

ومنها حكمه بالشذوذ على حديث النَّسَائي (٢/١٥٧) الذي فيه عن أم هشام بنت الحارث « ما أَخَذْتُ ق والقرآن المجيد إلا من وراء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلّي بها في الصبح » !! وذلك في « ضعيف النَّسَائي » ص (٣٢) وغير ذلك كثير وكثير لا يمكننا الآن حصره .

والقول بالشذوذ لا يتم إلا بعد الاعتراف بصحة السند ، فيكون خبر الواحد الشاذ غير مفيد للعلم بل يفيد الخطأ هنا عند هؤلاء ، ومنه يتبين أن خبر الواحد لا يفيد العلم وإنما يفيد الظن ولذلك ردّه هؤلاء وهذا خلافاً لتعاملهم مع المتواتر والقرآن حيث لم يستطيعوا ردّه في أي حال وإنما يقومون بتأويله ، مثل تأويلهم المعية في القرآن بالعلم أو نحوه !! فتدبروا !!

---

(١٠٤) وقد تكلّمنا على ذلك في رسالتنا « تنبيه أهل الشريعة » فليرجع إليها مَنْ شاء .

قاعدة تتعلق بالاستدلال بنصوص القرآن والسنة في العقائد وهي التأويل والتفويض فيهما عند السلف

فصل

إثبات التأويل عند السلف

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية بترك التأويل ولزوم التسليم وعليه دين المسلمين) .

الشرح :

اعلم يرحمك الله تعالى أن الله تعالى ذكر التأويل في كتابه العزيز على معنى البيان والتفسير في آيات كثيرة لا بد أن نذكر بعضها :

قال الله تعالى حكاية عن سيدنا يوسف أنه قال ﴿ **وقال يا أبتِ هذا تأويل رؤيايَ من قبل** ﴾ يوسف : ١٠٠ ، أي هذا تفسير وبيان رؤياي التي رأيتها من قبل .

وقال تعالى ﴿ **قال هذا فراق بيني وبينك ، سأُنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً** ﴾ الكهف : ٧٨ ، أي سأُخبرك ببيان وتفسير هذه الأمور التي لم تستطع الصبر عليها .

وقال تعالى ﴿ **وكذلك يجتبيك ربك ويعلّمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك** ﴾ يوسف : ٦ ، أي يعلمك معاني وبيان وتفسير الأحاديث .

وقال تعالى : ﴿ **ولنعلمه من تأويل الأحاديث** ﴾ يوسف : ٢١ ، ﴿ **وعلّمني من تأويل الأحاديث** ﴾ يوسف : ١٠١ ، ﴿ **وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين** ﴾ يوسف : ٤٤ ﴿ **ذلك خير وأحسن تأويلاً** ﴾ النساء : ٥٩ والآيات في هذا كثيرة .

قال الإمام النووي في « تهذيب الأسماء واللغات » (القسم الثاني ص ١٥) :

« **أما التأويل** : فقال العلماء **هو صرف الكلام عن ظاهره** إلى وجه يحتمله ؛ أوجبه برهان قطعي في القطعيات ، وظني في الظنيات ، وقيل : هو التصرّف في

اللفظ بما يكشف عن مقصوده ، وأما التفسير فهو بيان معنى اللفظة القريبة أو الخفية » .

وقال الإمام الراغب في « المفردات » (٣١) :

« التأويل : ... وذلك هو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه علماً كان أو فعلاً ، ففي العلم نحو قوله تعالى : ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم** ﴾ وفي الفعل كقول الشاعر : وللنوى قبل يوم البَين تأويل ، وقوله تعالى ﴿ **هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله** ﴾ أي بيانه الذي هو غايته المقصودة منه ، وقوله تعالى ﴿ **ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾ قيل أحسن معنىً وترجمةً ، وقيل أحسن ثواباً في الآخرة » انتهى .

وقد بيّن أهل الحديث الذين يُعْتَمَدُ على كلامهم وَيُرْجَعُ إليهم أن الأخذ بظاهر الألفاظ لا يجوز في بعض النصوص لأنه يؤدي إلى التجسيم والتشبيه ، فصرف اللفظ عن ظاهره متعين ؛ ومن ذلك قول الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٣/ ٤٣٢) :

« **فمن أجرى الكلام على ظاهره أفضى به الأمر إلى التجسيم** ؛ ومن لم يتضح له وعلم أن الله مُنَزَّه عن الذي يقتضيه ظاهرها إما أن يُكَذِّب نَقَلَتها وإما أن يؤولها ... » .

وقال أيضاً في « الفتح » (١/ ٢٢٥) :

« وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أنْ يُذْكَرَ عند العامة ... وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوّي البدعة **وظاهره في الأصل غير مراد** ؛ فالإمساك عنه عند مَنْ يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب . والله أعلم » .

فتلخّص أن معنى التأويل هو : صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر مقصود في لغة العرب التي نزل بها القرآن (١٠٥) .

---

(١٠٥) وكيفما اختلفت عبارات أهل العلم في تعريف التأويل فمعناها راجع إلى ما قررناه ، ومحاولة بعض المجسمة والمشبهة في التشويش على هذا التعريف والمراوغة فيه محاولة فاشلة بعد ثبوت الأدلة والبراهين في المسألة ، وتحقيق هذا الأمر عند السلف الصالح !!

وبعبارة أخرى هو : العلم بالمقصود من النص ، فقوله تعالى مثلاً ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ ليس المقصود منه إثبات يدين وخلف للقرآن وإنما المقصود من النص هو الإعلام بأن القرآن محفوظ ومصون ، ففهمنا لهذا المقصود والمراد هو التأويل ؛ وليس المراد بذلك ظاهر الكلام !

واعلم يرحمك الله تعالى أنه قد راج على بعض الناس في هذا العصر أن التأويل الذي هو المجاز أو ما يقاربه في المعنى ضلال وانحراف في العقيدة ، وأنه من شعار الجهمية والمعطلة !! وتعدّى ذلك إلى نسبة لا بأس بها من طلبة العلم الذين لم تتضح لهم الحقائق بعدُ !! فخدعتهم تلك الكتب التي تبحث في موضوع العقائد والتوحيد ، والتي نص مؤلفوها وهم من الخلف على أن الأخذ بظواهر النصوص المتعلّقة في التوحيد والصفات مما هي في الحقيقة إضافات لا يراد منها إثبات صفات كما سيمر في صُلْب كتابنا هذا ، كما نصوا على عدم القول بالتأويل وأنه من شعار الجهمية والمُعطِّلة بزعمهم ، فظنوا أن ما يقوله بعض المشبّهة من أنَّ التأويل ضلال وبدعة وتعطيل وتجهم وأنه لم يكن عند السلف حقاً ، وليس الأمر كذلك على الحقيقة ، بل مَنْ قرأ ودرس وفتّش وبحث وطالع ونقّب فإنه سيجد لا محالة أن العدول من الأئمة الثقات في القرون الثلاثة المشهود لها بالخيرية المسماة عند بعض العلماء بقرون السلف قد أوّلوا كثيراً من النصوص المتعلّقة بموضوع الصفات والتوحيد وبينوا أن الظاهر منها غير مراد ، وحسبي في مِثْلِ هذا المقام أن أسْرُدَ بعض تأويلاتهم وأن أُبين قبل ذلك أنهم تَعلَّموا التأويل من كتاب الله تعالى وسنة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الصحيحة وإليك ذلك :

١ ـ لقد عَلَّمنا الله تعالى (التأويلَ) في كتابه العزيز ، أي عدم إرادة ظاهر النص الواردة[١٠٦] في قوله تعالى :

---

[١٠٦] ولا نطالبُ مَنْ اعتقد أنّ التأويل ضلال مبين أن يُسمّي ما سنذكره له من الأدلة الواردة في الكتاب والسنة والأقوال المنقولة عن السلف تأويلاً ، إذ لا مشاحة في التسمية ، وإنما نريد بيان روح المعنى المراد من ذلك وهو عدم إرادة ظاهر تلك النصوص وإنما المراد من ذلك معنى آخر بلاغي في لغة العرب التي نزل بها القرآن وهو ما يُسمى بالمجاز أو بأي شيء آخر فتأمل .

﴿ **نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ** ﴾ التوبة : ٦٧ وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّا نسيناكم** ﴾ السجدة : ١٤ فبهذه الآيات لا نُثْبِتُ لله تعالى صفة النسيان وإنْ ورد لفظ النسيان في القرآن الكريم ، ولا يجوز لنا أن نقول : إنَّ لله نسياناً ولكنّه ليس كنسياننا ، وذلك لأنَّ الله عز وجل قال : ﴿ **وما كان ربُّك نَسِيّاً** ﴾ مريم : ٦٤ .

ولا يَحِلُّ لعاقِلٍ بعد هذا أن يقول : « ينسى لا كنسياننا ويجلس لا كجلوسنا ، وهو في السماء ليس كمثله شيء ، كما نقول : هو سميع ليس كسمعنا ، وهو بصير ليس كبصرنا ... » .

فإن غالط مغالط وقال : لماذا لا نقول : يضحك لا كضحكنا وينسى لا كنسياننا ويملُّ لا كمللنا ؟!!

قلنا له : قولك لا كضحكنا ولا كنسياننا ولا كمللنا لن يفيدك البتة ولن ينفي عنك التشبيه !! لأنَّ هذا دالّ على النقص أولاً !! وقولك « بلا كيف » أو « يليق بجلاله » عقب ذلك وبعده غير مفهوم بالعربية إلا بالتأويل وأنت تقول بـ« أن الله تعالى لا يخاطبنا بما لا نفهم » ونحن لا نفهم الضحك الذي تطلقه حقيقة على الله تعالى إلا بالقهقهة أو الانفعال والتبسم والعرب لا تفهم إلا ذلك !!

إلا إذا أَوَّلْتَ ذلك بالرحمة كما أوّلها الإمام البخاري(١٠٧) اتباعاً للّسان العربي !!

فقول المشبه والمجسم يضحك لا كضحكنا كما نقول سميع لا كسمعنا وبصير لا كبصرنا تمويهٌ لن يجديه شيئاً !! لأنّ المراد بقولنا يسمع سبحانه لا كسمعنا : أن نُثْبِتَ لله تعالى السمع ثم نُنَزِّهَهُ عن آلة السمع وهي الأذن وعن الأعضاء والصورة والجوارح وغير ذلك ، فيُتَصَوَّرُ وجود صفة السمع بلا آلةٍ ثم يُفَوَّضُ علم ذلك إلى الله تعالى بعد الإيمان بأن له سبحانه سمعاً لأنّ صفة الخالق لا يمكن للمخلوق أن يدركها لأنها قد اتحدت في الاسم دون المسمّى ، لكن الجلوس والحركة والملل ونحو

---

(١٠٧) انظر « الأسماء والصفات » للإمام البيهقي (ص ٢٩٨ و ٤٧٠) و « فتح الباري » (٦/ ٤٠) .

هذه الألفاظ التي تطلقها المجسمة دون تَرَوٍ ولا بصيرة على الله تعالى لا يُتَصَوَّرُ فيها وجود شيء يمكن إثباته بعد نفي عنصر التشبيه منها وتفويض معناه لله جل جلاله !!

فالحركة مثلاً التي يَصِفُ الله تعالى بها بعض المشبهة والمجسمة لا يفهم منها إلا الانتقال من محلٍ إلى آخر ولا تُعْقَلُ إلا بذلك ، فإذا نفيت بعد إثباتها الانتقال لم تَعُدْ حركة فيبطل ما أثبته أولئك المشبّهة حينئذٍ من أساسه ويتبين أن كلامهم متناقض في ذلك لأنه لم يبق شيء يمكن إثباته خلافاً للسمع والبصر فتأمّل جيّداً !!

فالمرض مثلاً والنسيان الواردان في الكتاب والسنة والمضافان إليه سبحانه وتعالى لا يمكن اعتبارهما صفة له سبحانه للقاعدة التي قررناها ؛ وبذلك يتبين بطلان كلام من يقول : « نقول يملُّ لا كمللنا وله يد ليست كأيدينا مثلما نقول يسمع لا كسمعنا ويبصر لا كبصرنا » ، لأن هذا كلام إنشائي مُجْمَلٌ بعيد عن التحقيق العلمي المستند لنصوص الكتاب والسنة كما سيأتي إن شاء الله تعالى عند الكلام على المكر والاستهزاء والخديعة وغيرها ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

الدليل على التأويل من السنة :

ويتضح هذا أكثر في المثال الثاني :

٢ ـ ثبت في صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٠ برقم ٢٥٦٩) عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ الله تعالى يقول :

« يا ابن آدم مَرِضْتُ فلم تَعُدْني ، قال : يا رَبِّ كيف أعُودُكَ وأنت ربُّ العالمين قال : أما علمت أنَّ عبدي فلاناً مَرِض فلم تَعُدْهُ ، أما علمت أنّك لو عُدْتَه لوجدتني عِنْدَه ... » الحديث .

فهل يا قوم يجوز لنا أن نقول : نُثْبِتُ بهذا الحديث لله تعالى صفة المرض ولكن ليس كمرضنا ؟!! وهل يجوز أن نعتقد أنَّ العبد إذا مَرِضَ مرض الله تعالى أيضاً وكان عند المريض على ظاهره وحقيقته ؟!!

كلا ، ثم كلا ، بل نقول إن مَن وصف الله تعالى بأنه يمرض أو قال إنَّ له صفة المرض كان قاصر الفهم وفاسد العقيدة بلا مثنويّة ، مع كون تاء مرضتُ مضمومة

وهي تدلُ عربيةً على أنَّ المرض يتعلَّق بالمتكلِّم ، لأنه مع كل هذا نقول : الظاهر غير مراد ؛ وهو مصروف ومؤوّل عند جميع المسلمين العقلاء ، فيكون هذا دليلاً واضحاً كالشمس من السُنَّة في تعليمنا التأويل .

ومعنى الحديث كما قال الإمام النووي في « شرح مسلم » (١٦/ ١٢٦) :

« قال العلماء إنما أضاف المرض إليه سبحانه وتعالى والمرادُ العبد ، تشريفاً للعبد وتقريباً له ، قالوا : ومعنى : وجدتني عنده أي : وجدت ثوابي وكرامتي ... » انتهى فتأمَّل .

٣ـ ومن أدلة التأويل الأخرى في السنة النبوية الصحيحة قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

« إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما نزل كتاب الله عَزَّ وجل يصدّق بعضه بعضاً ، فلا تكذّبوا بعضه ببعض ، **فما علمتم منه فقولوه** ، وما جهلتم فكِلُوه إلى عالمه » .

رواه عبد الرزاق (١١/ ٢١٦) وأحمد (٢/ ١٩٥) وابن ماجه (١/ ٣٣) والبغوي في « شرح السنة » (١/ ٢٦٠) وهو صحيح(١٠٨) .

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث : « فما علمتم منه فقولوه » دليل على مذهب التأويل .

وقوله « وما جهلتم فكلوه إلى عالمه » دليل على مذهب التفويض ، وأن التفويض هو الجهل أو عدم العلم بالمقصود من النص وإنما يصار إليه بعد العجز عن فهم المقصود من النص .

وعلى هذه القاعدة الواضحة للتأويل المبنيّة على نصوص الكتاب والسُنَّة سار

---

(١٠٨) وصححه الشيخ المتناقض !! في تعليقه على « شرح الطحاوية » ص (٢٠١ و ٥١٧) ، وكذلك حسنه الشيخ شعيب في تعليقه على « شرح السنة » (١/ ٢٦٠) وأحمد شاكر في تعليقه على المسند (١١/ ٧٣) بلفظ قريب منه .

وإنما ذكرت تصحيح هؤلاء لأن المتمسلفين في هذا العصر يعوّلون على تصحيحات هؤلاء وخاصة الشيخ المتناقض !! منهم ، ولا يستطيعون تضعيف الحديث بعد تصحيح هؤلاء له .

الصحابة والتابعون وأتباعهم وأئمة الاجتهاد والحفاظ المحدّثون ولننقل لكم بعض تأويلاتهم حتى يزداد القلب طُمأنينة وانشراحاً فنقول :

٤ ـ تأويلات الصحابة رضي الله عنهم :

لقد أوَّل الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم كثيراً من الآيات فصرفوا المعنى عن الظاهر إلى معانٍ أخرى مجازية في لغة العرب ، فهذا سيدنا ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي دعا له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « اللهم عَلِّمْهُ الكتاب »(١٠٩) قد نُقِلتْ عنه تأويلات كثيرة فيما يتعلّق بمسألة الصفات بأسانيد صحيحة نذكر بعضها :

أ ـ أوَّل ابنُ عباس قوله تعالى : ﴿ **يومَ يُكْشَفُ عن ساق** ﴾ القلم : ٤٢ ، فقال : « يكشف عن شدّة » فأوَّلَ الساقَ بالشدة .

ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١٣/٤٢٨) وكذلك الحافظ ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٩/٣٨) حيث قال في صدر كلامه على هذه الآية : « قال جماعة من الصحابة والتابعين من أهل التأويل : يبدو عن أمر شديد(١١٠) » .

---

(١٠٩) رواه البخاري (الفتح ١/١٦٩) .

(١١٠) ولقد اعترف ابن تيمية وابن القيم وأمثالها بثبوت هذا التأويل عن الصحابة والسلف ، ومن ذلك قول ابن القيم في « الصواعق المرسلة » (١/٢٥٢) : « والصحابة متنازعون في تفسير الآية ، هل المراد الكشف عن الشدّة ، أو المراد بها أنّ الرب يكشف عن ساقه ؟!

ولا يحفظ عن الصحابة والتابعين نزاع فيما يُذْكَرُ أنه من الصفات أم لا غير هذا الموضع » .

وانظر الفتاوى لابن تيمية (٦/ ٣٩٤) فإنه ذكر ذلك أيضاً هناك .

ونقول : أولاً : هذا اعتراف منهم بأنّ السلف قد اختلفوا في مسائل العقيدة وهذه المسألة نموذجاً على ذلك الاختلاف ، فلا يصح أن يقال : « هذا مذهب السلف » لأنهم مختلفون كما ترى باعترافهم .

ثانياً : إن ادّعاء ابن تيمية وتلميذه ابن القيم بأنه لا يحفظ عن السلف اختلاف أو تنازع في أمور الصفات إلا في هذا الموضوع ليس صحيحاً البتة ، بل ما نقلناه من تأويلات واختلافات عنهم في مواضع عديدة يهدم هذا القول منهما ويجعله قولاً باطلاً لا يجوز الالتفات إليه !!

وثالثاً : حاول بعض سلفية العصر بعد أن اتضح ثبوت تأويل السلف (كشف الساق) بالشدة واعتراف أئمتهم (ابن تيمية وتلميذه ابن القيم) بذلك : أن يضلّلوا أتباعهم ويصرفوهم عن هذا التأويل فادّعوا زوراً بأنّ هذا التأويل لم يثبت عن سيدنا ابن عباس !! ومن تلك المحاولات أن بعضهم (ممن ثبت عليه

سرقة مؤلّفات العلماء ونسبتها إليه) ألّف كتاباً خاصاً لإثبات أن تأويل الساق بالشدة لم يثبت عن سيدنا ابن عباس وقد أخفق في ذلك ولم تنجح محاولته !! كما بيّنا ذلك واضحاً في كتابنا « التناقضات الواضحات » (٢/ ٣١٢ وما بعدها) ونبين هنا مثالاً واحداً من إخفاقه وفشله في تلك المحاولة وهي قوله في كتابه المسمّى بالمنهل الرقراق ص (٢٤ ـ ٢٥) ما نصه :

[خامساً : أخرج البيهقي في « الأسماء والصفات » ص (٤٣٧) : أخبرنا أبو سعيد بن أبي عمر : نا أبو العباس الأصم : نا محمد بن الجهم : نا يحيى بن زياد الفراء : حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أنه قرأ : (يوم يكشف عن ساق) يريد يوم القيامة والساعة لشدتها : قال الفرّاء : أنشدني بعض العرب لجد طرفة :

كشفت لهم عن ساقها　　　وبدا من الشرُّ صراح] انتهى

ثم قال بعد ذلك مضعفاً سند هذا الأثر ما نصه :

[قلت :محمد بن الجهم : هو ابن هارون السمري ، له ترجمة في « لسان الميزان » (٥/ ١١١) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً ، وروى عنه جماعة ، فهو مجهول الحال] انتهى .

قلت : لقد وقع المسكين فيما لا قِبَلَ له به وانهدم كتابه الذي عَنْوَنَه بذلك !! وذلك لأنّ محمد بن الجهم السمري ثقة قال عنه الدارقطني : « ثقة صدوق » وقال عنه عبدالله بن أحمد : « صدوق ما أعلم إلا خيراً » كما تجد ذلك في « تاريخ بغداد » (٢/ ١٦١) . وقال في حقه الحافظ ابن حجر في « لسان الميزان » (٥/ ١٢٥ طبعة دار الفكر) و (٥/ ١١٠ من الطبعة الهندية) : « ما علمت فيه جرحاً » ولم يقل الحافظ ابن حجر هناك كما أوهم هذا الكاتب « ولا تعديلاً » وقد أورد الحافظُ ابنُ حبان هذا السمريَّ في ثقاته (٩/ ١٤٩) ، واعترف الكاتب المسكين ص (٣٢ ـ ٣٣) من كتابه أن الحافظ ابن حجر صحح هذا الأثر !! فيكون بعد هذا محمد بن الجهم السمري ثقة رغم أنف كل مدلس ومعاند حسب قواعد هذا الفن .وأُلفِتُ النظر هنا إلى أنه لا علاقة لمحمد بن الجهم السِّمُري هذا الثقة بالجهم بن صفوان فإياك أن تخلط في ذلك !! فإذا اتضح هذا فقد تبين بكل وضوح انهدام كتاب ذلك الكاتب الذي حاول أن يوهم فيه عدم ثبوت التأويل عن السلف بعد ثبوت هذا الأثر ، أضف إلى ذلك أن هذا الإسناد الصحيح الثابت يشهد لباقي الأسانيد الضعيفة لهذا الأثر مما يجعلها صحيحة ويُصَيِّرُ هذا الأمر مما تواتر ثبوته عن سيدنا ابن عباس رضي الله تعالى عنهما !! ونقول الآن بعد هذا البيان المقتضب : بماذا تفسرون (أيها المتمسلفون) هذا الذي اقترفه هذا الكاتب المتمسلف ؟! وما قولكم في قوله إنّ محمد بن الجهم السِّمُري (مجهول) مع كونه ثقة لا يعرف أهل الحديث فيه جرحاً ؟! أهو الجهل والقصور وتصدّي مَنْ ليس أهلاً للتأليف ؟! أم هو التدليس والكذب وفقدان الأمانة العلمية والتعصب ضد المذهب الحق ؟!! ويليق أن نختم هذا التعليق بقول القائل :

لقد هَزُلَتْ حتى بدا من هُزَالها　　　كُلاها وحتى سامها كل مُفْلس

قلت : ومنه يتضح أن التأويل كان عند الصحابة والتابعين وهم سلفنا الصالح .

وقد نقل ذلك الحافظ ابن جرير أيضاً عن : **مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة** وغيرهم من السلف .

ب ـ وأوَّلَ سيدنا ابن عباس رضي الله عنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ **والسماءَ بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون** ﴾ الذاريات : ٤٧ ، « قال : بقوَّةٍ » كما في تفسير الحافظ ابن جرير الطبري (٧/٢٧) ، ولفظة (أيدٍ) هي جمع يد وهي الكف كما في « القاموس المحيط » في مادّة (يدى) حيث جاء فيه :

« واليد : الكف ، أو من أطراف الأصابع إلى الكتف ، أصلها يُدْيٌ جَمْعها : أيْدٍ ويُدِيٌّ » وانظر« تاج العروس شرح القاموس » (١٠/٤١٧ ـ ٤١٨) . ومنه قوله تعالى : ﴿ **ألهم أرْجُلٌ يمشون بها أمْ لهم أيْدٍ يبطشون بها** ﴾ الأعراف : ٧ .

وتستعمل لفظةُ (أيْدٍ) مجازاً وتؤوّل في عِدَّةِ معان منها : « القوّة » كقوله تعالى : ﴿ **والسماءَ بنيناها بأيدٍ** ﴾ أي بقوةٍ ، ومنها : « الإنعام والتَفَضُّل » ومنه قوله تعالى : ﴿ **واذكرْ عبدَنَا داود ذا الأيدِ إنَّهُ أوّاب** ﴾ ص : ١٧ . فتأمّل .

وقد نقل الحافظ ابن جرير في تفسيره (٧/٢٧) تأويل لفظة (أيدٍ) الواردة في قوله تعالى : ﴿ **والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون** ﴾ بالقوّة أيضاً عن جماعة من أئمة السلف منهم : مجاهد وقتادة ومنصور وابن زيد وسفيان .

جـ ـ وأوّل أيضاً سيدنا ابن عباس النسيان الواردة في قوله تعالى : ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ بالتَّركِ ، كما في تفسير الحافظ الطبري (مجلد ٥/ جزء ٨ / ص ٢٠١) حيث قال ابن جرير : « أي ففي هذا اليوم ، وذلك يوم القيامة ننساهم ، يقول نتركهم في العذاب ... » انتهى .

فقد أوّل الحافظ ابن جرير النسيان بالترك ، وهو صرفٌ لهذا اللفظ عن ظاهره لمعنى جديد مجازي ، ونقل الحافظ ابن جرير هذا التأويل الصارف عن الظاهر ورواه بأسانيده عن ابن عباس ومجاهد ... وغيرهم .

وابن عباس صحابيٌ ، ومجاهد تابعيٌّ ، وابن جرير من أئمة السلف المحدّثين ،

إذن ثبت التأويل في ما يتعلّق بالصفات عن السلف بلا شك ولا ريب ، وعلى ذلك سار الأشاعرة وغيرهم ممن استعمل التأويل فهم مصيبون ، وقد أخطأ خطأً فادحاً وغلط غلطاً لائحاً مَنْ تطاول على الأشاعرة وضلّلهم لأنهم يؤوّلون !! والحق أنهم على هدي الكتاب والسُنّة سائرون في هذا الأمر ، والحمد لله رب العالمين .

ومما يجدر التنبيه عليه هنا ولا يجوز إغفاله أن هؤلاء القوم الذين يحاربون التأويل ويزعمون أنه ضلال وبدعة وتحريف للقرآن والسنة هم أنفسهم يؤوّلون ما لا يوافق آراءهم من نصوص الكتاب والسنة في مسائل الصفات !! فنراهم يؤوّلون مثل قوله تعالى : ﴿ **وهو معكم** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **إنني معكما أسمع وأرى** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وهو معكم** ﴾ إلى غير ذلك من نصوص واضحة !!

فإذا كان هذا قرآن وذاك قرآن فما الذي أوجب اعتقاد ظاهر هذا دون ظاهر ذاك وكله قرآن ؟!! ولماذا جوّزوا تأويل ظاهر هذا دون ذاك ؟!

٤ ـ الإمام أحمد بن حنبل يؤوّل أيضاً :

روى الحافظ البيهقي في كتابه « مناقب الأمام أحمد » وهو كتاب مخطوط ومنه نقل الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » (٣٢٧/١٠) فقال :« روى البيهقي عن الحاكم عن أبي عمروبن السمّاك عن حنبل أن أحمد بن حنبل تأوّل قول الله تعالى : ﴿ **وجاء ربُّك** ﴾ أنه : جاء ثوابه . ثم قال البيهقي : وهذا إسناد لا غبار عليه » . انتهى كلام ابن كثير . وقال ابن كثير أيضاً في « البداية » (٣٢٧/١٠) .

« وكلامه ـ أحمد ـ في نفي التشبيه وترك الخوض في الكلام والتمسك بما ورد في الكتاب والسنة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعن أصحابه »(١١١) اهـ .

---

(١١١) حاول بعض الناس أن ينفي هذا التأويل عن الإمام أحمد واحتج بما قاله ابن تيمية بأن هذه رواية شاذة لأنَّ حنبل تفرّد بها !! وهذا كلام باطل غير صحيح بيّنا بطلانه في رسالتنا « نغمات الطنبور » وحنبل ثقة حجة لم يثبت ما يقدح في عدالته أو روايته .

٥ ـ **تأويل آخر للإمام أحمد** : قال الحافظ ابن كثير أيضاً في « البداية والنهاية » (١٠/ ٣٢٧) : « ومن طريق أبي الحسن الميموني عن أحمد بن حنبل أنّه أجاب الجهمية حين احتجوا عليه بقوله تعالى : ﴿ **ما يأتيهم من ذكرٍ من ربهم مُحْدَثٍ إلاّ استمعوه وهم يلعبون** ﴾ **قال : يُحْتَمَلُ أن يكون تنزيله إلينا هو المُحْدَث ، لا الذكر نفسه هو المُحْدَث . وعن حنبل عن أحمد أنه قال : يُحْتَمل أن يكون ذكر آخر غير القرآن** » .

قلت : وهذا تأويل محض ، ظاهر واضح ، وهو صرف اللفظ عن ظاهره وعدم إرادة حقيقة ظاهره .

٦ ـ تأويل آخر عن الإمام أحمد أيضاً :

قال الحافظ الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٠/ ٥٧٨) : [قال أبوالحسن عبدالملك الميموني : قال رجل لأبي عبدالله ـ أحمد بن حنبل ـ : ذهبتُ إلى خلف البزار أعظه ، بلغني أنه حدّث بحديثٍ عن الأحوص عن عبدالله ـ بن مسعود ـ قال : « ما خلق الله شيئاً أعظم من آية الكرسي ... » وذكر الحديث ، فقال أبوعبدالله ـ أحمد بن حنبل ـ : ما كان ينبغي أن يُحَدِّثُ بهذا في هذه الأيام ـ يريد زمن المحنة ـ والمتنُ : « ما خلق الله من سماء ولا أرْض أعظمَ من آية الكرسي » وقد قال أحمد بن حنبل لمّا أوردوا عليه هذا يوم المحنة : إنَّ الخلق واقعُ ههنا على السماء والأرض وهذه الأشياء ، لا على القُرآن] انتهى .

٧ ـ تأويل آخر عن الإمام أحمد يتعلق بمسألة الصفات أيضاً :

روى الخلال بسنده عن حنبل عن عمّه الإمام أحمد بن حنبل(١١٢) أنّه سمعه يقول : [احتجّوا عليَّ يوم المناظرة ، فقالوا : « تجيء يوم القيامة سورة البقرة ... » الحديث ، قال : فقلت لهم : إنّما هو الثواب] انتهى . فتأمّل في هذا التأويل الصريح .

٨ ـ **تأويل الإمام البخاري صاحب الصحيح رحمه الله تعالى** : نقل الحافظ

---

(١١٢) أي أن حنبل سمع الإمام أحمد يقول ، وقد نقل لنا هذا عن الخلال المحدث الإمام محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى في تعليقه على « دفع شبه التشبيه » ص (٢٨) .

البيهقي في « الأسماء والصفات » ص (٤٧٠) عن البخاري أنه قال : « معنى الضحك : الرحمة » انتهى . وقال الحافظ البيهقي ص (٢٩٨) :

« روى الفِرَبْريُّ عن محمد بن اسماعيل البخاري رحمه الله تعالى أنه قال **معنى الضحك فيه ـ أي الحديث ـ الرحمة** » انتهى فتأمل .

وقد نقل هذا التأويل أيضاً الحافظ ابن حجر في « الفتح الباري » (٦/٤٠) .

٩ ـ تأويل النضر بن شُمَيل وهو الإمام الحافظ اللغوي من رجال الستة ولد سنة (١٢٢) هـ :

ذكر الحافظ البيهقي في « الأسماء والصفات » ص (٣٥٢) والحافظ ابن الجوزي في كتاب « دفع شبه التشبيه » أنّ النّضر بن شميل الحافظ السلفي قال : إنّ معنى حديث : « حتى يضع الجبّار فيها قدمه » أي مَنْ سَبَق في علمه أنّه من أهل النار .

وكذا قال الإمام أبو منصور الأزهري كما نقله الحافظ ابن الجوزي في « دفع شبه التشبيه » عنه . وقال الحافظ ابن الجوزي أيضاً :

« وقد حكى أبو عبيد الهروي ـ صاحب كتاب غريب القرآن والحديث ـ عن الحسن البصري أنه قال : القَدَم : هم الذين قدّمهم الله تعالى من شرار خلقه وأثبتهم لها » .

فيكون هذا تأويلاً للحسن البصري أيضاً .

١٠ ـ تأويل الإمام هشام بن عبيدالله :

قال الحافظ الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٠/٤٤٦) في ترجمته : « هو الرازي السُنّي الفقيه ، أحد أئمّة السُنَّة » توفي سنة (٢٢١ هـ) .

ثم قال الذهبي : « قال محمد بن خلف الخرّاز : سمعت هشام بن عبيد الله الرازي يقول : القرآن كلام الله غير مخلوق ، فقال له رجل : أليس الله يقول : ﴿ **ما يأتيهم من ذِكْرٍ من ربهم مُحْدَثٍ** ﴾ فقال : مُحْدثٌ إلينا ، وليس عند الله بمُحْدَث .

قلت : لأنه من علم الله ، وعلم الله لا يوصف بالحدوث » انتهى كلام الحافظ الذهبي .

والذهبي في عبارته هذه مقلّد للمعتزلة لأنهم يقولون بأن الكلام هو العلم فتدبّر !!

١١ ـ تأويل سفيان بن عيينه رحمه الله تعالى :

ذكر الحافظ ابن الجوزي أثناء كلامه على الحديث الحادي والثلاثين في « دفع شبه التشبيه » في تأويل حديث : « آخر وطأة وطئها الرحمن بِوَجٍ » أي : آخر غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالطائف . (وَوَجٌ اسم وادٍ بالطائف) . والحديث رواه الطبراني (٢٤/٢٤١) بسند ضعيف وهو منكر ، فانظره هناك .

١٢ ـ تأويل من جملة تأويلات الحافظ ابن جرير الطبري السلفي ت (٣١٠ هـ) :

ذكر الحافظ ابن جرير في « تفسيره » (١/١٩٢) عند تأويل قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ استوى إلى السماء** ﴾ ما نصه : « والعجب ممّن أنكر المعنى المفهوم من العرب في تأويل قوله الله : ﴿ **ثُمَّ استوى إلى السماء** ﴾ الذي هو بمعنى : العلو والارتفاع . هرباً عند نفسه من أن يلزمه بزعمه إذا تأوّله بمعناه المفهوم كذلك أن يكون إنما علا وارتفع بعد أن كان تحتها إلى أن تأوّله بالمجهول من تأويله المستنكر ، ثُمّ لم يَنْجُ مما هرب منه ، فيقال له : زعمت أنَّ تأويل قوله : (استوى) : أقْبَلَ ، أفكان مُدْبِراً عن السماء فأقبل إليها ؟ فإن زعم أن ذلك ليس بإقبال فِعْل ولكنه إقبال تدبير ، قيل له : **فكذلك فقل : علا عليها عُلُوَّ مُلْكٍ وسُلْطان لا عُلُوَّ انتقال وزوال** » .

فاتضح بهذا أنَّ السلف كانوا يُفَسِّرون الاستواء بالمُلك والقَهر والسلطان والجلال والرفعة والكبرياء والعظمة ، لا بالعلو الحسي ، كما صرّح بذلك الإمام الحافظ ابن جرير عنهم ، وهذا هو الموافق للشرع والعقل ، وهو الذي قاله أهل الحديث من بعدهم كالحافظ ابن حبان والحافظ البيهقي وبعدهما مثل الحافظ النووي والحافظ ابن حجر الذي يقول في « فتح الباري » (٦/١٣٦) موضحاً هذه المسألة : « **ولا يلزم من كون جهتي العلو والسفل محال على الله أن لا يوصف بالعلو لأنَّ وصفه بالعلو من جهة المعنى ، والمستحيل كون ذلك من جهة الحس** » .

قلت : وهذا تأويل صريح للعلو من الحافظ ابن حجر بأنه علوٌّ معنوي لا حسي كما تتوهم المجسمة والمشبهة ، ولا يحصى كم للإمام الحافظ ابن حجر وللإمام النووي من تأويل في شرحهما على الصحيحين البخاري ومسلم .

١٣ ـ ابن حبان المتوفى سنة (٣٥٤) هـ يؤوّل أيضاً في صحيحه :

أوّل الحافظ ابن حبان في صحيحه (٥٠٢/١) حديث : « حتى يضع الرب قدمه فيها ـ أي جهنم ـ » فقال :

« هذا الخبر من الأخبار التي أُطلقت بتمثيل المجاورة ، وذلك أنَّ يوم القيامة يُلقى في النار من الأمم والأمكنة التي يُعصى الله عليها ، فلا تزال تستزيد حتى يضع الربُّ جلَّ وعلا موضعاً من الكُفّار والأمكنة في النار فتمتلىء ، فتقول : قَطِ قَطِ ، تريد : حسبي حسبي ، لأنَّ العرب تطلق في لغتها اسم القدم على الموضع . قال الله جَلَّ وعلا : ﴿ **لهم قَدَمُ صِدْقٍ عند ربهم** ﴾ يريد : موضع صدق ، لا أنَّ الله جلَّ وعلا يضعُ قَدَمَهُ في النار ، جَلَّ ربنا وتعالى عن مثل هذا وأشباهه » انتهى .

١٤ ـ تأويل الإمام مالك رحمه الله تعالى :

روى الحافظ ابن عبدالبر في « التمهيد » (١٤٣/٧) وذكر الحافظ الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٠٥/٨) أنَّ الإمام مالكاً رحمه الله تعالى أوّلَ النزول الوارد في الحديث بنزول أمره سبحانه وهذا نص الكلام من « السير » :

« قال ابن عدي : حدثنا محمد بن هارون بن حسان ، حدثنا صالح بن أيوب حدثنا حبيب بن أبي حبيب حدثني مالك قال : « **يتنزل ربنا تبارك وتعالى أمرُهُ ، فأما هو فدائم لا يزول** » . قال صالح : فذكرت ذلك ليحيى بن بكير ، فقال حَسَنٌ والله ، ولم أسمعه من مالك » .

قلت : ورواية ابن عبد البر من طريق أُخرى فتنبه .

وهذا التأويل مشهور عن الإمام مالك غَنِيٌّ عن الإسناد فيه ولذلك نقله الإمام النووي في « شرح مسلم » (٣٧/٦) عنه .

١٥ ـ تأويل الحافظ الترمذي رحمه الله تعالى :

ذكر الحافظ الترمذي في سننه (٦٩٢/٤) بعد حديث الرؤية الطويل الذي فيه

لفظة « فيعرّفهم نفسه » فقال : « ومعنى قوله في الحديث : فيعرّفهم نفسه يعني يتجلّى لهم » انتهى . وله تأويل آخر في سننه (٥/ ١٦٠) .

١٦ ـ تأويل الإمام سفيان الثوري رحمه الله تعالى :

ذكر الحافظ الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٧/ ٢٧٤) في ترجمة سيد الحفاظ في زمانه الإمام الثوري أن معدان سأل الإمام الثوري عن قوله تعالى : ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾ فقال : بعلمه .

قلت : وهذا تأويل ظاهر وصرف للّفظ عن ظاهره ، لا سيّما وأن لفظة (هو) الواردة في قوله تعالى : ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾ تعود على الذات لا على الصفات أصلاً ، ومع ذلك لمّا كان ظاهرها مستحيلاً صُرِفَتْ إلى المجاز فأُوِّلَتْ ، والله الموفق .

١٧ ـ أبو الحسن الأشعري يؤوّل في كتابه « رسالة أهل الثغر » :

قال الأشعري في « رسالة أهل الثغر » وهي من آخر مؤلفاته !! كما يقال ص (٧٣) :

« وأجمعوا على أنّه عزّ وجل يرضى عن الطائعين له ، **وأن رضاه عنهم إرادته لنعيمهم** ، وأنه يحب التوّابين ويسخط على الكافرين ويغضب عليهم ، وأنَّ غضبه إرادته لعذابهم » انتهى .

فالأشعري هنا يؤوّل الرضا والغضب بصراحة ؟!!

١٨ ـ الحافظ ابن الجوزي رحمه الله تعالى مؤوّل أيضاً :

كتابه « دفع شبه التشبيه » يثبت عنه ذلك بلا شك ، والله الموفّق .

فهذه ثماني عشرة نقطة فيها أكثر من عشرين تأويلاً عن الصحابة وأهل القرون الثلاثة من أئمة العلماء والمحدّثين كلها تثبت مع الأدلة التي سقناها في صدر الكلام أنَّ التأويل حق وأنه من قواعد الشريعة وأنّه من نهج السلف الصالح والله الموفق .

فصل

التأويل هو المجاز في القرآن والسنة

إذا انتهينا إلى أن التأويل هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر مقصود تريده العرب في لغتها التي نزل بها القرآن ، فإننا بالتأمل في معنى وتعريف المجاز نجد أن هذا هو تعريف المجاز أيضاً ، فالمجاز هو التأويل ، ولذلك حاول أن ينكره المشبهة والمجسمة كإنكارهم التأويل للنصوص فيما لا يريدون . فالمجاز كما هو معرّف في كتب الأصول هو : تعدي معنى الكلام عما وضع له أصلاً إلى معنى آخر تعدياً صحيحاً (أي عربية) لعلاقة بينهما .

قال الشيخ ابن قدامة المقدسي شيخ الحنابلة ومحقق مذهبهم في كتابه « روضة الناظر » في أصول الفقه ص (٦٢) ما نصه : « والقرآن يشتمل على الحقيقة والمجاز ، وهو اللفظ المستعمل في غير موضوعه الأصلي على وجه يصح ، كقوله ﴿ **واخفض لهما جناح الذل** ﴾ ، ﴿ **واسأل القرية** ﴾ ، ﴿ **جداراً يريد أن ينقض** ﴾ ﴿ **أو جاء أحد منكم من الغائط** ﴾ ، ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ ، ﴿ **إن الذين يؤذون الله** ﴾ أي : أولياء الله وذلك كله مجاز لأنه استعمال اللفظ في غير موضوعه **ومن منع فقد كابر ، ومن سلّم وقال لا أُسمّيه مجازاً فهو نزاع في عبارة لا فائدة في المشاحة فيه** » . **وتقدّم قول الإمام النووي رحمه الله تعالى في** « تهذيب الأسماء واللغات » في مادة (أَوَّل) حيث قال : « أما التأويل فقال العلماء : هو صرف الكلام عن ظاهره إلى وجه يحتمله أوجبه برهان قطعي في القطعيات وظني في الظنيات ، وقيل هو : التصرّف في اللفظ بما يكشف عن مقصوده . وأما التفسير : فهو بيان معنى اللفظة القريبة أو الخفية » انتهى .

والتأويل والتفسير عندنا مترادفان أي معناهما واحد كما تقدّم ؛ والمجاز ضرب من التأويل على التحقيق وهو واضح عند كل من تأمّل معنى المجاز والتأويل ، ثم اعلم بأنَّ من نَهْجِ السلف الصالح إثبات المجاز في اللغة ولا أظنُّ أنَّ عاقلاً يشك في

ذلك ، فهذا الإمام أحمد يثبت المجاز ويقول في بعض الأمور : « هذا من مجاز اللغة » كما اعترف بذلك ابن تيمية(١١٣) في كتابه « الإيمان » ص (٨٥) ، وذكره الحافظ

---

(١١٣) ومحاولة ابن تيمية وابن القيم وغيرهما إنكار المجاز محاولة فاشلة جداً !! وقد ناقضوا أنفسهم فيها !! فابن القيم الذي يعتبر المجاز في كتابه « الصواعق المرسلة » طاغوتاً !! يتناقض مع نفسه حيث يثبت المجاز ويدلل عليه بأوجه كثيرة في كتابه « الفوائد المشوّقة » ، كما أن الشيخ المتناقض !! يخالف ابن تيمية في هذه المسألة فيثبت المجاز في مقدّمة « مختصر العلو » ص (٢٣) في الحاشية !! وقد بينا هذا التناقض الواقع بين آرائهم العقائدية وغيرها في رسالتنا « البشارة والإتحاف » ص (٣١) فارجع إليها !! وصاحب تفسير « أضواء البيان » المعاصر المنكر للمجاز في الظاهر إنما أنكره تحت وطأة الضغط والإكراه الذي أجبر عليه في البلد التي كان يعيش فيه آخر حياته ، والمُكْرَه له أحكام !! وعلى كل الأحوال فإنكاره لذلك ليس حجة يصح أن يتشبّث بها طالب العلم ومبتغي معرفة الرجال بالحق ، المبتعد عن نحلة من يَعْرِف الحق بالرجال ، وخاصة بعد وضوح الأدلة والبراهين في هذا الأمر !! ومن العجيب الغريب أن يقول ابن تيمية في كتابه « الإيمان » ص (٨٥) : « وأما سائر الأئمة فلم يقل أحد منهم ، ولا من قدماء أصحاب أحمد : إن في القرآن مجازاً ، لا مالك ، ولا الشافعي ولا أبو حنيفة ، فإن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز إنما اشتهر في المائة الرابعة ، وظهرت أوائله في المائة الثالثة ، وما علمته موجوداً في المائة الثانية ، اللهم إلا أن يكون في أواخرها » !! و نقول له ولمن ينغرُّ بقوله : لماذا هذا التخبط في تحديد التاريخ (في ثلاثة قرون) ؟! وماذا وراءه إلا تضليل القارئ ؟! بل قد ذكر الأئمةُ المجازَ ؛ ومنهم الشافعي في الرسالة ولو سمّاه بغير هذه التسمية ، وقد صنّف أهل القرن الثاني في المجاز ومنهم معمر بن المثنى المولود سنة (١٠٦) هجرية في أواخر القرن الأول وأوائل الثاني واسم كتابه (مجاز القرآن) [انظر« سير أعلام النبلاء » (٩/ ٤٤٦)] ونود أن نُعلِمَ ابن تيمية ومن يقلّده بأنّه ليس من شرط ذلك أن يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة : « هذا مجاز » كما لا يشترط أن يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة كذلك عندما ينطقون بالكلام العربي هذا مرفوع بالضمة وهذا منصوب بالألف أو الياء وهذا نَحْوٌ وذاك صَرْفٌ بعد ملاحظة أنهم نحويين وصرفيين سليقةً ، وأما الاصطلاحات التي حدثت بعد ذلك فلا ضير منها بعد ثبوت المعاني المرادة !! وعلى هذا فيجوز لأي إنسان أن يقول : لم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرفع الفاعل ولا ينصب المفعول ولم يكن يدرس النحو لأنه لم يذكر لنا أحد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يدرس أو يُدَرّس النحو ولم ينطق النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن هناك علماً يسمّى النحو !! وقائل هذا ساقط عن مرتبة الخطاب !! أو هو مغالط مضلل !! ولله في خلقه شؤون ﴿ **لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون** ﴾ !! وابن تيمية قد ادّعى في أُمور انه لم يَرِدْ فيها شيء من الكتاب أو السنة أو عند السلف ثم بعد النظر والتمحيص تبين خلاف مُدّعاه وخطؤه !! ومن ذلك دعواه بأن التشبيه ليس مذموماً في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ولا في كلام أحد من الصحابة والتابعين !! وقد رددنا عليه في ذلك في

الزركشي في « البحر المحيط في علم الأصول » (٢/ ١٨٢) عن أحمد بن حنبل .

فصل

التفويض أيضاً كان مذهب بعض السلف المتأخرين

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهو كما قال ، ومعناه على ما أراد لا ندخل في ذلك متأوّلين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا فإنه ما سلم في دينه إلا من سَلَّم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وردَّ علم ما اشتبه عليه إلى عالمه ، ونقول الله أعلم فيما اشتبه علينا علمه) .

الشرح :

دليل مذهب التفويض عند من يقول به قوله تعالى في كتابه العزيز ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يذَّكّر إلا أولوا الألباب** ﴾ آل عمران : ٧ .

وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح :

« وإنما نزل كتاب الله عز وجل يصدّق بعضه بعضاً ، فلا تكذبوا بعضه ببعض ، فما علمتم منه فقولوه ، **وما جهلتم فكلوه إلى عالمه** » .

رواه عبدالرزاق في المصنّف (١١/ ٢١٦) وأحمد في المسند (٢/ ١٩٥) وابن ماجه (١/ ٣٣) والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٦٠) وهو حديث صحيح(١١٤) .

عدة مؤلفات !! انظر كتابنا « التنبيه والرد على معتقد قدم العالم والحد » .

ثم تبين لنا أن ابن تيمية يقول بإثبات المجاز في كتبه الأخرى مثل مجموع الفتاوى وبذلك يثبت تناقضه في هذه المسألة . ومن ذلك قوله في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٧٧) : [والحياء شعبة من الإيمان فإنما يدل مع الاقتران أولى باسم المجاز مما يدل عند التجريد والإطلاق] فتأمل !!

(١١٤) روى الحافظ ابن الجوزي في « مناقب الإمام أحمد » ص (٣٩١) بإسناده إلى أبي بكر المروذي قال :

أقول : لكن التفويض عندنا هو الجهل أو عدم العلم بالمقصود من النص ؛ خلافاً للتأويل الذي هو العلم بالمقصود من النص أو فهم المقصود من النص ، وهو مذهب عندنا غير أصلي وغير مرغوب فيه لأنه عنوان الجهل والجبن والتميع في الاعتقاد . ولا يُسلَك إلا عند العجز عن فهم النص بعد بذل الوسع والجهد ! ومن سلكه من السلف ابتداء كانوا مخطئين بنظرنا !

وقد بينّا فيما تقدّم بما لا يدع مجالاً للشك أنّ التأويل ثابت في الكتاب والسنة ، وهو من نهج السلف الصالح ، ونقلنا في ذلك ما يُبَرْهِنُ إثبات هذا الأمر بوضوح تام ، وبقيت مسألة التفويض ، **ولا شك أنّ بعض السلف كانوا يُفَوِّضون الكيف والمعنى** وهو المراد بالتفويض عند إطلاقه بلا شك .

ومن ذلك قول أحمد بن حنبل عندما سئل عن أحاديث الصفات : « **نؤمن بها ونصدّق بها ولا كيف ولا معنى** » رواه عنه الخلال بسند صحيح .

ونصوص أئمة السلف في قولهم أَمِرُّوها كما جاءت مع عدم الخوض في بيان معناها أكثر من أن تحصر ، من ذلك ما قاله الإمام الحافظ الترمذي في سننه (٤/ ٦٩٢) :

« والمذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة مثل سفيان الثوري ومالك بن أنس ، وابن المبارك ، وابن عُيَيْنَه ، ووكيع وغيرهم أنهم رووا هذه الأشياء ، ثم قالوا : تُروى هذه الأحاديث ونؤمن بها ولا يقال كيف . وهذا الذي اختاره أهل الحديث أن تروى هذه الأشياء كما جاءت ويُؤْمَنُ بها ، ولا تُفسرّ ولا تتوهَّم ، ولا يقال كيف ، وهذا أمر أهل العلم الذي اختاروه وذهبوا إليه » انتهى .

قلت :وقوله (**ولا تُفسَّر**) هي نفس قول بعض أئمة السلف (قراءتها

[قلت لأبي عبدالله أحمد بن حنبل : إن علي بن المديني يحدّث عن الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن الزهري عن أنس عن عمر « كلوه إلى خالقه » فقال أبو عبد الله : كذب .
حدثنا الوليد بن مسلم ما هو هكذا ، إنما هو : « كلوه إلى عالمه » وقال أحمد : قد علم علي بن المديني أن الوليد أخطأ فيه ، فلِمَ أراد أن يحدّثهم به يعطيهم الخطأ ! فكذبه أبو عبد الله] فالإمام أحمد يقول بصحة هذا الحديث أيضاً .

تفسيرها) ، وقوله (ولا تُتَوَهَّم) معناه : يُصرف ظاهرها الذي يوهم مشابهة الله لخلقه مع تفويض المعنى الحقيقي لله تعالى ، وأما الكيف فلا نحتاج لتفويضه لأنَّ الكيف محال على الله تعالى ، كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالى : **(ولا يقال كيف ، وكيفٌ عنه مرفوع)** انظر« الفتح » (١٣/٤٠٧) أي أنه لا كيف لله تعالى .

وهذا الذي قررناه هنا ونقلناه عن السلف من تقرير مذهب التأويل ومذهب التفويض هو عين قول صاحب الجوهرة اللَّقَّاني رحمه الله تعالى :

وكلُّ نصٍ أوهمَ التشبيها أوِّلْهُ أو فوِّض وَرُمْ تنزيها

لمن تَدبّر ذلك .

وقد نقل الحافظ الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٨/ ١٠٥) عن الإمام مالك أنه قال في أحاديث الصفات : « أمرَّها كما جاءت بلا تفسير » وهذا هو التفويض .

وقال الحافظ الذهبي هناك قبل ذلك بأسطر :

« فقولنا في ذلك وبابه : الإقرار ، والإمرار ، **وتفويض معناه إلى قائله الصادق المعصوم** » انتهى .

قلت : وقد صرَّح الحافظ الذهبي هنا أنّ المذهب المعتمد عنده هو **تفويض المعنى** ، وهذا يوافق ما قاله أحمد بن حنبل « **ولا كيف ولا معنى** » . وهو يثبت بلا شك أن مذهب بعض السلف وأحمد بن حنبل وبعض الحُفَّاظ أهل الحديث كالذهبي وغيره أن تفويض المعنى هو العقيدة التي كان عليها أحد مذاهب هذه الأمة من السلف والخلف وأنها هي معنى قول الله عز وجل :

﴿ وما يَعْلَمُ تأويلَهُ إلا الله ، والراسخون في العلمِ يقولونَ آمنّا كُلٌّ مِنْ عِندِ ربِّنا ﴾ آل عمران : ٧ مع أن الصحيح المعتمد عندنا في تفسير الآية أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله أيضاً ولا أدل على ذلك من تأويل المفسرين وتفسيرهم لجميع آيات القرآن الكريم .

قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١٣/٣٩٠) في مسألة الصفات إنَّ فيها ثلاثة مذاهب نقلاً عن ابن المُنَيِّر وذكر المذهبَ الثالث فقال : « والثالث : إمرارها

على ما جاءت **مفوَّضاً** معناها إلى الله تعالى .... » .

ثم قال بعد ذلك مباشرة :

« قال الطيبي : هذا هو المذهب المعتمد وبه يقول السلف الصالح » .

وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٣/ ٣٨٣) أيضاً مائلاً للتفويض :

« والصواب الإمساك عن أمثال هذه المباحث **والتفويض** إلى الله في جميعها والاكتفاء بالإيمان بكل ما أوجب الله في كتابه أو على لسان نبيّه ... » انتهى .

وقال الحافظ قبل ذلك بأسطر في « الفتح » (١٣/ ٣٨٣) ناقلاً عن الحافظ ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى في تقرير التأويل والتفويض :

« وقال ابن دقيق العيد في العقيدة : نقول في الصفات المشكلة إنها حق وصدق على **المعنى الذي أراده الله** ، ومَن تأوّلها نظرنا فإن كان تأويلُه قريباً على مقتضى لسان العرب لم ننكر عليه ، وإن كان بعيداً توقَّفنا عنه ورجعنا إلى التصديق مع التنزيه » انتهى .

قلت : وهو كلام في غاية الدقة والروعة والحمد لله رب العالمين ، وقد تبيّن مما سبق أن التأويل والتفويض كانا عند السلف ولهما أدلة في الكتاب والسنة الصحيحة عندهم ، وقد أخطأ من قال : « التفويض مذهب السلف والتأويل مذهب الخلف » ، وقد تبيّن بالبحث والتمحيص أن السلف كانوا يؤوّلون ! فإذا فهمت وعلمت وتأمّلت ما ذكرناه في إثبات التأويل والتفويض عن السلف فاعلم الآن هذه المسألة المهمة :

[**مسألة مهمة جداً**] : زعم ابن تيمية في كتابه « الموافقة » (١/ ١١٨) بهامش « منهاج سنته » إنَّ التفويض من شر أقوال أهل البدع والإلحاد فقال هناك ما نصه : « **فتبين أنّ قولَ أهل التفويض الذين يزعمون أنهم مُتَّبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد** »(١١٥) !! انتهى .

---

(١١٥) وما ذكره بعد ذلك من كلام ليدلل على ما يريد من أن الصحابة فسَّروا القرآن كلَّه لا يصلح أن يكون دليلاً له ، لأنّا نقول : إنهم فسروا القرآن وأمّا حقائق صفات الله فقد فوّضوها إلى الله سبحانه وتعالى أو أوّلوها وهذا هو المطلوب .

فماذا نقول في أئمة السلف الذين نقلنا أقوالهم في التفويض من « سنن الترمذي » وغير ذلك ، وماذا نقول في الحافظ الذهبي الذي يقول بالتفويض أيضاً ؟! فهل يكونون كفاراً مُلْحدين بذلك ؟!! كلاّ وبلاّ !!

وقال الألباني أيضاً في التعليق على كتاب « السُّنَّة » لابن أبي عاصم ص (٢١٢ من الطبعة الثانية) معلّقاً على قول سيدنا ابن عباس :

(ما بالُ هؤلاء يَحِيدونَ عن مُحْكَمِهِ ويَهْلكون عند متشابهه) ما نصه : « أي يجتهدون ويهتمون لفهم المعنى المراد من القرآن عند محكمه ، ويهلكون عند متشابهه لأنّهم لا يهتمّون لفهم معناه الحقيقي مع التنزيه ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ يصرفهم عن ذلك التأويل أو التفويض » انتهى .

ونقول إن هذا الكلام غلط محض يشتمل على تضليل السلف والخلف فلا يلتفت لقائله ولا يعول على كلامه !!

[فائدة] : ومن العجيب الغريب الذي لا يكاد الإنسان يصدّقه !! أن ترى المجسمة والمشبهة يطعنون في الإمام الترمذي !! لأنه ينقل عن السلف الصالح أنهم كانوا يفوّضون ، ولأنه أيضاً يؤوّل ما استحال الأخذ بظاهره من نصوص السنة !!

فهذا ابن القيم يقول في كتابه الصواعق المرسلة [انظر مختصر الصواعق (٢/ ٢٧٥)] : « وأما تأويل الترمذي وغيره له بالعلم فقال شيخنا(١١٦) : هو ظاهر الفساد من جنس تأويلات الجهمية ... » .

وهذا الخلال يقول في « سنته » ص (٢٣٢) ـ ناقلاً ـ :

« لا أعلم أحداً من أهل العلم ممن تقدّم ولا في عصرنا هذا إلا وهو منكر لما أحدث الترمذي(١١٧) من رد حديث محمد بن فُضَيل عن ليث عن مجاهد في قوله

---

(١١٦) يعني بشيخه : ابن تيمية كما لا ينتطح في ذلك كبشان . وهذا ثابت عن ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٦/ ٥٧٤) .

(١١٧) مع أن التأويل والتفويض لم يحدثه ولم يخترعه الترمذي رحمه الله تعالى . ومن الغريب العجيب أيضاً أن محقق سنة الخلال عطيه الزهراني ـ حاول أن ينفي أن كون الترمذي المراد هنا هو الإمام

﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ قال : يُقْعِده على العرش[118] ، **فهو عندنا جهمي يهجر ونحذر عنه** .... » .

المعروف صاحب السنن فقال ص (٢٢٤) في الهامش تعليق رقم (٤) هو « جهم بن صفوان » ثم تراجع عن ذلك ص (٢٣٢) فقال في الهامش التعليق رقم (٨) : « كنت أظنه جهم ، ولكن اتضح من الروايات أنه يقصد رجلاً آخر لم أتوصل إلى معرفته » . فيا للعجب !!

[118] وهذا القعود الذي يتحدّثون عنه هو قعود سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بجنب الله تعالى على العرش !! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !! والدليل عليه قول الخلال هناك ص (٢٤٤) :

« حدثنا أبو معمر ، ثنا أبو الهذيل ، عن محمد بن فضيل ، عن ليث ، عن مجاهد :

قال : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ قال : يجلسه معه على العرش ، قال عبد الله : سمعت هذا الحديث من جماعة ، وما رأيت أحداً من المحدّثين ينكره ، وكان عندنا في وقت ما سمعناه من المشايخ أن هذا الحديث إنما تنكره الجهمية .. » .

أقول : ومن العجيب الغريب إن الألباني ينكر هذا ويقول بعدم صحته وأنه لم يثبت كما سيأتي وكذلك محقق الكتاب وهو متمسلف معاصر ينكر ذلك أيضاً ويحكم على هذا الأثر بالضعف حيث يقول في هامش تلك الصحيفة تعليق رقم (١٩) : « إسناده ضعيف » ! فهل هؤلاء جهمية ؟! وما هذا الخلاف الواقع بين هؤلاء في أصول اعتقادهم ؟! ومن الغريب العجيب أيضاً أنهم اعتبروا مَنْ نفى قعود سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بجنب الله نافياً ودافعاً لفضيلة من فضائل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والدليل على ما قلناه قول الخلال هناك ص (٢٣٧) : « وقال أبو علي اسماعيل بن إبراهيم الهاشمي (وهو مجهول بنظر المحقق) : إن هذا المعروف بالترمذي عندنا مبتدع جهمي ومن ردَّ حديث مجاهد فقد دفع فضل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن ردَّ فضيلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهو عندنا كافر مرتد عن الإسلام » !!

وقال ص (٢٣٤) ـ ناقلاً ـ : « وأنا أشهد على هذا الترمذي أنه جهمي خبيث » !!

أقول : قد ذكرت في كتابي « البشارة والإتحاف » ص (٢٦) أن الألباني أنكر ثبوت قضية الإقعاد عن مجاهد حيث قال في مقدمة « مختصر العلو » ص (٢٠) : « **قلت** : وقد عرفت أن ذلك لم يثبت عن مجاهد ، بل صح عنه ما يخالفه كما تقدّم ... » !! وقد ذكر ابن القيم عقيدة الإقعاد ـ التي ردّها الألباني ـ في كتابه « بدائع الفوائد » (٤/ ٣٩) فارجعوا إليها !!

فصل

موقفنا من التفويض

تبين معنا فيما تقدَّم أن التأويل هو فهم معنى النص والعلم بالمقصود منه وهو المطلوب الذي نذهب إليه ، وأن التفويض عو عدم العلم بالنص وعدم فهم المقصود منه ، وإذا كان كذلك فإن سلوك طريقة التفويض من أول البحث أمر مرفوض ومردود عندنا ، إلا إذا بحث طالب العلم فعجز عن فهم النص فساعتئذ لا بُدَّ من الإيمان بالنص الثابت وتفويض معناه إلى الله تعالى ! وهذا لا يكاد يوجد !

والدليل على عدم جواز سلوك طريق التفويض أمور :

١- أن الله تعالى أنزل هذا القرآن لنفهمه ونعلم معاني جمله وآياته ، قال الله تعالى ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ النساء : ٨٢ ، وقال تعالى ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ ﴾ ص : ٢٩ ، وقال تعالى ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ سورة سيدنا محمد : ٢٤ ، وقال تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ ﴾ النمل : ٨٤ ، فهذه الآيات الكريمة وغيرها توجب تدبر آيات القرآن وفهمها والعلم بها وهذا يضاد مذهب التفويض .

٢- أن السلف الأولين من الصحابة والتابعين أوّلوا القرآن الكريم وبينوا معناه سواء ما كان في موضوع الصفات أم في غيره ، وتفسير ابن جرير الطبري السلفي المتوفى سنة (٣١٠هـ) خير شاهد على ذلك بالأسانيد الصحاح والحسان وغيرها ! ومن ذلك :

ومن ذلك تأويل ابن عباس رضي الله عنه الساق بالشدة[١١٩] ، والنسيان

---

[١١٩] كما في تفسير ابن جرير (٢٩/ ٣٨) وفتح الباري (١٣/ ٤٢٨) وقد بينت صحة السند إليه وبطلان من حاول أن يموِّه فيضعفه في كتاب التناقضات (٢/ ٣١٢-٣١٣) وقال ابن جرير هناك : [قال جماعة من الصحابة والتابعين من أهل التأويل : يبدو عن أمر شديد] .

بالتَّرْك(١٢٠) ، والأيدي في قوله تعالى ﴿ والسماء بنيناها بأيدٍ ﴾ بالقوة(١٢١) ، والجنب بالأمر والحق(١٢٢) وغير ذلك مما هو معلوم ومشهور !

٣- أن المفسرين على اختلاف مشاربهم ومآربهم فسروا القرآن الكريم وأوَّلوه ولم يتركوا شيئاً إلا وبينوا معناه ، ما خلا الحروف المقطعة في أوائل بعض السور .

وعلى ذلك فيكون كل ما ورد عن بعض المحدثين من السلف من القول بالإمرار وعدم التعرض للتفسير قول مردود باطل لا يعوَّل عليه ومن ذلك على سبيل المثال :

١- ما ذكره الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٠/ ٥٠٥) بسنده عن العباس الدوري قال :

[سمعت أبا عبيد القاسم بن سلام وذكر الباب الذي يروي فيه الرؤية ، والكرسي موضع القدمين(١٢٣) ، وضحك ربنا ، وأين كان ربنا ؟(١٢٤) ، فقال :

وقال ابن القيم في الصواعق المرسلة (١/ ٢٥٢) : [ولا يحفظ عن الصحابة والتابعين نزاع فيما يُذكَر أنه من الصفات أم لا غير هذا الموضع] . وهذا غير صحيح بل هو من جملة التمويه والتدليس فإنَّ ابن عباس أوَّل الأيدي بالقوة في مثل قوله تعالى ﴿ والسماء بنيناها بأيدٍ ﴾ ! ولفظة (أَيدٍ) معناها الحقيقي جمع يد لقوله تعالى ﴿ ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيدٍ يبطشون بها ﴾ الأعراف : ٧ .

وأول ابن عباس النسيان بالتَّرْك ، إلى غير ذلك من أمور لا نريد أن نطيل ههنا بذكرها !!

(١٢٠) انظر تفسير ابن جرير الطبري (٨/ ٢٠١) .

(١٢١) تفسير الطبري (٧/ ٢٧) .

(١٢٢) تفسير الطبري (٢٤/ ١٩) .

(١٢٣) (الكرسي موضع القدمين) ليس حديثاً صحيحاً بل قد حكم عليه الألباني في « ضعيفته » (٢/ ٣٠٦/ ٩٠٦) كما قدمنا بأنه : « ضعيف » ولي فيه رسالة خاصة بينت فيها بطلانه وهي مطبوعة مع « القول الأسد في بيان حال حديث رأيت ربي في صورة شاب أمرد » للسيد المحدث العلامة عبد العزيز ابن الصديق رحمه الله تعالى .

(١٢٤) **إسناده ضعيف والحديث موضوع جزماً !!** فقد رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١١) والترمذي (٥/ ٢٨٨/ ٣١٠٩) وابن ماجه (١/ ٦٤/ ١٨٢) والطبراني في الكبير (١٩/ ٢٠٧/ ٤٦٨) وفي السند وكيع بن عُدُس ولم يوثقه إلا ابن حبان ولم يروِ عنه إلا يعلى بن عطاء ؛ ثمَّ إنَّ الترمذيَّ نقل في سننه عقبه تأويل الحديث عن يزيد بن هارون فقال :

هذه أحاديث صحاح(١٢٥) حملها أصحاب الحديث والفقهاء بعضهم عن بعض وهي عندنا حق لا نشك فيها(١٢٦) ولكن إذا قيل كيف يضحك وكيف وضع قدمه قلنا لا نفسر هذا ولا سمعنا أحداً يُفَسِّرُه(١٢٧) » .

ثم قال الذهبي : « **أقول :** قد فسَّر علماء السلف المهم من الألفاظ وغير المهم وما أبقوا ممكناً ، وآيات الصفات وأحاديثها لم يتعرضوا لتأويلها أصلاً(١٢٨) ، وهي

« قال يزيد بن هارون : العماء أي ليس معه شيء » . وأوَّله الحافظ ابن حبان عند روايته له في صحيحه (١٤/ ٩) ووهَّم حماد بن سلمة فقال هناك : « وَهِمَ في هذه اللفظة حماد ابن سلمة من حيث في (غمام) إنما هو (في عماء) يريد به : أنَّ الخلق لا يعرفون خالقهم من حيث هم ، **إذ كان ولا زمان ولا مكان** ، ومَنْ لم يعرف له زمان ولا مكان ولا شيء معه لأنه خالقها كان معرفة الخلق إياه كأنه كان في عماء عن علم الخلق ، لا أنَّ الله كان في عماء ، إذ هذا الوصف شبيه بأوصاف المخلوقين » . وقد ضعَّف الحديث متناقض عصرنا !! في تخريجه لسنة ابن أبي عاصم حديث رقم (٦١٢) وفي ضعيف الترمذي ص (٣٨٢) حديث رقم (٦٠٢) وفي ضعيف ابن ماجه برقم (٣٢) كما قال في ضعيف الترمذي ، وقال في « مختصر العلو » ص (١٨٦) تعليق ١٩٣ : [وقال : رواه الترمذي وابن ماجه وإسناده حسن ! **كذا قال وهو مردود لما ذكرنا فتنبَّه** .] !

(١٢٥) هذه الأحاديث ليست بالصحاح وبعضها ليست بأحاديث أصلاً !!

(١٢٦) عقلاء أهل الحديث والفقهاء أوَّلوها وردوا غير الثابت منها ! فهذه فرية حنبلية !

(١٢٧) لقد امتلأت كتب التفاسير السلفية والخلفية وكتب السنن والأحاديث بتأويلات وتفسيرات السلف لهذه الأمور !

(١٢٨) هذا الكلام مردود على الذهبي جملة وتفصيلاً ! والظاهر أنه كان وقت كتابة هذه الأسطر مصاب بنوبة من نوبات ابن تيمية !! وإلا فلو كان بوعيه ساعتئذ لتذكر أن ابن عباس تأول الساق بالشدة ، والنسيان بالترك ، والكرسي بالعلم ! وكذلك من نقل تأويلاتهم الحافظ ابن جرير الطبري في تفسيره ومن نقلنا تأويلاتهم في مقدمة « دفع شبه التشبيه » و « صحيح شرح العقيدة الطحاوية » وغيرهم !

ثم وجدت لشيخه ابن تيمية الحراني ما يخالف هذا وذلك في « مجموع الفتاوى » (١٣/ ٣٠٧) حيث يقول : [وأيضاً فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمة قد تكلموا في جميع نصوص القرآن آيات الصفات وغيرها ، وفسَّروها بما يوافق دلالتها وبيانها] !!

وابن تيمية متناقض في ذلك كما هو معروف فإنه قال في مواضع أخرى غير ذلك ! ومن ذلك قوله في كتابه « التأسيس في الرد على أساس التقديس » (١/ ٤٣٣) : [فصل : وقد وصف الله تعالى نفسه بالاستواء على العرش والواجب إطلاق هذه الصفة من غير تفسير ولا تأويل **وأنه استواء الذات على**

أهم الدين فلو كان تأويلها سائغاً أو حتماً لبادروا إليه(١٢٩) ؛ فعلم قطعاً أن قراءتها وإمرارها على ما جاءت هو الحق لا تفسير لها غير ذلك(١٣٠) ، فنؤمن بذلك ونسكت اقتداء بالسلف ، **معتقدين أنها صفات لله تعالى**(١٣١) استأثر الله بعلم حقائقها وأنها لا تشبه صفات المخلوقين » .

وفي التعليقات المذكورة على هذه الفقرات في الأسفل ما يبين فساد قول الذهبي وغيره في هذه القضية !!

والتفويض يؤدي إلى القول بالظاهر والقول بالظاهر مفضٍ إلى التشبيه والتجسيم ، وقد اعترف بذلك بعض كبار أهل العلم ، وقال الحافظ ابن حجر **في « فتح الباري » (١٣/ ٤٣٢) عند شرح الحديث رقم (٧٤٤٤) :**

[فمن أجرى الكلام على ظاهره أفضى به الأمر إلى التجسيم ومن لم يتضح له وعلم أن الله مُنَزَّهٌ عن الذي يقتضيه ظاهرها **إما أن يُكَذِّب نَقَلَتها وإما أن يُؤَوِّلها] .**

وفي مقدمتنا لكتاب « الإبانة » للأشعري بتحقيقنا ص (٢٠-٣٥) كلام مطول حول مسألة الأخذ بالظاهر وصلة التفويض بذلك فليراجعه من شاء ، والعزم معقود إن شاء الله تعالى على إخراج رسالة مفردة في هذا الموضوع وبالله تعالى التوفيق .

العرش لا على معنى العلو والرفعة ولا على معنى الاستيلاء والعلم] !!
فتأملوا في اضطرابهم العقائدي هذا !!!!

(١٢٩) لقد بادروا إليه فيما نقله ابن جرير وغيره ونقلناه عنهم في الكتب المذكورة ! وكتب التفاسير مليئة بذلك ! ومنه يدرك العاقل ما في كلام الذهبي من المغالطة والتنطع !

(١٣٠) هذا يقتضي الأخذ بظواهر الألفاظ وهو رأي باطل مردود ظاهر الفساد ! لأن ابن عباس وغيره من السلف والخلف لم يمروها هكذا بل تعرضوا لتأويلها وتفسيرها وبيان معانيها !

(١٣١) قد خالف هذا الذهبي في العلو فقال : [فأبصر حفظك الله من الهوى كيف آلَ الغلو بهذا المحدّث إلى وجوب الأخذ بأثر منكر] بل الذهبي نفسه يروج الأفكار الباطلة في كتبه ومؤلفاته ثم يتظاهر بالإنكار على هؤلاء الذي يزعم بأنهم مغالون وهو مثلهم لا يختلف عنهم في مآل الأمر وخلاصته !!

فصل

في وجوب عرض الحديث على القرآن

(وهو أحد الضوابط التي يعرف بها الحديث الشاذ متناً وأهمها)

إن مما يجب التَّنَبُّه إليه عند تصحيح الحديث أو تضعيفه أو عند قبوله أو ردّه عرض ما جاء فيه من الأفكار على كتاب الله تعالى ، وهذه نقطة مهمة جداً غفل عنها كثير من المشتغلين في علوم الحديث النبوي الشريف وبالتالي كثير ممن يصححون ويضعّفون الأحاديث .

والقاعدة في هذا أن حديث الآحاد مقبول إذا خلا معناه عما يعارض القرآن ، ولا يشترط في قبوله أن يشهد له القرآن بأن يكون معناه فيه(١٣٢) ، بل يكفي أن لا يكون فيه ما يعارض القرآن القطعي .

وقد جاءت نصوص الكتاب والسنة وكذا تصرّفات الصحابة والسلف والأئمة والمحدّثين وأهل العلم تؤيد هذا وتشهد له ، ولا أظنُّ أن عاقلاً يخالف في هذا بعد إدراكه .

---

(١٣٢) وبهذا القيد لا يستطيع إنسان أن يقول بأننا إذا أوجبنا عرض الحديث على القرآن نكون قد عارضنا قوله تعالى ﴿ **ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ ولأنه إذا كان معارضاً فإننا نعتقد أنه مما لم نؤتَهُ عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولأننا أيضاً نأخذ بالحديث الثابت في أبواب الفقه وغيرها وكذا في فروع الاعتقاد ، وكذلك أيضاً ليس لأحد أن يقول إنكم إذا قلتم بوجوب عرض الحديث على القرآن ينطبق عليكم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يوشك الرجل مُتَّكِياً على أريكته يُحَدَّثُ بحديث من حديثي (وفي رواية يأتيه أمر مما أمرتُ به أو نهيتُ عنه) فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله عزّ وجلّ فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه ، ألا وإنَّ ما حرّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل ما حرّم الله » لما أسلفنا . وهذا الحديث رواه بهذا اللفظ ابن ماجه (١/ ٦) ، والحديث رواه أيضاً الدارمي (١/ ١٤٤) وأحمد (٤/ ١٣١ و١٣٢) والترمذي (٥/ ٣٧) وابن حبان (١/ ١٨٩) والطبراني (٢٠/ ٢٧٥ و ٢٨٣) والحاكم (١/ ١٠٩) والبيهقي في « السنن الكبرى » (٧/ ٧٦ و ٩/ ٣٣١) وفي « دلائل النبوة » (٦/ ٥٤٩) وغيرهم .

[أولاً] : الدليل على هذه القضية من القرآن الكريم :

والدليل على ذلك من القرآن الكريم أن علم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله تعالى لقوله تعالى ﴿ **وعلّمك ما لم تكن تعلم** ﴾ النساء : ١١٣ ، ولقوله تعالى ﴿ **وكذلك يجتبيك ربك ويعلّمك من تأويل الأحاديث** ﴾ يوسف : ٦ ، وقوله تعالى ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ الشورى : ٥٢ ، وقال تعالى ﴿ **وما كنت تتلوا من قبل من كتاب ولا تخطه بيمنك إذاً لارتاب المبطلون** ﴾ العنكبوت : ٤٨ .

فإذا كان علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله تعالى فلا يمكن أن يخالف ما جاء في كتاب الله سبحانه ، فإذا جاءنا حديث آحاد يخالف القرآن الكريم تبين لنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يقله وأننا نُنَزِّهُهُ عن أن يكون قد نطق به(١٣٣) ولذلك رددنا ما عارض القرآن من الآحاد ولم نقبله .

وإذا تقرر أن ما يقوله النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما يخبر به وما يُعَلِّمَه لأمته هو من عند الله تعالى فلا يجوز إذن أن يكون مخالفاً لما في كتابه سبحانه لقوله تعالى ﴿ **أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ النساء : ٨٢ .

وقد جاءت نصوص قرآنية أيضاً تبيّن أن السُنَّة النبوية من عند الله تعالى وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يأتي بشيء من عنده ، قال تعالى : ﴿ **وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى** ﴾ النجم : ٤ وقال تعالى : ﴿ **ولو تقوّل علينا**

---

(١٣٣) ويتبين لنا ساعتئذٍ أن الخطأ في عزو هذا الحديث ورفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاء من بعض الرواة الثقات الذين رووا هذا الحديث المعارض وقد صرّح بذلك كبار أهل العلم فهذا الإمام النووي رحمه الله تعالى يقول في « شرح صحيح مسلم » (١/ ١٣١) : « وذهب بعض المحدّثين إلى أنَّ الآحاد التي في صحيح البخاري أو صحيح مسلم تفيد العلم دون غيرها من الآحاد ، وقد قدّمنا هذا القول وإبطاله في الفصول ... » . ثم قال بعد ذلك بأسطر : « وأما مَنْ قال يوجب العلم ـ خبر الواحد ـ فهو مكابر للحس ، وكيف يحصل العلم **واحتمال الغلط والوهم والكذب وغير ذلك متطرق إليه ؟!!** والله أعلم » فتأمّل !!

بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثمَّ لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ الحاقة : ٤٧ .

قال الإمام الفخر الرازي في تفسيره (٣٠/١١٩) معناه :

« أنه لو نَسَبَ إلينا قولاً لم نقله لمنعناه عن ذلك ، إما بواسطة إقامة الحجة فإنّا كنا نقيّض له مَنْ يعارضه فيه ، وحينئذٍ يظهر للناس كذبه فيه ، فيكون ذلك إبطالاً لدعواه وهدماً لكلامه ، وإما بأن نسلب عنده القدرة على التكلّم بذلك القول ، وهذا هو الواجب في حكمة الله تعالى لئلا يُشَبَّه الصادق بالكاذب » .

وقال الإمام أبو جعفر الطبري في تفسيره (٢٩/٦٦) : [يقول تعالى ذكره : ... (ولو تقوّل علينا) محمد (بعض الأقاويل) الباطلة ، وتكذّب علينا (لأخذنا منه باليمين) يقول : لأخذنا منه بالقوّة منا والقدرة ، ثم لقطعنا منه نياط القلب(١٣٤) ، وإنما يعني بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة ، ولا يؤخره بها] .

فتبين من هذه النصوص القرآنية أن السنة لا تكون مخالفةً لكلام الله تعالى ولا معارضةً ولا مضادةً له بوجه من الوجوه ، وإنما هي مفسّره ومبيّنة لكلام الله تعالى أو مخصصة أو نحو هذه الأمور ، وأما التضاد فلا ، **ولمّا كان حديث الآحاد يفيد الظن ولا يفيد العلم(١٣٥) كان لا بدَّ لنا أن نعرضه على القرآن الكريم فإن وجدنا فيه ما يخالف القرآن رددناه ولم نقبله ، وإن لم نجد فيه ذلك وصحَّ السند فالأصل قبوله حينئذٍ ، لكننا لا نبني عليه أصولاً مقطوعاً بها . وبذلك يكون عرض الحديث على القرآن إحدى الضوابط التي يُتَعَرَّفُ بها على ضعف الحديث وردّه ، وقد نص شيخ المحدّثين في وقته الحافظ الخطيب البغدادي على هذا حيث قال في كتابه** « الفقيه والمتفقه » ص (١٣٢) ما نصه :

« **باب القول فيما يُرَدُّ به خبر الواحد : ... وإذا روى الثقة المأمون خبراً متصل الإسناد رُدَّ بأمور : أن يخالف نصَّ الكتاب أو السنة المتواترة فيُعْلَم أنه لا أصل له**

---

(١٣٤) أي عِرْق القلب وهو المراد بقوله تعالى (الوتين) .

(١٣٥) وقد تقدّم البرهان على هذا في فصل خاص وفي مقدّمتنا على كتاب « دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه » للحافظ ابن الجوزي ص (٢٧ ـ ٤٥) .

أو منسوخ » . فتأمّل !!

[ثانياً] : الدليل على هذه القضية من السنة النبوية :

١ـ ثبت عن أبي حُمَيد وأبي أُسَيد رضي الله عنهما عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :

« إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنّي تنكره قلوبكم ، وتنفر عنه أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنّه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه » وهو حديث صحيح(١٣٦) .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« إذا حُدِّثتُم عني حديثاً تعرفونه ولا تنكرونه فصدّقوا به قلته أو لم أقله فإني أقول ما تعرفونه ولا تنكرونه ، وإذا حُدِّثتم عني حديثاً تعرفونه ولا تنكرونه فكذّبوا به فإني لا أقول ما تنكرونه ، وأقول ما تعرفونه » .

رواه الطحاوي في « مشكل الآثار » (١٤/٣٤٧) وهو حسن .

٢ـ وعن أبي أيوب الأنصاري وعوف بن مالك الأشجعي وعبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « أطيعوني ما كنت بين أظهركم ، وعليكم بكتاب الله عز وجل ، أحلّوا حلاله ، وحرّموا حرامه » . رواه الطبراني في الكبير (١٨/٣٨) وفي مسند الشاميين (٢/١٩٢) وقال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١/١٧٠) :

« رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون » ، وحديث عوف بن مالك رواه

---

(١٣٦) ومن العجيب الغريب أن هذا الحديث صححه متناقض عصرنا الألباني !! في صحيحته كما تجد ذلك أيضاً في التعليق على « صحيح ابن حبان » (١/ ٢٦٤) طبعة مؤسسة الرسالة و « سير أعلام النبلاء » (٧/ ٤٣٨) ، وصححه أيضاً الشيخ شعيب في تعليقه على « مشكل الآثار » (١٥/ ٣٤٤) ، والحديث رواه الإمام ابن سعد في « الطبقات » (١/ ٣٨٧) ، والإمام أحمد (٣/ ٤٩٧ و ٥/ ٤٢٥) ، وابن حبان في « صحيحه » (١/ ٢٦٤) ، والبزار (كشف الأستار ١/ ١٠٥) وغيرهم ورجاله رجال البخاري ومسلم إلا عبد الملك بن سعيد فإنه من رجال مسلم وهو ثقة . قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١/ ١٥٠) : « رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح » .

تمام في فوائده ، وحديث عبدالله بن عمرو رواه أحمد في المسند (٢/ ١٧٢ و٢١٢) .

[ومن الغريب العجيب أن الشيخ المتناقض !! صححه في صحيحته ٣/ ٤٥٨ !!] .

ووجه الاستدلال منه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر بالتمسك بكتاب الله تعالى بعد وفاته ، لأن الحديث المروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم يمكن أن يتلاعب به بعض الناس أو يدسوا فيه ما يوافق أهواءهم خلافاً لكتاب الله تعالى الذي تكفَّل سبحانه بحفظه !! وفي حياته صلى الله عليه وآله وسلم يمكن للإنسان أن يستوثق منه صلى الله عليه وآله وسلم فيقول له : هل قلت يا رسول الله كذا أم لم تقله ؟!

وهذا كما هو ظاهر دليل واضح على وجوب عرض الحديث على القرآن وعلى أن القرآن هو الحاكم على الحديث لا العكس !! والله الموفق .

والذي يؤكد هذا :

٣ ـ قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

« إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي ... كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ولن يتفرّقا حتى يردا عليَّ الحوض ... » .

رواه مسلم في « الصحيح » (٤/ ١٧٨٣) والترمذي (٥/ ٦٦٣) واللفظ له .

وأما حديث « تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي » فحديث موضوع كما بينته في كتابي « صحيح صفة صلاة النبي » ص (٢٨٩) وذكرت جميع طرقه وهو من وضع النواصب أعداء آل البيت النبوي ، ليصرفوا الأمة عن اتباع آل البيت واقتفاء آثارهم !! وليضعوا لهم ما شاءوا من الأحاديث المكذوبة ليقودوهم كيفما شاءوا !! فانتبهوا لذلك !!

ففي هذا الحديث دلالة واضحة على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر بالتمسك بكتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وبفهم وحب علماء آل البيت النبوي الأتقياء المخلصين عليهم السلام !! والتمسك بِكِفَّتهم ومعاداة أعدائهم وموالاة أنصارهم !! نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم ومن

محبيهم آمين .

٤ ـ ومن الأحاديث التي تركز على القرآن وتبين أنه الأصل في الرجوع إليه أيضاً حديث أبي الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما أَحَلَّ الله في كتابه فهو حلال ، وما حرّم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ﴿ **وما كان ربك نسيّاً** ﴾ » . رواه البزار (١/ ٧٨) والدارقطني (١/ ١٣٧) والحاكم (٢/ ٣٧٥) والبيهقي (١٠/ ١٢) وغيرهم وهو صحيح .

٥ ـ وفي « صحيح مسلم » (٣/ ١٤٦٨) عن أم الحصين قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنْ أُمِّرَ عليكم عبدٌ مُجَدَّعٌ أسود **يقودكم بكتاب الله** فاسمعوا له وأطيعوا » .

الدليل منه ظاهر حيث بين أن حكم هذا الأمير خاضع لكتاب الله تعالى ولم يربط الأمر بالسنة . فتأمّل (١٣٧)

٦ـ وروى الإمام الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٣٩١) عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه قال :

« **دوروا مع كتاب الله حيث ما دار** وانظروا الفئة التي فيها ابن سمية (عمار بن ياسر) فاتَّبعوها فإنه يدور مع كتاب الله حيث ما دار » .

قلت : وكان سيدنا عمار مع إمام آل البيت بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو سيدنا علي رضي الله عنه وأرضاه فهذا الحديث فيه دلالة على وجوب عرض الحديث على القرآن وترجيح ما فيه على ما ورد في السنة عند التعارض والتمسك

---

(١٣٧) أما مثل حديث « إن أُناساً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم » .

فمعناه : أنهم يقرأونه ويحفظونه للبركة والدعاء ولا يطبقون أحكامه ولا يفهمونه كما لا يعرضون الحديث عليه !! وإنما غاية أمرهم قراءته وتلاوته وعدم إعمال أحكامه والابتعاد عن الاشتغال بفهمه وتطبيقه !! وهم مشتغلون بأخذ أفكارهم ومبادئهم من الحديث فقط دون عرض ما جاء فيه على القرآن وغاية أمرهم (صح السند ولم يصح السند) مع إهمالهم الاستنباط من الكتاب الكريم !! قال تعالى ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾ وقال تعالى ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً** ﴾ !! ومن المستشنع قول بعض مَنْ لحد لا ينفع القرآن بغير سنة !! فاللهم هداك !!

بطريقة علماء أهل البيت وأتباعهم السائرين على منهجهم والحمد لله تعالى .

عَمَلُ الصحابةِ رضي الله عنهم بذلك (أي عرضهم الحديث على القرآن) :

١ـ تقدّم معنا في فصل إثبات أن خبر الواحد يفيد الظن ولا يفيد العلم أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ردَّ حديث فاطمة بنت قيس في قضية النفقة والسكنى للمطلّقة ثلاثاً وقال لها : « لا نترك كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندري حفظت أم نسيت » وهو في مسلم (٢/ ١١١٨) ويمكن أن يقال بأنَّ هذا إجماع .

٢ـ وتقدّم ردُّ السيدة عائشة على سيدنا عمر وابنه عبدالله في مسألة تعذيب الميت ببكاء أهله عليه لأنه معارض لقوله تعالى ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ الأنعام : ١٦٤ ، وهو في صحيح البخاري (٣/ ١٥١ ـ ١٥٢) ومسلم (٢/ ٦٣٨ ـ ٦٤٢) .

٣ـ وتقدّم أيضاً ردّها على من قال بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى ربه ، فرأت السيدة عائشة أن هذا معارض لقول الله تعالى ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ ولقوله تعالى ﴿ **وما كان لبشر أن يُكَلِّمَهُ الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ...** ﴾ كما في صحيح البخاري (٨/ ٦٠٦) ومسلم (١/ ١٥٩ برقم ٢٨٧) .

تقرير أئمة السلف والمحدّثين والعلماء لذلك أيضاً :

أقتصر هنا على مثالين اثنين في هذا خشية الإطالة فأقول :

١ـ ردَّ أحمد بن حنبل ـ وهو من السلف ومن المحدّثين ـ حديث « رُفِعَ عن أمَّتي النسيان والخطأ وما استكرهوا عليه » فقال كما نقل الحافظ ابن حجر في « تلخيص الحبير » (١/ ٢٨٢) :

« ونقل الخلال عن أحمد قال : من زعم أن الخطأ والنسيان مرفوع فقد خالف كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنَّ الله أوجب في قتل النفس الخطأ الكفارة » انتهى .

قلت : الحديث صحيح عندنا وقد فهم أحمد بن حنبل منه أنه مخالف للقرآن فردَّه ، وقد تقدّم الكلام على هذا في المكلّف والتكليف فلا تغفل عنه .

ومن ذلك أيضاً ردُّ أهل العلم كابن المديني والبخاري وابن كثير لحديث مسلم (٤/ ٢١٤٩) « خلق الله التربة يوم السبت ... » وذِكْرُ الخَلْقِ في سبعة أيام !! وهذا

يعارض القرآن الذي فيه أن خلق السموات والأرض في ستة أيام ، قال ابن كثير في « تفسيره » (٢/ ٢٣٠) عند تفسير قوله تعالى ﴿ **إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام** ﴾ الأعراف : ٥٤ ما نصه :

[فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده .... « خلق الله التربة يوم السبت ... » فقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه والنَّسَائي من غير وجه ... وفيه استيعاب الأيام السبعة ، والله تعالى قال ﴿ في ستة أيام ﴾ولهذا تكلّم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار وليس مرفوعاً] انتهى .

أقول : وكلام كعب الأحبار هو من الإسرائيليات فانظركيف دخلت الإسرائيليات في الصحيح باعتراف الحفاظ !! [انظرمقدمة كتاب دفع شبه التشبيه ص (٥٠ ـ ٥١)] .

نصوص أئمة أهل العلم المثبتة لهذه القاعدة :

قال الإمام الحاكم في كتابه « معرفة علوم الحديث » ص (١١٢) في النوع السابع والعشرين :

« وإنما يُعَلَّل الحديث من أوجهٍ ليس للجرح فيها مدخل ، فإنَّ حديث المجروح ساقط واهٍ ، وعلّة الحديث تكثر في أحاديث الثقات أن يُحَدِّثوا بحديث له علّة فيخفى عليهم علمه فيصير الحديث معلولاً ، والحجة عندنا الحفظ **والفهم** والمعرفة لا غير ... » انتهى .

وقال الإمام الحافظ ابن الجوزي في « دفع شبه التشبيه » ص (١٤٣) :

« اعلم أنَّ للأحاديث دقائق وعلل وآفات لا يعرفها إلا العلماء الفقهاء ، تارة في نظمها وتارة في كشف معناها ... » انتهى .

وقال الحافظ ابن الجوزي أيضاً في كتابه « الموضوعات » (١/ ٩٩) :

« وقد يكون الإسناد كله ثقات ويكون الحديث موضوعاً أو مقلوباً أو قد جرى فيه تدليس ، وهذا أصعب الأحوال ولا يعرف ذلك إلا النُقاد ... » انتهى .

ثم روى بإسناده هناك (١/ ١٠٣) عن الربيع بن خثيم أنه قال : « إنَّ للحديث

ضوءاً كضوء النهار تعرفه ، وظلمة كظلمة الليل تنكره » .

ورأيت في « لسان الميزان » (٢/ ١٠هندية) للحافظ ابن حجر ما نصه :

[برية بن محمد عن اسماعيل الصَّفَّار ، كذاب مدبر واضع حديث : يا رسول الله هل رجل له حسنات بعدد النجوم ؟ قال : « نعم عمر وهو حسنة من حسنات أبيكِ يا عائشة » فذكره بإسناد الصحيحين عن إسماعيل الصفّار ، ثم قال الخطيب : وفي كتابه بهذا الإسناد عدة أحاديث منكرة المتون جداً] .

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى في « المجموع » (٤/ ٣٤٢) : « ومتى خالف خَبَرُ الآحاد نَصَّ القرآن أو إجماعاً وجب ترك ظاهره » .

وبذلك نكون قد أتممنا هذا البحث وبيّنا أن من الواجب على العلماء أن يتأملوا في متن الحديث ومعناه عند تصحيحه فينظروا هل في كتاب الله تعالى ما يخالف معناه ، وقد ذكرنا أن الإمام الحافظ الخطيب البغدادي ضبط ذلك أيضاً بخمسة ضوابط فارجع إليها ص (١٢١) وبالله تعالى التوفيق .

الدليل الثالث من أدلة التوحيد :

الإجماع

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ولا نخالفُ جماعةَ المسلمين ، ونتَّبِعَ السُّنَّة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة) .

الشرح :

الإجماع أحد أدلة الشرع العظيمة التي تدور عليها الأحكام وتستنبط منها ، وهو اتفاق المجتهدين من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في عصر من العصور على حكم شرعي ما ، وهو حجة قطعية لا ظنية فيقدّم على حديث الآحاد وينقطع عنده الشغب ولا يُخَصُّ هذا هنا بمجتهدي أهل السنة والجماعة بل يدخل فيه مجتهدو غيرهم أيضاً كما سيأتي إن شاء الله تعالى في آخر هذا الفصل .

وقد نقل أهل العلم أموراً في العقائد أجمع أهل الحق واتفقوا عليها ، لا يحل لأي مسلم أن يخالف فيها البتة ، فعلى ذلك ينبغي أن نعرف أن الإجماع أصل ودليل في علم التوحيد ، ويلزمنا أن نبين أدلّته من الكتاب والسنة وننقل بعض المسائل المجمع عليها التي نقلها العلماء في مصنفاتهم .

أدلة الإجماع ونصوص علماء الأمة المعتد بهم فيه :

١ ـ قال الله تعالى : ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُوَلِّهِ ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً** ﴾ النساء : ١١٥ .

وقال الإمام القرطبي في تفسيره (٥/٣٨٦) :

« قال العلماء في قوله تعالى : ﴿ **ومن يشاقق الرسول** ﴾ دليل على صحّة القول بالإجماع » . انتهى .

وقال ابن قدامة شيخ مذهب الحنابلة صاحب « المغني » في الفقه في كتابه

روضة النّاظر في أصول الفقه ص (١١٧) ما نصه :

« ولنا دليلان ـ أي على الإجماع ـ أحدهما قول الله تعالى : ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين** ﴾ الآية ، وهذا يوجب اتباع سبيل المؤمنين ويحرم مخالفتهم ... ﴾ **انتهى** .

وقال الإمام الحافظ الخطيب البغدادي في كتابه القيّم « الفقيه والمتفقه » صحيفة (١٥٤) ما نصه :

« إجماع أهل الاجتهاد في كل عصر حجة من حجج الشرع ودليل من أدلّة الأحكام مقطوع على مُغَيَّبه ، ولا يجوز أن تجتمع الأمّة على الخطأ ، وذهب إبراهيم بن سيّار النظام إلى أنه يجوز إجماع الأمّة على الخطأ (١٣٨) ... وحجتنا فيما ذهبنا إليه قوله تعالى :

﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً** ﴾ ووجه الدليل من هذه الآية أن الله تعالى توعّد اتباع غير سبيل المؤمن فدلّ على أن اتباع سبيلهم واجب ومخالفتهم حرام ... إلخ » انتهى كلام الحافظ البغدادي .

٢ـ **الدليل الثاني** : ما تواتر من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تجتمع أمّتي على ضلالة » .

هذا الحديث روي بألفاظ متعدّدة ومجموعها يفيد الصحة بل يفيد التواتر المعنوي كما نص على ذلك جماعة من الحفاظ ، منهم الحافظ البغدادي في « الفقيه والمتفقه » ص (١٦٧) حيث قال :

« وجواب آخر وهو أنّها **أحاديث تواتر من طريق المعنى** لأنّ الألفاظ الكثيرة إذا وردت من طرق مختلفة ورواة شتى ومعناها واحد لم يجز أن يكون جميعها كذباً ، ولم يكن بد من أن يكون بعضها صحيحاً » انتهى .

---

(١٣٨) وتدبّر نقطة مهمة هنا ، وهي : أن الحافظ البغدادي لم ينقل عن رجل واحد من أهل السنّة أنّه خالف في حجية الإجماع أو عدم إمكان وقوعه فتكون حجية الإجماع لا خلاف فيها بين أهل السنة ، ولذلك لم يذكر العلماء خلافاً معتبراً في المسألة إلا عن رجل ليس من أهل السنة والجماعة أصلاً .

قلت : ولا معارض لها .

وقد استوعب أكثر طرقه الإمام المفيد المحدّث سيدي عبدالله بن الصديق في كتابه « الإبتهاج بتخريج أحاديث المنهاج » ص (١٨٠ ـ ١٩٠) وإليك بعض ما ورد من ألفاظ هذا الحديث :

أ ـ روى الإمام الحاكم في « المستدرك » (١/١١٦) الحديث عن ابن عبّاس فقال : حدّثنا أبو بكر محمّد بن أحمد بالويه(١٣٩) ثنا موسى بن هارون (١٤٠) ثنا العبّاس بن عبدالعظيم(١٤١) ثنا عبدالرزاق(١٤٢) ثنا إبراهيم بن ميمون العدني(١٤٣) ... حدّثني ابن طاوس(١٤٤) عن أبيه (١٤٥) قال : سمعت ابن عباس يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« لا يجمع الله أمّتي على ضلالة أبداً ويد الله على الجماعة » .

قال الإمام الحافظ أبوعبد الله الحاكم في « المستدرك » (١/ ١٢٠) بعد أن سرد تسعة أحاديث في حجيّة الإجماع :

« فقد ذكرنا تسعة أحاديث بأسانيد صحيحة يستدّل بها على الحجة بالإجماع واستقيصت فيه تحرّياً لمذاهب الأئمة المتقدّمين رضي الله عنهم » انتهى .

وقال الحافظ الذهبي معلّقاً على كلام الحاكم مقرّاً له ـ في نفس الصحيفة ـ : « فهذه الأحاديث التسعة تدل على أن الإجماع حجة » انتهى .

ب ـ قال الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في « التلخيص » (٣/ ١٤١) : « قال ابن أبي شيبة : أخبرنا أبو أسامة ، عن الأعمش ، عن المسيب بن رافع ، عن

---

(١٣٩) ترجمه الذهبي في « السير » (١٥/ ٤١٩) بالإمام المفيد الرئيس ، من كبراء بلده .

(١٤٠) مشهور ترجمة أيضاً في « السير » (١٢/ ١١٦) بالإمام الحافظ الكبير الحجة .

(١٤١) من رجال الأربعة ، قال الذهبي في « السير » (١٢/ ٣٠٣) : الحافظ الحجة الإمام . قال النسائي : ثقة مأمون . انتهى باختصار .

(١٤٢) هو الإمام الحافظ الكبير صاحب « المصنف » ، أشهر من أن يُعرَّف .

(١٤٣) ثقة ، وثقه ابن معين وعبد الرزاق ، وفي الكاشف للذهبي (١/ ٩٥/ ٢١٣) قال : وُثِق .

(١٤٤) ثقة من رجال الستة .

(١٤٥) ثقة من رجال الستة أيضاً .

يسير بن عمرو قال : شيعنا أبا مسعود (البدري الصحابي عقبة بن عامر رضي الله عنه) حين خرج ... فقال لنا : اتقوا الله واصبروا حتى يستريح بر ، أو يستراح من فاجر **وعليكم بالجماعة فإن الله لا يجمع أمّة محمّد على ضلالة** » .

قال الحافظ ابن حجر : « إسناده صحيح ومثله لا يقال من قبل الرأي » . انتهى من « التلخيص » .

٣ ـ **الدليل الثالث :** في « مجمع الزوائد » (١/ ١٧٨) للحافظ الهيثمي في باب الإجماع :

[وعن علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه : قلت يا رسول الله : إن نزل بنا أمر ليس فيه بيان أمر ولا نهي فما تأمرني ؟ قال :

« شاوروا فيه الفقهاء والعابدين ولا تمضوا فيه رأي خاصّة » رواه الطبراني في الأوسط ورجاله موثقون من أهل الصحيح] .

٤ ـ **الدليل الرابع على الإجماع :** جاء عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال :

« ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيء ..... » .

رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٧٩) وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » انتهى .

وأقرّه الحافظ الذهبي . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٧٧ ـ ١٧٨) :

« رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ورجاله موثقون » انتهى .

وقال الإمام الغزالي في « المستصفى » (١/ ٢٧٨) ـ عن هذا الأثر ـ :

« إن المراد به ما رآه جميع المسلمين لأنّه لا يخلو أن يريد به جميع المسلمين أو آحادهم ؛ فإن أراد به جميع المسلمين فهو صحيح إذ الأمّة لا تجتمع على حسن شيء إلا عن دليل ، والإجماع حجة وهو مراد الخبر ، وإن أراد الآحاد لزم استحسان العوام فإن فرّق بأنّهم ليسوا أهلاً للنّظر ، قلنا : إذا كان لا ينظر في الأدلّة فأي فائدة لأهلية النّظر » انتهى .

٥ـ **الدليل الخامس على الإجماع** : روى الإمام الحافظ الترمذي في سننه (٣/ ٣١٥ ـ ٤/ ٢٢٥) عن ابن عمر قال : خَطَبَنا عُمَرُ بالجابية فقال : يا أيها النّاس : إنّي قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فينا فقال :

« أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ... من أراد بحبوحة الجنّة **فليلزم الجماعة ...** » .

قال الترمذي : حديث حسن صحيح . والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ورواه الطيالسي وغيرهم ، والجابية بلدة قرب دمشق .

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في « الرسالة » (٤٠٣) :

« وأمر رسول الله بلزوم جماعة المسلمين مّما يحتج به في أن إجماع المسلمين لازم » انتهى .

وقال الشافعي رحمه الله أيضاً في « الرسالة » (٤٧٥) :

« ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم ، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أُمِرَ بلزومها ، وإنّما تكون الغفلة في الفرقة ، فأمّا الجماعة فلا يمكن فيها كافّة غفلة عن معنى كتاب ولا سنّة ولا قياس إن شاء الله تعالى » انتهى .

فهذه بعض أدلة الإجماع التي صيرته حجة قاطعة من حجج الشرع وفي رسالتنا « احتجاج الخائب بعبارة مَنْ ادّعى الإجماع فهو كاذب » بيان واضح عما يدور من المسائل حول قضية الإجماع .

(فرع) : الإجماع يُقَدَّمُ على الحديث الصحيح الآحاد :

لّما كان الإجماع يفيد العلم والقطع وخبر الآحاد يفيد الظن ولا يفيد العلم قَدَّمَ الأئمةُ من علماء السلف والخلف الإجماع على حديث الآحاد عند التعارض وإليك بعض نصوصهم في ذلك :

١ـ قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى (وهو من السلف) :

« الأصل القرآن والسنة وقياس عليهما **والإجماع أكبر من الحديث المنفرد** » رواه عنه الحافظ البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٣٠) وأبو حاتم في « آداب

الشافعي » ص (٢٣١ و٢٣٣) وأبو نُعَيم في « الحلية » (٩/ ١٠٥) .

٢ـ وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى في « شرح المهذب » (٤/ ٣٤٢) :

« ومتى خالف خبر الآحاد نص القرآن أو إجماعاً وجب ترك ظاهره » .

٣ـ قال الحافظ الخطيب البغدادي في « الفقيه والمتفقه » (١/ ١٣٢) :

« باب القول فيما يُرَدُّ به خبر الواحد :

.... وإذا روى الثقة المأمون خبراً متصل الإسناد رُدَّ بأُمور :

والثالث : أنْ يخالف الإجماع فيستدلُّ على أنه منسوخ أو لا أصل له ... » انتهى كلام الحافظ البغدادي .

[تنبيه مهم جداً هنا] :

أقول : ولا يلزم في انعقاد الإجماع اجتماع المجتهدين وأهل العلم بأبدانهم بل المطلوب اجتماع كلمتهم فإن اجتمعت أيضاً أبدانهم في مجلس واحد فَبِها وَنَعِمَتْ ، وفي هذا يقول الإمام الشافعي في « الرسالة » صحيفة (٤٧٥) :

« إذا كانت جماعتهم متفرّقة في البلدان فلا يقدر أحد أن يلزم جماعة أبدان قوم متفرّقين وقد وجدت الأبدان تكون مجتمعة من المسلمين والكافرين والأتقياء والفجّار ، فلم يكن في لزوم الأبدان معنى ، لأنّه لا يمكن ، ولأنّ اجتماع الأبدان لا يصنع شيئاً ، فلم يكن للزوم جماعتهم معنى ، إلا ما عليهم جماعتهم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما » . انتهى .

(فرع) : في نقل بعض المسائل المجمع عليها في التوحيد والعقيدة :

لا بدَّ أن نذكر الآن بعض المسائل العقائدية المجمع عليها من مَرْجِعَيْنِ مُعْتَمَدَيْنِ في ذلك حتى يتم ترسيخ هذه القضية بالأمثلة ويمكن فهمها بكل وضوح :

قال ابن حزم (المتوفى سنة ٤٥٧ هـ) في كتابه « مراتب الإجماع » ص (١٦٧) :

[باب من الإجماع في الاعتقاد يكفر من خالفه بإجماع :

اتفقوا أن الله عز وجل وحده لا شريك له خالق كل شيء غيره ، وأنه تعالى لم يزل وحده ولا شيء غيره معه ، ثم خلق الأشياء كلها كما شاء ، وأن النفس

مخلوقة ، والعرش مخلوق ، والعالم كله مخلوق ، وأن النبوة حق ، وأنه كان أنبياء كثير منهم مَنْ سمى الله تعالى في القرآن ومنهم من لم يسم لنا ، وأن محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي المبعوث بمكة المهاجر إلى المدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى جميع الجن والإنس إلى يوم القيامة .

وأن دين الإسلام هو الدين الذي لا دين لله في الأرض سواه ، وأنه ناسخ لجميع الأديان قبله ، وأنه لا ينسخه دين بعده أبداً ، وأن من خالفه ممن بلغه كافر مخلد في النار أبداً .

وأن الجنة حق ، وأنها دار نعيم أبداً لا تفنى ولا يفنى أهلها بلا نهاية ، وأنها أُعِدَّتْ للمسلمين والنبيين المتقدمين وأتباعهم على حقيقة كما أتوا به قبل أن ينسخ الله تعالى أديانهم بدين الإسلام .

وأن النار حق ، وأنها دار عذاب أبداً لا تفنى ولا يفنى أهلها أبداً بلا نهاية(١٤٦) ، وأنها أُعدت لكل كافر مخالف لدين الإسلام ، ولمن خالف الأنبياء السالفين قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليهم الصلاة والتسليم وبلوغ خبره إليه . وأن القرآن المتلو الذي في المصاحف بأيدي الناس في شرق الأرض وغربها من أول (الحمد لله رب العالمين) إلى آخر (قل أعوذ برب الناس) هو كلام الله عز وجل ووحيه أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم مختاراً له من بين الناس .

وأنه لا نبي مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا بعده أبداً . **إلا أنهم اختلفوا في عيسى عليه السلام أيأتي قبل يوم القيامة أم لا** ، وهو عيسى ابن مريم

---

(١٤٦) وفي هذا رد بليغ على ابن تيمية الذي يقول بفناء النار هو وتلميذه ابن القيم كما تجد ذلك في كتاب ابن القيم « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » ص (٣٠٩) وما بعدها ، وما ادّعاه بعضهم من أن ابن تيمية أنكر ذلك في بعض كتبه فهو كذب بحت !! يرويه كذّاب مبين !! وقد أثبت هذا القول على ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وردَّ عليهما الألباني في مقدّمته لكتاب الصنعاني « رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار » وارجع إلى كتابنا « البشارة والإتحاف بما بين ابن تيمية والألباني في العقيدة من الاختلاف » ص (١٣) .

المبعوث إلى بنى اسرائيل قبل مبعث محمد عليه السلام .

واتفقوا أن كل نبي ذكر في القرآن حق كآدم وادريس ونوح وهود وصالح وشعيب ويونس وإبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف وهارون وداود وسليمان وإلياس واليسع ولوط وزكريا ويحيى وعيسى وأيوب وذي الكفل] .

وقال الشيخ عبدالقاهر البغدادي التميمي في خاتمة كتابه « الفَرْق بين الفِرق »(١٤٧) ص (٣٢٣) :

[**بيان الأصول التي اجتمع عليها أهل السنة** : قد اتفق جمهورُ أهل السنة والجماعة على أصول من أركان الدين ، كلُّ ركنٍ منها يجب على كل عاقلٍ بالغ معرفةُ حقيقته ، ولكل ركن منها شُعَب ، وفي شُعَبِها مسائل اتفق أهل السنة فيها على قول واحد ، وضللوا مَنْ خالفهم فيها] انتهى .

وذكر منها صفحة (٣٣٢) :

[وقالوا : إن الحوادث قبل حدوثها لم تكن أشياء ولا أعياناً ، ولا جواهر ولا أعراضاً ، على خلاف قول القَدَرية في دعواها أن المعدومات في حال عدمها أشياء(١٤٨) ، **وقد زعم البصريون منهم أن الجواهر والأعراض كانت قبل حدوثها جواهر وأعراضاً ، وقول هؤلاء يؤدّى إلى القول بِقِدَمِ العالَم ، والقول الذي يؤدّى إلى الكفر كفر في نفسه .**

وقالوا : إن صانع العالم قديم لم يزل موجوداً ......

وقالوا بنفي النهاية والحدّ عن صانع العالَم ..... ، وخلاف قول مَنْ زعم من الكرّامية أنه ذو نهاية من الجهة التي يُلاقي منها العرش ، ولا نهاية له من خمس

---

(١٤٧) مما ينبغي أن ننبه عليه ههنا أن الشيخ عبد القاهر التميمي صاحب « الفرق بين الفرق » لا يعول على كل ما ينقله عن الفرق والمذاهب الأخرى كما لا يعوَّل على بعض الإجماعات التي ينقلها كتنوله بإجماع أهل السنة على رؤية الله في الآخرة وإجماعهم على أن الأرض ثابتة لا تتحرك وغير ذلك ! وتشنيعه ونقله مستشنعات عن المعتزلة والقدرية ونحوهم مردود عليه لأنه كان ينقل من كتب ابن الراوندي الذي رموه بالإلحاد والملحد غير ثقة حتى يعتمد أو يعول عليه ! وقد رد على ابن الراوندي ابن الخياط في كتاب « الانتصار » وهو كتاب مطبوع ومعروف !

(١٤٨) اتهام غير صحيح لهم !

جهات سواها .

وأجمعوا على إحالة وَصفه بالصورة والأعضاء] انتهى .

وذكر منها أيضاً ص (٣٣٣) :

[وأجمعوا على أنه لا يحويه مكان ، ولا يجري عليه زمان ، على خلاف قول من زعم من الهِشَاميَّة(١٤٩) والكَرَّامِيَّة أنه مماس لعرشه ، وقد قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : إن الله تعالى خلق العرش إظهاراً لقدرته لا مكاناً لذاته ، وقال أيضاً : قد كان ولا مكان وهو الآن على ما كان .

وأجمعوا على نفي الآفات والغموم والآلام واللذات عنه ، وعلى نفي الحركة والسكون عنه ، على خلاف قول الهشاميّة .... في قولها بجواز الحركة عليه(١٥٠) ، وفي دعواهم أن مكانه حَدَثَ من حركته] انتهى .

[**فائدة**] : واعلم أنه لا يُسَلَّمُ لكل ما يدّعيه الإمام عبدالقاهر البغدادي من الإجماعات حتى يتحقق الباحث والعالم من ذلك ، فإنه نقل الإجماع على أن الأرض لا تتحرك وهو خطأ منه ، وهذا خلاف ما ذكره ابن حزم من الإجماعات فإنني لم أجد للآن ما أخطأ فيه فيما نقله من الإجماع في الاعتقاد فتنبّه لذلك ولا تغفل عنه .

فهذه نماذج وأمثلة عن بعض الأمور العقائدية التي أجمع عليها أهل العلم من أهل الحق واتفقوا عليها .

---

(١٤٩) يقال : كل ما ينسب لهشام بن الحكم من الجسمية هو كذب أراد به خصومه التشنيع عليه !

(١٥٠) وقد نقل ابن تيمية في الموافقة المطبوع على هامش منهاجه (٢/ ٤) أن أئمة السنة والمحدثين يثبتون لله تعالى الحركة ! تعالى الله عما يزعم هذا الرجل ويقول علواً كبيراً !

تنبيه مهم جداً

على قاعدة مهمة في الإجماع

وأود هنا أن أُنبّه على قاعدة مهمة[١٥١] وهي : أن دعوى الإجماع في أصول الدين وأسس العقيدة دون بيان دليل المسألة (أي دون أن يكون لها دليل واضح قطعي الدلالة والثبوت في الكتاب والسنة) **غير مقبول** ، وذلك لأن مسائل أصول الدين والتوحيد ، جاءت بها الدلائل الواضحة وبيَّنها الله تعالى لعباده في الكتاب والسنة ليعرفها جميع الناس ويؤمنوا بها ؛ فمن المحال أن يكلّفهم في إيمانهم بشيء لا يكون دليله واضحاً ظاهراً مقطوعاً به . أما في العمليات فيمكن قبوله متى تحققنا الإجماع ولو لم نعرف دليله ، فهذه نقطة مهمة يجب أن تؤخذ بعين الإعتبار .

وأعلم أيضاً أنه لا بُدَّ في مسائل أصول الدين أن يكون الأمر مجمعاً عليه بين الأمة جميعها بكافة فرقها المعتد بهم ولا يكفي في هذا الأمر إجماع فرقة من فرق الأُمة فحسب ، فلا يكفي إجماع أهل السنة والجماعة !! وذلك لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في الحديث الصحيح الذي هو مستند الإجماع الصريح : « لا تجتمع أُمَّتي على ضلالة »[١٥٢] ولم يقل صلى الله عليه وآله وسلم لا يجتمع أهل السنة والجماعة على ضلالة ، فلا بد من النظر في مثل هذا الأمر في قول الزيدية والمعتزلة والإباضية والشيعة وهؤلاء ربما لم يجمعوا مع أهل السنة في القضية التي يُدّعى الإجماع عليها ، فصار أن الأمر غير مجمع عليه الآن على التحقيق بدليل وجود الخلاف بين فرق الأمة[١٥٣] .

---

[١٥١] وهذا التنبيه وما فيه من القواعد هو لدفع ما قد يدّعيه بعضهم من الإجماع في مسائل لم يُجْمَعْ عليها حقيقة كمسألة الصراط ، فتدبّر !!

[١٥٢] رواه الحاكم في « المستدرك » (١/١١٦) وغيره وهو صحيح .

[١٥٣] مما يجدر التنبيه عليه هنا أن أئمة أهل السنة والجماعة جوّزوا الصلاة خلف المعتزلة ، قال الخطيب الشربيني في « مغني المحتاج » (٤/١٣٥) : « قاله البيهقي وغيره من المحققين لإجماع السلف

قال الإمام الغزالي في « المستصفى من علم الأصول » (١/ ١٨٣) :

« **مسألة** : المبتدع إذا خالف لم ينعقد الإجماع دونه إذا لم يكفر ؛ بل هو كمجتهد فاسق ؛ وخلاف المجتهد الفاسق معتبر ؛ فإن قيل : لعلّه يكذب في إظهار الخلاف وهو لا يعتقده ، قلنا : لعلّه يصدق ؛ ولا بُدَّ من موافقته ولو لم نتحقق موافقته ، كيف وقد نعلم اعتقاد الفاسق بقرائن أحواله في مناظراته واستدلالاته ، والمبتدع ، ثقة يقبل قوله(١٥٤) ، فإنه ليس يدري أنه فاسق ، أما إذا كفر ببدعته فعند ذلك لا يعتبر خلافه وإن كان يصلّي إلى القبلة ويعتقد نفسه مسلماً لأنَّ الأمة ليست عبارة عن المصلّين إلى القبلة بل عن المؤمنين(١٥٥) وهو كافر وإن كان لا

والخلف على الصلاة خلف المعتزلة ومناكحتهم وموارثتهم » .

والذين لا يعتد بهم في الاتفاق والاختلاف من الفرق هم الكرّامية الذين أكفرهم سائر فرق الإسلام . وقد عابوا على الزيدية أنهم جعلوا إجماع العترة إجماعاً معتبراً به ، وعلّلوا إبطالهم لذلك بأن هذا إجماع طائفة من الأمة !! ولم يعيبوا على أنفسهم أنهم جعلوا إجماعهم دون سائر فرق الإسلام حجة لا يجوز مخالفتها ولا العدول عنها فانظروا إلى هذا التخابط وإلى هذا العدول عن قوله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تجتمع أمّتي على ضلالة » !! مع أن ما قاله الزيدية أقرب للحق مما قاله أصحابنا بلا دليل ، لأن الزيدية احتجوا بدليل واضح وهو أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأمة جمعاء بالتمسك بالحبلين كتاب الله تعالى وعترته صلى الله عليه وآله وسلم وهو في « صحيح مسلم » (٤/ ١٨٧٣ برقم ٢٤٠٨) وغيره .

(١٥٤) ومن أكبر الدلائل على ذلك أن صاحبي الصحيحين رويا للمبتدع الداعي لبدعته ولغير الداعي ، والتحقيق في هذا أن المبتدع عند قوم من أهل السنة هو صاحب سنة واتباع عند آخرين منهم ، والأمثلة على ذلك كثيرة في كتب الجرح والتعديل وانظر الأمثلة عليهم في « تدريب الراوي » (١/ ٣٢٨) .

(١٥٥) قوله رحمه الله تعالى (لأنَّ الأمة ليست عبارة عن المصلّين إلى القبلة بل عن المؤمنين) من أبدع ما قيل في تعريف الأمة من التحقيق الدقيق الجازم البعيد عن المؤثرات التي ليس من وراء ذكرها طائل !! ومن تلك المؤثرات التي لا يدرك مغزاها الجامدون على ظواهر الكلمات والنصوص قوله صلى الله عليه وآله وسلم « من صلّى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله فلا تخفروا الله في ذمته » رواه البخاري (١/ ٤٩٦) وغيره عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال الحافظ ابن حجر في شرحه (١/ ٤٩٧) : « فيه أن أمور الناس (أي المسلمين) محمولة على الظاهر ، فمن أظهر شعار الدين أُجريت عليه أحكام أهله ما لم يظهر منه خلاف ذلك » وما بين القوسين ( ) من كلامي لتوضيح المراد . وقال الحافظ أيضاً في « الفتح » (١٠/ ٢١) : « قوله

يدري أنه كافر ... » .

[قاعدة مهمة] : الإجماع المقبول بعد زمن الصحابة هو الإجماع في حكم حادثة لم تكن قد وقعت يومئذٍ في زمنهم رضي الله عنهم ، ويشترط أيضاً فيه أن لا يكون في المسألة دليل مقطوع به يخالف ما أجمعوا عليه ، أما مسائل أصول الدين وما يجب على كل المسلمين أن يعتقدوه فلا يقبل فيه إجماعٌ بعد عصر الصحابة ، وليس ذلك لأننا نقول بأنه لا يعتد بالإجماع بعد زمن الصحابة كما ذهب إليه ابن حزم وغيره ؛ وإنما لأن العقيدة لا يجوز أن تكون مسألة خلافية بين الصحابة ثم يُجْمَع عليها بعدهم ؛ لأنه يتبين حينئذٍ أن الأمر لم يكن عقيدة واجبة على كافة المسلمين في زمن من الأزمان وهذا يخالف مفهوم العقائد فافهم .

(من صلّى صلاتنا واستقبل قبلتنا) المراد مَنْ كان على دين الإسلام » . اهـ فتأمّل !!

الدليل الرابع من أدلة التوحيد :

العقل

اعلم أن العقل أصل التكليف فمتى فُقِدَ العقل فُقِدَ التكليف ، وهو أصل من الأصول التي ينضبط بها فهم الكتاب والسنة ومعرفة الإجماع وما يتعلّق بذلك من القضايا المهمات ، فإذا كان بهذه الأهمية فلا بد أن نبين ما يتعلق به من تعريفه وإيضاح المراد من كونه أحد الأدلة في علم التوحيد والنصوص الدالة في الكتاب والسنة على اعتباره وما هو معنى قول العلماء أن الدليل العقلي مقدّم على الدليل النقلي عند التعارض فنقول وبالله تعالى التوفيق :

أولاً : تعريف العقل :

قال الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه « المفردات » في مادة (عقل) :

« العَقْلُ : يقال للقوّة المتهيئة لقبول العلم ، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة : عَقلٌ ، ولهذا قال أمير المؤمنين ـ سيدنا علي(١٥٦) ـ رضي الله عنه :

رأيتُ العقلَ عقلين ... فمطبوعٌ ومسموعُ
ولا ينفع مسموع ... إذا لم يَكُ مطبوعُ
كما لا تنفع الشمسُ ... وضوء العين ممنوعُ

... وهذا العقل هو المَعْنيُّ بقوله ﴿ **وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ وكل موضع ذم الله فيه الكفار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأول نحو : ﴿ **وَمَثَلُ الذين كفروا كمثل الذي يَنْعِقُ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **صم بكم عمي فهم لا يعقلون** ﴾ ونحو ذلك من الآيات ، وكل موضع رفع التكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى الأول .

---

(١٥٦) لفظة سيدنا علي هي من زياداتي للإيضاح .

وأصل العقل الإمساك والاستمساك كعقل البعير بالعاقل وعقل الدواء البطن ، وعَقَلَتِ المرأة شعرها وعقل لسانه كَفَّهُ ، ومنه قيل للحصن معقل وجمعه معاقل » .

فقول سيدنا علي رضي الله عنه وأرضاه العقل عقلان مطبوع ومسموع يقتضي بيان أن العقل يراد به شيئان :

الأول : القوّة المتهيئة في الإنسان لقبول العلم ، فإن كانت قوية سُمِّيَ صاحبها ذكياً وكان لديه استعداد للتطوّر السريع أو البطيء على حسب تلك القوّة ، وإن كانت ضعيفة سُمِّيَ صاحبها غبياً مع كونه عاقلاً ، وهو إمّا ليس مستعداً للتطوّر العقلي وللوصول لدرجةٍ بعد درجة ، وإما أن يمكن تطوّره لكن ببطء شديد ، وهذه إرادة المولى سبحانه وتعالى وحكمته في خلقه ، ﴿ **لا يُسْأل عما يفعل وهم يُسْألون** ﴾ ولله تعالى في خلقه شؤون .

المعنى الثاني : المراد بلفظ العقل هو : العلم والفهم الناتج عن القوّة المتهيئة في الإنسان لقبول العلم بالأشياء وفهمها .

فالمعنى الأول للعقل يُسمَّى (العقل المطبوع) وهو القوّة التي خلقها الله تعالى في كل إنسان ، أي الذي خُلِقَ وكان طبعاً للإنسان ، والمعنى الثاني الذي شرحناه يسمى (العقل المسموع) أي الذي ينتج من سماع المعلومات وتلقيها وليس هو الغريزة التي خلقها الله تعالى في الجسم .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في هذا المعنى (الإحياء ١/٨٨) :

[... ومَنْ أنكر تفاوت الناس في هذه الغريزة فكأنه منخلع عن رِبْقة العقل ، ومن ظنَّ أن عقلَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل عقل آحاد السوادية وأجلاف البوادي فهو أخس في نفسه من آحاد السوادية ! وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم ولما انقسموا إلى بليد لا يَفْهَمُ بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من المُعَلِّم ؛ وإلى ذكي يفهم بأدنى رمز وإشارة ، وإلى كاملٍ تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم ؟ كما قال تعالى ﴿ **يَكادُ زَيْتُها يضيءُ ولو لم تمسسه نارٌ نورٌ على نور** ﴾ **وذلك مَثَلُ الأنبياء عليهم السلام إذ يتضح لهم في بواطنهم أمورٌ غامضة** من غير تَعَلُّمٍ وسماع ويعبَّرُ عن ذلك بالإلهام . وعن

مثله عَبَّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال « إن روح القُدُس نَفَثَ في رُوعي : أحبب مَنْ أحببتَ فإنك مفارقه وعش ما شِئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به » .

وهذا النمط من تعريف الملائكة للأنبياء يخالف الوحي الصريح الذي هو سماع الصوت بحاسة الأذن ومشاهدة المَلَك بحاسة البصر ولذلك أخبر عن هذا بالنفث في الروع ...] انتهى .

ولا نريد هنا أن نُسْهِبَ أو نطيل بأكثر من هذا إذ قد فُهِمَ معنى العقل .

ثانياً : النصوص الشرعية الدالة على اعتبار العقل وأنه هو مناط التكليف :

لقد ذكر الله تعالى العقل في نحو (٤٩) موضعاً في كتابه العزيز وإليك بعض ذلك :

قال تعالى : ﴿ **إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفُلْك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المُسَخَّر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون** ﴾ .

وذُكِرَت أيضاً عبارة « **لآيات لقوم يعقلون** » في القرآن الكريم بعد الحث على التفكر والنظر في المصنوعات والمخلوقات لمعرفة الصانع والخالق سبحانه وتعالى في أكثر من آية منها في : (سورة الرعد :٤ ، وسورة النحل :١٢، وسورة الروم : ٢٤) .

وذَمَّ الله تعالى الكفار لأنهم لم يستعملوا عقولهم فقال عنهم :

﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقلون** ﴾ البقرة : ١٧١ .

وذَمَّ تقليدهم لآبائهم وعدم استعمالهم لعقولهم فقال سبحانه :

﴿ **أَوَ لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون** ﴾ البقرة : ١٧٠ .

وقال سبحانه : ﴿ **ثُمَّ يحرِّفونه من بعدما عَقَلُوهُ وهم يَعْلمون** ﴾ البقرة : ٧٥ .

وذمهم سبحانه أيضاً على عدم استعمالهم لعقولهم فقال :

﴿ **قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون** ﴾ العنكبوت : ٦٣ ، وفي مواضع أخرى قال سبحانه أيضاً : ﴿ **وأكثرهم لا يعقلون** ﴾ .

وقال سبحانه فيمن لا يستعمل العقل : ﴿ **إنَّ شَرَّ الدوابِّ عند الله الصُمُّ البُكْمُ الذين لا يعقلون** ﴾ الأنفال : ٢٢ .

وقال تعالى : ﴿ **ويَجْعَلُ الرِّجْسَ على الذين لا يعقلون** ﴾ يونس : ١٠٠ .

وقال تعالى : ﴿ **أَفَلَمْ يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾ الحج : ٤٦ .

وقال عز وجل : ﴿ **أم تَحْسَبُ أنَّ أكثرهُمْ يسمعون أو يَعْقِلون إنْ هم إلا كالأنعام بل هم أَضَلُّ سبيلاً** ﴾ الفرقان : ٤٤ .

وقال تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ الحشر : ١٤ .

وقال سبحانه وتعالى في مواضع كثيرة في كتابه العزيز ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ (منها في البقرة : ٤٤و٧٦ ، وآل عمران : ٦٥ ، والأنعام : ٣٢ ، والأعراف : ١٦٩ وغيرها) .

وقال تعالى مُبَيِّناً حال أصحاب النار :

﴿ **وقالوا لو كُنّا نسمع أو نعقل ما كُنّا في أصحاب السعير** ﴾ الملك : ١٠ .

ففي هذه الآيات دليل واضح على اعتبار العقل في الشرع وبيان قيمته الكبيرة لأنه لا يمكن تحقيق فهم نصوص الشريعة واستنباط الأحكام من أدلتها وإدراك قواعدها وموازينها إلا بالعقل الذي هو مناط التكليف وأساسه .

وأعجب من قوم تشبثوا بتفسير الاستواء المذكور في القرآن في سبعة مواضع بما يروق لأهوائهم بمعانٍ تسوق إلى التشبيه والتجسيم ، وهم مع ذلك يهملون إعمال العقل واعتباره في النصوص بل ويحضون على إهماله والإعراض عما يحكم به مع أنه مذكور في القرآن ٧ × ٧ = ٤٩ مرة تقريباً أو أكثر بقليل !!! ولله في خلقه شؤون !!

وقد جاء بيان فضل العقل أيضاً في السُنَّةِ الصحيحة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ففي البخاري (١/ ٤٠٥) ومسلم (١/ ٨٧) من حديث سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للنساء :

« ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لُبٍّ مِنْكُنَّ » فقالت امرأة : يا رسول الله وما نقصان العقل والدين ؟ فقال : **أمَّا نُقْصان العقل فشهادةُ امرأتين تَعْدِلُ شهادة رجل فهذا نقصان العقل ...** » الحديث .

وذلك لأنَّ الله تعالى خص المراة بوظيفة عظيمة في الإنسانية وهي تربية الأجيال وإنشاء الرجال ، ولما كانت هذه الوظيفة تقتضي العطف والحنان وذلك من حكمة الله تعالى العظيمة جعل الله تعالى جانب العاطفة عند المرأة غالباً على جانب العقل وهذا من كمال وظيفتها العظيمة الخاصة بها التي خلقت من أجلها حتى تكون سكناً وأمناً ، ولذلك وجدنا أن الإسلام يكرّمها ويعظمها ويحارب إهانتها ولكن لا يجعلها تتطاول وتتعدى طورها ، وكلٌّ من الرجل والمرأة مكلّف بأحكام الشريعة ويمكنه استيعابها وفهمها إلا أن فهم الرجل لأنه أكثر عقلاً أقوى ، والله الموفق .

وفي « صحيح مسلم » (٣/١٣٢٣) عن بُرَيدة : أنَّ ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله إني قد ظلمتُ نفسي وزنيت وإنّي أريدُ أن تُطهّرني ، فردَّه ، فلما كان من الغَدِ أتاه فقال : يارسول الله إني قد زنيت ، فردَّه الثانية ، فأرسل رسول الله إلى قومه فقال : « **أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً** » فقالوا : ما نعلمه إلا **وفيَّ العقل** ، من صالحينا فيما نرى ، فأتاه الثالثة ، فأرسل إليهم أيضاً فأرسل عنه فأخبروه : أنه لا بأس به ولا بعقله ... » الحديث .

وجه الدلالة منه ظاهر وهو أنه إن كان ناقص العقل بحيث أنه يسقط عنه التكليف أو يَفْقِدُ عقله في وقت دون وقت فلا يُكلَّف فيما فعله في وقت ذهاب عقله فإنه لا يقام عليه الحد ، كما تقرر في القواعد الفقهية بمقتضى حديث « رُفِعَ القلم عن ثلاثة : عن الصبي حتى يبلغ ، وعن النائم حتى يستيقظ **وعن المجنون حتى يفيق** » وفي بعض الروايات « وعن المجنون حتى يعقل » وفي بعضها

« وعن المعتوه حتى يعقل »(١٥٧) .

[ثالثاً] مسألة تعارض العقل والنقل :

فإذا تأمّلت في الكلام المتقدّم جيداً آن أن نبين لك ما هو المراد بقولهم : إن العقل مُقَدَّم على النقل عند التعارض فنقول :

المراد من كون الدليل العقلي مقدّم على الدليل الشرعي عند التعارض هو : أن العقل يدرك من نصوص الشرع المتواردة في قضية معينة أن هناك نصاً من **نصوص الآحاد** التي هي غير قطعية الدلالة أو غير قطعية الثبوت أن ظاهره الذي قد يتبادر إلى الذهن من أوّل وهلة غير مراد ، فإن ظاهر قول الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي « كنتُ رِجْله التي يمشي بها » (البخاري ١١/ ٣٤١) غير مراد ، لأنَّ العقل أدرك بأن ظاهر هذا النص غير مقصود ، ذلك لأن القاعدة الشرعية القطعية المستفادة من نصوصٍ كثيرة مُحكَمةٍ في الكتاب والسنة تفيد تنزيه الله عن مشابهة المخلوقات وعن الحلول فيها ؛ والعقل أساس التكليف لأنه هو الذي يدرك معاني النصوص الشرعية وما هو المراد منها وبفقدها يُفْقَد التكليف ، والله تعالى مدح العقل وبين لنا فضله وأنه هو آلة الاستنباط في نصوص كثيرة جداً في القرآن الكريم تقدّم بعضها .

ومنها قوله تعالى : ﴿ **ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ ولولا العقل لكان الناس كالبهائم ، قال الله تعالى : ﴿ **إن شرّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون** ﴾ وكم آية قال تعالى فيها للناس ﴿ **إن ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ وذم سبحانه أناساً فقال فيهم :

---

(١٥٧) رواه أحمد (٦/ ١٠٠) والبخاري في صحيحه معلّقاً (٩/ ٣٨٨) و (١٢/ ١٢٠) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه وهو حديث صحيح ، رُوِيَ مرفوعاً من حديث سيدنا علي والسيدة عائشة وأبي هريرة رضي الله عنهم ، وأخرجه النسائي (٦/ ١٥٦) وأبوداود (٤/ ١٤٠) والترمذي (٤/ ٣٢) وابن خزيمة (٢/ ١٠٢) وابن حبان (١/ ١٧٨) وسعيد بن منصور في سننه (٢/ ٦٨) والدارمي (٢/ ١٧١) والبزار (٢/ ٢١٢ كشف الأستار) والدارقطني (٣/ ١٣٩) وابن الجارود في المنتقى (برقم ١٤٨و٨٠٨) وابن ماجه (١/ ٦٥٨) والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩) وصححه ، والبيهقي (١/ ٥٦) وغيرهم .

﴿ **صمٌّ بكم عميٌ فهم لا يعقلون** ﴾ وهم مع ذلك كانوا يسمعون ويرون ، وقال عن آخرين وهم في غاية الخبث والتمرُّد ﴿ **ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ وقال سبحانه ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها** ﴾ والآيات في ذلك كثيرة جداً كما تقدّم .

فتبين بذلك أن حديث الآحاد الذي يفيد الظن ـ وهو غير قطعي ـ إذا عارضه العقل ، أي ما يوجبه العقل ويدركه من تقرير أدلة الكتاب والسنة المتضافرة على معنى يخالف هذا الحديث الفرد فإنه يطرح ولا يؤخذ به البتة ، أو لشيء آخر يدل عليه العقل كتخصيص أو استثاء أو غير ذلك ، فينبغي أن يعرف طالب العلم بأن العلماء اختصروا هذا المعنى فقالوا :

إذا عارض الدليل النقلي الدليل العقلي وجب تقديم العقلي ، ومرادهم بالنقلي هو الآحاد أو نص غير قطعي الدلالة ، ومرادهم بالعقلي إدراك العقل تضافر أدلة كثيرة على معنى ما .

ونذكر ههنا مثالين لهذا الامر لتتضح هذه المسألة :

(أولاً) : ردّت السيدة عائشة كما تقدّم على من قال أو روى أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى ربه وهو سيدنا ابن عباس ، ففي صحيح مسلم (١/ ١٥٨) عن عطاء عن ابن عباس قال « رآه بقلبه » وذكر الحافظ في « الفتح » (٨/ ٦٠٨) أن ابن خزيمة روى بإسناد قوي عن سيدنا أنس أنه قال « رأى محمد ربه »(١٥٨) .

---

(١٥٨) والتحقيق أن هذا الحديث ليس إسناده قوياً كما بينت ذلك في رسالة الرؤية !

ولنا على سنده ملاحظتان :

(الأولى) : أن البكراوي هذا هو عبد الرحمن بن عثمان بن أمية بن عبد الرحمن ابن أبي بكرة الثقفي . وأبو بكرة هو الصحابي الأسود الذي كان عبداً لثقيف وأسلم في غزوة حنين واسمه نُفَيع بن الحارث وهو من أنصار بني أمية وهو مردود الشهادة من زمن سيدنا عمر بن الخطاب ؛ ردَّ شهادته عمر رضي الله عنه عندما شهد على المغيرة بن شعبة بالزنا فبطلت شهادته وجلد . وانظر ترجمته في كتب التراجم .

وحفيده أبو بحر هذا قال الذهبي في « ديوان الضعفاء » : « تركوا حديثه » وقال أحمد : « طرح الناس

قلت : ردّت السيدة عائشة رضي الله عنها جميع ذلك كما في البخاري (٨/٦٠٦) ومسلم (١/١٥٩) فعن مسروق قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : يا أُمّتاه : هل رأى محمد ربه فقالت : « قفّ شعري مما قلت !! أين أنت من ثلاث من حدّثكهن فقد كذب : من حدَّثك أن محمد رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت **﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ﴾** » .

فانظر يرحمك الله تعالى كيف ردّت السيدة عائشة النص الظنّي بالعقل ، أي بما فهمه العقل وحكم به اعتماداً على القواعد الأصلية المبنيّة على نصوص القرآن القطعية ، وهذا هو المراد عند من قال : « إذا تعارض العقل والنقل قُدِّمَ العقل » ولا يعني ذلك أن تُرَدَّ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لمجرد رفض العقل لها هكذا !! لا !! ولم يقل بهذا عاقل موحِّدٌ فافهم هداك الله تعالى .

(ثانياً) : روى مسلم في « الصحيح » (٤/٢١٤٩ برقم ٢٧٨٩) عن أبي هريرة مرفوعاً :

« خلق الله عز وجل التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من

حديثه » .

وقال ابن حبان في « المجروحين » (٢/٦١) : « منكر الحديث ممن يروي المقلوبات عن الأثبات ... » . وانظر ترجمته في « تهذيب الكمال » (١٧/٢٧١) .

(والملاحظة الثانية) : قتادة اضطرب في هذا القول !! فتارة يرويه عن أنس وتارة عن أبي ذر وتارة عن ابن عباس رضي الله عنهم !! فلا ندري هذا منه أو من غيره !! فتأمل !!

قال شيخنا السيد عبد العزيز ابن الصديق في « القول الأسد في بيان حال حديث رأيت ربي في صورة شاب أمرد » : [إن قتادة مدلس مشهور بالتدليس ذكره الحافظ في الطبقة الثالثة من طبقات المدلسين . وقال شعبة : كنت أنظر على فم قتادة فإذا قال حدثنا كتبت ؛ وإذا لم يقل لم أكتب ، وهنا لم يقل حدثنا في طريق من طرق هذا الحديث ، فهي مما يجب أن يتوقف عن الأخذ به إلى أن يظهر من طريق آخر أنه سمعه من عكرمة كما هي القاعدة في عنعنة المدلس] .

يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » .

ففي هذا الحديث إثبات أنَّ الله خلق السموات والأرض في سبعة أيام ، وهذا مخالف للقرآن وذلك لأنَّ الله تعالى أخبر أنَّه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، قال الله تعالى : **﴿ إنّ ربكمُ الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴾** الأعراف : ٥٣ .

فإن قال قائل : هذا الحديث لا يعارض الآية السابقة ، وإنما يُفصِّل كيفية تطوّر الأرض وما خلق فيها وحدها ، وأنَّ ذلك كان في سبعة أيام وهي غير الأيام الستة المذكورة في الآية أو نحو هذا الكلام كما صرح به متناقض عصرنا الألباني .

قلنا في جوابه : لا ، ليس كذلك ! وكلامك باطل من وجوه عديدة أذكر لك ثلاثة منها :

الأول : أن سيدنا آدم المذكور في الحديث لم يُخْلَقْ على الأرض إنما خلقه في الجنة ثم أُهبط بعد مُدَّة إلى الأرض ، فهذا الحديث لا يتكلّم إذن بما حصل على الأرض خاصة ، ثم قوله فيه : (وخلق النور يوم الأربعاء) ليس خاصاً أيضاً بالأرض لأن النور الموجود على الأرض بشكل عام مصدره من الشمس التي هي في السماء والنور موجود أيضاً في الجنة ، فهذا الحديث فيه ذكر ما في الأرض وما في السماء .

وكذلك قوله (المكروه) في الحديث لا يفهم معناه !! والمكروه يعم أشياء كثيرة ، والمعروف أن المكروه أو الشر يخلقه الله عز وجل في وقته الذي يحصل فيه ، وهذا الحديث فيه هذه الجُملَ الركيكة التي تدل على أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما نطق به .

الثاني : أنَّ القرآن يردُّ ذلك أيضاً بصراحة قال تعالى : **﴿ قل أئِنّكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك ربُّ العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾** فُصّلت : ٩ ـ ١٠ . فهذا صريح في أنه سبحانه خلق الأرض في يومين وقدّر فيها أقواتها

في أربعة أيام ومجموع ذلك ستة أيام ، فأين الأيام السبعة من ذلك ؟!

الثالث : ولهذه الأدلة العقلية المأخوذة بالتأمل والتدبر من القرآن الكريم ردَّ أئمة المحدثين الذين أدركوا هذا الشذوذ في متن الحديث هذا الحديث وطعنوا فيه .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٩٩ طبعة الشعب) : « هذا الحديث من غرائب صحيح مسلم ، وقد تكلّم عليه ابن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ وجعلوه من كلام كعب الأحبار ، وأنَّ أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار ، وقد اشتبه على بعض الرواة فجعله مرفوعاً » .

قلت : وقد أنكره البخاري في كتابه « التاريخ الكبير » (١/ ٤١٣ ـ ٤١٤) وغيره ، حتى أنَّ الشيخ ابن تيمية !! نقل طعن الحفاظ فيه في « فتاواه » (١٧/ ٢٣٦) وهذا هو تطبيق القاعدة التي تقدّمت والتي نص عليها إمام المحدّثين في عصره الخطيب البغدادي حيث قال في كتابه « الفقيه والمتفقه » (١/ ١٣٢) :

« باب القول فيما يُرَدُّ به خبر الواحد : .... وإذا روى الثقة المأمون خبراً متصل الإسناد رُدَّ بأمور : **أحدها : أن يخالف موجبات العقول فيعلم بطلانه ، لأن الشرع إنما يَرِدُ بمجوزات العقول وأما بخلاف العقول فلا ...** » . فتدبَّر ذلك جيداً والله الموفق !!

الفصل الثاني في الأدلة
بيان الأدلة الموهومة الباطلة
التي لا يجوز الاستدلال بها في العقيدة

مما تقدم تبين ما هي الأدلة الشرعية المعتبرة في العقيدة وعلم التوحيد لكن بعض الناس يستدّلون أحياناً كثيرة بأشياء لا تعتبر أدلة شرعية في هذا الباب إنما هي شبه فاسدة وأدلة باطلة ، يضعونها في مقالاتهم ومحاضراتهم وخطبهم ويذكرونها في مصنفاتهم فيوهمون بها العامة ليظنوا أنها أدلة شرعية معتبرة مثل استدلالهم بما يسمونه : **الفطرة ودين العجائز وكذلك الكتب السماوية المحرفة كالتوراة والإنجيل وفهم السلف والقياس** ، وها نحن ذا نتعرَّض لهذه الأمور واحداً واحداً لنبين فساد الاستدلال بها شرعاً بموازين الكتاب والسنة ، لأنها من الأمور الباطلة الخطيرة لتعلّقها بالتوحيد والعقيدة ، ولئلا يبقى الداعية المسلم والواعظ والمدرّس حاملاً لها ومتحدّثاً بها غالطاً دون أن يجد مَن ينبّهه عليها :

الدليل الموهوم الأول :

الفطرة

يستدّل بعض الناس اليوم وفي السابق بما يسمونه (الفطرة) فيقول أحدهم مثلاً : لا أرغب أن أتعلم علم التوحيد وهذه المسائل التي تعرضونها في كتب العقيدة وعلم الكلام إنما أحب أن أبقى على الفطرة !!

ويستدلّ من يقول بالفطرة بالحديث الصحيح :

« كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » رواه البخاري (٣/ ٢٤٦) ومسلم (٤/ ٢٠٤٧) .

فيقولون : هذا الحديث يدلُّ على أن المولود يولد على الإسلام لأنه لم يذكر الإسلام فيه فهو الأصل وإنما ذكر تأثير الأبوبين أنهما قد يحرفانه إلى اليهودية أو النصرانية أو المجوسية قالوا : فيكون معنى الفطرة هنا : الإسلام .

ونقول لهم : أخطأتم في الاستدلال !! لأن هذا الحديث ورد في رواية أخرى صحيحة في صحيح مسلم (٢٦٥٨) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال فيه « **فإن كانا مسلمين فمسلم** » !!

فاتضح بهذه الرواية فساد احتجاج من احتج بحديث الفطرة وقال ما قال فيه !! وإذا كان الأمر كذلك فينبغي لنا أن نوضح ما هو المراد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم (يولد على الفطرة) فنقول :

معنى الفطرة هنا أي الخلقة الأصلية التي لم يَشُبْهَا شيء بعدُ ، لأن المولود يولد ويخرج من بطن أمه لا علم عنده وخالياً من المعلومات بدليل قوله تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾ النحل : ٧٨ ، أي لتكسبوا المعلومات وتَعْقِلوا الحقائق بهذه الحواس ، فهذه الآية الكريمة قاطعة للشغب في هذه المسألة قطعاً تاماً والحمد لله .

فمعنى الحديث أن المولود يولد على الخلقة الأصلية السليمة وهي المراد بالفطرة ، إذ لا يعتبر هذا المولود مُشَبَّعاً بأي فكر من الأفكار وخاصة أفكار الكفر والإلحاد أو الشرك ، فتؤثر فيه بعد ذلك عادات وأحوال واعتقادات المجتمع الذي يعيش فيه فتجعله ينقاد إليها ، فإذا بقي كذلك لم يتنبّه إلى عقيدة الإسلام الصحيحة الحقة إلا بمن يُنَبِّهه عليها ، ولذلك بعث الله تعالى الرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين وأمر العلماء والدعاة بل جميع المسلمين بالتبليغ !!

وبعض الناس يقولون كما تقدم : لم يقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبواه يجعلانه مسلماً ونقول لهم : بل قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « فإن

كانا مسلمين فمسلم » فقوله صلى الله عليه وآله وسلم « كل مولود يولد على الفطرة » لا يعني أن المولود عندما يولد تولد معه معلومات دينية في مختلف النواحي من العقيدة والفقه والحديث والتفسير وغيرها ؛ كما لا يعني ذلك ما يقولونه : من إن معرفة الله تعالى أمر مركوز في الفِطَر ؛ لقوله تعالى كما تقدم ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً** ﴾ !!

حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولدوا ولم تكن معهم معلومات إلا مَنْ أنطقهم الله تعالى في المهد على سبيل المعجزة والعبرة للخلق ، ومن ذلك قول الله تعالى ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ أي : ووجدك لا تعرف ما أنت عليه الآن من الشريعة فهداك إليها ، وقال تعالى : ﴿ **ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ ﴿ **وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً** ﴾ !! وبعضهم يورد مع الحديث الذي تكلمنا عليه وبيّنا معناه قوله تعالى ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** ﴾ وليس معناه ما يتوهَّمون ويوهِمُون !!

فلو كان الناس قد خُلِقُوا وفُطِرُوا وَطُبِعُوا على الإيمان (والتوحيد ومعلومات العلو !!) التي قال الله عنها ﴿ **لا تبديل لخلق الله** ﴾ لم يستطع أحد أن يكفر ويخرج من الإسلام لأنه لا طاقة لمخلوق أن يغيّر ما قال الله تعالى عنه : لا تبديل له ، ونحن نرى الأمر في الواقع بخلاف ذلك فنرى من الناس مَنْ يكفر ويرتدّ عن دينه فيبدل الإيمان إلى الكفر !!

فصار إذاً أن لها معنى آخر غير ما خطر ببال المجسمة والمشبهة وأذاعوه !! وهو ما قاله الحذاق من أن الفطرة هنا هي القابلية التي خلقها الله تعالى في الإنسان للنظر في مصنوعات الله تعالى ، والإستدلال بها على موجده ، فيؤمن به ويتبع شرائعه ، لكن قد تَعْرُضُ له عوارض تصرفه عن ذلك كتهويد أبويه له وتنصيرهما وإغوائهما له وإغواء شياطين الإنس والجن ﴿ **لا تبديل لخلق الله** ﴾ أي (لا تبديل لهذه القابلية) من جهة الخالق . أفاده الحافظ أبوحيان الأندلسي في « البحر المحيط » (٨/ ٣٨٩) وعقول المجسمة لا تصل لفهم كتاب الله الكريم ولا لسنة النبي الرؤوف الرحيم صلى الله عليه وآله وسلم !! فتنبهوا !!

ومَنْ ذهب إلى غير ما قلناه وقررناه هنا لزمه القول بتناقض الآيات وحاشاه من ذلك !!

بل إن الاستدلال بالفطرة التي يزعمونها يستلزم هدم كثير من الآيات والأحاديث !! فالآيات الحاثة على التفكر في خلق السموات والأرض والآيات التي فيها الأمر بالنظر في المخلوقات لا قيمة لها ولا معنى من إيرادها ساعتئذ ما دام أن معرفة الله تعالى والإيمان بوجوده أمر مركوز في الفِطَرِ كما يزعمون ، ولماذا أرسل الله تعالى الرسل يثبتون للكفار وجود الله تعالى حتى يؤمنوا به ما دام أن الأمر مركوز في النفوس ؟!

ومنه قول الله تعالى ﴿ **ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه** ﴾ إلى قوله ﴿ **فَبُهِتَ الذي كفر** ﴾ وقوله تعالى في قصة سيدنا موسى عليه السلام إن فرعون قال له : ﴿ **قال فمن ربكما يا موسى ، قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾ طه : ٤٩ - ٥٠ ؟!!

فقول مَنْ قال : « أما عوام المسلمين فالأصل فيهم أنهم على عقيدة السلف **لأنها الفطرة التي يولد عليها الإنسان** وينشأ عليها المسلم **بلا تلقين ولا تعليم**(١٥٩) من حيث الأصل فكل مَنْ يلقنه المبتدعة بدعتهم ويدرسوه كتبهم فليس من حق أي فرقة أن تدّعيه إلا أهل السنة والجماعة » انتهى !!!

هو قول متهافت !!! وهو خطأ مجانب لنصوص الكتاب والسنة !! بل هو مجانب للواقع تماماً ! فإن الله تعالى أرسل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليعلّموا الناس التوحيد والشرائع ولم يأت في نصٍ واحد أن الله تعالى قال : إذا أردتم أن تعرفوا عقيدة السلف الحقة فعليكم أن تسألوا الأطفال الصغار لأنهم وُلدوا عليها بفطرتهم ، كما لم يأت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نص واحد يقول ذلك !!

وما فائدة إرسال الرسل حينئذٍ إذا كان الناس يولدون على عقيدة السلف التي

---

(١٥٩) وما فائدة إرسال الأنبياء والمرسلين إذن إذا كان الناس ينشأون على عقيدة السلف المباركة !! بلا تلقين ولا تعليم ؟!! ما هذا إلا هراء !!

يدّعيها هؤلاء ؟!! ولماذا إذاً بقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث عشرة سنة في مكة يُعلّم الناس العقيدة الصحيحة التي أرسله الله تعالى بها ويزرعها ويغرسها في قلوب أصحابه الكرام رضي الله عنهم ؟!!

زد على ذلك أن هناك أقواماً كُثُراً كانوا في الجاهلية الجهلاء قبل إرسال الرسل إليهم وآخرين عاشوا في وسط الأدغال ولم يخرجوا على عقيدة السلف ولا على عقيدة الإسلام ، وإنما كانوا على عقيدة عبادة العِجْل أو النار أو الأصنام أو الكواكب أو غير ذلك مع أن أهل البدعة لم يلقنوهم ذلك !! وإنما تُرِكُوا بلا تلقين ولا تعليم !! فلعل عقيدة أصحاب الأدغال تلك هي عقيدة المجسمة والمشبهة الذين يحتجون بالفطرة !! وينشرون الاستدلال بها اليوم في المشرق والمغرب !! مستغلين الضحالة العلمية الملموسة عند غالب المسلمين من أهل هذا العصر !!

وبذلك تبين لنا بكل وضوح أن ما يسمونه دليل الفطرة ليس دليلاً شرعياً معتبراً ولا يصح لأي إنسان أن يستدل به لأنه إذا استدل به خالف نصوص الكتاب والسنة كما قدّمنا .

الدليل الثاني الموهوم : *دين العجائز*

ومن الأدلة الفاسدة التي لا عبرة بها قول بعضهم : « عليكم بدين العجائز » أهل البادية وما شابه ذلك ، وهذا دليل باطل لا يصح أن يُسْتَدل به في مسائل العقيدة ولا في غيرها ، وقد نص أهل الحديث كالحافظ السخاوي في كتابه « المقاصد الحسنة » ص (٢٦٠ حديث رقم ٧١٤) على أن هذه العبارة لا أصل لها بهذا اللفظ . **قلت** : ولا بغير هذا اللفظ على التحقيق .

والعجائز كسائر البشر منهم العالم المتفقه في دينه ومنهم الجاهل المفرّط في أمره ومنهم التقي ومنهم العاصي ومنهم اليهودي ومنهم النصراني ومنهم المجوسي إلى غير ذلك ، ولم يكن في يوم من الأيام لهم اتفاق وإجماع أو عقيدة خاصة مشهورة معروفة متداولة حتى يقال هذه دين العجائز ، ثم في هذا انصراف عن دين الإسلام ! فإما اتّباع دين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإما دين العجائز .

وبعضهم ينقل هذا الكلام أو نحوه عن سيدنا عمر وبعضهم عن عبدالله ابن المبارك وكله باطل لا يصح عنهم . ولو صح لم يكن فيه حجة مع أنه لم يصح والله الهادي .

وقد روى ابن ماجه (٤٠٤٩) والحاكم (٤/٤٧٣) عن سيدنا حذيفة مرفوعاً « يُدْرسُ الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يُدْرَى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة ، ويبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة ويقولون أدركنا آباءَنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها » وظاهر إسناده الصحة ، ولا دلالة فيه إلا على كلمة التوحيد التي جاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بها وبينوا معناها للخلق وأوضحوا شرحها لهم وما حوت من العقائد .

ومن الأحاديث الموضوعة المكذوبة في هذا الموضوع أيضاً : ما رواه ابن حبان في كتاب « المجروحين » (٢/ ٢٦٤) عن ابن عمر مرفوعاً :

« إذا كان آخر الزمان واختلفت الأهواء فعليكم بدين أهل البادية والنساء » .

قال الصغَّاني « موضوع » [انظر« فيض القدير » (١/ ٤٢٤) و « المقاصد الحسنة » للحافظ السخاوي ص (٢٩٠)] .

قلت : وأورده شيخنا المحدث عبد العزيز ابن الصديق في كتابه « التهاني في التعقب على موضوعات الصغاني » ص (٥٥) وقال : « وهو واهٍ أيضاً » .

وقد ذكر الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٩/ ١١٩) في ترجمة أبي المظفر السمعاني ما نصه :

« وقال أبو سعد : سمعت أبا الأسعد ابن القشيري يقول : سئل جدّك بحضور والدي عن أحاديث الصفات فقال : عليكم بدين العجائز » .

قلت : مراده إن صح هذا أنه أَمَرَ عامياً أن يكون في عقيدته كإيمان العجائز من حيث عدم تزلزل يقينه بتنزيه الله تعالى بأحاديث آحاد يوهم ظاهرها عند مَنْ يحاول فهمها بغير لغة العرب التشبيه والتجسيم لا من حيث أن للعجائز ديناً خاصًّا بهم !!

وقد أعجبني ما قاله المعلّق على هذه العبارة في « السير » حيث قال هناك :

[ويستبعد صدور مثل هذا عن مثل هذا الإمام الذي أَلَّفَ التآليف المتعددة في العقائد والعبادات والمعاملات ، وكلها مقرونة بالأدلة والحجج والبينات ، اللهم إلا إذا قالها في حالة ضعف وذهول ، وفي مثل هذه الحالة لا يعتد بما يقوله صاحبها المتلبس بها ، وكيف ينصح مُسَائليه بأن يلزموا دين العجائز ، والله سبحانه يحثنا في غير ما آية من كتابه على النظر والاستدلال ، والأئمة المجتهدون اتفقوا على وجوب الاهتداء بالقرآن ، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، وعلى المنع من التقليد الذي يَصُدُّ عنهما ، ويقتضي هجرانهما ، ولم يجعلوا أنفسهم شارعين يطاعون ، وإنما كانوا أدلاء للناس لعلهم يهتدون ، والذي يعرفه كل واقف على تاريخ الصدر الأول من المسلمين ، هو أن أهل القرنين الأول والثاني لم يكونوا يقلدون أحداً ، أي لم يكونوا يأخذون بآراء الناس وأقوال العلماء ، بل كان العامي منهم على بينة من دينه يعرف من أين جاءت كل مسألة يعمل بها من مسائله ، إذ كان علماء الصدر الأول يلقنون الناس الإسلام ببيان كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان الجاهل بالشيء يَسْأل عن حكم الله فيه ، فيجاب بأن الله تعالى قال كذا ، أو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال كذا ، أو فعل كذا ، أو أقرَّ على كذا ، فإن لم يكن عند المسؤول فيه هدي من كتاب أو سنة ذكر ما جرى عليه الصالحون ، وما يراه أشبه بما جاء في هذا الهدي ، أو أحال على غيره ممن هو أعلم منه ، وأقرب الناس إلى معرفة الحق في المطالب العالية هو الباحث المستقل الذي يسترشدُ بالطريقة التي وردت في القرآن ، وجاءت إلى لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم] .

الدليل الثالث الموهوم   فهم السلف

يَدّعي بعض الناس بأنه يجب فهم الكتاب والسنة بفهم السلف وهم بذلك يعتبرون فهم السلف من الأدلة الشرعية الواجب اتّباعها وقولهم هذا يتضمّن مغالطتين :

الأولى : أن السلف غير متفقين في فهم المسائل فليس لهم مذهب موحّد معروف حتى يصح أن يقال مذهب السلف أو فهم السلف أو يجب فهم الأمور بفهم السلف ، وستمر بعد قليل إن شاء الله تعالى أمثلة في اختلاف السلف في مسائل عقائدية وغير عقائدية في فصل خاص وبالله تعالى التوفيق .

وهؤلاء الذين يَدْعون الناس إلى فهم السلف نراهم ينافرون فهم الأئمة الأربعة للمسائل الشرعية وَيَحُثُّون إما على تقليدهم في فهمهم للأمور أو على فهم أناس بعد القرون الثلاثة المسماة بقرون السلف !!

والمغالطة الثانية : أنه ليس في الكتاب والسنة دليل يفيد أنه يجب تعطيل العقول التي وَهَبَنَا الله سبحانه وتعالى إياها وفهم الكتاب والسنة بفهم غيرنا ما دام أن المرء وصل درجة الفهم والاجتهاد !!

بل نقول لهؤلاء : إن النصوص الشرعية تخاطبنا مباشرة لنفهم أوامر الله تعالى ونواهيه دون تحريف أو لَيٍّ لها ، فقول الله تعالى في آيات كثيرة مثلاً ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ عام يشمل السلف والخلف والمتقدّم والمتأخّر إلى قيام الساعة .

بل يقطع الشغب في هذه المسألة قوله تعالى ﴿ **ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ هو صريح بأن علم أو فهم أهل الاستنباط وهم المجتهدون في كل عصر ومِصْر مُعْتَبَرٌ ، ولم يُخَصَّ ذلك

بالسلف ، حيث لم يَقُلْ بأن أهل الاستنباط من السلف هم الذين يَعْلَمُون الأحكام ويفهمونها دون غيرهم من الخلف ، وفي هذا دليل واضح على هدم الاستدلال بفهم السلف وجعله أحد الأدلة الشرعية ، بل الصواب أن يقال : إن فهم المجتهدين سواء كانوا من الخلف أو من السلف معتبر شرعاً بالنسبة للعامي الذي لم يتأهل لفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وإجماع هؤلاء المجتهدين في أي عصر من العصور سواء في زمن السلف أم الخلف هو المعتبر شرعاً وهو من الأدلة الشرعية ، وما سوى ذلك هَذَيان !!

ثم إن الله تعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ **فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول** ﴾ النساء : ٥٩ ولم يقل ردّوه إلى فهم السلف له !!

ويؤيد هذا ما جاء في « صحيح البخاري » (٢٠٤/١) وغيره عن أبي جحيفة قال : قلت لعليّ (رضوان الله عليه) هل عندكم كتاب ؟ قال : « لا إلا كتاب الله أو **فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رجل مسلم** ... » .

قلت : ولم يقيد ذلك بالسلف فلم يقل إلا فهم السلف للكتاب والسنة !! بل قال : « فَهْمٌ أُعْطِيه رجل مسلم » وهذا يعم المسلمين في كل عصر ومصر ولا يختص بالسلف !! فمن تأهّل للفهم كان له ذلك وليس لأحد أن يلزمه بفهم السلف !! ونعتقد أن القائلين بوجوب اتباع فهم السلف متخابطون متناقضون في هذه المسألة ! فقد جاء في الحديث الصحيح « مَثَلُ أُمَّتي مَثَلُ المَطَر ، لا يُدْرَى أوَّلُهُ خيرٌ أم آخِرُهُ »(١٦٠) فهذا كما ترى فيه تصريح بأن للخَلَفِ فضلاً أيضاً كما للسلف !

وقال الحافظ ابن الجوزي في « دفع شبه التشبيه » ص (١١١) : « وقد سئل الإمام أحمد عن مسألة فأفتى فيها فقيل له : هذا لا يقول به ابن المبارك ، فقال : ابن

---

(١٦٠) رواه أحمد (٣/ ١٣٠) والترمذي (٥/ ١٥٢ برقم ٢٨٦٩) وقال : « حسن غريب من هذا الوجه » ، قال السيد الحافظ أحمد الغماري في « فتح الوهاب » (٢/ ٣٣٥) : « وقال الحافظ في الفتح : هذا حديث حسن ، له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة » انظرالفتح (٧/ ٦) وهناك الجمع مع باقي الأحاديث في هذا الموضوع .

المبارك لم ينزل من السماء » !!

قلت : أي أن فهم السلف ليس بحجة يلزمنا العمل بها بنظره [١٦١] !!

فصل

في بيان أنه ليس هناك مذهباً يسمى مذهب السلف

لقد ذكرنا في بعض كتبنا بتوسّع بأن بعض الناس في هذا العصر يدّعون بأن الذي يقولونه من آراء وأقوال هو مذهب السلف تمويهاً على العامة والبسطاء ليروّجوا عليهم ما يريدون من أقوال وآراء مخطئة !! وقد ادّعى هؤلاء وخاصة المجسمة والمشبهة منهم بأن ما يقولونه هو مذهب السلف !! وادّعى هؤلاء المشبهة والمجسمة أن فهمهم للمسائل هو مذهب السلف وهو المرجع الشرعي الذي لا يجوز العدول عنه !! وهم في الواقع قد عدلوا عن الصراط المستقيم ، والطريق السوي القويم ، لأنهم تركوا الكتاب والسنة وفهم العرب لهما وراءهم ظِهْرياً ، مع اعتمادهم على سراب بقيعة اخترعوه للتمويه ، واعتمدوه للخداع والتشويه ، لا وجود له في الواقع البتة بل هو خيال قائم في أذهانهم ويموّهون به على البسطاء من غيرهم (وهو قولهم : هذا مذهب السلف) !!

---

[١٦١] ومن الغريب العجيب أن نجد هؤلاء الذين يتظاهرون بالدعوة إلى مذهب السلف وإلى فهم السلف يتخابطون ويتناقضون في هذه القضية جداً ، ومن ذلك أننا نقرأ على أغلفةِ كُتُبِ كثيرٍ منهم وخاصة الشيخ المتناقض !! أن من أُسس دعوتهم « فهم الكتاب والسنة بفهم السلف » وبعضهم يقول « على النهج الذي كان عليه السلف » ثم نجد أحدهم وهو من مريدي !! وتلاميذ ! الشيخ المتناقض !! يناقض ذلك فيقول في رسالة له أسماها « الإنصاف في أحكام الاعتكاف » ص (٣٥ طبع المكتبة الإسلامية عمان ـ الأردن الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧ هـ) : ما نصه : « زد على ذلك أننا لسنا متعبدين بفهم أحد كائناً من كان سواء أكان ابن مسعود (الصحابي) أم غيره إنما نحن تعبدنا بنص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الثابت عنه » !!

فياللعجب !! وياللتناقض !!

فهذا الإمام أحمد يقول وقد سئل عن مسألة فأفتى فيها كما تقدم ، فقيل له : هذا لا يقول به ابن المبارك . فقال : ابن المبارك لم ينزل من السماء (١٦٢) . مع أنَّ ابن المبارك سلف للإمام أحمد . وهذا الإمام أبوحنيفة قبل أحمد يقول : ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعلى الرأس والعين ، وما جاء عن الصحابة اخترنا ، وما كان من غير ذلك فهم رجال ونحن رجال .

وسنضرب الآن إن شاء الله تعالى أمثلة نبين فيها اختلاف السلف في مسائل عقائدية وأمور مذكورة في كتب التوحيد تدل دلالة واضحة على نسف برهان المجسمة الذي اعتمدوه ، ودك دليلهم الذي انتحلوه ، مع أن السلف نصوا على بطلانه .

والعجب العجاب أن هؤلاء المجسمة ــ مع ادّعائهم بأن الذي يقولونه هو مذهب السلف وأنه مُتَّفَقٌ ومجمع عليه بين الأمة ـ نجدهم هم أنفسهم قد اختلفوا في أصول الدين !! وتباينوا في أسس التوحيد المبين !! فكيف يدّعون اتفاق السلف في المسائل التوحيدية ؟! وهم مختلفون فيها بآرائهم التناقضية !! وأقوالهم التعاكسية !! كما بَيَّنْتُ بعض نماذج من ذلك في كتابي المسمى بـ « **البِشارة والإتحاف** » بما بينهم من الخلاف ، ويكفي هذا على إثبات أنه ليس هناك وجود لما زعموه من مذهب السلف ، الذي ادّعاه هؤلاء المشبهة من الخلف ، وها نحن ذا نذكر نماذج من اختلاف السلف في مسائل عقائدية (١٦٣) فنقول :

المثال الأول في اختلاف السلف في العقائد : اختلاف السلف في مسألة خلق القرآن :

قال الحافظ ابن عبد البر في كتابه « الانتقاء » ص (١٠٦) عن الإمام الحافظ الكَرَابيسي ما نصه بعدما أثنى عليه : « وكانت بينه وبين أحمد بن حنبل صداقة وكيدة ، فلمّا خالفه في القرآن عادت تلك الصداقة عداوة ، فكان كل منهما يطعن

---

(١٦٢) ذكرها الإمام الحافظ ابن الجوزي رحمه الله تعالى في « دفع شبه التشبيه » ص (١١١) .

(١٦٣) وقد ذكر بعض تلك المسائل ابن تيمية الحراني في مجموع فتاواه (٢٠/ ٣٣-٣٧) فارجع إليها واقرأها بتمعن !!

على صاحبه ، وذلك أن أحمد بن حنبل كان يقول : من قال القرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال : القرآن كلام الله ولا يقول غير مخلوق ولا مخلوق فهو واقفي ، ومن قال لفظي في القرآن مخلوق فهو مبتدع [(١٦٤)] .

وكان الكرابيسي ، وعبدالله بن كُلاَّب ، وأبو ثور ، وداود بن علي ، والبخاري ، والحارث بن أسد المحاسبي ، ومحمد بن نصر المروزي ، وطبقاتهم يقولون : إن القرآن الذي تكلّم الله به صفة من صفاته ، لا يجوز عليه الخلق ، وإن تلاوة التالي وكلامه بالقرآن **كسبٌ له** وفعلٌ له وذلك مخلوق ، وإنه حكاية عن كلام الله ، وليس هو القرآن الذي تكلّم الله به ، وشبّهوه بالحمد والشكر لله ، وهو غير الله ، فكما يؤجر في الحمد والشكر والتهليل والتكبير فكذلك يؤجر في التلاوة » .

وقال الحافظ الذهبي في ترجمة الكرابيسي في « السير » (١٢/ ٨٠) : « **وهو أوّل مَن فتق اللفظ** » وقال في آخر الترجمة :

« **ولا ريب أن ما ابتدعه الكرابيسي وحرّره في مسألة التلفظ وأنه مخلوق هو حق** » .

قلت : وعلى ذلك الحق مشى البخاري ومسلم والأئمة كما تقدّم ، أما البخاري فقد تقدّم ذكره في كلام الأئمة ومنهم الحافظ ابن عبد البر ، وأما الإمام مسلم فقد قال الذهبي في ترجمته في « السير » (١٢/ ٥٧٢) :

« **كان مسلم بن الحجاج يُظهر القول باللفظ ولا يكتمه** » .

فمن تأمّل في هذه المسألة المشهورة المتداولة المعروفة عرف أن هؤلاء الأئمة الأعلام الذين خالفوا أحمد والذهلي وأبا زُرعة وأبا حاتم وهم : البخاري ومسلم والكرابيسي وابن كُلاّب وأبو ثور وداود بن علي والحارث بن أسد المحاسبي ومحمد بن نصر المروزي وطبقاتهم كانوا مختلفين في مسألة من مسائل العقيدة تتعلّق بكلام رب العالمين سبحانه وهم من السلف وقد اختلفت أفهام السلف في هذه

---

(١٦٤) وفي بعض الروايات كَفَّرَ أَحْمَدُ بن حنبل مَنْ قال : لفظي بالقرآن مخلوق ، كما تجد ذلك في كثير من المراجع .

المسألة وفهموها أفهاماً متضاربة متعاكسة ، فبأي فهم من هذه الفهوم نأخذ ؟! وبأي رأي من هذه الآراء نتمسك ؟!

الجواب : لا بد أن نترك هذه الأفهام ونرجع إلى الكتاب والسنة واللغة العربية ونستعمل عقولنا لنفهم ونتدبّر الأمر فسيتضح لنا ساعتئذٍ الصواب ، فنعرف آنذاك من أصاب ومن أخطأ فالرجوع حقيقةً لفهمنا لا لفهم السلف ، وهذا هو التحقيق بالنسبة لأهل العلم ولطلاب العلم المُجدِّين ، أما العامة فليس كلامنا ههنا يتعلّق بهم لأنهم ليسوا أهلاً للنظر .

المثال الثاني في اختلاف السلف في العقائد : اختلافهم في رؤية سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لله تعالى ليلة الإسراء وقد وقع الخلاف فيها بين السيدة عائشة وابن عباس رضي الله عنهما وغيرهما كما سيأتي مُبَيَّناً في بابه من هذا الشرح .

المثال الثالث في اختلاف السلف في العقائد : اختلافهم في مسألة رؤية الله يوم القيامة :

ذهب جمهور أهل السنة إلى إثبات الرؤية يوم القيامة وخالفهم في ذلك جماعة من أهل السنة والجماعة كالسيدة عائشة ومجاهد وأبو صالح السمان وعكرمة والإمام بشر بن السري الأفواه وغيرهم وكذا المعتزلة واحتجوا بقول الله تعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ .

أما السيدة عائشة فقد روى البخاري (٨/ ٦٠٦) ومسلم (١/ ١٥٩) أنها رَدَّتْ على مَنْ قال إن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رأى ربه بعموم قوله تعالى ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ وعموم قوله تعالى ﴿ **وما كان لبشر أن يُكَلِّمَهُ الله إلا وحياً أو من وراء حجاب** ﴾ وما قيده بعض الناس من قولهم إنما أرادت نفي الرؤية في الدنيا لا في الآخرة فلا دليل عليه .

وأما مجاهد وأبو صالح السمان تلميذ سيدنا أبي هريرة رضي الله تعالى عنه فقد روى ذلك عنهما الحافظ ابن جرير الطبري في تفسيره (١٤/ ٢٠/ ١٩٢ ـ ١٩٣) بأسانيد صحيحة ، وصححه الحافظ في « الفتح » (١٣/ ٤٢٥) وقال هناك : « وقد

أخرج عبد بن حميد عن عكرمة من وجه آخر إنكار الرؤية » .

وأما الإمام بشر بن السري وهو من رجال الستة فتجد ذلك في ترجمته في « التهذيب » (١/ ٣٩٤) ، وأما المعتزلة فهم إحدى فرق المسلمين منذ عهد السلف وهم يقولون بذلك أيضاً ولا يحتاج ذلك لبرهان . وكذا قال بمنع الرؤية السادة الإباضية والإمامية والزيدية(١٦٥) .

وقال ابن تيمية الحراني في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٤) : « وكما نقل عن بعض التابعين أن الله لا يُرَى وفسَّروا قوله ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ بأنها تنتظر ثواب ربها ، كما نُقِل عن مجاهد وأبي صالح » .

المثال الرابع على اختلاف السلف في العقائد : مسألة الميزان يوم القيامة :

قال الحافظ أبوحيان في تفسيره « البحر المحيط » (٥/ ١٤) :

« واختلفوا هل ثَمَّ وزنٌ وميزان حقيقة ؟! أم ذلك عبارة عن إظهار العدل التام والقضاء السوي والحساب المحرر ؟ فذهبت المعتزلة إلى إنكار الميزان **وتقدمهم إلى هذا مجاهد والضحاك والأعمش وغيرهم** ، وعبَّر بالثقل عن كثرة الحسنات وبالخفة عن قِلَّتها » .

وقال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١٣/ ٥٣٨) :

« **وقد ذهب بعض السلف إلى أن الميزان بمعنى العدل والقضاء** » .

فتأمَّل جيداً في هذا الاختلاف العقائدي عند السلف !!!

المثال الخامس على اختلاف السلف في العقائد : اختلافهم في مسألة التأويل والتفويض :

وقع خلاف بين السلف في نصوص الصفات فبعضهم أوّلها كسيدنا ابن عباس ومجاهد وغيرهما وبعضهم فوّضها وأَمَرَّها كما جاءت من غير تعرّض لمعناها مع اعتقاد التنزيه كما مرَّ في الكلام على التأويل والتفويض في موضعهما من هذا الشرح .

---

(١٦٥) لنا رسالة خاصة في مسألة الرؤية وتخريج الأحاديث الواردة فيها فلتراجع !

المثال السادس على اختلاف السلف في العقائد : اختلافهم في الإرجاء :

قال الحافظ الذهبي في ترجمة عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي روّاد في « سير أعلام النبلاء » (٩/ ٤٣٤) :

« العالم القدوة الحافظ الصادق شيخ الحرم » وهو من مشايخ أحمد بن حنبل وغيره ، قال الذهبي : « وكان من المرجئة ومع هذا فوثَّقه أحمد وابن مَعِين ، قال أحمد : كان فيه غلوٌّ في الإرجاء ، يقول : هؤلاء الشكاك ، يريد قول العلماء : أنا مؤمن إن شاء الله » .

قال الذهبي : « وقد كان على الإرجاء عدد كثير من علماء الأمة ، فهلا عُدَّ مذهباً » أي من مذاهب السلف في العقائد .

وهذا واضح لا يحتاج لبيان أكثر من هذا إلا إذا استدعى المقام .

المثال السابع في اختلاف السلف في العقائد : اختلافهم في مسألة الخروج على الأئمة :

ذكر الإمام الطحاوي وهو من السلف في عقيدته أنه لا يرى الخروج حيث قال : « ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أُمورنا وإن جاروا » .

وردَّ ذلك ابن حزم في « الفِصَل » (٤/ ١٧٥) وقال صحيفة (١٧١) في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

« وذهبت طوائف من أهل السنة وجميع المعتزلة وجميع الخوارج والزيدية إلى أن سلَّ السيوف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر **واجب** إذا لم يكن دفع المنكر إلا بذلك ، قالوا : فإذا كان أهل الحق في عصابة يمكنهم الدفع ولا ييأسون من الظفر ففرض عليهم ذلك : وإن كانوا في عدد لا يرجون لقلّتهم وضعفهم بظفر كانوا في سعة من ترك التغيير باليد ، وهذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكل مَن معه من الصحابة ، وقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وطلحة والزبير وكل مَن كان معهم من الصحابة .... ، وهو قول عبدالله بن الزبير ومحمد والحسين بن علي وبقية الصحابة من المهاجرين والأنصار القائمين يوم الحَرَّة رضي الله عن جميعهم أجمعين ، وقول كل من قام على الفاسق الحجاج ومن والاه

من الصحابة رضي الله عن جميعهم كأنس بن مالك وكل ممن ذكرنا من أفاضل التابعين كعبد الرحمن ابن أبي ليلى وسعيد بن جبير وابن البحتري الطائي وعطاء السلمي الأزدي والحسن البصري ومالك بن دينار .... » .

وذكر أسماء كثيرٍ من التابعين وأتباعهم ثم قال : « وهو الذي تدلُّ عليه أقوال الفقهاء كأبي حنيفة والحسن بن حَي وشريك ومالك والشافعي وداود وأصحابهم فإنَّ كل مَنْ ذكرنا من قديم وحديث إما ناطق بذلك في فتواه وإما فاعل لذلك بسلٍّ سيفه في إنكار ما رأوه منكراً » انتهى كلام ابن حزم من « الفِصَل » (٤/ ١٧٢) .

وقال ابن حزم قبل ذلك بصحيفة أن المخالفين لهذا المذهب هم « بعض أهل السنة من قدماء الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم وهو قول أحمد بن حنبل وغيره وهو قول سعد بن أبي وقاص وأسامه بن زيد وابن عمر ومحمد بن مسلمة وغيرهم ، ـ قالوا ـ : إن الغرض من ذلك إنما هو القلب فقط ولا بُدَّ ، وباللسان إن قدر على ذلك ، ولا يكون باليد ولا بسلِ السيوف ووضع السلاح أصلاً » .

وممن خرج من الأئمة داود بن حصين من رجال الستة كما في « السير » (٦/ ١٠٦) وقال ابن حبان : « كان يرى الخروج » ، وكذلك جاء في « السير » (٩/ ٣١٨) أن محمد بن عجلان خرج مع محمد بن عبد الله النفس الزكية ، وكذا الإمام المحدث عمران القطان كما في « السير » (٧/ ٢٨٠) وكذلك المحدث محمد بن راشد كما في « السير » (٧/ ٣٤٤) وغيرهم كثير وكثير .

فتأمل في هذا الخلاف السلفي لتتخذ لك منه رأياً وموقفاً ومذهباً كي لا تظل حائراً لا تدري بم تقول !!

المثال الثامن في اختلاف السلف في العقائد : اختلافهم في مَنْ هو أفضل الصحابة :

ذهب جماعة من السلف إلى أن سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه هو أفضل الصحابة وهذا مشهور لا يحتاج لدليل ، وذهب جماعة من الصحابة ومن بعدهم إلى أن سيدنا علياً رضي الله عنه أفضل الصحابة ، قال الإمام ابن عبدالبر في « الاستيعاب » (٣/ ٥٢) : « واختلف السلف أيضاً في تفضيل علي

وأبي بكر » .

وقد ذكر الحافظ ابن عبد البر في ترجمة سيدنا علي في « الاستيعاب » (٣/ ٢٧) بعض أسماء من كان يُقَدِّمُ سيدنا علياً على غيره من الصحابة رضي الله عنهم حيث قال :

« وروي عن سلمان وأبي ذر والمقداد وخباب وجابر وأبي سعيد الخدري وزيد بن أرقم أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه أوّل من أسلم وفضّله هؤلاء على غيره » .

وذكر في تراجم بعض الصحابة من غير هؤلاء أيضاً أنه كان يُفَضِّل سيدنا علياً على سيدنا أبي بكر ، ففي ترجمة أبي الطفيل من « الاستيعاب » (٣/ ١٥) : « كان محباً لعلي رضي الله عنه وكان من أصحابه في مشاهده وكان ثقة مأموناً يعترف بفضل الشيخين إلا أنه كان يُقَدِّمُ علياً » وكذا قال الحافظ ابن حجر في « الإصابة » (٤/ ١١٣) في ترجمة أبي الطفيل رضي الله عنه في الكنى .

وقد جمع أسماءهم شيخنا المحدّث العلامة عبد العزيز ابن الصِّدِّيق في رسالته الفذة « الباحث عن علل الطعن في الحارث » ص (١٤) حيث قال :

« الذين ذهبوا إلى تفضيل عليٍّ عليه السلام على جميع الصحابة أبي بكر فمن بعده ، منهم : سلمان الفارسي ، وأبوذر ، والمقداد ، وخباب ، وجابر ، وزيد ابن الأرقم ، وأبو الطفيل عامر بن واثلة ، وعمار بن ياسر ، وأُبي بن كعب ، وحذيفة ، وبريدة ، وأبو أيوب الأنصاري ، وسهل بن حُنَيْف ، وعثمان بن حنيف ، وأبو الهيثم بن التَّيهان ، وخزيمة بن ثابت ، وقيس بن سعد ، والعباس بن عبد المطلب ، وبنو هاشم كافة ، وبنو المطلب كافة ، وآخرون لا يحصون كثرة » .

قلت : ويمر ذكر كثير منهم أيضاً في كتب التراجم والرجال والجرح والتعديل وليس هذا محل سردهم جميعاً ، وقال أحمد بن حنبل وإسماعيل القاضي : « **لم يُرْوَ في فضل أحد من الصحابة ما روي في فضائل علي بن أبي طالب** » وكذلك قال الإمام النَّسائي ، كما ذكر ذلك الحافظ ابن عبد البر في « الاستيعاب » (٣/ ٥١) والحاكم في « المستدرك » (٣/ ١٠٧) عن أحمد بن حنبل .

وذهب جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم إلى أن أفضل الصحابة سيدنا جعفر الطيار أخو سيدنا علي بن أبي طالب عليهم السلام ومنهم : أبوهريرة ، فقد روى النَّسَائي في « السنن الكبرى » (٥/٤٧) بسند صحيح عن أبي هريرة أنه قال :

« ما احتذى النّعال ولا ركب الكور ولا ركب المطايا ولا وطىء التراب بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من جعفر ابن أبي طالب » .

قال الإمام الدميري في « حياة الحيوان » (١/ ١٩١) :

« قال ابن خَلَّكَان : كان يحيى بن يعمر تابعياً عالماً بالقرآن والنحو ، وكان شيعياً من الشيعة الأول ؛ يتشيع تشيعاً حسناً ، يقول بتفضيل أهل البيت من غير تنقيص لأحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم » .

ومن الصحابة من ذهب إلى أن أفضل الناس وأحبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السيدة فاطمة ابنته ومنهم سيدنا عمر رضي الله عنه ، فقد روى الحاكم في « المستدرك » (٣/ ١٥٥) بسندٍ صحيح أن سيدنا عمر قال للسيدة فاطمة عليها السلام(١٦٦) : « يا فاطمة والله ما رأيت أحداً أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منكِ ، والله ما كان أحد من الناس بعد أبيك صلى الله عليه وآله وسلم **أُحب إليَّ منكِ** »(١٦٧) .

---

(١٦٦) لفظة « عليها السلام » بعد ذكر السيدة فاطمة ولفظةُ « عليه السلام » بعد ذكر سيدنا علي أو سيدنا الحسن أو سيدنا الحسين رضي الله عنهم وأرضاهم من خصوصياتهم وخصوصيات آل البيت أي من المستحبات في حقهم ، ولذلك أدلة كثيرة جداً منها صيغ الصلاة (الصلاة الإبراهيمية وغيرها) المنقولة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ ويكفي أن أقول : إياك أخي القارئ أن تجبن عن النطق بهذه اللفظة لهؤلاء السادة وتهاب من أن يتهموك بالتشيّع ، فقد استعمل هذه اللفظة في حقهم رضي الله عنهم أعلام أهل السنة وأئمة الحديث كالبخاري في صحيحه (٧/ ٧١ و ٧٧ و١٠٥ وغير ذلك) والإمام أحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٥٦٣و٦٥٢و٦٦٢وغير ذلك) والحافظ ابن حجر في حق سيدنا علي (انظرمقدمة الفتح ص (٤٣٢) وفي حق السيدة فاطمة (٦/ ٥٥٢ الفتح) والدارقطني في سننه (٣/ ٦٥ و٦٦) وغيرهم كثير وكثير ، فتأمل !!

(١٦٧) وقد بينّتُ في كتابي « تناقضات الألباني الواضحات » (٢/ ٢٤٣ ــ ٢٥٦) محاولات الشيخ المتناقض ! في تضعيف هذا الأثر الصحيح الثابت وأبطلتها ، فالحمد لله تعالى .

وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى مُفَضِّلاً السيدة فاطمة رضي الله عنها على غيرها من الصحابة الكرام :

« لا أُفَضِّلُ على بضعة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحداً » . [انظر الحاوي للإمام السيوطي (٢/ ٢٩٤)] .

وفي « سير أعلام النبلاء » (٧/ ٢٤١) أن سفيان الثوري كان يثلث بعلي رضي الله عنه .

هذا ، واعلم أن هناك عدّة مسائل اختلف فيها السلف ومنهم من رجال الصحيحين في مسائل أخرى في الاعتقاد كمسألة القدر(١٦٨) ومسألة بغض معاوية وذويه وبني أمية وغيرها من المسائل ، وقد تباينت آراؤهم وأفهامهم فيها !!

والمقصود أن نبين بأن السلف وعلى رأسهم الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين اختلفوا في مسألة التفضيل هذه فلا يصح أن يقال ساعتئذٍ مذهب السلف في هذه المسألة كذا ، وقد أوردها كثير من العلماء ـ أعني مسألة التفضيل هذه ـ في كتب العقائد وفي ذلك دليل واضح على أنهم يعتبرونها من جملة العقائد وإن لم نعتبرها نحن من مسائل العقيدة لا سيما وقد ادّعى بعضهم الإجماع على أن أفضل الصحابة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين ، وقد رأيت أن الواقع هو اختلافهم في هذه القضية ، فأين مذهب السلف الآن من هذا الاختلاف(١٦٩) ؟!!

---

(١٦٨) ومن ذلك ما جاء في « سير أعلام النبلاء » (٦/ ٤١٤) كان سعيد بن أبي عروبة وقتادة يقولان بالقدر ويكتمان .

(١٦٩) [**فائدة**] : زعم الشيخ المتناقض !! أن من أصول دعوته التي دَوَّنها على ظهر مغلفاتِ كثيرٍ من كتبه هو : (فهم الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح) أو (على النهج الذي كان عليه السلف الصالح) ، وقد تبين لنا بطلان هذا الزعم ولسنا الآن بحاجة لتفنيده بعد ما بيناه من الأدلة التي تفيد فساده !! وإنما الذي يعنينا هنا أن نبين بأن هؤلاء المتمسلفين تناقضوا مع أنفسهم فيما ادّعوه !! حيث صرّحوا في مواضع أخرى بأنهم غير ملزمين بفهم السلف ولا بفهم الصحابة وخاصة عندما يعارض فهم السلف أفهامهم ، فهذا هو أشد مقلدي الشيخ المتناقض !! المتعصبين له !! يتخابط فيقول في كتابه « الإنصاف في أحكام الاعتكاف » ص (٣٥) [طبع المكتبة الإسلامية عمان ـ الأردن / الطبعة الأولى

وأختم هذا البحث بقول ابن تيمية الحراني في « مجموع الفتاوى » (١٢/ ٤٩٢) حيث يقول :

[وأيضاً فإن السلف أخطأ كثير منهم في كثير من هذه المسائل ، واتفقوا على عدم التكفير بذلك ! مثلما أنكر بعض الصحابة أن يكون الميت يسمع نداء الحي ، وأنكر بعضهم أن يكون المعراج يقظة ، وأنكر بعضهم رؤية محمد ربه(١٧٠) ، ولبعضهم في الخلافة والتفضيل كلام معروف ، وكذلك لبعضهم في قتال بعض ولعن بعض وإطلاق تكفير بعض أقوال معروفة] . فتأملوا !!

الدليل الرابع الموهوم القياس

لا يجوز استعمال القياس في العقيدة أي قياس الخالق على المخلوق لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ .

حتى أن سمع الله تعالى مثلاً ليس كسمعنا قطعاً لأن سمعنا بآلة وهي الأذن ومن خلال أمواج صوتيةٍ إلى غير ذلك وسمع الله وبصره سبحانه اتفق في الاسم واللفظ مع سمعنا واختلف في المعنى لأننا لا نستطيع أن ندرك ذات الله تعالى ولا صفاته بوجه من الوجوه فقياس الخالق على المخلوق باطل من جميع الوجوه حتى في صفة الوجود فقد اتفقت في الاسم واختلفت في المعنى لأننا نؤمن أن الله تعالى ليس جسماً ولا عَرَضاً (أي صفة) وهو غير مرتبط بزمان أو مكان بوجه من

سنة ١٤٠٧ هـ] : « زدْ على ذلك اننا لسنا متعبّدين بفهم أحدٍ كائناً من كان ، **سواء كان ابن مسعود أم غيره** ، إنما نحن تعبدنا بنص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الثابت عنه » .

ولاحظ أنهم يذكرون دائماً نص حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي يمكنهم أن يتلاعبوا فيه بالتصحيح والتضعيف ، ولا يذكرون القرآن الكريم الذي لا يمكنهم التلاعب فيه البتة !!

فيقال له الآن : وهل تعبدك بنص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون نصوص القرآن أم ماذا ؟!!

(١٧٠) لاحظوا كيف يعبر هذا الرجل عن سيد الخلق سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ! مجرداً من وصفه بالرسالة أو النبوة والصلاة !!

الوجوه كما سيأتي إن شاء الله تعالى موضحاً ، وإذا استعملنا هذا المعنى بالنسبة للمخلوقات وهي أن وجود الشيء بدون مكان ولا جهة ولا أَخْذِ حيز في الفراغ ولا له طول وعرض وعمق كان ذلك عدماً بالنسبة للمخلوق خلافاً للخالق الذي ليس كمثله شيء !!

فالقياس بالمعنى الذي أوضحناه فيما يتعلّق بذات الله تعالى أو صفاته باطل وفاسد فلا يعتبر دليلاً من أدلة العقيدة بل استعماله في مثل هذه الأمور محرّم بل يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله تعالى .

والقياس من الأمور الظنية والاجتهادية ومسائل العقيدة أعني أصولها وخاصة ما يتعلّق بذات الله سبحانه لا ظَنَّ ولا اجتهاد فيها ، لأن المطلوب في العقائد القطع ، والاجتهاد لا يفيد القطع وإنما يفيد الظن لاحتمال خطأ المجتهد ، ولأن الشرع دلّ على أن المجتهد إما مصيب له أجران وإما مخطئ له أجر واحد والعقيدة لا مجال للظن والخطأ فيها ، فتنبّه .

وهذا لا ينافي قول من قال : كما أن ذات الله تعالى لا كيف لها فكذلك صفاته لا كيف لها لأن هذا في الحقيقة ليس قياساً ولا هو تشبيه مخلوق بمخلوق وإنما ورد النص بذلك ، في مثل قوله تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ وهذا يشمل تنزيه الذات وما يسمى بالصفات (١٧١) عند جميع الأمة وكافة العقلاء وهو أمر مجمع عليه عند من يُعْتَدُّ به من العلماء .

وسيمر معنا إن شاء الله تعالى في هذا الكتاب أثناء الكلام في موضوع صفات الله تعالى بعض المسائل المتعلّقة بموضوع القياس في العقيدة وبيان من قال بذلك مع بيان بطلان كلامه .

ولا يفوتنا في هذا الموضع إلا أن نضرب ولو مثلاً واحداً على استعمال بعض مَن ينسب نفسه للعلم القياس الفاسد في العقيدة في موضوع يتعلّق بذات الله تعالى فنقول :

---

(١٧١) مع أننا نقول بأن الصفة ليست غير الذات ! ولا نقول لا هي الذات ولا غير الذات ؛ بل هي الذات نفسها !! وإنما نذكر هذا البيان للإيضاح !

قال ابن قيم الجوزية في كتابه « الصواعق المرسلة » (١/ ٢٥٠) بعدما ذكر آية ﴿ **يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله** ﴾ ما نصه :

[**السابع** : أن يقال هب أن القرآن دل ظاهره على إثبات جنب هو صفة فمن أين يدلُّ ظاهره أو باطنه على أنه جنب واحد وشق واحد ومعلوم أن إطلاق مثل هذا لا يدل على أنه شق واحد كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعمران ابن حصين : « صلّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب » . وهذا لا يدل على أنه ليس لعمران بن حصين إلا جنب واحد . فإن قيل : المراد على جنب من جنبيك ، قلنا : فقد علم أن ذكر الجنب مفرداً لا ينفي أن يكون معه غيره ولا يدل ظاهر اللفظ على ذلك بوجه .

ونظير هذا اللفظ القَدَمُ إذا ذكر مُفْرَدَاً لم يدل على أنه ليس لمن نسب إليه إلا قَدَمٌ واحد كما في الحديث الصحيح : « حتى يضع عليها رب العزة قَدَمَهُ » .

وفي الحديث : « أنا العاقب الذي يحشر الناس على قَدَمِي »] انتهى .

فانظر يرحمك الله تعالى كيف يقيس ربَّ العالمين في مسألة الجنب بعمران بن حصين !! فجعل ما ينطبق على عمران ينطبق على الله تعالى ، ثم انظر كيف أثبت بذلك وبطريق مُلْتوٍ أن لله جنبين ، وكذلك قاس المولى سبحانه وتعالى في مسألة القَدَمِ بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم !! فهذا مثل للقياس الفاسد في أبواب العقيدة المصادم لنصوص الكتاب والسنة ، لأَنّ المراد في الواقع بقوله تعالى ﴿ **يا حسرتى على ما فرّطت في جنب الله** ﴾ أي : في حق الله وأوامره ، وليس المراد من هذه الآية إثبات الجنب البتة بمقتضى اللسان العربي الذي نزل به القرآن ، وكذلك القَدَم ليس المراد من ذكرها إثبات الجارحة بل هي مؤولة كما ذكر الأئمة والمراد بها إن صَحَّ حديث وضع القَدَم مَنْ يُقَدِّمُهُم الله سبحانه للنار من الكفار والملحدين وهذا مثل قوله تعالى ﴿ **لهم قدم صدق عند ربهم** ﴾ فلا يراد بذلك إثبات الجارحة ولا الكلام عليها ولا إرادتها والله الموفق .

ثم إنَّ ممن استعمل القياس في هذا الباب وقاس الخالق على المخلوق عثمان ابن سعيد الدرامي المجسم المشهور (المتوفى سنة ٢٨٠ هـ) ـ وليس هذا صاحب السنن ـ الذي

يلقبه بعض العلماء ممن لا يعرف حاله بالإمام الحافظ ، وذلك أنه قال في كتابه الذي ردَّ به على بشر المريسي ص (٢٠) ما نصه : « لأن الحي القيوم يفعل ما يشاء ويتحرك إذا شاء وينزل ويرتفع إذا شاء ، ويقبض ويبسط ويقوم ويجلس إذا شاء **لأن أمارة ما بين الحي والميت التحرك . كل حي متحرك لا محالة ، وكل ميت غير متحرّك لا محالة** » انتهى !!!!

وأقول : انظروا كيف قاس الخالق على المخلوق فلما كان كُلُ حَيٍّ عنده في المخلوقات التي يراها متحركاً والميت غير متحرّكٍ ، وصف الله تعالى لأنه حيٌّ بأنه متحرك !!! وفات هذا الرجل أيضاً أن بعض الأشياء الغير حية تتحرك كالكواكب والإلكترونات في الذرة والماء الذي يتحرك في السيول والأنهار والسحاب وغير ذلك ، لكن ذهن هذا الرجل قاصر جداً !! ولذلك استعمل القياس في العقيدة وبخاصة في ذات الله تعالى فأخطأ خطأ فاحشاً !! وتعالى الله عما يقول فإنه سبحانه لا يوصف بحركة ولا بسكون إذ ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ و ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون** ﴾ !!

وممن استعمل القياس الفاسد أيضاً في هذه البابة ابن تيمية الحراني الذي يقول في العقيدة « الصفدية » ص (١١٧) :

[فكل كمال ثبت للمخلوق فالخالق أولى به وكل نقص ينزه عنه مخلوق فالخالق أولى أن ينزه عنه][١٧٢] .

ومن القياس الباطل أيضاً ما يستعمله بعض المتكلمين من قياس صفات المخلوق المُحْدَث على الخالق القديم الذي ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ، حيث يقيسون وهم لا يشعرون أو يشعرون فيتعامون ، ومنها تطبيق تعريفهم للصفات التي يفهمونها في أنفسهم وفي المخلوقات المحدَثة على الخالق سبحانه في مثل صفة القدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والعلم ومنه قولهم أن ذات الله تعالى محل تقوم بها الصفات تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

---

(١٧٢) مع أنه متناقض في هذه القواعد والأسس التي يبرمها ! فإنه يقول في « مجموع الفتاوى » أيضاً (٦/ ٨٧) : [ولهذا كان من الكمالات ما هو كمال للمخلوق وهو نقص بالنسبة الى الخالق] .

فتلك التعريفات التي يعرفون بها حقائق صفات الله تعالى كتعريف العلم بالانكشاف وغير ذلك هي أمور من باب القياس الخطأ في العقائد لأن ما نفهمه من صفات المخلوقات والمحدثات وما ندركه لا يصح أن يطبق من باب القياس على الله تعالى .

وبذلك اتضح لنا فساد مذهب من أخذ يستعمل القياس في العقائد ، والحمد لله رب العالمين .

الدليل الخامس الموهوم : الاستدلال بالكتب السماوية المحرفة :

لا يجوز بوجه من الوجوه الاستدلال بالكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل لأنه قد دخلها التحريف والتبديل ، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ **قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين** ﴾ وقال الله تعالى في وصف أهل الكتاب ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون** ﴾ البقرة : ٧٥ وقال تعالى : ﴿ **قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً** ﴾ الأنعام : ٩١ .

وروى أحمد في مسنده (٣/ ٣٨٧) وغيره عن سيدنا جابر بن عبد الله : أن عمر بن الخطاب أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب (فرآه)(١٧٣) النبي صلى الله عليه وآله وسلم فغضب فقال : « أمتهوّكون(١٧٤) فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدّقوا به . والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتّبعني »(١٧٥) .

---

(١٧٣) في الأصل (فقرأه) وهي مُصَحَّفَةٌ والصواب (فرآه) كما أثبتناه . وقوله قبله (أهل الكتاب) وقعت في المسند (أهل الكتب) والصواب ما أثبتناه والله تعالى أعلم .

(١٧٤) المتهوّك : الأحمق أو الحائر .

(١٧٥) الظاهر أن الحديث حسن ، قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١٣/ ٥٢٥) : « وفي سنده مجالد بن سعيد وهو لين » وقال الحافظ الهيثمي في « المجمع » (١/ ١٨٢) عن هذه القصة بلفظ قريب مما

وروى البخاري (٥/ ٢٩١) عن سيدنا عبدالله بن عباس أنه قال :

« يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أحدث الأخبار بالله تقرأونه لم يُشَبْ ؟! وقد حدّثكم الله أن أهل الكتاب بدّلوا ما كتب الله فقالوا ﴿ **هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً** ﴾ أفلا ينهاكم بما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ؟ ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم » .

فلهذه الأدلة الواضحة لا يجوز الاحتجاج بالكتب السابقة (التوراة والإنجيل ولا بغيرهما) ولا بالإسرائيليات في مسائل الاعتقاد خاصة وفي غيرها عامة .

ومن أمثال من احتج بذلك المُشَبِّهُ صاحبُ كتابِ « عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن » الذي حاول فيه أن يثبت الصورة لله تعالى ويغالط في ذلك حيث قال ص (٧٦) : « وأيضاً فهذا المعنى عند أهل الكتاب من الكتب المأثورة عن الأنبياء كالتوراة ، فإن في السِّفْر الأول منها : (سنخلق بشراً على صورتنا يشبهها) ... » انتهى !!!

ذكرناه : « رواه أبويعلى وفيه عبدالرحمن بن إسحاق الواسطي ضعّفه أحمد وجماعة » وهذا المعنى له شواهد .

مباحث

الإلهيات

فصل

الإيمان بالله عز وجل

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(إن الله واحد لا شريك له ، ولا إله غيره) .

الشرح :

اعلم يرحمك الله تعالى أن الإيمان بالله تعالى هو أساس علم التوحيد ، وهو يشمل الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى ، والإيمان بصفاته ، ومعرفة ما يجوز في حقه وما يجب وما يستحيل ، كقولنا مثلاً يجب في حق الباري سبحانه وتعالى القِدَمُ ، ويجوز في حقه خلق هذا العالَم بما فيه ، ويستحيل في حقه الزوجة والولد والشريك .

فلا بُدَّ لنا إذا أردنا أن نتكلّم في هذا المبحث المهم أن نتكلّم أولاً على النقطة الأولى في موضوع الإيمان بالله تعالى وهي الإيمان بوجوده ونجلب لذلك دليلاً عقلياً حتى نبرهن عليه ، ونستطيع بذلك إثبات وجوده ونجلب لذلك دليلاً عقلياً حتى نبرهن عليه ، ونستطيع بذلك إثبات وجوده سبحانه للملحد والكافر الذي لا يؤمن بالله العظيم ، ثم نذكر ما يصح وصفه سبحانه به من أنه قديم باق مخالف للحوادث واحد قادر مريد عالم حي سميع بصير وغير ذلك .

فنقول وبالله التوفيق :

وجوب النظر والتَّفكُّرِ وهما من أسباب الإيمان وزيادة اليقين

لقد أمر الله تعالى بالنظر والتفكر في هذا الكون وهذه المخلوقات على اختلاف أجناسها وأصنافها وأفرادها في آيات كثيرة في القرآن الكريم ، من ذلك قوله تعالى ﴿ **فلينظر الإنسان ممَّ خُلِقَ * خُلِقَ من ماءٍ دافق * يخرج من بين الصُلْبِ والترائب**

﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ الطارق : ٨ ، وسنورد دليلاً عقلياً على وجوده سبحانه وتعالى في معنى هذه الآيات الكريمة التي تأمر الإنسان بالتفكر : كيف خُلِقَ ، ومِمَّ أوجد ، وكيف تكوّن وصار بشراً سوياً إن شاء الله تعالى .

وقال تعالى : **﴿ قُتِلَ الإنسان ما أكْفَرَهُ * من أيِّ شيءٍ خَلَقَه * من نطفةٍ خلقَهُ فقدَّره * ثم السبيل يسَّره * ثم أماته فأقبره * ثم إذا شاء أنشره * كلا لَمَّا يقضِ ما أمره * فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صَبّاً * ثم شققنا الأرض شقاً * فأنبتنا فيها حباً * وعنباً وقضباً * وزيتوناً ونخلاً * وحدائق غُلْباً * وفاكهة وأبّاً * متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾** عبس : ٣٢ .

وقال تعالى : **﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت ﴾** الغاشية : ٢٠ .

وقال تعالى : **﴿ أَفَلَمْ ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بَنَيْنَاها وزيناها وما لها من فُرُوج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾** سورة ق : ٨ .

والآيات في ذلك كثيرة جداً وهذا غيض من فيض ، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم(١٧٦) قبل أن يُبعث بقليل يذهب إلى غار حراء يجلس متفكراً متحنّثاً ناظراً متأمّلاً في ملكوت السموات والأرض حتى جاءه الوحي وأكرمه الله بالنبوّة والرسالة .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم قد حُبِّبَ إليه الخلاء ، أي الخلوة ، والسر في ذلك أن الخلوة فيها ابتعاد عن الناس والمشاغل الدنيوية ، وخاصة لمن فارق أهله وبلده وذلك من أقوى أسباب تفرّغ القلب للتفكّر في هذا الكون وأن له صانعاً وخالقاً قادراً وحكيماً ، وهو ما يقال له عند أهل الله : الأُنْسُ بالله تعالى .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى(١٧٧) : « والأظهر المختار أن التصديق يزيد

---

(١٧٦) كما جاء في صحيح البخاري (١/ ٢٢) وغيره .

(١٧٧) نقله عنه الحافظ ابن حجر ، انظر: « فتح الباري » (١/ ٤٦) و « شرح مسلم » للإمام النووي (١/ ١٤٨) .

وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة » انتهى .

فالإيمان الناتج عن نظر وتفكّر وتأمل وعلم وحجة وبرهان وقناعة هو الإيمان القوي ، وأما إيمان المقلّد الذي ترك كلَّ هذه الأمور التي أمر الشرع بها فإيمان ضعيف مهلهل ، ولذلك نجد الداخلَ في دين الإسلام في هذا العصر من الأوروبيين وغيرهم من الأعاجم أقوى إيماناً وأكثر التزاماً بشرائع الإسلام من كثير من أبناء المسلمين المفرّطين الذين انحصر همهم في المأكل والمشرب والوظيفة والمُرَتّب !! كما هو مشاهد وملموس ! ولا يستطيع أحد أن ينكره أو يجحده ! فينبغي للإنسان المسلم الذكي المتفتح ، والحريص على دينه وإيمانه ، أن لا يكون همه منحصراً في المأكل والمشرب والمنكح والمبيت ، إذ أن هذه الأشياء يُشارك الإنسان فيها البهائم ، فلا بد لصاحب العقل والبصيرة ، أن يتفكر في آيات الله تعالى التي خلقها في السماوات والأرض ليستدل بها على خالقها وموجدها ، فبذلك يكون إيمانه قوياً لا تزحزحه العواصف والرياح ، وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى التَفَكُّر في تلك الآيات ، كما قال الله تعالى :

﴿ إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ آل عمران : ١٨٩ وغيرها كثير في كتاب الله تعالى وكما قال أحد العلماء :

فإنْ نظرتَ في السموات العُلى   وما حَوتْ من الشيات والحُلى
وَسَقفِها المرفوع من غير عَمَدْ   والنَّيرات المُشْعرات بالأَمَدْ
وما حوته الأرضُ والبحارُ   أبصرتَ ما فيه النُّهى تحارُ
هذا وما قد غابَ عنّا أكثرُ   من البدائع التى لا تُحْصَرُ
فهل يكون الصُنْعُ دونَ فاعل   أو وضعه من غير جَعْل جاعل
كلا لقد أَفصحتِ الأَكوانُ   عن فعل رب ماله أعوانُ
مَنْ أذعنت لقهره الأملاكُ   وانتظمت في أمره الأَسلاكُ
وأشرقت بنوره الأحلاكُ   وَسَبَّحَتْ بحمده الأفلاكُ

الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه

وفيه مقامان :

(١) المقام الأول : وهو الأعلى(١٧٨) :

الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه ، وهذا مما منع منه حيث قيل : « تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله »(١٧٩) ، وذلك لأنَّ العقول تتحير فيه فلا يطيق مد البصر إليه أحد من الخلق حقيقة ، فلا يعرف الله على حقيقة إلا الله تعالى وحده . فالنظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل ، فالصواب إذن أنْ لا يُتَعَرَّض لمجاري الفكر في حقيقة ذات الله سبحانه وصفاته ، فإن أكثر العقول لا تحتمله ، بل القدر اليسير الذي صرّح به بعض العلماء هو : أنّ الله مُقَدَّسٌ عن المكان ، ومُنَزّه عن الأقطار والجهات ، وأنّه ليس داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه ، قد حَيَّر عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته ، بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم **إنه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورِجْل ويد وعين وعضو**(١٨٠) ، وأن يكون جسماً مُشخَّصاً له مقدار وحجم . فأنكروا هذا

---

(١٧٨) هذه القضية وما بعدها منقولة من كلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في « الإحياء » .

(١٧٩) رواه البيهقي في « الأسماء والصفات » ص (٢٨٣) عن ابن عباس موقوفاً ، وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٣/ ٢٨٣) : « موقوف وسنده جيد » وأخطأ المتناقض الذي صححه مرفوعاً !!

(١٨٠) وهذا يَرُدُّ على الأشعري وبعض من يسلك طريقته من الأشاعرة وعلى مثل القشيري في الرسالة حيث أثبتوا العين واليدين والوجه ونحوها تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ! ويبين أن مذهب الغزالي رحمه الله تعالى وكذا مذهب إمام الحرمين كما في « الإرشاد » بخلاف ما عليه الأشعري وبعض من يتابعه في إثبات العينين واليدين والوجه تعالى الله عن ذلك علواً ! وقد قال السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » (٥/ ١٩٢) في ترجمة إمام الحرمين : « **والإمام لا يتقيَّد لا بالأشعري** ولا بالشافعي ، لا سيما في البرهان ، وإنما يتكلم على حسب تأدية نظره واجتهاده ، **وربما خالف الأشعري** وأتى بعبارة عالية على عادة فصاحته ، تأدية نظره واجتهاده ، **فلا تحتمل المغاربة أن يقال مثلها في حق الأشعري** ، وقد حكينا كثيراً من ذلك في شرحنا على مختصر ابن الحاجب » .

وظنوا أنّ ذلك قدح في عظمة الله وجلاله ، حتى قال بعض الحمقى من العوام : **إنّ هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله ! لظن المسكين أنّ الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء . وهذا لأنّ الإنسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه ، فكل مالا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه ! نعم غايته أنْ يُقدِّر الإنسان نفسه جميل الصورة جالساً على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره ، فلا جرم غايته أنْ يقدر ذلك في حق الله ـ تعالى وتقدس ـ حتى يفهم العظمة .**

بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك ، وقال : كيف يكون خالقي أنقص مني ؟ أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زَمِناً(١٨١) لا يقدر على الطيران ؟ أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوِّري ؟ وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل ، وإنَّ الإنسان لجهول ظلوم كفار ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : **لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني ولكن أخبرهم عني بما يفهمون .**

ولّما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته خطراً من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أنْ لا يتعرض لمجاري الفكر فيه ، لكنا نعدل إلى :

(٢) (المقام الثاني) وهو : صفة الوجود

وهو النظر في أفعال ومجاري قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فإنها تدل عليه وعلى جلاله وكبريائه وتقدّسه وتعاليه ، وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته ، فينظرون إلى صفاته من آثار صفاته .

واعلم أنّ كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه ، وهو دال على وجوده ، كما قال أحدهم :

فواعجباً كيف يعصى الإله أمْ كيف يجحده الجاحدُ
وفي كلِّ شيء له آية تدل على أنه الواحدُ

فوجود الله تعالى أشهر من أنْ ندلَّ عليه كما قال القائل :

---

(١٨١) أي ضعيفاً : والزَمِنُ المريض الضعيف .

وليس يَصِحُّ في الأذهان شيءٌ   إذا احتاج النهارُ إلى دليل

فكل ذرة من ذرات هذا الوجود ، ناطقة بوجود الله تعالى ، بما فيها من العجائب والغرائب التي تُظهر حكمة الله تعالى وقدرته .

الأدلة العقلية على وجود الله تعالى :

أقرب آيات الله إليك الدالة على وجوده تعالى (نفسك) :

(فمن آياته تعالى) الإنسان المخلوق من النطفة ـ وأقرب شيء إليك نفسك ـ وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر معشاره وأنت غافل عنه . فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك ؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ الذاريات : ٢١ ، وذكر أنك مخلوق من نطفة فقال ﴿ **قُتِلَ الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدّره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره** ﴾ عبس : ١٧ ، وقال تعالى ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾ الروم : ٢٠ ، وقال تعالى ﴿ **ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى** ﴾ القيامة : ٣٧ ، وقال تعالى ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم** ﴾ المرسلات : ٢٠ ، وقال ﴿ **أوَلَمْ يَرَ الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين** ﴾ يس : ٧٧ ، وقال ﴿ **إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج** ﴾ الإنسان : ٢ ثم ذكر كيف يجعل النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاماً ، فقال تعالى ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ المؤمنون : ١٢ .

فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكير في معناه ، فانظرالآن إلى النطفة ـ وهي قطرة من الماء لو تركت ساعة ليضربها الهواء

لفسدت وأنتنت ـ كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الأُلفة والمحبة في قلوبهم ، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع ، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرَّحِم ؟

ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وكبر وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متساوية متشابهة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ؟ ثم كيف ركّب من اللحوم والأعصاب والعروق : الأعضاء الظاهرة ، فدوَّرَ الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ، ثم مد اليد والرجل وقسم رؤوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل ؟ ثم كيف ركّب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء ، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ! ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر ؛ فركب العين من سبع طبقات ، لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار ، فلو ذهبنا إلى نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات ، لانقضت فيه الأعمار .

فانظرالآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ، ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له ، ثم قدّرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومُصْمَتٌ وعريض ودقيق . ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه ، مفتقراً للتردد في حاجاته ، لم يجعل عظمه عظماً واحد بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة ، وقدّر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة منها ، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها ، فصار العبد إنْ أراد تحريك جزء

من بدنه لم يمتنع عليه ، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك .

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها ، وقد ركبها من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور ، فألَّفَ بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس ـ كما تراه ـ فمنها ستة تخص القحف ، وأربعة عشر لِلَّحْي الأعلى ، واثنان لَلَّحي الأسفل ، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا : ثم جعل الرقبة مركباً للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ، فيها تحريفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ـ ويطول ذكر وجه الحكمة فيها .

ثم ركّب الرقبة على الظهر ، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة ، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة ، فيتصل به من أسفله عظم العصعص وهو أيضاً مؤلف من ثلاثة أجزاء .

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلا نُطَوِّلُ بذكر عدد ذلك . ومجموع عدد العظام في بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظماً ، سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل المفاصل . فانظركيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة .

وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها ، فإنَّ هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرحون ، إنما الغرض أن ينظر منها في مُدّبرها وخالقها أنّه كيف قدّرها ودبّرها وخالف بين أشكالها وأقدارها ، وخصصها بهذا العدد المخصوص لأنّه لو زاد عليها واحد لكان وبالاً على الإنسان يحتاج إلى قلعه ، ولو نقص منها واحد لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره ، **فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها ، فشتان بين النظرين .**

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات فخلق في بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعاً وعشرين عضلة ـــ والعضلة مُرَكَّبة من لحم

وعصب ورباط وأغشية ـ وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها . فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين . وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص . وأمْرُ الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله ـ وشرحه يطول ـ فللفكر مجال في آحاد هذه الأجزاء ، ثم في جملة البدن ، فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم ، فانظرالآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة ما يقضي به العجب ، وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قذرة ، فترى مَنْ هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها ؟ فلا تظنن أنّ ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحِكَم بل هي أَحْكَمُ خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع للعجائب من بدن الإنسان . بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى ﴿ **أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها** ﴾ .

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أوّلاً وما صارت إليه ثانياً ، وتأمل في أنه لو اجتمع الجن والإنس على أنْ يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً أو يخلقوا فيها عظماً أو عِرْقاً أو عصباً أو جلداً أو شعراً هل يقدرون على ذلك ؟ بل لو أَرادوا أنْ يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه ، فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصوّر على حائط تأنق النقاش في تصويرها حتى قَرُبَ ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها : كأنّه إنسان ! عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك محله ، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالقدرة وبالعلم وبالإرادة . وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره ، وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب

مخصوص ، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه .

وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب ، ثم أخرجها منها وشكّلها فأحسن تشكيلها وقدّرها فأحسن تقديرها وتصويرها ، وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاءٍ مختلفة فأحكم العِظام في أرجائها وحَسّن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها ، وجعلها سميعة عالمة ناطقة . وخلق لها الظهر أساساً لبدنها والبطن حاوياً لآلآت غذائها والرأس جامعاً لحواسها ، ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها ، ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها ؛ ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها . ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مُرًّاً ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوّطها بصدفة الأُذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ولتحس بدبيب الهوام إليها ، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة في حال النوم .

ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله ، وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروايح على مطاعمه وأغذيته ، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه . وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً وترجماناً ومُعْرِباً عما في القلب . وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أُصولها وحدَّد رؤوسها وبيض لونها ، ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم . وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام . وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت وخلق للّسان قدرة الحركات والتقطيعات ليقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها . ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر ، حتى اختلفت بسببها الأصوات ، فلا يتشابه صوتان ،

بل يظهر بين كل صوتين فرقاً حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة ، ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ ، وزين الوجه باللحية والحاجبين ، وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل ، وزين العينين بالأهداب .

ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص . فسخر المعدة لنضج الغذاء ، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم ، والطحال والمرارة والكُلْية لخدمة الكبد . فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها . والكُلْية تخدمها بجذب المائية عنها . والمثانة تخدم الكُلْية بقبول الماء عنها ، ثم تخرجه في طريق الإحليل : والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن . ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد ، وعرّض الكف ، وقسم الأصابع الخمس ، وقسم كل إصبع بثلاث أنامل ، ووضع الأربعة في جانب لتدور الإبهام على الجميع ، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهاً آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بُعْدِ الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه ؛ إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء ، فإنْ بَسَطَهَا كانت له طبقاً يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب ، وإنْ ضمّها ضماً غير تام كانت مغرفة له ، وإنْ بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له . ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لا تنقطع ، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل ، وليحك بها بدنه عند الحاجة ، فالظُّفْر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم ، ولم يقم أحد مقامه في حك بدنه . ثم هدى اليد إلى الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل . ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث ، ولو كُشِفَ الغطاء والغشاء وامتد إليه البصر لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ولا يرى لمصوّر ولا آلته ! فهل رأيت مُصَوِّراً أو فاعلاً لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه

وهو يتصرف فيه ؟ فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه(١٨٢) .

(**وسئل**) الإمام الشافعي رضي الله عنه : ما الدليل على وجود الصانع ؟ فقال : شجرة التوت طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم ؟ فقالوا : نعم . قال : فتأكلها دودة القز ، فيخرج منه الإبريسم ــ الحرير ــ ويأكل منها النحل فيخرج منها العسل ، وتأكل منها الشاة فيخرج منها البعر واللبن ، ويأكلها الظباء فيخرج منها المسك !! فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك ، مع أنَّ الطبع واحد ؟ فاستحسن الناس منه ذلك .

(**وتمسّك**) أحمد بن حنبل ـ بالدلالة على وجود الله تعالى ــ بقلعة حصينة ملساء لا فرجة فيها ، ظاهرها كالفضة المذابة ، وباطنها كالذهب الإبريز ، ثم انشقت الجدران ، وخرج من القلعة حيوان سميع بصير !!

فلا بد من الفاعل عنى بالقلعة : البيضة ، وبالحيوان : الفرخ .

(**وسئل**) أحدهم عن وجود الله تعالى فقال :

تأمَّلْ في نباتِ الأَرض وانْظر ... إلى آثار ما صَنَعَ المليكُ
عيونٌ من لَجيْن شاخصاتٌ ... بأحداق كما الذهبُ السبيكُ
على قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شاهداتٌ ... بأن الله ليس له شريكُ

---

(١٨٢) إلى هنا ينتهي كلام الإمام الغزالي من الإحياء كتاب التفكر المجلد (٤) .

قضية الصفات
وتعريفها وبيان أنها عين الذات
وذكر الخلاف في ذلك

هناك قضيةٍ مهمة تثار في علم التوحيد وهي قضية (الصفات) هل هي عين الذات أم هي غير الذات ويعبِّر عنها بعضهم بقوله (لا هي الذات ولا هي غير الذات) !! ثم تعريف كل صفة من الصفات مع أن صفات الله تعالى لا يمكن فهمها ولا تعريفها بالمقاييس والمفاهيم التي ندركها !

وأصل قضية الصفات قضية مستوردة أثارها الفلاسفة والمناطقة والمتكلمون القدماء قبل الإسلام حيث أرادوا أن يحدوا ويعرِّفوا ما تتميز به الذوات أو الأشياء مثل كون الشيء جميلاً وقادراً وموجوداً مثلاً ، فقالوا : لا بد أن نبحث ونتعمق في فهم هذا الجانب الذي يسمونه الصفة ، فمثلاً عنصر أو صفة الجمال أي جهة الجمال في الزهرة مثلاً ما هو تعريفها : قالوا إنها صفة قائمة بهذا الجسم تدل على الحُسْنِ الكثير والارتياح ، والجمال في الإنسان مثلاً إما أن يكون في نفسه أو في بدنه أو في فعله . ويمكن تعريفها بغير ذلك .

وهذا مَثَلٌ ضربناه لاستيعاب مسألة الصفات ، فعلى هذا يصح أن يقال عندهم إن الجَمَال صفة قائمة بذات الزهرة ومعناها حسن التناسق بين أجزائها وألوانها وصورتها ، فمن حيث أنها هذا التناسق والترتيب بين الأجزاء والألوان فهو أمر موجود ومرئي وثابت ، ومن حيث أنها صفة قائمة بالمحل فهو أمر ذهني ومعنى من المعاني بحيث أنه ليس شيئاً منفصلاً يعلق بتلك الذات التي هي الزهرة .

وعكسه البشاعة مثلاً أو قبح المنظر وهو تغيير ترتيب أجزاء تلك الزهرة

بدهسها أو سحقها وعجنها بحيث يتغير ذلك التناسق والترتيب الحَسَن ، ولا يعني هذا أننا أزلنا أمراً كان قائماً بها يمكن فصله عنها ووضع غيره مكانه وإنما هو نفس عين أجزاء الزهرة قد غايرنا بين ترتيبها بالدهس والسحق والطحن بحيث فقدت ماءيتها وَوَبَرِها وسحقت أغشيتها وما إلى ذلك فصارت قبيحة بشعة .

فتلخص من ذلك أن الصفة هي بيان حالٍ للجسم وما يتميز به من كونه مثلاً : قادراً أو ميتاً أو حياً أو بصيراً أو غير ذلك .

فهو أمر ذهني وليس شيئاً مغايراً لعين الجسم في الحقيقة بحيث يُعَدُّ قائماً أو ملتصقاً به بحيث أنه يزال بطريق الفصل وإحلال غيره محله كما يوضع الملح في الماء فيكسبه الملوحة والسكر في الشراب فيكسبه الحلاوة .

فعلى هذا يصح أن يقال بأن الجمال أمر ثابت في الخارج بمعنى أنه مشاهد في الحقيقة بالعين وهو تناسب ترتيب الأجزاء والألوان لا أنه شيء غير ذلك ، ومن جهة أخرى يقال بأن الجمال ليس ثابتاً في الخارج ولا وجود له إلا في الذهن (وهو ما يعبرون عنه بقولهم لا وجود له في الخارج) إذا اعتبرناه غير أجزاء الزهرة وألوانها بمعنى أنه شيء آخر يمكن فصله وإزالته وكذا إضافته وإحلاله في الجسم كالملح للطعام .

فعلى هذا نقول بأن الصفة عندنا هي : **لفظ يدل على ما تتميز به الذات ، وهو أمر ذهني ، وإن كانت الذات موجودة** .

فعلى هذا يقال مثلاً : إن الوجود صفة للجسم ذهناً وإن كنا لا نستطيع أن نفرز أو نفصل الجسم عما يسمونه صفة الوجود ، وكذلك القدرة ليست شيئاً مغايراً للجسم وإنما هي عبارة عن كون الجسم قادراً على إحداث أثر أو تأثيرٍ ما ، فليست هي شيئاً يمكن فصله عن الجسم وإنما يكون الجسم عاجزاً إذا لم تستطع العضلة مثلاً أن تتقلَّص أو تتمدد أو خلايا الدماغ أن تُنْتِجَ فعلاً سواء كان هذا الفعل ذهنياً أو عضلياً بالنسبة للإنسان مثلاً .

فليست القدرة والجمال والوجود والطول أشياء يمكن فصلها أو جعلها قائمة بما يسمونه المحل الذي هو الذات كقيام الثوب على الجسم وإنما هي أمور فكرية وذهنية غالى بها المناطقة والفلاسفة والمتكلمون وتبناها أهل الحديث الذين يميلون إلى الإثبات المؤدي إلى التجسيم والتشبيه دون وعي وإدراك لحقيقة الأمر وهم يظنون بأنفسهم الكمال ولا ينظرون إلى القصور والخطأ الذي يتمتعون به ! وقد أعماهم عن إدراكه التعصب وحب التنديد بالخصوم وإفحامهم ولو بالباطل من القول ! فذهبوا يقولون بأن الله تعالى صفات قائمة بالذات !

أما المناطقة والفلاسفة والمتكلمون فجعلوها أموراً قائمة بالمحل الذي هو الذات عندهم وقد أخطأوا في قياس الخالق على المخلوق فيما عقلوه وفهموه وعرفوا به ما تتميز به الذات من أمور ! فسقطوا إذ زعموا بأن القديم من حيث الأصناف شيئان ذات واحدة وصفات كثيرة وأن الصفات قائمة بالمحل والمحل عندهم ذات الله تعالى ! تعالى الله عن تصوراتهم علواً كبيراً ! فتعددت عندهم القدماء ! عشرين صفة وذات واحدة مثلاً فأصبح القدماء واحداً وعشرين ، وعقيدة الإسلام تقول بأن القديم الأول شيء واحد وهو ذات الله تعالى !

ثم زادوا في التفلسف والتمنطق فقالوا : بأن الله يرى ويسمع ذاته وجميع صفاته التي منها سمعه وبصره وعلمه و....... وهذا يفيد أنهم يتصورون بأن الصفات أعيان أو أشكال لأجزاء الجسم ، وهذا يفيد أنهم دخلوا للتشبيه والتجسيم من حيث لا يدرون ! وهم يحسبون أنهم منزهون وأنهم يحسنون صنعاً ! وهؤلاء يظنون الغباء والبَلَه في غيرهم وهو فيهم حقيقة ! وقد صار الغرور حجاباً على عقولهم مانعاً لهم من إدراك أنهم يخبطون في الجهل خبطاً ! ويقولون على الله ما لا يعلمون معتمدين على قياس الخالق بالمخلوق ! تعالى الله عن إفكهم علواً كبيراً !

وأما المجسمة من المحدثين وأهل الإثبات لا ثبتهم الله تعالى : فإنهم استرسلوا في

إثبات الأعضاء وغيرها وسموها صفات لقصورهم في التفريق بين الجزء والعضو والصفة ـ التي هي أمر ذهني ـ فأثبتوا عينين ويدين وأصابع ورِجْلاً وقَدَماً وغير ذلك بلا عقل ولا فهم للغة ولا لأساليب العربية في الخطاب والكنايات وغيرها ! ولأجل مخالفة أهل البدع بزعمهم ومكايدة المتكلمين ومَنْ ينبزونهم بالجهمية من المنزهة أثبتوا ما لا يجوز إثباته من الألفاظ على أنها صفات لله تعالى بزعمهم أي هيئة لذات الله تعالى فهو عندهم ذو وجه وعينين ويدين على الجهة اليمنى وبصورة شاب أمرد وله أصابع وكف وقدم وغير ذلك من الترهات التي يثبتونها للرب تعالى وتقدَّس عن خيالهم وإفكهم ومعتقدهم وتصوراتهم الفاسدة معارضين بذلك قوله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ !!

ونرد على كلا الفريقين (المناطقة المتفلسفين ومجسمة أهل الحديث) بقوله تعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ يونس : ٦٨ ؟!

قال أبو محمد بن حزم في « الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل » (٢/ ١٢٠) رادًا على هؤلاء وهؤلاء :

[**وأما إطلاق لفظ الصفات لله تعالى عز وجل فمحال لا يجوز لأن الله تعالى لم ينصَّ قَطُّ في كلامه المنزل على لفظة الصفات ولا على لفظ الصفة ، ولا حُفِظ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن لله تعالى صفة أو صفات** ، نعم ولا جاء قط ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ولا عن أحد من خيار التابعين ، ولا عن أحد من خيار تابعي التابعين ، ومن كان هكذا فلا يحل لأحدٍ أن ينطق به ، ولو قلنا إن الإجماع قد تيقن على ترك هذه اللفظة لصدقنا ، فلا يجوز القول بلفظ الصفات ولا اعتقاده بل هي بدعة منكرة ، قال تعالى ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾] .

وقال ابن حزم أيضاً في « الفصل » (٢/ ١٤٠) :

[وأجمع المسلمون على القول بما جاء به نص القرآن من أن الله تعالى سميع بصير ؛ ثم اختلفوا ؛ فقالت طائفة من أهل السنة والأشعرية وجعفر بن حرب من المعتزلة .... وجميع المجسمة نقطع أن الله سميع بسمع بصير ببصر ، **وذهبت طوائف من أهل السنة منهم الشافعي وداود بن علي وعبد العزيز بن مسلم الكناني رضي الله عنهم وغيرهم إلى أن الله تعالى سميع بصير ولا نقول بسمع ولا ببصر لأن الله تعالى لم يقله ولكن سميع بذاته وبصير بذاته .**

(قال أبو محمد) : وبهذا نقول ، ولا يجوز إطلاق سمع ولا بصر حيث لم يأت به نصٌّ لما ذكرناه آنفاً من أنه لا يجوز أن يخبر عن الله تعالى ما لم يخبر عن نفسه .

واحتجَّ مَنْ أطلق على الله تعالى السمع والبصر بأن قال لا يُعْقَلُ السميع إلا بسمع ولا يعقل البصير إلا ببصر ، ولا يجوز أن يسمى بصيراً إلا مَنْ له بصر ولا يُسَمَّى سميعاً إلا من له سمع ، واحتجوا أيضاً في هذا وما ذهبوا إليه من أن الصفات متغايرة بأنه لا يجوز أن يقال أنه تعالى يسمع المبصرات ولا أنه يبصر المسموعات من الأصوات ، وقالوا : هذا لا يعقل .

وكل هذين الدليلين شغبي فاسدٌ أما قولهم لا يعقل السميع إلا بسمع ولا يعقل البصير إلا ببصر فيقال لهم وبالله تعالى التوفيق : أما فيما بيننا فنعم وكذلك أصلاً لم نجد قط في شيء من العالم الذي نحن فيه سميعاً إلا بسمع ولا وجد فيه بصير إلا ببصر فإنه لم يوجد قط أيضاً فيه سميع إلا بجارحة يسمع بها ولا وجد قط فيه عالم إلا بضمير ؛ فلزمهم أن يُجروا على الله تعالى هذه الأوصاف ! وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ! وهم لا يقولون هذا ولا يستجيزونه .....] .

والمختار عندنا من هذا كله أن الصفة لفظ في اللغة يدل على حال الذات أو ما تتميز به الذات ، فالصفة ليست شيئاً غير الكلام على الذات ، وبتعبير آخر هي

في الحقيقة عين الذات ، أي الكلام على عين الذات ، وهذا لا يعارض أنها في الذهن والتصور مغايرة للذات !! هذا بالنسبة للمخلوق !

ثم ننتقل إلى الكلام عن المولى جلَّ وعزَّ فنقول : الأصل في هذه المسائل قول الله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ فيجب من هذه الآيات وأمثالها اعتقاد أن الله لا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ! وهو سبحانه وتعالى فوق مستوى أن يعقله أو يدركه أو يفهمه أو يتصوره أو يتخيله الخلق ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ طه : ١١٠ .

فالصفة في حق الله تبارك وتعالى لفظ يدل ـ على سبيل التنزل ـ على ما تتميز به الذات من الكمال .

فالله تعالى تنزل للخلق فذكر لهم ألفاظاً يدركونها في الذوات تدل على الكمال (ككونه سميعاً بصيراً عليماً قديراً ....) ليفهموا بأنه عظيم عليٌّ مُنَزَّهٌ عن كل نقص ! فظن الحمقى أن كل لفظ ورد في القرآن والسنة فإنما هو وصف ونعت له !! فرد الله تعالى ذلك إذ قال ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الأنعام : ١٠٠ وقال ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الأنبياء : ٢٢ ، وقال ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ المؤمنون : ٩١ ، وقال تعالى ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الصافات : ١٨٠ ، وقال تعالى ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الزخرف : ٨٢ .

فصل

في صفة الوجود

وبيان ما وقع لبعض المتكلمين فيها من الغلط والخطأ

ليس هناك أبلغ من تعريف الوجود بنفس هذه اللفظة التي هي : (الوجود) ، ووجود الله تعالى ليس وجود جسم يأخذ حيز في الفراغ فيكون له حجم من طولٍ وعرضٍ وعمقٍ أي ارتفاع ، وإذا عرَّفنا جسماً ما بأنه موجود ومع ذلك ليس له حيز كان ذلك إخباراً عن عدمه بخلاف المولى جلَّ وعز الذي ليس كمثله شيء ولم يكن له كفواً أحد !!

وقد تنطع الفلاسفة والمناطقة وبعض المتكلمين في تعريف الوجود وتخبطوا فذكروا للوجود عدة حدود لا يسع الواقف إلا أن يستخف بعقل قائلها الذي يظن نفسه أبا الفهم وهو ليس ثَمَّ هناك !!

قال بعض المتكلمين السالفين : [الوجود حال واجبة للذات ما دامت الذات غير مُعَلَّلَةٍ بِعِلَّة ، ومعنى التعليل هنا هو التلازم في إفادة العلة معلولها الثبوت] !!

وهذا التعريف من الأحاجي والألغاز فعلاً التي لا يُعْلَم معناها !! وهو من جملة الهرطقة في التمنطق الفارغ !

وعلى كل حال فقد تمَّ المقصود بما قدمناه وأحسن ما رأيته في الكلام على تعريف الوجود قول القاضي عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة ص (١٧٦) :

« **فالأولى أن لا يُحَدَّ الموجود بِحَدٍّ ، لأنَّ كل ما يُذْكَر في حَدِّه فقولنا موجود أكشف منه وأوضح** » .

تنزيه وجود الله تعالى
عن الزمان والمكان

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :
(لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات) .
الشرح :

ذكرنا فيما تقدّم أن أوّل صفة واجبة في حق المولى سبحانه وتعالى هي صفة الوجود ، وأن الشرع أرشد إلى وجوب النظر في ملكوت السموات والأرض ليتعرَّف الإنسان من هذه المخلوقات على وجود الخالق سبحانه وتعالى ، ومن هذه المصنوعات على وجود الصانع جلَّ وعزَّ ، وقد تقدّم الدليل العقلي على وجوده سبحانه وتعالى في خلق الإنسان من نطفة إلى أن صار بشراً سوياً .

ومما يجدر بيانه هنا عند الكلام على صفة الوجود للمولى سبحانه وتعالى أن وجوده ليس كوجود الخلق ، وذلك يتضمّن أموراً وهي : أنه سبحانه ليس جسماً ولا صفة ، فليس له حد ومقدار ، أي غاية ونهاية كالموجودات التي نراها ، أي حدوداً وأبعاداً ينتهي إليها ، لأن هذا كله من صفات الأجسام ، ولا يعني هذا أنه جسم كبيرٌ جداً بحيث لا يوجد له أبعاد ولا حد ينتهي إليه ، كلا وبلا ، بل يجب أن نعتقد أنه سبحانه وتعالى لا يستطيع مخلوق أن يدركه أو يتصوّره وكل ما خطر في بالنا وفي أذهاننا فالله تعالى بخلاف ذلك ، وهذا هو أُسُّ الإيمان وأساسه بعد الإيمان بوجوده تعالى ، وهذا كله تحقيق وامتثال لقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **ليس كمثله شيءٌ** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **هل تعلم له سمياً** ﴾ أي مشابهاً ومماثلاً ، وتحقيقاً لقوله تعالى ﴿ **سبحان ربِّك رب العزة عما يصفون** ﴾ .

فهذا ما يجب أن يعرفه المسلمون جميعاً ، ويجب أن ندرك هنا أن صفة الوجود لله تعالى اشتركت مع المخلوقات في اللفظ واختلفت في المعنى ، فوجود المخلوق هو

أخذه للحيز في الفراغ إن كان جسماً وقيامه بالجسم إن كان عَرَضاً وصفة ، ووجود الله تعالى لا يجوز عليه الجسمية ولا الحد والمقدار ولا أخذ الحيز في الفراغ ولا الخضوع لقانون الزمان والمكان فعلينا أن نؤمن بذلك ولن نستطيع إدراكه .

ومن المعلوم المقرر عند أهل العلم أن الزمان والمكان مخلوقان لله تعالى لأنهما غير الله وكل ما سوى الله تعالى مخلوق حادث كان بعد أن لم يكن لقوله تعالى ﴿ **الله خالق كل شيء** ﴾ .

ونعني بقولنا أن الله تعالى منزه عن الزمان أن الله تعالى ليست له بداية في وجوده وليست له نهاية لأن الذي له بداية ونهاية هو الذي كان داخلاً في قانون الزمان والمكان ، والعقل البشري وغيره لا يستطيع أن يتصوَّر شيئاً لا بداية له ، فما عليه إلا أن يصدّق ويؤمن بصفات الله تعالى دون قياس ومعاكسة ومناقشة عقيمة ، وهذا هو الإيمان بالغيب المذكور في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ البقرة ٣ ـ ٥ .

وقد أشار الشرع إلى قصور عقول الخلق عن إدراك كنه المولى سبحانه في عدّة نصوص منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال : هذا ، خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل : آمنت بالله » رواه مسلم (١/١١٩ برقم ٢١٢) .

قلت : هذا حديث مهم جداً فيه بيان أن العقل البشري بل عقول سائر الخلق قد يخطر لها بعض القياسات من تشبيه الله تعالى بالخلق بأحد وجوه التشبيه وأن هذا الأمر يقع أحياناً في القلب ، فعلى من وقع له ذلك أن يُنَزّه الله تعالى ، ويجب أن يكره ويدفع قلبه هذا الوارد والخاطر كما جاء في حديث آخر ، ويُسَنُّ أن يقول : آمنت بالله ورسوله ، فإنه ساعتئذ يشعر في قلبه بحلاوه الإيمان .

والحديث الآخر هو : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسألوه : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم

أحدنا أن يتكلم به . قال : « وقد وجدتموه ؟ » قالوا : نعم . قال : « ذلك صريح الإيمان » رواه مسلم (١/١١٩ برقم ٢٠٩) .

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « وقد وجدتموه ؟ » أي هل وجدتم استعظام ذلك في قلوبكم وكراهية قلوبكم لهذا الأمر ؟ بدليل قولهم في الحديث « إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلَّم به » ، أي إن كراهية قلوبهم لهذا الوارد اللاإرادي هو صريح الإيمان ، لا أن خطوره في القلب هو صريح الإيمان .

فعلى هذا يثاب مَن دفع هذا الخاطر وكرهه وقال : آمنت بالله ورسوله . ويكفر مَنْ أثبته وعقد قلبه عليه ، والله الموفق .

قال الإمام النووي في « شرح مسلم » (٢/ ١٥٤) :

[أما معاني الأحاديث ـ المذكورة ـ وفقهها فقوله صلى الله عليه وآله وسلم « ذلك صريح الإيمان » ومحض الإيمان : معناه : استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً وانتفت عنه الريبة والشكوك] .

ولنعد إلى قضية تنزيه الله عن المكان فنقول :

قال الشيخ عبد القاهر البغدادي في كتابه « الفَرْق بين الفِرَق » ص (٣٣٣) أن أهل السنة والجماعة :

« **أجمعوا على أنه لا يحويه مكان ، ولا يجري عليه زمان** » بل إن أهل الإسلام بجميع فرقهم اتفقوا على ذلك إلا من ينسب إلى الإسلام من المجسمة والمشبهة ممن لا يلتفت لقولهم .

وأما المكان : فيجب تنزيه الله تعالى عن المكان فأما بعض النصوص الواردة في الكتاب والسنة والتي يتوهم منها بعض الناس(١٨٣) إثبات المكان لله تعالى أو جري الزمن عليه ، فلا يراد منها ذلك ، وما يتصوّره بعض الناس من أن الله تعالى في كل

---

(١٨٣) الذين لا يريدون فهم القرآن والسنة بمقتضى اللسان العربي الفصيح الذي به نزل هذا الكتاب المبين .

مكان مثلاً أو أنه في السماء دون الأرض أو أنه في العلو أو في السماء فهو باطل ، لأن هذه جميعها أمكنة والله تعالى منزه عن المكان .

ومن لاحظ ودقق في القرآن والسنة الصحيحة جيداً فإنه سيجد لا محالة بأن كل نص يتوهم منه بعض الناس أن الله تعالى في العلو أو في السماء مثلاً يقابله أيضاً نصٌ آخر يفيد ظاهره عند بعض الناس الآخرين عكس ذلك وهو أنه في الأرض مثلاً أو أنه سبحانه في كل مكان !! وكل ذلك غير مراد قطعاً لتنزه الله سبحانه عن الزمان والمكان .

فمثلاً استدلال من استدلَّ بقوله تعالى ﴿ **إني متوفيك ورافعك إليَّ** ﴾ وبقوله تعالى ﴿ **تعرج الملائكة والروح إليه** ﴾ على أن الله في السماء باطل بما يقابله من قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم ﴿ **إني ذاهب إلى ربي سيهدين** ﴾ مع أن سيدنا إبراهيم لم يترك قومه ولم يذهب إلى السماء التي يزعم المجسمة أن معبودهم فيها ، وإنما ذلك مجاز . ومقابَلٌ ذلك أيضاً بمثل قوله تعالى في الظل ﴿ **ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً** ﴾ فقوله في الآية ﴿ **إلينا** ﴾ لا يعني أن الظل يذهب في الليل إلى الله تعالى بلا شك ولا ريب .

وقوله تعالى ﴿ **ءأمنتم مَن في السماء** ﴾ يقابله قوله تعالى ﴿ **وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا** ﴾ المجادلة : ٧ ، وقوله تعالى ﴿ **فلمّا أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين * وأن ألقِ عصاك فلمّا رآها تهتز كأنها جآن ولّى مدبراً ولم يعقّب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين** ﴾ القصص : ٣٠ ـ ٣١ .

فبماذا يجيب المجسمة ـ الذين يزعمون بأن الله في السماء ويثبتون له المكان ـ عن نداء سيدنا موسى من شاطئ الوادي ؟!! ومِنَ الشجرة ؟!! والمنادي سبحانه يقول : ﴿ **أنا الله رب العالمين** ﴾ أم أنهم سينفون أن الله تعالى كلّم سيدنا موسى

كما تقول الجهمية على زعمهم !! وهو يقول لسيدنا موسى أقبل ولا تخف ؟!!

ألا يدلُّ ظاهر قوله ﴿ **أقبل ولا تخف** ﴾ بعد قوله ﴿ **إني أنا الله رب العالمين** ﴾ على أن الله سبحانه كان في الأرض في تلك الناحية وفي الشجرة كما جاء في الآية ؟!! وبماذا يمكن أن يعدل عن ظاهر هذه الألفاظ ؟!!

مع أن ظاهر ذلك كله غير مراد عندنا !! لأن الله تعالى يتنزه أن يكون في الأرض أو في السماء !! كما قدّمناه لأن وجوده سبحانه وتعالى بلا مكان كما تقدّم !!

وأما الحديث الذي يردّده بعضهم والذي فيه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سأل الجارية فقال لها « أين الله » فقلت : في السماء . رواه مسلم .

فالجواب عليه : أن هذه الألفاظ ليست ألفاظ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإنما هي رواية الحديث بالمعنى وذلك لأن هذا الحديث نفسه قد رواه الإمام عبد الرزاق في المصنَّف وغيره بلفظ آخر وهو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لها : « أتشهدين أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ » وهو الأصح سنداً ومتناً ، كما بينته بتفصيل دقيق جداً في رسالة خاصة أسميتها « تنقيح الفهوم العالية بما ثبت وما لم يثبت في حديث الجارية » فليراجعه مَنْ شاء التبصر في هذا الموضوع .

والدليل على تنزيه الله تعالى عن المكان من السنة ما رواه الإمام مسلم في « صحيحه » (٤/ ٢٠٨٤ برقم ٦١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول في دعائه :

« اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنّا الدَّين واغننا من الفقر » .

قال الإمام الحافظ البيهقي في « الأسماء والصفات » ص (٤٠٠) : « استدل بعض أصحابنا بهذا الحديث على نفي المكان عن الله تعالى ، فإذا لم يكن فوقه شيء ولا دونه شيء لم يكن في مكان » انتهى . وسيأتي إن شاء الله تعالى في فصل خاص ذكر أدلة أخرى في هذا الموضوع والله الموفق .

صفة القِدَم

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(قديم بلا ابتداء ، ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه . له معنى الربوبية ولا مربوب ، ومعنى الخالق ولا مخلوق) .

الشرح :

تقدَّم أننا لا نعني بالصفة إلا استعمالاً لغوياً محضاً ولا نعني بها استعمال المناطقة والفلاسفة وبعض المتكلمين من أنها عَرَض قائم بالذات كما يتخيلون ! فنحن مع أئمة آل البيت والعترة المطهرة ومن وافقهم من قولهم بأنه لا يقال بأن هناك صفات قائمة بالذات كما يدعي المناطقة والفلاسفة وبعض المتكلمين .

قال السادة الزيدية[١٨٤] : [قال جمهور أئمتنا وهم جميع المتقدمين منهم ... (وصفات الله تعالى هي ذاته) لا غير وذلك بناء منهم على ما اقتضاه دليل العقل والنقل والسمع .... وقول علي عليه السلام : (باينهم بصفته رباً كما باينوه بحدوثهم خلقاً فمن وصفه فقد شبهه ومن لم يصفه فقد نفاه ، وصفته أنه سميع ولا صفة لسمعه)

وقوله عليه السلام : (وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه بشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة ، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، ومَنْ قرنه فقد ثنَّاه ، ومن ثنَّاه فقد جزَّأه ، ومَنْ جزَّأه فقد جهله)] انتهى كلام العلام الشرفي .

وكذلك قرر هذا السادة الإمامية كما هو منصوص عليه في كتاب (التوحيد) للشيخ الصدوق[١٨٥] .

---

[١٨٤] كما قال العلامة الشرفي القاسمي في كتاب « عدة الأكياس في شرح معاني الأساس » (١/ ١١٩) .

[١٨٥] صحيفة (٢٢٣) طبع مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة ، والشيخ الصدوق هو العلامة : أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المتوفى سنة (٣٨١هـ) .

اعلم أن من صفات الله تعالى القدم أي كونه تعالى قديماً ولا شيء يزيد على ذلك ومعناه عدم الافتتاح للوجود ، أي تنزيه الله تعالى عن الزمان ومعنى ذلك الإيمان بوجود الخالق الخارج عن قوانين الزمان حيث لا يمكن أن يجوز في حقه سبحانه البداية في وجوده ، فهو سبحانه المبدي المعيد(١٨٦) .

وهذه الصفة بهذا المعنى لا تجوز أن تطلق إلا على الله تعالى وحده ، فلا يجوز اعتقاد قدم شيء غير الله تعالى وحده ، وذهب قوم من الفلاسفة والملاحدة إلى أن هذا العالم بعينه قديم ، وذهب آخرون منهم إلى أن هذا العالم قديم بنوعه ليس بعينه وأفراده ، يعنون بذلك أن هناك عالماً آخر كان قبل هذا العالم الموجود الآن ، وأن قبل ذلك أيضاً عالَمٌ آخر ، وهكذا إلى غير بداية ! وهذه الأقوال كلها كفر وإلحاد في نظر الشريعة الإسلامية ، لقوله تعالى ﴿ **هو الأول** ﴾ ولقوله تعالى ﴿ **الله خالق كل شيء** ﴾ فَعَمَّ ذلك الفرد والنوع أي الجنس .

وقال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى :

بثلاثةٍ كَفَرَ الفلاسفةُ العِدَا ... في نفيها وهي حقيقاً مُثْبَتَهْ
علمٌ بجزئيٍ حدوثُ عوالم ... حشرٌ لأجسادٍ وكانت مَيِّتَهْ

وَوَصْفُ الله تعالى بالقِدَمِ مُجمعٌ عليه ، قال المحدّث الزَّبِيْدِي في « شرح الإحياء » (٢/ ٢١) : « أجمعت(١٨٧) الأمة على وصفه تعالى به »(١٨٨) انتهى ،

---

(١٨٦) ومن الأقوال المردودة الباطلة قول بعض المتكلمين في تعريف الأزل أنه : (**استمرار الوجود في أزمنة مقدَّرَة غير متناهية في جانب الماضي** ويقابله الأبد وهو : استمرار الوجود في أزمنة مقدَّرة غير متناهية في جانب المستقبل) وقول بعضهم (فصفات الله يقال لها أزلية ولا يقال لها قديمة وأما ذات الله فهي أزلية قديمة) فتطبيقهم هذا الكلام الفاسد على الله تعالى ضلال مبين ! إذ كيف يكون الله تعالى وصفاته عندهم في أزمنة مقدرة وإن كانت غير متناهية ؟! ولا أغبى ممن يتمنطق ويتشدق فينقل أقوال هؤلاء دون أن يعي ما فيها من الخلل والخطل !!

(١٨٧) ملاحظة : نحن لا نعول على نقل الإجماعات دون التثبت من أن جميع فرق المسلمين المعتد بها قالت بذلك حقيقة .

(١٨٨) وزعم الزَّبِيْدِي في شرح الأحياء (٢/ ٢١) أن المعتزلة لا يصفون الله تعالى بأنه قديم فقال : « وزعمت المعتزلة أن الله تعالى لا يوصف بأنه قديم » وهذا كلام باطل من الزَّبِيْدِي يناقض الكلام

ومعناه : الأزلي الأول الذي لا بداية له . وقد ورد اسم القديم في رواية أسماء الله الحسنى عند ابن ماجه في « السنن » (٢/ ١٢٧٠) بإسناد ضعيف[١٨٩] إلا أنه يصح بانعقاد الإجماع على هذا الاسم وشهادة القرآن له في آيات كثيرة .

قال الإمام الغزالي في كتابه « الاقتصاد في الاعتقاد » ص (٢١) :

« ندّعي أن السبب الذي أثبتناه لوجود العالَم قديم فإنه لو كان حادثاً لافتقر إلى سبب آخر ، وكذلك السبب الآخر ويتسلسل إما إلى غير نهاية وهو محال وإما أن ينتهي إلى قديم لا مَحَالة يقف عنده وهو الذي نطلبه ونسميه صانع العالَم ولا بدَّ من الاعتراف به بالضرورة . **ولا نعني بقولنا قديم إلا أن وجوده غير مسبوق بعدم** ، فليس تحت لفظ القديم إلا إثبات موجود ونفي عدم سابق »[١٩٠] انتهى .

الذي قاله في نفس الصحيفة والذي أثبتناه في الأعلى !! ومما ينقض هذا الزعم على المعتزلة قول القاضي عبد الجبار المعتزلي الشافعي رحمه الله تعالى في « شرح الأصول الخمسة » ص (١٨١) : [والله تعالى هو الموجود الذي لا أوّل لوجوده ولذلك وصفناه بالقديم] .

[١٨٩] استدل بعض الناس على القدم أو اسمه تعالى القديم بما روى أبو داود في السنن (٤٦٦) عن حيوة بن شريح قال لقيت عقبة بن مسلم فقلت له بلغني أنك حدثت عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان إذا دخل المسجد قال : « أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم » قال : أَقَطْ ؟! قلت : نعم ، قال : فإذا قال ذلك قال الشيطان حفظ مني سائر اليوم .

أقول : هذا الحديث لا يصح تفرُّد بإخراجه أبو داود وتفرُّد الرواة فيه من دلائل وضعه ، وراويه عبد الله بن عمرو بن العاص ينقل من الكتب الإسرائيلية ، وشيخ أبو داود فيه هو إسماعيل بن بشر ليس من الدرجة العليا في الاعتماد عليه ، وسلطان الله هو مُلْك الله تعالى ، ومنه ﴿ هلك عني سلطانيه ﴾ أي ملكي . ومحال أن يكون ملك الله تعالى قديم ، إلا إن فسَّروا (سلطانيه) بأمور أخرى ؛ مع أن الإشكالية باقية في الحديث وهو غير صحيح ؛ ولذلك لم يحتج به أحد من المعتبرين على صفة القدم أو اسم القديم . وقد وهم ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٠٥) (في سورة النور عند تفسير قوله تعالى ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ﴾) فعزا هذا الحديث لصحيح البخاري فأخطأ ، وإنما رواه أبو داود دون أصحاب كتب الحديث المشهورة فضلاً عن الكتب التسعة !!

[١٩٠] ومنه يتبين لكم الفرق بين كلام العالم الفاهم في تعريف الصفة ومنها القدم وبين تخبطات المتأخرين ومن يتبع الفلاسفة والمناطقة في تعريف الأزل والأبد وربطه بالزمان ! فلا تغفل عن مثل هذا !!

وأما قول الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(له معنى الربوبية ولا مربوب ومعنى الخالق ولا مخلوق) .

فمعناه :

أنَّ مما يجب اعتقاده ويتعلّق بهذا الموضوع ، أن الله تعالى كان وحده ولم يكن معه شيء من خلقه ، لقوله تعالى ﴿ **الله خالق كل شيء** ﴾ ولقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « كان الله ولم يكن شيء غيره » رواه البخاري (الفتح٦/٢٨٦) وقد انعقد إجماع الأمة على ذلك كما نقله ابن حزم في « مراتب الإجماع » ص (١٦٧) (وهو ممن لا ينقل إلا إجماع الصحابة) ويكفر مَنْ خالف في المسألة كالفلاسفة والدهرية . وأما الحديث الذي رواه البخاري (فتح ١٠/ ٥٦٤) ومسلم (٤/ ١٧٦٢) عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يسب بنو آدم الدهر ، وأنا الدهر بيدي الليل والنهار » .

فمعناه : أنا صاحب الدهر ومقلّبه ، قال الحافظ في الفتح :

« ومعنى النهي عن سب الدهر أن مَن اعتقد أنه الفاعل للمكروه فسبه أخطأ ، فإن الله هو الفاعل(١٩١) ، فإذا سببتم مَنْ أنزل ذلك بكم رجع السب إلى الله ... ومحصل ما قيل في تأويله ثلاثة أوجه : أحدها أن المراد بقوله : إن الله هو الدهر أي المدبر للأمور ، ثانيها : أنه على حذف مضاف أي صاحب الدهر ، ثالثها : التقدير مقلّب الدهر ، ولذلك عقّبه بقوله (بيدي الليل والنهار) ووقع في رواية زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة بلفظ : « بيدي الليل والنهار أجدده وأبليه وأذهب بالملوك » أخرجه أحمد ، وقال المحققون : من نسب شيئاً من الأفعال إلى الدهر حقيقة كفر ، ومَنْ جرى هذا اللفظ على لسانه غير معتقد لذلك فليس بكافر ، لكن يكره له ذلك لشبهه بأهل الكفر في الإطلاق .

... وقال عياض : زعم بعض مَنْ لا تحقيق له أن الدهر من أسماء الله ، وهو

---

(١٩١) الصحيح عندنا أن المكروه إن كان من أفعال البشر كالزنا وشرب الخمر مثلاً فهو ليس فعل الله إنما هو فعل العبد ! وهذا بخلاف من يزعم أن أفعال العباد هي أفعال الله وأنه ليس في الوجود فعل لغير الله سبحانه والقائل بذلك مخطىء في الاعتقاد !!

غلط فإن الدهر مدة زمان الدنيا » انتهى .

ولنا رسالة في موضوع قِدَمِ العالَم فرداً وجنساً ونوعاً أسميناها (**التنبيه والرد على معتقد قِدَمِ العالم والحد**) فليراجعها من أراد التوسع في هذا الموضوع .

صفة البقاء

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(دائم بلا انتهاء ، لا يفنى ولا يبيد ، وكما كان بصفاته أزلياً كذلك لا يزال عليها أبدياً) .

الشرح :

صفة البقاء من الصفات الواجبة في حق المولى سبحانه وتعالى ، ومعناها عدم انتهاء الوجود أي تعود إلى معنى القدم الكلي وهو عدم الدخول في الزمان .

ودليله مع الإجماع قوله تعالى ﴿ **ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ قال الحافظ ابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) في « دفع شبه التشبيه » ص (١١٣) : « قال المفسرون معناه : يبقى ربك » .

قال الحافظ البيهقي (توفي ٤٥٨ هـ) في « الأسماء والصفات » ص (١١ ـ ١٢) :

« قال الحَليمي : وهذا أيضاً ـ أي اسمه الباقي ـ من لوازم قوله قديم ، لأنه إذا كان موجوداً لا عن أوّل ولا بسبب لم يجز عليه الانقضاء والعدم ، فإن كل مُنْقَضٍ بَعْدَ وجوده فإنما يكون انقضاؤه لانقطاع سبب وجوده ، فلمّا لم يكن لوجود القديم سبب يتوهم أن ذلك السبب إن ارتفع عُدِمَ علمنا أنه لا انقضاء له .

قال البيهقي : وفي الباقي : الدائم ، ... قال أبوسليمان الخطّابي فيما أُخْبِرْتُ عنه الدائم : الموجود ـ الذي ـ لم يزل الموصوف بالبقاء الذي لا يستولي عليه الفناء .

قال : وليست صفة بقائه ودوامه كبقاء الجنة والنار ودوامهما وذلك أن بقاءه أبدي أزلي وبقاء الجنة والنار أبدي غير أزلي » انتهى كلام الإمام البيهقي .

ومعنى ذلك أن الجنة والنار دائمتان ومَن فيهما باقيتان بإبقاء الله تعالى

لهما ، فدوامها لشيء أَوْجَب لهما ذلك ، فهو جائز عقلاً ، وهذا خلاف معنى بقاء الله تعالى فإنه ذاتي أي لا لشيء أوجب له ذلك تعالى ربنا وتقدّس عن مشابهة خلقه .

ويجب اعتقاد بقاء الجنة والنار وعدم فنائهما ، لإخبار الشرع لنا بذلك ، في مثل قوله تعالى ﴿ **ومَن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً** ﴾ الجن : ٢٣ ومثل قوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً** ﴾ البينة : ٧ ـ ٨ .

صفة القيومية

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(قيوم لا ينام) :

الشرح :

معنى القيوم هو المدبر الدائم الذي لا يزول ، وقد سمّى الله تعالى نفسه بهذا الاسم في آية الكرسي وغيرها ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ .

قال الإمام الغزالي في المقصد الأسنى : « القيوم الذي قوامه بذاته وقيام كل شيء به ، وليس ذلك إلا لله » .

وقال المُحَدِّث الزَّبِيْدِي في « شرح الإحياء » (٢/ ٢٣) :

« ومعنى قول بعضهم إنّ المخلوقات قائمة بالله تعالى هو على معنى أنه الموجد لها لا على معنى حلولها فيه » انتهى .

قلت : ونَقَلَ الأئمةُ تكفيرَ مَنْ يعتقد الحلول في ذات الله تعالى ممن ينسب نفسه للإسلام ، وما يقوله بعض المتصوفة (أدعياء التصوّف) من عبارات غامضة تدلُّ على معنى الحلول أو الاتحاد أو ليس لها على حسب قواعد اللغة إلا معنى فاسد شرعاً فإنه يجب علينا إنكارها ، واعتقد ضلال قائلها وزيغه ، إذ لسنا بحاجة إلى

كلمات فلسفية غامضة ، وترهات بعيدة عن منبع الإسلام الأصلي : الكتاب الكريم والسنة المطهرة الشريفة ، لأنَّ لنا فيهما أكبر غناء بأوضح عبارة وأسهل أسلوب ونحن بحاجة ماسة إلى تعليم الناس عقائدهم الصحيحة الواضحة المبنية على القرآن والسنة لا على الترهات والكلمات والجمل الفلسفية المبنية على الغموض والتأويل البعيد الذي ترفضه قواعد اللغة ، والله تعالى المستعان .

وينبغي أن ننبّه هنا أيضاً على أن هناك كلاماً لابن تيمية نقلهُ عنه الألباني في حاشية كتابه « صحيح الترغيب والترهيب » ص (١١٦) وأقرَّه عليه لازمه الذي لا يمكن أن ينفك عنه دال على قولهم بحلول العالم والخلق بالله تعالى ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وقد شرحنا ذلك وبينّا صورته ورسمه في تقرير مسألة (أن الله تعالى لا يوصف بأنه خارج العالم ولا داخله) من هذا الكتاب ص (٣٦١) فليراجع إليها مَنْ شاء البيان والإيضاح .

صفة الغنى

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(لم يزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته ، وكل شيء إليه فقير ، لا يحتاج إلى شيء ، ويملك كل شيء ، ولا يملكه شيء ، ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين) .

الشرح :

ومما يجب اعتقاده أيضاً في حق الباري سبحانه وتعالى من الصفات أنه غني ومن غناه : غناه عن الموجِدِ وغناه عن الزمان والمكان وبالمقابل افتقار كل الكائنات إليه في وجودها وافتقارها إليه وخضوعها للزمان والمكان الذي حدده سبحانه لها .

ومن الآيات الواردة في هذا المعنى قوله تعالى ﴿ **إن الله لغني عن العالمين** ﴾ العنكبوت : ٦ وقال تعالى ﴿ **والله الغني وأنتم الفقراء** ﴾ .

قال الحافظ البيهقي في « الأسماء والصفات » ص (٣٦) : « قال الحَليمي في معنى الغني : إنه الكامل بما له وعنده فلا يحتاج معه إلى غيره ، وربنا جلَّ ثناؤه بهذه

الصفة لأن الحاجة نقص ، والمحتاج عاجز عمّا يحتاج إليه إلى أن يبلغه ويدركه ، وللمحتاج إليه فضل بوجود ما ليس عند المحتاج ، فالنقص منفي عن القديم بكل حال ، والعجز غير جائز عليه ولا يمكن أن يكون لأحد عليه فضل إذ كل شيء سواه خَلْقٌ له ، وبدعٌ أبدعه لا يملك من أمره شيئاً ، وإنما يكون كما يريد الله عز وجل ويدبره عليه(١٩٢) ، فلا يتوهم أن يكون له مع هذا اتساع لفضل عليه » .

صفة المخالفة للخلق

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ولا شيء مثله ، لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام ، ولا يشبه الأنام ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ وهو متعالٍ عن الأضداد والأنداد) .

الشرح :

هذه الصفة يجب أن يعتقدها الإنسان المسلم لله تعالى وإلا دخل عليه التشبيه وقد تقدّم ذكرها في المواضيع المختلفة السابقة وهي كما تقدّم مأخوذة من قوله تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **هل تعلّمُ له سميّاً** ﴾ أي مشابهاً ومماثلاً ؟! وهذه هي الآيات المحكمات في موضوع الصفات في علم التوحيد فلا تغفل عنها .

وقال بعض العلماء :

« أَلْزَمَ الله الخَلْقَ الحَدَث(١٩٣) ، لأن القِدَمَ له سبحانه ، فالذي بالجسم ظهوره فالعَرَض يلزمه ، والذي بالأداة اجتماعه فقواها تُمْسِكُهُ ، والذي يؤلّفه وقتٌ يُفرّقه وقتٌ ، والذي يقيمه غيرُهُ فالضرورة تَمَسُّهُ ، والذي الوهمُ يظفرُ به فالتصوير

---

(١٩٢) بالنسبة لأفعال العباد فإن مراد الله تعالى فيها تمكينهم من فعل ما يشاءون ! فهم يملكون لأنفسهم فعل الخير والشر ويختارون ما أرادوا منهما ! وبالتالي فهم يملكون أن يعملوا عمل اهل الجنة و عمل أهل النار دون جبر ولا إكراه ! ولا يقال بأن الله أراد أن يعملوا مثلاً بعمل اهل النار ودبَّره لهم

(١٩٣) أي ان قِدَمَ الله تعالى يقتضي أن يكون كل ما سواه مخلوق حادث .

يرتقي إليه ، ومَنْ آواهُ محلُ أدركه أين ، ومَن كان له جنسٌ طالبَهُ مكيّفٌ ، أنه سبحانه لا يُظِلُهُ فوقٌ ، ولا يُقِلُهُ (١٩٤) تحتٌ ، ولا يقابله حدٌ ، ولا يزاحِمُهُ عِنْدٌ ، ولا يأخُذُه خَلْفٌ ، ولا يَحُدُّهُ أمامٌ ، ولم يُظْهِرْهُ قَبْلُ ، ولم يَنْفِهِ بَعْدُ ، ولم يجمعهُ كُل ، ولم يوجده كان ، ولم يُفْقِدُهُ ليس ، **وَصْفُهُ لا صِفَةَ له** ، وفعله لا عِلَّةَ له ، وكونه لا أمَدَ له ، تَنَزَّهَ عن أحوالِ خلقه ، ليس له من خلقه مزاج ، ولا في فعله علاج ، باينهم (١٩٥) بقدمه كما باينوه بحدوثهم ، إن قلت متى ؟ فقد سبق الوَقْتَ كونُهُ . وإن قلت هو فالهاءُ والواوُ خلقهُ ، وأن قلت أين ؟ فقد تقدّم المكانَ وجودُهُ ، فالحروف آياته ، ووجوده إثباته ، ومعرفته توحيده ، وتوحيده تمييزه من خلقه ، ما تصوّر في الأوهام فهو بخلافه ، كيف يَحُلُّ به ما منه بدا ، أو يعود إليه ما هو أنشأه ، لا تماقله (١٩٦) العيون ، ولا تقابله الظنون ، قُرْبُهُ كرامته ، وبُعْدُهُ إهانته ، عُلُوُّه من غير تَوَقُّل (١٩٧) ، ومجيئه من غير تَنَقُّل هو الأول والآخر والظاهر والباطن القريب البعيد الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » انتهى .

صفة الخالقية

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(خالق بلا حاجة ، ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق ، ولا بإحداث البَرِيَّة استفاد اسم الباري ، وكما أنه محيي الموتى بعدما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم) .

الشرح :

الخلق بمعنى الإبراز من العدم صفة لله سبحانه وتعالى ودليلها من القرآن قوله تعالى ﴿ **الله خالق كل شيء** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **هل من خالق غير الله** ﴾ ؟! وقال

---

(١٩٤) يُقِلُّهُ : أي يحمله .

(١٩٥) باينهم أي : خالفهم .

(١٩٦) لا تماقله أي : لا تراه بالمقل وهي العيون .

(١٩٧) توقُّل أي : صعود .

تعالى ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ وآيات كثيرة أخرى .

فمعنى الخالق أي أنه الذي أبدع وكوّن جميع المخلوقات والحادثات ، فكل ما سوى الله تعالى حدث بخلقه وتكوينه وإبداعه ، فالخلق هو الإبراز من العدم فلا خالق بهذا المعنى إلا الله سبحانه وتعالى .

وأما قوله تعالى ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ فمعناه : أحسن المقدّرين على قول ، وعلى القول الصحيح معناها أحسن الفاعلين والمراد صانعي الأفعال ، لأن العبد يفعل والله عز وجل يفعل والله أحسن فعلاً ، أما قضية إبراز الأعيان من العدم فهي لله تعالى وحده فالخلق لا يستطيعون أن يبرزوا أجساماً من العدم ، فليس هناك خالِقِينَ أي مُبْرِزِيْنَ من العدم غير الله تعالى لكنه هو أحسنهم خلقاً .

فالمراد هنا : أن الله تعالى أَحْسَنُ المقدّرين ، لأن تقديره سبحانه لا يخطئ ، وتقدير غيره يجوز عليه الخطأ والتغيّر ، والعرب تستعمل الخلق بمعنى التقدير وقد جاء ذلك في أشعارهم وأرجازهم ، ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى يمدح رجلاً :

ولأنْتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبعـــضُ القوم يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْري

معناه كما في « لسان العرب » : أنت تُقَدِّرُ وتُنَفِّذُ ، وبعض الناس يقدر ولا يستطيع التنفيذ . انتهى .

فيصير معناه : أن لك المزية في ذلك فيجوز بهذا المعنى وهو التقدير إطلاق الخلق على غير الله تعالى .

ومن ذلك يتضح أنه لا يجوز شرعاً أن نقول ما يقوله بعض الناس اليوم : (أُخلُقْ لي كذا كما خلقك الله) لكن يجوز أن يقال مثلاً (سأخلق حالة من السرور) مثلاً أو (هذه الأسباب خلقت نهضة علمية) أو (الانتفاضة أو الحرب خلقت جوّاً من التكاثف) أو غير ذلك مما يستعمله بعض الكُتّاب والصحفيين اليوم ، لأن هذا لا يفيد إبراز الأعيان من العدم كما لا يخفى .

ويأتي الخلق في اللغة أيضاً بمعنى التصوير ، كما قال تعالى في شأن سيدنا عيسى : ﴿ **وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله** ﴾ .

ويأتي الخلق أيضاً بمعنى افتراء الكذب ، قال تعالى ﴿ **وتَخْلُقُونَ إفكاً** ﴾ أي تفترون الكذب ، فهو فعل من أفعالهم .

ويأتي الخلق بمعنى الإبلاء أيضاً قال العلامة السيد أبوبكر بن شهاب :

وما كلُّ خَطْبٍ يَخلُقُ الدهر حزنَهُ   ويَنْسَخُهُ كرُّ الجديدين مُذْ عرا

وهو مقتبس من الثوب الخَلِق أي : البالي .

ويَصِحُّ أن يقال في (يَخْلُقُ) في هذا البيت لغتين (يَخْلُقُ) كما أثبتناها وكذا (يَخْلَقُ) ، أي : يُبْلي .

ومما يجب اعتقاده أن الله تعالى كان متصفاً بصفة الخلق أي أنه خالق قبل خلق الخلق (أي قادر) ، فلم يكتسب هذا الاسم وهذه الصفة بعد خلق الخلق ، كما أنه سريع الحساب الآن وفي الأزل مع أنه لا يتجلى بهذه الصفة إلا يوم القيامة وذلك لأنَّ صفات الله تعالى قديمة وليست حادثة لقوله تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ .

ولذلك قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى : « ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه ، لم يزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته ، وكما كان بصفاته أزلياً ، وكذلك لا يزال عليها أبدياً ، **ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق** ، ولا بإحداث البرية استفاد اسم الباري ، له معنى الربوبية ولا مربوب ، **ومعنى الخالقية ولا مخلوق** ، وكما أنه محي الموتى بعدما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم ، وكذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم » .

ويكفر من اعتقد أنَّ الله تعالى لم يكن خالقاً ثمَّ صار خالقاً ، أي لم يكن قادراً على خلق المخلوقات ثمَّ صار قادراً على ذلك مع اتفاق أهل الحق على أنه لم يكن مع الله شيء ، واتفاقهم على بطلان قدم العالَم بالنوع أو قدم أفرادٍ حادثة كما يقول بعض الفلاسفة ومن تبعهم كابن تيمية .

صفة الرزق

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(رازق بلا مؤنة ، وقَدَّرَ لهم [أي الخَلْقَ] أقداراً وضرب لهم آجالاً) .

الشرح :

من صفات المولى سبحانه وتعالى أيضاً أنه رَزَّاق ، وقد وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بذلك في كتابه العزيز ، من ذلك قوله تعالى ﴿ **الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثمَّ يميتكم ثم يحييكم ، هل من شركائكم مَنْ يفعل من ذلكم من شيء ، سبحانه وتعالى عمّا يشركون** ﴾ الروم : ٤٠ ، وقوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا إله إلا هو فأنى تؤفكون** ﴾ فاطر : ٣ ، ولاحظ هنا في هاتين الآيتين الكريمتين أن الله تعالى ذكر صفة التخليق أولاً ثم أعقبها بذكر صفة الترزيق ثانياً إشارة منه سبحانه وتعالى إلى أن الله تعالى تكفّل برزق كل مخلوق من مخلوقاته وقد جاء ذلك صريحاً في القرآن ، قال تعالى : ﴿ **وما من دابّة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كل في كتاب مبين** ﴾ هود : ٦ ، وقال تعالى ﴿ **وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم** ﴾ العنكبوت : ٦٠ ، وروى مسلم في صحيحه (٤/٢٠٥١) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأُم حبيبة رضي لله عنها « قد سألتِ الله تعالى لآجال مضروبة ، وآثار موطوءةٍ ، وأرزاق مقسومةٍ . لا يُعَجِّلُ شيئاً منها قبل حلّه ، ولا يُؤخّر منها شيئاً بعد حِلّه ، ... » .

قال بعض العلماء : « الرزق رزقان ، ظاهر أي ماديّ ، كالأقوات للأبدان ، وباطن أي معنوي ، كالعلوم والمعارف للقلوب » .

وقال ابن عطاء الله السكندري في حِكَمِهِ :

« كيف يُشرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأكوان منطبعة في مرآته ؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مُكَبّلٌ بشهواته ؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة

غفلاته ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته ؟ » .

(**فائدة**) : اعلم أن الله تعالى موصوف بأنه رازق قبل أن يرزق المرزوقين ، وموصوف بأنه خالق قبل أن يخلق المخلوقين ، أي : أن للقدرة تَعَلُّقَيْنْ كما قال العلماء : تَعَلُّقٌ صَلُوحي وتعلق تنجيزي .

ومعنى ذلك أن القدرة صالحة في الأزل لخلق أي مخلوق يريده المولى تبارك وتعالى أي أن الله قادر في الأزل على خلق ما يشاء ورزق هذا المخلوق ، وأما معنى التعليق التنجيزي فمعناه أن الله تعالى إذا شاء خلق أي مخلوق أي حسب المشيئة الأزلية فإن الله تعالى يوجده في زمن مُعَيَّنٍ ومكان وصفات محددة كما شاء سبحانه .

والمراد من هذا كله إبطال قول من قال إن الله تعالى لم يزل خالقاً في الأزل بمعنى أن نوع الحوادث دائم أزلي كما يقوله الفلاسفة ومَنْ تبعهم ولا شك أن من اعتقد قِدَمَ نوع المخلوقات أو فَرْدٍ منها فإنه كافر إجماعاً ، لأنه يَرُدُّ بذلك نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة بل هو يضلل أهل الحق فيما اعتقدوه وبالله تعالى التوفيق .

[**مسألة في الرزق**] : اعلم أن الله تعالى خلق الأرزاق كلها بمعنى أنه خلق المواد والأعيان كلها وأوجدها من عدم ، قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ الذاريات : ٥٨ ، ومع هذا فقد ذكر الله تعالى أيضاً في كتابه العزيز أن الخلق يرزق بعضهم بعضاً إذ قال سبحانه ﴿ **فارزقوهم** منه وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾ النساء : ٨ وقال تعالى ﴿ وعلى المولود له **رزقهن** وكسوتهن بالمعروف ﴾ البقرة : ٢٣٣ ، ﴿ وأنت **خير الرازقين** ﴾ المائدة : ١١٤ ، وقال تعالى ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً **ورزقاً حسناً** إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ النحل : ٦٧ .

وليس الرزق هو الاغتذاء فقط بل الرزق الذي يتنعم به الإنسان يكون في المأكل والملبس وما يملكه الإنسان من أرض وعقار ودواب وما يحصل له من ذرية وأولاد !

فالرزق الحرام مادته خلقها الله تعالى في الأرض ولكن العبد اختار طريقة محرمة للحصول عليه ، وبالتالي لا يصح أن يقال بأن الله يرزق عباده الحرام ، إنما الله تعالى خلق الأرزاق والعباد يختارون الطرق الموصلة لها أو التي تحصلها إما بطرق حلال أو طرق مُحَرَّمَة .

فمن قال لنا : إن من أكل جميع عمره الحرام هل تقولون أن الله تعالى لم يرزقه ؟!

قلنا : إن هذه مغالطة ! فالله تعالى خلق في الأرض الرزق والعباد يختارون طريقاً للحصول عليه إما بطريقٍ حلال وإما بطريق حرام ! فمن أكل طول عمره الحرام فإن الله تعالى لم يبح له أكلِ ما أكله طول حياته لأنه حصله بطريق حرام وإن كان الله تعالى قد وضع قانوناً في الخلق أن الجهاز الهضمي متى وصله الطعام استفاد الجسم منه وتم توزيعه على كافة أجزاء الجسم وخلاياه ، وربما يصاب بمرض جزاء بذلك الحرام .

قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ البقرة : ٢٢ . وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ **تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا** ﴾ النحل : ٦٧ .

وقال تعالى ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ البقرة : ٦٠ . وقال تعالى ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حلالاً طَيِّبًا ﴾ المائدة : ٨٨ وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وحلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ يونس : ٥٩ . وقال تعالى ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حلالاً طَيِّبًا ﴾ النحل : ١١٤ .

صفة القدرة وصفة الإرادة والمشيئة

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ولا شيء يعجزه ، ولا يكون إلا ما يريد ، مميت بلا مخافة ، باعث بلا مشقة ، ذلك بأنه على كل شيء قدير وكل أمر عليه يسير ، وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته ، ومشيئته تنفذ ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم ، فما شاء لهم كان ، وما لم يشأ لم يكن ، يهدي مَنْ يشاء ويعصم ويعافي فضلاً ، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلاً ؛ وكلهم يتقلّبون في مشيئته بين فضله وعدله ، لا رادٌّ لقضائه ، ولا مُعَقّبَ لِحُكْمِهِ ولا غالب لأمره ، آمنا بذلك كله وأيقنا أن كلاً من عنده ، وكلٌّ ميسر لما خُلِقَ له والأعمال بالخواتيم ، والسعيد من سَعِدَ بقضاء الله ، والشقي من شقي بقضاء الله ، وأصلُ القَدَرِ سر الله تعالى في خلقه ، لم يَطّلع على ذلك ملك مُقَرّب ولا نبي مرسل ، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان ، وسُلّم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه ، كما قال تعالى في كتابه : ﴿ لا يُسْئَلُ عما يفعل وهم يُسْئلون ﴾ . فمن سأل : لِمَ فَعَلَ ؟ فقد رَدَّ حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين ، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ، ليجعلوه غير كائنٍ لم يقدروا عليه . ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ليجعلوه كائناً لم يقدروا عليه ، جفَّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة .

وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه ، فَقَدَّرَ ذلك تقديراً محكماً مُبْرَمَاً ، ليس فيه ناقض ، ولا مُعَقِّبٌ ، ولا مزيل ولا مغيّر ، ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه ، وذلك من عقد الإيمان ، وأصول المعرفة ،

والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته ، كما قال تعالى في كتابه : ﴿ وخلق كل شيء فقدّره تقديراً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وكان أمر الله قَدَرَاً مقدوراً ﴾ ، فويل لمن صار لله تعالى في القَدَر خصيماً ، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً ، لقد التمس بوهمه في فحص الَغيب سراً كتيماً ، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً ، وكلٌ يعمل لما قد فرغ له ، وصائرٌ إلى ما خُلِقَ له ، والخير والشر مُقَدَّران على العباد ، والاستطاعة التي يجب بها الفعل ، من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به فهي مع الفعل . وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوُسْعِ ، والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل ، وبها يتعلق الخطاب ، وهو كما قال تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ الله نفساً إلا وسعها ﴾ ، وأفعال العباد هي بخلق الله ، وكسب من العباد ، ولم يُكَلِّفْهُمْ الله تعالى إلا ما يطيقون ، ولا يطيقون إلا ما كَلَّفَهُمْ ، وهو تفسير « لا حول ولا قوة إلا بالله » لا حيلة لأَحَدٍ ولا حركة لأحد ولا تَحَوُّلَ لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله ، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله ، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره ، غلبت مشيئته المشيئات كلها ، وغلب قضاؤه الحيل كلها ، يفعل ما يشاء ، وهو غير ظالم أبداً ، ودين الله .... بين الجبر والقدر وبين الأمن والإياس) .

الشرح :

حوى كلام المصنف بعض المسائل منها ما هو مقبول نوافق عليه ومنه ما هو مردود ، وسنبحث هذا الآن إن شاء الله تعالى بعد أن نذكر تعريف القدرة والإرادة بمفهوم الإنسان وما ننزه الله تعالى عنه في هذا الموضوع .

اعلموا يرحمكم الله تعالى أن المولى سبحانه موصوف بأنه قادر قدير ومريد .

ومعنى القدرة في اللغة : القوة والاستطاعة ، ومعنى القدرة اصطلاحاً ـ أي عند المتكلمين ـ هنا : صفة أزلية أبدية يؤثّر الله تعالى بها في الممكنات أي في كل ما يجوز في العقل وجوده وعدمه ، وبمعناه القادر إلا أن القدير أبلغ .

والحق أننا نقول بأن حقيقة صفات الله تعالى لا يمكن تعريفها لأن الله تعالى ليس كمثله شيء ولأنه خاطبنا بألفاظ نفهمها تدل على الكمال ليفهمنا أنه عظيم عليٌّ متعالٍ مُنَزَّهٌ عن النقائص والعجز .

ومعنى الإرادة أو كونه تعالى مريداً : أنه قادر على تكوين ما سبقت به إرادته ، لا يعجزه عن ذلك شيء ، ولا يمانعه أحد ، ولا يحتاج إلى استعانة بغيره ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن(١٩٨) .

وقال الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه « المفردات » ص (٣٩٤) :

[القُدرةُ إذا وُصِفَ بها الإنسان فاسمٌ لهيئةٍ له بها يتمكنُ من فعل شيءٍ ما ، وإذا وُصِفَ الله تعالى بها فهي نفي العجز عنه ومحالٌ أن يوصف غيرُ الله بالقدرةِ المطلقةِ معنى وإن أُطلق عليه لفظاً بل حقهُ أن يقال قادرٌ على كذا ، ومتى قيل هو قادرٌ فعلى سبيل معنى التقييد ولهذا لا أَحد غير الله يوصف بالقدرة من وجهٍ إلا ويصح أن يوصف بالعجز من وجهٍ ، والله تعالى هو الذي ينتفي عنه العجز من كل وجهٍ . والقدير هو الفاعل لما يشاءُ على قَدْرِ ما تقتضي الحكمة لا زائداً عليه ولا ناقصاً عنه ، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالى قال : ﴿ **إنهُ على ما يشاء قديرٌ** ﴾ والمقتدرُ يقاربه نحو ﴿ **عند مليكٍ مقتدرٍ** ﴾ لكن قد يوصف به البشر وإذا استعمل في الله تعالى فمعناه معنى القدير ، وإذا استعمل في البشر فمعناهُ المتكلف والمكتسب للقدرة] انتهى .

ودليل القدرة قوله تعالى : ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ ودليل المشيئة والإرادة قوله تعالى ﴿ **إن الله يفعل ما يشاء** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ ومعنى هذه الآية :

أن الله تعالى إذا أراد أن يوجد شيئاً فلا بد أن يوجده ولا يستطيع شيء أن يمانعه ، لا أنه يقول للعدم لفظة (كن) وإنما هذا من مجاز اللغة كما هو معروف عند العرب .

---

(١٩٨) ومعناها ما شاء الله تعالى أن يكون كان والعكس بالعكس وقد شاء سبحانه أن يكون العباد مخيرون في أفعالهم وأن لا يجبرهم عليها فكان ذلك والحمد لله تعالى .

[**تنبيـــه مهـــم**] : اعلم بأن مشيئة الله تعالى لا تتغـيّر ولا تتبـدّل ، لأن التغير دليـل الحـدوث ، والحـدوث محـال في حـق الله سبحانه ، فـالله تعـالى يغـير المخلوقات ويتصرّف فيها بما شاء على حسب إرادته ومشيئته الأزلية ، لقوله تعـالى ﴿ **لا تبديـل لكلمـات الله** ﴾ ولقولـه ﴿ **لا تبديـل لخلـق الله** ﴾ الروم : ٣٠ ، ولقولـه تعالى : ﴿ **ما يُبَدَّلُ القول لديَّ وما أنا بظلام للعبيد** ﴾ ق : ٢٩ ، وقـال تعـالى ﴿ **سنّة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً** ﴾ الأحزاب : ٦٣ .

وفي « صحيح مسلم » (٢٢١٦/٤) عن سعد بن أبي وقاص أن النـبي صلـى الله عليه وآله وسلم قال : « سألتُ ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتـين ومنعـني واحـدة ، سـألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسَّنَة ـ أي المجاعة ـ فأعطانيهـا ، وسـألته أن لا يهلـك أمـتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » وفي روايةٍ أخرى في صحيح مسلم : « وإن ربي قال : إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يُرَدُّ » .

فيتبين بذلك بكل وضوح أن تقدير الله تعالى وقضاءه لا يتغـيّر لا لدعـوة نـبي ولا لدعوة ولي ولا بشيء من الأشياء البتة وحديث « لا يُـرَدُّ القَـدَرُ إلا بالدعـاء » ضعيف في سنده عبدالله بن أبي الجعد ، لم يوثقه إلا ابن حبـان ونقـل الحـافظ ابـن حجر في « تهذيب التهذيب » (١٤٩/٥) عن ابن القطان أنـه قـال : مجهـول الحـال ، وحديثه هذا منكر المتن لأنه معارض للقرآن وللأحاديث الصحاح .

وقـد أوّلـه الحـافظ ابـن حبـان في صحيحـه (١٥٤/٣) ـ علـى فـرض كونـه صحيحاً ـ فقال :

« ودوام المرء على الدعاء يطيب له ورودَ القضاء ، فكأنه ردَّه لقلّة حِسِّه بألمه » وهذا تأويل حسن جداً .

وحديث « الدعاء يرد القضاء » رواه الحاكم (٤٨١/٣) كما قال المناوي ، وقـال الذهبي هناك : « قلت : ابن قرين كذاب وسعيد واهٍ وشيخه ضعّفه ابن معين » .

قلـت : فالحديث موضوع .

وحديث « لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفـع ممـا نـزل ومـا لم يـنزل ، **وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيتعالجان إلى يوم القيامة** » حديث واهٍ أي ضعيف جداً .

قال الذهبي : زكريا ـ الذي في سنده ـ مجمعٌ على ضعفه . **قلت** : بل قال أبوزرعة فيه : واهي الحديث منكر الحديث . انظر« تهذيب التهذيب » (٣/ ٢٨٨) وقال الذهبي في « الميزان » (٢/ ٧٥) : « قال الدارقطني : متروك » وأورد الحديث الحافظ ابن حجر في « التلخيص » (٤/ ١٢١) ونص على أن زكريا متروك **فالصواب أن هذا موضوع** .

وحديث « لا يرد القضاء إلا الدعاء » رواه الترمذي (٤/ ٤٤٨) وفي سنده أبو مودود اسمه فِضّه وهو ضعيف كما قال أبوحاتم الرازي (انظرالجرح والتعديل ٧/ ٩٣) .

وأما معنى قوله تعالى ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾ فمعناه أن الله تعالى يمحو ما يشاء في صحف الملائكة وعنده اللوح المحفوظ حيث دُوِّن فيه ما سيحصل فلا محو ولا إثبات فيه ، والمراد بقولنا هنا (عنده اللوح المحفوظ) أي : لا يطّلع عليه أحد البتة . كما جاء في الحديث الصحيح الآخر (إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني) .

ويجوز أن نقول أيضاً إن المحو والإثبات يكونان في اللوح المحفوظ أما في علم الله تعالى فلا يجوز التغيّر والتبديل بحال من الأحوال بل هو من الأمور المستحيلة بلا شك ، وهذا هو المراد والمقصود من المسألة .

فالمحو والإثبات راجع على بعض خلق الله تعالى لا على الله تعالى حيث لا يجوز عليه التبديل ولا التغيّر ، والأصح أن المراد بقوله تعالى ﴿ **يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾ هو القول الأول الذي قدّمناه وهو أن المحو والإثبات عائد على صحف الملائكة التي بأيديهم والتي يُكْتَب فيها مثلاً : إن وصل فلان رَحِمَهُ عاش خمسين سنة وإن لم يصل رحمه عاش أربعين ، فمتى حصل الذي سيقع في علم الله تعالى أُثبت الكائن الحاصل ومُحِيَ الذي لم يقع وهكذا ، وهذا الذي ذهبنا إليه واعتمدناه من أن المحو والإثبات عائد على صحف الملائكة لا على اللوح المحفوظ هو الموافق لظواهر الآيات والأحاديث .

وروى ابن أبي عاصم (١/ ٥١) والبخاري (١١/ ٤٩١) معلّقاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

« قال لي النبي صلى الله عليه وآله وسلم جَفَّ القلم بما أنت لاقٍ » . قال الحافظ ابن حجر في شرحه : « قوله (جفَّ القلم) أي فُرِغَتْ الكتابة إشارة إلى أن الذي كتب في اللوح المحفوظ لا يتغير حكمه ، فهو كناية عن الفراغ من الكتابة لأن الصحيفة حال كتابتها تكون رطبة أو بعضها وكذلك القلم فإذا انتهت الكتابة جفت الكتابة والقلم » .

وجاء في صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٤) عن عبدالله بن عمرو قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ... »[١٩٩] قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١١/ ٤٨٩) : « هو محمول على كتابة ذلك في اللوح المحفوظ على وفق ما في علم الله سبحانه وتعالى » انتهى .

وأما ما رواه البخاري (١٠/ ٤١٥) وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « من سرّه أن يُبْسَطَ له في رزقه ، وأن يُنْسأ له أثره فليصل رحمه » فمعنى الزيادة في العمر هنا البركة فيه لا زيادة عدد السنين والأيام . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٠/ ٤١٦) :

[قال ابن التين : ظاهر الحديث يعارض قوله تعالى ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ والجمع بينهما من وجهين : (**أحدهما**) أن هذه الزيادة كناية عن البركة في العمر بسبب التوفيق إلى الطاعة ، وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة ، وصيانته عن تضييعه في غير ذلك . ومثل هذا ما جاء أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تقاصر أعمار أمته بالنسبة لأعمار من مضى من الأمم فاعطاه الله ليلة القدر .

وحاصله أن صلة الرحم تكون سبباً للتوفيق للطاعة والصيانة عن المعصية فيبقى بعده الذكر الجميل ، فكأنه لم يمت . ومن جملة ما يحصل له من التوفيق العلم الذي ينتفع به مَنْ بعده ، والصدقة الجارية عليه ، والخلف الصالح . وسيأتي مزيد

---

[١٩٩] وإنني أميل إلى أن هذا الحديث من الإسرائيليات لأنه من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص ، ولآن فيه إدخال تقدير الله تعالى وعلمه بالأشياء في الزمن ، والله تعالى أعلم .

لذلك في كتاب القدر إن شاء الله تعالى . (**ثانيهما**) أن الزيادة على حقيقتها ، وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل بالعمر ، وأما الأول الذي دلت عليه الآية فبالنسبة إلى علم الله تعالى ، كأن يقال للمَلَكِ مثلاً : إنَّ عُمُرَ فلان مائة مثلاً إنْ وصل رحمه وستون إن قطعها . وقد سبق في علم الله أنه يصل أو يقطع ، فالذي في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر ، والذي في علم الملك هو الذي يمكن فيه الزيادة والنقص وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾ فالمحو والإثبات بالنسبة لما في علم الملك ، وما في أم الكتاب هو الذي في علم الله تعالى فلا محو فيه البتة . ويقال له القضاء المبرم ، ويقال للأَول القضاء المعلق . والوجه الأَول أليق بلفظ حديث الباب ، فإن الأَثر ما يتبع الشيء ، فإذا أُخِّرَ حَسُنَ أن يحمل على الذكر الحسن بعد فقد المذكور] انتهى .

وقال الحافظ أيضاً في « الفتح » (٩/١١٩) :

« قوله (جفَّ القلم بما أنت لاقٍ) أي نفذ المقدور بما كتب في اللوح المحفوظ فبقي القلم الذي كتب به جافاً لا مدادَ فيه بفراغ ما كتب به . قال ـ القاضي ـ عياض : كتابة الله ولوحه وقلمه من غيب علمه الذي نؤمن به ونكل علمه إليه » .

ومن هذا يتبين خطأ بعض الناس الذين يدّعون بأنهم يطّلعون على اللوح المحفوظ !! ويظنهم عوام الناس أنهم أولياء مقربون !!

كما يتبين مما تقدّم أن العبد مُخَيَّرٌ وليس مسيراً ، ولذلك كلّفه الله تعالى بالأحكام الشرعية واختبره بفعلها والجزاء عليها ، وأرسل الرسل وأنزل الكتب لذلك ، فليس لإنسان أن يحتج بالقدر ، أي فلا يجوز لإنسان مثلاً **إذا قيل له** : اتق الله ولا تعصه وقم بما أمرك الله تعالى به ، أو أقم الصلاة التي فرضها الله عليك . **أن يقول** : لَمْ يُقَدِّر الله عليّ الهداية أو نحو هذا الكلام ، لأنه لم يطّلع على علم الله تعالى ولا يعرف في الحقيقة هل هو مكتوب من أهل السعادة أم من أهل الشقاوة ، فلذلك يجب عليه أن يعمل ولا يتّكل .

وأكبر برهان على أن هذا الإنسان غير صادق في تحججه بالقدر أنه إذا جاع وأراد أن يأكل أو يشرب أو يفعل ما يمليه عليه هواه أو شهواته فإنه لا يجلس هكذا

حتى يموت جوعاً وهو يقول إن الله تعالى لم يقدّر لي أن آكل وقد قدّر عليّ أن أبقى جائعاً ، وإنما يقوم ويأخذ بالأسباب في الطبخ والنفخ ، ولا نراه يأخذ بأسباب الهداية !!

فتبين لنا بذلك أن القضاء والقدر لا يعني أن الإنسان مجبور ومقهور ومسيّر فيما يحصل له ، إنما المراد بالقضاء والقدر أن هذا الأمر سبق في علم الله أنه سيكون كذا ولا يكون كذا ، وعلى ضوء أو وفق علم الله تعالى كُتِبَ في اللوح المحفوظ بأنه سيحدث كذا وسيقع كذا ، وهذا مما لم نطّلع عليه ولم نعرفه(٢٠٠) ، والإنسان أيضاً غير مجبر عليه البتة ، ولذلك يشعر وهو الواقع والحقيقة كل إنسان منا بأنه مختار في أفعاله وأنه يستطيع أن يفعل ما يشاء من المعصية أو الطاعة أو غيرهما من المتضادات ، ولا يشك في ذلك عاقل !! ولذلك قال الله تعالى ﴿ **وهديناه النجدين إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾ ولو كان مُجْبَرَاً على أعماله ومُسَيَّرَاً فيها لم يصح مثل هذا الإخبار من الله تعالى وهو محال !!

ومثل هذا قوله تعالى ﴿ **وأمّا ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى** ﴾ فصّلت : ١٧ ، ومن ذلك تعلم المعنى الحقيقي المراد من قوله تعالى ﴿ **قل إن الله يضل مَنْ يشاء ويهدي مَنْ أناب** ﴾ الرعد : ٢٧ ، أي أنه وقعت مشيئة الله تعالى وإرادته أن يُضلَّ مَنْ شاء الضلال ومعنى ذلك أنه تعالى يحكم عليه بالضلال أي بأنه ضال ، ويهدي مَنْ رجع إليه وشاء الهداية وأرادها فيحكم عليه بأنه من المهتدين .

ذكر كلام الإمام الطحاوي الذي يحتاج للتعقب :

(لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم) إن أراد المصنف أنهم لا يستطيعون أن يعملوا شيئاً إلا أن يكون سبحانه قد شاءهم له مثل كون بعض الناس لا يستطيعون فعل الطاعة لأن الله تعالى شاء لهم فعل المعصية فهذا كلام باطل

---

(٢٠٠) ولا يرد علينا هنا قول من قال : إنَّ بعض الأولياء يطّلعون على اللوح المحفوظ ، فهذا لا يصح ونحن نعتقد أنه كذب وباطل !! فافهم !! وذلك لأنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يطلع على اللوح وهو سيد الأولياء والأنبياء والمرسلين ولو اطّلع على اللوح لما تحيّر صلى الله عليه وآله وسلم في مثل حادثة الأفك ولما نزل عليه الوحي يحذره من أشياء !! فلا تغفل عن هذا !!!

مردود ! لأن الله جل جلاله لا يرضى المعصية ولا يحبها ولا يُلْجأُ خلقه إليها حتى يعذبهم بالنار لأن هذه الأمور ظلم والله تعالى مُنَزَّهٌ عن الظلم ، ففكرة أن العباد لا يشاءون المعاصي والكفر إلا لكون الله تعالى قد شاءها وأرادها لهم وقدَّرها عليهم وقضاها فكرة باطلة مردودة .

(**فما شاء لهم كان ، وما لم يشأ لم يكن**) هذا الكلام تأكيد للفكرة الغَلَط ، فهو يريد أن يثبت بأن الله تعالى شاء لهم المعاصي والكفر أو الطاعات والإيمان ولذلك شاءوه كما يدل عليه عبارته الآتية بعد هذا !

(يهدي مَنْ يشاء ويعصم ويعافي فضلاً ، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلاً) الله تعالى يهدي الناس ولا يضلهم بمعنى يلجأهم إلى الضلال ويخلقه فيهم تعالى الله عن ذلك ! وإنما معنى يضلهم أي يحكم عليهم بأنهم ضالون لأنهم عصوا أمره وارتكبوا نهيه وفعلوا ما فيه معصيته !

قال تعالى ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ البقرة : ٢٨ ، أي لا يحكم بالضلال به إلا لأجل فسقهم وإعراضهم عنه وعدم إيمانهم به ، وكلام المصنف يفهم منه أن الله تعالى شاء أن يهدي طائفة من الناس من القِدَم وشاء أن يضل طائفة وهذه فكرة باطلة وغير صحيحة !

وقوله (وكلهم يتقلّبون في مشيئته) هذا تصوير جبري خطأ لحال الخلق ! يريد أن يصل من هذه الصياغة إلى أن أفعال الخلق تحدث رغم أنفهم بإلجاء الله تعالى لهم إليها وأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا غيرها ولا يمكنهم ذلك ! فهو يغطي كل هذه العقيدة الفاسدة بعبارته هذه مع أنها عقيدة غير مقبولة ! إذ لا ينكر أحد من المسلمين أن الكون والعالَم بأسره خلقه الله بإرادته ومشيئته وقدرته ، وشاء سبحانه أن يجعلنا مختارين فيما نفعل ، ولم يُكْرِهنا أو يلجئنا أو يغصبنا أو يجبرنا على أن نقوم بما نفعله بل قال جلَّ شأنه ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ الكهف : ٢٩ !

وأما معنى قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ آل عمران : ٨ ، فهي كما قال القرطبي في تفسيرها : (ألا يبتليهم بما يثقل عليهم من الأعمال) وليس في

ذلك دلالة على أن الله تعالى يزيغ القلوب بالمعنى المفهوم عند العامة والجبرية ، كما قال الله تعالى ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ معناها كما قال القرطبي في تفسيره : [فلما زاغوا أي مالوا عن الحق أزاغ الله قلوبهم أي أمالها عن الهدى وقيل فلما زاغوا عن الطاعة أزاغ الله قلوبهم عن الهداية وقيل فلما زاغوا عن الإيمان أزاغ الله قلوبهم عن الثواب] وهذا الأخير هو المعنى الصحيح المختار دون غيره .

وقوله (بين فضله وعدله ، لا رادَّ لقضائه ، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، ولا غالب لأمره ، آمنا بذلك كله) هذا حق يريد به تغطية الباطل الذي يريده لإرضاء المحدثين المجسمة الذين يريدون أن يثبتوا عقيدة الجبر مكايدة منهم لمن ينبزونهم بالجهمية والقدرية من المعتزلة وأئمة الحق من آل البيت عليهم سلام الله تعالى الرادين على الجبر والمفندين له !

وقوله (وأيقنا أن كلاً من عنده ، وكلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لـه) هذا ما يريد أن يصل إليه ويؤكد عليه من أن الشقاء مثلاً مُقَدَّر على الإنسان قبل أن يُخْلَق بحيث ليس بوسعه أن يعمل غير ذلك ! سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم !

فجملة (وأيقنا أن كلاً من عنده) يريد المصنف بهذه الجملة أن أعمال الخير والشر التي تقع من العباد كلها من عند الله ! تعالى الله عن ذلك وهو القائل ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ الأنفال : ٥١ ، فالله تعالى يقول بما قدمت أيديكم وبما كسبت أيديكم وهؤلاء القوم يقولون هي من عند الله تعالى ! تعالى الله عما يقولون !

قوله (والأعمال بالخواتيم) قول صحيح فلو آمن العبد طوال حياته ثم كفر وارتد في آخر عمره عُدَّ من الكفرة الفجرة واستحق الخلود في النار !

لكن لا يجوز الاستدلال بهذا الجملة في التهوين على المجرمين والظلمة البغاة القَتَلَة أنه ربما يختم لهم بالخير !! فالذي أمضى حياته في البغي والعدوان كان ذلك دليلاً على أنه سيكون من أصحاب الجحيم ! اللهم أعذنا من عذابك وعقابك ووفقنا والطف بنا للثبات على دينك والإيمان بك يا أرحم الراحمين .

وقوله (والسعيد من سَعِدَ بقضاءِ الله ، والشقي من شقي بقضاء الله) كلام باطل مردود ! لأنه يفيد أن الله تعالى أجبره على الشقاء وألجأه إليه ! وكذلك السعادة ! والله عز وجل خلق الناس وجعلهم مختارين في هذه الحياة الدنيا ومكنهم من ذلك فخلق لهم قدرة وقوة وإرادة واختياراً ! قال تعالى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ فصلت : ١٧ وقال تعالى ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ الأعراف : ١٥٨ ، فالله تعالى أمر باتباع النبي ليهتدي العبد ويعده الله من جملة المهتدين ـ وهو يعلم بحاله قبل أن يخلقه لكنه لم يجبره ويكرهه على شيء ـ فإن كان العبد قد شقي بقضاء كما يزعم المصنف ولا يستطيع أو يتمكّن من عمل الصالحات لما قال له الرب سبحانه ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ !

وقال تعالى ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ **فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ يونس : ١٠٨ .

وقوله (وأصلُ القَدَرِ سر الله تعالى في خلقه ، لم يَطّلع على ذلك ملك مُقرّب ولا نبي مرسل) إنما يقولون هذا الكلام لأن تقدير أفعال العباد بالصورة التي يقولونها للا يمكن أن تُفْهَم ! لأنها مبنية على التناقضات ! وهم محتارون في كونها هل هي أفعال العباد أم أفعال الله تعالى ؟!

وقوله (والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان ، وسُلّم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه) لا أدري كيف يقول المصنف هذا كله بعدما بيَّن لنا ذلك السر وهو أنه (لا مشيئة للعباد) وأنهم (يتقلبون في مشيئته) وقد امتلأت كتب التوحيد والعقائد ببيان مسألة الكسب على الطريقة الأشعرية أو التيمية أو غيرها في الكلام على خلق الأفعال وهي كونها مخلوقة لله تعالى مع كونها فعل العبد وعمله ! وبعضهم يقول : ليس في الوجود فعل للعبد وإنما الفعل لله والكسب للعبد ثم ينقض ما أبرمه بقوله إن الخاطر يخلقه الله في الذهن ويخلق الميل إليه والهم والعزم على فعله ! ثم يخرج بنتيجة بأن القدر والكسب سر لا يمكن فهمه !!

وكل ذلك ليس إلا فكر الأمويين ومحاولة إفهامهم للناس بأن الأمر أُنُف وأنه لا حيلة للعبد ولا طاقة إلا أن يفعل ما قدَّره الله تعالى عليه ! مع أن الله عز وجل خلقه مختاراً وأعطاه القدرة والعقل !

وقوله (كما قال تعالى في كتابه : ﴿ لا يُسْئَلُ عما يفعل وهم يُسْئلون ﴾ . فمن سأل : لِمَ فَعَلَ ؟ فقد رَدَّ حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين) لا علاقة للآية الكريمة في القضية التي نحن بصددها ولا في الموضوع الذي نبحث فيه ! والتكفير هنا سلاح إرهابي فاشل ! ينم على أن صاحبه غارق في مصادرة قول مخالفيه بالباطل وبإقناع العامة بالغوغائية المتوشحة بسلاح التكفير الذي ليس له فعل ههنا !

قوله (فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كَتَبَهُ الله تعالى فيه أنه كائن ، ليجعلوه غير كائنٍ لم يقدروا عليه . ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ليجعلوه كائناً لم يقدروا عليه) ما قاله هنا صحيح إلا كلمة (كَتَبَهُ) إذ كان عليه أن يقول بدلها (أرادَهُ) ! وإذا كان مراده بذلك أن أعمال العباد قدَّرها الله وكتبها عليهم بحيث ما كان بوسعهم أن يفعلوا خلافها فيصير مراده بكلامه هذا كله خطأً محضاً وغير صحيح !

لأن ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ مثلاً لا يقتضي أن العبد مجبور عليه ! فكون الله تعالى عالماً بما سيفعل العبد لا يقتضي إجبار العبد وإلجائه وإكراهه على أفعاله الاختيارية !

قوله (جفَّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة) إذا أريد بذلك علم الله تعالى بما سيحدث وما هو مدوَّن في اللوح المحفوظ فنعم ، وإذا كان المراد بذلك تقدير أعمال العباد وأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا إلا ما كُتِب عليهم فلا ، فعلم الله تعالى بالأشياء مسبقاً لا يقتضي الجبر ، وعلى ما ذكرنا تُحْمَل الأحاديث الواردة في (جف القلم) أو (رُفِعَتْ الأقلام وجفت الصحف) .

أما الحديث الأول : فروى البخاري في صحيحه (٥٠٧٦) عن أبي هريرة قال : قلت يا رسول الله : إني رجل شاب وأنا أخاف على نفسي الْعَنَتَ ولا أجد

ما أتزوج به النساء فسكت عني ثم قلت مثل ذلك فسكت عني ثم قلت مثل ذلك فسكت عني ثم قلت مثل ذلك فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « يا أبا هريرة جف القلم بما أنت لاق فاختَصِ على ذلك أو ذر » .

هذا حديث آحاد لا يرد ما قررناه وقد صح نهي النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الاختصاء فكيف يقول ههنا (فاختَصِ) ؟! وفي سنده الزهري وراويه أبو هريرة !! الزهري مشهور بالإدراج ، وأبو هريرة لا يعارض خبره ولا خبر غيره ما هو مقطوع به من أن العباد مخيرون وليسوا مجبورين !

وأما الحديث الثاني : فهو حديث ابن عباس قال : كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً فقال : « يا غلام إني أُعَلِّمك كلماتٍ احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » رواه الترمذي (٢٥١٦) وغيره وقال : « حسن صحيح » وليس كذلك ! بل هو ضعيف لا يثبت !

قال العقيلي في كتابه « الضعفاء » (٣/٥٣) : [وقد روي هذا الكلام عن بن عباس من غير طريق أسانيدها لينة وبعضها أصلح من بعض] .

وقوله (وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه) هذه هي قضية الكَتْب والكتابة التي يزعمونها بالمعنى الذي يريدون ! وأصلها الاختلاف في معنى قوله تعالى ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ ونحن نقول بأن معنى كتب (علم) لأننا نعلم أن العبد غير مجبر ولا مكره وأنه يستطيع أن يفعل ما يشاء وقد ثبت النقل بذلك ، وقد ورد في القرآن استعمال كتب بمعنى علم ، قال الله تعالى ﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ أي يعلم ما يبيتون ! وليس معناها يكرههم ويلزمهم على ما يبيتون ! فيكون معنى قوله تعالى ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ أي ما علم الله لنا أنه سيصيبنا ، وهذه قضية بلاغية ومجازية معناها التشجيع والحث .

وقوله (وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه)

العلم عندنا لا يقتضي الجبر وأن العبد مكره على فعله وعمله ! فلا دلالة في ذلك على ما يريده المصنف ومن يقول بخلق الأفعال !

وقوله (فَقَدَّرَ ذلك تقديراً محكماً مُبْرَماً ، ليس فيه ناقض ، ولا مُعَقِّبٌ ، ولا مزيل ولا مغيّر ، ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه) التقدير بمعنى الجبر والإلجاء ونفي الاختيار أمر مرفوض بل باطل ! لأن العقل والنقل قرر أن الإنسان مختار يستطيع عمل هذا وذاك والشيء وضده ، قال تعالى ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ نصلت : ٤٠ ، والآيات في ذلك كثيرة والحس والمشاهدة والشعور يقضيان بأن الإنسان مختار !

والمصنف ذكر السموات والأرض ومن فيهن وهذا لا نخالفه فيه إذ ليست الأعيان التي في السموات والأرض محل النزاع في هذه القضية وإنما محل النزاع أفعال العباد وهي التي نقول بأن العبد مختار غير مُكْرَه فيها !

قوله (وذلك من عقد الإيمان ، وأصول المعرفة ، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته) ليس كذلك ! لأنه ليس من الإيمان حقاً الاعتقاد أن العبد مجبور مكره لا يستطيع أن يعمل باختياره ! والله تعالى خلقة مختاراً ومكنه أن يفعل ما يشاء ونص على ذلك في كتابه في مثل قوله تعالى ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ الكهف : ٢٩ ، وقوله ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ الإنسان : ٣ .

فالقول بأن العبد مختار يستطيع أن يفعل ما يشاء ويفعل الشيء وضده مناقض للتوحيد وعقد الإيمان وربوبية الخالق سبحانه كما يزعم المصنف ويحاول أن يهول به !!

وقوله (كما قال تعالى في كتابه : ﴿ وخلق كل شيء فقدَّره تقديراً ﴾) هذه الأية الكريمة ليست دليلاً لما يريد المصنف إثباته من أن أعمال العباد مقدَّرة عليهم وهم مجبورون ومكرهون عليها ! فمعنى **﴿ فقدَّره تقديراً ﴾ جعله بمقدار بدلالة قوله تعالى ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾** الرعد : ٨ ، **فكل شيء خلقه الله تعالى بمقدار وميزان وإحكام وإتقان ، هذا هو المراد بالأية !**

فالكلام ليس على ظاهره بل هو مخصوص إن قلنا بأن معنى ﴿ تقديراً ﴾ أي بِقَدَر ؛ بأن المراد بذلك غير أفعال العباد لأن ما قبلها وهو قوله تعالى ﴿ وخلق كل شيء ﴾ مخصوص أيضاً ومستثنى منه ! فالله شيء ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله ﴾ والقرآن شيء وهم يغالطون ويقولون بأن القرآن غير مخلوق ونص الآية التي جاء بها المصنف ﴿ وخلق كل شيء ﴾ فهل يدخلون ما ذكرناه في أنه مخلوق ؟!

وقوله (وقال تعالى ﴿ وكان أمر الله قَدَرَاً مقدوراً ﴾) هنا الكلام عن أمر الله تعالى وليس عن أفعال العباد فكيف يفسروا أمر الله تعالى بأفعال العباد ؟! وهل معاصي الإنسان وفسقه من أمر الله ؟! ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ ؟!

ومعنى الآية أن أمر الله تعالى وإرادته في ملكه نافذ لا معيف ولا راد له ! وقد أراد سبحانه أن يكون العباد مخيرون مختارون في أعمالهم وأفعالهم ! لا كما يزعمه أهل الجبر ! ففسد بذلك استدلال المصنف على ما يريد !!

قوله (فويل لمن صار لله تعالى في القَدَرِ خصيماً ، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً ، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سِراً كتيماً ، وعاد بما قال فيه أفّاكاً أثيماً) هذا تهويل فارغ لا معنى له وهو مبني على حديث باطل منكر وهو ما رواه بقية عن حبيب بن عمر عن أبيه عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « ينادى مناد يوم القيامة ليقم خصماء الله فتقوم القدرية »(٢٠١) .

قال ابن أبي حاتم في « العلل » (٢/ ٤٣٥) عن أبيه : [هذا حديث منكر وحبيب ابن عمر ضعيف الحديث مجهول لم يرو عنه غير بقية] ، وذكره الدارقطني في كتاب « العلل » (٢/ ٧١) والحافظ الهيثمي في « المجمع » (٧/ ٢٠٦) وبين وهاءه وضعفه ! أبمثل هذا يبني تشنيعاته على الخصوم وهم محقون ؟!

فتلخص أن الذي يقول بالجبر هو من صار لله تعالى خصيماً مصداقاً لقوله تعالى حكاية عن الكفار والمجرمين المحتجين على الله تعالى بالقدر وبمشيئته في

---

(٢٠١) رواه الطبراني في الأوسط (٦/ ٣١٧) و (٧/ ١٦٢) وابن أبي عاصم (١/ ١٤٨) وغيرهما .

إجبارهم على الكفر والشرك ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا ءَابَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ ﴾ الأنعام ١٤٨ .

وقول المصنف عائباً على من لا يقول بخلق الأفعال ولا بالجبر (لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً) من العجب العجاب !! إذ كيف يكون مخالفوه عندما يتكلمون في هذه المسألة قد خاضوا في سر كتيم ولا يكون هو ومن يوافقه في رأيه يخوضون في سر كتيم الذين يخوضون في الجبر ويحتجون بالغيب وعلم الله تعالى ويتوهمون أنه يخلق فيهم أفعالهم من بداية إخطار الفعل في أذهانهم حتى الفراغ منه وفعله ؟!!

هل رأيتم كيف يغالط هؤلاء ويحاولون عبثاً التشنيع على مخالفيهم بإنشاءيات فارغة عند العلماء والعقلاء !!

قوله (وكلٌّ يعمل لما قد فرغ له ، وصائرٌ إلى ما خُلِقَ له) هذا هو الجبر بعينه وهو باطل من القول وتقدَّم تفنيده !!

قوله (والخير والشر مُقَدَّران على العباد) أيها الناس لو كان الشر مقدَّر عليكم فَلِمَ ينكر الله تعالى الشر والكفر والطغيان على الكفار والمشركين والمنافقين والمجرمين وهو مقدره عليهم ؟! ولماذا ينكر الله عليهم احتجاجهم بالمشيئة والتقدير في الآية السابقة قبل قليل ! وهذا وحده كاف في نسف ما ذكره المصنف !

وقوله (والاستطاعة التي يجب بها الفعل ، من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به فهي مع الفعل . وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوُسْع والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل ، وبها يتعلق الخطاب ، وهو كما قال تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نفساً إلا وسعها ﴾) كلام المصنف هذا لا معنى له ولا خطام ولا زمام ! فلا يستحق التفنيد !

أما الآية الكريمة فهي حجة عليه في القدر وليست في صالحه إذ لو كان الإنسان قد قدَّر الله عليه أفعاله وصائر إلى ما خُلِقَ له كما يزعم وليس في وسع

الكافر أن يكون مؤمناً فكيف يكلفه الله بالإيمان وليس هو في وُسْعِه ؟! ولذلك اضطرب القوم وتخبطوا حتى زعم الأشعري أن الله تعالى يكلف العبد ما لا يطيق ! وحالف في ذلك الماتريدية كما نقل ذلك التاج السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » (٣/ ٣٨٧) ! حيث قال :

والأشعري إمامنا لكننا　　في ذا نخالفه بكل لسان

وقوله **(وأفعال العباد هي بخلق الله ، وكسب من العباد)** هذه قضية باطلة لما أسلفنا ! وهذا تصريح بالكسب بالمعنى الفاسد ! وهذا مما علم العلماء أنه من ابتداعات وابتكارات الأشعري وهو المسمى (بكسب الأشعري) والطحاوي توفي قبل الأشعري بأربع عشرة سنة ! وهذا مما يشككنا في نسبة هذا المتن للطحاوي !

وقوله **(ولم يُكَلِّفْهُمْ الله تعالى إلا ما يطيقون ، ولا يطيقون إلا ما كَلَّفَهُمْ)** هذا تصريح بمخالفة الأشعري في قوله بالتكليف بما لا يطاق كما قدَّمنا قبل قليل عن التاج السبكي !!

والشطر الثاني من كلام المصنف باطل غير صحيح ولا دليل عليه وهو فاسد عقلاً ! فالحج مثلاً فرضه الله تعالى على العبد مرة في العمر والعبد يستطيع أن يحج أكثر من مرة ، ولم يكلف العبد مثلاً أن يحمل في اليوم حجراً ثقيلاً مرة واحدة والعبد يقدر على ذلك !

وقوله **(وهو تفسير : « لا حول ولا قوة إلا بالله » لا حيلة لأَحَدٍ ولا حركة لأحد ولا تَحَوُّلَ لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله ، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله)** معنى لا حول ولا قوة إلا بالله : أي : أن حولنا وقوتنا وقدرتنا هو عطاء من الله تعالى أنعمه علينا ومكننا به من عمل ما نشاء في دار الامتحان من خير أو شر .

وتفسيره (إلا بالله) بقوله (إلا بمعونة الله) تحكم مبني على عقيدة غير صحيحة حقيقتها الجبر والإكراه ! وهذا الإكثار من الكلام الذي يقترفه المصنف في هذا الإنشاء غايته تجميع المتشابهات لنصر عقيدة الجبر والإكراه !!

وقوله (وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره) نعم لكن بخلاف مراد المصنف ! فقد جرت مشيئة الله تعالى وعلمه وقضاؤه وقدره أن يكون الإنسان مختاراً يفعل ما يشاء من خير أو شر ! وبذلك يقع الحساب والجزاء ، قال تعالى ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ النحل : ٣٢ ، وقال تعالى ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الأحقاف : ١٤ .

قوله (غلبت مشيئته المشيئات كلها ، وغلب قضاؤه الحيل كلها) هذا لبس في المفاهيم قاده إليه إصراره في الدفاع عن فكرة الجبر ، فتكلم بحق أراد به باطلاً ، فإن قصدنا بالمشيئة مشيئة الحتم والإلزام فلا أحد يغالب الله فيها وقضاء المولى جل وعز فيها نافذ ، كقوله تعالى ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ ، والمشيئة هنا يمكن أن نقصد بها أموراً :

منها : إذا أراد الله تعالى وشاء إنفاذ أمر ما وشاء العبد أو العبد خلاف ذلك فإن مشيئته تعالى هي النافذة دون مشيئتهم . فيكون معنى المشيئة هنا هو الإمضاء والإنفاذ والتكوين والإيجاد !

ومنها : الإرادة بمعنى الطلب ، فإذا طلب سبحانه من العبد أن يعمل الخير وأراد العبد أن يعمل عكسه من الشر ، فلا يعني هذا أن إرادة العبد غلبت إرادة المولى سبحانه ! لأن الله تعالى خيَّر العبد في العمل ولم يشأ بمعنى ما أمضى وأنفذ أن يطيع العبد وأمضى العبد الشر فتحقق ما أمضاه العبد دون ما أمضاه الله تعالى ! فهذا المعنى غير مراد !

وقوله (يفعل ما يشاء ، وهو غير ظالم أبداً) لا شك بأن الله تعالى يفعل ما يشاء ، ولكنها عند المصنف ههنا حق أريد به باطل ! والله تعالى لا يظلم الناس شيئاً ولكن المصنف ومن يقول بقوله يقولون بأنه تعالى قدَّر على أناس أن يعملوا عمل أهل النار ولا يستطيعون أن يفعلوا خلاف ذلك ويدخلهم النار ولا يكون ظالماً لهم ! وهذا خلاف الحقيقة لأن جبر الناس على الكفر والشرك ومحاسبتهم عليه وإدخالهم النار ظلم بيِّن ! وهذا الذي نفاه سبحانه وتعالى عن نفسه بقوله ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ فصلت : ٤٦ ،

وقوله تعالى ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ النحل : ١١٨ ، وقوله تعالى ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ الزلزلة : ٨ .

ومراد المصنف ومن يقول بقوله من الأشعرية وغيرهم عبارتهم المشهورة :

(الله لو وضع المتقين في النار ووضع الفجار في الجنة لكان عادلاً لأن الظلم هو التصرف في ملك الغير والله تعالى يتصرف في ملكه كما يشاء) وهذا قول باطل في تعريف الظلم والعدل !

وهذا الكلام باطل من وجوه منها :

١- أنه لا معنى للآيات التي يذكر الله تعالى فيها أنه لا يظلم الناس شيئاً .

٢- أن الإنسان عندما يهضم أو يمنع ما يملك من الرقيق (الذي هو ملك يمينه) والأنعام الطعام والشراب أو يؤذيها بالضرب بلا حق فإنه يكون ظالماً عسوفاً ! وهو في ذلك متصرف في ملكه !

٣- أن هذا قول شنيع شرعاً وعقلاً وفيه قلب للحقائق ! لأن قولهم بأن الله تعالى لو وضع المطيعين من عباده وفيهم الأنبياء والمرسلين والشهداء ونحوهم في النار لا يعتبر هذا ظلماً ولو وضع إبليس وفرعون في الجنة كان ذلك عدلاً ! وهذا ظاهر الفساد والبطلان ! وقد أنكر الماتريدية هذا الذي جاء به الأشعرية من تجويز إثابة العاصي وتعذيب المطيع وكون ذلك ليس من الظلم في شيء !

انظر كتاب الخلاف بين الأشعرية والماتريدية ، وانظر « طبقات الشافعية الكبرى » للسبكي (٣/ ٣٨٦) .

وقوله (ودين الله .... بين الجبر والقدر وبين الأمن والإياس) المصنف يتناقض في كلامه !! قبل قليل قال (وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره) والآن يقول بين الجبر والقَدَر !! أي لا هو جبر ولا هو قدر !! ثم إن قوله (بين الجبر والقدر) كلام غير منتظم ولا قويم ! حتى على ما يريد المصنف إثباته فكان الأقرب إلى كلامه وما يريد أن يقول : (بين الجبر والاختيار) لأن الجبر هو القدر نفسه ! لأنه يقول بأن أفعال العباد

بقضاء الله وقدره !

والصحيح الذي كان ينبغي عليه أن يقوله هو متابعة القرآن والانقياد لما يثبته العقل والنقل من أن العباد مختارون في أفعالهم ! لقوله تعالى ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ !!

[تكملة] : وأما قول من قال بأن السكين لا تقطع والنار لا تحرق والدواء لا يشفي فهو قول غير صحيح كنا نظنه في بداية الأمر صواباً ثم تبيَّن لنا أنه قول فاسد غير صحيح لمخالفته للحس والمشاهدة ! قال تعالى ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ النحل : ٦٩ ، **فدل ذلك على أن الله تعالى جعل في العسل خاصية الشفاء !**

وأصل هذه الفكرة التي نبين الآن فسادها زعمهم أنه (ليس في الوجود فعل لغير الله تعالى) وهذا قول باطل فاسد ! لأن أفعال الزناة والعصاة وغيرهم من الفجار والفساق ليست هي أفعال الله تعالى لأنه نهى عنها وكرهها ولا يأمر بها فحاشى لله أن تنسب له أو أن يكون هو فاعلها ! وقد نص القرآن على أن العباد لهم فعل وعمل في آيات كثيرة مثل ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ !

وقد نص الأشعري في كتاب « مقالات الإسلاميين » (٣٣٨/١) **على أن قول (لا فعل في الوجود إلا لله تعالى) مما تفرَّد به الجهم بن صفوان وأن الحق بخلافه فقال ما نصه :**

[وتفرَّد جهم بأمور منها : أنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا لله وحده ، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز .....] !!

مسألة الكسب

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(وأفعال العباد هي بخلق الله ، وكسب من العباد) .

الشـــــرح :

لفظ الكسب ورد في القرآن الكريم « بعينه » في آيات كثيرة والمراد به الفعل ، قال تعالى ﴿ **لا يُكَلِّفُ الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾ البقرة : ٢٨٦ وقال تعالى : ﴿ **كلُّ امرئ بما كَسَبَ رهين** ﴾ الطور : ٢١ . قال تعالى : ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثمَّ توفى كل نفسٍ ما كَسَبَتْ وهم لا يظلمون** ﴾ البقرة : ٢٨١ . وقال تعالى : ﴿ **ولكن يؤآخذكم بما كسبت قلوبكم** ﴾ البقرة : ٢٢٥ .

وقال تعالى ﴿ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الأعراف : ٤٣ وقال تعالى ﴿ جزاء بما كانوا **يكسبون** ﴾ التوبة : ٨٢ ، وقال سبحانه ﴿ جزاء بما كانوا **يعملون** ﴾ الأحقاف : ١٤ .

فتبيَّن أن كسب بمعنى عمل ولا فرق بينهما .

وقد جاء في القرآن إضافة الكسب للأعمال الصالحة والسيئة ؛ فذكر سبحانه الكسب للحسنات والطيبات فقال : ﴿ **لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كَسَبَتْ في إيمانها خيراً** ﴾ الأنعام : ١٥٨ بمعنى العمل ، كما ذكر سبحانه الكسب مضافاً للسيئات والكفران فقال ﴿ **والذين كَسَبُوا السيئات جزاءُ سيئةٍ بمثلها وترهقهم ذلّة** ﴾ يونس : ٢٧ أي والذين اقترفوا وعملوا السيئات .

وقال تعالى ﴿ **بلى مَنْ كَسَبَ سيئةً وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ البقرة : ٨٢ .

الآيات التي احتج بها من زعم أن أعمالنا مخلوقة لله تعالى :

١ - قوله تعالى : ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾ الصافات : ٩٦ ، هذه الآية الشريفة

ليست دليلاً على أن الأفعال مخلوقة لله تعالى بل هي دليل على أن الأعيان مخلوقة جميعاً لله جل جلاله ! لأن الآية تتحدث عن الأصنام التي ينحتونها من الحجار وغيرها ! وسياق الآية يبين ذلك فإن الله تعالى يقول : ﴿ قال أتعبدون ما تنحِتون . والله خلقكم وما تعملون ﴾ فالمعنى أن ما تعملون منه هذه الأصنام من الحجار والمعادن والخشب وغيرها كله من خلق الله تعالى ! فالكلام ههنا عن الأعيان المعمول منها الأصنام لا على الأفعال !

فبطل الاستدلال !! فهم بتروا سياق الآية ليتم لهم الاستدلال !!

٢- وقال تعالى ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكنَّ الله رمى** ﴾ الأنفال : ١٧ .

لقد أثبت الله تعالى في هذه الآية أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد رمى ولكنه عندما رمى خرق الله تعالى العادة فأوصل ما كان بيده من تراب إلى عيونهم جميعاً . فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم كان قد رمى وقد أثبت الله تعالى ذلك بقوله ﴿ إذ رميت ﴾ ولكن خرق الله تعالى العادة فوصل التراب أو الحصى إلى موقع لا يصل إليه عادة في رمي الآدمي .

فعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لسيدنا عليٍّ عليه السلام : « ناولني كفاً من حصى » ، فناوله فرمى به وجوه القوم ؛ فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء ، فنزلت : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ الآية . رواه الطبراني في الكبير (١١/ ٢٨٥) ، قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٦/ ٨٤) : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

فليس في ذلك دلالة على أن الله يخلق أفعال العباد أي يفعلها كما يدَّعي ذلك من يقول بالجبر !!

٣- وقال تعالى : ﴿ **وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئةٌ يقولون هذه من عندك ، قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً** ﴾ النساء : ٧٨ .

معنى الآية الكريمة : كان الكفار يقولون إذا أصابهم خصب ورخاء ـ وهو من

مطر السماء الذي يرسله الله تعالى وليس لأحد فيه تصرُّف ولا تحكُّم ـ هذا من عند الله ، وإذا أصابهم القحط والمحل يقولون : (هذا لشؤم محمد) ـ حاشاه صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك البهتان ـ فردَّ الله تعالى عليهم ببيان أن الخصب والمحل أي الغيث واحتباسه بيد الله تعالى ومن عنده !

وأعقب جل شأنه ذلك بقوله ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ويلزم عند المجبرة أن يدل ظاهر هذا على أن العبد هو الفاعل للسيئات وأن المولى جل وعز هو الفاعل للحسنات وهذا يتناقض مع الكلام الذي قبله من أن الكل من عند الله تعالى على تفسير الجبرية ، فتبين أن هذا غير مقصود ههنا !

فمختصر معنى الآية الثانية : أن ما أصابك من خير ليس لك فيه يد أي فعل فهو من الله تعالى بما عملته من الخير والإحسان ، وما أصابك من الشدة فهي جزاء من الله تعالى بما عملت من شر وسوء ونحوه !

وقد عَلَّمنا القرآن أن نتأدب مع الله تعالى فننسب الخير له والشر لأنفسنا ، فقال سبحانه : ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾ النساء : ٧٩ . وفي قصة الخضر أكبر بيان في تعليم التأدب في نَسْبِ الشر إلى الإنسان والخير إلى الله سبحانه وتعالى ، فانظرإلى قول سيدنا الخضر عليه السلام عن خلع لوح السفينة ﴿ **فأردتُ أن أعيبها** ﴾ فنسب الإرادة في هذا الأمر إليه لأن ظاهر الأمر شر محض ، وقال في قتل الغلام ﴿ **فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة** ﴾ فنسب جهة قتله له لأنَّ ظاهرها شر محض ونسب جهة نفع أبويه إلى الله لأنها جانب الخير فقال ﴿ **فأردنا** ﴾ ، وقال في بناء الجدار لأنه خير محض ﴿ **فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما** ﴾ فتأمل جيداً !!

فليس في ذلك أن فعل العبد ليس من صنعه ! لا سيما وقد نسب الله تعالى أفعال العباد وأعمالهم لهم في القرآن الكريم في آيات كثيرة كما تقدَّم منها قوله تعالى ﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ الحج : ٧٧ ، وقوله تعالى ﴿ أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ النحل : ٣٢ ، وقوله تعالى ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

السجدة : ١٤ .

٤- وقال تعالى ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليه القول فدمَّرناها تدميراً** ﴾ الإسراء : ١٦ .

الله تعالى لا يأمر بالفحشاء ؛ والفسق من الفحشاء ! قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف : ٢٨ ، فيكون معنى الآية : أن سبب تدمير القرى وأخذ أهلها بالعذاب هو أن يأتيهم أمر الله تعالى لهم باتباع الرسل وطاعة أوامره سبحانه فيأبون ذلك ويفسقون فيحق عليهم الدمار والعذاب !

فليس في ذلك أن الله تعالى يخلق أفعالهم الشريرة أو يأمرهم بها ! والآية السابقة تؤكد وهي قوله تعالى : ﴿ **وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾ **فافهم وتأمل !**

٥- ومن تلك الآيات التي احتجوا بها على الجبر أيضاً قوله تعالى ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكّل المؤمنون** ﴾ التوبة : ٥١ .

معنى الأية : قل لن يصيبنا إلا ما علم الله تعالى في سابق علمه أنه مصيبنا ولا يقتضي ذلك جبراً ، وهذه جملة بلاغية مجازية المراد منها : أننا ماضون فيما عزمنا عليه ومتوكلون على الله تعالى في أنه سينصرنا وهو عالم بما سيؤول إليه أمرنا ! فالمراد تسلية القلب بتخفيف الشدائد !

وقد استعمل الكَتْب بمعنى العلم في اللغة ؛ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ النساء : ٨١ ، أي والله يعلم ما يبيتون لأن الله لا كما يكتب الناس والملائكة !

الآيات الدالّة على أن المكلف (الإنسان وغيره) مختار في أفعاله غير مجبور ولا مقهور :

قال الله تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾ البلد : ١٠ ، وقال تعالى ﴿ وهديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ الإنسان : ٣ ، وقال تعالى ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ الكهف : ٢٩ ، وقال تعالى ﴿ وأما ثمود فهديناهم

فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقةُ الهُونِ بما كانوا يكسبون ﴾ فصلت : ١٧ .

فتلخّص من هذا كله أن الله تعالى نص في كتابه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه على أن أفعالنا وأعمالنا مختارون فيها .

وقد صنّف في هذه المسألة الإمام العلامة المحدث الكوثري عليه الرحمة والرضوان رسالة أجاد فيها وأفادنا من درر علومه في هذا الباب أسماها « الاستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار » فليرجع إليها من شاء الاستفادة والله الموفق(٢٠٢) .

وأما قول الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(والله تعالى يستجيبُ الدعواتِ ويقضي الحاجاتِ) .

فهذا مما لا شك فيه لقوله تعالى ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ وهو يخالف الجبر والتقدير الذي يقول به المصنف ومَنْ يوافقه ، وللدعاء فوائد :

[أولاً] : هو تنفيذ لأمر الله تعالى الآمر بالدعاء ، في مثل قوله تعالى :

﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ .

[وثانياً] : هو الشعور بالاتصال بالله في كل وقت والالتجاء إليه .

[وثالثاً] :**إذا لم يجب** الله تعالى دعَاء الداعي في الدنيا ادَّخَر له ثواب الدعاء في الأخرة أو صرف عنه السوء ، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة ، فمنها عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى

---

(٢٠٢) قال الشيخ مصطفى صبري في كتابه « موقف العقل والعلم من رب العالمين وعباده المرسلين » (٣/ ٣٩٢) عن الشيخ العلامة الكوثري رحمه الله تعالى : [والأن أجده قدرياً صريحاً وقد سمعته يقول : إن مذهب المعتزلة القدرية الذي انقرض رجاله ما زال يعيش في هذه المسألة تحت اسم الماتريدية ، وفي بعض البلاد باسم الشيعة الإمامية ، فكنتُ أفهم منه أنه يُفَضِّل ما في الاعتزال من التفويض الخالص على اضطراب الماتريديين وأشباههم من الباحثين عن أمر بين أمرين ، فهو معتزلي أي قدري قائل باستقلال العباد في أفعالهم الاختيارية ، في حين أني أشعري قائل بالجبر المتوسط أي الجبر في أفعالهم بواسطة الجبر في إرادتهم ....] انتهى ما أردنا نقله .

ثلاث ، إما أن يُعجّلَ له دعوته ، وإما أن يدّخرها في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » رواه البزار (٤/ ٤٠) وغيره وهو صحيح .

[تنبيه] : وهناك دعاء يقرأه بعض الناس في ليلة النصف من شعبان وفيه « اللهم إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقياً أو مطروداً أو محروماً فامح شقاوتي ... واكتبني في ديوان السعداء ... » إلى آخره ، وهذا دعاء يزعم بعضهم أنه يروى عن سيدنا عمر وليس كذلك !! والواقع أنه يروى عن سيدنا ابن مسعود بإسناد ضعيف(٢٠٣) ، واعلم أنه لا يجوز قراءة هذا الدعاء لما فيه من ألفاظ تدل على أن مشيئة الله تعالى وتقديره للأشياء يتغير ، وارجع إلى رسالة شيخنا الإمام المحدّث سيدي عبدالله بن الصديق الغماري أعلى الله درجته التي سمّاها « حسن البيان في ليلة النصف من شعبان » .

---

(٢٠٣) (انظر مصنّف ابن أبي شيبة ٧/ ٨٥ طبعة دار الفكر) .

صفة العلم

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(خلق الخلق بعلمه ، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم ، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم ، وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة ، وعدد من يدخل النار ، جملة واحدة ، فلا يزاد في ذلك العدد ، ولا يُنْقَصُ منه ، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه) .

الشرح :

اعلم أن العلم من صفات الله تعالى الواجبة في حقه وقد وصف الله عزّ وجل نفسه بالعلم في كتابه العزيز وكذلك وصفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال الله تعالى ﴿ **إن الله كان بكل شيء عليماً** ﴾ النساء : ٣٢ ، وقال تعالى ﴿ **وما تكون في شأن وما تتلوه منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين** ﴾ يونس : ٦١ .

وقال تعالى ﴿ **وعنده مفاتِحُ الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين** ﴾ الأنعام : ٥٩ .

وقال تعالى حكاية عن سيدنا عيسى إنه يقول لله تعالى ﴿ **تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاّم الغيوب** ﴾ المائدة : ١١٦ .

وجاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه علّم أصحابه دعاء الاستخارة وفيه « اللهم إنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علاّم الغيوب » رواه البخاري (٣/٤٨) وغيره .

فمعنى العالِم : هو الموصوف بالعلم الأزلي الأبدي الذي لا يتغيّر ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

قال الإمام الجنيد رحمه الله تعالى : « عَلِمَ الحقُّ ما كان وما يكون وما لا يكون

أن لو كان كيف كان يكون » . وهو كلام محقق راسخ في فهم الكتاب والسنة . ويقال بأن هذا من كلام الإمام جعفر الصادق عليه السلام والرضوان .

ودليل الجملة الثالثة وهي قوله « وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون قوله تعالى ﴿ **ولو رُدّوا لعادوا لما نُهُوا عنه** ﴾ الأنعام : ٢٨ .

وقال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في « الإحياء » (١/ ٩٠) :

[وأنه عالم بجميع المعلومات ، محيط بما يجري من تُخُومِ الأرضين إلى أعلى السموات ، وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، بل يعلم دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء ، ويدرك حركة الذَّرِّ في جو الهواء ، ويعلم السر وأخفى ، ويطّلع على هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر ، وخفيات السرائر بعلم قديم أزلي لم يزل موصوفاً به في أزل الآزال ، لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال] انتهى .

ومعنى (أن الله تعالى يعلم السر وأخفى) أي أنه سبحانه يعلم السر وهو ما في القلب من الخواطر والهواجس ، وأما الأخفى فهو الخاطر القلبي قبل وروده على القلب وقبل أن يفكر صاحبه فيه ؟!

(فائـــدة) : قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٩/ ٨٤) :

« واختلف العلماء في الكلام المباح ، هل يكتبه الملكان أم لا يكتبان إلا المستحب الذي فيه أجر ، والمذموم الذي فيه تبعه ؟ والصحيح كتابة الجميع لعموم النص في قوله تعالى : ﴿ **ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ ثم ليس إلى الملكين اطّلاعٌ على النيات والإخلاص بل يكتبان النطق ، وأما السرائر الباعثة للنطق فالله يتولاّها » .

[تنبيه مهم] : يجب أن نعتقد بأن الملائكة والأنبياء لا يعلمون الغيب ، وإنما الذي يعلم الغيب هو الله وحده ، وقد يُطْلِعُ اللهُ تبارك وتعالى الأنبياءَ والملائكةَ على بعض الغيب ، أي قد يطلعهم على بعض الأمور التي حصلت في الماضي ولم يشهدوها أو تحصل أو ستحصل في المستقبل ، كما أطلع سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم على أخبار آخر الزمان وأمارات الساعة التي فيها مثلاً

« تطاول الحفاة الرعاة رعاء الشاة في البنيان » والفتن وغير ذلك ، قال الله تعالى ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا مَن ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً** ﴾ الجن : ٢٦ ، وقال تعالى : ﴿ **قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله** ﴾ النمل : ٦٥ ، وقال تعالى : ﴿ **فلمّا خرَّ تبينت الجنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين** ﴾ سبأ : ١٤ .

ومنه نعلم خطأ من يزعم بأن سيدنا رسول صلى الله عليه وآله وسلم يعلم الغيب ، وأيضاً كفر من يزعم بأنه كان يعلم القرآن قبل نزوله عليه ، لأنه في قوله هذا يُكَذِّبُ قول الله تعالى ﴿ **ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ الشورى : ٥٢ ، وقوله تعالى ﴿ **وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً** ﴾ النساء : ١١٣ ، وقوله تعالى : ﴿ **ووجدك ضالاً فهدى** ﴾ الضحى : ٧ أي لا تعرف هذه الشريعة فهداك إليها وعلّمك إياها .

صفة السمع وصفة البصر

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :
(﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾) .
الشرح :

ومن صفاته تعالى أنه سميع وبصير قال تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير** ﴾ الحج : ٦١ وقال تعالى : ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير** ﴾ الإسراء : ١ .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في « الإحياء » (١/٩١) : « الله تعالى سميع بصير يسمع ويرى ، ولا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي ، ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دقَّ ولا يحجب سمعه بُعْدٌ ، ولا يدفع رؤيته ظلام ، يرى من غير **حدقة وأجفان ، ويسمع من غير أصمخة وآذان** ، كما يعلم بغير قلب ، ويبطش

بغير جارحة ، ويخلق بغير آلة ، إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق ، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق » .

ومن الخطأ والتشدق قول بعض من يشتغل بعلم الكلام وبالفلسفة : إن يسمع سمعه بسمعه ويبصر بصره ببصره .... ومثلها من العبارات الغامضة المغلقة التي قد لا تُفْهَم عند بعض الناس وهي خطأ محض وتقوُّلٌ على الله تعالى بلا علم ! وهو من جملة تخبيصات الدسوقي في « شرح السنوسية » حيث يقول هناك ص (٨٥) :

[فيسمع بسمعه سمعه وبصره ، ويبصر ببصره سمعه وبصره ...] .

صفة الحياة

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(حيٌّ لا يموت) .

الشرح :

ومن صفات الله تعالى الحياة وأنه الحي القيوم ، وقد ورد ذكرها في الكتاب والسنة ، قال الله تعالى ﴿ **الله لا إله هو الحي القيوم** ﴾ آل عمران : ١ .

ومعنى الحي في حقه تعالى أنه الموصوف بالحياة الأزلية التي ليست بروح ولحم ودم ، وعرَّفها بعضهم بقوله : صفة أزلية تقتضي صحة العلم بموصوفها .

صفة الرحمة

ومن صفاته سبحانه وتعالى الرحمة ، وقد وردت وصف الله تعالى في القرآن والسنة بذلك في مثل قوله تعالى ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ النمل : ٣٠ ، وقوله تعالى : ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء** ﴾ الأعراف : ١٥٦ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لَلَّهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها » رواه البخاري (١٠/٤٢٧) ومسلم (٤/٢١٠٩) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه مرفوعاً .

وقال العلامة الشرواني في حاشيته على التحفة لابن حجر (١/١١) :

« عبارة المغني والنهاية ــ الرحمة ــ رقة في القلب تقتضي التفضل والإحسان ، فالتفضل غايتها وأسماء الله تعالى المأخوذة من نحو ذلك إنما تؤخذ باعتبار الغايات دون المبادئ التي تكون انفعالات ، فرحمة الله تعالى إرادة إيصال الفضل والإحسان أو نفس إيصال ذلك » .

وقال الحافظ أبو حيان في « البحر المحيط » (١/٣١) :

« ووصف الله تعالى بالرحمة مجاز عن إنعامه على عباده ... وقال قوم : هي إرادة الخير لمن أراد الله تعالى به ذلك » .

والرحمن هو المنعم بجلائل النِّعَم ، والرحيم هو المنعم بدقائقها ، وقال آخرون : الرحمن اسم شامل لرحمته سبحانه في الدنيا والآخرة ، والرحيم خاص بالمؤمنين في الآخرة .

ولا يجوز إطلاق الرحمن على غير الله تعالى ، قال العلماء : وأما وصف أهل اليمامة مسليمة الكذاب بالرحمن فتعنّتٌ منهم في الكفر .

وأما الرحيم فيجوز إطلاقه على الله وعلى غيره ، قال الله تعالى ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّمْ حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ التوبة : ١٢٨ .

صفة الحكمة

ومن صفاته سبحانه وتعالى أنه حكيم ، وقد ورد هذا الوصف في نصوص الشريعة واضحاً صريحاً ، قال تعالى : ﴿ **إن ربك عليم حكيم** ﴾ يوسف : ٦ .

ومعنى الحكيم هو المُحْكِمُ لِخَلْقِ الأشياء والمصيب في أفعاله كما قاله الحافظ البيهقي في « الاعتقاد » ص (٣٥) .

وقال في « الأسماء والصفات » ص (٢٢) :

« قال الحَلِيمي في معنى الحكيم : الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب وإنما ينبغي أن يوصف بذلك لأن أفعاله سديدة وصنعه متقن ، ولا يظهر الفعل المتقن السديد إلا من حكيم ، كما لا يظهر الفعل على وجه الاختيار إلا من حي عالم قدير ، قال أبو سليمان ـ الخطّابي ـ : الحكيم هو المُحْكِمُ لخلق الأشياء ، ... ومعنى الإحكام لخلق الأشياء إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها وحسْن التقدير لها » .

قال الله تعالى ﴿ **الذي أعطى كلَّ شيء خَلَقَهُ ثم هدى** ﴾ طه : ٥٠ ، وقال تعالى ﴿ **الذي أحسن كل شيء خَلَقَهُ وبدأ خلق الإنسان من طين** ﴾ السجدة : ٧ .

صفة الكلام

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(وأنَّ القرآن كلام الله ، منه بدا بلا كيفية قولاً ، وأنزله على رسوله وحياً وصَدَّقه المؤمنون على ذلك حقاً ، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ، ليس بمخلوق ككلام البَرِيّة ، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر حيث قال تعالى : ﴿ سأُصليه سقر ﴾ ، فلما أوعد الله بسقر لمن قال : ﴿ إنْ هذا إلا قول البشر(٢٠٤) ﴾ ، عَلِمْنَا وأيقنّا أنه قول خالق البشر ، ولا يشبه قول البشر ، ولا نجادل في القرآن ، ونشهد أنه كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، فعلّمه سيد المرسلين ، وهو كلام الله تعالى ، لا يساويه شيءٌ من كلام المخلوقين ، ولا نقول بخلقه) .

الشرح :

قوله (وأن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً) أما كون القرآن كلام الله تعالى فهذا مما لا ريب فيه وأما على ما أراد المصنف فكلام غير صحيح ! **فقوله (منه بدا بلا كيفية قولاً)** يفيد أن الله تعالى تكلَّم به أي نطق وتلفظ لكن بلا كيفية كما يقولون (بلا كيف) وهذه عقيدة مردودة فاسدة !! وقد بناها المصنف على حديثين موضوعين تتداولهما الحنابلة المجسمة والمشبهة وإليك ذلك :

أما الأثر الأول : « ما تقرَّب العباد إلى الله **بمثل ما خرج منه** » حديث تالف واهٍ شديد الضعف رواه أحمد في « المسند » (٥/٢٦٨) والترمذي (٢٩١١) وفي السند ليث ابن أبي سُلَيم وهو متروك(٢٠٥) ، وقد صرَّح البخاري في كتاب « خلق أفعال العباد »(٢٠٦) بأنه لا يصح(٢٠٧) .

---

(٢٠٤) بل قال الله تعالى ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ وسيأتي الكلام في هذا إن شاء الله تعالى .

(٢٠٥) وقد ضعف الألباني هذا الحديث في « ضعيف سنن الترمذي » ص (٣٥٠) وذكر هنالك أنه ضعفه في ضعيفته (١٩٥٧) وفي المشكاة (١٣٣٢) وفي ضعيف الجامع (٤٩٩٣) .

(٢٠٦) انظر خلق أفعال العباد للبخاري ص (١٠٤) .

وعبارة (بمثل ما خرج منه) التي في هذا الحديث الموضوع قول شنيع لا يصدر إلا من مجسم مشبه ولا يقوله مَنْ يتقي الله تعالى !!

وأما الأثر الثاني : فقد احتج ابن تيمية في « مجموع فتاواه » (٣/ ١٧٥) بأثر خباب الذي فيه « فلن يتقرب إليه بشيء أحب إليه مما خرج منه » وهو مما رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٤١) بغير هذا اللفظ ولفظه الصحيح هناك هو : (فإنك لست تتقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه)(٢٠٨) وليس فيه لفظ (مما خرج منه) !!

فلا ندري من أين أتى الشيخ الحرَّاني بهذا التحريف ؟!

وأما قوله (وأنزله على رسوله وحياً ، وصَدَّقه المؤمنون على ذلك حقاً) فهذا صحيح لا نزاع فيه .

وأما قوله (وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ، ليس بمخلوق ككلام البَرِيّة) إذا أراد بقوله بالحقيقة أن الله نطق وتلفَّظ به فهذا كلام باطل فاسد وإلا فالقرآن كلام الله تعالى حقيقة وقد أتبع المصنف قوله السابق بقولٍ آخر أفسد منه وهو قوله (ليس بمخلوق) وهذا مخالف للعقل والنقل ! ومخالف لصريح قوله تعالى ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ الشعراء : ٥ ، والقرآن هو هذا الكتاب المقروء المُنْزَل من رب العالمين وهذا مُحْدَثٌ مخلوق رغم أنف كل معاند مكابر مُعْرِضٌ عن العقل والنقل راكن إلى التقليد !

فإن قال قائل : عنى المصنف ههنا بالقرآن أو بكلام الله تعالى على الحقيقة

---

(٢٠٧) قد ذكر ابن القيم في حاشيته على أبي داود (١٣/ ٤٩) هذا الحديث التالف وصححه اعتماداً على تصحيح الحاكم في المستدرك (١/ ٥٥٥) له !! وهو حديث جبير بن نفير الذي صرح البخاري وغيره بأنه لا يصح ! وفي إسناد الحاكم العلاء بن الحارث وكان قد اختلط فوهم إذ رواه عن جبير بن نفير عن أبي ذر ، قال البخاري في تاريخه (٦/ ١١٣) : « منكر الحديث » .

(٢٠٨) رجاله ثقات رواه الآجُرِّي في كتابه (الشريعة) ص (٧٧) ، واللالكائي في (اعتقاد أهل السنة !!) (٢/ ٣٤٠) ، والبيهقي في الاعتقاد (١٠٣) وعبدالله بن أحمد في كتاب السنة (١/ ١٣٧و١٤٢) ، وابن أبي عاصم في كتاب الزهد ص (٣٥) .

الصفة النفسية .

قلنا : القرآن المنزل إلينا غير الصفة النفسية ، فهذا التأويل باطل مردود !

وقوله (فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر حيث قال تعالى : ﴿ سأُصليه سقر ﴾ ، فلما أوعد الله بسقر لمن قال : ﴿ إنْ هذا إلا قول البشر ﴾[٢٠٩]) هذا تهويل فارغ فإن الله تعالى يقول في كتابه العزيز أيضاً ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ ، وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ، تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الحاقة : ٤٠-٤٣ ، وقال تعالى ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ..... وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ، فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ، إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ، لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ التكوير : ١٩-٢٨ .

وقوله (عَلِمْنَا وأيقنّا أنه قول خالق البشر ، ولا يشبه قول البشر ، ولا نجادل في القرآن) نعم هو كلام الله تعالى خالق البشر لكنه يشبه قول البشر لكونه مؤلفاً من الحروف والكلمات العربية التي ينطق بها البشر لكنه معجز خلافاً لكلام البشر فكلام المصنف هنا خطأ !

وبعد كل هذا الجدل بالكلام الباطل الفاسد الذي بيّنا زيفه يقول المصنف (ولا نجادل في القرآن) !! وما هو هذا الذي يخوض فيه إذن !!

وقوله (ولا نقول بخلقه) خطأ من القول لأنه معارض لقول الله تعالى ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ الأنبياء : ٢ ، فهو محدث أي مخلوق وليس قديماً بصريح نصوص القرآن ! فما بال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً !

---

[٢٠٩] قال الفخر الرازي في التفسير (٣٠/ ٢٠٢) في تفسير هذه الآية : [والمعنى أن هذا قول البشر ينسب ذلك إلى أنه ملتقط من كلام غيره] أي إنما هذا ليس من كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإنما هو من كلام آخرين أخذ عنهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم . فالآية لا تصلح أن تكون دليلاً لما يريده المصنف !

الشروع في شرح هذه المسألة من جميع أوجهها :

بيان مذهبنا الصحيح المعتمد في هذه المسألة :

فهم مسألة الكلام تأتي من التصور التالي : لما خلق الله تعالى الخلق وأراد أن يخاطبهم ويُفْهِمَهُم ما يريد منهم من أمر أو نهي ولما لم يكن جسماً يجالسهم ويخاطبهم ويتكلم معهم بالحروف والأصوات والألفاظ لأنه ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ أحدث طريقة لإيصال أمره ونهيه وخبره لهم فخلق وأحدث لهم كلاماً بلغتهم بحروف وأصوات في اللوح المحفوظ أو في الشجرة التي كُلِّمَ عندها سيدنا موسى عليه السلام أو في غير ذلك وأخبرهم أنه كلام محدث مخلوق فقال لهم ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ الأنبياء : ٢ .

وقد خلق الله تعالى في اللوح المحفوظ جملاً بالعربية تُعَبِّرُ عن مراده سماها قرآناً ، كما خلق جملاً بالعبرية سماها توراة ، وجملاً بالسُّرْيانية سماها إنجيلاً ، وهكذا سائر كتبه سبحانه المنزلة .

ثم نقل سيدنا جبريل هذا الكلام من اللوح المحفوظ إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام ومن خلال الرسل وصل كلام الله تعالى ـ أي تلك الألفاظ التي خلقها والتي تُعَبِّرُ عن مراده ـ إلى الإنس والجن .

فالقرآن الكريم كتاب أنزله الله إلينا وهو مُحْدَثٌ بصريح أدلة العقل والنقل ! **أما النقل** : فالآيات التي ذكر الله عز وجل فيها أنه محدَث والمُحْدَث هو المخلوق الجديد الذي له بداية والخالق جل وعز لا أول له ولا بداية ! **وأما العقل** : فقد دل على حدوثه أيضاً وكونه مخلوقاً ، وبيان ذلك أن القرآن هو كتاب أنزله الله تعالى إلينا وليس هو الله تعالى ولا جزء منه سبحانه لاستحالة الجزئية في حقه تعالى فلم يبق إلا أنه غير الله تعالى والمعلوم عند المسلمين أن كل ما سوى الله تعالى حادث مخلوق وأن القديم هو الواحد الأحد مولانا جلَّ وعز .

ولا يقول بأن القرآن قديم غير مخلوق إلا مقلد لم يتصور المسألة ولم يفهم القضية وقد حجب عن فهم الحقيقة بقول فلان وعبارة فلان ! وأحمد بن حنبل

ومن قال بقوله قد أخطأوا خطأً كبيراً وغالطوا في هذه المسألة لأنهم خالفوا العقل والنقل .

وأما الآيات التي ورد فيها أن الله لا يُكَلِّمُ العصاة والكفار والتي فَهِمَ منها المجسمة والمشبهة أن الله تعالى يكلم المؤمنين مثل قوله تعالى ﴿ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ البقرة : ١٧٤ ، فمعناها أنه لا يرحمهم ولا يرضى عنهم ، وقد ذكر القرطبي نحواً من هذا في تفسيره (٢/ ٢٣٥) حيث قال :

هي : [عبارة عن الغضب عليهم وإزالة الرضا عنهم ، يقال فلان لا يكلم فلاناً إذا غضب عليه ، وقال الطبري : المعنى : ولا يكلمهم بما يحبونه وفي التنزيل : ﴿ اخسئوا فيها ولا تُكَلِّمُون ﴾ ، وقيل : المعنى ولا يرسل اليهم الملائكة بالتحية] .

ومثل قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ ﴾ البقرة : ١١٨ ، أي لولا يكلمنا الله كما يكلِّم بعضنا بعضاً وهذا مستحيل في حق الباري سبحانه لأنه ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ الشورى : ٥١ . ومعنى ذلك أن الله تعالى يُكَلِّمُ الناسَ بطريقة من ثلاثة أضرب :

(إما) بطريق الوحي وهو الإلهام والنفث في الروع والقلب ، كما قال تعالى ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه .... ﴾ القصص : ٧ ، وقوله تعالى ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ النحل : ٦٨ .

(وإما) بطريق الكلام من وراء حجاب وهو خلق الصوت في مثل الشجرة والنار بلا واسطة ملك ، والله تعالى ليس جسماً يكتنفه الحجاب فرجع الحجاب على من يكلمه الله تعالى وليس على المولى جل وعز .

(وإما) بواسطة إرسال الملك فيؤدي إليه خبر الله تعالى ويصح أن يقال في هذا كلمه الله تعالى لصريح هذا النص ، فافهم .

هذا مذهبنا وما نعتقد حول مسألة الكلام والله تعالى الموفق .

[فائدة] : لقد دخلت مسألة الكلام في الجرح والتعديل فصار بعض أهل

هذا الشأن يجرح الرواة لأنهم يقولون بخلق القرآن الكريم وكان على رأس هؤلاء أحمد بن حنبل الذي كان يكفر من يقول بخلق القرآن وأنه مُحدَث !! وهذا خط فادح من أحمد بن حنبل ومعارضة منه لقول الله تعالى ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث .. ﴾ !

ومما يثبت هذا عنه قول الذهبي في « السير » (١١/٢٨٨) : [قال إسحاق بن إبراهيم البغوي : سمعت أحمد بن حنبل يقول : من قال القرآن مخلوق فهو كافر .... وهذا متواتر عنه ، وقال أبو إسماعيل الترمذي : سمعت أحمد بن حنبل يقول : من قال القرآن محدَث فهو كافر] .

وكتاب « الحيدة » المشهور في هذه المسألة موضوع على عبد العزيز الكناني كما تجد ذلك في ترجمة الكناني في ميزان الذهبي . وواضعها على الأغلب هو محمد بن الحسن بن أزهر الدعَّاء لأنه هو الذي انفرد برواية الحيدة وقد رموه بوضع الحديث ! قال الذهبي في الميزان في ترجمته : [ويغلب على ظني أنه هو الذي وضع كتاب الحيدة ..] .

ما ذهب إليه الأشاعرة في مسألة خلق القرآن :

أكثر ما ذهبت إليه الأشعرية في ذلك نقول به إلا أننا نخالفهم في إثبات الصفة النفسية لأنه لا دليل عليها ولأن الله عز وجل ليس جسماً تقوم به الصفات كما يتصور ويتخيل بعضهم قيامها بالذوات من الأجسام !

فالذي عليه أهل السنة والجماعة من الأشاعرة أنّ الله تعالى متكلّم لقوله سبحانه ﴿ **وكلّم الله موسى تكليماً** ﴾(٢١٠) وأنّ كلامه ليس بحرف ولا صوت ولا

---

(٢١٠) وقد بينًا أن معنى الآية الكريمة عندنا هو أن الله تعالى خلق في الشجرة صوتاً أفهم به سيدنا موسى عليه السلام ما يريده منه .

وقد ذكر بعض المشبهة والمجسمة أن تأكيد الجملة أو التكليم هنا بالمصدر وهو (تكليماً) ينفي المجاز ويثبت حقيقة التكليم وهو النطق والتلفظ ! وزعم أن هذا من القواعد الثابتة عند أهل اللغة ! والأمر ليس كذلك وهذه دعوى باطلة ! وقد أكد بالمصدر في القرآن الكريم بأمور مجازية مثل قوله تعالى ﴿ ويطهركم تطهيراً ﴾ والتطهير ههنا معنوي من الذنوب والمعاصي وليس من نجاسة على الأبدان ، وكذلك قوله تعالى مثلاً ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ نوح : ١٧ .

لغة ـ يعنون الصفة الذاتية التي يثبتونها ويسمونها صفة الكلام ـ لأنّ ذلك علامة الحدوث ، وصفة الحادث لا القديم ، وأنه سبحانه (لمّا) أراد أن يُفْهِمَ عباده ما يريده منهم ويُعْلِمَهُمْ بأمره ونهيه وما حدث أو سيحدث ، ولما لم يكن سبحانه جسماً يواجههم فيخاطبهم (خلق) في اللوح المحفوظ عبارات وكلاماً بالعربية يعبّرُ لهم بها عما يريده منهم فسماه سبحانه قرآناً ، كما خلق عبارات باللغة العبرية تعبّر عما يريده من بني إسرائيل سمّاها توراة ، وهكذا الإنجيل والزبور وسائر كتبه المنزلة .

وهذه النظم العربي الذي خلقه سبحانه في اللوح المحفوظ أخذه سيدنا جبريل بأمره تعالى من اللوح المحفوظ ونزل به مُنَجَّماً على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، مع ملاحظة أَنَّ هذا النظم القرآني لفظاً ومعنى ليس من تصنيف سيدنا جبريل ولا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فهو ليس من تصنيف مخلوق ، وإنما هو عبارات عربية خلقها الله سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ وأخذها سيدنا جبريل كما وجدها في اللوح ونزل بها على قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا الكلام هو معنى قوله تعالى ﴿ **إنا جعلناه**(٢١١) **قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * وإنه في أمّ الكتاب لدينا لعلي حكيم** ﴾ الزخرف : ٤ ، وكذا أيضاً معنى قوله تعالى ﴿ **بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ** ﴾ البروج : ٢٢ .

والدليل على جميع ذلك أن الله تعالى سمّى هذا القرآن ذِكْراً إذ قال سبحانه ﴿ **وهذا ذِكرٌ مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون** ﴾ الأنبياء : ٥٠ ، ثمَّ بيَّن أن هذا الذكر مُحْدَثٌ (مخلوق) فقال سبحانه ﴿ **ما يأتيهم من ذِكْرمن ربهم مُحْدَثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون** ﴾ الأنبياء : ٢ ، وقال سبحانه : ﴿ **وما يأتيهم من ذِكرٍ من الرحمن مُحْدَثٍ إلا كانوا عنه معرضين** ﴾ الشعراء : ٥ . ومعنى مُحْدَث أي غير قديم فيكون مخلوقاً !! ولذلك لا يشك عاقل بأنَّ لفظنا بالقرآن وكتابتنا للقرآن شيء مخلوق وكذا المصحف الذي بأيدينا ، ولذلك لم يستطع أحمد بن حنبل عندما أتوه بحديث « ما

---

(٢١١) والمجعول لا يكون إلا مخلوقاً .

خلق الله شيئاً أعظم من آية الكرسي ... »[٢١٢] أن يردَّ هذا الحديث المُتَّفِقُ في معناه مع الآية !! وإنما قام بتأويله !! [انظر« سير أعلام النبلاء » (١٠/٥٧٨)] .

فرب العالمين سبحانه قرر أن هذا الذّكْر مُحْدَث وليس قديماً (ودعني من أقوال المؤوّلين للآية وافهم هذه المسألة بعقلك لا بعقل غيرك ولا تقليداً) وبالتالي هو مخلوق !! وبذلك قال البخاري ومسلم وأبو ثور والكرابيسي والحارث المحاسبي وداود بن علي ومحمد بن نصر المروزي وطبقاتهم كما هو ثابت عنهم !! [انظر « الانتقاء » للحافظ ابن عبد البر ص (١٠٦) وحاشية رقم (١) في « سير أعلام النبلاء » (١٢/ ٨٠)] وتأمل !

واعلم بعد هذا أن مرادهم بأن القرآن هو الكتابة واللفظ أي ما حمله سيدنا جبريل من اللوح المحفوظ (واللوح مخلوق حادث بلا ريب) ونزل به مُنَجَّماً على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فكلام الله تعالى القديم ـ عند الأشاعرة المثبتين للصفة النفسية ـ الذي هو صفة من صفات ذاته القديم يعبّر عنه الإنجيل باللغة السُّرْيانية ، والتوراة باللغة العبرية ، والقرآن باللغة العربية ، وكذا باقي الكتب التي أنزلها[٢١٣] قال سبحانه : ﴿ **وأنزل التوراة والإنجيل من قبل وأنزل الفرقان** ﴾ ، ﴿ **إنّا أنزلناه قرآناً عربياً** ﴾ ولو كانت هذه العبارات والجُمَل والحروف والأصوات هي الصفة القديمة لما وصفت بالإنزال ، كما أن صفة القدرة لا توصف بالإنزال ، وكذا العلم بمعنى الصفة لا يوصف بالإنزال وإنما تعبّر عنه الحروف والكلمات والأصوات ، قال جمهور الأشاعرة : « وإذا شاء سبحانه أن يُسمع عباده كلامه رفع حجاب السمع فسمعوا كلامه الذي لا كيف له المنزّه عن اللغة وعن الحرف والصوت فعقلوه

---

[٢١٢] هو أثر مروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أخرجه الترمذي (٥/ ١٦١/ ٢٨٨٤) وهو في كتاب خلق أفعال العباد للبخاري بإسناد صحيح عن ابن مسعود .

[٢١٣] وقد نص على ذلك أهل العلم من المحدّثين والحفاظ من أهل السنة . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٣/ ٤٥٥) :

« والكلام القديم معنى قائم بالذات لا يتعدّد ولا يتجزأ ، بل هو معنى واحد إن عُبِّرَ عنه بالعربية فهو قرآن ، أو بالعبرية فهو توراة مثلاً ... » انتهى .

وفهموه ، كما أنّه إذا أراد أن يريهم نفسه (في قول مَنْ يقول بإثبات الرؤية) رفع عنهم حجاب البصر فرأوا ذاته العلي من دون أن يكون جسماً له طول وعرض وعمق أو في جهة » ، فسبحان مَنْ لا كيف له .

وهذه العبارات والجمل العربية المُعَبَّر عنها بالقرآن الكريم ، والجمل السريانية المعبّر عنها بالإنجيل ، والعبرانية المعبر عنها بالتوراة ، خلقها وأحدثها وجعلها تُعَبِّرُ عن صفة كلامه الأزلي الأبدي الذي متى شاء أسمعنا إيّاه بدليل قوله تعالى ﴿ **ما يأتيهم من ذِكْر من ربهم مُحْدَثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون** ﴾ الأنبياء : ٢ ، وقوله تعالى : ﴿ **وما يأتيهم من ذِكْرٍ من الرحمن مُحْدَثٍ إلا كانوا عنه معرضين** ﴾ الفرقان : ٥ وقد أخبر المولى تبارك وتعالى الخلق أنّهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذه العبارات المخلوقة المُعَبِّرة عن كلامه الأزلي الأبدي الذي ليس بحرف ولا صوت ولا لغة ، كما أخبر أنّهم عاجزون أن يخلقوا إنساناً بل بعوضة وهي التي تعبّر عن قدرته تبارك وتعالى ، والدليل على أن القرآن مخلوق أيضاً هو أَنه معجزة وكل معجزة مخلوقة(٢١٤) .

وإنّ هذه الألفاظ المخلوقة باللغة العربية المنزلة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى : ﴿ **نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين** ﴾ لها حرمة وقداسة فلا يجوز لغير المتطهر المتوضئ أن يمسها ﴿ **إنّه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسُّه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين** ﴾ ولو كانت قديمة لما كانت في كتاب حادث مخلوق ولَما تُصُوِّرَ مسها ولا كتابتها في اللوح المحفوظ الذي خلقه الله تعالى وأحدثه .

فكما أن العبارات الموجودة في اللوح المحفوظ حادثة تعبّر عن العلم القديم الأزلي الأبدي فكذلك المصحف الذي بأيدينا والجمل والعبارات والحروف

---

(٢١٤) ما في هذه العبارات من إثبات أن هناك صفة نفسية قائمة بالله تعالى تسمى صفة الكلام ليست بحرف ولا صوت هو مذهب جمهور الأشاعرة ، وأما غيرهم من المنزهة فلم يثبتوا هذه الصفة النفسية مع أنهم يقولون بأن الله تعالى متكلم ، ومعنى متكلم عندهم أنه مبرز ومظهر لهذه العبارات والألفاظ في اللوح المحفوظ أو في الشجرة من غير أن ينطق بها سبحانه كما تقدَّم .

والأصوات ، لأن نفس اللوح حادث أوجده الله تعالى بعد أن كان عدماً .

وأمّا معنى قوله تعالى ﴿ **فأجره حتى يسمع كلام الله** ﴾ أي اتل عليه هذه الألفاظ التي خلقتها وعلمتك إياها والتي لم يصنفها أحد والتي تقرأها بفمك الحادث والتي هي كلام رب العالمين ولا يلزم من ذلك أن ينطق ويتلفظ بها(٢١٥) .

فتبين من هذا البيان أنّ كلام الله تعالى ـ عند الأشاعرة ـ يطلق على شيئين : **الأول** : الصفة النفسية الذاتية التي ليست حرفاً ولا صوتاً ولا هي مخلوقة ، **والثاني** : على هذه الألفاظ والكتابة المخلوقة التي إن كانت عربية قيل القرآن ، وإنْ كانت سُريانية قيل الإنجيل ، وإنْ كانت عبرانية قيل التوراة ، وكلّها لها حرمة فيكفر من انتهك حرمتها وقد حفظ الله تعالى القرآن منها من التبديل والتحريف ، ولو كانت هذه العبارات والجمل والحروف والأصوات كلام الله بمعنى الصفة النفسية لما استطاع أحد أن يُحَرِّفها لأن التحريف لا يدخل على الله تعالى وصفاته وإنّما يدخل على الحادث وهي هذه العبارات ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ **يُحَرِّفون الكلم عن مواضعه** ﴾ ويقول عزّ شأنه : ﴿ **تجعلونه قراطيس** ﴾ ومعلوم بالضرورة أن الصفة القديمة لا تصير قراطيس حادثة !!

فمن قال إن تلاوة القارئ هي كلام الله الحقيقي وهي الصفة القديمة الأزلية لله تعالى فقد كابر وخالف الواقع ، واعتقد أن صفات الله تعالى تقوم وتحلّ في المخلوقات والمُحْدَثات تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً(٢١٦) .

وقد ذهب بعض المبتدعة من المجسمة والمشبهة إلى أن كلام الله تعالى القائم به ـ عندهم ـ عبارة عن حروف وأصوات واستدلّوا بثلاثة أحاديث :

(الأول) : حديث عبد الله بن أُنَيس مرفوعاً : « يحشر الله العباد فيناديهم

---

(٢١٥) وقد صنف البخاري كتاب « خلق أفعال العباد » ليثبت أن لفظنا بالقرآن وكتابتنا له مخلوقة على خلاف ما يقوله بعضهم ، ولكننا نرى أن كتاب « خلق أفعال العباد » المتداول بين الناس اليوم ما في أوله يخالف ما في آخره ! ففي أوله ذم القول بخلق القرآن وبعد ذلك أدلة واضحة على عكس ذلك !

(٢١٦) انتبه ههنا إلى أن كل العبارات والجمل التي فيها إثبات الصفة النفسية ليست ما نعتقده ونتبناه في قضية الكلام وإنما هذا قول جمهور الأشاعرة الذين يثبتون صفة ذاتية أو نفسية يسمونها صفة الكلام !!

بصوت يسمعه مَنْ بَعُدَ كما يسمعه مَنْ قَرُبَ ... » الحديث . **(والثاني)** : حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً « يقول الله يا آدم فيقول لبيك وسعديك فينادي بصوتٍ إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بَعْثاً إلى النار » رواه البخاري (١٣/ ٤٥٣ فتح) . **(الثالث)** : ما علّقه البخاري في صحيحه (١٣/ ٤٥٢ ـ٤٥٣) موقوفاً على ابن مسعود قال « إذا تكلّم الله بالوحي سمع أهل السماوات شيئاً ، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم وسكن الصوت عرفوا أنه الحق ، ونادوا ماذا قال ربكم قالوا الحق » .

والجواب على ذلك :

أما الحديث الأول : فضعيف رواه البخاري في كتاب « خلق أفعال العباد » وهذا الكتاب غير كتابه الصحيح ، وفيه الضعيف والصحيح ، وفي سند الحديث : عبد الله بن محمد بن عقيل ، وهو ضعيف ، كما تعرف ذلك من ترجمته في « تهذيب التهذيب » (٦/ ١٣) وقال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٦/ ٢٠٥) : « قلت : لا يرتقي خبره إلى درجة الصحة والاحتجاج » انتهى .

وفي سند هذا الحديث أيضاً القاسم بن عبد الواحد وقد قال أبو حاتم فيه ما معناه : لا يحتج به ، [انظر كتاب « الجرح والتعديل » لابن أبي حاتم الرازي (٧/ ١١٤)] .

وبذلك ثبت ضعف الحديث فلا حجة فيه وخاصة في أبواب العقائد التي لا يحتج فيها بالآحاد (وخاصة المعارض الذي ليس له شاهد من القطعيات) كما تقدّم .

وأما الحديث الثاني : فصحيح لكن لا حجة فيه ، لأن قوله فيه (فينادي بصوت) أي ينادي أحد الملائكة بصوت ، لأنه جاء في هذا الحديث (إن الله يأمرك) فهذا يدلُّ على أنَّه لو كان المنادي هو الله تعالى لم يقل (إن الله يأمرك) بل يقول مباشرة (آمرك) ، والدليل متى طرأه الاحتمال سقط به الاستدلال كما هو مقرر في علم الأصول ، وقد نص على هذا الإمام الحافظ ابن حجر حيث قال في « الفتح » (١٣/ ٤٦٠) :

« وقع فينادي مضبوطاً للأكثر (يعني من رواة البخاري) بكسر الدال ، وفي رواية أبي ذر (أحد رواة البخاري وليس الصحابي) بفتحها على البناء للمجهول

(أي فينادَى) ، ولا محذور في رواية الجمهور فإن قرينة قوله : إن الله يأمُركَ ، تدلُّ ظاهراً على أن المنادي مَلَك يأمره الله أن ينادي بذلك » انتهى وما بين الأقواس من توضيحاتي .

وبذلك ثبت أنه لا دلالة في هذا الحديث على إثبات الصوت لله تعالى لأن الصوت هنا لأحد الملائكة .

وأما الحديث الثالث : فلا دلالة فيه أيضاً على إثبات الصوت لله تعالى ، وذلك لأن قوله فيه « فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم وسكن الصوت » الصوت هنا للسماء لا لله تعالى ، والدليل على ذلك أن باقي الروايات بيّنت ذلك ، ففي سنن أبي داود (٤/ ٢٣٥ حديث رقم ٤٧٣٨) وغيره بإسناد صحيح عن عبد الله ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال :

« إذا تكلّم الله بالوحي **سَمِعَ أهل السماء للسماء** صلصلة كجرّ السلسلة على الصفا فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل ، حتى إذا جاءهم جبريل فزّع عن قلوبهم . فيقولون : يا جبريل ماذا قال ربك ؟ فيقول الحق . فيقولون : الحق الحق » .

أقول : فتبين أن الصوت للسماء لا لله تعالى فلا دلالة في الحديث على إثبات الصوت لله كما توهَّم الآخرون ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ .

والأحاديث الثلاثة من الآحاد أيضاً ولا نثبت بها عقيدة والحمد لله رب العالمين .

عوداً على بَدْء في بيان معتقد الأشعرية المنزهة :

اعلم يرحمك الله تعالى أنَّ كلام الله تعالى الذي هو صفة ذاته قديم أزلي لا ابتداء له ، وما كان كذلك فلا يكون حرفاً ولا صوتاً ، والقرآن والإنجيل والتوراة والزبور وسائر كتب الله تعالى إذا قصد به اللفظ المُنْزَل الذي بعضه بلغة العرب وبعضه بالعبرانية وبعضه بالسُّرْيانية فهو حادث مخلوق لله تعالى ، لكنها ليست من تصنيف مَلَكٍ ولا بشر ولا مخلوق ، فهي عبارات تعبر عن الكلام الذاتي كما صرح

بذلك أئمة أهل السنة والجماعة ، كأبي حنيفة والبخاري والكرابيسي رحمهم الله تعالى وغيرهم ، وهذا الكلام الذاتي لا يوصف بأنه عربي ولا بأنه سُرْياني ولا عبراني وإنما يوصف بذلك اللفظ المنزل الحادث وكلاً يطلق عليه كلام الله .

أي أنَّ صفة الكلام القائمة بذات الله سبحانه يقال لها كلام الله واللفظ المنزل الذي يُعَبِّرُ عن هذه الصفة يقال له أيضاً كلام الله ، فتبين من هذا أنّ القرآن له إطلاقان عند الأشاعرة ؛ يطلق على الكلام الذاتي الذي ليس هو بحرف ولا صوت ولا لغة ، ويطلق أيضاً على هذا اللفظ المنزل الذي يقرؤه المؤمنون .

وتقريب ذلك : أن لفظ الجلالة (الله) عبارة أي يعبر عن الذات الأزلي الأبدي القديم ، فإذا قلنا نعبد (الله) فذلك الذات الأزلي الأبدي هو المقصود لا بمعنى أنّ هذه الحروف هي الذات الأزلي الذي نعبده .

فصفة الكلام ـ عند الأشاعرة ـ أزلية أبدية عندهم لا يجوز أن تكون حروفاً ولا أصواتاً لأن الحرف والصوت مخلوقان بالمشاهدة ، فكما أن صفاته من العلم والقدرة والإرادة وغيرها أزلية قديمة كذلك كلامه الذاتي أزلي قديم ليس حرفاً ولا صوتاً ، وذلك لأنه سبحانه مباين أي غير مشابه لجميع الخلق كما أنّ صفاته لا تشبه صفات المخلوقين وأفعاله لا تشبه أفعال الخلق ، لأَن فعل الله سبحانه وتعالى أزلي قديم أبدي والمفعول حادث كما أن القدرة أزلية أبدية والمقدور حادث فنحن العوالم والحوادث كلنا مقدور لله تعالى أوجدنا بقدرته الأزلية الأبدية .

قال العلامة علي القاري الحنفي في « شرح الفقه الأكبر » ص (٢٩) :

« ـ المبتدعة ـ قالوا كلامه حروف وأصوات تقوم بذاته وهو قديم وبالغ بعضهم جهلاً حتى قال : الجلد والقِرْطاس قديمان فضلاً عن الصحف ، وهذا قول باطل بالضرورة ومكابرة للحس ، للإحساس بتقدّم الباء على السين في بسم الله ونحوه » انتهى .

فاتضح من هذا كله جلياً في مسألة خلق القرآن ــ عند الأشاعرة ــ هي أن القرآن إذا أُرِيد وقُصِدَ به صفة الله تعالى القديمة فهذا غير مخلوق ومَنْ قال إنه مخلوق كفر ، وإن قُصِدَ به المصحف الذي بأيدينا الذي نزل به سيدنا جبريل وكذا

ألفاظنا وقراءتنا فمخلوق بلا شك ولا ريب بقوله تعالى ﴿ **ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحْدَثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون** ﴾ ولأن المصحف من ورق وحبر وهما مخلوقان ، ولأن سيدنا جبريل عليه السلام لا يُتَصَوَّرُ أن يحمل قديماً فينقله من مكان إلى مكان ، ولأن قراءة القارئ وصوته حادثان مثله لاستحالة قيام القديم بالحادث ، وهذا مما لا جدال فيه .

قلت : وقد وقع الخلاف في هذه المسألة بين جماعة من الأئمة كما بيناه في فصل اختلاف السلف . والصحيح في المسألة ما بيَّناه هنا .

[فائدة] : وذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله تعالى ﴿ **وكلّم الله موسى تكليماً** ﴾ لا يدلُّ على جواز سماع الكلام الذاتي النفسي الذي ليس هو حرفاً ولا صوتاً والذي هو من صفاته تعالى ، كما لم يدلَّ على ذلك أيضاً قوله تعالى ﴿ **ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم** ﴾(٢١٧) البقرة : ١٧٤ ، وذلك لأن قوله تعالى ﴿ **وكلّم الله موسى تكليماً** ﴾ معناه أن الله تعالى خلق صوتاً في الشجرة خاطب به سيدنا موسى عليه السلام ، وقد تعين القول بهذا لاستحالة أن يكون الله تعالى في الشجرة التي كانت في البقعة المباركة لتنزه الله تعالى عن الحلول في الأرض وفي المكان ، فقول الله تعالى ﴿ **فلمّا أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة**

---

(٢١٧) كما تجد ذلك في تفسير الإمام الرازي (٣/ ٢٩ـ٣٠) ، وبذلك نشأ الخلاف بين فِرَقِ الأمة في مسألة الكلام ، فصار فيها ثلاثة مذاهب :

الأول : مذهب المعتزلة والماتريدية : وهو أن الله متكلّم ، ومعناه ان تلك الصفة يمتنع كونها مسموعة وأن المسموع حروف وأصوات مخلوقة . ويمكن أن نفرّق بين مذهب المعتزلة والماتريدية بأن الماتريدية أثبتت صفة نفسية والمعتزلة لم تثبت ذلك فقالت هي صفة فعل لا صفة ذات .

الثاني : مذهب الأشاعرة وهو : ان الله متكلّم ، ومعناه : أن الصفة النفسية المنزهة عن الحرف والصوت يمكن أن يسمعها الله تعالى من شاء من خلقه .

الثالث : مذهب الكرامية وجمهور الحنابلة القائلون بأن الله متكلّم ومعناه أن هذه الحروف والأصوات هي الكلام القديم النفسي القائم بذات الله تعالى وهو قديم النوع حادث الأفراد ، وأن هذه الحروف والأصوات غير مخلوقة . تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً .

فأما القول الأول والثاني : فيمكن الأخذ بواحد منهما حسبما يترجح ويتبين لكل عالم من حيث الأدلة ، والله الموفق والهادي .

من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾ القصص : ٣٠ لا يدل على أنه سبحانه كان في الشجرة ولا نستطيع أن نفسّر الآية إلا بما قررناه وهو أن الله تعالى خلق صوتاً صدر من جهة الشجرة خاطب به سيدنا موسى عليه السلام .

ولذلك قال قوم من أهل العلم : إنه على هذا يكون الكلام هو العلم ، قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٠/٤٤٧) : « قلت : لأنه ـ أي القرآن ـ من علم الله ، وعلم الله لا يوصف بالحَدَث » .

وقال الإمام الفخر الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره (١٤/١٨٨) :

[(المسألة الرابعة) أجمعت الأمة على أن الله تعالى متكلم ، ومن سوى الأشعري وأتباعه أطبقوا على أن كلام الله هو هذه الحروف المسموعة والأصوات المؤلفة ، وأما الأشعري وأتباعه **فإنهم زعموا** أن كلام الله تعالى صفة قديمة يُعَبَّرُ عنها بهذه الحروف والأصوات .

(أما الفريق الأول) وهم الذين قالوا كلام الله تعالى هو هذه الحروف والكلمات فهم فريقان (أحدهما) الحنابلة الذين قالوا بِقِدَمِ هذه الحروف وهؤلاء أخَسُّ مِنْ أن يُذْكَروا في زمرة العقلاء ، واتفق أني قلتُ يوماً لبعضهم لو تكلم الله بهذه الحروف إما أن يتكلم بها دفعة واحدة أو على التعاقب والتوالي والأول باطل لأن التكلم بجملة هذه الحروف دفعة واحدة لا يفيد هذا النظم المركب على هذا التعاقب والتوالي ، فوجب أن لا يكون هذا النظم المركب من هذه الحروف المتوالية كلام الله تعالى ، والثاني باطل لأنه تعالى لو تكلم بها على التوالي والتعاقب كانت محدثة ، ولَمّا سمع ذلك الرجل هذا الكلام قال الواجب علينا أن نُقِرَّ ونُمِرَّ(٢١٨) ، يعني نقر بأن القرآن قديم ونمر على هذا الكلام على وفق ما سمعناه !! فتعجبت

---

(٢١٨) وهذا أسلوبهم وجوابهم في كل عصر ومصر عندما يعجزون أمام العلماء يوهمون أنهم يقولون بالتفويض وهم مشبهة !! لا سيما وشيخهم الحراني يقول إن التفويض من شر أقوال أهل البدع والإلحاد !! فيا للعجب !!

وعقيدة أو عبارة (أمروها كما جاءت) أو (وقراءتها تفسيرها) عقيدة مردودة فاسدة ! لا يجوز الأخذ بها كائناً من كان القائل بها ! كما مرَّ في التفويض !

من سلامة قلب ذلك القائل(٢١٩) ، **وأما العقلاء من الناس فقد أطبقوا على أن هذه الحروف والأصوات كائنة بعد أن لم تكن حاصلة بعد أن كانت معدومة ، ثم اختلفت عباراتهم في أنها هل هي مخلوقة ، أو لا يقال ذلك ، بل يقال إنها حادثة أو يعبر عنها بعبارة أخرى ، واختلفوا أيضاً في أن هذه الحروف هل هي قائمة بذات الله تعالى أو يخلقها في جسم آخر ، فالأول هو قول الكرامية ، والثاني قول المعتزلة** ، وأما الأشعرية الذين زعموا أن كلام الله صفة قديمة تدل عليها هذه الألفاظ والعبارات فقد اتفقوا على أن قوله ﴿ **أو من وراء حجاب** ﴾ هو أن الملك والرسول يسمع ذلك الكلام المنزه عن الحرف والصوت من وراء حجاب(٢٢٠) ، قالوا وكما لا يَبْعُدُ أن تُرَى ذات الله مع أنه ليس بجسم ولا في حيز فأيُّ بُعْدٍ في أن يُسْمَعَ كلام الله مع أنه لا يكون حرفاً ولا صوتاً ؟! وزعم أبو منصور الماتريدي السمرقندي أن تلك الصفة القائمة يمتنع كونها مسموعة ، وإنما المسموع حروف وأصوات يخلقها الله تعالى في الشجرة وهذا القول قريب من قول المعتزلة والله أعلم] . انتهى كلام الإمام الرازي رحمه الله تعالى .

الغضب والرضا

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(والله يغضب ويرضى لا كأحدٍ من الورى) .

الشرح :

قال تعالى : ﴿ **والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدَّ لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم** ﴾ التوبة : ١٠٠ . وقال تعالى : ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ الفتح : ١٨ .

---

(٢١٩) أي من سذاجته وعدم فهمه !

(٢٢٠) وأما غيرهم ففسّروا قوله تعالى ﴿ **أو من وراء حجاب** ﴾ هو خلق هذه الأحرف في اللوح المحفوظ ، أو خلق الصوت في الشجرة وغيرها .

وقال تعالى : ﴿ **قل هل أُنبئكم بشرٍ من ذلك مثوبة عند الله مَنْ لعنه الله وغضب عليه** ﴾ المائدة : ٦٠ . وقال تعالى : ﴿ **كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحلَّ عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى** ﴾ طه : ٨١ .

لقد ورد ذِكْرُ الغضب والرضى مضافاً لله تعالى في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الصحيحة ، والقواعد لا تمنع إطلاق هذين اللفظين على الله تعالى بشرط تنزيه الله سبحانه وتعالى عن قيام الحوادث والتغيرات به ، فهو عالم بما سيعمل كل عبد من عبيده ولذلك رضي عن الطائعين وغضب على الفجار والمشركين العاصين ، دون أن تتغير صفاته سبحانه ، ومن أثبت له التغير وحدوث الصفات في ذاته العلي شيئاً فشيئاً حكمنا بكفره ؛ لأن في هذا نسبة النقص إليه سبحانه من وجوه عديدة ، ووصفه بما لم يصف به نفسه ، وقد أوّل جماعة من السلف رضاه سبحانه وغضبه ؛ قال أبو الحسن الأشعري في « رسالة أهل الثغر » ص (٧٤) ــ وهي من آخر مؤلفاته حقيقة (٢٢١) ـ :

« وأجمعوا على أنه عزَّ وجلَّ يرضى عن الطائعين له ؛ وأن رضاه عنهم إرادته لنعيمهم وأنه يحب التوابين ، ويسخط على الكافرين ويغضب عليهم وأن غضبه إرادته لعذابهم » .

---

(٢٢١) قلت : وقد ذكر الأشعري في « رسالة أهل الثغر » عدة إجماعات عن السلف لا يُسَلَّم له في كثير منها دعوى الإجماع كنقله الإجماع في المجيء واليد والرؤية يوم القيامة ، وزيادة الإيمان ونقصه ، والصراط ، وعلى عدم الخروج على الفاجر الجائر وغير ذلك ، وبعض ما ادّعى فيه الإجماع من غير هذه الأمور صحيح ولا ريب فيه فاعلم ذلك ولا تغفل عنه .

فصل

في ألفاظ لا يصح إطلاقها صفات لله تعالى

قاعدة مهمة جداً

الضحك والعُجب والغيرة والملل والاستهزاء والمكر والسخرية والكيد والخديعة والتردد والصبر والنسيان والمرض والجوع والهرولة وأشباهها ليست صفات يصح إطلاقها على الله تعالى إلا في سياق ضرب المثل والتشبيه والتقريب المجازي المستعمل في لغة العرب .

فأما الضحك والعجب والغيرة والملل والتردد والصبر والمرض والجوع والهرولة فلم ترد في القرآن وهي واردة في أحاديث آحاد لا تثبت بمثلها العقائد ، ثم قد دخلها تصرّف الرواة كما يجد ذلك مَنْ تتبعها ونظر في ألفاظ الحديث الواحد منها .

وأما الاستهزاء والمكر والكيد والخديعة والنسيان فقد ذُكِرَتْ ووردت في القرآن الكريم ولكنها ليست صفات لله تعالى وإنما هي إضافات فيجوز إطلاق هذه الألفاظ واستعمالها في التعبير في حق المولى سبحانه ، ومعناها الذي يراد منها : هو أن الله تعالى مُجازٍ ومعاقب أصحاب هذه الصفات عليها ومبطلها لهم ، فهو سبحانه مبطل مكرهم وخديعتهم واستهزاءَهم وكيدهم وغير ذلك ، وهذا واضح من لغة العرب ومن قواعد الكتاب والسنة المقررة تنزيه الله تعالى عن كل نقص وتشبيه وتغيُّر ، وقد بين ذلك العلماء وقرر منهم الحافظ البيهقي في الأسماء والصفات(٢٢٢) ، والإمام الحافظ المحدّث السلفي ابن جرير الطبري في « تفسيره » (١/١٣٢) وإليكم بعض ما قاله هناك ونقله عن أهل العلم من السلف مدللاً لهذه القاعدة وموضحاً : قال :

---

(٢٢٢) مع اضطراب يسير له في بعض الأمور في ذلك الكتاب .

« القول في تأويل قوله تعالى ﴿ **الله يستهزيءُ بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ اخْتُلِفَ في صفة استهزاء الله جلّ جلاله ... » .

قلت : من كلامه هذا يتبين أن السلف اختلفوا في تأويل هذه الآية ، وهذا يثبت لنا أمرين اثنين :

الأول : إثبات التأويل عند السلف . **والثاني** : اختلاف السلف في مسائل عقائدية تتعلّق بصفات الله تعالى .

دليل هذه القاعدة : وقال ابن جرير هناك أيضاً ضمن عرضه لمذاهب السلف في هذه القضية : [وقال آخرون : قوله ﴿ **إنما نحن مستهزؤون الله يستهزئ بهم** ﴾ وقوله : ﴿ **يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ وقوله ﴿ **فيسخرون منهم سخر الله منهم** ﴾ و ﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ وما أشبه ذلك إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ ، وإن اختلف المعنيان ، كما قال جلَّ ثناؤه : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ ومعلوم أن الأولى من صاحبها سيئةٌ ، إذ كانت منه لله تبارك وتعالى معصية ، وأما الأخرى فعدلٌ[٢٢٣] لأنها من الله جزاء للعاصي على المعصية **فهما وإن اتفق لفظاهما (لكنهما)[٢٢٤] مختلفا المعنى** ، وكذلك قوله ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه** ﴾ فالعدوان الأول ظلم والثاني جزاءٌ لا ظلمٌ ، بل هو عدلٌ ، لأنه عقوبة للظالم على ظلمه وإن وافق لفظه لفظ الأوّل وإلى هذا المعنى وجهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك مما هو خبر عن مكر الله جلَّ وعزَّ بقوم ، وما أشبه ذلك] انتهى كلام الإمام ابن جرير الطبري المراد نقله .

[قاعدة أخرى] : زعم بعض المشبهة أن إطلاق صفة على شيء ما ؛ يدلُّ على أن هذه الصفة هي أصلاً من صفات ذلك الشيء وإلا لما جاز إطلاقها عليه ، ومَثَّلوا لذلك بقوله تعالى ﴿ **ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ فقالوا : نحن

---

[٢٢٣] وقعت هذه العبارة في الأصل (وأنّ الأخرى عدل) فأصلحتها ليتضح المعنى أكثر .

[٢٢٤] لفظة (لكنهما) من زياداتي لإيضاح المعنى وإبرازه أكثر .

هنا وإن قلنا بأنَّ معنى الآية : يبقى ذات الله تعالى : لكن هذا لا ينفي أن يكون له وجه لأنه لولا أن الوجه صفة له أصلاً لم يجز إطلاق الوجه عليه تعالى ، ولذلك لا يطلق الوجه على من ليس له وجه أصلاً ؛ فلا يقال مثلاً وجه الريح لأن الريح لا وجه لها !! وزعم هذا القائل المشبه أن هذا الأمر إنما ظهر له بعد دراسة عميقة للغة العرب ولنصوص الكتاب والسنة !!

فاستعجبنا من قوله هذا جداً لأنه قول منقوض مهدوم بصريح الكتاب والسنة ولغة العرب وإليكم بيان ذلك من ثلاثة أمثلة من القرآن الكريم تثبت أنه يجوز أن يُطْلَقَ وَصْفٌ على شيء ما وليس هذا الوصف أصلاً من صفات هذا الشيء ولا يستطيع أحد أن يجادل أو يماري فيها وهي كافية قاطعة لشغب أي مشاغب في هذا الباب فأقول وبالله تعالى التوفيق :

المثال الأول : قال الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** ﴾ الإسراء : ٢٤ ، والإنسان لا جناح له أصلاً وإنما استعير ذلك من الطير الذي قال الله تعالى عنه ﴿ **ولا طائر يطير بجناحيه** ﴾ الأنعام : ٣٨ !! وقال تعالى أيضاً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ **واخفض جناحك للمؤمنين** ﴾ الحجر : ٨٨ والنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس له جناح !!

المثال الثاني : قال الله تعالى ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلّهم يرجعون** ﴾ آل عمران : ٧٢ ، فأطلق هنا الوجه على النهار ؛ والنهار لا وجه له ولا رأس ولا أعضاء ، وهذا المَثَلُ يهدم ما أورده ذلك المشبه من الكلام ويهدم قوله (فلا يقال وجه الريح) وقد تبين أن الصواب جواز قول : وجه الريح ووجه النهار وإطلاق الوجه على ما لا وجه له أصلاً .

المثال الثالث : قال الله تعالى عن القرآن ﴿ **وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾ فصلت : ٤٢ ، والمصحف باتفاق العقلاء ليس له يدان ولا أعضاء إنما هذا من مجاز اللغة وهو مؤوّل بأن ذلك كناية عن أن القرآن محفوظ من التبديل والتحريف ولا مجال للباطل إليه !!

القواعد التي يجب مراعاتها عند إطلاق صفة على الله تعالى

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر ، فمن أبصر هذا اعتبر ، وعن مثل قول الكفار انزجر ، وعلم أنه بصفاته ليس كالبشر ، تَقَدَّسَ عن كل سوءٍ وحَيْن [أي هلاك] ، وتنزه عن كل عَيْبٍ وشَيْن ﴿ لا يُسْئَلُ عما يفعل وهم يُسْئَلون ﴾ وهو [أي دين الإسلام] بين الغلو والتقصير ، وبين التشبيه والتعطيل) .

الشرح :

حوى هذا الكلام من المصنِّف رحمه الله تعالى تقرير قاعدة تنزيه الله تعالى عن مشابهة الخلق في ذاته وصفاته ومجاري أفعاله ونحن نبين هذا ونكمله بعون الله تعالى فنقول :

اعلم يرحمك الله تعالى أنه قد اتضح لنا مما تقدّم ذكره ــ في باب التأويل والتفويض وخبر الواحد وأنه لا يفيد العلم ؛ وكذا ما سبق قبل قليل في فصل الألفاظ التي لا يصح إطلاقها صفات لله تعالى أُسس القواعد التي ينبني عليها تحديد الصفات التي يجوز إطلاقها على الله تعالى .

ويمكن تلخيص هذه الأُسس المنهجية وهي :

[الأساس الأول] : أن يكون النص الذي يراد إثبات الصفة منه لله تعالى مُحْكَماً وليس متشابهاً ، ولا بُدَّ لنا هنا أن نبين معنى المُحكم والمتشابه .

قال الله تعالى **﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ مُحْكماتٌ هنَّ أم الكتاب ، وأُخَرُ متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يَذَّكَّرُ إلا أولوا الألباب ﴾** آل عمران : ٧ .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في « المستصفى » (١/١٠٦) :

« مسألة : في القرآن محكم ومتشابه كما قال تعالى ﴿ **منه آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتابِ وأُخَرُ مُتَشابهاتٍ** ﴾ ... الصحيح أن المحكم يرجع إلى معنيين :

أحدهما : المكشوف المعنى الذي لا يتطرّق إليه إشكال واحتمال ، والمتشابه : ما تعارض فيه الاحتمال . **الثاني** : أن المحكم ما انتظم وتَرَتَّبَ ترتيباً مفيداً ؛ إما على ظاهرٍ أو تأويلٍ ما لم يكن فيه متناقض ومختلف ، لكن هذا المحكم يقابله المثبج(٢٢٥) والفاسد دون المتشابه .

وأما المتشابه فيجوز أن يُعَبَّر به عن الأسماء المشتركة كالقُرْء ، كقوله تعالى ﴿ **الذي بيده عقدة النكاح** ﴾ فإنه متردد بين الزوج والولي ، وكاللمس المتردد بين المس والوطء ، وقد يطلق على ما ورد في صفات الله مما يوهم ظاهره الجهة والتشبيه ويحتاج إلى تأويله » انتهى كلام الإمام الغزالي .

فالمختار عندنا : أن الآيات المحكمات هي الآيات الواضحات من حيث المعنى حيث لا يحتمل ظاهرها إلا معنى واحداً وكذلك الحديث المحكم ، والمتشابه عكس ذلك حيث يحتمل نصه وظاهره عدة معانٍ قد يُحْمل على أحدها .

[الأساس الثاني في الصفات] : أن لا يدخل المجاز والتأويل في النص المراد الاستدلال به على إثبات الصفة .

اعلم أولاً يرحمك الله تعالى أن الكلام عند العرب ينقسم إلى حقيقة ومجاز ، فقول القائل : علي أسد ، لا يَعْنُونَ أن علياً ذلك الحيوان المعروف بل إن هذا عندهم مجاز عن الشجاعة المشتركة بين الأسد الحيوان وعليٍّ الإنسان .

وأيضاً قول الله تعالى مثلاً ﴿ **ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً** ﴾ ليس معناه ظاهره ؛ وهو أن كل أعمى وضرير في الدنيا مآله الدخول في الآخرة إلى النار قطعاً ؛ وإنما هذا مجاز عند العرب عن الإنسان العاصي الغارق في الشهوات المحجوب عن معرفة ربه وطاعته وتقواه .

---

(٢٢٥) هو اضطراب الكلام وعدم انتظامه .

وقال أحمد بن حنبل في قوله تعالى ﴿ **إنني معكما أسمع وأرى** ﴾ هذا من مجاز اللغة . (انظر ((البحر المحيط)) في علم الأصول للحافظ الزركشي ٢/ ١٨٢) .

وقوله تعالى أيضاً حكاية عن حال الكافر ﴿ **يا حسرتى على ما فرّطت في جنب الله** ﴾ أي في حق الله تعالى ، فالجنب الذي وضع في اللغة اسم لعضوٍ مخصوص غير مراد هنا قطعاً وإنما المراد هنا المعنى المجازي .

والتأويل عند بعض العلماء : هو صرف اللفظ عن ظاهره الذي لا يُرَاد إلى معنى آخر مجازي ، كما تقدّم في الجنب والنسيان والمرض الذي ورد إضافته لله تعالى في بعض النصوص .

والمختار في التحقيق عندنا : أن التأويل هو فهم المقصود من النص أو العلم بالمراد من النص ، والتفويض عدم العلم أو عدم فهم المقصود بالنص أي الجهل بذلك .

ولو تركنا التأويل وتشبثنا بظواهر النصوص وتعصبنا لذلك ضللنا وأضللنا وأفسدنا العقيدة الصحيحة وتنكبنا طريقة العرب في فهم كلام الله الذي نزل بلغتهم إلى طريقة الأعاجم في فهم الكلام العربي وهذا خطأٌ كبير وفساد عظيم ، ولا نظنُّ أن عاقلاً عالماً فاهماً متروياً بصيراً يخالف في هذا !!

وقد تقدّم نقل نماذج من نصوص السلف في تأويل الصفات وحملها على المجاز في فصل التأويل فليرجع إليه من شاء الاستزادة .

[الأساس الثالث في الصفات] : أن لا يكون لتصرّف الرواة مجالٌ أو احتمال في النص : اعلم أن الحديث النبوي لم يُنْقَلْ لنا بالنص الذي نطق به النبي صلى الله عليه وآله وسلم خلافاً للقرآن الذي نقل لنا بحروفه ونصه بالتواتر ، فأكثر الأحاديث نقلت لنا بالمعنى كما هو معروف عند المحدّثين والحفاظ ولذلك تصرّف الرواة بالألفاظ فكل منهم رواها بالمعنى ، فاحتمل أن يكون اللفظ الذي يراد إثباته صفة لله تعالى ليس من كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بل من كلام أحد الرواة ، وكلام الرواة ليس حجة في الشرع لأن الحجة في نص الكتاب والسنة ، ونعني بالسنة هنا اللفظ الذي تأكدنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نطق به ،

وكذا المعنى الذي أراده ، ولا بد لنا هنا أن نضرب مثالاً على تصرّف الرواة ليتضح هذا الأمر المهم :

حديث « لا شخص أغير من الله » رواه البخاري (١٣/ ٣٩٩) ومسلم (٢/ ١١٣٦ برقم ١٧) فاستدلّ من هذا النص بعض المجسمة على أنه يطلق على الله لفظ (شخص) وأن هذا من صفاته سبحانه !! والحق أن الأمر ليس كذلك فقد روي الحديث أيضاً في البخاري (٨/ ٢٩٦) بلفظ : « لا أحد أغير من الله ... ولا شيء أحب إليه المدح من الله ... » .

فتبين لنا أن الرواة تصرّفوا في المتن لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حكاه بلفظ واحد فبعضهم رواه بلفظ « لا شخص أغير من الله » وبعضهم « لا أحد أغير من الله » والشخص في اللغة : سواد الإنسان والحيوان ، يُرَى من بُعْدٍ ، فلا يطلق إلا على جسم ، والله تعالى منزّه عن ذلك ، وقد صرح بذلك أئمة أهل العلم .

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٣/ ٤٠) : « قال ابن بطّال : اختلفت ألفاظ هذا الحديث فلم يُخْتلف في حديث ابن مسعود أنه بلفظ « لا أحد » ، فظهر أن لفظ شخص جاء موضع أحد فكأنه من تصرّف الراوي » .

ثم قال الحافظ هناك : « قلت : وهو المعتمد ، وقد قرره ابن فُورك ومنه أخذه ابن بطّال » . ثم نقل الحافظ ابن حجر هناك عن الخطّابي أنه قال :

« إطلاق الشخص في صفات الله تعالى غير جائز ، لأن الشخص لا يكون إلا جسماً مؤلفاً ، فخليق أن لا تكون هذه اللفظة صحيحة وأن تكون تصحيفاً من الراوي ، ودليل ذلك أن أبا عوانة روى هذا الخبر عن عبد الملك فلم يذكرها ، ووقع في حديث أبي هريرة وأسماء بنت أبي بكر بلفظ (شيء) والشيء والشخص في الوزن سواء ، فمن لم يمعن في الاستماع لم يأمن الوهم ، **وليس كلُّ من الرواة يراعي لفظ الحديث حتى لا يتعدّاه ، بل كثيرٌ منهم يحدّث بالمعنى وليس كلهم فَهِمَاً** ، بل في كلام بعضهم جفاء وتعجرف ، فلعلَّ لفظ شخصٍ جرى على هذا السبيل إن لم يكن غلطاً من قبيل التصحيف » .

فتأمل هذا الكلام جيداً من مثل هذا الإمام الحافظ !!

ويمكننا أن نعرف ونطّلع على كثير من أمثلة تصرّف الرواة في « صحيح الإمام مسلم » فهو مرجع في هذا الباب ، حيث نجده يذكر الأحاديث برواياتها المختلفة عن نفس الصحابي وعن غيره بألفاظ مختلفة مما يبرهن بما لا يدع شكاً على تصرّف الرواة بألفاظ الحديث وروايتهم له بالمعنى .

ولا أدلَّ على ذلك أيضاً من صحيح البخاري وباقي الكتب فإنها بعد تدوينها وتصنيف مؤلفيها لها نقلت لنا بطرق وأسانيد اختلف الرواة في رواية كثير من ألفاظها ومتونها ، فنرى الحافظ ابن حجر يقول مثلاً في شرح البخاري : وقع في رواية الكشميهني كذا وفي رواية أبي ذر كذا وفي رواية كريمة والأصيلي كذا ، وهكذا يتكرر ذلك ، وما ذلك إلا لاختلاف رواة الصحيح في رواية الكتاب .

[الأساس الرابع في الصفات] : أن لا يكون من أخبار الآحاد في أصول الاعتقاد . وذلك لأن خبر الواحد قابل للخطأ والسهو والغلط ومحتمل فلا يفيد العلم وإنما يفيد الظن ، والعقيدة وما يطلق على الله تعالى لا يجوز أن يكون للخطأ فيها مجال أو مدخل أو احتمال لخطأ .

قال الحافظ ابن عبد البر في « التمهيد » (٩/ ٢٨٥) :

« لأن أخبار الآحاد لا يقطع على عينها وإنما توجب العمل فقط » .

وقال أيضاً في « التمهيد » (٧/ ١٧) : « فإن أخبار الآحاد لا يقطع عليها » .

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى في « شرح مسلم » (١/ ١٣١) :

« وأما من قال يوجب العلم ـ خبر الواحد ـ فهو مكابر للحس ، وكيف يحصل العلم واحتمال الغلط والوهم والكذب وغير ذلك متطرق إليه ؟! والله أعلم » انتهى .

وقد تقدّم الكلام على خبر الواحد على أنه يفيد الظن ولا يفيد العلم مطولاً موضحاً بما أغنى عن إعادته هنا ، والله الموفق .

فصل

في تطبيق هذه الأُسس على بعض الآيات والأحاديث

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية ، منعوت بنعوت الفردانية ، ليس في معناه أحد من البرية ، تعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات ، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات ، وهو مستغن عن العرش وما دونه ، محيط بكل شيء وبما فوقه ، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه) .

الشرح :

ذكر المصنّف هنا تنزيه الله تعالى عن الأعضاء والأدوات والحد والجهة وهو العلو الحسي الذي تثبته المجسمة والمشبهة ؛ فلا بدَّ لنا الآن أن نستوعب هذه الأمور ونعرضها على الأسس والقواعد التي قدّمنا ذكرها المبنية على نصوص الكتاب والسنة ، ويجدر بنا أيضاً أن نذكر بعض الآيات والأحاديث التي تشبث المجسمة بظواهرها في إثبات صفاتٍ لله تعالى مع أنها لا تفيد ذلك ، وقد مرّ بنا فيما تقدّم أن النسيان المذكور في قوله تعالى ﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ لا يجوز إطلاقه صفة لله تعالى وأنه مؤوّل عند السلف بالترك ، وكذلك الجَنْب الوارد في قوله ﴿ **يا حسرتى على ما فرّطت في جنب الله** ﴾ مؤول عند السلف بحق الله ، وكذلك المرض الذي ورد في حديث « عبدي مرضتُ فلم تعدني » عائد على العبد لأن المرض نقص ولا يجوز اعتقاد أنه من صفات الله ، ومن ذلك أيضاً الساق في قوله تعالى ﴿ **يوم يكشف عن ساق** ﴾ فإنها مجاز عن اشتداد الأمر ، ولذلك أوّلها سيدنا ابن عباس بالشدة كما مر في باب نقل تأويلات السلف الصالح رحمهم الله تعالى .

ومن تلك النصوص المثال الأول هنا :

اليد أو اليدان

تمسّك بعض المشبهة والمجسمة بقوله تعالى ﴿ **ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيديَّ** ﴾ على إثبات يدين لله سبحانه وتعالى ، وهذا استدلال خطأ وإليك بيان ذلك :

قال الحافظ ابن الجوزي في كتابه « دفع شبه التشبيه » ص (١١٤) :

[اليد في اللغة : بمعنى النعمة والإحسان . قال الشاعر :

متى تناخي عند باب بني هاشم تُريحى فتلقى من فواضله يدا

ومعنى قول اليهود ﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ المائدة : ٦٤ ، أي : محبوسة عن النفقة ، واليد : القوة ، يقولون : ما لنا بهذا الأمر من يد ، وقوله تعالى : ﴿ **بل يداه مبسوطتان** ﴾ المائدة : ٦٤ ، أي نعمته وقدرته .

وقوله ﴿ **لِمَا خلقت بيدي** ﴾ أي : بقدرتي ونعمتي ، وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ الفتح : ١٠ ، أي : منّته وإحسانه .

قلت : هذا كلام المحققين . وقال القاضي أبويعلى (المجسّم) : « اليدان صفتان ذاتيّتان تسميان باليدين » .

قلت : وهذ تَصَرُّفٌ بالرأي لا دليل عليه .وقال ابن عقيل : معنى الآية لِما خَلَقْتُ أنا ، فهو كقوله ﴿ **ذلك بما قدّمت يداك** ﴾ الحج : ١٠ أي بما قدّمْتَ أنت .

وقد قال بعض البُله : لو لم يكن لآدم عليه السلام مزية على سائر الحيوانات بخلقه باليد التي هي صفة لما عظمه بذكرها وأجلّه فقال ﴿ **بيديَّ** ﴾ ولو كان القدرة لما كانت له مزية ، فإن قالوا القدرة لا تُثنّى (٢٢٦) . وقد قال ﴿ **بيديَّ** ﴾ .

قلنا : بلى ، قالت العرب : ليس لي بهذا الأمر يدان . أي ليس لي به قدرة

---

(٢٢٦) قلنا مجيبين : بل تثنّى : ويُراد بها الذات ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **تبّت يدا أبي لهبٍ** ﴾ والمراد بذلك ذاته بلا شك .

وقال عروة بن حزام في شعره :

فقالا شفاكَ الله والله ما لنا بما ضَمِنَتْ منك الضلوع يدان

وقولهم : ميّزه بذلك عن الحيوان ، نفاه قوله عز وجل : ﴿ **خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً** ﴾ يس : ٧١ ، ولم يدل هذا على تمييز الأنعام على بقية الحيوان (٢٢٧) . قال الله تعالى ﴿ **والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون** ﴾ الذاريات : ٤٧ أي بقوة(٢٢٨) .

ثم قد أخبر أنه فيه من روحه(٢٢٩) ، ولم يُرِدْ إلا الوضع بالفعل والتكوين والمعنى : نفخت أنا ، ويكفي شرف الإضافة ؛ إذ لا يليق بالخالق جلَّ جلاله سوى ذلك لأنه لا يحتاج أن يفعل بواسطة ، إذ ليس له أعضاء وجوارح يفعل بها لأنه الغني بذاته ، فلا ينبغي أن يتشاغل بطلب تعظيم آدم مع الغفلة عما يستحقه الباري سبحانه من التعظيم (والتنزيه) بنفي الأبعاض والآلات في الأفعال ، لأن هذه الأشياء صفة الأجسام ، وقد ظن بعض البُلْه أن الله يمس ، حتى توهموا أنه مسَّ طينة آدم بيدٍ هي بعض ذاته ، وما فطنوا أنه من جملة مخلوقاته جسماً يقابل جسماً

---

(٢٢٧) أي إذا قلتم بأنَّ سيدنا آدم عليه السلام مخصوص بأنه مخلوق بيد الله عزّ وجل بدليل قوله تعالى لإبليس : ﴿ **ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيديّ** ﴾ قلنا : ليس الأمر كما تتوهمون ، وإنما المراد ما منعك أن تسجد لما خلقت أنا ولم يخلقه غيري وأنا ربك وربُّه ، بدليل أن الأنعام من خيل وإبل وحمير وبقر وغيرها مخلوقة بيد الله تعالى أيضاً بنصِّ القرآن وذلك في قوله تعالى : ﴿ **أولَم يَرَوا أنّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون** ﴾ يس : ٧١ .

(٢٢٨) مع أنَّ لفظة (أيدٍ) في اللغة هي جمع يد وهي الكف المعروفة . كما تجد ذلك في مادّة (يدى) من القاموس ثم أُطلقت مجازاً على القوة لأنَّ اليد آلة للقوّة في العادة كما تجد ذلك المعنى المجازي في مادة (أيد) في القاموس واصلها في مادة (يدى) فتدبر . وقال بعض المبتدعة : (أيدٍ) لا تُعرف في اللغة إلا بمعنى القوّة وهذا غلط محض وخطأ فاحش يظهر عند مطالعة مادة (يدى) في « القاموس المحيط » وغيره . ومنه قوله تعالى : ﴿ **ألهم أرجل يمشون بها أم لَهُمْ أيْد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها** ﴾ الأنعام : ١٩٥ .

(٢٢٩) معنى من روحه : أي الروح التي خلقها وأضافها إلى نفسه ليشرّفها كما أضاف الكعبة إليه ليشرِّفها فقال : ﴿ **أن طهرا بيتِي للطائفين** ﴾ وكل الناس يعرفون أنه لا يسكنه وأنه تعالى عن ذلك فقولنا : بيت فلان يخالف تماماً قولنا : بيت الله وهكذا فتأمّل .

فيتحد به ويفعل فيه ، ومن السحر من يُعْقَدُ عُقَدَاً فيتغيّر به الشيء حالاً وصفه !! أَفَتَراهُ سبحانه جعل أفعال الأشخاص والأجسام تتعدى إلى الأجسام البعيدة ، ثم يحتاج هو في أفعاله إلى معاناة الطين . وقد رُدَّ قولُ من قال هذا بقوله تعالى : ﴿ **إن مثلَ عيسى عند الله كَمَثَلِ آدم خلقه من ترابٍ ثم قال له كُنْ فيكون** ﴾ آل عمران : ٥٨] انتهى كلام الإمام الحافظ ابن الجوزي رحمه الله تعالى .

أقول : وقولهم (إن قول الله سبحانه ﴿ **ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديَّ** ﴾ فيه إثبات يدين والقدرة لا تثنى !!) كلام فاسد وقول باطل لغةً وشرعاً ؛ أما لغةً : فتقدّم كلام الإمام ابن الجوزي فيه وأما شرعاً فقد جاء في صحيح مسلم (٤/٢٢٥٣) قوله صلى الله عليه وآله وسلم في يأجوج ومأجوج : (لا يَدَانِ لأَحَدٍ بقتالهم) أي : لا قدرة ولا طاقة ؛ كما قاله العلماء وأهل اللغة كما في « شرح مسلم » للإمام النووي ؛ فعلى هذا نقول ثبت استعمال التثنيه لليد في اللغة وفي الشرع والمراد بها القدرة وبطل ما يقوله المجسمة ، والله الموفق والهادي والحمد لله رب العالمين .

المثال الثاني :

الاستواء

احتجت المجسمة بقوله تعالى ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ على أن الله تعالى جالس على العرش وأنه عالٍ عليه علواً حسياً ، وبعضهم يعتقد ذلك ولا يصرّح بلفظ الجلوس ولا بالعلو الحِسي إنما يقول : الله في العلو ويشير إليه إلى جهة السماء ، وهذا خطأ محض بلا شك لأن الله تعالى منزه عن المكان ، والعرب تقول عمّن أرادت تعظيمه على وجه المجاز فلان في السماء ، أي عظيم القدر ، وإليكم تفصيل الكلام على هذه الآية وما شابهها من كلام الإمام الحافظ ابن الجوزي في « دفع شبه التشبيه » ص (١٢١) مع تعليقنا عليه في الحاشية :

قال رحمه الله تعالى : [ومنها قوله تعالى : ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾ الأعراف : ٥٤ قال الخليل بن أحمد : العرش : السرير ، فكل سرير مَلِكٍ يسمى عرشاً والعرش مشهور عند العرب في الجاهلية والإسلام قال الله تعالى : ﴿ **ورفع أبويه على العرش** ﴾ يوسف : ١٠٠ وقال تعالى : ﴿ **أيكم يأتيني بعرشها** ﴾ النحل : ٣٨ .

واعلم أن الاستواء في اللغة على وجوه منها :

الاعتدال . قال بعض بني تميم فاستوى ظالم العشيرة والمظلوم . أي اعتدلا ، والاستواء : تمام الشيء قال الله تعالى : ﴿ **ولمّا بلغ أشده واستوى** ﴾ القصص : ١٤ ، أي تَمَّ .

والاستواء : القصد إلى الشيء قال تعالى ﴿ **ثم استوى إلى السماء** ﴾ البقرة : ٢٩ أي قصد خلقها ، والاستواء الاستيلاء على الشيء قال الشاعر :

قد استوى بشرٌ على العراق من غير سيفٍ ودم مهراق(٢٣٠)

---

(٢٣٠) وبعض المبتدعة يقولون : هذا البيت هو للأخطل وكان نصرانياً فهل تبنون عقائدكم على قول نصرانيٍّ ؟!

ونجيبهم فنقول : نحن نستدلّ أيضاً في فهم لغة العرب من أقوال عبدة الأصنام الجاهليين فضلاً عن الأخطل النصراني ، وذلك لأن الله تعالى أنزل هذا القرآن الكريم بلغة العرب الأقحاح الذين كانوا

وقال الآخر :

إذا مـا غـزى قومـاً أبـاحَ حريمَهُـم　　وأضحى على ما ملكوه قد اسـتوى

وروى إسماعيل بن أبي خالد الطائي قال : العرش ياقوتة حمراء .

قلت : وجميع السلف(٢٣١) على إمرار هذه الآية كما جاءت من غير تفسير ولا تأويل(٢٣٢) .

يعبدون الأوثان والأصنام فنحن إذا أتينا بأشعارهم وأرجازهم فإنما نأتي بها لنفهم المعنى المراد من الآية الكريمة التي نزلت بلغة أُولئك ، وقدوتنا في ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي كـان يستنشد بعض الصحابة أبياتاً لبعض الجاهلين ويقول كلما فرغ « هِيْه » حتى يـأتي بـالذي بعـده ، وقـد ثبت ذلك عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

رواه أبوداود الطيالسي ص (١٧٩) .

والصحابة الأجلاء رضي الله تعالى عنهم قدوتنا في ذلك أيضاً وهذا سيدنا ابن عباس رضـي الله عنهمـا يقول فيما روى عنه البيهقي في « الأسماء والصفات » :

« إذا خفي عليكم شيء من القرآن فاتبعوه من الشعر .. »

والإمام البخاري أيضاً معنا في ذلك فهو يستدل ويستشهد في صحيحـه (١٣/ ٤٧) بقـول امـرئ القيـس المشرك الكافر ، وكتب التفاسير مليئة بأشعار المشركين فضلاً عن نصارى العرب !! فتأمل !! وإذا كانت المبتدعة قد سئمت قول الأخطل هذا فقد أورد لهم ابن الجوزي بيتاً آخر بعده وأزيدهم بيتاً ثالثـاً لبعـض العرب فأقول : إذا ما علونا واستوينا عليهمُ　　جعلناهُمُ مرعى لِنَسْرٍ وطائرِ

(٢٣١) هذا لا نسلّم به بل من السلف مَنْ تعرض لها بالتـأويل كأئمـة أهـل البيت والزيديـة والمعتزلـة وطائفة كبيرة من أهل السنة ومنهم ابن جرير الطبري السلفي حيث أولها في تفسيره (١/ ١٩٢) ففسـرها بعلو الملك والسلطان .

(٢٣٢) ذكر الحافظ أبوحيـان رحمـه الله تعالى في تفسيره « النهـر المـاد » (١/ ٢٥٤) المطبوع في ثلاثـة مجلدات مستقلّة عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وسـع كرسيه السـموات والأرض** ﴾ أنّ ابـن تيميـة قـال في رسالةٍ له قرأها الحافظ أبوحيان وهي بخط ابن تيمية معاصره : « إن الله يجلس على العرش وقـد أخلـى مكاناً يُقعد فيه معه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » عياذاً بالله تعالى !! وهذا الكلام محذوف مـن الطبعة التي بهامش « البحر المحيط » لأنّ مصححه بدار السعادة حذفها لاستشناعها وطلـب مـن الإمـام المحدث الكوثري والإمام المحدث سيدي عبدالله بن الصديق الغماري أن يُسجلا ذلك عليه عندما راجعاه وقد نبها على ذلك في بعض كتبهما . وكلام ابن تيمية هذا ثـابت في كتـاب تلميذه ابـن القيـم « بدائـع الفوائد » (٤/ ٣٩) ونقله عن بعض السلف وهـو مـردود علـى قائلـه لـو ثبـت عنـه ، كمـا نقلـه عـن الدارقطني في أبيات ذكرها هناك ولا تصح نسبتها للدارقطني لأن في سندها إليـه كذابـين مجسـمين وهمـا

ابن كادش والعشاري .

وأعود فأقول : لقد ثبت تأويل الاستواء عن السلف ، ففي تفسير الحافظ ابن جرير السلفي (١/ ١٩٢) تأويل الاستواء بعلو الملك والسلطان وهو **تأويل مقبول** ، وفي البخاري تأويل أبي العالية الاستواء بالارتفاع فإن كان يريد ارتفاع الربوبية على رتبة العبودية بعلو الملك والسلطان والقهر والعظمة كما يقول الحافظ ابن جرير السلفي فتأويل مقبول لا ترفضه قواعد الشريعة ولا لغة العرب ، وأما إن كان مراده ارتفاع الذات المُتخيلة فهو تأويل مردود ، وما أظنُّ أن أبا العالية أراد ذلك ولا قصده . ونحن نقول : معنى **﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾** أي : الرحمن صاحب الملك والإرادة والقهر في هذا العالم من عرشه إلى فرشه ، وذَكَرَ العرش هنا دون غيره لأنه أعظم المخلوقات وأكبرها فإذا كان مستوياً عليه بالقهر والربوبية اقتضى أنه مستوٍ على كافة خلقه بهذا المعنى من باب أولى ، فالاستواء عندنا هنا هو الاستيلاء والقهر وتنزيهه عن كل ما يخطر في الذهن وعن ما تزعمه الجسمة وهذا الذي تقتضيه لغة العرب مع نصوص الكتاب والسنة ، **أما لغة العرب** : ففي « مفردات » الراغب في مادة (سوا) ص (٢٥١) : « ـ الاستواء ـ متى عُدِّي بعلى اقتضى معنى الاستيلاء كقوله تعالى : **﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾** » ، وأما في الكتاب الكريم : فقوله تعالى : **﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾** فبين أنَّ فوقيته واستواءه بالقهر لا بالمكان ، **وأما السُّنَّة** : فثبت في صحيح مسلم (٤/ ٦١) وغيره : « اللهم أنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء » قال الحافظ البيهقي في « الأسماء والصفات » ص (٤٠٠) :

« استدلَّ بعض أصحابنا بهذا الحديث على نفي المكان عن الله تعالى ، فإذا لم يكن فوقه شيء ولا دونه ـ أي تحته ـ شيء لم يكن في مكان » اهـ وما بين الشرطتين من توضيحي ، وكل هذه النصوص تنفي وتبطل لفظة « بذاته » التي يوردها بعض الجسمة في قولهم : « الله على عرشه مستوٍ بذاته » ! وتثبت معنى الاستيلاء والقهر والعلو المعنوي كما قدّمنا ، وقد قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٦/ ١٣٦) أيضاً :

« ولا يلزم من كون جهتي العلو والسفل محال على الله أن لا يوصف بالعلو ، **لأنَّ وصفه بالعلو من جهة المعنى ، والمستحيل كون ذلك من جهة الحس** » اهـ وقد ذكر الحافظ في الفتح (١/ ٥٠٨) عند شرح حديث : « إنَّ أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه أو إنَّ ربّه بينه وبين القبلة فلا يبزقن أحدكم قِبَلَ قبلته ... » الحديث قال ابن حجر : « **وفيه الرد على مَنْ زعم أنه على العرش بذاته** » .

فإن قال قائل : « إن قولكم : معنى استوى قهر واستولى وملك يقتضي المغالبة ، أي أنه لم يكن قاهراً للعرش ثم غلب على الأمر فقهر واستولى أليس كذلك ؟!! » .

قلنا : لا وإنما هذا خيال باطل بصريح العقل والنقل ونحن نبين لك الدليل على بطلانه حتى تتحقق من ذلك فنقول لك : ألم تعلم أن الله تعالى يخبرنا عن يوم القيامة فيقول لنا في كتابه العزيز : **﴿ لِمَنِ المُلْكُ اليوم ؟﴾ فنقول لك : هل كان المُلْك قبل ذلك اليوم لغير الله تعالى ؟!! الجواب : لا قطعاً . وكذلك قوله تعالى ﴿ والله غالب على أمره ﴾ لا يقتضي المغالبة مع أنه صريح في ذكر الغلبة .**

قال عبد الله بن وهب : كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل فقال : يا أبا عبدالله ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ كيف استوى ؟ فأطرق مالك وأخذته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال : الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ولا يقال له كَيْفٌ ، وكَيْفٌ عنه مرفوع وأنت رجل سوء صاحب بدعة فأخرجوه فأُخْرِج .

وقد حمل قوم من المتأخرين هذه الصفة على مقتضى الحس فقالوا : « استوى على العرش بذاته » ، وهي زيادة لم تنقل(٢٣٣) ، وإنما فهموها من إحساسهم ، وهو أنّ المستوي على الشيء إنما تستوي عليه ذاته ، قال أبوحامد (المجسّم) : الاستواء مماسته وصفة لذاته ، والمراد به القعود ، قال : وقد ذهبت طائفة من أصحابنا إلى أن الله سبحانه وتعالى على عرشه قد ملأه ، وأنّه يَقْعُدُ ، ويُقْعِدُ نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم معه على العرش(٢٣٤) يوم القيامة .

قال أبوحامد : والنزول هو انتقالٌ .

فإذن لم يلزم من قول الله تعالى ﴿ **لمن المُلك اليوم** ﴾ أن المُلك قبل ذلك اليوم كان لغيره سبحانه ، وكذلك قولنا : استوى معناه : قهر واستولى ، ولا يلزم منه أنه لم يكن مستولياً أو قاهراً قبل ذلك والله الموفق والهادي للصواب .

وانتبه هنا إلى أمر مهم جداً وهو : أنه من الخطأ قول بعض الناس : إن الله تعالى موجود في كل مكان . فهذا خطأ أيضاً !! لأن الله تعالى موجود بلا مكان ، وهو خالق المكان .

(٢٣٣) الغريب أن المبتدعة يقولون : لا نصف الله تعالى إلا بما وصف به نفسه ، ثم يقولون : استوى على العرش بذاته ، فمن أين جاءوا بلفظة « بذاته » هذه ؟! وأين وردت في الكتاب والسُنّة ؟! وهي لفظة تفيد التجسيم صراحة وتؤيد قول أئمتهم « بجلوس معبودهم على العرش حتى يفضل منه مقدار أربع أصابع » !!

وقد وقع بذلك الخلال فنقل في كتابه « السنة » عن مجاهد بسندٍ ضعيف أكثر من خمسين مرّة تفسير المقام المحمود الوارد في قوله تعالى : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ بجلوس الرب تعالى عما يقولون على العرش وإجلاسه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بجنبه في الفراغ المقدر عندهم بأربع أصابع ! وقد أنكر الحافظ الذهبي ـ الذي تعدّل مزاجه فيما بعد شبابه ورجع عما أسلف ـ في كتابه « سير أعلام النبلاء » على من زاد لفظة « بذاته » بعد العلو أو الاستواء ونحوهما فقال هنالك (١٩/ ٦٠٧) ما نصه : « قد ذكرنا أن لفظة بذاته لا حاجة إليها وهي تشغب النفوس ... » اهـ .

(٢٣٤) فإذا لم يكفر مَنْ يقول بهذا ومثله فمن يكفر إذن ؟!!

قلت : وعلى ما حكى تكون ذاته أصغر من العرش (٢٣٥) فالعجب من قول هذا : ما نحن مجسمة ... ؟؟!!

وقيل لابن الزاغوني (المجسم) : هل تجدّدت له صفة لم تكن له بعد خلق العرش .. ؟ قال : لا إنما خلق العالم بصفة التحت ، فصار العالم بالإضافة إليه أسفل فإذا ثبت لإحدى الذاتين صفة التحت تثبت للأخرى صفة استحقاق الفوق قال : وقد ثبت أن الأماكن ليست في ذاته ، ولا ذاته فيها ، فثبت انفصاله عنها ؛ ولا بد من شيء يحصل به الفصل ، فلما قال : ﴿ **ثم استوى** ﴾ علمنا اختصاصه بتلك الجهة .

قال ابن الزاغوني (المجسم) : ولا بُدَّ أن تكون لذاته نهاية وغاية يعلمها .

قلت : وهذا رجل لا يدري ما يقول لأنه إذا قدَّر غاية وفصلاً بين الخالق والمخلوق فقد حدّده ، وأقرّ بأنه جسم ، وهو يقول في كتابه : إنه ليس بجوهر ، لأن الجوهر ما تحيّز ثُمَّ يثبت له مكاناً يتحيز فيه .

قلت : وهذا كلام جهل من قائله ، وتشبيه محض ، فما عرف هذا الشيخ ما يجب للخالق ، وما يستحيل عليه . فإن وجوده تعالى ليس كوجود الجواهر والأجسام التي لا بد لها من حيز ، والتحت والفوق إنما يكون فيما يقابل ويحاذي ؛ ومن ضرورة المحاذي أن يكون أكبر من المحاذي أو أصغر أو مثله ، وإنّ هذا ومثله إنما يكون في الأجسام ، وكل ما يحاذي الأجسام يجوز أن يمسها ، وما جاز عليه مماسة الأجسام ومباينتها فهو حادث ، إذ قد ثبت أن الدليل على حدوث الجواهر قبولها للمباينة والمماسة . فإذا أجازوا هذا عليه ، قالوا بجواز حدوثه ، وإن منعوا جواز هذا عليه ، لم يبق لنا طريق لإثبات حدوث الجواهر ؛ ومتى قدَّرنا مستغنياً عن المحل والحيز ومحتاجاً إلى الحيز ، ثم قلنا : إما أن يكونا متجاورين أو متباينين ، كان ذلك محالاً .

فإن التجاور والتباين من لوازم التحيّز في المتحيزات ، وقد ثبت أن الاجتماع

---

(٢٣٥) وهؤلاء كان اللازم في حقهم أن يقولوا : (العرش أكبر) !! بدل قولهم : (الله أكبر) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

والافتراق من لوازم المتحيز والحق سبحانه وتعالى لا يوصف بالتحيز ، لأنه إن كان متحيزاً لم يَخْلُ إما أن يكون ساكناً في حيزه ، أو متحركاً عنه ، ولا يجوز أن يوصف بحركة ولا سكون ، ولا اجتماع ولا افتراق ، وما جاور أو باين فقد تناهى ذاتاً ، والمتناهي إذا خُصَّ بمقدار ، استدعى مخصصاً ، وكذا ينبغي أن يقال ، ليس بداخل في العالم وليس بخارج منه ، لأنَّ الدخول والخروج من لوازم المتحيزات وهما كالحركة والسكون وسائر الأعراض التي تَخْتَصّ بالأجرام . وأما قولهم : خلق الأماكن لا في ذاته فثبت انفصاله عنها .

قلنا : ذاته تعالى لا تقبل أن يُخْلَقَ فيها شيء ، ولا أن يَحُلَّ فيها شيء ، والفصل من حيث الحس يوجب عليه ما يوجب على الجواهر ، ومعنى الحيز أن الذي يختص به يمنع مثله أن يوجد فيه ، **وكلام هؤلاء كله مبني على الحس ، وقد حملهم الحس على التشبيه والتخليط حتى قال بعضهم : إنما ذكر الاستواء على العرش لأنه أقرب الموجودات إليه !!**

وهذا جهل أيضاً . لأن قرب المسافة لا يُتَصَوّر إلا في حق الجسم . وقال بعضهم : جهة العرش تحاذي ما يقابله من الذات ولا تحاذي جميع الذات ، وهذا صريح في التجسيم والتبعيض ، ويعز علينا كيف يُنْسَب هذا القائل إلى مذهبنا ؟ »] انتهى كلام الحافظ ابن الجوزي . وما بين القوسين وهي لفظة المجسم من توضيحاتي وزياداتي .

المثال الثالث :

موضوع العلو

ومن النصوص التي يستدل بظاهرها المجسمة على العلو الحسي قوله تعالى ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب** ﴾ وهذا استدلال خطأ أيضاً . قال الحافظ ابن الجوزي في « دفع شبه التشبيه » ص (١٣١) :

[واحتج بعضهم بأنه على العرش بقوله تعالى : ﴿ **إليه يصْعَدُ الكَلِمُ الطيّبُ والعملُ الصالحُ يَرْفعه** ﴾ فاطر : ١٠ . وبقوله : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ الأنعام : ١٨ وجعلوا ذلك فوقية حسيّة ، ونسوا أن الفوقية الحسية إنما تكون لجسم أو جوهر وأن الفوقية قد تطلق لعلو المرتبة فيقال : فلان فوق فلان ، ثم إنّه كما قال « فوق عباده » قال : « وهو معكم » .

فمن حملها على العلم ، حَمل خصمُهُ الاستواء على القهر . أخبرنا علي بن محمد بن عمر الدباس ، قال أنبأنا رزق الله بن عبدالوهاب التميمي قال : كان أحمد بن حنبل يقول : الاستواء صفة مُسَلَّمَة وليست بمعنى القصد ولا الاستعلاء ، قال : **وكان أحمد لا يقول بالجهة للباري** لأن الجهات تخلى عمّا سواها . وقال ابن حامد (المجسم) : الحق يختص بمكان دون مكان ، ومكانه الذي هو فيه وجوده ذاته على عرشه . وقال : وذهبت طائفة إلى أن الله تعالى على عرشه : قد ملأه ، والأشبه أنه مماس للعرش والكرسي موضع قدميه(٢٣٦) .

قلت : المماسة إنما تقع بين جسمين ، وما أبقى هذا في التجسيم بقية .. !!] انتهى كلام الحافظ ابن الجوزي .

فتأمل !!

---

(٢٣٦) تعالى الله عن هذا علواً كبيراً ! ولنا رسالة خاصة في دحض هذه العقيدة الفاسدة أسميناها : « إعلام الثقلين بخرافة الكرسي موضع القدمين » وهي مطبوعة مع رسالة « القول الأسد في بيان حال حديث رأيت ربي بصورة شاب أمرد » لشيخنا العلامة السيد عبد العزيز بن الصديق ، فليراجعها من شاء .

المثال الرابع :

بعض الآيات الأخرى في العلو أيضاً

والصحيح في معنى قوله تعالى : ﴿ **إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطيِّبُ والعملُ الصالحُ يرفعهُ** ﴾ هو ما قاله الحافظ المتقن أبوحيّان في تفسيره « البحر المحيط » (٣٠٣/٧) حيث قال :

« وصعودُ الكلام إليه تعالى مجازٌ في الفاعل وفي المسمى إليه لأنه تعالى ليس في جهةٍ ، ولأن الكلم ألفاظٌ لا توصف بالصعود ، لأنَّ الصعود يكون من الأجرام ، وإنما ذلك ـ أي معنى الآية : ـ **كنايةٌ عن القبول** ، ووصفه بالكمال ، كما يُقال : علا كَعْبُهُ وارتفع شأنه ، ومنه : ترافعوا إلى الحاكم ورُفع الأمر إليه وليس هناك علوٌ في الجهة » انتهى وما بين الشرطتين من إيضاحي .

وقد توهم المجسمة من ظاهر هذه الآية أنها دليل على أن معبودهم في السماء أو فوق السماء على العرش وأن الأعمال تصعد إليه !! ولم ينظروا إلى أساليب العربية ، ولا إلى كلام العرب الذين نزل القرآن الكريم بلغتهم ، ولم يلحظوا أن هؤلاء العرب كانوا يستعملون الاستعارات والمجاز والتفنن في التعبير حتى أنهم تميزوا بهذه الفصاحة عن سائر الأُمم .

ونحن في مثل هذا المقام لا بُدَّ لنا نذكر بعض الآيات التي أخذت المجسمة بظواهرها لتستدلَّ بها على العلو الحسي الذي تعتقده ، ثُمَّ نُرْدِفُ ذلك بذكر بعض الآيات والأحاديث التي تبطل لهم استدلالهم والتي يوهم ظاهرها أنه سبحانه موجود في كل مكان ، وهذه أيضاً عقيدة باطلة ، ليدرك أهل العلم أن أُولئك المجسمة يؤولون الآيات التي لا تدل على عقيدتهم الفاسدة التي تنص على أنه سبحانه في السماء أو على العرش حقيقة ، ولا يؤولون الآيات الأخرى التي يؤخذ من ظاهرها أنه سبحانه عما يقولون حالٌ في السماء أو فوق العرش ، والحق في

الجميع أي في هذين القسمين أنَّ الظاهر غير مراد وأنَّ الله سبحانه موجود بلا مكان لأنه خالق المكان ولا يجوزُ أن يَحُلَّ فيه ، وأنه مُنَزَّهٌ عن أن يكون في كل مكان أو على العرش أو في السماء ، وإن جاز أن تطلق هذه الظواهر مجازاً ويراد منها غير ظاهرها وذلك حسب سياق النصوص التي وردت فيها ، فهي إطلاقات عربية صحيحة غير مرادٍ ظاهرها عند من تذوّق هذه اللغة الفصيحة .

ومن تلك الآيات التي يستدل بها المجسمة أيضاً قوله تعالى : ﴿ **تَعْرُجُ الملائكة والروح إليه** ﴾ أي : تعرج الملائكة إلى المكان الذي هو محلهم وهو في السماء ، لأن السماء مَحَلُّ بِرِّهِ وكرامته ، وهذا تماماً كقوله الله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿ **إنّي ذاهب إلى ربي** ﴾ أي إلى الموضع الذي أمرني به ، أو إلى مفارقتكم للتفرغ لعبادة ربي وطاعته ، وبمثل الذي قلناه قال القرطبي في « تفسيره » (١٨/٢٨١) ، وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٣/٤١٦) : « وقال البيهقي : صعود الكلام الطيب والصدقة الطيبة عبارة عن القبول ، وعروج الملائكة هو إلى منازلهم في السماء ... » .

ومن تلك الآيات أيضاً قوله تعالى : ﴿ إني متوفيك ورافعك إليّ ﴾ ومعناها ورافعك إلى السماء الثانية ، كما جاء في الصحيحين[٢٣٧] في حديث الإسراء أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجد سيدنا عيسى في السماء الثانية . فيكون معنى الآية إني رافعك إلى مكان لا يستطيعون أن يصلوا إليك فيه ، ولا يعني أنّ سيدنا عيسى عليه السلام رفع إلى مكان فيه رب العالمين عند جميع العقلاء ، كما لا يعني أنّه الآن عند الله حقيقة أو جالس مثلاً بجنبه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وهذا تماماً كقوله تعالى في الظل في سورة الفرقان : ﴿ **ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً** ﴾ فقوله ﴿ **إلينا** ﴾ لا يعني أن الظل في الليل يذهب عند الله وأن الله في مكان فليتيقظ أولو الألباب !!

ومثله كما تقدّم قول سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿ **إني ذاهب إلى ربي**

---

[٢٣٧] البخاري (٣٢٠٧) و (٣٤٣٠) ومسلم (١٦٢) .

سيهدين ﴾ لا يعني أنه ذهب إلى بقعة في الأرض كان فيها رب العالمين ، فلنعبد عمن يفهم القرآن بالعجمية والظواهر ، ولنفهمه بالعربية الفصحى وبأساليبها في المجازات الاستعارية ، والدقائق البلاغية .

ومن تلك الآيات أيضاً قوله تعالى : ﴿ **ءأمنتم مَنْ في السماء** ﴾ ومعناها ءأمنتم مَنْ شأنه عظيم ، لأن العرب إذا أرادت أن تُعَظِّمَ شيئاً وصفته بالعلو فتقول : فلان اليوم في السماء ، وفي المقارنة تقول : أين الثرى من الثُريّا ، والثريا نجمٌ عالٍ في السماء .

فيكون معنى الآية ءأمنتم من العظيم الجليل صاحب الرفعة والربوبية والبطش أن يخسف بكم الأرض ، أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ **مَن في السماء** ﴾ سيدنا جبريل أو أي مَلَكٍ يرسله الله ليخسف أيَّ قرية أو أيَّ موضعٍ من الأرض ، كما أرسل الملك الذي خسف الأرض بقوم سيدنا لوط عليه السلام ، والملائكة مسكنها السماء . بصريح أدلة كثيرة منها ما رواه البخاري (فتح ٢/ ٣٣) ومسلم (برقم ٦٣٢) مرفوعاً : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يَعْرُجُ الذين باتوا فيكم فيسألهم ــ وهو أعلم بهم ــ : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يُصلُّون » ، هذا مع قول الله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربُّك للملائكة إنِّي جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسدُ فيها ويسفك الدماء** ﴾ فالعربي يفهم من هذا أن مسكن الملائكة الأصلي في السماء وليس في الأرض .

وأما الآيات التي فيها ذكر النزول كقوله تعالى : ﴿ **نَزَلَ به الروحُ الأمين** ﴾ الشعراء : ١٩٢ ، وقوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة القدر** ﴾ فلا دلالة فيها لما تريده المجسمة البتة ، وإنما فيها أن الملائكة تنزل من السماء إلى الأرض ، وأنَّ القرآن نقله سيدنا جبريل عليه السلام من السماء أو من اللوح المحفوظ الذي هو فوق السماء السابعة إلى الأرض بأمر الله تعالى .

وكل ما أنعم الله به علينا من نِعَمٍ وَرِزْقٍ أَمَدَّنا به يقال : أتانا من الله أو أنزله الله تعالى إلينا ، ومنه قوله تعالى ﴿ **وأنزلنا الحديد** ﴾ مع أن الحديد يستخرج من

باطن الأرض ، ويقال : نزل الأمر بهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المُنْذَرين** ﴾ ومنه قوله تعالى : ﴿ **وأَنْزلَ لكم من الأنعام ثمانية أزواج** ﴾ الزمر : ٦ ، وهذه الأنعام لم تمطر السماء بها قط ، ومعنى أنزل هنا جعل كما في تفسير الحافظ السلفي ابن جرير (٢٣/ ١٩٤) .

ثم لنعلم جميعاً أن هناك نصوصاً كثيرة في الكتاب والسنة الصحيحة يوهم ظاهرها أنَّ الله في الأرض أو في كل مكان ، منها :

قوله تعالى : ﴿ **والله معكم** ﴾ سورة سيدنا محمد : ٣٥ ، وقوله ﴿ **وهو معكم أين ما كنتم** ﴾ الحديد : ٤ والضمائر مثل (هو) تعود على الذوات لا على الصفات أصلاً كما هو مقرر في العربية والآية التي قبلها ﴿ **والله معكم** ﴾ تثبت ذلك قطعياً ، وقوله تعالى : ﴿ **ألم تَرَ أنَّ الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا** ﴾ المجادلة : ٧ .

فَلِقَائلٍ أن يقول : تفسير قوله تعالى ﴿ **إلا هو رابعهم** ﴾ بالعلم ، باطل ، وهو تأويلٌ ركيك ، لأن قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ **إلا هو معهم أين ما كانوا** ﴾ ينسف هذا التأويل بالعلم نسفاً .

فإن قال قائل : إن قلتم إنه في كل مكانٍ لزم منه أن يكون في الأماكن النجسة والمستقذرة !! **قال له خصمه** : كلا بل هو متجافٍ عنها كما أن أحدنا يمكن أنْ يكون في أيِّ مكان أو كل مكان إلا أنه لا يكون ما دام عالماً مختاراً قادراً في القذر أو النجس . وهذا افتراض لجدال باطل وتعالى الله عن ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ **ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون** ﴾ أي لو كُشف الحجاب لأبصرتم ، فهذا ينفيه التأويل للآية السابقة بالعلم ، وكذلك ينفيه قوله تعالى : ﴿ **إنني معكما أسمع وأرى** ﴾ والأصل في العربية في لفظة ﴿ **إنني** ﴾ أنها تعود على الذات الموصوفة بالسمع والرؤية .

ويؤكدُ ذلك كله من القرآن قوله تعالى في شأن سيدنا موسى : ﴿ **فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله**

رب العالمين ، وأن ألق عصاك ، فلما رآها تهتزُّ كأنها جآنٌ ولى مُدْبِراً ولم يُعَقِّب ، يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ القصص : ٣٠ ـ ٣١ .

فماذا تقول المجسمة في (نداء سيدنا موسى من شاطئ الوادي) ؟! (ومن الشجرة) ؟!! والمنادي سبحانه يقول ﴿ **إني أنا رب العالمين** ﴾ ويقول لسيدنا موسى : ﴿ **أقبل ولا تخف** ﴾ ؟! ألا يَدُلُّ ظاهر قوله : ﴿ **أَقْبِلْ ولا تَخَفْ** ﴾ بعد قوله ﴿ **إني أنا الله رب العالمين** ﴾ على أن الله سبحانه كان في الأرض في تلك الناحية ؟!! وبماذا يمكن أن يُعْدَلَ عن ظاهر هذه الألفاظ ؟!!

ثم إنّ هناك أحاديث صحيحة تؤيد ظواهر مثل هذه الآية منها : حديث البخاري (الفتح ١/٥٠٩برقم٤٠٦) عن عبدالله بن عمر مرفوعاً :

« إذا كان أحدكم يُصَلِّي فلا يبصق قِبَلَ وجهه فإنَّ الله قِبَلَ وجهه إذا صلى » . وفي رواية أُخرى للبخاري من حديث سيدنا أنسٍ مرفوعاً :

« إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه أو إن ربه بينه وبين القبلة فلا يبزُقَنَّ أحدُكم قِبَلَ قِبْلته ... » (الفتح ١/٥٠٨) قال الحافظ ابن حجر هناك : « فيه الرد على مَن أثبت أنه على العرش بذاته » .

وفي صحيح مسلم (١/ ٣٥٠) قال صلى الله عليه وآله وسلم « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » فتأمّل .

ونحن لا نقول بهذه الظواهر الصريحة كما لا نقول بتلك الظواهر الصريحة لأنَّ الله سبحانه موجود بلا مكان و ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ فليعلم أهل الحق أن لكلٍ من طرفي الضلال والبدعة أشباه أدلة ؛ ولن يغنيهم التشبث بظواهر النصوص ، والحق سبحانه وتعالى مُنَزَّهٌ عن ذلك فهو موجود بلا مكان لأنه خالق المكان ومجري الزمان فكل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون** ﴾ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

فصل

في بيان أن الله تعالى لا داخل العالم ولا خارجه وتنزيهه عن أن يوصف بذلك

يزعم المجسمة والمشبهة على اختلاف مشاربهم بأن الذي ينفي أن يكون الله تعالى داخل العالم وخارجه يكون منكراً لوجوده سبحانه !! وهذه مغالطة واضحة لا قيمة لها !! وذلك لأنهم يقيسون الله تعالى على الأجسام ويتوهمون أن الله سبحانه شيء كالأشياء يأخذ حيزاً في الفراغ كبقية الأجسام !! وبعضهم يتخيله سبحانه وتعالى جسماً كثيفاً كالإنسان ، وبعضهم يتخيل بأنه من قبيل الأشياء اللطيفة كالهواء والنور ونحو ذلك !! وجميعهم مُتَّفِقُون مهما حاولوا الإنكار على أنه جسم يتخيله ويتصوّره العقل بإزاء العالَم خارجاً عنه !!

ونحن بدورنا يجب علينا أن نجلّي المسألة ونكشف عمّا كان غامضاً منها ونبين ما هو القول الصحيح في ذلك من نصوص الكتاب والسنة حتى يتبين مذهب أهل الحق فيها .

اعلم أن معنى قول أهل العلم إن الله تعالى لا داخل العالم ولا خارجه أي أن الله سبحانه لا يوصف بأنه متصل بالعالم وكذلك لا يوصف بأنه منفصل عنه ؛ وذلك لأن الاتصال والانفصال من أوصاف الأجسام ؛ فالجسم إما أن يكون متصلاً بالآخر أو منفصلاً متنائياً عنه ؛ والله تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ كما وصف نفسه .

وإنَّ المنطقة التي يتخيّلها المجسمة والمشبهة فوق العرش والتي يتصوّرون أن المولى سبحانه وتعالى حال فيها هي مكان بلا شك ولا ريب ولولا أنها مكان لما أمكن تخيلها ولما صحّ وصفه بأنه فيها وأنه فيها وأنه في جهة ما فوق العرش ، ولما صحت أيضاً إشارتهم إليه ؛ فهم بناءً على ذلك يتخيلون أن الله تعالى ذات من الذوات الجسمانية فيقيسونه سبحانه على الأجسام التي وصفناها قريباً

وأنه خلق العالم والعرش تحته فصار هو فوقه !! فهم إذاً يتصوّرون ويتخيلون بأن الله تعالى قبل خلق هذا العالم وإيجاده من العدم كان له تحت !! وإذا كان له تحت فله فوق وأمام وخلف ويمين ويسار !!

فالعقدة الموجودة في عقول هؤلاء المجسمة والمشبهة هي أنهم لم يسلّموا للشرع فلم يقولوا بأن الله تعالى لا يمكن إدراكه وتصوّره وأنه خارج عن كل ما يجول في الأوهام ويحوم في الخواطر والنفوس ؛ ولو أنهم سلّموا بوجود سبحانه مع إقرارهم بأنه لا يمكن تصوّره لنجوا وكانوا على عقيدة الإسلام الحقة عقيدة التنزيه !!

وعلى كل حال فنحن نقول لهم : لا نصف الله تعالى إلا بما وصف به نفسه فأين قال الله تعالى في كتابه أو النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سنته بأنَّ الله سبحانه خارج العالم أو داخل العالم وما هو دليلكم على ذلك ؟! فإنْ أتيتم بالنصوص التي تسمونها نصوص العلو أتيناكم بالنصوص الأُخرى التي تقابلها في القرآن والسنة والتي يوهم ظاهرها أيضاً بأنه سبحانه حال في الكون ، ونقول لكم ساعتئذ ما الذي أوجب اعتقاد ظاهر تلك النصوص دون ظاهر هذه إلا الهوى المجرّد والتعصب الذي لا معنى له سوى التقليد دون التنقيد ، والله المستعان !!

وقد جاءت نصوص عديدة في القرآن الكريم والسنة المطهرة الصحيحة تبطل المكان لله تعالى وبالتالي تبطل أنْ يُتَصَوَّر وجوده داخل العالم متصلاً به أو خارج العالم منفصلاً عنه وقد صرّح بذلك أئمة أهل العلم ؛ فمن تلك النصوص :

١ ـ ما ثبت عن سيدنا حذيفة رضي الله تعالى عنه « كان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذا مَرَّ بآية فيها تنزيه الله سبّح » .

رواه مسلم (١/٥٣٧) وأحمد (٥/٣٨٤) وابن ماجه (١/٤٢٩) واللفظ لهما ، ولفظ مسلم : « إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبح » والمعنى واحد لأن التسبيح في اللغة هو التنزيه ، قال الإمام الراغب في « المفردات » : « والتسبيح : تنزيه الله تعالى » وقال الإمام النووي في « تهذيب الأسماء واللغات » : « التسبيح في اللغة : التنزيه ، ومعنى سبحان الله : تنزيهاً له من النقائص مطلقاً ومن صفات المحدثات كلها » .

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى أيضاً في « المجموع شرح

المهذب » (٣/ ٤١٥) :

« التسبيح في اللغة معناه : التنزيه ، قال الواحدي : أجمع المفسرون وأهل المعاني على أنَّ معنى تسبيح الله تعالى تنزيهه ؛ وتبرئته من السوء » .

قلت : ومن أولويات التنزيه تنزيهه سبحانه عن المكان والزمان بلا شك ولا ريب . وقد أُمِرَ المُصَلّي أن ينزّه الله تعالى ويتذكر مخالفته تعالى للمخلوقات وتعاليه عن مشابهتها في صلواته كل يوم في كل ركوع وسجود ثلاثاً وهو أدنى المستحبات .

٢ ـ ما رواه مسلم في الصحيح (٤/ ٦١) أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول « اللهم أنت الأوّل فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء ... » .

قال الإمام الحافظ البيهقي في كتابه « الأسماء والصفات » ص (٤٠٠) : « استدلَّ بعض أصحابنا بهذا الحديث على نفي المكان عن الله تعالى ، فإذا لم يكن فوقه شيء ولا دونه شيء لم يكن في مكان » انتهى .

وقال الشيخ عبد القاهر البغدادي في « الفَرْق بين الفِرَق » ص (٣٣٣) : « وأجمعوا على أنه لا يحويه مكان ولا يجري عليه زمان » . والله تعالى يقول ﴿ **قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار** ﴾ الرعد: ١٦ ، والمكان شيء غير الله تعالى لأن الله تعالى ليس هو المكان ، فيكون المكان مخلوقاً لله تعالى ، والله سبحانه يتنزه عن أن يَحُلَّ في خلقه فهو ليس في مكان ، وهذا أمر جاء به نص القرآن والحديث وهو من المُحْكَم الذي يجب أن نؤمن به ؛ ولن نستطيع أن نفهمه لأننا لا ندرك إلا ما شاهدناه وعرفناه مربوطاً بالمكان والله تعالى لا يمكننا أن ندركه ، والمخلوق لا يدرك الخالق سبحانه ، ومن خالف في هذا الموضوع فإنه يخالف عقيدة الإسلام الحقة الواضحة .

وقال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٦/ ١٣٦) : « ولا يلزم من كون جهتي العلو والسفل محالاً على الله تعالى أنْ لا يوصف بالعلو ، لأنَّ وصفه بالعلو من جهة المعنى ، **والمستحيل كون ذلك من جهة الحس** » انتهى .

وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث الصحيحين : إن الله كتب

كتاباً لَمّا قضى الخلق أن رحمته سبحانه سبقت غضبه فهو عنده فوق العرش .
(انظر البخاري ١٣/ ٥٢٢ و مسلم ٤/ ٢١٠٧) .

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٣/ ٥٢٦) في شرح الحديث :

« **والغرض منه الإشارة إلى أن اللوح المحفوظ فوق العرش** » .

قلت : لو كان الله سبحانه كما يزعمون في المكان العدمي الذي يزعمونه فوق العرش لكان كاللوح المحفوظ الذي يشاركه أيضاً في كونه فوق العرش والدليل القطعي وهو قوله تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ ينفي هذا الأَمر نفياً واضحاً قاطعاً وكذا قوله تعالى ﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ كذلك ينفيه !! فلو كان الله يوصف بأنه منفصل عن العالم لكان له مشابه ومكافىء ؛ وذلك أن كثيراً من الأجسام أيضاً منفصلة عن أجسام أخرى كالشمس مثلاً فإنها منفصلة عن الأرض ليست داخلها وبينها مسافة محدودة ؛ أي لها حد ومقدار ؛ فكذلك لو تخيل المجسم أن الله تعالى منفصل عن العالَم بائن عنه كما يقولون[٢٣٨] لكان بينه وبين العالم مسافة فإذا انتهت هذه المسافة ابتدأ الجسم الآخر وهو جسم معبود المجسمة الذي يتخيلونه !! فلو غالط أحدهم ليهرب من هذه الورطة الباقعة قائلاً هذه أمور لا يجوز لنا أن نخوض فيها ويجب أن نؤمن أنه خارج العالم منفصل عنه بلا كيف ولا تصوّر !!

قلنا له : هذه مغالطة واضحة !! وأنت بهذا القول تقول أتصوّره بلا كيف ولا أتصوّره !! وهذا تناقض فاضح !! فإمّا أن تتصوّره وإما أن لا تتصوّره !! ونراك تغالط في هذه المسائل فتارة تطالب بأن تكون المسألة المتعلّقة بذات الله تعالى يمكن أن تُعْقَل وتُتَصَوّرَ فأنت تقول في هذه المسألة لمن يقول لك بأن الله تعالى لا يوصف بأنه داخل العالم ولا خارجه أن ذلك مستحيل ولا يمكن أن يتصور ذلك ؛ وأن هذا يفيد بأنه عدم ؛ وتارة أُخرى متى ضَعُفَتْ حُجَّتكَ تطالب بأن لا نخوض فيها وتقول يجب أن نؤمن بها ولا يمكننا أن ندرك الأمر ونتصوّره ونعقله !! وتدّعي أيضاً بأن المسألة غيرة معقوله !! مع أن كل ما يتعلّق بتصوّر المولى سبحانه

---

[٢٣٨] معنى « بائن من خلقه » عند أهل الحق أي : غير مشابه لهم ؛ وعند المجسمة معناه منفصل عنهم .

فهو متعالٍ عن ذلك ومنزّهٌ عنه ؛ إذ لا يمكن للعقول أن تدركه ؛ وما يخطر ويتصور في العقل ويتخيله منه يجب تنزيه الله تعالى عنه ؛ فافهم هداك الله تعالى !!

ولا بأس من أن نسرد بعض الأمثلة التي يصح بها نفي الضدين عن المولى سبحانه وتعالى بل عن بعض خلقه لنقرِّب لك الأمر فتستطيع أن تتحقق بأنه سبحانه لا داخل العالم ولا خارجه بنفي الضدين عنه فنقول :

الذكورة والأنوثة : لا يجوز وصف الله سبحانه وتعالى بالذكورة ولا بالأنوثة ؛ بل لا يجوز الوصف أيضاً بما يسمّى خنثى ؛ فمن أطلق شيئاً من ذلك على المولى سبحانه كفر بلا مثنوية !! إذ ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ والعقل لا يتصور إلا ذكراً أو أنثى أو خنثى !! والله تعالى منزه عن ذلك كله !!

متزوّج أو أعزب : هاتان الصفتان لا تجوزان إلا على مَن يقبل الاتصاف بهما فنفيهما عن الباري أو عن الملائكة لا يقتضي الإخبار عن العدم .

قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره (١٧/ ٥٣) :

« فلا يقدّر في صفته ـ تعالى ـ حركة ولا سكون ، ولا ضياء ولا ظلام ، ولا قعود ولا قيام ، ولا ابتداء ولا انتهاء ، إذ هو عزّ وجل وِتْرٌ ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ » .

فالنور والظلمة : مخلوقان لله تعالى لقوله سبحانه ﴿ **وجعل الظلمات والنور** ﴾ أي خلقهما ، فلا يجوز وصفه سبحانه أنه في ظلمة أو في ضياء ؛ فوجب تنزيه المولى سبحانه عن هذين الضدين مع أن العقل لا يمكن أن يتصوّر موجوداً في غير ظلمة ولا ضياء !! فافهم !! لأن عقل الإنسان لا يستطيع أن يدرك إلا الأشياء المادية التي رآها فلا يتصور إلا أشكالاً وهيئات !!

وكذلك نقول : الله تعالى لا يوصف بأنه متصل بالعالَم داخله ولا منفصل عن العالم خارجه ؛ بل نؤمن بوجوده سبحانه وتعالى ونكفّر كل مَنْ أنكر وجودَ صانع هذه المخلوقات العجيبة البديعة الصنع مع اتهام عقولنا وتصريحنا بعدم القدرة على إدراك الخالق جلّ جلاله ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً** ﴾ طه : ١١٢ .

[تنبيه] : ومن غريب تخابطات المجسمة !! أنهم يقولون ينزل بذاته إلى السماء الدنيا بلا كيف ؛ فإذا قيل لهم هذا محال لأنه الحلول في الخلق بعينه ؛ أليست السماء مخلوقه له سبحانه فكيف ينزل فيها بذاته وبلا حلول ؟!! فيقولون ينزل بذاته إلى السماء الدنيا بلا كيف !! ويغالطون أنفسهم قائلين بكيفية لا نعقلها !! والكيف مجهول !!

ثم نراهم هنا يريدون أن يعقلوا الكيف الذي يزعمون أنهم لا يقولون به فيقولون كيف يكون لا داخل العالَم ولا خارجه ؟! لا متصلاً به ولا منفصلاً عنه ؟!

مع أنه يلزمهم أن يوضحوا لنا كيف ينزل بذاته إلى السماء الدنيا أو فيها بلا حلول واتصال وهم الذين يقولون وهم يخاطبون المفوّضين : « إن الله لم يخاطبنا بما لا نفهمه بل خاطبنا بما نعقله » يغالطون أنفسم فيتناقضون !!

ونقول لهم : أَفْهِمُونا كيف ينزل بذاته بلا حلول ولا اتحاد ولا اتصال ؟!! ومن تخابطهم وتناقضهم الفاضح أيضاً في مثل هذا الباب قول بعضهم لا نثبت الجهة لله ولا ننفيها !! ولا نثبت الحد ولا ننفيه » !! مع أنه يجب تنزيه الله سبحانه عن الجهة والحد قطعاً !!

فهذا دأبهم في التخابط في كثيرٍ من أبواب العقائد فتارة يدّعون أن هذه الصفة أو ما يريدون إثباته لا يعقل وتارة يطالبون خصومهم بأن يبينوا لهم كيفية ما نفوا أو ما أثبتوا !! وهكذا يتبيّن تناقضهم في أعرض صوره !!

فصـــل

مناقشة قضية داخل العالم وخارج العالم أي متصل أو منفصل من جهة أخرى

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ورضي الله عنه(٢٣٩) :

« فإن قيل فنفي الجهة يؤدّي إلى المحال وهو إثبات موجود تخلو عنه الجهات الست ويكون لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه وذلك محال !! » .

قلنا : إذا كان هذا الموجود جسماً يأخذ حيزاً في الفراغ وله حد أي طول وعرض وارتفاع بأي شكل كان ثم وصفناه بعد ذلك بأنه لا متصل ولا منفصل أي لا داخل العالم ولا خارجه ولا هو في جهة كان ذلك مُقتضياً الإخبار عن عدمه ؛ وقولنا ساعتئذٍ لا هو متصل ولا منفصل محال .

وهو كقول القائل يستحيل أن يوجد موجود لا يكون عاجزاً ولا قادراً ولا عالماً ولا جاهلاً ولا أعزب ولا متزوجاً ولا ذكراً ولا أنثى أو خنثى ولا في نور ولا في ظلمة !!

فإن كان ذلك الشيء قابلاً للمتضادّين فيستحيل خلّوه من أحدهما ؛ وأما إذا كان جماداً مثلاً وهو الذي لا يقبل واحداً منهما لأنه فاقد لبعض شروط هذه الصفات وهي الحياة فلا يستحيل وجوده حينئذ ؛ فكذلك شرط الاتصال والانفصال والاختصاص بالجهات والتحيز والقيام بالمتحيّز من صفات الأجسام والأعراض ؛ فإذا كانت هذه صفات الجسم الذي نعرفه فالله تعالى ليس كذلك لأننا عاجزون عن إدراكه ولا يمكننا أن نقيس عليه غيره لأنه سبحانه ليس من

---

(٢٣٩) من كتاب « الاقتصاد في الاعتقاد » ص (٢٨) طبعة صبيح / مصر / ١٣٩٠ هـ وما بعده من الكلام اقتبسته منه رحمه الله .

جنس الأجسام ولا له شكل وهيئة ؛ وكل ما خطر في أذهاننا فالله تعالى ليس كذلك لأنه أخبر بذلك فقال ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ و ﴿ **لم يكن له كفواً أحد** ﴾ فرجع الأمر والنظر هنا إلى أنه هل يستحيل وجود موجود بلا مكان ولا جهة ولا اتصال ولا انفصال أم لا ؟!!

فإن قسناه على أجزاء هذا العالَم وما نراه ونعقله كان الجواب يستحيل وجوده . وإذا تركنا القياس ونظرنا إلى أدلة الشرع المحكمة التي تنصُّ على أنه ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ كان ذلك هو الحق وهو عقيدة الإسلام المنزّهة لرب العزة عن التشبيه والتمثيل وكانَ القائل بذلك آخذاً بقول الله تعالى ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون** ﴾ ؛ لأن الذي يُنَزِّهُ الله عن لوازم الجسمية وخصائصها هو الذي يقول اتّهمت عقلي في إدراك الخالق سبحانه وتعالى وأنا عاجز عن ذلك كل العجز ؛ فقد صدّقت بوجوده وآمنت بصفاته واتّهمت عقلي عن إدراك خالقي سبحانه وتعالى .

وقد ضرب لنا سبحانه وتعالى أمثلة في مخلوقاته فأرانا أشخاصاً وكذا عجائب مخلوقاته في الرؤيا من جبال وأودية وبحار عظيمة وأنهار دون أن تكون أجساماً آخذة حيزاً في الفراغ مع أن لها حداً ومقداراً وجهة وشكلاً وصورة ؛ وقريب من هذا الباب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « لقد عُرِضَتْ عليَّ الجنة والنار آنفاً في عُرْضِ هذا الحائط ، وأنا أُصلّي ، فلم أرَ كاليوم في الخير والشر » رواه البخاري (في مواضع منها ١٣/ ٢٦٥) وليس ذلك من الخيال البتة بل هو حقيقة لقوله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث وقع له في الصلاة حين عرضت عليه الجنة فقال : « فعُرِضَتْ عليَّ الجنة حتى لو تناولت منها قطفاً (من عنب)[٢٤٠] أخذته » رواه البخاري (٢/ ٥٤٠) ومسلم (٢/ ٦٢٢ برقم ٩) واللفظ له وفي رواية أخرى في مسلم (برقم ١٠) « ولقد مددت يدي وأنا أُريد أن أتناول من ثمرها لتنظروا إليه . ثمّ بدا لي أن لا أفعل » والنبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يمد يده إلى خيال ولا يتعلّق

---

[٢٤٠] زيادة لفظة (من عنب) في مسند أحمد (٣/ ٣٥٣) .

بغير حقيقة ويدل على ذلك قوله في بعض روايات الحديث « ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » (رواه البخاري في مواضع منها ٢/ ٥٤٠) .

فإذا كانت هذه الأمور حاصلة في المخلوق المُحْدَث فكيف بالخالق جلّ جلاله الذي ليس كمثله شيء ؟!! فتأمّل في ذلك جيداً هداك الله تعالى !!

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى :

« **فإن قال الخصم** : إن مثل هذا الموجود الذي ساق دليلكم إلى إثباته غير مفهوم !!

فيقال له : ما الذي أردت بقولك غير مفهوم ؟!! إذا أردت به أنه غير متخيّل ولا متصوّر ولا داخل في الوهم فقد صدقت [فإن الله سبحانه وتعالى كذلك][٢٤١] ؛ فإنه لا يدخل في الوهم والتصوّر والخيال إلا جسم له لون وقدر فالمُنْفك عن اللون والقدر لا يتصوّره الخيال ؛ فإن الخيال قد أَنس بالمبصرات فلا يتوهم الشيء إلا على وفق مَرْآه ولا يستطيع أن يتوهم ما لا يوافقه .

وإن أراد الخصم أنه ليس بمعقول أي ليس بمعلوم بدليل العقل ! فهو محال ؛ إذ قدّمنا الدليل على ثبوته ولا معنى للمعقول إلا ما اضطر العقل إلى الإذعان للتصديق به بموجب الدليل الذي لا يمكن مخالفته ؛ وقد تحقق هذا ؛ فإن قال الخصم : فما لا يُتَصَوّر في الخيال لا وجود له !! (قلنا) : فلنحكم بأن الخيال لا وجود له في نفسه ، فإن الخيال نفسه لا يدخل في الخيال والرؤيا لا تدخل في الخيال وكذلك العلم والقدرة وكذلك الصوت والرائحة ولو كلّف الوهم أن يتحقق ذاتاً للصوت لقدّر له لوناً ومقداراً وتَصَوَّرَهُ كذلك » انتهى .

---

[٢٤١] ما بين القوسين [ ] زيادة مني للإيضاح .

[فصـــــل] : نصوص أئمة أهل العلم التي يُصَرّحون فيها بتنزيه الله عن الاتصال والانفصال (أي أن يكون داخل العالم أو خارجه) :

لقد صرّح علماء الإسلام من فحول أهل الحديث وحذّاق الأئمة الذين يعوّل على كلامهم ويعتد بهم في الإجماع والخلاف بتنزيه الله تعالى عن أن يكون داخل العالم أو خارجه فتارة يُعَبّرون عن ذلك بعبارة (لا داخل العالم ولا خارجه) وتارة يعبرون بأنه (لا متصل ولا منفصل) وتارة بـ (الاجتماع والافتراق) وتارة يقولون (لا مماس ولا مباين) ؛ والمعنى واحد بلا شك ولا ريب وإليكم نصوصهم في ذلك :

١ ـ قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في « الإحياء » (٤/ ٤٣٤) :

« إن الله تعالى مقدّس عن المكان ومنزّه عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالَم ولا خارجه ولا هو متصل به ولا هو منفصل عنه ؛ قد حيّر عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته » .

وكذلك ذكر نحو هذا الكلام في عدة من مؤلفاته .

٢ و ٣ ـ الإمام الحافظ النووي والإمام المتولي :

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في « روضة الطالبين » (١٠/ ٦٤) :

« قال المتولي : مَن اعتقد قدم العالم ، أو حدوث الصانع ، أو نفى ما هو ثابت للقديم بالإجماع ، ككونه عالماً قادراً أو أثبت ما هو منفيٌّ عنه بالإجماع كالألوان ، **أو أثبت له الاتصال أو الانفصال كان كافراً** » .

وأقرّه عليه فيكون هذا قول إمامين من كبار الأئمة .

٤ ـ وقال نحو هذا الإمام الحافظ البيهقي في « الأسماء والصفات » ص (٤١٠ ـ ٤١١) بتفصيل دقيق . وكذا له نصوص في ذلك في شعب الإيمان .

٥ ـ الشيخ العز ابن عبد السلام رحمه الله تعالى :

ذكر في كتابه القواعد ص (٢٠١) أن من جملة العقائد التي لا تستطيع العامة فهمها هو أنه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه ولا منفصل عن العالم ولا متصل .

٦ ـ **الإمام أبو المظفر الاسفراييني** في « التبصير في الدين » [ص (٩٧) بتحقيق العلامة الكوثري مطبعة الأنوار ١٣٥٩ هـ] حيث قال :

« وأن تعلم أن الحركة والسكون ... **والاتصال والانفصال** ... كلها لا تجوز عليه تعالى لأن جميعها يوجب الحد والنهاية » .

٧ ــ **الإمام الحافظ ابن الجوزي الحنبلي** : قال رحمه الله تعالى في كتابه « دفع شبه التشبيه » [ص (١٣٠) من طبعة دار الإمام النووي بتحقيقنا] :

« وكذا ينبغي أن يقال ليس بداخلٍ في العالم وليس بخارج منه ، لأنَّ الدخول والخروج من لوازم المتحيزات » انتهى .

فهؤلاء جماعة من العلماء صرّحوا بأن الله تعالى لا يوصف بأنه خارج العالم ولا داخله هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى يقال :

[فصل] كل ما سوى الله عزّ وجل عالَم مخلوق فليس هناك شيء يقال له خارج العالَم على التحقيق :

اتفق أهل الإسلام على أن كل شيء سوى الله تعالى مخلوق مُحْدَث ؛ وأن العالَم هو كل ما سوى الله سبحانه وتعالى ؛ وأنه ليس هناك شيء يقال له خارج العالم ؛ بل هذه العوالم من فضاء وكواكب وسماوات وأرض وعرش وزمان ومكان مخلوق لله تعالى ؛ ولم يَرِدْ في الكتاب والسنة الصحيحة أن هناك شيئاً يسمّى خارج العالم ؛ فقول المجسمة (إن الله خارج العالَم) بدعة من القول !! وذلك أنهم يقولون :

إننا لا نصف الله تعالى إلا بما وصف به نفسه . ثم نراهم الآن يقولون : إن الله خارج العالم !! فأين وردت هذه العبارة في الكتاب والسنة ؟!!

وكذلك يقال لمن قال إنه داخل العالم !!

فإن قالوا : استنبطناها من نصوص العلو .

قلنا لهم : نصوص العلو تقابلها نصوص أخرى ذكرناها في ما سبق تبطل استدلالكم بالعلو الحسي !! وَتُقَرِّرُ أيضاً بأنكم تأخذون ببعض القرآن وتتركون

بعضاً !! وذلك كمن قال الله تعالى فيهم ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب** ﴾ البقرة : ٨٥ !!

أو أنكم مضطرون لتأويل تلك النصوص المُعَكِّرَةُ على استدلالكم للعلو الحسي وما تزعمونه من قولكم (خارج العالم) فتكونون بذلك قد وقعتم في التأويل الذي تتظاهرون بالفرار منه وتعيبونه على خصومكم !! فارجعوا إلى الحق راشدين !! واعترفوا بأن الله تعالى لا يوصف بأنه خارج العالم ولا داخله لأنه سبحانه ليس كمثله شيء ولا هو مثل شيء !! فعسى أن يتقبّل الله تعالى توبتكم !!

بيان منطقة خارج العالم التي يتخيلها المجسمة والتي يعتقدون بأن معبودهم موجود فيها والتي يُسَمِّيها بعضهم / المكان العدمي /

من غرائب المجسمة وعجائبهم أنهم يتخيلون أن هناك فراغاً فوق عرش المولى سبحانه وتعالى ليس فيه شيء إلا الله تعالى يسمونه بالمكان الغير مخلوق !! فَهُم بذلك يقسّمون الوجود من حيث المساحة إلى ثلاثة أقسام وهي :

(**القسم الأوّل**) : الله سبحانه وتعالى حيث يحدّونه ويعينون له مكاناً يشيرون إليه ويحددونه أيضاً ويسمّون المنطقة التي يتخيلونه فيها بـِ (المكان العدمي !!) فمن ذلك قول ابن تيمية الحراني[٢٤٢] :

« والله تعالى له حد لا يعلمه أحد غيره ... ولمكانه أيضاً حدٌّ فهذان حدّان اثنان ... فهذا كله وما أشبهه شواهد ودلائل على الحد ومن لم يعترف به فقد كفر بتنزيل الله وجحد آيات الله » !!! وهو في هذا النص أيضاً يثبت المكان لله تعالى رب العالمين الذي خلق المكان والزمان !! ولاحظوا وانتبهوا هنا إلى أنهم يثبتون لله تعالى منطقة في الوجود الكلّي المكاني .

(**القسم الثاني**) العالَم المخلوق وهي المخلوقات من العرش إلى الفَرْش[٢٤٣] ـ كما يقال ـ ؛ فيدخل في ذلك السموات السبع والأرض وغيرها من المخلوقات الأخرى ؛ ولها منطقة معيّنة في الوجود وهي منطقة العرش وما تحته .

(**القسم الثالث**) : **منطقة خارج العالم** الذي يتخيلونه والذي يتخيلون وجود الرب سبحانه وتعالى فيه والذي هو ناتج عن قياسهم له بالمكان الذي يشاهدونه

---

[٢٤٢] وذلك في موافقة « صريح معقوله لصحيح منقوله » المطبوع على هامش « منهاج سنته » (٢/ ٢٩) ناقلاً عن عثمان بن سعيد مقرّاً له ومكفّراً لمن خالف في ذلك .

[٢٤٣] الفَرْش هنا مأخوذ من قوله تعالى ﴿ **وجعلنا الأرض فِراشاً** ﴾ .

وتقع هذه المنطقة في جهة ما فوق العرش ويسمّونها بالمكان العدمي ويدّعون أنها غير مخلوقة وهنا تكمن الكارثة لأن في هذا الكلام إثبات شيء قديم غير الله تبارك وتعالى والمعروف عند جميع المسلمين أنه لا يوجد شيء غير الخالق سبحانه وتعالى والمخلوق المربوب ؛ وتعريف الشيء عند علماء التوحيد هو الموجود وليس المعدوم بدليل قوله تعالى ﴿ **وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً** ﴾ .

والدليل على أن هذا المكان الذي يسمونه بالمكان العدمي هو شيء موجود وليس عدماً أنهم يقولون بأن الله تعالى موجود هناك فيه !!! يشيرون إليه أيضاً !! فكيف يشيرون إلى العدم ؟!!! وإليك بعض نصوصهم التي تثبت قولهم بوجود المنطقة الثالثة هذه التي يدّعونها مع ترجمة كلامهم ونصوصهم بهذه الرسمة في الصحيفة التالية :

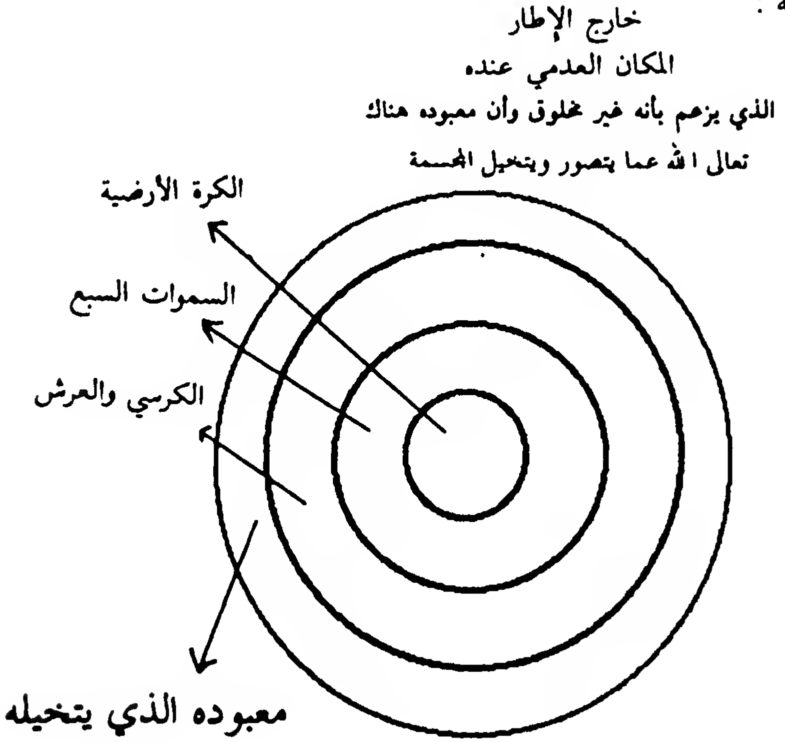
خارج الإطار
المكان العدمي عنده
الذي يزعم بأنه غير مخلوق وأن معبوده هناك
تعالى الله عما يتصور ويتخيل المجسمة
الكرة الأرضية
السموات السبع
الكرسي والعرش
معبوده الذي يتخيله

*** هذه الصورة هي ترجمة كلام الألباني وإمامه ابن تيمية كما نصا عليها انظرصحيح الترغيب ص (١١٦) وهذا نصه هناك بحروفه :**

[**فائدة هامة**(٢٤٤) : اعلم أن قوله في هذا الحديث : « فإن الله قبل وجهه » . وفي الحديث الذي قبله « فإن الله عز وجل بين أيديكم في صلاتكم » لا ينافي كونه تعالى على عرشه ، فوق مخلوقاته كلها كما تواترت فيه نصوص الكتاب والسنة ، وآثار الصحابة والسلف الصالح رضي الله عنهم ، ورزقنا الاقتداء بهم ، فإنه تعالى مع ذلك واسع محيط بالعالم كله ، وقد أخبر أنه حيثما توجه العبد فإنه مستقبل وجه الله عز وجل ، بل هذا شأن مخلوقه المحيط بما دونه ، فإن كل خط يخرج من المركز إلى المحيط ، فإنه يستقبل وجه المحيط ويواجهه . وإذا كان عالي المخلوقات يستقبل سافلها المحاط بها بوجهه من جميع الجهات والجوانب ، فكيف بشأن من هو بكل شيء محيط ، وهو محيط ولا يحاط به ؟ وراجع بسط هذا في كتب شيخ الإسلام ابن تيمية كالحمويه والواسطية وشرحها للشيخ زيد بن عبدالعزيز بن فياض ص (٢٠٣ ـ ٢١٣) .] انتهى .

وهذه الصورة فيها بيان الكيف والمعنى وهم يقولون نحن نبين المعنى ونفوض الكيف وقد تناقضا مع أنفسهما هنا مع أن مذهب من يتبعونهم من السلف هو تفويض الكيف والمعنى(٢٤٥) كما بيّناه عند مبحث التفويض وذلك صريح كلام أحمد بن حنبل .

ـ ونقل الألباني المتناقض !! في مقدّمة « مختصر العلو » ص (٧١) عن ابن تيمية الحرّاني !!

من التدمرية مستدلاً بقوله (كأنه نص شرعي !!) مقرّاً مُبَاركاً !! له ما نصه :

« أتريد بالجهة أنها شيء موجود مخلوق ؟ فالله ليس داخلاً في المخلوقات ، أم تريد بالجهة ما وراء العالَم فلا ريب أن الله فوق العالم ، وكذلك يقال لمن قال الله في جهة أتريد بذلك الله فوق العالم ، أو تريد به أن الله داخل في شيء من المخلوقات ؟ فإن أردت الأول فهو حق وإن أردت الثاني فهو باطل » .

---

(٢٤٤) الصحيح أن يقال مهمه ! وهامة لا تعرف في اللغة بهذا المعنى !!

(٢٤٥) وقد بينا أن مذهب السلف الأولين من الصحابة والتابعين هو التأويل كما هو ثابت في تفسير ابن جرير الطبري .

فاعتبروا يا أهل الأبصار والعقول كيف يقولون بأن هناك وراء العالم منطقة ليست داخلة في المخلوقات !! فهناك وفي تلك المنطقة يوجد معبود هذه الطائفة كما يزعمون !!

ومن الأدلّة المؤكدة أيضاً على أنها منطقة حقيقة عندهم وأنهم يتخيلون أن الله تعالى فيها وله تحتٌ وفوقٌ وغير ذلك من الجهات أن ابن تيمية الحرّاني يقول في ردّه على الإمام الرازي : إن الإمام الرازي لم يستطع أن ينفي أن الله لا يستطيع أن يخلق جسماً فوقه هناك (في المكان الذي يسمّونه بالعدمي) !! نسأل الله تعالى السلامة !! وهذا نصه من كتابه « التأسيس في رد أساس التقديس » (٢/ ١٨٤) حيث يقول هناك :

« وأما خلق جسم هناك فلم يذكر على امتناعه حجة » **ثم يقول ابن تيمية بعد ذلك بأسطر :**

[فلو قال قائل(٢٤٦) : بل ذلك جائز فلم تذكر على إبطاله حجة لا سيما وأن النقض على الله لم يعلم امتناعه بالعقل ، وإنما علمته بالإجماع ، لا سيما إن احتج بظاهر قوله تعالى : ﴿ **يأتيهم الله في ظلل من الغمام** ﴾(٢٤٧) وبقوله « كان في عماء

---

(٢٤٦) القائل هنا هو لا غير !! وهذه أساليبه المعروفة في التلبيس والتعمية واللف والدوران ؛ وهو مغرق في ذلك في لجة الفلسفة المعجوجة والعبارات المنطقية المحجوجة !! وقد صدق الذهبي لمّا قال في حقه : « وقد رأيت ما آل أمره إليه من الحط عليه والتهجير والتضليل والتكفير والتكذيب بحق وبباطل فقد كان قبل أن يدخل هذه الصناعة منوّراً مضيئاً على محياه سيما السلف ثم صار مظلماً مكسوفاً » .
انظر رسالة الذهبي « بيان زغل العلم والطلب » باب علم أصول الدين .

(٢٤٧) هذه الآية نازلة في اليهود المجسمة (بني إسرائيل) فيقول الله موبخاً لهم : هل تتخيلون أن يأتيكم الله في غمامة أو سحابة هو والملائكة حتى تؤمنوا ؟! أي على تصوّركم الفاسد أيها المشبهة المجسمة !! وهم الذين يقولون بأن الله تعالى لمّا فرغ من خلق السموات والأرض تعب فأراد أن يستريح فاستلقى على العرش !! فابن تيمية يريد أن يعتمد عقيدتهم تلك التي وبخهم عليها رب العزة وذمهم باعتقادها !! ويريد أن يقررها !! وقال سبحانه في آية أخرى أيضاً موبخاً لهم على ذلك مخبراً عنهم ﴿ **فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم** ﴾ النساء : ١٥٣ ، وقال تعالى أيضاً عنهم ﴿ **وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أُنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً** ﴾ الفرقان : ٢١ . **فتأملوا بعد ذلك فيما يقوله ابن تيمية !!**

ما فوقه هواء وما تحته هواء »[٢٤٨] لا سيما وهذا لا ينافي الفوقية والعلو بالقدرة والقهر والتدبير ، وعندك لا يستحق الله الفوقية إلا بهذا ، وهذا المعنى ثابت سواء خلق فوقه شيئاً آخر أو لم يخلقه] (!!!!)

فتأملوا بالله عليكم في هذا التخبط !! فثبت بذلك أنهم يقولون بقسم ثالث في الوجود وهو غير وجود الحق سبحانه ووجود الخلق وهو ما تقدّم ذكره من قولهم خارج العالَم والمكان العدمي !!

[**عجيبة**] : ثم هم بذلك يقولون : مكان وعدمي !! وهذا منهم تناقض بيّن لأنه كيف يكون مكان ويشار إليه وقد عيّنوا جهته ثم يقولون بعد ذلك عدمي ؟!! فهل يشار إلى العدم ؟!!

ثم كيف يقولون بأن هذا المكان الذي يتخيلون وجود معبودهم فيه غير مخلوق مع أن كل ما سوى الله مخلوق ؟!!

ثم تأملوا أيها الناس في تناقض وتخابط عباراتهم حيث يقولون : مكان عدمي فوق العالم غير مخلوق !!!

[**غريبة**] : ثم انظروا كيف يتخيلون معبودهم جسماً له حدود ونهاية من جميع الجهات ومع ذلك ينطقون بما يدل على أن المكان العدمي الذي يقولون به غير محدود بل صرّحوا بأن معبودهم هناك !!

وهذه قمة التناقض والتخابط والخروج عن عقيدة الإسلام والخوض في متاهات فلسفية هي أبعد ما تكون عن الكتاب الكريم والسنة الصحيحة المطهرة !!

وهل خاض الصحابة والسلف في هذه الترّهات الفارغة المخالفة للقرآن والسنة كما خاض بها هؤلاء !!

ثمّ تفكّروا أيها الناس كيف ينعت هؤلاء المتمسلفون الأشاعرة وغيرهم بأنهم يخوضون في المنطق والفلسفة ويعيبونهم بذلك مع أنهم هم الذين يخوضون في الأمور الفلسفية المستقبحة !! ويتركون نصوص الكتاب والسنة والعقل السليم

---

[٢٤٨] هو حديث منكر لا يسوى روايته ولا يحتج بمثله في الطهارة فضلاً عن العقائد . رواه أحمد في مسنده (٢/ ٣٧٠) والترمذي (٥/ ٤٠٤ برقم ٣٢٩٨) وغيرهما .

المضبوط بها وكان بإمكانهم أن لا يخوضوا في تلك الترهات وأن يردّوا على مَن يخوض فيها بأدلة القرآن والسنة الصحيحة المطهرة لا بترهات أرسطو طاليس وأمثاله (٢٤٩) !!

[عجيبة] : ومن الأمور العجيبة الغريبة أيضاً أن الشيخ المتناقض !! يزعم بأنه ليس فوق العرش أي في المكان الذي يسميه بـِ (العدمي !) شيء إلا معبوده ! فيقول في تعليقه على متن الطحاوية ص (٣٧) ناقلاً مُقرّاً وراضياً مختاراً !! ما نصه : « وإلا فقد قام الدليل على أن العرش فوق المخلوقات ، وليس فوقه شيء من المخلوقات » .

مع أنه قد ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري (١٣/ ٥٢٢) ومسلم (٤/ ٢١٠٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخبر أن الله كتب كتاباً فيه أن رحمتي سبقت غضبي وهو فوق العرش .

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٣/ ٥٢٦) :

« والغرض منه الإشارة إلى أن اللوح المحفوظ فوق العرش » .

قلت : واللوح المحفوظ مخلوق لأنه ليس هو الله تعالى عند جميع العقلاء !! فتبين بذلك بأن قوله هذا بأنه ليس فوق العرش شيء مخلوق ليس بشيء حسب السنة الصحيحة التي يتظاهرون بالدعوة لها !!

---

(٢٤٩) انظر كتابنا « تهنئة الصديق المحبوب / الرد على سفر » ص (٥٨ ـ ٦٦) .

المثال الخامس :

حديث النزول

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير يقول : مَنْ يدعوني فأستجيب له ، مَنْ يسألني فأعطيه ، مَنْ يستغفرني فأغفر له » رواه البخاري (٣/ ٢٩) ومسلم (١/ ٥٢٢) .

قلت : ظاهر هذا الحديث غير مراد قطعاً ، إذ يستحيل أن يكون المولى سبحانه وتعالى جسماً حتى يُفْتَرَض فيه أنه في منطقة السماء السابعة أو فوقها ثم ينزل إلى السماء الدنيا ، وذلك لأن السماء الدنيا من مخلوقاته فكيف ينزل ويحل فيها ؟!!

وبهذا الاعتبار يكون القائل بظاهر هذا الحديث قائل بحلول الله تعالى في بعض خلقه لأن السماء الدنيا بعض خلقه ، وقائل أيضاً بالجسمية أو العرضية ، وكذلك بالحركة والانتقال !! وكل ذلك محال في حق المولى سبحانه وتعالى .

وإنما المعنى الصحيح للحديث والتوجيه السديد أن النازل هو مَلَكٌ من الملائكة يأمره الله تعالى بأن ينادي في السماء الدنيا في وقت السحر فيما يوازي كل جزء من الكرة الأرضية طوال الأربع والعشرين ساعة ، ويصح في اللغة العربية أن ينسب الفعل إلى الآمر به ، فتقول العرب مثلاً : غزا المَلِكُ البلدة الفلانية ، أي أمر وأرسل قائد جيشه بذلك مع أنه لم يفارق قصره ، ولله المثل الأعلى ، والذي يثبت هذا المعنى وينفي ما تتوهمه المجسمة وتدعوا إليه أنه ورد الحديث أيضاً بروايتين صحيحتين في الدلالة على ذلك .

أما الرواية الأولى : فقد روى الإمام النَّسَائي في السنن الكبرى (٦/ ١٢٤) بإسناد صحيح وهو في عمل اليوم والليلة له المطبوع ص (٣٤٠ برقم ٤٨٢) عن سيدنا أبي سعيد الخدري وسيدنا أبي هريرة رضي الله عنهما أنهما قالا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« إن الله عزَّ وجلَّ يُمهلُ حتى يمضي شطر الليل الأول ثم يأمر منادياً ينادي

يقول : هل من داع فيستجاب له ؟ هل من مستغفر يغفر له ؟ هل من سائل يعطى ؟ » .

وأما الرواية الثانية : فعن سيدنا عثمان بن أبي العاص الثقفي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« تُفْتَحُ أبواب السماء نصف الليل فينادي منادٍ هل من داع فيستجاب له هل من سائل فيعطى ، هل من مكروب فيفرّج عنه ، فلا يبقى مسلم يدعو بدعوة إلا استجاب الله عزّ وجل له إلا زانية تسعى بفرجها أو عشّاراً » رواه أحمد (٤/ ٢٢ و ٢١٧) والبزار (٤/ ٤٤ كشف الأستار) والطبراني (٩/ ٥١) وغيرهم بأسانيد صحيحة والعشَّار : صاحب المكس .

فهذه الأحاديث الواضحة تقرر بلا شك ولا ريب بأن النازل إلى السماء الدنيا هو مَلَكٌ من الملائكة يأمره الله تعالى أن ينادي بذلك ، على أن الحافظ ابن حجر حكى (في الفتح ٣/ ٣٠) في شرح الحديث الأول الذي في الصحيحين أن بعض المشايخ ضبط الحديث بضم الياءِ في (ينْزلُ) فيكون اللفظ هكذا : « يُنْزِلُ الله تعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا » أي : يُنْزِلُ مَلَكاً كما تقدّم .

فإن قال بعض المجسمة بل ينزل الله بذاته بلا كيف إلى السماء الدنيا وقد قال بذلك السلف .

قلنا الجواب من أوجه :

الأول : أن فهم السلف ليس من حجج الشرع كما تقدّم .

ثانياً : لم يتفق السلف ولم يجمعوا على ما ادعى المجسم ، لا سيما وأن المشبهة والمجسمة كُلَّمَا نُقِل لهم إجماع في مسألة قالوا « قال أحمد مَنْ ادّعى الإجماع فهو كاذب » .

ثالثاً : إن قولهم « بلا كيف » لا معنى له بعد قولهم الواضح الصريح بنزول الله بذاته إلى السماء الدنيا ، لأن تخيل السامع لنزول جسم من أعلى إلى أسفل لن يزول من ذهنه ، وهذا التخيل هو لب التشبيه ، فتلك العبارة لم تُزِلْ ذلك المعنى !! فإيراد هذه الكلمة وما أشبهها لا يقدّم ولا يؤخر في الحقيقة شيئاً ، لأنه غير معقول

ولا مفهوم ، كما أنه لا ينفي التشبيه والتجسيم .

رابعاً : لقد أنكر أهل الحديث المعدودين من أكابر الأئمة لفظة « بذاته » عندما ذكرها بعض المشبهة أثناء كلامهم في حديث النزول هذا ، قال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر في « التمهيد » (٧/ ١٤٤) ما نصه :

« وقال نُعَيم ـ بن حماد ـ ينزل بذاته وهو على كرسيه ، قال أبو عمر : ليس هذا بشيء عند أهل الفهم من أهل السنة ، لأنَّ هذا كيفية وهم يفزعون منها لأنها لا تصلح إلا فيما يحاط به عياناً وقد جَلَّ الله تعالى عن ذلك ، وما غاب عن العيون فلا يصفه ذوو العقول إلا بخبر ولا خبر في صفات الله إلا ما وصف نفسه به في كتابه أو على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا نتعدّى ذلك إلى تشبيه أو قياس أو تمثيل أو تنظير فإنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » . فتأمل !!

خامساً : ذكر الإمام الحافظ النووي في « شرح صحيح مسلم » (٦/ ٣٧) أن الإمام مالكاً رحمه الله تعالى ـ وهو من أئمة السلف ـ أوّل النزول هنا بنزول الرحمة ، فهذا فهم السلف للحديث وهو مناقض لما يدعيه المجسمة من قول السلف فيه ، وبذلك اتضح جلياً بأن تأويل حديث النزول بنزول الملك هو المبني على القواعد الثابتة الواضحة وهو الموافق لبقية الروايات الصحيحة لهذا الحديث ، وخير ما يُفَسَّرُ به الحديث حديثٌ آخر كما قال أهل الحديث في علم المصطلح ، ومن ذلك قول الحافظ العراقي في ألفيته :

وخيرُ ما فسّرته بالواردِ كالدُّخِ بالدخانِ لابنِ صائدِ

ولقد أطلنا الكلام على هذا الحديث في عدّة كتب ، منها : التعليق على « دفع شبه التشبيه » فليرجع إليه من شاء الاستزادة ، والله تعالى الموفق .

المثال السادس :

حديث الجارية

روى مسلم في الصحيح (٥/ ٢٠) وغيره من طريق عطاء بن يسار عن معاوية بن الحكم السلمي الصحابي قال :

بينا أنا أُصلّي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ عطس رجل من القوم ؛ فقلت : يرحمك الله ، فرماني القوم بأبصارهم !! فقلت : واثكل أُمّياهُ ما شأنكم تنظرون إليَّ ؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم !! فلمّا رأيتهم يُصَمِّتُونني لكنّي سكتُّ ، فلمّا صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبأبي هو وأمي ما رأيت معلّماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه ؛ فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني ؛ قال : « **إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن** » أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قلت : يا رسول الله إني حديث عهد بجاهلية ؛ وقد جاء الله بالإسلام وإن رجالاً يأتون الكُهّان ؛ قال : « **فلا تَأْتِهِمْ** » .

قال ومنّا رجال يتطيرون ؛ قال :

« ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدّنهم » قال ابن الصبّاح : فلا يصدنّكم .

قال : قلت : ومنّا رجال يَخُطُّون ؛ قال :

« **كان نبي من الأنبياء يَخُطُّ فمن وافق خطّه فذاك** » .

قال : وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قِبَلَ أُحُدٍ والجوّانية ؛ فاطَّلَعْتُ ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون ؛ لكنّي صككتها صكّةً فأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ فعظَّمَ ذلك عليَّ ؛ قلت : يا رسول الله أفلا أُعْتِقُها ؟! قال :

« ائتني بها » فأتيته بها ؛ فقال لها : « أين الله ؟ » قالت : في السماء . قال : « مَن أنا » قالت : أنت رسول الله . قال : « أعتقها فإنها مؤمنة » .] .. الحديث .

نقول : في هذا الحديث عدّة قضايا يجب التنبيه عليها :

أولاً : هذا الحديث من أحاديث الآحاد التي لا يجوز أن يبنى عليه أصل في العقائد ، وقد تقدّم معنا في فصل الكلام على أحاديث الآحاد أنها تفيد الظن ولا تفيد العلم بما لا يدع مجالاً للشك وهو أمر وارد في الكتاب والسنة ومقرر عند الصحابة والسلف وأئمة المحدّثين ، وما أفاد الظن كيف يبنى عليه أصل الدين الذي لا يجوز إلا أن يكون مقطوعاً به ؟! لا سيما وظاهره معارض بما هو أقوى منه وهو النصوص المنزهة لله تعالى عن المكان .

ثانياً : نفى بعض أئمة الحديث المتقدّمين وجود قصة الجارية وهو القسم الأخير في الحديث من صحيح مسلم ، قال الإمام الحافظ البيهقي عن هذا الحديث في كتابه « الأسماء والصفات » ص (٤٢٢) ما نصه :

« وهذا صحيح قد أخرجه مسلم ... دون قصة الجارية » .

ثالثاً : أن هذا الحديث اختلف الرواة في متنه ، فرواه بعضهم بهذا اللفظ « أين الله ؟ » بإسناد حسن(٢٥٠) ، ورواه بعضهم بلفظ « أتشهدين أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ »(٢٥١) بإسناد صحيح قوي جداً ، ورواه بعضهم بلفظ « مَنْ رَبُّكِ ؟ »(٢٥٢) بإسناد حسن .

---

(٢٥٠) والواقع والتحقيق : أن في إسناد هذه الرواية التي حكمنا عليها بالحسن والتي هي في الصحيح هلال بن أبي ميمونة ؛ وقد قال عنه ابو حاتم الرازي : « شيخ يكتب حديثه » وهذا تضعيف من أبي حاتم لهذا الراوي !! ففي الجرح والتعديل (٦/ ١٠٩) ذكر أن الشيخ هو ضعيف الحديث ، وقال الذهبي في السير (٦/ ٣٦٠) : « قلت : قد علمت بالاستقراء التام أن أبا حاتم الرازي إذا قال في رجل : يكتب حديثه أنه عنده ليس بحجة » . وبذلك يصح أن نقول بأن هذه الرواية ضعيفة ؛ فتأمل !!

(٢٥١) رواه مالك في الموطأ (٧٧٧) وعبد الرزاق في المصنف (٩/ ١٧٥) وأحمد (٣/ ٤٥١-٤٥٢) وحكم بصحته ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٤٧) وابن عبد البر في التمهيد (٩/ ١١٤) والحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢٣) وغيرهم ولنا رسالة خاصة في حديث الجارية هذا أسميناها « تنقيح الفهوم العالية بما ثبت وما لم يثبت في حديث الجارية » .

(٢٥٢) رواه ابن حبان في صحيحه (١/ ٤١٨-٤١٩) والنسائي في الصغرى (٦/ ٢٥٢) وفي الكبرى (٤/ ١١٠) وأحمد (٤/ ٢٢٢و٣٨٨و٣٨٩) والحاكم (٣/ ٢٥٨) والبيهقي (٧/ ٣٨٨) وغيرهم .

رابعاً : هذا الاختلاف في اللفظ الذي حكاه رواةُ هذا الحديث يسمّى اضطراباً في علم مصطلح الحديث ، وهو موجب لضعف الحديث ، فإن استطعنا ترجيح أحد ألفاظه كان هو الصحيح الراجح وكانت الألفاظ الباقية ضعيفة مطروحة ، وقد صرّح بعض الأئمة من أهل الحديث باضطرابه ، منهم :

١ ـ الحافظ البيهقي حيث قال في « الأسماء والصفات » ص (٤٢٢) :

« وأظنه (يعني الإمام مسلماً) إنما تركها (أي قصة الجارية إذ لم يخرجها في صحيحه عنده) لاختلاف الرواة في لفظه ، وقد ذكرت في كتاب الظهار من السنن مخالفة مَنْ خالف معاوية بن الحكم في لفظ الحديث » انتهى . وما بين الأقواس من توضيحاتي . وانظر « السنن الكبرى » (٧/ ٣٨٨) .

٢ ـ وكذلك ممن صرّح باضطرابه واختلاف رواته فيه الإمام الحافظ ابن حجر حيث قال في « تلخيص الحبير » (٣/ ٢٢٣) : « وفي اللفظ مخالفة كثيرة » .

٣ ـ وكذلك الإمام الحافظ البزار حيث قال كما في « كشف الأستار » (١/ ١٤) : « وهذا قد روي نحوه بألفاظ مختلفة » .

٤ ـ وكذلك الإمام المحدّث الكوثري رحمه الله تعالى حيث قال في تعليقه على « الأسماء والصفات » ص (٤٢٢) :

« قد فعلت الرواية بالمعنى ما تراه من الاضطراب » .

٥ ـ وكذلك الإمام المحدّث المفيد سيدي أبو الفضل عبدالله ابن الصديق حيث قال في تعليقه على كتاب « التمهيد » (٧/ ١٣٥) للحافظ ابن عبد البر ما نصه :

« رواه مسلم وأبو داود والنَّسَائي . وقد تصرّف الرواة في ألفاظه ، فروي بهذا اللفظ كما هنا وبلفظ « من ربك ؟ » قالت : الله ربي ، وبلفظ « أتشهدين أن لا إله إلا الله ؟ » قالت : نعم . وقد استوعب تلك الألفاظ بأسانيدها الحافظ البيهقي في السنن الكبرى بحيث يجزم الواقف عليها أن اللفظ المذكور هنا مروي بالمعنى حسب فهم الراوي ... » .

خامساً : شذوذ لفظ « أين الله ؟ » ، وذلك لأن لفظ « أين » تدلُ في الحقيقة على الوجود المكاني ، والله تعالى موجود بلا مكان ، لأنه خالق المكان كما تقدّم ،

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ وهو من أئمة الحديث ـ في « شرح البخاري » (١/ ٢٢١) : « إن إدراك العقول لأسرار الربوبية قاصر ، فلا يتوجّه على حكمه لِمَ ولا كيف ؛ كما لا يتوجَّه عليه في وجوده أين وحيث » . فتأمل جيداً !!

هذا وقد روى عطاء بن يسار وهو راوي هذا الحديث عن معاوية بن الحكم السلمي نفس الحديث في موضع آخر بلفظ : « أتشهدين أن لا إله إلا الله وأني رسول الله » بإسناد أصح من إسناد لفظ « أين الله » وذلك في « مصنّف عبد الرزاق » (٩/ ١٧٥) وهو أيضاً في « الموطأ » ص (٧٧٧) بسند صحيح آخر عن غير عطاء .

وبهذا ثبت ثبوتاً لا شك فيه عندنا حسب قواعد المصطلح وتصريحات أهل الحديث في القديم والحديث اضطراب متن حديث الجارية بحيث لا يمكن التعويل على لفظٍ من ألفاظه ؛ وأصح أسانيده كما رأيت بلفظ « أتشهدين أن لا إله إلا الله ... » ؛ فإن كان هناك مجال للترجيح بين هذه الروايات فالرواية الراجحة بلا شك ولا ريب هي رواية « أتشهدين ... » لأنها الأصح إسناداً ، ولأن المعهود من حال النبي صلى الله عليه وآله وسلم الثابت عنه بالتواتر أنه كان يأمر الناس ويقاتلهم ويختبر إيمانهم بالشهادتين فتكون رواية « أين الله » شاذة أو منكرة !!

هذا وقد بسطنا الكلام على هذا الحديث وأسانيده وما يتعلّق به وتوسعنا بذلك في رسالة خاصة أسميناها « **تنقيح الفهوم العالية بما ثبت وما لم يثبت في حديث الجارية** » فليراجعها مَنْ شاء الاستزادة .

المثال السابع :

حديث الأوعال

يحتج بعض المجسمة والمشبهة أيضاً على العلو الحسي بحديث الأوعال ، مع أن هذا الحديث ضعيف من جهة السند ، وباطل من جهة المتن مهما حاولوا تصحيحه وترقيعه كما سيتبين لنا الآن إن شاء الله تعالى بعد ذكر الحديث ، والحديث هو : رويَ عن العباس رضي الله عنه قال كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالبطحاء ، فمرّت سحابة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أتدرون ما هذا ؟ » قلنا : السحاب ، قال : « المُزْن » ، قلنا : والمزن ، قال : « والعنان » ، قال فسكتنا ، فقال : « **هل تدرون كم بين السماء والأرض** » قال : قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « **بينهما مسيرة خمسمائة سنة ، ومن كل سماء إلى السماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكِثَفُ كلِّ سماءٍ مسيرة خمسمائة سنة ، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أوعالٍ ، بين رُكبهنَّ وأظلافهن كما بين السماء والأرض ، ثم فوق ذلك العرش ، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، والله تبارك وتعالى فوق ذلك ، وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء** » .

قلت : هذا حديثٌ موضوعٌ ، رواه أحمد في « مسنده » (١/٢٠٦) من طريق عبدالرزاق عن يحيى بن العلاء عن شعيب بن خالد عن سماك بن حرب عن عبد الله بن عميرة عن العباس عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرفوعاً ، ورواه أبوداود (٤/٢٣١ برقم ٤٧٢٣) وابن ماجه (١/٦٩ برقم ١٩٣) وغيرهما ، ويحيى بن العلاء الذي في سند أحمد قال عنه أحمد : كذاب يضع الحديث ، وأما سند أبي داود وابن ماجه فمن طريق سماك عن ابن عميرة عن الأحنف بن قيس عن العباس ، قال البخاري في « تاريخه الكبير » (٥/١٥٩) : « لا يُعْلَمُ سماعٌ لابن عميرة من الأحنف » انتهى .

وقد بَيَّنَ أَوجَهَ بطلانه من ناحية المتن سيدي الإمام المحدث عبد الله ابن

الصديق الغماري في كتابه « سبيل التوفيق » حيث قال :

« وبيَّنتُ بطلان حديث الأوعال بأنَّ إسناده ضعيف ومعناه منكر من وجوه :

١ ـ أنَّ القرآن يفيد أن حملة العرش يوم القيامة ثمانية لا اليوم .

٢ـ أنّ القرآن نعى على الكفار تسميتهم الملائكة إناثاً ، والحديث يفيد أنّهم أوعال ، والإناث أشرف من الوعل .

٣ ـ أنّ الوعل هو التيس الجبلي ، والوصف به يدل على الذم ، فقد سمّى النبي صلى الله عليه وآله وسلم المحلّل تيساً مستعاراً ، ووصف الذين يتخلّفون في نساء المجاهدين بالفاحشة بأنهم ينبون نبيب التيس .

٤ ـ أن القرآن والسنة يصفان الملائكة بأنهم ذوو أجنحة ، وهذا الحديث جعلهم أوعالاً ... » انتهى .

فتأمل والله الموفق .

قاعدة مهمة

الأصل في الإضافات التي يسمونها بالصفات النفي لا الإثبات

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ومن لم يتوقّ النفي والتشبيه زلّ ولم يصب التنزيه) .

الشرح :

الأصل في الصفات المتعلقة بالله تعالى وفيما يجول ويخطر في أذهاننا وعقولنا مما لم يرد في الكتاب والسنة الصحيحة ولم ينعقد عليه الإجماع النفي بناء على قوله تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ .

فقد بيّن الله سبحانه وتعالى لنا في هذه الآية الكريمة المُحكمة أن الأصل هو مخالفته سبحانه لخلقه من جميع الوجوه فلا يصح أن نقيس شيئاً عليه مثلما يفعل المجسمة كما رأينا !! فما لم يَرِد في الكتاب الكريم والسنة الصحيحة لا يجوز إطلاقه على الله تعالى ، فمن قال : إن الله تعالى ليس كالشمس ولا كالقمر ولا كالنجوم ولا كالأرض ولا جسماً ولا عَرَضاً ولا في جهة ولا له حد ولا مقدار ولا يتحرك ولا يسكن ولا كذا ولا كذا إلى آخر هذه الأوصاف التي لم ترد في الكتاب ولا في السنة الصحيحة لا يكون مخالفاً للشرع ولا للحق ولا لعقيدة الإسلام ، لأن هذا النفي مبني على نصوص الكتاب والسنة !!

وذلك لأن الله تعالى لَمّا قال ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ نفى عن نفسه أشياء كثيرة جدًا لا يكاد الإنسان يحصيها ؟ وأثبت لنفسه شيئين السمع والبصر كما ترى ، فما نفاه عن نفسه لا يكاد يُعَدُّ (عند البشر) وما أثبتَهُ لنفسه معدود وقليل بالنسبة لما نفاه ، فمن ههنا أخذنا هذه القاعدة ، لأن البشر لا يفهمون ولا يدركون خالقهم فاحتاجوا إلى أن ينفوا عنه كل ما يعرفونه من الأشياء الموجودة في العالم مما يرونه ويدركونه ، ولا يستطيعون أن يثبتوا له سبحانه إلا ما أثبته هو لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله الصادق الأمين الذي لا ينطق عن

الهوى ، وما جاء في القرآن أو السنة أيضاً مما قد يتوهم غير العالم من إنه صفة له سبحانه فهو أيضاً لا يجوز قبوله صفة لله تعالى إلا بعد النظر في قواعد الشريعة من آيات وأحاديث صحيحة حتى يتبين هل يجوز إطلاقه أم لا ؟

فالمرض مثلاً الذي ورد في الحديث القدسي الذي فيه « عبدي مرضتُ فلم تعدني » لا يطلقه عاقل على المولى سبحانه أبداً ولذلك قلنا : إن الأصل في الصفات النفي ، والإثبات محصور معدود وقد استقينا ذلك وأخذناه من القرآن الكريم ، فالله تعالى أخبرنا عن هذه القاعدة إذ قال ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ نفى هنا بِـ (ليس) ، وقال : ﴿ **وما كان ربك نسياً** ﴾ نفى هنا بِـ (ما) ، وقال ﴿ **لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ فنفى بِـ (لم) ثلاث مرات ، وقال ﴿ **لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك** ﴾ فنفى بِـ (لم) مرتين ، وقال ﴿ **ما كان الله أن يَتَّخِذَ من ولد سبحانه** ﴾ فنفى بِـ (ما) ، وقال : ﴿ **وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً** ﴾ فنفى بِـ (لم) ثلاث مرات هنا أيضاً ، وهكذا والأمثلة على ذلك كثيرة وكلّها تُثبتُ أن النفي أصل وثيق مبني على قواعد الكتاب والسنة الصحيحة المطهرة ، والله الهادي .

فتلخص من هذا الكلام : أن الألفاظ التي يطلقها بعضهم على الله تعالى على أنها صفات قسمان :

(القسم الأول) : ألفاظ وصفات لم ترد في الكتاب ولا في السنة الصحيحة ولا أجمعت الأمة عليها فهذا القسم لا يجوز إطلاقه على الله سبحانه لأننا لا نصف الله تعالى إلا بما وصف به نفسه(٢٥٣) ويتظاهر المجسمة بأنهم متفقون معنا في ذلك !! فيقولون : « لا نصف الله إلا بما وصف به نفسه » ، إلا إنهم في الحقيقة لا

---

(٢٥٣) ومن العجيب الغريب أن بعض من ينتسب للأشعرية يقول بأنه يجوز أن يُطْلَقَ وَصْفٌ على الله تعالى وإن لم يَرِدْ بشرطِ أن يدلَّ على الكمال ؛ ثم يقول بالتوقف عن إطلاق وصف الإدراك على الله تعالى ويتعلل لذلك بأنه لم يَرِدْ !! مع أنه وارد في قوله تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ ولم يوقعهم في ذلك إلا التقليد دون النظر في الأدلة واستعمال عقولهم !!

يلتزمون بذلك بل يطلقون عليه سبحانه وتعالى وصف الحد والجهة والحركة والسكون والسكوت والاستقرار والجلوس والجسمية وغيرها مع أن هذه الألفاظ لم ترد في الكتاب ولا في السنة الصحيحة !!

وهنا نقول لهم : ألا يكفي كتاب الله تعالى وسنة نبيه الصحيحة في وصفه سبحانه ؟! وليس بعد بيان الله تعالى ورسوله بيان أم إنكم ترون بأن بيان الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم قاصر ؟!! ولذلك لجأتم إلى إحداث ألفاظ وصفات لم ينزل الله بها من سلطان ؟!!

أليس في الكتاب والسنة ما يكفي في وصفه سبحانه وتعالى أم لا بد من أن تستدركوا على الكتاب والسنة فتزيدوا له تعالى ـ وهو الذي لا يمكن أن تدركوه ـ صفات فتقولون زائدين : إنه خارج العالم وأن له حداً وجهة ومكاناً عدمياً غير مخلوق إلى غير ذلك مما نطقتم به وخرجتم به وعارضتم فيه نصوص الكتاب والسنة بعقولكم القاصرة التي لن تدرك الله تعالى ولا صفاته أبداً ؟!!

فكونه خارج العالم أو داخله الأصل فيه النفي إذ لم يرد هذا الذي تقولونه في الكتاب ولا في السنة ، فلم يرد أنه خارج العالم ولم يَرِد أنه داخل العالم فهذا من القسم الذي الأصل فيه النفي !! فتنبّهوا !!

(القسم الثاني) : ما ورد في الكتاب والسنة والأصل فيه التفصيل مع تحكيم التنزيه المبني على قواعد الكتاب والسنة ، فبعض الألفاظ الواردة في الكتاب والسنة لا نثبت بها صفات لله تعالى مثل المرض في حديث مسلم « عبدي مرضْتُ » بضم التاء في مرضت ، والنسيان في قوله تعالى ﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ .

والألفاظ الواردة في الكتاب والسنة تُفهَم بالسياق الذي **وردت** فيه ، فمثلاً قوله تعالى مخبراً عن القرآن الكريم ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾ ليس المراد منه إثبات يدين للقرآن !! وإنما المراد من ذلك في لغة العرب التي بها نزل القرآن وبها نطق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الإخبار عن الحفظ لهذا الكتاب المبين ، فلا يصح لقائل بعد هذا أن يقول : « بما أن اليد ثبتت في القرآن لكتاب الله فليس لأحد أن ينفيها وإنما نثبت للقرآن

يدين تَلِيقانِ به !! ومن نفاهما فهو معطل جهمي » !! وهذا كلام من يهذي ولا يعقل ما يقول !!

وقوله تعالى أيضاً ﴿ **يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله** ﴾ ليس المراد من ذلك إثبات جنب لله تعالى حسب هذا السياق في لغة العرب !! إنما المراد إثبات أن هذا العبد فرّط في أوامر الله تعالى ونواهيه في الدنيا فهو يندم ويتحسر عليها في الآخرة(٢٥٤) وهذا مثل قوله تعالى ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذينَ جاهدوا منكم ويعلَمَ الصابرين** ﴾ آل عمران : ١٤٢ لا يراد منه ظاهره ، فالله تعالى قبل خلقنا يعلم مَن الذي سيجاهد في سبيل الله ومَن هم الصابرون ابتغاء مرضاته عزّ وجلّ وإنما يخاطبنا الله تعالى على قدر عقولنا وفهمنا والمراد من ذلك حتى تقوم الحجة علينا !!

ولا يقول عاقل بهذه الظواهر ابداً كما لا يقول بظواهر الآيات التي تسميها المجسمة بآيات العلو !! وكذلك لا نقول بظاهر مثل قوله تعالى في شأن سيدنا موسى عليه السلام ﴿ **فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين** ﴾ القصص :٣٠ !

فلا يقول عاقل بظاهر هذا النص ولا يعتقد أن الله تعالى الذي كان يكلم سيدنا موسى عليه السلام كان في البقعة المباركة في الشجرة !!

إذاً ليس كل ما ورد يصح وصف الله تعالى به ويؤخذ على ظاهره !!ومن ذلك اليد والرِّجلُ والقدم والساق والوجه والحقو والصورة وأشباهها من الأعضاء لا يصح القول بأنها صفات لله تعالى لأن هذه الأعضاء مثل اليد ليست صفة وإنما هي عضو وهي جزءٌ من كلٍ وهي هيئة وصورة وشكل لا صفة ، لأن الصفة هي التي تقوم بالذات في المخلوقات ، وأما الذات فهي التي تقوم بها الصفات فيقال يد

---

(٢٥٤) وقد ذهب بعض المجسمة إلى إثبات جنب لله تعالى استنباطاً من هذه الآية على أنه صفة له سبحانه وتعالى عما يقولون !! وهو لا يفرّق بين الصفة والعضو الذي هو جزءٌ من كل . ومن أولئك الطَلَمَنكي في كتابه « السنة !! » كما ذكر ذلك الذهبي في « السير » (١٧/ ٥٦٩) منكراً عليه !! وكذا قال بالجنب أيضاً ابن القيم في « الصواعق » (١/ ٢٥٠) .

سوداء ويد بيضاء ويقال سليمة ومريضة إلى غير ذلك فكيف يجعلون الذات صفة من الصفات ؟!! وقد غفل كثير من الناس عن هذا الأمر ! وكذلك الساق والوجه والأصابع والصورة ونحوها يقال فيه ما يقال في اليد لأن جميعها يفيد التركيب والأعضاء والشكل والهيئة والله تعالى منزه عن هذا كله لأنه سبحانه وتعالى أخبر بأن المخلوق مُركب من صورة فقال سبحانه ﴿ **يا أيها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركبك** ﴾ فدلَّ على أن المخلوق مُرَكب من أجزاء وأعضاء ، وأخبر أنه سبحانه ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ وأنه ﴿ **لم يكن له كفواً أحد** ﴾ فصرّح بأنه ليس مُرَكباً من هذه الأعضاء !! وليس بعد هذا البيان بيان !! ومن هذا نعلم أن المجسمة لا يُفرِّقون بَعدُ بين الذوات والصفات ومن كان كذلك فإنه ينادي على نفسه بالجهل ! ولا يجوز له بحال أن يخوض في مسائل العلم التي لا يفهمها وخاصة في العقائد !!

فإن غالط مغالط وقال لماذا لا نقول : يضحك لا كضحكنا وينسى لا كنسياننا ويملُّ لا كمللنا ؟!!!

قلنا له : قولك لا كضحكنا ولا كنسياننا ولا كمللنا لن يفيدك البته ولن ينفي عنك التشبيه !! لأن هذا دالّ على النقص أولاً !! وقولك « بلا كيف » أو « يليق بجلاله » بعده غير مفهوم بالعربية إلا بالتأويل وأنت تقول بـِ « أن الله تعالى لا يخاطبنا بما لا نفهم(٢٥٥) » ونحن لا نفهم الضحك الذي تطلقه حقيقة على الله تعالى إلا بالقهقهة أو الانفعال والتبسم والعرب لا تفهم إلا ذلك !! إلا إذا أوّلتَ ذلك بالرحمة كما أوَّلها الإمام البخاري(٢٥٦) اتباعاً للّسان العربي !! وقد تقدَّمت القاعدة في ذلك !! ونزيد هنا ما لم نذكره هناك فنقول :

قول المشبه والمجسم يضحك لا كضحكنا كما نقول سميع لا كسمعنا وبصير لا كبصرنا تمويه لن يجديه شيئاً !! لأن المراد بقولنا يسمع سبحانه لا كسمعنا : أن

---

(٢٥٥) هناك نصوص لابن تيمية بأن كل شيء في القرآن مفهوم ولا يوجد شيء غير مفهوم المعنى منها في مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٠٦-٣٠٧) .

(٢٥٦) انظر توثيق ذلك عن البخاري في مقدمتنا على كتاب « دفع شبه التشبيه » ص (١٤) .

نُثْبت لله تعالى السمع ثم نُنَزِّهه عن آلة السمع وهي الأُذن وعن الأعضاء والصورة والجوارح وغير ذلك ، فيُتَصَوَّر وجود صفة السمع بلا آلة ثم يُفَوَّض حقيقة علم ذلك إلى الله تعالى بعد الإيمان بأن له سبحانه سمعاً ، لأن صفة الخالق لا يمكن للمخلوق أن يدركها لأنها قد اتحدت في الاسم دون المسمى(٢٥٧) ، لكن الجلوس والحركة والملل ونحو هذه الألفاظ التي تطلقها المجسمة دون تَرَوٍّ على الله ولا بصيرة لا يُتَصَوَّرُ فيها وجود شيء يمكن إثباته بعد نفي عنصر التشبيه منها وتفويض معناه لله جلَّ جلاله !! فالحركة مثلاً التي يصف الله تعالى بها المجسمة لا يفهم منها إلا الانتقال من محل إلى آخر ولا تعقل إلا بذلك ، فإذا نفيت بعد إثباتها الانتقال لم تعد حركة ! فيبطل ما أثبته المجسمة حينئذ من أساسه ويتبين أن كلامهم متناقض في ذلك لأنه لم يبق شيء يمكن إثباته خلافاً للسمع والبصر فلا تغفل عن هذا !!

فالمرض مثلاً والنسيان الواردان في الكتاب والسنة والمضافان إليه سبحانه وتعالى لا يمكن اعتبارهما صفة له سبحانه للقاعدة التي قررناها ، وبذلك يتبين بطلان كلام من يقول : « نقول يمل لا كمللنا وله يد ليست كأيدينا مثلما نقول يسمع لا كسمعنا ويبصر لا كبصرنا »(٢٥٨) ، لأن هذا كلام إنشائي مجمل بعيد عن

---

(٢٥٧) وقد تقدَّم أن الصفة عندنا هي عين الذات ، ولكن ههنا نستعملها كأمور للإيضاح والفهم عند من يثبتها .

(٢٥٨) ذكر الترمذي في سننه (٦٦٢) عن إسحاق بن راهويه أنه قال : [قال إسحق بن إبراهيم إنما يكون التشبيه إذا قال يد كيد أو مثل يد أو سمع كسمع أو مثل سمع فإذا قال سمع كسمع أو مثل سمع فهذا التشبيه وأما إذا قال كما قال الله تعالى يد وسمع وبصر ولا يقول كيف ولا يقول مثل سمع ولا كسمع فهذا لا يكون تشبيهاً وهو كما قال الله تعالى في كتابه (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)] **أقول** : وهذا كلام مردود على إسحاق وغيره وهو باطل من القول !! فمن قال إن للمولى جلَّ وعز يد ورجل وجنب وساق وعينين و.... إلى آخر تلك الطامات التي يقولونها ثم قال ليست كيدي ولا كعيني ولا ..... فإنه لن يبرأ من التجسيم والتشبيه !! ومن العجيب الغريب أن صديق إسحاق بن رهويه وزميله أبو زرعة الرازي يقول كما في اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة نقلاً عن كتاب السنة للطبراني : [عن ابن عباس رفعه رأيت ربي في صورة شاب له وفرة وروي في صورة شاب أمرد قال ابن صدقة عن أبي زرعة حديث ابن عباس لا ينكره إلا معتزلي] . انظر كشف الخفاء للعجلوني (١/ ٥٢٧) وكتاب المصنوع في معرفة الحديث الموضوع للعلامة القاري (١٠٢) .

التحقيق العلمي المستند لنصوص الكتاب والسنة .

فمما تقدم في الفصول والأبواب السابقة يتبين لنا أن المشبهة والمجسمة أرادوا أن يطلقوا على الله تعالى بعض الألفاظ التي يسمونها صفات وهي مما لا يستقيم إطلاقه صفة لله تعالى حسب الموازين الشرعية المأخوذة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي سقناها في مواضعها وخاصة عند ذكر الأمثلة والنماذج في موضوع الصفات ، وهذه الألفاظ التي أراد المشبهة والمجسمة إثباتها لله تعالى على أنها من صفاته سموها « توحيد الأسماء والصفات » وزعموا أن كل مَنْ لم يؤمن بها لم يكتمل إيمانه بعد !! أو بعبارة أصرح وأقرب للمقصود لا يزال إيمانه مختلاً غير صحيح بعد !!

وإنما قالوا ذلك ليدخلوا على من يخالفهم حالة نفسية من الخوف يرعبونه بها ويهددونه بأنه إذا لم يوافقهم على ما يزعمون من إطلاق مثل الحركة والحد والجهة والصورة والرِّجل واليد والعين وغير ذلك فهو ناقص الإيمان !! مع ملاحظة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو الذي مكث في مكة يُعَلِّم الناس العقيدة ويغرسها في نفوسهم ثلاث عشرة سنة لم يقل بأن هناك توحيداً يقال له توحيد الأسماء والصفات ، ويستحيل أن يسكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك ولا يبينه لأمته لو كان هذا الأمر عقيدة يجب التمسك بها ، وإننا نحيل طالب العلم والقارىء الكريم إلى كتاب دفع « شبه التشبيه بأكف التنزيه » بتحقيقنا فإننا تعرَّضنا فيه لجميع ما ورد من إضافات وغيرها في موضوع الصفات تقريباً فليرجع إليه مَنْ شاء الاستزادة والتوسع فيما لم نذكره هنا والله الموفق .

فصل

قاعدة مهمة

للتعريف بالمجسمة والمشبهة

المجسمة هم المشبهة أنفسهم ، وهم الذين يتخيلون بأن الله تعالى جسم على شكل ما من الأشكال وغالبهم يتصورونه ويتخيلونه على صورة رجل جالس على كرسي عظيم (وهو كرسي الملك) والذي يدل على ذلك عباراتهم التي يرددونها في كتبهم التي يتكلمون فيها عن مسائل التوحيد والاعتقاد وكتاب « السنة » المنسوب لابن أحمد من أوضح الأدلة والشواهد على ذلك !! وبعضهم يكابر ويجادل بالباطل فيقول : بأنه لا يتصور الله تعالى مثل ما ذكرنا عنهم !! وهم غير صادقين في تلك المكابرة والمجادلة العقيمة ! ومؤلفاتهم وكلماتهم وفلتات ألسنتهم وما يسرُّونه لكثير من أتباعهم وغير ذلك من الأمور الظاهرة دلالات واضحة تحكم بصدق دعوانا عليهم !!

ومن أوضح الأمثلة على ذلك أيضاً أن المجسمة والمشبهة يثبتون لله تعالى أعضاء يسمونها صفات كاليد والأصابع والوجه والساق والقَدَم والرِّجل والعين والجنب والحِقْو(٢٥٩) والجلوس والحركة والحد والجهة وغير ذلك من صفات

---

(٢٥٩) الحقو : هو الخصر ، وممن أثبت هذا لله تعالى ، - تعالى الله عن ذلك - صديق حسن خان القنوجي البهوبالي في كتابه « قطوف الثمر في عقائد أهل الأثر » وهذا القنوجي كان أتبع للشوكاني من ظله وقد هيأ الله تعالى من العلماء المخلصين مَنْ يرد عليهما ويكشف عوار مذهبهما !! أما الشوكاني فقد رد عليه معاصره الإمام محمد بن صالح بن حريوه السماوي في كتاب « الغطمطم الزخَّار في اكتساح السيل الجرار » وهو في ستة مجلدات مطبوعة وصل فيه لباب صلاة الخوف كشف فيه طامات الشوكاني وسرقاته العلمية وأخطاءه وقد سعى الشوكاني في قتل هذا الإمام ، وكتابه المذكور موجود لدينا مطبوعاً ومخطوطاً . أما صدِّيق حسن خان البهوبالي القنوجي فقد تكفل بالرد عليه الإمام العلامة المحقق عبد الحي اللكنوي في كتابه « تبصرة الناقد برد تذكرة الراشد » وفي كتابه « إبراز الغي من شفاء العي » وغيرهما . وانظر كتاب « الإشفاق على أحكام الطلاق » ص (٧٥ - ٧٦) للإمام الكوثري عليه الرحمة والرضوان للاستزادة .

المحدثات والأجسام كما تقدم !! وبعضهم يُصَرِّحُ أنه سبحانه وتعالى جسم ويقول بعد ذلك « لا كالأجسام » !!

وزعم المجسمة والمشبهة في هذا العصر وغيره - تمويها ليخدعوا العامة والدهماء في سبيل اقناعهم بآرائهم الفاسدة الباطلة ولينفوا عن أنفسهم وصمة التشبيه والتجسيم - أن المجسم هو فقط : من يقول (بأن الله تعالى جسم كالأجسام !! أما من يقول بأنه جسم لا كالأجسام فهذا ليس بمجسم) !! وهذا قول باطل بداهة !!

وبعض المجسمة والمشبهة نقلوا عن بعض محدثي السلف أنه قال : التشبيه والتجسيم أن تقول يد كيدي ورجل كرجلي وقَدَم كقدمي وساق كساقي . أو نحو هذه الكلمات(٢٦٠) .

فنقول هذا الكلام خطأ من قائله !! وليس هو وحياً لا يقبل الرد !! وهو باطل من القول !! مردود عقلاً ونقلاً !! وقد خالفه فيه الأئمة وإليك بعض نصوصهم في ذلك :

قال الإمام المازري والإمام النووي المقر له في « شرح صحيح مسلم » (١٦/ ١٦٦) :

« هذا كقول المجسمة جسم لا كالأجسام لما رأوا أهل السنة يقولون الباري سبحانه شيء لا كالأشياء ... » .

وقال الإمام الحافظ البيهقي في « شعب الإيمان » (١/ ١٣٧ - ١٣٨) :

« فإن قال قائل : فإذا كان القديم سبحانه شيئاً لا كالأشياء ، لم أنكرتم أن

---

(٢٦٠) وقد استند على هذا الكلام المخطىء بعض مقلدي مذهب التجسيم في هذا العصر فقال في مقالة متهافتة له « الذي يقول : إن الله جسم كسائر أجسام البشر فهو كافر بلا مثنوية ، وهذا هو مذهب المشبهة ، أما من نفى التشبيه وأطلق أن الله جسم على معنى أنه موجود قائم بنفسه فقد أصاب في القصد لكنه أتى ببدع في القول » !! فانظر كيف يصرِّحون بأن من أطلق على الله تعالى بانه جسم أصاب في قصده !! فهل بعد هذا يصح أن يقال بأن هؤلاء ليسوا مجسمة !! [نظر رسالتنا نغمات الطنبور النقطة الرابعة فإن فيها بيان ذلك] .

يكون جسماً لا كالأجسام ؟ قيل له : لو لزم ذلك للزم أن يكون صورة لا كالصور ، وجسداً لا كالأجساد ، وجوهراً لا كالجواهر : فلما لم يلزم ذلك لم يلزم هذا » . وقال الذهبي في « الميزان » (٤/٢١) :

« من بدع الكرامية قولهم في المعبود : إنه جسم لا كالأجسام » .

وقال الذهبي أيضاً في « السير » (١٣/٢٩٨) في ترجمة ابن قتيبة :

[ونقل صاحب « مرآة الزمان » بلا إسناد عن الدارقطني أنه قال : « كان ابن قتيبة يميل إلى التشبيه » قلت : هذا لم يصح ، **وإن صح عنه فسحقاً له فما في الدين محاباة**] انتهى كلام الذهبي .

ولقد اعتبر العلماء من يقول بمقالات تدل على ما في قلبه من التجسيم تجسيماً محضاً يكفر قائله ، ومن طالع كتب أهل العلم كـ « الأسماء والصفات » للإمام البيهقي و « فتح الباري » للحافظ ابن حجر ، و « شرح صحيح مسلم » للإمام النووي وغيرهم من العلماء فإنه سيجدهم قد وصفوا من قال بظواهر النصوص ومن أثبت لله تعالى خصائص الأجسام أنه مجسم ، ومن ذلك :

١- قول الحافظ - ناقلاً - في « الفتح » (١٣/٤٣٢) في شرح حديث هناك :

« ومنه قوله تعالى : (جناح الذل) فمخاطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم برداء الكبرياء على وجهه نحو ذلك من هذا المعنى ، **ومن لم يفهم ذلك تاه فمن أجرى الكلام على ظاهرة أفضى به الأمر الى التجسيم** ، ومن لم يتضح له وعلم أن الله منزه عن الذي يقتضيه ظاهرها **إما أن يكذب نقلتها وإما أن يؤولها** ... » .

فانظروا كيف اعتبر من يأخذ بظاهر حديث لا يليق بالله تعالى أنه يُفْضِي به إلى التجسيم ، مع أن هذا الآخذ لم يقل بظاهرها !! وهو أنه تعالى جسم كالأجسام !!

٢- قول الشيخ عبد القاهر البغدادي في « أصول الدين » ص (٣٣٧) :

« وأما جسمية خراسان من الكرَّامية فتكفيرهم واجب لقولهم بأن الله له حَدٌّ ونهاية من جهة السُفْل ومنها يماس عرشه ولقولهم إن الله محل للحوادث .. » .

أقول : فانظروا كيف صرح الشيخ عبد القاهر البغدادي بأن القائل بالحد والقائل بقيام الحوادث بذات المولى سبحانه وتعالى مجسم كافر !!

فصل

بيان قضية لازم المذهب

المقصود بقول العلماء (لازم المذهب) أي ما يقتضيه مذهب فلان من الناس ، فإذا قال عالم قولاً وذهب إلى رأي من الآراء وكان مقتضى كلامه ورأيه - هذا الذي ذهب إليه - أمراً آخر أيضاً ، فهل نلزمه بأن مقتضى كلامه مذهب له ؟ وهل نحاسبه عليه أم لا ؟

الصحيح في هذا أن لازم المذهب إن كان قريباً فهو مذهب وإن كان بعيداً فليس مذهباً .

والدليل على ذلك هو أن الله تعالى اعتبر في القرآن الكريم من يقول بأن لله ولداً ممن يعترف به وبوجوده كافراً وألزمه بالكفر حيث قال سبحانه :

﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون** ﴾ التوبة : ٣٠ .

وقد اعتبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم مَنْ سب الدهر كأنه سب الله تعالى واعترض عليه ، لأن الله سبحانه هو خالق الدهر ، فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« قال الله عز وجل : يسب ابن آدم الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الليل والنهار » رواه البخاري (١١/ ٥٦٤) ومسلم (٤/ ١٧٦٢) .

وقال الإمام الغزالي في « المستصفى » (٢/ ١٨٦) : « ما يقتبس من الألفاظ لا من حيث صيغتها بل من حيث فحواها وإشارتها وهي خمسة أضرب : الضرب الأول : ما يسمى اقتضاء ، وهو الذي لا يدل عليه اللفظ ولا يكون منطوقاً به ؛ ولكن يكون من ضرورة اللفظ إما من حيث لا يمكن كون المتكلم صادقاً إلا به ، أو من حيث يمتنع وجود الملفوظ شرعاً إلا به ، أو من حيث يمتنع ثبوته عقلاً إلا به ... » .

تمثيل اللازم البعيد واللازم القريب :

مثال اللازم القريب : إذ قلنا لعالم في علم الحديث : هل يحتج بحديث القاسم بن عبد الواحد ؟ فقال لنا : يحتج بحديث سفيان وشعبة . فدل هذا على أنه لا يحتج بالقاسم بن عبد الواحد لأنه لازم كلامه . [انظر « تهذيب التهذيب » (٨/ ٢٩١) و « الجرح والتعديل » (٧/ ١١٤)] .

ومثال اللازم البعيد : أنك إذا قلت : زيد عالم فإنه لا يلزم من ذلك أن غيره ليس بعالم ، وهذا الأمر يسمى في علم الأصول كما قال الإمام الغزالي في « المستصفى » (٢/ ٩٠) :

[فهم غير المنطوق به من المنطوق بدلالة سياق الكلام ومقصوده ؛ كفهم تحريم الشتم والقتل والضرب من قوله تعالى ﴿ **ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما** ﴾ وفهم تحريم مال اليتيم وإحراقه وإهلاكه من قوله تعالى ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً** ﴾ ..... فإن قيل هذا من قبيل التنبيه بالأدنى على الأعلى !! قلنا : لا حجر في هذه التسمية ؛ لكن يشترط أن يفهم أن مجرد ذكر الأدنى لا يحصل هذا التنبيه ما لم يفهم الكلام وما سيق له ؛ فلولا معرفتنا بأن الآية سيقت لتعظيم الوالدين واحترامهما لما فهمنا منع الضرب والقتل من منع التأفيف ؛ إذ قد يقول السلطان إذا أمر بقتل ملك لا تقل له أف لكن اقتله ؛ وقد يقول - شخص - : والله ما أكلت مال فلان ويكون قد أحرق ماله فلا يحنث ؛ فإن قيل الضرب حرام قياساً على التأفيف لأن التأفيف إنما حرم للإيذاء فوقه !! قلنا : وأن أردت بكونه قياساً أنه محتاج إلى تأمل واستنباط علة فهو خطأ ؛ **وإن أردت أنه مسكوت فُهِمَ من منطوق فهو صحيح ؛ بشرط أن يُفهم أنه أسبق إلى الفهم من المنطوق أو هو معه ؛ وليس متأخراً عنه**(٢٦١) ؛ وهذا قد يسمى مفهوم الموافقة وقد يسمى فحوى اللفظ ، ولكل فريق اصطلاح آخر فلا تلتفت إلى الألفاظ واجتهد في إدراك حقيقة هذا الجنس] انتهى .

---

(٢٦١) يفيد كلامه هنا أن هذا من شروط اللازم القريب .

وقال الإمام الكوثري رحمه الله تعالى في « تبديد الظلام المخيم من نونية ابن القيم » ص (٢٨) عند قول الإمام السبكي « مقصوده - أي الناظم ابن القيم - أن الله ما زال يفعل وهذا يستوجب القول بقدم العالم وهو كفر » ما نصه :

« وهذا الاستلزام بين ؛ وما يقال من أن لازم المذهب ليس بمذهب إنما هو فيما إذا كان اللزوم غير بين ؛ فاللازم البين لمذهب العاقل مذهب له ؛ وأما من يقول بملزوم مع نفيه للازمه البين فلا يعد هذا اللازم مذهباً له لكن يسقطه هذا النفي من مرتبة العقلاء إلى درك الأنعام وهذا هو التحقيق في لازم المذهب ... » انتهى ما أردنا نقله[٢٦٢] .

وقد جرى عمل العلماء على أن لازم المذهب إن كان قريباً فهو مذهب ؛ ومن ذلك مثلاً أن الحافظ الدارقطني صنف كتاب « الإلزامات والتتبع » ألزم فيه صاحبي الصحيحين لوازم حديثية لم يذكرها البخاري ومسلم .

ومن ذلك أيضاً قول الحافظ في « الفتح » (١٣/ ٣٥٥) : « فإن من لازم الإيمان بالله ورسوله التصديق بكل ما ثبت عنهما والتزام ذلك » .

(فائدة) : إذا عرفت ذلك فينبغي أن نوضح هنا قضيتين :

الأولى : أن من يقول مثلاً : (بأن الله في السماء) مستدلاً مثلاً بقوله تعالى ﴿ **ءأمنتم من في السماء** ﴾ لا نعتبره مشبهاً ولا مجسماً لأن معنى الآية إن قلنا بأن المراد بها المولى سبحانه فهو على لغة العرب التي نزل القرآن بها هو : بيان علو القدر والمنزلة والمكانة ؛ لا علو المكان والتحيز والجهة وإثبات الجسمية ؛ فلا نحكم عليه بالتجسيم والتشبيه لمجرد هذه الكلمة إلا إن قصد من يقول بأن الله في السماء

---

[٢٦٢] ومن الغريب العجيب أن المجسمة والمشبهة الذين يقولون بالحد والجهة ونحو هذه الأمور في حق المولى سبحانه وتعالى ويحاولون التملص من التشبيه والتجسيم الذي لبسهم لبوساً لا انفكاك لهم منه !! والذين يذيعون عند مناقشة مثل هذه المواضيع أن لازم المذهب غير مذهب !! يصرِّحون في مواضع أخرى بأن لازم المذهب يعتبر مذهباً كما بينت بعض ذلك في كتابي « التناقضات » (٢/ ٢٧٥) . ومع هذا فإن ابن تيمية ألزم من يسميهم الروافض !! في منهاج سنته بلوازم عديدة !! انظرمثلاً « منهاج سنته » (١/ ١١٧) !!

أنه جسم أو شيء حال في السماء وعلمنا من قرائن أحواله وعباراته أنه يعني المكان لا المكانة والمنزلة .

أما إن قال : (إن الله في السماء بذاته) أو (حقيقة) فقد زاد لفظة دلت على معتقده وهي لا تفيد لغة إلا حلول الذات في مكان فنلزمه بها - وهي لازم قوله بلا شك ولا ريب - ونحكم عليه بأنه مشبه ومجسم وبما يقتضيه هذا الوصف .

الثانية : أن المشبهة والمجسمة يقولون ليتهربوا من وصفهم بالتشبيه والتجسيم : (إن لازم المذهب ليس مذهباً) !! ثم نراهم لا يطبِّقون هذه القاعدة التي يتبنونها في منهجهم وآرائهم فنراهم يرمون خصومهم المنزهين لله تعالى من الأشاعرة وغيرهم بأنهم جهمية !! ومعطلة !! وملاحدة !! مع أن خصومهم يتبرؤون من تلك الأوصاف !! التي لا أقول إنها إلزامات بعيدة بل هي باطل من القول !! وإفك زخرفه لهم فهمهم السقيم وإدراكهم العليل !!

فصل

أسماء الله الحسنى

قال الله تعالى ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى** ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لله تسعة وتسعون اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة » رواه البخاري (٥/ ٣٥٤و١١/ ٢١٤ وغيره) ومسلم (٤/ ٢٦٠٢) .

قال الإمام الحافظ البيهقي في كتاب « الاعتقاد » ص (٣٢) :

[وهذه الأسامي مذكورة في كتاب الله عز وجل ، وفي سائر الأحاديث عن نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مفردة نصاً أو دلالة فذكرناها في كتاب الأسماء والصفات ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « إن لله تسعة وتسعين اسماً » لا ينفي غيرها ، وإنما أراد والله أعلم أن من أحصى من أسماء الله عز وجل تسعة وتسعين اسماً دخل الجنة سواء أحصاها مما نقلنا في الحديث الأول ، أو مما ذكرنا في الحديث الثاني ، أو من سائر ما دل عليه الكتاب أو السنة أو الإجماع وبالله التوفيق] انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١١/ ٢١٦) :

[وقد قال الغزالي في « شرح الأسماء » له : لا أعرف أحداً من العلماء عني بطلب أسماء - الله - وجمعها سوى رجل من حفاظ المغرب يقال له علي بن حزم فإنه قال : صح عندي قريباً من ثمانين اسماً يشتمل عليها كتاب الله والصحاح من الأخبار ، فلتطلب البقية من الأخبار الصحيحة . قال الغزالي : وأظنه لم يبلغه الحديث يعني الذي أخرجه الترمذي أو بلغه فاستضعف إسناده ؛ قلت : الثاني هو مراده ، فإنه ذكر نحو ذلك في « المحلى » ثم قال : والأحاديث الواردة في سرد

الأسماء ضعيفة لا يصح شيء منها أصلاً ، وجميع ما تتبعته من القرآن ثمانية وستون اسماً ، فإنه اقتصر على ما ورد فيه بصورة الاسم لا ما يؤخذ من الاشتقاق كالباقي من قوله تعالى ﴿ **ويبقى وجه ربك** ﴾ ولا ما ورد مضافاً كالبديع من قوله تعالى ﴿ **بديع السماوات والأرض** ﴾ وسأبين الأسماء التي اقتصر عليها قريباً . وقد استضعف الحديث أيضاً جماعة قال الداوودي : لم يثبت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عين الأسماء المذكورة ، وقال ابن العربي يحتمل أن تكون الأسماء تكملة الحديث المرفوع ، ويحتمل أن تكون من جمع بعض الرواة(٢٦٣) وهو الأظهر عندي ، وقال أبو الحسن القابسي : **أسماء الله وصفاته لا تعلم إلا بالتوقيف**(٢٦٤) من **الكتاب أو السنة أو الإجماع** ، ولا يدخل فيها القياس ولم يقع في الكتاب ذكر عدد معين ، وثبت في السنة أنها تسعة وتسعون] انتهى .

قلت : والصحيح أنها تزيد على تسعة وتسعين اسماً ، ولكن من أحصى وحفظ منها تسعة وتسعين وكانت عقيدته صحيحة مما يقتضي أنه فهم معنى التسعة والتسعين كانت سبباً لدخوله الجنة برحمة الله سبحانه وتعالى .

شرح أسماء الله سبحانه وتعالى وبيان معانيها :

اعلم أن أسماء الله تعالى كصفاته سبحانه تشاركت معنا في اللفظ واختلفت في المعنى ، فمثلاً أسمه تعالى (الكبير) ليس معناه الكبير بالجسم والحجم لأن الله تعالى ليس جسماً له حجم ومقدار كما تقدم وإنما معناه : « الموصوف بالجلال وكبر الشأن فهو الذي صَغُرَ أمام جلاله كل كبير ، وقيل : هو الذي كبر عن مشابهة المخلوقين » كما قاله الإمام الحافظ البيهقي في كتابه « الاعتقاد » ص (٣٥) .

ولذلك فلا بُدَّ أن نسرد لكم بعض معاني الأسماء الحسنى التي يشكل فهم معناها على بعض الناس ونعتمد في أغلب ذلك على الإمام الحافظ البيهقي وغيره

---

(٢٦٣) انتبه إلى أن هذا هو مثال تصرف الرواة الذي نذكره دائماً .

(٢٦٤) ومنه نعلم أن أصحاب الحواشي من متأخري الأشعرية خالفوا ذلك ! ومن ذلك قول بعضهم : إنه يجوز إطلاق وصف على الله تعالى وإن لم يرد !!

من الأئمة المحققين :

١- الله : معناه من له الإلهية ، وهي القدرة على اختراع الأعيان .

٢- القدوس : هو الطاهر من العيوب المنزه عن الأولاد والأنداد .

٣- السلام : هو الذي سلم من كل نقص وعيب . وبرئ من كل آفة . وقيل : هو الذي سلم المؤمنون من عقوبته .

٤- المؤمن : هو الذي يؤمِّن عباده المؤمنين من عقوبته .

٥- المهيمن : هو القائم بأمور خلقه .

٦- المتكبر : المتعالي عن صفات الخلق .

٧- الباري : هو الخالق .

٨- الفتاح : هو الحاكم كما جاء ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق** ﴾ ويأتي بمعنى : الذي يفتح المنغلق على عباده من أمور الدنيا والدين ، ويكون أيضاً بمعنى الناصر .

٩- القابض والباسط : هو الذي يوسع الرزق ويقتره ، يبسطه بجوده ورحمته ، ويقبضه بحكمته ، وقيل القابض الذي يقبض الأرواح بالموت الذي كتبه على العباد ، والباسط الذي يبسط الأرواح في الأجساد . والقابض أيضاً الذي يجعل الأرواح منقبضة حزينة ، والباسط : الذي يبسطها فيجعلها مستبشرة فرحة .

١٠- الحليم : هو الذي يؤخِّر العقوبة عن مستحقيها ثم قد يعفو عنهم .

١١- العظيم : الذي تعاظم على خلقه في أن يشبهوه .

١٢- الشكور : الذي يشكر أي يجازي على اليسير من الطاعة .

١٣- العلي : هو الذي علا وجل أن تشبهه صفات خلقه .

١٤- المقيت : هو المقتدر والذي يقيت عباده أقواتهم وأرزاقهم .

١٥- الحسيب : هو الكافي .

١٦- الجليل : هو من الجلال والعظمة فهو الذي صغر دون جلاله كل جليل من الخلق ، وهو الذي يَتَّضِعُ معه كل رفيع .

١٧- الواسع : هو العالم الذي وسع علمه ورحمته كل شيء . وهو الغني الذي

وسع غناه فقر الخلق .

١٨- الحكيم : هو المحكم لخلق الأشياء ، وكذا المصيب في أفعاله .

١٩- الودود هو الذي يود أي يحب عباده المؤمنين ، ويحبه عباده المؤمنون .

٢٠- المجيد : هو الجليل الرفيع من المجد وهو الشرف والعظمة .

٢١- الباعث : هو الذي يبعث عباده بعد الموت .

٢٢- الشهيد : هو الذي لا يغيب عنه شيء .

٢٣- الحق : هو الموجود حقاً وهو الذي لا يقول إلا الحق ﴿ **قوله الحق** ﴾ الأنعام : ٧٣ .

٢٤- الوكيل : هو الكافي ، تقول حسبي الله ونعم الوكيل . أي : ونعم الكافي .

٢٥- المتين : هو الشديد القوة ، والذي لا يمسه في أفعاله لغوب ولا تعب .

٢٦- الولي : هو الناصر ، والمتولي للأمر القائم به .

٢٧- الحميد : الذي يستحق الحمد ، ومن له صفات المدح والكمال .

٢٨- المحصي : الذي أحصى كل شيء بعلمه .

٢٩- الواجد : هو الغني الذي لا يفتقر ، والوجد الغنى ، وقد يكون من الوجود وهو الذي لا يؤوده طلب ، ولا يحول بينه وبين المطلوب هرب .

٣٠- الماجد : بمعنى المجيد وهو الجليل وهو الرفيع من المجد ، وقد تقدم .

٣١- الواحد : هو الفرد الذي لم يزل وحده بلا شريك .

٣٢- الصمد : هو الذي تصمد إليه الحوائج ، أي ترفع ، وهو المقصود في النائبات وفي الحوائج ، وهو السيد الذي يحتاج إليه الخلق وهو لا يحتاج إلى أحد .

٣٣- المقدِّم والمؤخِّر : هو منزل الأشياء منازلها يقدِّم مَنْ يشاء وما شاء ، ويؤخر ما شاء ومن شاء .

٣٤- الأول : هو الذي لا ابتداء لوجوده .

٣٥- الآخر : هو الذي لا انتهاء لوجوده .

٣٦- الظاهر : هو الظاهر بحججه الظاهرة ، وبراهينه النيرة الدالة على ثبوت ربوبيته وهو الذي ليس فوقه شيء حساً ومعنى ، له الغلبة والرِّفعة . وقد جاء في الحديث الصحيح : « وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء » رواه مسلم . ونقل الحافظ البيهقي في « الأسماء والصفات » ص (٤٠٠) أن بعض العلماء استدل بهذا الحديث على تنزيه الله عن المكان ، لأنه إذا لم يكن فوقه شيء ولا دونه شيء لم يكن في مكان ، وهو استدلال حسن جداً .

٣٧- الباطن : الذي لا يستولي عليه توهم الكيفية ، والباطن هو المطلع على ما بطن من الغيوب .

٣٨- الوالي : هو المالك للأشياء والمتولي لها ، وقد يكون بمعنى المنعم .

٣٩- المتعالي : هو المنزه عن صفات الخلق ، والعالي فوق خلقه بالقهر لا بالمكان .

٤٠- البر : المحسن إلى خلقه .

٤١- التواب : هو الذي يتوب على من يشاء من عباده ويقبل التوبة .

٤٢- المنتقم : هو المهلك لمن تمرد على عباده وطاعته ، والمهلك لمن ظلم الناس بغير حق .

٤٣- الرؤوف : هو الرحيم ، والرأفة شدة الرحمة .

٤٤- المقسط : هو العادل في حكمه .

٤٥- الجامع : هو الذي يجمع الخلائق يوم القيامة .

٤٦- النور : هو الهادي ، أي هادي عباده لنور الإيمان ، أو منور السموات والأرض ، ويجب اعتقاد أن الله تعالى ليس نوراً بمعنى الضوء لأن الضوء مخلوق ، والله تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ .

٤٧- البديع : هو الذي فطر الخلق مبدعاً لهم لا على مثال سابق .

٤٨- الرشيد : المرشد .

٤٩- الصبور : هو الذي لا يعاجل العصاة بالعقوبة .

٥٠- الرب : ومعناه السيد المالك .

٥١- الحنان : ذو الرحمة .

٥٢- المنان : كثير العطاء .

٥٣- البادئ : هو المبدي للأشياء .

٥٤- الأحد : الذي لا شبيه ولا نظير .

٥٥- الواحد : الذي لا شريك له ولا عديل .

٥٦- المولى : هو الناصر المعين .

٥٧- المبين : الظاهر الذي لا يخفى ولا ينكتم .

٥٨- المحيط : هو الذي أحاطت قدرته جميع المقدورات ، وأحاط علمه بجميع المعلومات ، وليست الإحاطة الجسمية كإحاطة الغلاف الجوي للأرض لأنه تعالى ليس جسماً ، ويكفر من اعتقد ذلك .

٥٩- الوتر : الفرد الذي لا ثاني ولا شبيه ولا نظير له سبحانه .

٦٠- الفاطر : الخالق .

٦١- العلام : أي صيغة مبالغة من عليم .

٦٢- الجميل : المجمل المحسن .

٦٣- الرفيع : الذي لا أحد أرفع منه . وقد ذكرنا هنا بعض الأسماء الحسنى ومعانيها لا على سبيل الاستقصاء وتركنا ذكر ما كان معناه واضحاً لا يحتاج إلى شرح وبيان كـ (الرحمن) و (الرحيم) و (الباقي) وأمثالها .

(فائدة) : وبعض الناس يزعم أنه لا يجوز إطلاق اسم (السَّتَّار) أو (الساتر) على الله تعالى ؛ وانما ينبغي أن يقول (ستير) وهذا التفريق لا معنى له ! والله أعلم(٢٦٥) .

---

(٢٦٥) ومن الغريب العجيب أن بعض المبتدعة من المتمسلفين المتنطعين يمنعون إطلاق اسم الستار على الله تعالى مع أن لفظ الستر ورد في أحاديث كثيرة مضافة إلى الله تعالى ، ومع ذلك نراهم يجيزون إطلاق الجسم والحد والجهة على الله تعالى وهي باطلة لفظاً ومعنى !! كما أنهم يغضون النظر عن قول إمامهم الحراني يجوز أن يكون العالم قديماً بالنوع حيث يجعل مع الله تعالى شريكاً في قدمه سبحانه !! فتأملوا يا أصحاب القلوب والأبصار !!

(**فائدة أخرى**) : يجوز إطلاق اسم (الصانع) على المولى سبحانه وتعالى ؛ فقد روى الإمام مسلم في « صحيحه » (٤/٢٠٦٣) عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« لا يقولن أحدكم : اللهم غفر لي إن شئت . اللهم ارحمني إن شئت . ليعزم في الدعاء . فإن الله صانع ما شاء ؛ لا مكره له » .

وأما حديث « إن الله صانع كل صانع وصنعته » فلم يثبت بهذا اللفظ ! إنما ورد بلفظ « إن الله خالق كل صانع وصنعته » رواه الحاكم (١/٣١) وغيره .

واعلم أن اسم العارف ليس من أسمائه سبحانه فلا ينبغي إطلاقه على المولى تعالى وإنما يقال عالم أو عليم أو علام فتنبه .

مباحث

النبويات والسمعيات

الإيمان بالملائكة

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ونؤمن بالملائكة ، ونؤمن بالكرام الكاتبين ، فإن الله قد جعلهم علينا حافظين ، ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين) .

الشرح :

يجب الإيمان بالملائكة لقوله تعالى ﴿ **عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ التحريم : ٦ .

وقال تعالى : ﴿ **من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين** ﴾ البقرة: ٩٨ .

وقال تعالى : ﴿ **الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير** ﴾ **فاطر : ١ .**

قال الإمام الحافظ البيهقي في « شعب الإيمان » (١/ ١٦٣) :

[والإيمان بالملائكة ينتظم في معاني :

أحدها : التصديق بوجودهم .

والآخر : إنزالهم منازلهم ، وإثبات أنهم عباد الله وخلقه كالإنس والجن مأمورون مكلفون لا يقدرون إلا على ما يقدرهم الله تعالى عليه ، والموت جائز عليهم ، ولكن الله تعالى جعل لهم أمداً بعيداً ، فلا يتوفاهم حتى يبلغوه ، ولا يوصفون بشيء يؤدي وصفهم به إلى إشراكهم بالله تعالى جده ، ولا يدعون آلهة كما ادعتهم الأوائل .

والثالث : الاعتراف بأن منهم رسل الله يرسلهم إلى ما يشاء من البشر .

وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض ، ويتبع ذلك الاعتراف بأن منهم حملة العرش ، ومنهم الصافون ، ومنهم خزنة الجنة ، ومنهم خزنة النار ، ومنهم كتبة الأعمال ، ومنهم الذين يسوقون السحاب ، وقد ورد القرآن بذلك كله أو بأكثره .

قال الله تعالى في الإيمان بهم خاصة :

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ البقرة : ٢٨٥ .

وروينا عن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين سئل عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله »] **قلت** : والحديث رواه مسلم (١/ ٣٧) .

ومن الأدلة على قول الحافظ البيهقي (وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض) حديث أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله إذا أحب عبداً دعى جبريل فقال : إني أحب فلاناً فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، قال : ثم يوضع له القبول في الأرض .... » الحديث رواه البخاري (١٠/ ٤٦١) ومسلم (٤/ ٢٠٣٠) واللفظ له .

فتكليف الله تعالى سيدنا جبريل بإبلاغ الملائكة محبة الله تعالى لأحد عباده هو من إرسال بعضهم إلى بعض .

الملائكة مخلوقون من نور :

جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٩٤) عن السيدة عائشة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجآن من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » .

وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٦/ ٣٠٦) :

[قال جمهور أهل الكلام من المسلمين : الملائكة أجسام لطيفة أعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة ومسكنها السموات ، وأبطلوا من قال إنها الكواكب أو أنها الأنفس الخيرة التي فارقت أجسادها وغير ذلك من الأقوال التي لا يوجد في الأدلة السمعية شيء منها . وقد جاء في صفة الملائكة وكثرتهم أحاديث : منها ما أخرجه مسلم عن عائشة مرفوعاً « خلقت الملائكة من نور » الحديث ، ومنها ما

أخرجه الترمذي وابن ماجه والبزار من حديث أبي ذر مرفوعاً « أطَّتْ السماء وحق لها أن تَئِطَّ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك ساجد »(٢٦٦) الحديث ، ومنها ما أخرجه الطبراني من حديث جابر مرفوعاً « ما في السماوات السبع موضع قَدَمٍ ولا شبر ولا كَفٌّ إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد » وللطبراني نحوه من حديث عائشة . وذكر في « ربيع الأبرار » عن سعيد بن المسيب قال الملائكة ليسوا ذكوراً ولا إناثاً ولا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون ولا يتوالدون ... وقدم المصنف - أي البخاري - ذكر الملائكة على الأنبياء لا لكونهم أفضل عنده بل لتقدمهم في الخلق ولسبق ذكرهم في القرآن في عدة آيات كقوله تعالى ﴿ **كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** ﴾ ، ﴿ **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله** ﴾ ، ﴿ **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين** ﴾ وقد وقع في حديث جابر الطويل عند مسلم في صفة الحج « ابدؤا بما بدأ الله به » ورواه النَّسَائي بصيغة الأمر « ابدأ بما بدأ الله به » ، ولأنهم وسائط بين الله وبين الرسل في تبليغ الوحي والشرائع فناسب أن يقدم الكلام فيهم على الأنبياء ، ولا يلزم من ذلك أن يكونوا أفضل من الأنبياء ، ومن أدلة كثرتهم ما يأتي في حديث الإسراء « إن البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون »] انتهى كلام الحافظ .

وروى البخاري (٦/ ٣٠٣) وغيره من حديث مالك بن صعصعة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في حديث الإسراء :

« فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل فقال : هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا لم يعودوا إليه .. » .

وفي البخاري أيضاً (٦/ ٣٠٤) عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إن الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قضي في السماء ، فتسترق

---

(٢٦٦) رواه الترمذي (٤/ ٥٥٦ برقم ٢٣١٢) وابن ماجه (٢/ ١٤٠٢) وغيرهما وهو حديث حسن .

الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكُهَّان ، فيكذبون منها مائة كِذْبَة من عند أنفسهم » .

وفي البخاري أيضاً في الموطن السابق عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد الملائكة يكتبون الأول فالأول ، فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذِّكْرَ » .

وفيه أيضاً : عن البراء رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لحسان : « اهجهم - أو هاجهم - وجبريل معك » .

وفيه أيضاً : عن عائشة رضي الله عنها : أن الحارث بن هشام سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم : كيف يأتيك الوحي ؟ قال : « كل ذلك . يأتيني الملك أحياناً في مثل صلصلة الجرس ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وهو أشدُّه علي ، ويتمثَّل لي الملك أحياناً رجلاً فيكلمني ، فأعي ما يقول » .

وفيه أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل : « ألا تزورنا أكثر مما تزورنا » قال : فنزلت ﴿ **وما نتنزَّل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا** ﴾ الآية .

وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٦/٣٠٨) : [وقد اشتملت أحاديث الباب على ذكر بعض من اشتهر من الملائكة كجبريل ، ووقع ذكره في أكثر أحاديثه ، وميكائيل وهو في حديث سَمُرَةَ وحده ، والملك الموكل بتصوير ابن آدم ، ومالك خازن النار ، وملك الجبال ، والملائكة الذين في كل سماء ، والملائكة الذين ينزلون في السحاب ، والملائكة الذين يدخلون البيت المعمور ، والملائكة الذين يكتبون الناس يوم الجمعة ، وخزنة الجنة والملائكة الذين يتعاقبون . ووقع ذكر الملائكة على العموم في كونهم لا يدخلون بيتاً فيه تصاوير ، وأنهم يؤمِّنون على قراءة المصلي ويقولون : ربنا ولك الحمد ؛ ويدعون لمنتظر الصلاة ، ويلعنون من هجرت فراش زوجها ، وما بعد الأول محتمل أن يكون المراد خاصاً منهم ، فأما جبريل فقد وصفه الله تعالى بأنه روح القدس وبأنه الروح الأمين وبأنه رسول كريم ذو قوة

مكين مطاع أمين ..... وروى الطبري عن أبي العالية قال : **جبريل من الكروبيين وهم سادة الملائكة** ، وروى الطبراني من حديث ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل « على أي شيء أنت ؟ قال على الريح والجنود ، قال وعلى أي شيء ميكائيل ؟ قال على النبات والقطر ، قال : وعلى أي شيء ملك الموت ؟ قال على قبض الأرواح » الحديث وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وقد ضُعِّفَ لسوء حفظه ولم يُتْرَك .

وروى الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعاً وزِيْدَ أي من أهل السماء جبريل وميكائيل الحديث . وفي الحديث الذي أخرجه الطبراني في كيفية خلق آدم ما يدل على أن خلق جبريل كان قبل خلق آدم ، وهو مقتضى عموم قوله تعالى **﴿ وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾** وفي التفسير أيضاً أنه يموت قبل موت ملك الموت بعد فناء العالم ، والله أعلم .

وأما ميكائيل فروى الطبراني عن أنس : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لجبريل : « مالي لم أر ميكائيل ضاحكاً ؟ قال : ما ضحك منذ خُلِقَتْ النار » وأما ملك التصوير فلم أقف على اسمه . وأما مالك خازن النار فيأتي ذكره في تفسير سورة الزخرف إن شاء الله تعالى ،

وأما ملك الجبال فلم أقف على اسمه أيضاً ، ومن مشاهير الملائكة إسرافيل ، ولم يقع له ذكر في أحاديث الباب ، وقد روى النقاش أنه أول من سجد من الملائكة فجوزي بولاية اللوح المحفوظ ، وروى الطبراني من حديث ابن عباس أنه الذي نزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فخيره بين أن يكون نبياً عبداً أو نبياً ملكاً ، فأشار إليه جبريل أن تواضع ، فاختار أن يكون نبياً عبداً ، وروى أحمد والترمذي عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كيف أَنْعُمُ وصاحب القَرْن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له » الحديث ، وقد اشتمل « كتاب العظمة لأبي الشيخ » من ذكر الملائكة على أحاديث وآثار كثيرة فليطلبها منه من أراد الوقوف على ذلك ، وفيه عن علي أنه ذكر الملائكة فقال « منهم الأمناء على وحيه ، والحفظة لعباده ، والسدنة لجنانه ، والثابتة في

الأرض السفلى أقدامهم ، المارقة من السماء العليا أعناقهم ، الخارجة عن الأقطار أكنافهم ، الماسة لقوائم العرش أكتافهم »] انتهى .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أُذِنَ لي أن أُحَدِّثَ عن مَلَكٍ قد مرقت رجلاه الأرض السابعة ، والعرش على منكبه وهو يقول : سبحانك أين كنت وأين تكون » . رواه أبو يعلى (١١/٤٩٦ برقم ٦٦١٩) بسند صحيح .

ومن أراد التوسع في معرفة الأحاديث والآثار الواردة في الملائكة فعليه بكتاب الحافظ السيوطي المسمى بـ « الحبائك في أخبار الملائك » بتحقيق الإمام المحدث سيدي عبد الله ابن الصديق(٢٦٧) .

قلت : وقد ذكر في القرآن الكريم بعض الملائكة أيضاً . كالكرام الكاتبين في قوله تعالى ﴿ **وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون** ﴾ الانفطار: ١٢. وقال تعالى : ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكِّلَ بكم ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾ السجدة : ١١ .

---

(٢٦٧) وقد سرق أحد مَنْ يدعي التحقيق في هذه الأيام وهو المسمي نفسه بخادم السنة المطهرة (!!) « أبو هاجر محمد سعيد بسيوني زغلول » تعليقات سيدي عبد الله ابن الصديق بل ومقدمته على ذلك الكتاب فطبعها باسمه على أنها من تحقيقه !! وتقديمه !! فاسمع واعجب من هؤلاء الظالمين !! السارقين !!

قصة هاروت وماروت وما يتعلق بها

لقد وردت قصة هاروت وماروت في القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ واتَّبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ البقرة : ١٠٢ .

لقد تضاربت أقوال أهل العلم من المفسرين وغيرهم في تفسير هذه الآية واختلفوا فيها اختلافاً بيناً ، والذي يهمنا هنا أن نستخلص القول الصحيح المعتمد من أقوالهم الذي يوافق قواعد الشريعة الناصة على عصمة الملائكة وأنهم لا يعصون الله تعالى ونثبته ، وننبه على قصة الزُّهْرَة التي نعتقد بطلانها وعدم صحتها بذكر الأدلة وبالله تعالى التوفيق .

التفسير الصحيح للآية الكريمة :

﴿ واتبعوا ﴾ أي اليهود لأن سياق الآيات قبلها وبعدها يتحدث عن اليهود بشكل عام **﴿ ما تتلوا الشياطين ﴾** أي ما تعلّمه الشياطين للناس المشتغلين بالسحر **﴿ على ملك سليمان ﴾** أي على عهد سيدنا سليمان وزمنه عندما كان ملكاً ، حيث فشا وانتشر عمل السحر بين اليهود في زمنه وكانوا يأخذون ذلك من الجن والشياطين ، « وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع(٢٦٨) ويضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ثم يلقونها إلى الكهنة ، وقد دوَّنوها في كتب يقرؤونها

---

(٢٦٨) والدليل عليه قوله تعالى **﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ... ﴾** وما رواه البخاري (٦/ ٣٠٤) وغيره عن السيدة عائشة مرفوعاً : « إن الملائكة تنزل في السحاب فتذكر الأمر قضي في السماء ، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان ، فيكذبون منها مائة كذبة من عند أنفسهم » .

ويعلمونها الناس ، وفشا ذلك في زمن سيدنا سليمان عليه السلام ، حتى قالوا : إن الجن تعلم الغيب ، وكانوا يقولون هذا – السحر الذي يتعلمونه هو – علم سليمان ، وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم ، فاتبعوا كتب السحر ورفضوا كتب الأنبياء »(٢٦٩) فرد الله عليهم قولهم هذا فقال :

﴿ **وما كفر سليمان** ﴾ لأنه لم يكن يعلم السحر فبرأه الله تعالى مما رموه به ﴿ **ولكن الشياطين** ﴾ هم الذين ﴿ **كفروا** ﴾ حيث يعلمون الناس السحر ليعملوا به . وقصدون بذلك إضلال الناس وإغواءهم ﴿ **و** ﴾ من السحر الذي يُعَلّمه الشياطين للناس ﴿ **ما** ﴾ أي السحر الذي ﴿ **أنزل على الملكين** ﴾ أي أرسلا لِيُعَرِّفا الناس بحقيقته ويجعلا الناس يميزون بينه وبين السحر في بلدة ﴿ **بابل** ﴾ التي بالعراق ، لأن هذه البلدة هي ومصر كان أهلهما من أكثر الناس استعمالاً للسحر وأكثرهم عملاً به وترويجاً له ، فبعث الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام إلى مصر فأبطل سحرهم بعصاه ، وبعث في قرية بابل ﴿ **هاروت وماروت** ﴾ ليعلما ويعرفا الناس بحقيقة السحر والفرق بينه وبين معجزات الأنبياء ﴿ **وما** ﴾ كانا ﴿ **يعلّمان من أحد** ﴾ في ذلك الزمان ﴿ **حتى** ﴾ ينصحاه قبل تعليمهما له و ﴿ **يقولا له إنما نحن فتنة** ﴾ أي أرسلنا الله تعالى ابتلاء واختباراً وامتحاناً للعباد ؛ فإياك أن تعمل بذلك السحر الذي نعرفك حقيقته بعد أن تعلمه ﴿ **فلا تكفر** ﴾ لأن السحر مبنيٌّ أكثره على الكفر ولا يتم إلا به ، ﴿ **و** ﴾ كان الناس إذ ذاك في بابل ﴿ **يتعلمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه** ﴾ لأن الله تعالى أراد أن يجعل للعباد اختباراً وامتحاناً كما أنه جعل هذه الدنيا بأسرها دار امتحان وبلاء للثقلين الإنس والجن وهو سبحانه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ، فالملكان لم يأتهما أحد فيقول لهما أريد أن أفرِّق بين الزوجين الفلانيين ، وإنما كان مَنْ يتعلم السحر منهما يستعمله بعد أن يذهب من عندهما في هذه الأمور المحرمة المنكرة مثل التفريق بين الزوجين ،

---

(٢٦٩) ما بين القوسين نقلته من كلام سيدي عبد الله بن الصديق من كتابه « بدع التفاسير » ص (١٧) . وقد أخذت بعض الكلام في تفسير هذه الآية منه مستفيداً ومعترفاً له بفضله عليَّ جزاه الله عنا خير الجزاء وأعلى درجته .

وقد بين الله تعالى أن هذا السحر لا يؤثر بنفسه وإنما يؤثر بخلق الله تعالى عند فعله وأحياناً لا يؤثر هذا العمل ولا يحصل منه أي تأثير لقوله تعالى ﴿ **وما هم** ﴾(٢٧٠) أي اليهود والسحرة لا الملكان لأنهما ليسا بساحرين إنما هما يحذران من العمل بالسحر ﴿ **بضآرين به من أحد إلا بإذن الله** ﴾ أي إلا بمشيئة الله وإرادته ، ﴿ **و** ﴾ إن هؤلاء اليهود والسحرة ﴿ **يتعلمون** ﴾ السحر ليعملوا به فيضروا الناس ويكفروا بالله تعالى وهذا ﴿ **ما يضرهم ولا ينفعهم** ﴾ لو كانوا يعلمون ويَصْحَون من رقدتهم ﴿ **ولقد علموا** ﴾ هؤلاء اليهود والسحرة ﴿ **لمن** ﴾ أي أن الذي ﴿ **اشتراه** ﴾ أي السحر واختاره واستبدله بكتب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ **ما له في الآخرة** ﴾ عند الله ﴿ **من خلاق** ﴾ أي نصيب وحظ ، فهم يومئذ كفار من أهل النار ﴿ **ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** ﴾ حقيقة ما سيصيرون إليه من العذاب لأجل السحر ، والله تعالى أعلم .

وهناك قول ثان في تفسير هذه الآية ذكره الإمام القرطبي في تفسيره (٢/ ٥٠) **واعتمده وهو قوله هناك :**

[**الخامسة عشرة : قوله تعالى ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾** « ما » نفي ؛ والواو للعطف على قوله « وما كفر سليمان » وذلك أن اليهود قالوا إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر ، فنفى الله ذلك . وفي الكلام تقديم وتأخير ، التقدير وما كفر سليمان ، وما أنزل على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فهاروت وماروت بدل من الشياطين في قوله ﴿ **ولكن الشياطين كفروا** ﴾ . هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل ، وأصح ما قيل فيها ولا يلتفت إلى سواه] **انتهى كلامه وهو جيد حسن ومُقَدَّمٌ على ما ذكرناه من التفسير .**

نصوص بعض الأحاديث الواردة في قصة هاروت وماروت :

١ – عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(٢٧٠) انتبه لقوله تعالى (هم) ولم يقل (هما) أي اليهود السحرة لا الملكان ، ولا تغفل عن ذلك !

يقول : « إن آدم عليه السلام لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة أي ربنا **﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾** قالوا : ربنا نحن أطوع لك من بني آدم قال الله تعالى للملائكة : هلموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض فننظر كيف يعملان ؛ قالوا : ربنا هاروت وماروت ؛ فأُهبطا إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر ، فجاءتهما فسألاها نفسها ، فقالت : لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك فقالا : لا والله لا نشرك بالله شيئاً أبداً ، فذهبت عنهما ثم رجعت بصبي تحمله فسألاها نفسها فقالت : لا والله حتى تقتلا هذا الصبي ؛ فقال : لا والله لا نقتله أبداً ، فذهبت ثم رجعت بقدح خمر تحمله ، فسألاها نفسها ، فقالت : لا والله حتى تشربا هذا الخمر ، فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبي فما أفاقا ، قالت المرأة : والله ما تركتما شيئاً أبيتماه عليَّ إلا قد فعلتماه حين سكرتما . فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا » .

رواه أحمد بن حنبل في « مسنده » (٢/ ١٣٤) وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٦٤) وغيرهما وهو ضعيف الإسناد منكر المتن ، وهو موضوع عندي لأن الشرك لا يقع من الملائكة ويلزم ذلك إن صح الحديث أن منهم من يدخل النار فيتعذب !! وكل ذلك باطل .

٢- وعن نافع قال : سافرت مع ابن عمر فلما كان آخر الليل ، قال : انظر هل طلعت الحمراء ؟ قلت : لا مرتين أو ثلاثاً ، ثم قلت : قد طلعت ، قال : لا مرحباً بها ولا أهلاً ، قلت : سبحان الله !! نجم ساطع مطيع ، قال : ما قلت إلا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« إن الملائكة قالت : يا رب كيف صبرك على بني آدم في الخطايا والذنوب قال : إني ابتليتهم وعافيتكم ، قالوا : لو كنا مكانهم ما عصيناك ، قال فاختاروا مَلَكين منكم ، فلم يألوا جهداً أن يختاروا فاختاروا هاروت وماروت ، فنزلا فألقى الله تعالى عليهم الشبق ـ بفتح الشين والباء ـ قلت : وما الشبق ؟ قال : الشهوة

فجاءت امرأة يقال لها الزهرة ، فوقعت في قلوبهما فجعل كل واحد منهما يخفي عن صاحبه ما في نفسه ، ثم قال أحدهم للآخر : هل وقع في نفسك ما وقع في قلبي ؟ قال : نعم ، فطلباها لأنفسهما ، فقالت : لا أمكنكما ، حتى تعلماني الاسم الذي تعرجان به إلى السماء وتهبطان ، فأبيا ، ثم سألاها أيضاً فأبت ، ففعلا . فلما استطيرت طمسها الله كوكباً ، وقطع أجنحتهما ثم سألا التوبة من ربهما ، فخيرهما فقال : إن شئتما رددتكما إلى ما كنتما عليه، فإذا كان يوم القيامة عذبتكما وإن شئتما عذبتكما في الدنيا فإذا كان يوم القيامة رددتكما إلى ما كنتما عليه ؛ فقال أحدهما لصاحبه : إن عذاب الدنيا ينقطع ويزول ، فاختار عذاب الدنيا على عذاب الآخرة ، فأوحى الله إليهما أن ائتيا بابل ، فانطلقا إلى بابل فخسف بهما فهما منكوسان بين السماء والأرض معذبان إلى يوم القيامة » .

قال سيدي عبد الله ابن الصديق : رواه سنيد بن داود في تفسيره ، وعنه ابن جرير في تفسيره أيضاً انتهى .

قلت : وهو موضوع بلا شك .

نقد هذه القصة وبيان بطلانها :

قال سيدي عبد الله ابن الصديق في رسالة خاصة ألفها في هذا الموضوع مطبوعة بذيل كتابه « قصة سيدنا إدريس عليه السلام » ص (٢٧) ما نصه :

[اختلفت أنظار الحفاظ في هذه القصة اختلافاً متبايناً ، فأنكرها البيهقي وابن العربي المعافري وعياض والمنذري ، وذكرها ابن الجوزي في الموضوعات ، ومال إلى إثباتها ابن جرير في التفسير وأكثر من تخريج طرقها وأغلبها موقوفات ، وجاء الحافظ ابن حجر فجمع ما رواه ابن جرير وضم إليه بعض الطرق الأخرى فأوصلها إلى بضعة عشر طريقاً جمعها في جزء مفرد ، وقال في « القول المسدد » : « وله - يعني حديث ابن عمر الذي حكم بوضعه ابن الجوزي - طرق كثيرة جمعتها في جزء مفرد يكاد الواقف عليه أن يقطع بوقوع هذه القصة ، لكثرة الطرق الواردة فيها وقوة مخارج أكثرها والله أعلم » انتهى .

وتتبع الحافظ السيوطي طرقها في التفسير المسند وفي الدر المنثور فأوصلها إلى

نيف وعشرين طريقاً أغلبها ضعيف أو واه .

وقد تتبعت طرقها المشار إليها وأعملت فيها فكري ، فوجدتها قصة شاذة منكرة المعنى ، تخالف القرآن والسنة وقواعد العلم ، هذا إلى تضارب ألفاظها ورواياتها وليس فيها حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صحيح سالم من علة ، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسُّدِّي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين ، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها ، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال] انتهى .

ثم قال سيدي الإمام عبد الله ابن الصديق الغماري أعلى الله تعالى درجته ص (٤١) :

[**(الأول)** : ذُكِرَ في الحديث الأول أن الملائكة قالوا حين أهبط آدم إلى الأرض ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾ والقرآن يفيد أن هذا القول صدر منهم قبل خلق سيدنا آدم .

(الثاني) : أفادت معظم طرق القصة أن المرأة حين عرجت إلى السماء مسخت نجماً وهي كوكب الزهرة أحد الكواكب .... السيارة ، وهذا يخالف المعقول والمنقول ، فإن الله خلق السموات والكواكب والشهب قبل خلق آدم بآلاف السنين ، قال الله تعالى ﴿ **ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح** ﴾ وقال جل شأنه ﴿ **فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ .

(الثالث) : أن الله تعالى ذكر الملائكة في القرآن أكثر من ثمانين مرة ، يثني عليهم في كل مرة بالطاعة والتسبيح وغير ذلك ، نحو ﴿ **لن يستنكف المسيح أن**

يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ ، **﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مُكْرَمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾** ، **﴿ بأيدي سفرة كرام بررة ﴾** ، **﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين ﴾** ، **﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾** ويلاحظ في هذه الآية ترتيب طاعتهم على كونهم ملائكة ، فيجب تعميم وصفهم بالطاعة لا خصوص خزنة النار ، ولم يجيء في القرآن قط وصف ملك بتقصير أو توجيه عتاب إليه ، والسنة المتواترة على نمط القرآن في الثناء عليهم والتنويه بقدرهم ، وحديث هاروت وماروت يخالف القرآن والسنة في هذه الناحية ، فيكون منكراً شاذاً يجب رده ولو صح سنده .

(الرابع) : أن الملائكة معصومون لا يجوز في حقهم أن يراجعوا الله فيقولوا : نحن أطوع لك من بني آدم ، لو كنا مكانهم ما عصيناك . ثم ينتقلون من المراجعة القولية إلى المراجعة الفعلية فيختارون ملكين ينزلان إلى الأرض ولماذا ؟!! ليثبتا لله أنهما أطوع له من بني آدم !! نعم لا يجوز في حقهم هذا ، كيف والله يقول في حقهم **﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾** .

(الخامس) : أفاد الحديث الثالث أنهما سجدا للصنم ، وهذا شرك لا يحصل من الملائكة ، فإن الإجماع منعقد على عصمة الأنبياء والملائكة من الشرك .

(السادس) : ذكر الحديث الثاني والثالث أن الله ألقى عليهما الشهوة فوقعا في المعصية ، وهذا مبنى على ما يفهمه كثير من الناس : أن عدم وقوع المعصية من الملائكة ، لعدم وجود الشهوة عندهم ، والواقع أن عدم وقوع المعصية منهم لعصمتهم منها ، والعصمة صفة قائمة بالعبد تمنعه من الوقوع في المعاصي مع بقاء التكليف والاختيار ، فالمعصوم لا تحصل منه معصية سواء أَوُجِدَتْ عنده الشهوة أم لا ، ألا ترى إلى الأنبياء عليهم السلام عندهم شهوة الأكل والشرب والجماع ، وهم مع ذلك معصومون لا يعصون الله أبداً ، فالملائكة مثلهم سواء بسواء] . انتهى مختصراً ، وليراجع الرسالة من شاء الاستزادة .

الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ونؤمن بالملائكة والنبيين والكتب المنزلة على المرسلين ، ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين ، لا نفرق بين أحد من رسله ونصدقهم كلهم على ما جاؤوا به ، ونقول أن الله اتخذ إبراهيم خليلاً ، وكلم موسى تكليماً ، إيماناً وتصديقاً وتسليماً).

الشرح :

قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾ البقرة: ١٣٦ ، وقال تعالى : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه** ﴾ البقرة : ٢١٣ .

وقال تعالى : ﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وءاتينا داود زبوراً * ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً** ﴾ النساء : ١٦٤ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « عرضت عليَّ الأمم فأخذ النبي يمر معه الأمة ، والنبي يمر معه النفر ، والنبي يمر معه العشرة ، والنبي يمر معه الخمسة ، والنبي يمر وحده ... » الحديث رواه البخاري (١١/ ٤٠٥) وغيره .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أنا أول شفيع في الجنة ، لم يُصَدَّق نبي من الأنبياء ما صُدِّقت ، وإن من الأنبياء نبي

ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد » رواه مسلم في « الصحيح » (١/ ١٨٨) .

تعريف النبي والرسول :

قال الإمام البيهقي في « شعب الإيمان » (١/ ١٥٠) :

« النبوة اسم مشتق من النبأ ، وهو الخبر إلا أن المراد به في هذا الموضع خبر خاص وهو الذي يكرم الله عز وجل به أحداً من عباده فيميزه عن غيره بإلقائه إليه ، ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمر ونهي ، ووعظ وإرشاد » انتهى .

فالرسول : هو إنسان أوحي إليه بشرع جديد أو ناسخ لبعض شريعة من سبقه وأُمِرَ بتبليغ هذا الشرع .

والنبي : هو إنسان أوحي إليه لا بشرع جديد وإنما بشرع أحد الرسل ، وأمر بتبليغه .

وكل منهما ينبغي أن يقال أيضاً في تعريفه : هو إنسان ذكر حر خال من مُنَفِّرٍ طبعاً (أي غير مريض بعاهة خَلْقِيَّة أو خُلُقِيَّة تجعل غيره ينفر منه).

فالرسول أعلى رتبة من النبي ، وقبل أن يصل إلى مرتبة رسول يمر بمرتبة نبي ، فعلى هذا كل رسول نبي ، فسيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم نبي ورسول ، وكذلك سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى وسيدنا عيسى وباقي الأنبياء المذكورين بأسمائهم في القرآن منهم النبي ومنهم الرسول النبي .

وذهب بعض الناس إلى أن النبي هو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه ، وبعضهم قال : سواء أمر بتبليغه أم لا ، وبعضهم قال : لم يؤمر بالتبليغ ولكن يُعْلِمُ الناسَ بأنه نبي لِيُحْتَرَم !! وكل ذلك خطأ محض ، لأنه مخالف لقوله تعالى ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته** ﴾ الحج : ٥٢ ، وقال تعالى : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** ﴾ البقرة ٢١٣ وقوله تعالى ﴿ **وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون** ﴾ الأعراف : ٩٤.

وذهب قوم أيضاً إلى أنه لا فرق بين النبي والرسول وهو قول يلي ما اعتمدناه في الصحة من ناحية القوة إلا أن التفريق هو الصواب لقوله تعالى ﴿ **إنا أنزلنا**

التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ المائدة : ٤٤ أي لليهود .

فانظر كيف بعث الله تعالى أولئك النبيين وهم (أنبياء بني إسرائيل) بكتاب سيدنا موسى التوراة ، فهم لم يأتوا بشرع جديد وإنما أتوا لتقرير شريعة سيدنا موسى ودعوا الناس إليها .

وسيدنا هارون كان نبياً تابعاً لأخيه سيدنا موسى عليهما السلام لقوله تعالى : ﴿ **واذكر في الكتاب موسى إنه كان مُخلَصاً وكان رسولاً نبياً * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً * ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً** ﴾ مريم : ٥٣ ، فنص سبحانه على أن سيدنا موسى كان نبياً ورسولاً وأن سيدنا هارون كان نبياً يساعده في الدعوة ، عليهما السلام ، فسيدنا هارون لم يكن رسولاً بشريعة مستقلة ، والدليل على ذلك أيضاً أنه كان خليفة سيدنا موسى في أموره لقوله تعالى حكاية عن سيدنا موسى أنه قال ﴿ **واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري** ﴾ طه : ٣٢ **وقال تعالى** : ﴿ **وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين** ﴾ الأعراف : ١٤٢ **وقال تعالى** ﴿ **ولقد ءاتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً** ﴾ الفرقان : ٣٥ **وقوله تعالى أن سيدنا موسى قال** : ﴿ **يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألا تتبعن * أفعصيت أمري * قال يا ابن أمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي** ﴾ طه : ٩٤ .

وأما قوله تعالى لسيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام : ﴿ **فأتياه فقولا إنا رسول ربك فأرسل معنا بين إسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى** ﴾ طه : ٢٠ ، فمعناه أي إن الله تعالى قد أرسلنا إليك نحن الاثنين ؛ فأحدنا رسول والآخر نبي ؛ وكل منا مأمور بالتبليغ ، فالمعنى مأخوذ من الإرسال لا أن كلاً منهما رسول فافهم ، والله الموفق .

وقد اتضح من هذا جيداً الفرق بين النبي والرسول وأن كلا منهما مأمور بالتبليغ عن الله تعالى ، وتبين خطأ من قال إنهما شيء واحد ، كما تبين خطأ من

قال إن النبي لم يؤمر بالتبليغ !!

فإذا كان العلماء مأمورين بالتبليغ فما بالك بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟!! ثم لا يكون الأنبياء إلا من الرجال لقوله تعالى ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم** ﴾ وقد ذُكِرَتْ هذه العبارة في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم في سورة يوسف : ١٠٩ وسورة النحل : ٤٣ . والأنبياء ٧ ، تأكيداً في هذا الموضوع على ما قلناه ، وما سوى هذا ضعيف مردود .

وقال صاحب منظومة بدء الأمالي :

وما كانت نبياً قط أنثى ولا عبد وشخص ذو اختبال

مسألة أولي العزم من الرسل : الأصل في هذه القضية قوله تعلى ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ الأحقاف : ٣٥ ، لكنها لا تفيد على وجه القطع أن في الرسل من هم من أولي العزم ومنهم من ليس من أولي العزم لأنها تحتمل أن الجميع من أولي العزم . وقد استثنى بعض أهل العلم سيدنا آدم بأنه ليس من أولي العزم لظاهر قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ طه : ١١٥ لكنها لا تفيد أنه ليس من أولي العزم على القطع لاحتمال أن يكون ساعة أكله من الشجرة لا عزم له على الصبر عن هذا الأمر وهذا قبل النبوة .

وأما دليل من قال بأن أولي العزم من الرسل خمسة فقوله تعالى ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ لأنهم خصوا بالذِّكْر في هذه الآية الكريمة ، والله تعالى أعلم .

سيدنا آدم صلى الله عليه وسلم أول الأنبياء والرسل :

واعلم أن سيدنا آدم عليه السلام أول الرسل والأنبياء ولا شك في ذلك وهو مقطوع به عندنا لقوله تعالى ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين** ﴾ آل عمران : ٣٣ ، يعني الأنبياء من آل إبراهيم وآل عمران ، وقال تعالى ﴿ **ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى** ﴾ طه : ١٢٢ . والاجتباء إذا وصف به إنسان بمفرده في القرآن دل على نبوته ومنه قوله تعالى في سيدنا يونس عليه السلام : ﴿ **لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم * فاجتباه**

ربه فجعله من الصالحين ﴾ القلم : ٥٠ .

ومن دلائل نبوته عليه السلام أيضاً قوله تعالى **﴿ وعلَّم آدم الأسماء كلها ﴾** البقرة : ٣١ ، وقوله تعالى **﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ﴾** البقرة : ٣٣ ، وقوله تعالى **﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً ﴾** طه : ١١٥ .

وهذه أدلة من القرآن دالة على نبوته صراحة ، ومن الأدلة ما يدل على نبوته استنباطاً ومنها : قوله تعالى **﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾**(٢٧١) فاطر : ٢٤ .

ويقتضي هذا أن الله تعالى لا يترك الناس بلا دالٍّ يدلهم على الله وعلى شرعه وعلى أمره ونهيه فمحال أن يبقى الناس بلا أنبياء من زمن سيدنا آدم إلى زمن سيدنا نوح بلا رسول ، وهذا يدل على أن سيدنا آدم هو أول الأنبياء والمرسلين .

وأما الاستدلال على ذلك من الحديث : فعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله أنبي كان آدم ؟ قال : نعم . رواه ابن حبان في « صحيحه » (١٤/ ٦٩) ، والطبراني في معجمه الكبير (٨/ ١٣٩-١٤٠) بإسناد صحيح(٢٧٢) .

---

(٢٧١) وانتبه هنا إلى أمر مهم جداً وهو : أن الأصل في كل أمة خلت قبل مبعث سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد أتاهم نذير أي نبي أو وصلت إليهم دعوى نبي إلا مَنْ استثناهم الله تعالى وهم قوم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين قال الله فيهم **﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾** القصص : ٤٦ وقال فيهم أيضاً **﴿ بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾** السجدة ٣ ، وقال سبحانه فيهم أيضاً **﴿ وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾** سبأ : ٤٤ . فأعرف ذلك ولا تغفل عنه !!

(٢٧٢) ومما يجدر التنبيه عليه هنا أن الشيخ المتناقض ! صحح في تخريج المشكاة (٣/ ١٥٩٩برقم٥٧٣٧) حديث : أن سيدنا آدم عليه السلام أول الأنبياء . حيث قال التبريزي في تلك الصحيفة عن آخر ثلاثة أحاديث فيها : « روى الأحاديث الثلاثة أحمد » . فعلق على كلامه المتناقض في الحاشية !! قائلاً : « وهي صحيحة » . ثم إنه في سلسلته الصحيحة (٢/ ٢٨٠برقم١٢٨٩) صحح حديث « أول نبي أرسل نوح » مع ان في سنده رجل متروك باعترافه وهو إبراهيم بن الفضل !! ثم صححه بالشاهد وهو حديث الصحيحين الذي ذكرناه ، مع أن المتروك الحديث لا يصح حديثه بالشواهد لأن هذا المتناقض يخالف هذا الصنيع في كثير من كتبه ، ثم هو لم ينبه على الجمع بين كون سيدنا آدم أول الرسل وبين ما ورد من كون سيدنا نوح أول الرسل إلى الناس بعدما حصل الكفر في الأرض !!

فإن قال قائل : أيقنًا أنه عليه السلام نبي ولكنه ليس برسول !!

قلنا في جوابه : هذا محال لأنه لا يوجد قبله رسول ولا نبي فهو صاحب شريعة مستقلة فوجب أن يكون رسولاً وهذا ظاهر .

إذا علمت هذا وعرفت أن سيدنا آدم عليه السلام أول الرسل والأنبياء فينبغي لنا الآن أن نناقش الحديث الذي فيه : إن سيدنا نوحاً أول الرسل إلى أهل الأرض . وهو في الصحيحين فنقول :

وقع في بعض روايات حديث الشفاعة في الصحيحين أن الناس يذهبون لسيدنا نوح ليتوسلوا به إلى الله تعالى فيقولون له : « يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض » [انظر البخاري ٦/ ٣٧١ ومسلم ١/ ١٨٥] ووقع أيضاً في صحيح مسلم (١/ ١٨٠) « ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله » . فكيف نجيب عن التعارض بين هاتين القضيتين في أن سيدنا آدم أول الرسل وبين الحديث الناص على أن سيدنا نوحاً عليه السلام أول الرسل ؟!

الجواب : إما : أن يقال إن اللفظ الواقع في الصحيحين هو من زيادات الرواة وتصرفهم ؛ وبالتالي ليس هو من كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم لثبوت نبوة سيدنا آدم في الكتاب والسنة . **وإما** : أن يجمع بين الحديثين فيقال إن سيدنا نوحاً عليه السلام أول الرسل إلى أهل الأرض من الكفار وأما مَنْ قبله من الأنبياء والمرسلين فلم يكن الكفر قد حدث فيهم ، وقد رأيت الإمام النووي رحمه الله تعالى قد تعرض لهذا وذكره في « شرح صحيح مسلم » (٣/ ٥٥) أثناء كلام له في شرح حديث الشفاعة حيث قال هناك : « فإن آدم إنما أرسل لبنيه ولم يكونوا كفاراً بل أُمِرَ بتعليمهم الإيمان وطاعة الله تعالى ، وكذلك خَلَفَهُ شيث بعده فيهم ؛ بخلاف رسالة نوح إلى كفار أهل الأرض .. »[٢٧٣] هذا كلامه .

ويستأنس له بما رواه ابن سعد في « الطبقات » (١/ ٤٢) بسند صحيح عن عكرمة مولى سيدنا ابن عباس قال : « كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على

---

[٢٧٣] وهناك تأويل آخر للحديث ذكره الإمام الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (١٤/ ٣٨٦) فارجع اليه إن اردت التوسع ، لكنه غير مسوغ عندي والله أعلم .

الإسلام » .

عدد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام :

ذكر في القرآن الكريم أسماء خمسة وعشرين من النبيين والمرسلين وقد نظم أسماءهم كثير من العلماء من ذلك ما حدثني به شيخي العالم الفاضل محمد هليِّل(٢٧٤) شفاهاً ودونته من فمه قال :

أسماء رسل الله صفوة البشر   آدم إدريس ونوح يستطر
هود وصالح لوط الخليل   ونجله أي ابنه اسماعيل
إسحاق يعقوب ويوسف تلا   له شعيب وهارون انجلا
يليه موسى وداود وابنه   أعنى سليمان الذي تقله
ريح السماء غدوة رواحا   ولم يزل في سيرها مرتاحا
أيوب ذو الكفل ويونس تلا   إلياس واليسع يا من عقلا
ويحيى ثم زكريا عيسى   محمد خاتم المرسلين ليسا
يجيء بعده من مرسل يرى   والقول في ذلك كذب وافترى
نظمتهم بحسب الإرسال   مرتباً لهم على التوالي
عليهم الصلاة والسلام   ما عاقبت لياليها الأيام

وكل الأنبياء من ذرية سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام إلا ثمانية نظمهم بعضهم كما سمعته من شيخي المذكور أيضاً حيث قال لي :

وعنه حاد آدم شيث الوصي   إدريس نوح هود يونس يصي
لوط وصالح فهم ثمان   حادوا عن الخليل واستبانوا

وقد ورد في حديث ضعيف أن عدد الرسل (٣١٥) والأنبياء (١٢٤٠٠٠) وهذا بعيد ، فعن أبى ذر رضي الله عنه قال : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ فقال

---

(٢٧٤) وقد توفي رحمه الله تعالى مساء الجمعة (٢٤ ذو الحجة / ١٤١٤هـ الموافق ٤/ ٦/ ١٩٩٤) عن نحو سبعين سنة وقد دفن يوم السبت في قرية البنيات وهي بلدته الواقعة جنوب عمان رحمه الله تعالى .

« مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » فقال : كم المرسلون منهم ؟ قال : « ثلاثمائة وخمسة عشر ، جماً غفيراً » . رواه أحمد وغيره وهو ضعيف إن لم يكن موضوعاً(٢٧٥) .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله أنبي كان آدم ؟ قال : « نعم » قال كم كان بينه وبين نوح ؟ « قال عشرة قرون » قال : كم كان بين نوح وإبراهيم ؟ قال : « عشرة قرون » قال : يا رسول الله كم كانت الرسل ؟ قال : « ثلاثمائة وثلاثة عشر » رواه الطبراني وهو صحيح(٢٧٦) .

فالظاهر أن هذا الحديث هو الصواب في مجموع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام والله تعالى أعلم ، وهناك بعض الأحاديث الأخرى في عدد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولكنها ضعيفة .

صفات الرسل والأنبياء وما يجب في حقهم :

اعلم يرحمك الله تعالى أن الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام متصفين بصفات النبوة التي يستحيل أن يتصفوا بضدها وهي الأمانة والصدق والفطانة وتبليغ جميع ما أمروا بتبليغه وعصمتهم من مقارفة الذنوب والفسق وأخلاق السفهاء ونحوهم .

[الصفة الأولى] : صفة العصمة :

للعلماء عدة تعاريف للعصمة وهي متقاربة أو متحدة في المعنى ، وأحسنها : أن العصمة ملكة نفسية يمنع الله تعالى بها نبيه من الفجور ، فتكون معناها على هذا هو : حفظ ظواهرهم وبواطنهم عليهم الصلاة والسلام من

---

(٢٧٥) رواه احمد في المسند (٥/ ٢٦٥-٢٦٦) والبزار (١/ ٩٣ كشف الأستار) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٥٨-٢٥٩) وابن حبان في صحيحه (٢/ ٧٧) والبيهقي في السنن (٩/ ٤) وهو ضعيف ، انظر « مجمع الزوائد » (١/ ١٥٩) للحافظ الهيثمي ، و « المطالب العالية » (٣/ ٢٦٩) للحافظ ابن حجر .

(٢٧٦) رجاله رجال مسلم الا شيخ الطبراني أحمد بن خليل الحلبي وهو ثقة كما قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٨/ ٢١٠) ، وقال عنه الذهبي في السير (١٣/ ٤٨٩) : « ما علمت به بأساً » ولذلك قال ابن كثير في البداية (١/ ١٠١) : « وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه » .

التلبس بالكفر والمعاصي وما نهى الله تعالى عنه(٢٧٧) .

وعلى التحقيق يقال : هم معصومون من الكبائر والصغائر التي فيها خسة ودناءة قبل النبوة وبعدها(٢٧٨) ؛ ويجوز أن يقعوا في الصغائر التي لا خسة فيها عند بعض العلماء ؛ والتحقيق أن ذلك لا يقع بعد النبوة(٢٧٩) ، والله تعالى يتولى تنشئتهم على الأخلاق الفاضلة الحميدة ، فسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً ؛ كان مشهوراً بين قومه عند أهل مكة وغيرها بالصادق الأمين ، وكانوا يرضونه محكماً بينهم في تنازعاتهم كما هو معروف ومشهور .

فمما ورد في ثبوت عصمتهم قوله تعالى على وجه العموم ﴿ **كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ الصف : ٢٣ ، **وقوله تعالى** ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** ﴾ البقرة : ٤٤ ، فهذه الأمور يقبح فعلها من غير الأنبياء فكيف تقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟! وقال سيدنا شعيب لقومه ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه** ﴾ هود : ٨٨ ، ووصف الله تعالى لنا سيدنا إبراهيم وسيدنا إسحاق وسيدنا يعقوب بقوله : ﴿ **إنهم كانوا يسارعون في الخيرات** ﴾ الأنبياء : ٩٠ ، وقال تعالى ﴿ **وإنهم عندنا لمن**

---

(٢٧٧) قال ابن حزم في كتاب « الفصل في الملل والأهواء والنحل » (٤/ ٢) : « اختلف الناس في هل تعصي الأنبياء عليهم السلام أم لا ؟! فذهبت طائفة إلى أن رسل الله صلى الله عليهم وسلم يعصون الله في جميع الكبائر والصغائر عمداً حاشى الكذب في التبليغ فقط ؛ وهذا قول الكرامية من المرجئة **وقول ابن الطيب الباقلاني من الأشعرية ومن اتبعه** ؛ وهو قول اليهود والنصارى ، وسمعت من يحكي عن بعض الكرامية أنهم يجوزون على الرسل عليهم السلام الكذب في التبليغ أيضاً ؛ وأما هذا الباقلاني فإنا رأينا في كتاب صاحبه أبي جعفر السمناني قاضي الموصل أنه كان يقول : إن كل ذنب دَقَّ أو جَلَّ فإنه جائز على الرسل حاشى الكذب في التبليغ فقط ، قال وجائز عليهم أن يكفروا .... » .

(٢٧٨) وتفصيل ذلك في الفرق والمذاهب تجده في مقدمة الفخر الرازي لكتابه « عصمة الأنبياء » .

(٢٧٩) وأما مثل سيدنا يونس عليه السلام ؛ فمعنى قوله تعالى ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الأنبياء : ٨٧ ، أي وذا النون إذ ذهب مغاضباً لقومه يعني غضباناً عليهم مما قاسى منهم ولم يؤذن له في ذلك فظن أن الله تعالى لن يضيق عليه ومن ذلك أن يجعله في جوف الحوت ...... الخ . انظر تفصيل ذلك في كتاب ابن حزم في الملل والنحل (٤/ ١٧) وأقوال المفسرين في هذه الآية .

المصطفين الأخيار ﴾ وقال تعالى حكاية عن إبليس المطرود من رحمة الله : ﴿ **فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المُخلَصين** ﴾ ص : ٨٣ ، وغير ذلك من الآيات الدالة على حفظهم وأمانتهم .

ومما ورد في وقوعهم في الصغائر التي لا خسة فيها قول الله تعالى ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً** ﴾ إلى قوله سبحانه ﴿ **فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى * فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى** ﴾ طه : ١٢١ ، فالأكل من الشجرة معصية بصريح النص القرآني لكنها ليست كبيرة ولا خسة فيها وكان ذلك قبل نبوة سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام ولذلك يقول الله تعالى بعد هذه الآية ﴿ **ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى** ﴾ طه : ١٢٢ ، أي ثم اختاره الله تعالى فمنَّ عليه بالنبوة وقَبِلَ توبته ، وقد حصل هذا من سيدنا آدم ومن غيره أحياناً نادرة ليثبت الله سبحانه وتعالى لنا وقوع الخطأ من البشر ولو كان في أعلى المراتب وهي الرسالة والنبوة ، وللتنبيه على أن عدم احتمال الخطأ وكذا عدم جوازه هو في حق الله سبحانه وتعالى فقط فينبغي أن نفهم ذلك جيداً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في شأن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ **ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ يوسف : ٢٤ ، فمعناه لقد همَّت به ولم يَهُمَّ هو بها لعصمته وهو المراد بقوله تعالى ﴿ **برهان ربه** ﴾ ، فقوله ﴿ **وهم بها لولا ان رأى برهان ربه** ﴾ كما تقول : « وقعت لولا أدركتني » أي لم أقع لأنك أدركتني ، ولو لم تدركني لوقعت ، فالحاصل أني لم أقع ، والحاصل بالنسبة لسيدنا يوسف أنه لم يَهُمَّ بها لوجود العصمة وهي برهان ربه وكل ذلك أيضاً كان قبل النبوة على الصحيح ، وقد أورد المفسرون في هذه القصة أقوالاً متضاربة تزيد على العشرين أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات التالفة فلا ينبغي الالفات إليها ولا التعويل عليها ، فإن ما وصفوا به سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام في بعض حكاياتهم ننزه بعض الأتقياء والأولياء والعلماء الذين ليسوا بأنبياء أن يقعوا فيه فضلاً عن الأنبياء .

وهكذا نعامل بعض ما ورد في هذا الموضوع بالنسبة للأنبياء مما يوهم ظاهره أنه معصية إما بالتأويل وهو إيضاح المعنى المراد والمقصود حقيقة في القرآن ، أو بالاعتراف بأن ذلك معصية كما قدمنا في قصة سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام لكنها غير كبيرة ولا خسة فيها ، مع ملاحظة الحكمة المقصودة والمرادة وهي أن الذي لا يتصور منه الخطأ أبداً هو المولى سبحانه وتعالى .

وبعض العلماء اعتبر الأمانة هي العصمة .

بطلان حديث سحر النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

ويدخل في موضوع عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عصمتهم من تأثير السحر فيهم أو عليهم ؛ فالأنبياء لا يُسْحَرون وليس للساحر ولا لأعوانه من الشياطين والجن عليهم من سبيل(٢٨٠) .

وحديث البخاري (١٠/ ٢٢١) ومسلم (٤/ ١٧١٩) الذي فيه أن يهودياً سحر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حديث آحاد معارِض للقواعد التي منها قوله تعالى ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ ومن الناس الساحر وما يفعله ، ومنها قوله تعالى لإبليس ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان** ﴾ الإسراء : ٦٥ ، ومنها قوله تعالى ﴿ **قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المُخْلَصين** ﴾ الحجر : ٤٠ ، والمخلصين بفتح اللام هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ الذين ليس للشيطان عليهم من سبيل ، والسحر نوع من سبل الشيطان على ابن آدم . وقد جاء في الحديث الصحيح أن الشيطان لا سبيل له على النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال : « إلا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم » بضم ميم فأسلم وبفتحها ، أي إما أنه أسلم فدخل الإسلام أو أسلَمُ من شره وعمله .

ثم كيف يجوز أن يتخيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه فعل الشيء ولم

---

(٢٨٠) قال الإمام الراغب في « المفردات » ص (٢٢٦) : « والسحر يقال على معان : الأول الخداع وتخييلات لا حقيقة لها ..... والثاني : استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب منه ... وعلى ذلك قوله تعالى ﴿ **ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر** ﴾ ... » .

يفعله أو بالعكس من تأثير السحر عليه كما جاء ذلك في الحديث المعارض وربما يتخيل على ذلك أنه بَلّغَ شيئاً وهو لم يُبَلّغه ؟!!!

وما ذهب إليه بعضهم من قوله إن ذلك التأثير متعلق بالأمور الدنيوية وليس فيما يخص الدين والتبليغ قول لا دليل عليه وهو تعليل باطل عندنا ، وقد اطَّلَعنا على ما كتبوا فيه ؛ وفساده لا يساوي ذكره إلا إن احتاج الأمر والله الهادي .

ولهذه الأمور صرَّح الإمام الحافظ أبو عبد الله الحاكم صاحب « المستدرك على الصحيحين » في كتابه « المدخل إلى كتاب الإكليل » ص (٣٩) بشذوذ حديث السحر حيث قال :

« وحديث أبي أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : طُبَّ(٢٨١) رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله . قال الحاكم : هذا الحديث مخرج في الصحيح وهو شاذ بمرة » .

والذي يؤكد ذلك الشذوذ أنه قد وقع في بعض روايات الحديث كما في « الفتح » (٢٣٠/١٠) أن سيدنا جبريل نزل عند ذلك بالمعوذتين ... وهذا يخالف ما هو مشهور من أن المعوذتين مكيتان !!

ولو كان الحديث صحيحاً لصح الباطل وهو قول كفار مكة يومئذ فيما حكاه الله تعالى في كتابه عنهم ﴿ **إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً** ﴾ الإسراء : ٤٧ ، وقال تعالى ﴿ **وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً** ﴾ الفرقان : ٨ .

ثم إن الحديث فيه اضطراب في اسم الساحر ونعته ففي بعض الروايات أنه يهودي وفي بعضها أنصاري وفي بعضها منافق كما تجد ذلك في « شرح مشكل الآثار » (١٧٩/١٥-١٨١) للإمام الطحاوي والتعليق عليه ؛ وكذا « الفتح » (٢٢٦/١٠) . وكذا وقع الخلاف والاضطراب في مدة تأثير السحر !!

ومن ذلك كله نقول بأن الحديث شاذ مردود ، والله أعلم .

---

(٢٨١) أي : سُحِرَ .

[الصفة الثانية] : صفة الصدق :

يقول الله تعالى في سورة الأنبياء ﴿ **ووهبنا لهم من رحمتنا** ﴾ والرحمة هنا هي النبوة ﴿ **وجعلنا لهم لسان صدق علياً** ﴾ الأنبياء : ٥٠ ، وقال سيدنا إبراهيم ﴿ **رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين * واجعل لي لسان صدق في الآخرين** ﴾ الشعراء : ٨٤ .

فالصدق صفة واجبة للرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيستحيل عليهم الكذب وخاصة فيما يتعلق بتبليغ الشريعة .

وحديث أن سيدنا إبراهيم عليه السلام كذب ثلاث كذبات آحاد معارض للآية ويمكن تأويله أن ذلك في حالة الاضطرار .

[الصفة الثالثة] : فطانة الرسل وذكاؤهم عليهم الصلاة والسلام :

لقد بعث الله سبحانه وتعالى الرسل عليهم الصلاة والسلام ليدعوا الناس إلى طاعته وعبادته ، وأمرهم بمجادلة الكفار ومناظرتهم ، ومن ذلك قوله تعالى لسيدنا رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ **وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ النحل : ١٢٥ ، وقال تعالى ﴿ **قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ هود : ٣٢ ، والذي يبعثه الله تعالى لإقناع الناس باتباع دين الله الحق لا بد أن يكون فطناً ذكياً لأن هذا الأمر لا يصلح للبليد ولا للغبي ولا للمغفَّل ، ولذلك كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام في القمة من الذكاء والفطانة والتيقظ ، وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء** ﴾ الأنعام : ٨٣ .

[الصفة الرابعة] : تبليغهم ما أمروا بتبليغه :

قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾ المائدة ٦٧ ، وقال تعالى ﴿ **الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ، وكفى بالله حسيباً** ﴾ الأحزاب : ٣٩ وقال تعالى حكاية عن سيدنا نوح عليه السلام : ﴿ **قال يا قوم ليس بي ضلالة**

ولكني رسول رب العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من اللهم لا تعلمون ﴾ الأعراف : ٦٢ ، وقال تعالى : ﴿ **ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً** ﴾ الجن : ٢٨ .

فهذه الآيات الكريمة جميعها تثبت صفة التبليغ للرسل عليهم الصلاة والسلام ، وتبين أنهم بَلَّغُوا جميع ما أمروا بتبليغه بما لا يدع مجالاً للشك .

ويمكن أن نعد صفة الأمانة هي تبليغهم كل ما أمروا بتبليغه لا سيما والله تعالى يقول : ﴿ **ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين** ﴾ الحاقة : ٤٦ ، قال الإمام الرازي في « التفسير » (١٥/٣٠/١١٨) « والمعنى ولو نسب إلينا قولاً لم نقله ... لأخذنا بيده ... » .

[فائدة مهمة] :

وهنا نقف عند بعض النصوص التي وردت مما يتعلق بأشياء عَلِمَها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأُمِرَ بكتمانها ، أو علَّمَها وأخبر بها أفراداً معدودين كإعلامه صلى الله عليه وآله وسلم لسيدنا حذيفة بن اليمان بأسماء المنافقين ، وإعلام أبي هريرة بأسماء بعض ملوك الجور وسلاطين السوء الذين يأتون من بعده ، وهذه كله ليس تشريعاً وليس مما أمره الله تعالى بإبلاغه للناس لذلك لم ينتشر عند كافة الناس ، وإنما اقتصر تعليمه ذلك لأشخاص قلائل وربما لواحد فقط كسيدنا حذيفة رضي الله عنه .

ومن هذا الباب يدخل بعض الباطنية فيقول : جاء عن أبي هريرة أنه قال « حفظت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعائين أما الأول فبثثته وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم » فهذا الذي أخفاه هو علم أسرار الأولياء وسر الباطن والظاهر وما إلى ذلك من ترهات معروفة يلهج بها بعض (أدعياء التصوف !!) هكذا يقول أولئك الباطنيون !!

والجواب عليه : أن حديث أبي هريرة أو أثره هذا رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢١٦ فتح) وقال الحافظ ابن حجر في شرحه :

« حمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه على الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء

السوء وأحوالهم وزمنهم ، وقد كان أبو هريرة يكني عن بعضه ولا يصرح به خوفاً على نفسه منهم ، كقوله : أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان ، يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية لأنها كانت سنة ستين من الهجرة ، واستجاب الله دعاء أبي هريرة فمات قبلها بسنة » .

ثم قال الحافظ هناك :

[قال ابن المنير : جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة إلى تصحيح باطلهم حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهراً وباطناً، وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال من الدين ، قال : وإنما أراد أبو هريرة بقوله « قطع » أي قطع أهل الجور رأسه إذا سمعوا عيبه لفعلهم وتضليله لسعيهم ...] انتهى فتأمل .

[تنبيه مهم] في مسألة الباطن والظاهر والشريعة والحقيقة :

قال بعض الناس : « إن الحقيقة تخالف الشريعة وتخرقها ، وإن الباطن يخالف الظاهر » : وعمدة استدلالهم بقصة الخضر عليه الصلاة والسلام المذكورة في القرآن الكريم !!

ونحن نقول لهم : إن هذا خطأ فادح وليس في قصة سيدنا الخضر ما يؤيد ما تذهبون إليه .

فأولاً : هو نبي على الصحيح ، وفي ثبوت نبوته بالأدلة ما يهدم هذا كله .

قال الإمام الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١/ ٢١٩) :

« قوله (هو أعلم منك) ظاهر في أن الخضر نبي ، بل نبي مرسل ، إذ لو لم يكن كذلك للزم تفضيل العالي على الأعلى وهو باطل من القول » .

ولنا رسالة خاصة في إثبات نبوته أسميناها « القول العطر في نبوة سيدنا الخضر » عليه السلام فليراجعها مَنْ شاء .

وثانياً : لأن الأمور التي فعلها سيدنا الخضر ليس فيها ما يخالف شرعنا كما أوضح ذلك الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في « فتح الباري » (١/ ٢٢٢) حيث قال :

[قال القرطبي : وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال : أنا لا آخذ عن الموتى وإنما

آخذ عن الحي الذي لا يموت ، وكذا قال آخر أنا آخذ عن قلبي عن ربي ، وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع ونسأل الله تعالى الهداية والتوفيق .

وقال غيره : من استدل بقصة الخضر على أن الولي يجوز أن يطلع من خفايا الأمور على ما يخالف الشريعة ويجوز له فعله فقد ضل ، وليس ما تمسك به صحيحاً ، فإن الذي فعله الخضر ليس في شيء منه ما يناقض الشرع ، فإن نقض لوح من ألواح السفينة لدفع الظالم عن غصبها ثم إذا تركها أعيد اللوح جائز شرعاً وعقلاً ، ولكن مبادرة سيدنا موسى بالإنكار بحسب الظاهر ، وقد وقع ذلك واضحاً في رواية أبي إسحق التي أخرجها مسلم ولفظه « فإذا جاء الذي يُسَخِّرها فوجدها منخرقة تجاوزها فأصلحها » ، فيستفاد منه وجوب التأني عن الإنكار في المحتملات ، وأما قتله الغلام فلعله كان في تلك الشريعة ، وأما إقامة الجدار فمن مقابلة الإساءة بالإحسان ، والله أعلم » . انتهى كلام الحافظ ابن حجر .

فقتل الغلام كان بأمر الله تعالى ، وما كان بأمر الله تعالى لا يقال إنه مخالف للشريعة ، وذلك لأن الشريعة هي عبارة عن امتثال أمر الله تعالى وتنفيذه ، واجتناب نهيه ، وهو نبي - أي الخضر - وقد قال ﴿ **وما فعلته عن أمري** ﴾ أي : إن هذا تنفيذ لأمر الله تعالى ، فأين خرق الشريعة بالحقيقة التي جاء القرآن بإثباتها ؟!

ولا يخفى على أهل العلم أن محققي علماء الإسلام نصوا على كفر من قال أو ادَّعى بأن الحقيقة تخالف الشريعة أو أن الباطن يخالف الظاهر ، وممن نص على ذلك الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه « الإحياء » (١/ ١٠٠) حيث قال :

« فمن قال : إن الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن يناقض الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان » انتهى .

وقد بسط الإمام الغزالي رحمه الله تعالى هذا الموضوع هناك وتوسع فيه ولا بد من مطالعته مطالعة متمعن .

وقال الإمام الحافظ ابن حجر أيضاً في « فتح الباري » (١/ ٢٢١) نقلاً عن القرطبي ما نصه :

[**الثانية** : ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريقة تستلزم هدم أحكام الشريعة فقالوا : إنه يستفاد من قصة موسى والخضر أن الأحكام الشرعية العامة تختص بالعامة والأغبياء ، وأما الأولياء والخواص فلا حاجة بهم إلى تلك النصوص بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ، ويحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم ، لصفاء قلوبهم من الأكدار وخلوها عن الأغيار . فتنجلي لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية ، فيقفون على أسرار الكائنات ويعلمون الأحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات ، كما اتفق للخضر ، فإنه استغنى بما ينجلي له من تلك العلوم عما كان عند موسى ، ويؤيده الحديث المشهور « استفت قلبك وإن أفتوك »(٢٨٢) قال القرطبي : وهذا القول زندقة وكفر ، لأنه إنكار لما علم من الشرائع فإن الله قد أجرى سنته وأنفذ كلمته بأن أحكامه لا تُعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه المبينين لشرائعه وأحكامه ، كما قال الله تعالى ﴿ **يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس** ﴾ وقال ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ وأمر بطاعتهم في كل ما جاءوا به ، وحث على طاعتهم والتمسك بما أمروا به فإن فيه الهدى . وقد حصل العلم اليقين وإجماع السلف على ذلك ، فمن ادعى أن هناك طريقاً أخرى يعرف بها أمره ونهيه غير الطرق التي جاءت بها الرسل يستغني بها عن الرسول فهو كافر يقتل ولا يستتاب] . انتهى من « فتح الباري » .

[**تنبيه آخر**] : يجب اعتقاد كفر كل من ادعى النبوة بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقوله تعالى ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحيَ إليّ ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله** ﴾ الأنعام : ٩٣ ، ويؤخذ من هذه الآية أيضاً كفر من ادعى أنه يوحى إليه ولو لم يدع النبوة ، هكذا صرَّح به أهل العلم في باب الردة من كتب الفقه [انظر « مغني المحتاج » (٤/ ١٣٥) وغيره] .

ومنه تعلم حال القاديانية أتباع غلام أحمد قادياني الذي ادعى النبوة الظلية أي أن نبوته تحت ظل نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك في الباكستان

---

(٢٨٢) رواه أحمد (٤/ ١٩٤) من حديث أبي ثعلبة الخشني بإسناد صحيح ، وله شاهد أيضاً في صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٠) من حديث النواس .

قبل نحو مائة عام .

وكذلك يعلم حال البهائية الذين يَدَّعون أن مؤسس دعوتهم واسمه (علي محمد) أفضل من سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأن قرآنه أفضل من قرآن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد ولد هذا الرجل في بلدة شيراز في إيران سنة ١٨١٩م ، وأتباعه يستعملون التقية أحياناً للتمويه في سبيل نشر دعوتهم فهؤلاء لا يجوز الشك في كونهم خارجين عن دائرة الإسلام إن كان هذا الكلام ثابتاً عنهم والله العاصم .

[**تنبيه مهم جداً**] : ذهب الشيخ العز ابن عبد السلام رحمه الله تعالى الملقب عند بعض أهل العلم بسلطان العلماء إلى أن النبوة أفضل من الرسالة !! وهو قول مستشنع وباطل مردود لا يجوز الالتفات إليه ولا التعويل عليه !! وقد علل ذلك بما ذكره في كتابه « قواعد الأحكام » (٢/ ٢٣٦) حيث قال :

[(**فائدة**) : إن قيل : أيهما أفضل النبوة أم الإرسال ؟

فنقول : النبوة أفضل ؛ لأن النبوة إخبار عما يستحقه الرب من صفات الجمال ونعوت الكمال وهي متعلقة بالله من طرفيها(٢٨٣) ، والإرسال دونها(٢٨٤) ؛ لأنه أَمْرٌ بالإبلاغ إلى العباد فهو متعلق بالله من أحد طرفيه وبالعباد من الطرف الآخر(٢٨٥) ؛ ولا شك ان ما يتعلق من طرفيه أفضل مما يتعلق به من أحد طرفيه(٢٨٦) والنبوة سابقة على الارسال(٢٨٧) ؛ فإن قول الله لموسى ﴿ **إني أنا الله**

---

(٢٨٣) هذا تحليل باطل واستنتاج فاسد !! وذلك أنه بناه على التعريف الباطل في تعريف النبي وهو أنه : من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه !! وقد بينا بطلانه بأدلة العقل والنقل وذكرنا أن التعريف الصحيح للنبي هو : من أوحي إليه بشرع رسول وأمر بتبليغه ؛ وأن كلاً من النبي والرسول مأموران بالتبليغ لقوله تعالى ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من نبي ولا رسول إلا إذا تمنى القى الشيطان في أمنيته** ﴾ فبيَّن الله تعالى ان كلاً منهما مرسل أي مأمور بالتبليغ ؛ فافهم !!

(٢٨٤) كلام فاسد غير صحيح !!

(٢٨٥) من أين أتى بهذه النظرية وما دليله عليها ؟! ونصوص الكتاب والسنة تعارضها !!

(٢٨٦) تحليل باطل فاسد .

(٢٨٧) فكان ماذا ؟ !! ولا أدري كيف يعتبر أن الأفضل ما كان أولاً !! وسيدنا محمد صلى الله عليه

رب العالمين ﴾ مُتقدم على قوله ﴿ **اذهب إلى فرعون إنه طغى** ﴾ ؛ فجميع ما تحدث به قبل قوله ﴿ **اذهب إلى فرعون** ﴾ نبوة ، وما أمره بعد ذلك من التبليغ فهو إرسال(٢٨٨) .

والحاصل أن النبوة راجعة إلى التعريف بالإله وبما يجب له ؛ والإرسال إلى أمر الرسول بأن يُبَلِّغَ عنه إلى عباده ما أوجبه عليهم من معرفته وطاعته واجتناب معصيته ؛ وكذلك الرسول لما قال له جبريل : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾ إلى قوله ﴿ **إلى ربك الرجعى** ﴾ كان هذا نبوة ، وكان ابتداء الرسالة حين جاء جبريل بـ ﴿ **يا أيها المدثر قم فأنذر** ﴾(٢٨٩)] .

وقول ابن عبد السلام في مواضع أخرى بأن الرسل أفضل من الأنبياء لا يعذره ولا يسوغ مقالته الباطلة الشنيعة تلك إطلاقاً ؛ وما حاول ان يتعذر له به بعض الناس ليس بشيء(٢٩٠) لذلك صرح العلماء بنقد كلام ابن عبد السلام هذا

وآله وسلم آخر الأنبياء والمرسلين وهو أفضلهم !! ثم لا أدري كيف يعتبر الرتبة الأولى أفضل ، وأفضل أحوال النبي أو الرسول ما كان آخراً ؛ لأن أحوالهم لا تزال في تَرَقٍ وتشريف وتكريم وقرب !! فكيف عكس وقلب الأمر ؟! لا أدري !!

(٢٨٨) وليس في هذا كله ما يدل على قصده ومراده الذي هو أن النبوة أفضل من الرسالة البتة !!

(٢٨٩) وليس في هذا كله أيضاً ما يدل على قصده ومراده الذي هو أن النبوة أفضل من الرسالة البتة !

(٢٩٠) وقد استرسل بعض (الدكاترة الشرعيين !!) في دفاعه الهزيل عن كلام العز بلا دليل مبتعداً عن المنطق السليم !! والدليل القويم !! حتى بلغ به الأمر أن يدافع عن كلامٍ أشد شناعة من الكلام الأول حيث قال : « وقد ذكر صاحب الكواكب الدرية أن تفضيل الولاية على النبوة لا يعني أن الولي أفضل من النبي لأن ذلك باطل بالاجماع » !!

وأقول لهذا القائل : لا تزال تنزلق من هاوية إلى هاوية فبعد أن نافحت ودافعت عن كون النبوة أفضل من الرسالة وفهم من تقريرك لذلك أن النبوة ولاية لأنها تعلق بين العبد وربه ولا دخل للعباد فيها وهو كلام باطل فاسد ؛ عدت إلى شئ واحد ففرقت وأيدت بل وتبنيت قول من قال الولاية أفضل من النبوة !! فما هو الفرق بينهما ؟! بين ولاية النبي ونبوته أيها المتفلسف ؟!

وهذا ما حداه في موضع آخر من مقالته أن يفرق بين علم النبي ونبوته وإرساله !! وكأن علم النبي غير معلومات النبوة والرسالة !! فقد قال المشار إليه وهو يظن نفسه أنه أتى بكلام بديع : « فتكون موهبة الرسول عليه الصلاة والسلام من العلم أفضل من موهبته من الإنزال المتضمن للنبوة والإرسال » والعياذ بالله تعالى !!

ووجوب اجتنابه ؛ قال ابن حجر الهيتمي في هذه المسألة بالخصوص في « فتاواه الحديثية » ص (١٥٢) :

« وقع لابن عبد السلام رحمه الله فيها ما لا ينبغي فاجتنبه . وقول السائل : وهل ولاية النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من نبوته الخ كأن مراده بهذا أيضاً المسألة المشهورة عن ابن عبد السلام وهي قوله :

(إن نبوة النبي أفضل من رسالته لأن النبوة هي الطرف المتعلق بالحق ؛ والرسالة هي الطرف المتعلق بالخلق ؛ وما تعلق بالحق أفضل مما تعلق بالخلق) وهو ضعيف جداً ومن ثَمَّ ضعفه غير واحد من المتأخرين ؛ وبيان ضعفه أن الرسالة ليس لها طرف من جهة الخلق فقط بل لها طرفان ؛ لأن الرسول هو المبلغ عن الله تعالى الأحكام للناس فهو مُتَلَقٍّ من جهة الحق ومُلْقٍ للخلق ؛ فكانت رسالته التي تأهل بها إلى الخلافة عن الله تعالى أفضل من مجرَّد نبوته لأنه لم يتأهل بها إلى المرتبة العلية)[٢٩١] انتهى كلام العلامة ابن حجر .

فنقول له : وهل علم النبي إلا الإنزال ؟! وهل الإنزال الا أوامر الله تعالى ونواهيه وما يخبر به نبيه من المعلومات ؟! وهي شيء واحد فمن أين أتت فلسفة التفريق ؟! وعلى كل حال فنحن ننصح ذلك الدكتور أن يعترف بالصحيح المطابق للواقع وأن لا يجادل ويماري بالباطل والله تعالى يتولى هدانا وهداه . والحمد لله رب العالمين .

[٢٩١] ولم يذكر الدكتور المشار إليه هذا الكلام عن ابن حجر لأنه بنقله سيتضح بطلان دعواه ومدافعته وتمحلاته !! وإنما اقتصر على قول كلام ابن حجر « ووقع لابن عبد السلام رحمه الله فيها ما لا ينبغي فاجتنبه » ثم قال - الدكتور - عقب ذلك : [قلت هذا التحذير لا مبرر له خاصة بعد أن تطلع على ما قرره العز في هذه المسألة » !!

ونحن نقول له : لقد اطلعنا على ما قرره فيها فوجدناه باطلاً فاسداً وقد تقدم الكلام عليه فاعرف ذلك ! ثم قوله في كلامه « هذا التحذير لا مبرر له » خطأ من ناحية العربية والصواب أن يقول « لا مسوغ له » لأن التبرير ليس من معانيه التسويغ وإيجاد العذر ؛ فلا وجه له وإن استعمله بعض من يدعي الأدب !! فافهم !! انظر مادة سوغ ومادة برر في القاموس !!

وللعز ابن عبد السلام رحمه الله تعالى مسائل ذكرهـا العلمـاء أخطـأ فيهـا فـلا يقتدى به فيها(٢٩٢) ؛ والله الموفق والهادي .

---

(٢٩٢) وإنني أذكر بعضها للنصح ولئلا يقع أحد فيما وقع فيه فيحتج بكلامه فأقول :

١- قوله (لا يمسح وجهه في دعاء القنوت إلا جاهل) !!

قال العلامة المناوي في « فيض القدير » (١/ ٣٦٩) عند شرح حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا مد يديه في الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه » ما نصه :

« وفيه رد على ابن عبد السلام في قوله لا يمسح وجهه إلا جاهل !! ومِنْ ثَمَّ قيل هي هفوة ... » .

٢- قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٧/ ١٩٨):

« ومن المستغرب قـول ابـن عبـد السـلام في تفسيره : كـان الإسـراء في النـوم واليقظة ؛ ووقـع بمكة والمدينة » .

٣- مسألة اعتراضه على الحافظ ابن الصلاح في صلاة الرغائب ؛ والصواب حليف ابن الصلاح في هـ المسألة لا مع العز ، وقد أبرق العز فيها وأرعد كثيراً من غير فائدة ؛ وليس ههنا محل بسط الكلام في الرد عليه في هذه المسألة . وقد وافقني على هذه المسألة سيدي المحدِّث عبد العزيز ابن الصديق عندما ذكرتهـ له ؛ ثم وقفت على كلامه عليها في كتابه « وصول التهاني » ص (٦٧) فوجدته يقول هناك :

« ولكن العز ابن عبد السلام أخطأه التوفيق في ردِّه الأول والثاني على ابن الصـلاح رحمهمـا الله تعـالى رغم كون الموضوع سهلاً بسيطاً » .

٤- وقال الإمام الأسنوي في كتابه « التمهيد في تخريج الفروع على الأصول » ص (١١٤) :

« وهذا النص الذي ذكرته صريحاً - عن الإمام الشافعي - أيضاً فيه رد أيضاً على مـا قالـه الشـيخ عـ الدين في القواعد : « إنه لا ثواب على حصول المصائب والآلام ؛ وإنما الثواب على الصبر عليهـا ؛ أو الرضى بها ... » .

٥- قوله (إن التوسل ينبغي أن يكون مقتصراً على التوسل بالنبي صلـى الله عليـه وآلـه وسـلم) وهـو خطأ إن ثبت عنه ؛ لمخالفته الأدلة الصحيحة والصريحة في ذلك .

وهناك عدة مسائل أخطأ فيها أيضاً لا اود أن أطيل ههنا بذكرها نذكرها إن شاء الله تعالى في موضع آخر والله الموفق .

الإيمان برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعموم بعثته وهو أساس الشهادة الثانية

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(وأن محمداً عبده المصطفى ونبيه المجتبى ورسوله المرتضى ، وأنه خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء وسيد المرسلين ، وحبيب رب العالمين ، وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى بالحق والهدى ، وبالنور والضيا) .

الشرح :

الإيمان برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو أصل معنى الشهادة الثانية ، قال الله تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ سبأ : ٢٨ ، وقال الله تعالى ﴿ **ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً** ﴾ الفتح : ١٣ ، وقال تعالى : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً** ﴾ النساء : ١٥١ .

ومعنى (أشهد أن محمداً رسول الله) أن تعلم وتعتقد وتؤمن وتصدق بأن سيدنا محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي عبد الله ورسوله إلى كافة الخلق ، والمراد بالخلق هنا الإنس والجن ، وكذا الملائكة وهم متعبدون بما يناسبهم من شريعتنا وهذا من خصائص نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، لقوله تعالى ﴿ **تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً** ﴾ الفرقان : ١ و (العالَمين) بفتح اللام هنا هم العقلاء من الخلق وهم الملائكة والإنس والجن .

وقال تعالى : ﴿ **وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه**

جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ الأنبياء : ٢٩ .

قال سيدي الإمام المحدث عبد الله ابن الصديق في كتابه « دلالة القرآن المبين على أن النبي أفضل العالمين » ص (٦٨) :

« في هذه الآية إنذار إلى الملائكة ، وفي آية أخرى ﴿ **وأوحي إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ الأنعام : ١٨، فيؤخذ منهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرسل إلى الملائكة ، ذكر هذا الاستنباط الحافظ السيوطي في « الأرائك في إرسال النبي إلى الملائك » وهو استنباط وجيه ، يؤيده ما تقدَّم من قتال الملائكة معه صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة بدر، وما سبق في سورة الإسراء من تعبدهم بحضور الصلاة معنا ، وما ثبت في الصحيح أنهم يحضرون خطبة الجمعة(٢٩٣) ، ويحضورن معنا صلاة الجماعة ، وأن الإمام إذا قال (ولا الضالين) قالوا : آمين ، فمن وافق تأمينه تأمينهم غُفِرَ له ، وصح أن جبريل سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال خيارنا أو من خيارنا ، قال جبريل عليه السلام : كذلك أهل بدر فينا(٢٩٤) .

إلى غير ذلك مما يدل على أنهم متعبدون بما يناسبهم من شريعتنا وهذا من خصائص نبينا صلى الله عليه وآله وسلم » .

والشهادة الثانية تتبعها أحكام عديدة ، منها الإيمان بصفاته وعلاماته صلى الله عليه وآله وسلم المنقولة إلينا بالتواتر والتي منها : كونه صلى الله عليه وآله وسلم من قريش وهم أشرف قبائل العرب ولهم الصدارة والمنزلة الرفيعة بين العرب ، ويجب معرفة أنه صلى الله عليه وآله وسلم وُلِدَ بمكة وبُعِثَ بها أي نزل عليه الوحي بالنبوة وهو بها ، ثم هاجر إلى المدينة وأنه مات فيها ودفن فيها ، وأنه صادق في كل ما أخبر به عن الله تعالى سواء كان من أخبار من قبله من الأمم والأنبياء وبدء الخلق أو مما أخبر به عما سيحدث في المستقبل في هذا الدنيا وفي الآخرة ، أو من التحليل أو التحريم لبعض أفعال العباد وأقوالهم .

---

(٢٩٣) رواه البخاري (٦/ ٣٠٤) .

(٢٩٤) رواه البخاري (٧/ ٣١٢ فتح) .

ونعتقد أنه صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الخلق على الإطلاق ، والأنبياء يلونه في الفضل ثم الملائكة هذا هو القول المشهور .

ومذهب أئمة أهل البيت وشيعتهم والمعتزلة أن الملائكة أفضل من الأنبياء ولم يستثنوا سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، قال العلامة أحمد الشرفي في كتابه « عدة الأكياس في شرح معاني الأساس » (٢/ ٢٠) :

[فصل : (والملائكة صلوات الله عليهم أفضل من الأنبياء عليهم السلام) على معنى أن ثواب أدنى مَلَك أكثر من ثواب أفضل الأنبياء ، وهذا هو قول أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم والمعتزلة .

وقالت الأشعرية وغيرهم : بل الأنبياء أفضل من الملائكة .

وقالت الإمامية : بل الأنبياء والأئمة أفضل من الملائكة .

وقيل : بل الأنبياء والمؤمنون أفضل من الملائكة .

لنا حجة على المخالف قوله تعالى ﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ التحريم : ٦ .

ولا شك في وقوع خطايا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أي الصغائر على جهة السهو والخطأ لا على جهة العمد كما سيأتي إن شاء الله تعالى بخلاف الملائكة عليهم السلام فإنهم لا يعصون الله البتة كما أخبر الله عنهم .

ولنا قوله تعالى ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني مَلَك ﴾ الأنعام : ٥٠ ، والمعلوم أن كونه ملكاً صفة زائدة على النبوة في المرتبة كما في الصفتين اللتين قبلهما .

ولنا أيضاً قوله تعالى حاكياً عن إبليس : ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين ﴾ الأعراف : ٢٠ ، أي إلا كراهة أن تكونا مَلَكين ، هذا تأويل صاحب الكشاف ، وقال الهادي عليه السلام : تقديره إلا أن لا تكونا ملكين .

والمعنى : لولا علم إبليس أن آدم وحوَّى يعلمان أن مرتبة الملائكة فوق مرتبتهما لم يرغبهما ببلوغ تلك المرتبة بأكلهما الشجرة .

ولنا أيضاً قوله تعالى ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ أي : ولا من هو أعلى منه درجة وهم الملائكة المقربون الذين هم أعلى منزلة عند الله كجبريل وميكائيل وإسرافيل .

قلت : ويمكن أن يراد بالمقرَّبين جميع الملائكة والله أعلم .

ونزول الآية للرد على النصارى في غلوهم في عيسى صلوات الله عليه وإنكارهم أن يكون عبداً لله حين وفد إهل نجران إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ....

ونبينا صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من سائر الأنبياء صلوات الله عليهم لأدلة كثيرة لا يسعها هذا الكتاب منها الإجماع على ذلك] انتهى كلام العلامة الشرفي من كتاب « عدة الأكياس » .

أقول : وتفضيل بعض الرسل على بعض منصوص عليه في القرآن في قوله تعالى ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلَّم الله ورفع بعضهم درجات** ﴾ البقرة : ٢٥٣ .

وفضائله صلى الله عليه وآله وسلم مذكورة في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى ﴿ **ورفعنا لك ذكرك** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **فإنك بأعيننا** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ .

ومن فضائله أن الله تعالى ذكر أعضاءه الشريفه في كتابه الكريم ، ومن ذلك أنه ذكر وجهه فقال ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ وذكر قلبَهُ فقال سبحانه ﴿ **نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين** ﴾ ، وذكر صدره الشريف فقال سبحانه ﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾ ، وذكر ظهره فقال سبحانه ﴿ **الذي أنقض ظهرك** ﴾ ....

وقد نادى الله تعالى كل نبي باسمه فقال ﴿ **يا آدم** ﴾ ﴿ **يا نوح** ﴾ ﴿ **يا إبراهيم** ﴾ ﴿ **يا موسى** ﴾ وناداه بقوله ﴿ **يا أيها الرسول** ﴾ ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ وكل ذلك زيادة في تشريفه وتوقيره .

وقد أخذ الله عز وجل الميثاق والعهد من الأنبياء أن يؤمنوا به ، وأن ينصروه

إن ادركوه إذ قال سبحانه : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ آل عمران : ٨١ .

ولهذا قال سادتنا علي ابن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم وقتادة والسُّدِّي وقريب منه قول الحسن وطاووس كما ذكر ذلك الطبري وابن كثير وغيرهما من أهل التفسير : ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ الله منه الميثاق ليؤمنن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ولينصرنه إن خرج في زمنهم ، ولهذا فما من نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا عنده علم به صلى الله عليه وآله وسلم وبمبعثه وزمانه ومهاجَره وعلاماته وأوصافه صلى الله عليه وآله وسلم . قال تعالى عن اليهود الذين أخبرتهم أنبياؤهم بوصفه صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به** ﴾ البقرة : ٨٩ .

بل لم تعرف له صلى الله عليه وآله وسلم قدره الأنبياء فحسب ، وإنما عرفت له قدره الأشجار والأحجار وشهدت له بالرسالة لتحث الناس على الإيمان به .

فأما الاشجار : فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سفر ، فأقبل أعرابي ، فما دنا منه قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أين تريد ؟ » قال : إلى أهلي . قال : « هل لك في خير ؟ » قال : وما هو ؟ قال « تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله » ، قال : ومن يشهد على ما تقوله ؟ قال : « هذه السَّلَمَة » - يعني الشجرة - فدعاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي بشاطىء الوادي ، فأقبلت تَخِدُّ الأرض خَدّاً - أي شقاً - حتى قامت بين يديه فأشهدها ثلاثاً فشهدت ثلاثاً أنه كما قال ، ثم رجعت إلى منبتها ، ورجع الأعرابي إلى قومه وقال : إن اتبعوني آتك بهم وإلا رجعت فكنت معك . رواه الدارمي والطبراني في الكبير وأبو يعلى والبزار ورجال الطبراني رجال الصحيح [انظر « مجمع الزوائد » (٨/ ٢٩٢)] .

وأما الأحجار وشهادتها :

فقد روى مسلم في صحيحه (٤/ ١٧٨٧) والدارمي في مسنده وغيرهما بأسانيد صحيحة من حديث جابر بن سَمُرَة « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول : إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أُبْعَث إني لأعرفه الآن » .

وفي مستدرك الحاكم (٢/ ٦٢٠) عن سيدنا علي رضي الله عنه قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة فخرج في بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا جبل إلا قال السلام عليك يا رسول الله » قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وصححه الذهبي هناك .

ومن تعظيمه صلى الله عليه وآله وسلم وصفه بالسيادة فنقول عند ذكر اسمه (سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) أو (سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم) ولا عبرة بمن خالف في ذلك وأنكر السيادة متاثراً بمذهب المبتدعة المتمسلفين !!

قال تعالى ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً** ﴾ وقال تعالى عن سيدنا يحيى ﴿ **وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين** ﴾ آل عمران : ٣٩ ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أنا سيد الناس » رواه البخاري (٨/ ٣٩٥) ومسلم (١/ ١٨٦) وغيرهما ، وقال الصحابي الجليل سيدنا سهل بن حنيف للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : « يا سيدي والرقى صالحة ... » رواه أحمد (٣/ ٤٨٦) والحاكم في المستدرك (٤/ ٤١٣) وغيرهما وهو صحيح كما بينته في « التناقضات الواضحات » الجزء الثاني ص ٧٢ ورددت على من خالف وتناقض !!

وقال عمر بن الخطاب كما في البخاري (٧/ ٩٩) : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالاً » ، وفي البخاري (٥/ ٣٠٦) : قال صلى الله عليه وآله وسلم عن سبطه الحسن : « إن ابني هذا سيد » ، وقال أبو كثير وهو من التابعين : « كنت مع سيدي علي بن أبي طالب .... » رواه الحميدي (١/ ٣١) وأبو يعلى في « مسنده » (١/ ٣٧٢) بإسناد صحيح ، فهذه النصوص جميعها تثبت السيادة وخاصة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لا سيما قوله صلى الله عليه وآله وسلم « أنا سيد

الناس » وهو متواتر ، فمن قال : لا يجوز إطلاق السيادة عليه صلى الله عليه وآله وسلم لا خارج الصلاة ولا داخلها وتعذَّر بأن هذا قد يؤدي إلى الإطراء المذموم كفر بلا مثنوية وخرج عن الاسلام ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١٠/ ٤٦٤) للاستزادة .

وقال الحافظ السخاوي في « القول البديع » ص (١٠٨) :

« وقرأت بخط بعض محققي مَنْ أخذت عنه ما نصه : الأدب مع من ذكر مطلوب شرعاً بذكر السيد ، ففي حديث الصحيحين : (قوموا إلى سيدكم) ، أي سعد بن معاذ ، وسيادته بالعلم والدين ، وقول المصلين : (اللهم صلِّ على سيدنا محمد) فيه الإتيان بما أمرنا به ، وزيادة الإخبار بالواقع الذي هو أدب فهو أفضل من تركه فيما يظهر من الحديث السابق » .

وللسيد المحدث الحافظ الشريف أحمد ابن الصديق الغماري رسالة في موضوع السيادة سماها « تشنيف الآذان بأدلة استحباب السيادة عند اسمه عليه الصلاة والسلام في الصلاة والإقامة والأذان » فليرجع إليها من أراد التوسع ، ولينظر ما كتبناه في التعليقات على كتابنا « صحيح صفة صلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم » ص (٢٠٣-٢٠٥) .

وقال سيدي عبد الله ابن الصديق أعلى الله تعالى درجته في كتابه القيم « دلالة القرآن المبين على أن النبي أفضل العالمين » ص (٩) ما نصه :

[**(الأول)** : قد يظن بعض الناس أن أفضلية النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليست ذات أهمية في الدين ، وهذا خطأ كبير ممن يظنه ، بل لها أهمية كبرى ، لأن تصحيح العقيدة يتوقف عليها ، لا سيما في هذا العصر الذي كثر فيه الجهل بالدين أصوله وفروعه . ولقد سئل بعض أهل العلم مرة : ما الدليل على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من نوح عليه السلام ؟ مع أن نوحاً لبث يدعو إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً ، بنص القرآن فلم يسعفه علمه بدليل .

وقال لي بعض الصحفيين مرة : أنا أعتقد ان عيسى أفضل من النبي عليهما الصلاة والسلام . قلت : لم ذلك ؟ قال : لأن عيسى ولد من غير أب ، فلم يكن

من النطفة المستقذرة . قلت له : فعلى هذا تكون ناقة صالح عليه السلام أفضل من عيسى أيضاً . لأنها خرجت من صخرة ، ولم تخرج من الفرج الذي هو مخرج البول ولو كان التفضيل منوطاً بهذا ، لكان آدم عليه السلام أفضل الرسل على الإطلاق ، لأنه خلق من غير أب ولا أم ، فلم تقذفه نطفة ، ولا ضمه رحم . ولأ عاش ألف سنة ، كما في الصحيح ، دعا فيها أولاده إلى الله تعالى .

ولكن التفضيل في الحقيقة ، منوط بخصال الكمال التي يتحلى بها النبي ، مع المزايا التي يهبها الله تعالى له ، على هذا الأساس يتفاضل الرسل والأنبيا وغيرهم ، وهذا الأساس نفسه ، هو مبنى أفضلية النبي صلى الله عليه وآله وسلم . أما خصال الكمال التي كان يتحلى بها فينبىء عنها قوله تعالى ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ ولم يثن بهذا على نبي ولا رسول . فأفاد أنه متفرد بهذا الخلق .

وسئلت عائشة رضي الله عنها : كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقالت : كان خلقه القرآن . معنى هذا الجواب الوجيز الجامع : أن ما في القرآن الكريم من أخلاق وآداب وفضائل ومكارم يتمثل في شخصه عليه الصلاة والسلام . ولذا قال البوصيري رحمه الله تعالى :

فاق النبيين في خلق وفي خلق ولم يدانوه في علم ولا كرم

وأما المزايا التي وهبه الله إياها فكثيرة . مثل دفاع الله عنه ، ونداءه بوصف النبوة والرسالة ، ونهى المؤمنين أن ينادوه باسمه المجرد ، وتجنيد الملائكة للقتال معه ، وإنذارهم على لسانه ، وعموم بعثته ، وختمه للنبوة ، وإقسام الله بحياته وغير ذلك مما يتحدث عنه هذا الكتاب .

ولا شك أن إثبات هذه المزايا ، وتلك الأخلاق له صلى الله عليه وآله وسلم واعتقاد اتصافه بها ، واجب شرعاً . تتوقف عليه صحة عقيدة المسلم ، كما صرح به العلماء ، لأن كتاب الله تحدث بها صراحة ووضوحاً . بَلْهَ السنة المتواترة والإجماع عليها من الأمة بجميع فرقها . وهذا معنى أفضليته عليه الصلاة والسلام لأننا نعلم أنه لا يوجد نبي ولا رسول ولا مَلَك جمع هذه الصفات كلها غيره . وإذ فلا يوجد من يساويه ، فضلاً عن أن يفوقه . ومن هنا قطعنا بأفضليته عليه الصلا

والسلام ، **كما قطعنا بخطأ من فضل الملائكة أو الرسل عليه**[٢٩٥] ، وهو - أعني من فضل ملكاً أو رسولاً عليه - إما متناقض لاعتقاده ثبوت معنى الأفضلية له صلى الله عليه وآله وسلم ، مع إثبات لفظها لغيره ، وإما غافل عن أن ثبوت المعنى لشيء ، يلزمه ثبوت اللفظ لذلك الشيء ضرورة أن اللفظ لازم للمعنى وتابع له .

(الثاني) : قد يقال : جاءت أحاديث تفيد عدم أفضلية النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهي قوله عليه الصلاة والسلام - لمن قال له : يا خير البرية - (ذاك إبراهيم) وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تفضلوني على يونس » ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « يصعق الناس فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بالعرش فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزِيَ بصعقته يوم الطور » وقوله عليه الصلاة والسلام - من حديث - « فعرفت فضل علمه بالله عليَّ » يعني جبري عليه السلام . ولنا في الجواب عن هذه الأحاديث مسلكان :

(الأول) : **الترجيح** . وذلك أن الأحاديث المذكورة أخبار آحاد ، والأفضلية ثابتة بالقرآن والسنة المتواترة والإجماع ، فتكون راجحة بلا نزاع .

(الثاني) : **الجمع** . وهو من وجهين :

(أحدهما) : أن تلك الأحاديث خرجت مخرج التواضع ، مع الإشارة إلى حفظ رتبة سيدنا يونس عليه السلام ، حتى لا يتسرب إلى النفوس ما يغض من مقامه الكريم ، بالنبسة لما حصل له ، على أن حديث الصعق لا علاقة له بالأفضلية ، لأن موسى عليه السلام إن كان لا يصعق يوم القيامة مجازاة له بصعقة يوم الطور فالأمر واضح . وإن كان يصعق ويفيق أول واحد فتلك مزية حقاً ! يقابلها من جانب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك اليوم مزايا : أهمها الشفاعة العظمى التي يتأخر عنها سيدنا موسى نفسه ، ويتقدم لها نبينا صلى الله عليه وآله وسلم . تتلوها شفاعات منه مقبولة ....

(ثانيهما) : أن تلك الأحاديث صدرت من النبي صلى الله عليه وآله وسلم

---

[٢٩٥] هذا كلام سيدي عبد الله وقد تقدم نقل كلام العلامة الشرفي الذي فيه تقديم الملائكة على الأنبياء ومنهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

قبل أن يعلمه الله بأفضليته عنده . بيان ذلك : أن الله تعالى والى إفضاله على نبيه وقتاً بعد وقت ، ولحظة بعد لحظة . فكان أول ما قال له في الإنذار ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ ثم ﴿ **ولتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾ ثم ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً** ﴾ ثم صرف إليه الجن ، وبعثه إليهم أيضاً . ثم عمم بعثته فقال ﴿ **تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً** ﴾ ثم أسرى به وأراه من آياته ، ما زاده رفعة وعلوا . ثم لما أمره بالجهاد أمر الملائكة بأن يجاهدوا معه ، ويكونوا من جنده . وهكذا كلما مرَّت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم لحظة زاد في نفسه فضلاً ، ونال من مولاه موهبة . وكلما نزلت عليه آية أو سورة ، ازداد بها علماً وقرباً . فكان علمه بأفضليته على المخلوقات متأخراً عن صدور تلك الأحاديث منه وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم بعدها « أنا سيد ولد آدم » .... ، ولما شمس البراق حين أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ركوبه ليلة الإسراء قال له جبريل : أبمحمد تفعل هذا ؟ فوالله ما ركبك أحد أكرم على الله منه ، فارْفَضَّ البراق عرقاً . وجبريل عليه السلام ركب البراق مع الأنبياء ، فهذه شهادة منه بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفضل منه ومن الأنبياء عليهم السلام] .

انتهى كلام « سيدي » عبد الله ابن الصديق أعلى الله تعالى درجته .

معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام :

لقد أيد الله تعالى أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام بالمعجزات ، حيث أظهرها على أيديهم ليصدقهم الناس وليعترفوا بأنهم رسل الله وأنبياؤه ، وكأن الله سبحانه وتعالى يقول للناس عند إظهار المعجزات على أيدي الرسل والأولياء : لقد صدق عبادي (الأنبياء والرسل) في كل ما يبلغونه عني .

والمعجزة مأخوذة في اللغة من العجز ، وهو الضعف وهو بعكس معنى القدرة ، لأن الناس يضعفون أمامها عن الإتيان بمثلها .

والمعجزة أمر خارق للعادة مقترن بالتحدي مع دعوى الرسالة والنبوة ولا يمكن معارضتها .

والأمر الخارق للعادة خمسة أنواع :

١- المعجزة : وهي التي تظهر على أيدي الأنبياء ، وقد عرَّفناها ، وبعض العلماء قسم المعجزة إلى قسمين ، **الأول** : ما يظهر قبل بعثه الرسول والنبي ويسمى إرهاصاً ، كالطير الأبابيل وحجارة السجيل التي سحقت جيش أبرهة وردته عن بيت الله الحرام خائباً هالكاً مرذولاً فكانت إرهاصاً لمبعث سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، **والثاني** : ما يحدث على يدي النبي بعد مبعثه وهي المعجزة .

٢- الكرامة : وهي الأمر الخارق للعادة الذي يظهره الله تعالى على يد المؤمن التقي الصالح المنقاد للنبي ، ومن علامات هذا المؤمن أن تكون عقيدته صحيحة وأن يكون قد تعلم وعرف ما فرضه الله عليه ولذلك قال العلماء (ما اتخذ الله من ولي جاهل) ، فمن ظهرت على يده خوارق ولم يكن مستقيماً شرعاً - اعتقاداً وعبادة - فليس بولي ، وما ظهر على يديه ليس كرامة ، والعوام لا يميزون بين الولي التقي العالم إلا بالمنظر والمظهر فيحسبون بعض الناس أولياء أخذاً بمظاهرهم وأن لهم كرامات والواقع بخلاف ذلك ، فتنبه لذلك ولا تغفل عنه .

٣- الإعانة : وهي أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى لإنسان عادي ليس ولياً فينقذه بها من ورطة مثلاً أو يخرجه من ضائقة ، كما جاء في الحديث الصحيح في الثلاثة الذين انفرجت الصخرة عن فم الغار الذي دخلوا فيه بعدما سَدَّتْهُ فخرجوا منه ونجوا رواه البخاري (٢٢٧٢) ومسلم (٢٧٤٣) .

٤- الإهانة : وهو أمر خارق للعادة يحدثه الله تعالى ضد مراد شخص يدَّعي الولاية أو النبوة على عكس مراده ودعواه ، كما روي أن مسيلمة الكذاب جاء لبئر مالح ماؤه فتفل فيه ليصبح ماءه حلواً فازدادت ملوحته وصار كنقاعة الحناء وغاض(٢٩٦) .

٥- الاستدراج : وهو أمر خارق للعادة أيضاً يحدث على يد من يدَّعي النبوة أو الولاية وهو كاذب فيقع الأمر وفق مراده مع أن حاله يدل على أنه غير

---

(٢٩٦) انظر تفسير القرطبي (١/ ٧١) .

مستقيم ، وبعض الفسقة اليوم يظنون أن ما يفعلونه أو يحصل على أيديهم كرامات !! فالأمر امتحان واختبار واستدراج لهم وللناس ؛ ليتبين هل سيتوب ويتقي الله تعالى أم سيبقى مغروراً بباطله ؟! قال تعالى ﴿ **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملي لهم إن كيدي متين** ﴾ القلم : ٤٥ ، وينبغي أن نعلم أو نتذكر هنا أن طوائف من الكفار كالبوذيين يضربون أنفسهم بالسيوف والرماح ولا تؤثر فيهم ويمشون على الجمر والنار فلا تحرق أرجلهم ولله في خلقه شؤون !!

ومن الأمور الباطلة قول بعضهم (ما صح أن يكون معجزة لنبي صح أن يكون كرامة لولي) فإن هذه العبارة فاسدة المعنى ، ولو قال بها بعض العلماء ، لأن القرآن مثلاً هو معجزة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يصح بحال أن يكون كرامة لولي ، يؤتيه الله كتاباً مثله ، وغيره كثير ، فتنبه لذلك .

سرد بعض معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام :

ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بعض معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فعلينا أن نؤمن ونصدِّق بها ، فمن تلك المعجزات :

١ - معجزات سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام : منها انقلاب العصى إلى حية حقيقية وابتلاعها حبال وعصي السحرة ، قال تعالى : ﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم لمن المقربين * قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين * قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم * وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقي السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون ﴾ الأعراف : ١٢٢ .

ومن معجزاته أنه ضرب البحر بعصاه فانفلق فمر بنو إسرائيل منه وخرجوا فلما دخل في البحر فرعون وجنوده عاد البحر كما كان فغرقوا قال تعالى ﴿ **فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم**

﴿ وأزلفنا ثم الآخرين ﴿ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ الشعراء : ٦٧ .

٢- **بعض معجزات سيدنا عيسى عليه السلام** : قال الله تعالى **﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني ، وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني ، وإذ تخرج الموتى بإذني ، وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾** المائدة : ١١٠ ، فهذا بيان معجزات سيدنا عيسى وليس بعد بيان القرآن بيان .

بعض معجزات سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم :

١- **القرآن الكريم** : لما كان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم سيد الأنبياء والمرسلين وخاتمهم فلا نبي بعده أعطاه الله معجزة خالدة مستمرة إلى قيام الساعة وهي القرآن الكريم الذي يبلى ثوب الدهر أمامه وإعجازه جديد ، ويهرم الزمان ورونقه إلى مزيد ، والذي ألجم به تحدي العرب العرباء ، وأعمدة البلغاء والفصحاء والشعراء ، والذي لا يزال في كل عصر ووقت يكتشف الناس صدق أخباره وأنبائه ، لما حواه من بيان جميع مرافق الحياة والأخذ بأيدي المجتمعات الإنسانية إلى الرقي والارتقاء ، ولم يأت أحد بكتاب يعجز الخلق بمن فيهم من البلغاء والفصحاء أن يأتوا ولا بسورة من مثله ، تصديقاً لما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم من قوله تعالى **﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بضعهم لبعض ظهيراً ﴾** الإسراء : ٨٨ .

ويتجلى الإعجاز فيه بأمور عديدة ، منها : البلاغة والفصاحة وعدم استثقال كلماته وأيجازه في العبارة مع عظم المعنى وإخباره عما كان وعما يكون ، وأن الناس يكتشفون كل يوم في العلوم الكونية ما يصدق معلوماته ، وأن قارئه لا يمل من قراءته إلى غير ذلك مما هو مبسوط ومدون في الكتب المتحدثة عن إعجاز القرآن ، ومن إعجازه أشياء غير معروفة لهذا اليوم تظهر شيئاً فشيئاً .

ومن أوجه الإعجاز في القرآن الكريم حفظه من أيدي المحرِّفين والمبدلين ، فلا يستطيع الخلق جميعاً أن يتلاعبوا به لقوله تعالى ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

٢- ومن معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم الإسراء والمعراج المذكور في سورة الإسراء ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا** ﴾ الإسراء : ١ .

٣- ومنها انشقاق القمر قال الله تعالى ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ وقد ثبت ذلك في الصحيحين وغيرهما .

وكذلك حنين الجذع ، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة حتى روى الجيش بعدما عطشوا ، وتكثير الطعام ، وكلها متواترة كما في كتاب « نظم المتناثر من الحديث المتواتر » للمحدِّث الكتاني .

ومنها ما رواه مسلم في الصحيح (٤/ ١٧٨٢) من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلِّم عليَّ قبل أن ابعث إني لأعرفه الآن » .

وغيرها كثير وكثير وكلها معجزات شاهدة على صدقه صلى الله عليه وآله وسلم وصحة نبوته ، والله الموفق والهادي .

واعلم أن منكر معجزات الأنبياء الثابتة المقطوع بها كافر ضال .

الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون

ومما يجب معرفته أيضاً أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أحياء بعد موتهم ، للنصوص الشرعية الواردة في ذلك ، والتي منها حديث سيدنا أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون » وهو صحيح(٢٩٧) ، ومنها حديث سيدنا عبد الله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « حياتي خير لك ... ومماتي خير لكم تعرض عليَّ أعمالكم فإن رأيت خيراً حمدت الله تعالى وإن رأيت شراً استغفرت لكم » وهو صحيح أيضاً(٢٩٨) .

وعن عبد الله بن مسعود أيضاً قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن لله في الأرض ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام » وهو صحيح(٢٩٩) .

قال ابن حزم في « الفصل » (١/ ٨٩) :

« **وكذلك ما أجمع الناس عليه وجاء به النص** من قول كل مصلٍ فرضاً أو نافلة : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . فلو لم يكن روحه عليه السلام موجوداً قائماً لكان السلام على العدم هدراً » انتهى .

وأما حياته صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته : فثابتة والنصوص فيها كثيرة ، وفي حديث الإسراء والمعراج الثابت في الصحيحين والذي فيه التقاء سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالأنبياء الذين قبله أكبر دليل على ذلك ، وصح

---

(٢٩٧) رواه أبو يعلى (٦/ ١٤٦) قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد» (٨/ ٢١١) : « رواه أبو يعلى والبزار ورجال أبي يعلى ثقات » .

(٢٩٨) رواه البزار (١/ ٣٩٧ كشف الأستار) وغيره ، قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩/ ٢٤) : « رواه البزار ورجاله رجال الصحيح » وانظر أيضاً كتابنا التناقضات الواضحات (٢/ ٢٩٦ - ٣٠٥) لترى الرد على مَنْ حاول تضعيفه .

(٢٩٩) رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٤٤١) وابن حبان في الصحيح (٣/ ١٩٥) وغيرهما وهو صحيح

أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون » رواه أبـ يعلى في « مسنده » (٦/ ١٤٧) وغيره وهو صحيح ، والمراد بقولـ « أحياء » هو الحياة التي نفهمها نحن ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لـ يخاطبنا إلا بما نفهم ، ومَنْ أوَّل الحياةَ بأنها حياة خاصة أو غير ذلك فقد أبعـ النجعة وهو تأويل باطل ، والحق ما ذكرناه .

وقال الإمام الحافظ عبد الوهاب السبكي رحمه الله تعالى في « الطبقات » (١/ ٣٢٧) : « والناس من خمسائة وثلاثة وستين سنة يخطبون في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .... **وهو حاضر يبصر ويسمع** » .

وقال الحافظ السخاوي في « القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع » ص (١٧١) :

« يؤخذ من هذه الأحاديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم **حي على الدوام** ، وذلك أنه محال عادة أن يخلو الوجود كله من واحد يسلِّم عليه في ليل أو نهار ونحن نؤمن ونصدق بأنه صلى الله عليه وآله وسلم **حي يرزق في قبره** ، وأن جسده الشريف لا تأكله الأرض ، والإجماع **على هذا** » .

وقال ابن حزم في « المحلى » (١/ ٢٥) :

« وأما الشهداء فإن الله عز وجل يقول ﴿ **ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله** ﴾ ولا خلاف بين المسلمين في أن الأنبياء عليهم السلام أرفع قدراً ودرجة وأتم فضيلة عند الله عز وجل وأعلى كرامة من كل من دونهم ، ومن خالف في هذا فليس مسلماً » .

ومن شاء الاستزادة في هذا الموضوع فعليه برسالة الحافظ البيهقي « حياة الأنبياء » ورسالة الحافظ السيوطي « إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء » وليراجع المخالفون كتاب « الروح » لابن القيم لِيُرَوِّحُوا عن أنفسهم !!

اللوح والقلم والعرش والكرسي

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ونؤمن باللوح والقلم ، وبجميع ما فيه قد رقم ، والعرش والكرسي حق وهو مستغن عن العرش وما دونه ، محيط بكل شيء وبما فوقه)(٣٠٠) .

الشرح :

(أولاً) : اللوح المحفوظ : هو أُمُّ الكتاب الذي ذكره الله تعالى في كتابه الكريم بقوله سبحانه ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾ الرعد : ٣٩ ، وقد ورد ذكره في قوله تعالى ﴿ **بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ** ﴾ البروج : ٢٢ .

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء »(٣٠١) وفي رواية صحيحة(٣٠٢) « وكتب في اللوح ذكر كل شيء » وهي مُفَسِّرَة للأولى .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق : أن رحمتي سبقت غضبي فهو مكتوب عنده فوق العرش »(٣٠٣) رواه البخاري (١٣/ ٥٢٢) ومسلم (٤/ ٢١٠٧) .

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٣/ ٥٢٦) :

---

(٣٠٠) في بعض النسخ بدل (وبما فوقه) لفظة (وفوقه) وقد أصرَّ عليها المتمسلفون لإثبات عقيدتهم المتهاوية ونصرة العلو الحسي والتجسيم الذي يعتقدونه !! وفي نسخة من مخطوطة الطحاوية وكذا في شرح الغنيمي ص ٩٣ ما أثبتناه فانتبه !! وسياق الكلام يدل على ما أثبتناه .

(٣٠١) رواه البخاري (٦/ ٢٨٦) وغيره .

(٣٠٢) رواها أحمد في المسند (٤/ ٤٣١) .

(٣٠٣) وقد قررنا فيما علقناه على كتاب العلو (النص رقم ٦١) أن هذا الحديث هو مما تفرَّد به أبو هريرة ولم يرويه غيره فيما نعلم ، وجملة (فهو عنده فوق العرش) نرى أنها لا تثبت لأن بعض رواياته خلو من هذه اللفظة ! انظر حاشية العلو ص (٢٠٠) .

« والغرض منه الإشارة إلى أن اللوح المحفوظ فوق العرش »(٣٠٤) .

وقال أيضاً (١٣/٤١٣) : « قال الخطَّابيُّ : المراد بالكتاب أحد شيئين :

إما القضاء الذي قضاه كقوله تعالى ﴿ كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسلي ﴾ أي قضى ذلك ، قال : ويكون معنى قوله (فوق العرش) أي عنده علم ذلك فهو لا ينساه ولا يبدله ، كقوله تعالى ﴿ **في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى** ﴾ .

وإما اللوح المحفوظ الذي فيه ذكر أصناف الخلق وبيان أمورهم وآجالهم وأرزاقهم وأحوالهم ، ويكون معنى (فهو عنده فوق العرش) أي ذِكْرُهُ وعِلْمُه وكل ذلك جائز في التخريج » انتهى .

فيمكن أن يقال إن اللوح المحفوظ كناية عن علم الله تعالى للأشياء وضبطه ولذلك كان الإيمان بتحديد معنى اللوح المحفوظ من فروع الاعتقاد لا من أصوله بحيث لا نُكَفِّر من يقول هو علم الله تعالى وليس كتاباً ولا جسماً محسوساً ، وأما من أنكر اللوح المحفوظ بمعنى إحاطة علم الله سبحانه وتعالى بالخلق وما يتصل بذلك فهو كافر مرتد .

وجاء في الحديث الصحيح أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لزوجته أم حبيبة :

« قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة » رواه مسلم (٤/٢٠٥١) وعن عبد الله بن عمرو قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة »(٣٠٥) رواه مسلم (٤/٢٠٤٤) .

---

(٣٠٤) ومن غريب التحليلات والكلام المخالف للسنة الصحيحة قول متناقض عصرنا !! في تعليقه على متن الطحاوية ص (٣٧) مقراً : « وإلا فقد قام الدليل على أن العرش فوق المخلوقات وليس فوقه شئ من المخلوقات » .

(٣٠٥) وأخشى أن يكون هذا الذي حكاه عبد الله بن عمرو ليس من كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإنما هو في الكتب القديمة التي كان عبد الله يقرأها !! وهي كتب أهل الكتاب !! فيكون هذا مثل حديث التربة الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة !! فتنبه !!

وقد حملنا هذه الأحاديث على كتابة هذه الأمور في اللوح المحفوظ وهو مخلوق ، أو إظهارها أي إعلام الملائكة بها ، ولا يمكن حمل ذلك على أنه ابتدأ تقديرها لأن الله يعلمها وقدَّرها منذ الأزل و ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ والله تعالى أعلم .

وجاء في حديث باطل (أورده ابن أبي العز في شرحه على الطحاوية ص ٢٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً :

« إن الله خلق لوحاً محفوظاً من دُرَّة بيضاء صفحاتها ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور ، لله فيه كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة ، وعرضه ما بين السماء والأرض ، وينظر فيه كل يوم ستين وثلاثمائة نظرة ، يخلق ويرزق ويميت ويحي ويعز ويذل ويفعل ما يشاؤه »(٣٠٦) .

(ثانياً) : القلم : ليس في القرآن ما يثبت القلم المراد إثباته هنا وأما قوله تعالى ﴿ **ن والقلم وما يسطرون** ﴾ فليس ذلك مراداً ؛ وإنما المراد هنا القَسَم بالقلم

---

(٣٠٦) هذا لفظه عن ابن عباس موقوفاً وهو مرفوع عنه بنحو هذه الأحرف رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٢/ ٧٢) ، وفي سنده محمد بن عثمان بن أبي شيبة متهم رموه بالكذب كما تجده في ترجمته ، وهو صاحب كتاب « العرش » الذي أتى فيه بطامات وأوابد ، وحسبنا هنا أن الشيخ ! المتناقض !! نفسه قال عنه في « إرواء غليله » (٧/ ١٠٧) ما نصه « وحسبك هنا أن الذهبي نفسه قد أورده في الضعفاء وقال : كذبه عبد الله بن أحمد ، ووثقه صالح جزره . قلت : فمثله كيف يصحح حديثه ؟! » ارجع إلى كتابنا التناقضات (٢/ ١٧٥ - ١٧٦) وأزيد عليه فأقول : وفي « لسان الميزان » (٥/ ٢٨٠ هندية) : « قال ابن خراش عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة هذا : كان يضع الحديث ، وطعن فيه مطين أيضاً والدارقطني ، وقال البرقاني : لم أزل أسمعهم يذكرون أنه مقدوح فيه » .

وفي سنده أيضاً زياد بن الحارث البكائي ضعيف ، قال الحافظ في التقريب : « في حديثه عن غير ابن إسحاق لين » وليث بن أبي سُلَيم قال الحافظ في التقريب : « صدوق اختلط جداً ولم يتميز حديثه فترك » وقد ضَعَّفَ هذين الأخرين المتناقض !! وخاصة الثاني منهما في مواضع كثيرة من كتبه ، وبعد هذا! يقول عن هذا الحديث في تعليقه على شرح صديقه !! في التجسيم ابن أبي العز في شرحه للطحاوية : « ضعيف » بدل أن يحكم ببطلانه !! وبطلانه ظاهر واضح لمخالفته لحديث « قد جف القلم بما أنت لاق » رواه البخاري (٩/ ١١٧) ، ولحديث « رفعت الأقلام وجفت الصحف » رواه الترمذي (٤/ ٦٦٧) وقال : حسن صحيح ، ولحديث مسلم (٤/ ٢٠٤١) : « جفت به الأقلام وجرت به المقادير » . وحديث الطبراني الباطل هذا فيه أن الأقلام لم تجف بل مازال الله يغير ويبدل .

الذي يسطر به الناس الكلام والكتابة .

وقد جاء ذكر القلم في أحاديث آحاد لا يثبت بمثلها عقائد : منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له : « جف القلم بما أنت لاق » رواه البخاري (٩/١١٧) قال الحافظ هناك في شرحه ص (١١٩) :

[قوله (جف القلم بما أنت لاق) أي نفذ المقدور بما كتب في اللوح المحفوظ فبقي القلم الذي كتب به جافاً لا مداد فيه لفراغ ما كتب به ، قال عياض : كتابة الله ولوحه وقلمه من غيب علمه الذي نؤمن به ونكل علمه إليه] انتهى .

قلت : وكلام الحافظ ملخصه أن ذلك كناية عن أن تقدير الله للأشياء وعلمه بما هو كائن أزلي ، ويتعالى الله أن يكون له قلم حقيقي ولوح يكتب فيه حقيقة كما يكتب البشر ، كما لا يحتاج لشيء يتذكر به ؛ ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ سبحانه ومع هذا فنحن لا ننكر وجود اللوح بل وجوده هو الراجح عندنا .

وجاء في البخاري (١/٤٥٩) ومسلم (١/١٤٩) أثناء حديث لسيدنا أنس في الإسراء معلقاً فيهما عن ابن شهاب قال : وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام » .

وهذا فيه إثبات أقلام عديدة لا قلم واحد ، فتأمل !!

وجاء في حديث آخر « أول ما خلق الله القلم » وهو صحيح الإسناد(٣٠٧) . والذي يظهر لنا أن هذا الحديث لا يصح رفعه وإنما هو موقوف عن ابن عباس وربما كان مما نقله من الإسرائيليات .

---

(٣٠٧) **الراجح أنه موقوف على ابن عباس** . رواه أبو يعلى في مسنده (٤/ ٢١٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٣) وفي الأسماء والصفات ص (٣٧٨) من حديث سيدنا ابن عباس بإسناد صحيح . ورواه ابن أبي عاصم في سنته (١/ ٤٨ –٥٠) من حديث عبادة بن الصامت وابن عمر وابن عباس بأسانيد ضعيفة ، وأحمد في المسند (٥/ ٣١٧) بسند ضعيف عن عبادة وأبو داود (٤/ ٢٢٥) من حديث عبادة بسند حسن إلا أنه مختلف فيه .

ورواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٩/ ١٤) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٤) موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما .

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٦/ ٢٨٩) :

[قوله (وكان عرشه على الماء) قال الطيبي : هو فصل مستقل لأن القديم من لم يسبقه شيء ، ولم يعارضه في الأولية ، لكن أشار بقوله « وكان عرشه على الماء » إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم لكونهما خلقاً قبل خلق السموات والأرض ، ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء . ومحصل الحديث أن مطلق قوله « وكان عرشه على الماء » مقيَّد بقوله « ولم يكن شيء غيره » والمراد بكان في الأول الأزلية وفي الثاني الحدوث بعد العدم . وقد روى أحمد والترمذي وصححه من حديث أبي رزين العقيلي مرفوعاً « إن الماء خُلِقَ قبل العرش » وروى السُّدِّي في تفسيره بأسانيد متعددة « إن الله لم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء » ، وأما ما رواه أحمد والترمذي وصححه من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً « أول ما خلق الله القلم ، ثم قال : اكتب ، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة » فيجمع بينه وبين ما قبله بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش أو بالنسبة إلى ما منه صدر من الكتابة ، أي أنه قيل له اكتب أول ما خلق ، وأما حديث ، « أول ما خلق الله العقل » فليس له طريق ثابت(٣٠٨) ، وعلى تقدير ثبوته فهذا التقدير الأخير هو تأويله والله أعلم ، وحكى أبو العلاء الهمداني أن للعلماء قولين في أيهما خُلِقَ أولاً العرش أو القلم ؟ قال : والأكثر على سبق خلق العرش ، واختار ابن جرير ومن تبعه الثاني ، وروى ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال « خلق الله اللوح المحفوظ مسيرة خمسمائة عام ، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش : اكتب ، فقال وما أكتب ؟ قال علمي في خلقي إلى يوم القيامة »(٣٠٩) ذكره في تفسير سورة سبحان ، وليس فيه سبق خلق القلم على العرش ، بل فيه

---

(٣٠٨) وكذلك حديث « أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر » حديث موضوع مكذوب ليس له إسناد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا هو في شيء من كتب السنة التي تروى فيها الأحاديث بأسانيدها ، ومحاولة ادعاء بعض الناس بأن له إسناداً في جزء مفقود من « مصنف عبد الرزاق » تعصب لا قيمة له في الموازين العلمية ، فتنبهوا لذلك !!

(٣٠٩) هذا حديث منكر مردود رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة (٢/ ٥٨٩) .

سبق العرش . وأخرج البيهقي في « الأسماء والصفات » من طريق الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال « أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب ، فقال : يا رب وما أكتب ؟ قال اكتب القَدَر فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة » وأخرج سعيد بن منصور عن أبي عوانه عن أبي بشر عن مجاهد قال « بدء الخلق العرش والماء والهواء ، وخلقت الأرض من الماء » والجمع بين هذه الآثار واضح] . انتهى من « الفتح » .

[تنبيه] : وأريد أن أنبه هنا على أمر مهم وهو بطلان وفساد ما جاء في أثر سيدنا ابن عباس من أن الله تعالى قال للقلم عندما خلقه « اكتب فقال : يا رب ما أكتب . فقال : اكتب القدر فجرى بما هو كائن إلى قيام الساعة » .

وذلك لأن القلم مخلوق من مخلوقات الله تعالى لا يعلم الغيب ولا القدر ، ولا يعرف شيئاً .ومن خالف في هذا يكون قائلاً بأن القلم يعلم الغيب ويعلم الأشياء الخمس التي لا يعلمها إلا الله وكل ذلك باطل من القول ، فتنبهوا لذلك ولا تغفلوا عنه !!

وخلاصة الأمر أن وجود القلم غير قطعي فليس هو عقيدة يكفر منكرها ، والله تعالى أعلم .

(ثالثاً) : العرش : العرش من أعظم مخلوقات الله تعالى حجماً عند الجمهور ، والتحقيق عندنا أنه هذا الكون بأسره يعني أنه ملك الله تعالى ؛ وليس هو على صورة كرسي كما تتوهم المجسمة والمشبهة الذين يتخيلون أن الله تعالى جالس عليه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

والعرش في لغة العرب : هو السقف والسرير والعز والملك والسلطان وغير ذلك ، قال الإمام الراغب في « المفردات » :

[عرش : العرش في الأصل شيء مُسَقَّف ، وجمعه عروش ، قال ﴿ **وهي خاوية على عروشها** ﴾ ومنه قيل عرشت الكرم ، وعرشته إذا جعلت له كهيئة سقف ، وقد يقال لذلك المعرش ، قال ﴿ **معروشات وغير معروشات** ﴾ ﴿ **ومن الشجر ومما يعرشون** ﴾ ﴿ **وما كانوا يعرشون** ﴾ قال أبو عبيدة : يبنون ، واعترش

العنب ركب عرشه ، والعرش شبه هودج للمرأة شبيهاً في الهيئة عرش الكرم ، وعرشت البئر جعلت له عريشاً ، وسمي مجلس السلطان عرشاً اعتباراً بعلوه . قال **﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ ﴿ أيكم يأتيني بعرشها ﴾ ﴿ نكّروا لها عرشها ﴾ ﴿ أهكذا عرشك ﴾** وكنى به عن العز والسلطان والمملكة ، قيل فلان ثُلَّ عرشه . وروي أن عمر رضي الله عنه رؤي في المنام فقيل ما فعل بك ربك ؟ فقال لولا أن تداركني برحمته لَثُلَّ عرشي . **وعرش الله ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم وليس كما تذهب إليه أوهام العامة ، فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له تعالى عن ذلك لا محمولاً والله تعالى يقول ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾** وقال قوم هو الفلك الأعلى والكرسي فلك الكواكب ، واستدل بما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما السموات السبع والأرضون السبع في جنب الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة والكرسي عند العرش كذلك »(٣١٠) .

وقوله ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ تنبيه أن العرش لم يزل منذ أوجد مستعلياً على الماء . وقوله **﴿ ذو العرش المجيد ﴾ ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش ﴾** وما يجري مجراه قيل هو إشارة إلى مملكته وسلطانه لا إلى مقر له يتعالى عن ذلك] انتهى .

وقال الحافظ الزَّبِيْدِي في « شرح القاموس » (٤/ ٣٢١) :

---

(٣١٠) هذا حديث ضعيف لا يثبت ، قال الحافظ في « الفتح » (١٣/ ٤١١) وفي حديث أبي ذر الطويل الذي صححه ابن حبان أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « يا أبا ذر ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة » ، وله شاهد عن مجاهد أخرجه سعيد بن منصور في التفسير بسند صحيح عنه] .

قلت : هو في صحيح ابن حبان (٢/ ٧٦-٧٧) وفي « موارد الظمآن » رقم (٩٤) ص (٥٢) .

وأخرجه بنحو هذا اللفظ ، الحافظ ابن جرير في تفسيره (٣/ ١٠) والبيهقي في « الأسماء والصفات » ص (٤٠٥) وصححه الألباني المتناقض !! في صحيحته (١/ ١٧٣) وصرح بأنه لا يصح حديث في إثبات الكرسي غير هذا الحديث ص (١٧٦) .

وكنت قد أوردته في بعض كتبي وذكرت أن الحافظ أشار إلى صحته في فتح الباري ثم عرفت أنه ضعيف بعد الوقوف على إسناده .

[(و) في الصحاح العرش (سرير الملك) قلت : وبه فسر قوله تعالى ﴿ **ولها عرش عظيم** ﴾ وفي حديث بدء الوحي « فرفعت رأسي فإذا هو قاعد على عرش في الهواء »(٣١١) وفي رواية « بين السماء والأرض »(٣١٢) يعني جبريل عليه السلام على سرير ، وقال الراغب : وسمي مجلس السلطان عرشاً اعتباراً بعلوه . وقال عز وجل ﴿ **أيكم يأتيني بعرشها** ﴾ وقال ﴿ **نكّروا لها عرشها** ﴾ وقال ﴿ **أهكذا عرشك** ﴾ (و) كنى به عن (العز) والسلطان والمملكة (وقوام الأمر ومنه) قولهم (ثل عرشه) أي عدم ما هو عليه من قوام أمر ، وقيل وهي أمره وقيل ذهب عزه ، ومنه حديث عمر رضي الله تعالى عنه أنه رؤي في المنام فقيل له : ما فعل بك ربك ؟! قال : لولا أن تداركني لَثُلَّ عرشي ، وقال زهير :

تداركتما الأحلاف قد ثُلَّ عرشها … وذبيان إذ زلت بأحلامها النعل

(و) العرش (ركن الشيء) قاله الزجاج والكسائي ؛ وبه فسر قوله تعالى ﴿ **وهي خاوية على عروشها** ﴾ أي خلت وخربت على أركانه (و) العرش (من البيت سقفه) ومنه الحديث « أو كالقنديل المعلق بالعرش »(٣١٣) يعني السقف ، وفي حديث آخر « كنت أسمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على عرشي »(٣١٤) أي سقف بيتي ، وبه فسر قوله تعالى ﴿ **خاوية على عروشها** ﴾ أي صارت على سقوفها كما قال عز من قائل ﴿ **فجعلنا عليها سافلها** ﴾ أراد أن حيطانها قائمة وقد تهدَّمَت سقوفها كما قال عز مِنْ قائل ﴿ **فجعلنا عاليها سافلها** ﴾ أراد أن حيطانها قائمة وقد تهدمت سقوفها فصارت في قرارها وانقعرت الحيطان من قواعدها فتساقطت على السقوف المتهدمة قبلها ، ومعنى الخاوية والمنقعرة واحد ، وهي المنقلعة من أصولها ، وجعل بعضهم على بمعنى عن ، وقال أي خاوية عن عروشها لتهدُّمها ، وعروشها سقوفها ، يعني سقط بعضها على

---

(٣١١) مسلم (١/ ١٤٤).

(٣١٢) البخاري (٨/ ٦٧٨) .

(٣١٣) مسلم (٣/ ١٥٠٢ - ١٥٠٣) .

(٣١٤) النسائي (٢/ ١٧٩)، وابن ماجه (١/ ٤٢٩) ، وأحمد في المسند (٦/ ٤٢٤) وغيرهم .

بعض وأصل ذلك أن يسقط السقف ثم تسقط الحيطان عليها (و) العرش (الخيمة) من خشب وثمام (و) العرش (البيت الذي يستظل به كالعريش) ومنه الحديث قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر ألا نبني لك عريشاً تستظل به فقال « بل عرش كعرش موسى »(٣١٥) ، (ج) أي جمع الكل (عروش وعُرُش) بضمتين (وأعراش وعِرَشة) بكسر ففتح وقال ابن سِيْدَه : وعندي أن عروشاً جمع عرش ، وعُرْشاً جمع عروش وليس جمع عرش لأن باب فعل وفعل كرهن ورهن وسحل وسحل لا يتسع (و) العرش (من القوم رئيسهم المدبر لأمرهم) على التشبيه بعرش البيت وبه فسر قول الخنساء :

كان أبو حسان عرشاً حوى　　　مما بناه الدهر دان ظليل

أي كان يظلنا بتدبيره في أموره (و) العرش (القصر) وقال كراع : هو البيت والمنزل (و) العرش كواكب قُدَّام السماك الأعزل ، وقال الجوهري هي (أربعة كواكب صغار أسفل من العواء ، ويقال لها عرش السماك وعجز الأسد) وفي التهذيب عرش الثريا كواكب قريبة منها **(و) العرش (الجنازة) وهو سرير الميت (قيل ومنه) الحديث (اهتز العرش لموت سعد بن معاذ واهتزازه فرحه) بحمل سعد عليه إلى مدفنه** وقيل إنه عرش الله تعالى لأنه قد جاء في رواية أخرى « اهتز عرش الرحمن لموت سعد »(٣١٦) ، وهو كناية عن ارتياحه بروحه حين صعد به لكرامته على ربه ، وقيل هو على حذف مضاف وقد تقدم البحث في ذلك مبسوطاً في « هـ ز ز » فراجعه (و) **قال ابن الأعرابي العرش (المُلْك) بضم الميم وهو كناية** كما تقدم عن الراغب » انتهى من شرح القاموس .

فالحاصل أن نصوص الكتاب والسنة واردة بذكر العرش وإثباته ، ولا ندري كنهه بالتحديد والظاهر أنه هذا العالَم والكون بأسره ، ويجب أن يعتقد كل مسلم أن العرش ضئيل ضعيف كالهباء أمام قدرة الله تعالى وجلاله ، ويكفر من تصور أن الله تعالى جسم أو على شكل إنسان جالس عليه كما قالت اليهود بأنه سبحانه بعد

---

(٣١٥) الدارمي في « السنن » (١/ ١٨) عن الحسن البصري مرسلاً .

(٣١٦) البخاري (٧/ ١٢٣) ومسلم (٤/ ١٩١٥) .

خلق السموات والأرض تعب واستلقى عليه لأنهم يتصورون هم والمجسمة بأن الله سبحانه جسم كالآدميين وأنه يجلس على سرير أو على كرسي سبحانه ما أحلمه .

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٧/ ١٢٤) :

[قال أبو الوليد بن رشد في « شرح العُتْبِيَّة » إنما نهى مالك(٣١٧) لئلاً يسبق إلى وهم الجاهل أن العرش إذا تحرَّك تحرَّك الله تعالى بحركته ، كما يقع للجالس منا على كرسيه ، وليس العرش بموضع استقرار الله ، تبارك الله وتنزه عن مشابهة خلقه ، انتهى ملخصاً . والذي يظهر أن مالكاً ما نهى عنه لهذا ، إذ لو خشي من هذا لما أسند في الموطأ حديث « ينزل الله إلى السماء الدنيا » لأنه أصرح في الحركة من اهتزاز العرش ، ومع ذلك فمعتقد سلف الأئمة وعلماء السنة من الخلف أن الله تعالى منزه عن الحركة والتحول(٣١٨) والحلول ليس كمثله شيء] انتهى .

وقال الشيخ عبد القاهر البغدادي في « أصول الدين » (ص١١٣) مؤولاً قوله تعالى ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ ما نصه :

« **والصحيح عندنا تأويل العرش في هذه الآية على معنى الملك** ؛ كأنه أراد أن الملك ما استوى لأحد غيره ؛ وهذا التأويل مأخوذ من قول العرب ثل عرش فلان إذا ذهب ملكه » انتهى .

ثم أورد شواهد من أشعار العرب تدل على ما ذهب إليه .

قلت : وهذا لا يخالف تأويلنا لقوله تعالى ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ أي الرحمن قاهر العرش ومستول على الممالك(٣١٩) ، وقد مر الكلام على معنى هذه الآية وما يتعلق بها مع تفنيد مزاعم المجسمة والمشبهة في الكلام

---

(٣١٧) عن التحديث بحديث « اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ » الذي في البخاري (٧/ ١٢٣) والظاهر أن الإمام مالكاً كان يرى ضعف هذا الحديث وعدم ثبوته .

(٣١٨) فأين هذا الكلام من زَعْمِ ابن تيمية الحراني في « موافقة معقوله لمنقوله » (٢/ ٤) المطبوع على هامش « منهاج سنته » من أن إثبات الحركة لله تعالى وتقدس عما يهذي به هو مذهب أئمة السنة والحديث من المتقدمين والمتأخرين ؟!! سبحانك اللهم إن هذا إلا بهتانٌ حَرَّاني عظيم !!

(٣١٩) ولا يقتضي هذا المعنى ونحوه المغالبة كما ادعاه بعض الموهين !! لأن مثل قوله تعالى ﴿ **والله غالب على أمره** ﴾ صريح في ذكر الغَلَبَة له سبحانه ولم يقتض معنى المغالبة المزعومة ؛ فافهم !!

على [القواعد التي يجب مراعاتها عند إطلاق صفة على الله تعالى] فليرجع إليها من شاء ، فهذا ما يتعلق بالعرش على وجه الاختصار ، والله الموفق .

(رابعاً) : الكرسي :

لقد ورد ذكر لفظ الكرسي في القرآن الكريم في آية الكرسي في سورة البقرة في قوله تعالى ﴿ **وسع كرسيه السموات والأرض** ﴾ . وروى الحافظ ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٣/ ٩) بسند صحيح عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال : [(وسع كرسيه) كرسيه : علمه] .

وقد ذهب جمهور علماء أهل السنة إلى أن الكرسي غير العرش ، وذهب جماعة من السلف إلى أن الكرسي هو العرش كما ذكره ابن جرير في « تفسيره » (٣/ ١٠) ، وقال القرطبي في « تفسيره » (٣/ ٢٧٨) : هو مذهب الحسن بن أبي الحسن . قلت : ولا يثبت هذا عن الحسن لأن في سنده إليه جويبر عن الضحاك والأول منهما متروك والثاني ضعيف .

ثم أخطأ القرطبي بقوله في « تفسيره » (٣/ ٢٧٧) :

« وأرباب الإلحاد يحملونها - أي قوله تعالى ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ - على عظم الملك وجلالة السلطان وينكرون وجود العرش والكرسي وليس بشئ » انتهى .

أقول : أخطأ القرطبي لأن سيدنا ابن عباس وغيره أولوها بالعلم ، بل القرطبي نفسه أولها بالعلم قبل ذلك وكذا الحافظ ابن جرير في تفسيره ! فتأمل !

والذي نقوله هو : أن العرش هو هذا الكون بأسره ، فمعنى قوله تعالى ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** ﴾ الحاقة : ١٧ ، أي : يحمل إدارة الموقف والخلق يوم القيامة وسَوْقَهم إلى الجنة والنار إلى ثمانية صفوف من الملائكة ؛ والتعبير بلفظ (فوقهم) إشارة إلى أن سَوْقَ الناس ومحاسبتهم ليس حسب ما يريدون وإنما تحت إشراف وسيطرة الملائكة بإرادة المولى سبحانه وتعالى ، كما قال سبحانه ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ .

وأما معنى قوله تعالى ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ

بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الزمر : ٧٥ ، فهو نفس المراد بقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ غافر : ٧ ، المراد بهذه الآية ما يحصل يوم القيامة من كون بعض الملائكة حافين بالكون وبأرض الموقف كما قال ﴿ والمَلَك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ فهناك ثمانية صفوف من الملائكة حافين بأرض الموقف وهناك من الملائكة مَنْ يسوق الناس ويعطونهم الصحف ويقومون ببقية الأعمال كخزنة الجنة والنار وغير ذلك والجميع يسبحون بحمد ربهم وينزهونه سبحانه .

قال العلامة الزمخشري في تفسيره « الكشاف » (٤/١٥٦) :

[وفائدة أخرى : وهي التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة لكان حملة العرش ومَنْ حوله مشاهدين معاينين ، ولما وُصِفُوا بالإيمان ؛ لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب فلما وُصِفوا به على سبيل الثناء عليهم عُلِمَ أن إيمانهم وإيمان في الأرض وكل مَنْ غاب عن ذلك المقام سواء ، في أن إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير ، وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا ، وأنه مُنَزَّهٌ عن صفات الأجرام] .

ومعنى قوله تعالى ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ أي وكان خلق هذا الكون الذي هو ملك الله تعالى وابتداؤه من ماء ! ومن المعلوم عربيةً أن (على) تأتي بمعنى (من) كقوله تعالى ﴿ إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ أي إذا اكتالوا من الناس ، وكقوله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ﴾ سبأ : ٥٠ ، أي : فإنما أضل من نفسي .

(فصل) : في بيان أربعة أحاديث باطلة تتعلق بالكرسي :

(الحديث الأول) : روي عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : [سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله الله تعالى ﴿ **وسع كرسيه السموات**

والأرض ﴾ قال : **كرسيه موضع قدميه** والعرش لا يقدر قدره[٣٢٠]] .

وهذا باطل مرفوعاً وموقوفاً !! وما هو إلا هراء يجل مقام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو ابن عباس رضي الله عنهما أن يفوها به ؛ إلا إن حكياه عن اليهود في مقام ذم عقائدهم الباطلة وذكر فساد ما يقولون !! وقد رواه مرفوعاً الخطيب البغدادي في « تاريخه » (٩/ ٢٥١) ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١/ ٢٢) ، ورواه موقوفاً الطبراني في الكبير (١٢/ ٣٩) والحاكم (٢/ ٢٨٢) والمجسم الكذاب محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتاب « العرش » ، قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣١٧) : « كذا أورد هذا الحديث الحافظ أبو بكر بن مردويه من طريق شجاع بن مخلد الفلاس فذكره وهو غلط » ثم قال بعد ذلك بقليل :

« وقد رواه ابن مردويه من طريق الحاكم بن ظهير الفزاري الكوفي وهو متروك عن السُدِّي عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً ولا يصح أيضاً » .

قلت : الصحيح عندنا في هذا الحديث أنه إسرائيلي مأخوذ من كعب الأحبار لأن أبا هريرة وابن عباس رضوان الله عليهما رويا عن كعب الأحبار كما في « تهذيب الكمال » للحافظ المزي (٢٤/ ١٩٠) ؛ فإذا علمت ذلك فستعرف خطأ الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٦/ ٣٢٣) حيث اكتفى بالتصريح بأن رجاله رجال الصحيح ، وكذا الإمام الحاكم في المستدرك حيث صحح الموقوف أيضاً على شرط الشيخين وأقره الذهبي ! فلا تغفل عن هذا لأن هؤلاء رحمهم الله تعالى كثير ما يصححون فيُرَدُّ تصحيحهم ، وقد روي نحو هذا الحديث عن أبي موسى الأشعري موقوفاً كما في « الأسماء والصفات » ص (٤٠٤) للحافظ البيهقي رحمه الله تعالى ، وقد تأول هذا النص البيهقي هناك بقوله : « **ذكرنا أن معناه فيما نرى أنه – أي الكرسي – موضوع من العرش موضع القدمين من السرير ، وليس فيه إثبات المكان لله سبحانه** » .

وفي أثر أبي موسى هذا ذكر للأطيط !! وقد صرَّح الحفاظ بأنه لا يصح

---

(٣٢٠) ولنا رسالة مطبوعة في بيان بطلان هذا الحديث أسميناها « إعلام الثقلين بخرافة الكرسي موضع القدمين » .

حديث في الأطيط وقد اعترف الشيخ ! المتناقض !! بذلك في « ضعيفته » (٢/ ٢٥٧و٣٠٧) !!

هذا ولم يورد ابن جرير الطبري في تفسيره عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما غير تأويله الآية ﴿ **وسع كرسيه** ﴾ بالعلم ؛ وهذا مما يؤكد لنا بطلان ما رويَ عن ابن عباس من أنه قال : « الكرسي موضع القدمين » .

وقال ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٣/ ١١) في ختام تفسير هذه العبارة من آية الكرسي : [وأما الذي يدل على صحته ظاهر القرآن فقول ابن عباس الذي رواه جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عنه أنه قال : هو علمه ، وذلك لدلالة قوله تعالى ذكره ﴿ **ولا يؤده حفظهما** ﴾ على أن ذلك كذلك ، فأخبر أنه لا يؤوده **حفظ ما علم** ، وأحاط به مما في السموات والأرض ...] ودلل على ذلك بعدة أدلة من القرآن واللغة ، والحمد لله رب العالمين .

وإذا كان الكرسي موضع قدمي الرب سبحانه وتعالى فمعنى ذلك أن المولى سبحانه جسم على هيئة الآدمي له رجلان وقدمان يدليهما[٣٢١] من العرش ويضعهما على الكرسي وهذا الكلام كفر وضلال ما بعده ضلال !! ولذلك فأنا أجزم ببطلان لفظ « الكرسي موضع القدمين » مرفوعاً وموقوفاً ، وأجزم بأنه دخيلة إسرائيلية منقولة عن كعب الأحبار وعبد الله بن سلام الإسرائيلي ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

(**الحديث الثاني**): ما رواه عبد الله بن خليفة - وهو أحد المجاهيل - (كذباً وزوراً) عن سيدنا عمر رضوان الله تعالى عليه أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : ادْعُ الله تعالى أن يدخلني الجنة فعظَّم الرب تعالى ذكره ، ثم قال : « إن كرسيه وسع السموات والأرض ، وإنه ليقعد عليه فما يفضل منه

---

[٣٢١] في مسند أحمد (٣/ ١٣٤) من حديث أنس بن مالك عن جهنم : « فيدلي فيها رب العالمين قدمه » تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وحديث وضع القدم في النار روي من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وأنس بن مالك وكلهم ممن يروي الإسرائيليات ويتلقى عن كعب الأحبار وغيره من أهل الكتاب الذين تظاهروا بالإسلام .

مقدار أربع أصابع - ثم قال بأصابعه فجمعها - وإن له أطيطاً كأطيط الرَّحل الجديد إذا ركب من ثقله » .

هذا الحديث المفترى مروي في تفسير الحافظ ابن جرير الطبري (٣/ ١٠) وما أظنه إلا مدسوساً في تفسيره لأن الكلام الذي بعده مباشرة ينقضه (لأن النسخة المطبوعة من تفسير ابن جرير كانت بأيدي الحنابلة) والله تعالى المستعان !!

والحديث مروي أيضاً في كتاب « السنة » المسنوب لابن أحمد ص (٨٠) برقم (٤٠٩) ومن هذه المصنفات التي روي هذا الحديث فيها بهذا اللفظ تعلم أنه موضوع مكذوب ، لا سيما والشيخ الحراني يعترف في « منهاج سنته » (١/ ٢٦٠) بقوله : « والحديث قد طعن فيه غير واحد من المحدثين كالإسماعيلي وابن الجوزي ... » .

وذكر الشيخ المتناقض !! في « ضعيفته » (٢/ ٢٥٦) بعدما اعترف بأن الحديث منكر أنه : رواه أبو العلاء الحسن الهمداني في كتاب في الصفات (١/١٠٠) وهو حنبلي ، ورواه الضياء في المختارة (١/ ٥٩) وهو حنبلي أيضاً ، كما رواه أبو محمد الدشتي المجسم الحنبلي في الكتاب الذي سماه « كتاب إثبات الحد لله عز وجل وأنه قاعد وجالس على عرشه » (١٣٤ - ١٣٥) ومن أسماء هؤلاء الحنابلة تعلم مبلغ الحديث من الصحة !! وانظر للاستزادة عن هذا الدشتي ما كتبه الامام المحدث الكوثري عليه الرحمة والرضوان على ذيل « تذكرة الحفاظ » للحافظ الحسيني ص (٢٦٣) ، وانظر تعليقي على كتاب « دفع شبه التشبيه » للحافظ ابن الجوزي ص (٢٤٧) وما بعدها .

(الحديث الثالث) : روي عن ثعلبة بن الحكم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يقول الله عز وجل للعلماء يوم القيامة إذا **قعد على كرسيه** لقضاء عباده : إني لم أجعل علمي وحكمي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبالي » . هكذا رواه الطبراني في « معجمه الكبير » (٢/ ٨٤) .

وهو حديث باطل مكذوب مفترى في سنده العلاء بن مسلمة بن عثمان الرواس وضاع لا يحل الاحتجاج به [انظر ترجمته في « تهذيب

الكمال » (٢٢/ ٥٣٩)](٣٢٢) . رواه أبو نُعَيم في « الحلية » (٣/ ١٨٠) وهو موضوع .

الإيمان بالكتب السماوية

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ونؤمن بالملائكة والنبيين والكتب المنزلة على المرسلين) .

الشرح :

قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلال بعيداً** ﴾ النساء : ١٣٦ .

الإيمان بالكتب السماوية غير المحرفة التي أنزلها الله تعالى على الأنبياء من أركان التوحيد والإيمان ، فيكفر من أنكر أو جحد ولو واحداً منها مما هو منصوص عليه في القرآن أو بحديث متواتر ، أو جحدها جملة ، ومن المعلوم أن جميعها قد حُرِّفَ ولم يبق على ما أنزلها الله إلا القرآن الكريم ، والدليل عليه قول الله تعالى ﴿ **قل فاتوا بالتوراة فاتلوها أن كنتم صادقين** ﴾ وقال الله تعالى عن أهل الكتاب ﴿ **وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون** ﴾ البقرة : ٧٥ ، وقال تعالى ﴿ **يحرفون الكلم عن مواضعه** ﴾ النساء : ٤٦ ، وقال

---

(٣٢٢) ومن الخطأ البين قول الحافظ الهيثمي رحمه الله تعالى عنه في « المجمع » (١/ ١٢٦) : « رجاله موثقون » وكذا إيراد صاحب « التاج الجامع للأصول » (١/ ٦٠) لهذا الحديث الموضوع بعبارة فيها لبس تفيد تحسينه !! وقد أخبرني شيخي سيدي عبد الله ابن الصديق أنه يعرف مؤلف التاج وأنه لا يعرف في الحديث قليلاً ولا كثيراً ؛ وإنما هو مجرد ناقل . وهو كذلك حقاً وصدقاً .

وكذلك أخطأ الحافظ المنذري رحمه الله تعالى في « الترغيب والترهيب » (١/ ١٠١) حيث قال في تخريج هذا الحديث الذي نحن بصدده : « رواه الطبراني في الكبير ورواته ثقات » !! وكذلك قول ابن كثير في « تفسيره » (٣/ ١٤٩) : « إسناده جيد » . وكذا أيضاً قول الحافظ السيوطي عنه في « اللآلي المصنوعة » (١/ ٢٢١) : « لا بأس به » وقد وقع هذا من هؤلاء العلماء فيما أظن لتقليدهم الحافظ المنذري الذي أخطأ في تخريجه ، وعادة إذا أخطأ الحافظ المنذري في تخريج حديث فإن الحافظ الهيثمي يخطئ فيه أيضاً لأنه يتبعه ويأخذ بقوله كثيراً .

سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ الحجر : ٩ ، وقوله تعالى عنه أيضاً ﴿ **وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ فصلت : ٤٢ .

قال العلامة النسفي في تفسيره :

« قيل الكتب المنزلة من السماء إلى الدنيا مائة وأربعة ، صحف شيث (ابن سيدنا آدم) ستون ، وصحف إبراهيم ثلاثون ، وصحف موسى قبل التوراة عشرة ثم التوراة له ، والإنجيل لسيدنا عيسى والزبور لسيدنا داود والقرآن لسيدنا محمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين » .

والدليل على بعض ما قال العلامة النسفي قول الله تعالى ﴿ **نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان** ﴾ آل عمران : ٣ ، وقال تعالى ﴿ **وآتينا داود زبوراً** ﴾ النساء : ١٦٣ وقال تعالى ﴿ **أن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى** ﴾ الأعلى : ١٩ .

ففي هذه الآيات الكريمة ذكر الكتب المنزلة القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وصحف سيدنا إبراهيم وصحف سيدنا موسى التي يكفر من جحد واحداً منها ، وأما الباقي فلا يكفر جاحدها لأنها لم تثبت بنص قطعي .

الإيمان بوجود الجآن وما يتعلق بذلك

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(وهو صلى الله عليه وآله وسلم المبعوث إلى عامة الجن)

الشرح :

الإيمان بوجود الجن أمر واجب لأن الله تعالى ذكر لنا الجن وأعلمنا بوجودهم في القرآن الكريم ، فيكفر لذلك جاحد وجودهم ومن تلك الآيات الواردة بذكرهم قوله تعالى ﴿ **يا معشر الجن والإنس أن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان * فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ الرحمن : ٣٤ ففي هذه الآية أيضاً دليل على أنهم مكلفون بشريعتنا لأن الله تعالى خاطبهم بهذا القرآن وتحداهم به ، ويؤكد هذا قوله تعالى ﴿ **قل أوحي إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا مسعنا قرآناً عجباً * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً** ﴾ الجن : ٢ .

فهذه الآيات تثبت وجوب الإيمان بوجود الجن وأنهم مكلفون الآن بشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد كانوا قبل ذلك أيضاً مكلفين بشرائع الأنبياء السابقين ، وليس فيهم أنبياء إنما يتبعون شرائع أنبياء البشر لا غير ، ومن ذلك قوله الله تبارك وتعالى : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم** ﴾ الأحقاف : ٣١ ، وقال تعالى : ﴿ **وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون** ﴾ النمل : ١٧ وقال تعالى ﴿ **ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير** ﴾ سبأ : ١٢ .

والجآن مخلوقون من نار لقوله تعالى : ﴿ **خلق الانسان من صلصال كالفخار**

* **وخلق الجآن من مارج من نار** ﴾ الرحمن : ١٥ ، وللحديث الصحيح « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجآن من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » رواه مسلم (٤/ ٢٢٩٤) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .

والجن لا يعلمون الغيب ؛ لقوله تعالى عن سيدنا سليمان ﴿ **فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين** ﴾ سبأ : ١٤ ، وإنما يحاولون استراق السمع من الملائكة في السماء الدنيا ، والمراد باستراق السمع سرقة بعض الأخبار التي أعلم الله تعالى الملائكة بأنها ستحدث وتكون ، فقد جاء في الحديث الصحيح : « إن الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قضي في السماء ، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان ، فيكذبون منها مائة كذبة من عند أنفسهم » رواه البخاري (٦/ ٣٠٤ فتح) .

وقد نص القرآن على أن الجن والشياطين كانوا يذهبون إلى مواضع في السماء الدنيا لاستراق السمع قبل مبعث سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلما بعث عليه الصلاة والسلام طردوا ورموا بالشهب فشدد عليهم ، قال الله تعالى حكاية عن الجن ﴿ **وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً** * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ .

واعلم أن إبليس من الجن وقد أخطأ الإمام النووي رحمه الله تعالى في كتابه « الأسماء واللغات » في ترجمته ص (١٠٦) عندما قال « والصحيح أنه من الملائكة » !!

وهذا القول منه مخالف لقوله تعالى ﴿ **إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه** ﴾ الكهف : ٥٠ ، ومخالف أيضاً لقوله تعالى ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم** ﴾ فاعرف ذلك .

[فائدة] : قال الله تعالى ﴿ **يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** ﴾ الأعراف : ٢٧ .

في هذه الآية نص على أن الشيطان وقبيله وهم الجن يروننا ونحن لا نراهم ، قال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية في تفسيره (١٨٦/٧) :

« قال بعض العلماء : في هذا دليل على أن الجن لا يُرَون ، لقوله ﴿ **من حيث لا ترونهم** ﴾ ، وقيل جائز أن يروا ؛ لأن الله تعالى إذا أراد أن يريهم - للناس كشف أجسامهم حتى ترى .

قال النحاس : ﴿ **من حيث لا ترونهم** ﴾ يدل على أن الجن لا يُرَون إلا في وقت نبي ليكون ذلك دلالة على نبوته ، لأن الله جل وعز خلقهم خلقاً لا يرون فيه ، وإنما يرون إذا نقلوا عن صورهم ؛ وذلك من المعجزات التي لا تكون إلا في وقت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم » .

ثم قال بعد ذلك :

[وقد جاء في رؤيتهم أخبار صحيحة . وقد خرج البخاري عن أبي هريرة قال : وكلني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحفظ زكاة رمضان ، وذكر قصة طويلة ، ذكر فيها أنه أخذ الجني الذي كان يأخذ التمر ، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له : ما فعل أسيرك البارحة . وقد تقدم في البقرة . وفي صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « والله لولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثوقاً يلعب به وِلْدَان أهل المدينة » في العفريت الذي تفلت عليه .] انتهى

قلت : قال الإمام الحافظ عبد الوهاب السبكي في كتابه « طبقات الشافعية الكبرى » (١٤٨/٣) : « وفي هذه المناقب (أي مناقب الشافعي للآبري) أن حرملة قال : سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول : من زعم من أهم العدالة أنه يرى الجن أبطلنا شهادته لقوله تعالى ﴿ **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** ﴾ إلا أن يكون الزاعم نبياً » انتهى .

أقول : هذا الكلام الذي قاله الشافعي هو الصواب الذي يميل إليه القلب للآية المذكورة ، ولما ذكره الإمام القرطبي عن الإمام النحاس فإنه المفهوم منها والمعقول .

وأما حديث أبي هريرة الذي في البخاري في باب الوكالة (٤/ ٤٨٧) فهو منقطع الإسناد كما قاله الحافظ ابن العربي المالكي كما نقله عنه الحافظ في « الفتح » (٤/ ٤٨٨) لأن البخاري قال في أول إسناده : « وقال عثمان بن الهيثم أبو عمرو حدثنا عوف ... » فذكره ، ونرى أن هذه القصة مضطربة كما سيأتي بيان رواياتها بعد قليل إن شاء الله تعالى ؛ فهي إما غير ثابتة أو تعددت وهو بعيد لأنه قد روي حصولها مع ستة من الصحابة وظاهر الحادثة واحدة .

فمن ذلك :

١- فبعضهم يروي أنها حصلت مع أبي هريرة وذلك عند البخاري (٤/ ٤٨٧) وغيره .

٢- وبعضهم يقول إنها حصلت مع أبي أيوب الأنصاري كما في الترمذي (٥/ ١٥٨) وفي المستدرك (٣/ ٤٥٨ - ٤٥٩) للحاكم ؛ وفيه أن الذي أتاه شيطانة على صورة السِّنَّوْر !! (أي القط أو الهر) .

٣- وبعضهم يرويها عن أبي بن كعب ! رواه الطبراني (١/ ٢٠١) قال الحافظ الهيثمي في

« المجمع » (١٠/ ١١٨) : « رواه الطبراني ورجاله ثقات » .

٤- وبعضهم يرويها عن معاذ بن جبل ! رواه الطبراني (٢٠/ ٥١ و ١٠١) وهو حسن بطريق آخر .

٥- وبعضهم يرويها عن أبي أسيد الساعدي عند الطبراني (١٩/ ٢٦٣) ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٦/ ٣٢٣) : « رواه الطبراني ورجاله وثقوا كلهم وفي بعضهم ضعف » أي أنه حسن كما يظهر .

٦- وبعضهم يرويها عن بريدة بن الحصيب عند البيهقي في « دلائل النبوة » (٧/ ١١١) .

ونستبعد أن تكون حصلت مع هؤلاء الستة .

وإليك نص الحديثين اللذين ذكرهما القرطبي في كلامه **الأول** : قصة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع الجني الواقعة في صحيح مسلم ، **والثاني** : قصة أبي

هريرة مع الجني التي في صحيح البخاري المعلقة للاطلاع وحصول الفائدة .

[الحديث الأول] : روى مسلم في « الصحيح » (١/ ٣٨٤) من حديث أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« أن عفريتاً من الجن جعل يفتك علي البارحة ليقطع عليَّ الصلاة . وإن الله أمكنني منه فَذَعَتُّهُ (أي خنقته) فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون ثم ذكرت قول أخي سليمان : ﴿ **رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي** ﴾ فرده الله خاسئاً » .

[الحديث الثاني] : قال البخاري في « صحيحه » (٤/ ٤٨٧) :

[وقال عثمان بن الهيثم أبو عمرو : حدثنا عوف ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : وكلني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحفظ زكاة رمضان . فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته وقلت : والله لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : إني محتاج وعليَّ عيال ، ولي حاجة شديدة . قال : فخليت عنه . فأصبحت ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ » قلت : يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً ، فرحمته فخليت سبيله . قال : « أما إنه قد كذبك ، وسيعود » . فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه سيعود فرصدته ، فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : دعني فإني محتاج ، وعليَّ عيال ، لا أعود . فرحمته فخليت سبيله . فأصبحت ، قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك ؟ » قلت : يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً ، فرحمته فخليت سبيله . قال : « أما إنه قد كذبك وسيعود » فرصدته الثالثة ، فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهذا آخر ثلاث مرات ، إنك تزعم لا تعود ثم تعود . قال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها . قلت : ما هُنَّ ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿ **الله لا إله إلا هو**

الحي القيوم .... ﴾ حتى تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح . فخليت سبيله . فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما فعل أسيرك البارحة ؟ » قلت : يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله قال : ما هي ؟ قلت : قال لي إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿ **الله لا اله إلا هو الحي القيوم ....** ﴾ وقال لي : لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، وكانوا أحرص شيء على الخير .

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أما إنه قد صدقك وهو كذوب . تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أباهريرة ؟ » قال : لا . قال : « ذاك شيطان »]. انتهى .

فهذه الأحاديث إن صحَّت تثبت رؤية الجن في عهد نبي لتكون معجزة له ، أما في غير زمان النبي فلا يرى كما قدمنا ، (ولا التفات لدعوى بعض الناس في تخيلهم أنهم يرون في لحظة سريعة أحياناً إنساناً بشكل مميز كأن يتخيلوا رجلاً قصيراً قزماً أو أشكالاً أخرى) .

والإمام الشافعي يقول كما تقدم : من زعم أنه رآهم نرد شهادته .

حكم التعامل مع الجن وإخراجهم وإتيان الكهان والعرافين

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :
(ولا نُصَدِّق كاهناً ولا عرافاً) .
الشرح :

انتشر في هذه الأيام بين بعض الناس بشكل كبير ما يسمونه التعامل مع الجن وتحضير الأرواح وإخراج الجني من بعض من يزعمون أنه أصيب بالصرع ولنا على هذه الأمور ملاحظات :

الأولى : أما تحضير الأرواح فغير صحيح البتة ، والمعلومات التي يعطيها صاحب المعلومات غير صحيحة ، ولا يجوز تصديق أخبارهم ولو طابق بعضها الواقع ، وتحصل المطابقة أحياناً إذا كانت سؤالاً عن بعض ما يتعلق بشخصية السائل مما وقع ، لأن قرين الانسان الذاهب للعراف يخبر قرين العراف المتصل بالجان الذي يدَّعي بأنه يحضر الأرواح بالمعلومات المتعلقة بهذا الشخص كاسمه واسم والده ووالدته وعدد أولاده وسِنّه فيظنه عندئذ إذا أخبره بذلك أنه يعلم الغيب . وهذا فعل حرام وهو اشتغال بما لا فائدة فيه .

الثانية : وأما سؤال الجن والاتصال بهم فلا يُقِرُّه الشرع أي أنه عمل غير مشروع ومُحَرَّم قال تعالى ﴿ **ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم** ﴾ البقرة : ١٠٢ ، ولقوله تعالى حكاية عن إبليس اللعين : ﴿ **فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلَصين** ﴾ ص : ٨٣ ، والمُخْلَصين بفتح اللام هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فهذا صريح في أن الشياطين والجن يضلون الخلق ولا يهدونهم ولا يأخذون بأيديهم إلى الطاعة ، ولقوله تعالى ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً** ﴾ الجن : ٦ ، وقال تعالى : ﴿ **إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً * لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً**

مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذن الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ، ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً * يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً ﴾ النساء : ١٢١ .

وقد انتشرت في هذه الأيام كتب تتضمن دعاوى محاورات مع الجان والشياطين ، وتتحدث بجهل بالغ عن عالم الجن والشياطين ، وعن كيفية إخراج الجني من المصروع ، كما انتشرت أشرطة يزعمون أن فيها محاورات مع الجن ، وكلام بين مخرجي الجن من المصروعين وبين الجني الصارع ، ويذكر في تلك الأشرطة أن ذلك الجني تركي أو هندي أو صيني أو فرنسي وما إلى ذلك من الترهات ، ثم ذهب جماعة من المشايخ المنتمين إلى السلفية المعاصرة يدعون أن بإمكانهم إخراج الجن ، فجاءوا إلى كثير من المرضى الذين أصيبوا بصرع نتيجة أمور تتعلق بالجهاز العصبي أو حالات إغماء أو صداع أو غير ذلك فجعلوا يضربون أولئك المرضى ويؤذونهم ويثخنونهم بالجراح زاعمين بذلك أن الجني سيخرج منهم بالضرب واللكم ، وكل ذلك تخريف وضلال مبين وشعوذة ممقوتة مذمومة بنظر الشرع ، والذي فتح لهم هذا الباب على مصراعيه في هذا الزمن ، وجرأهم على هذه البدعة النكراء هو أحد مشايخهم الذي زعم أن جنياً أسلم على يديه ولو فعل مثل هذه الأفاعيل النكراء أحد المتصوفة لرفعوا عقيرتهم بالرد عليه ولقاموا بتأليف المجلدات الضخمة في بيان إلحاده وضلاله وانحرافه عن الجادة !!ولله تعالى في خلقه شؤون لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون !!

وكل هذه الأعمال حرام مبين لا يجوز فعلها لما أسلفناه من الأدلة ولما سيأتي إن شاء الله تعالى ، وقد علمنا ديننا الحنيف أن نقرأ آية الكرسي والمعوذتين وغير ذلك لنقي أنفسنا من عمل الشياطين والسحر والسحرة .

ثم مما يجدر التنبيه عليه أنه يجب محاربة المشعوذين والسحرة الذين يكتبون الحجب والتمائم التي تحوي غير القرآن من الطلاسم والحروف التي لا تُفْهَم ولا يدرى معناها ونحوها ، والذين يستخفون بعقول بعض ضعفاء العقول بل وغيرهم

ليغنموا أموالهم بالباطل ألا ساء ما يزرون وهم كذابون ، وعملهم حرام والإتيان إليهم حرام ، وبعض الناس يظنون أنهم يستطيعون أن يحلوا مشاكلهم أو يشفوا مرضاهم وربما حدث المقصود استدراجاً من الله تعالى لهم ، مع أن الإسلام والعقل السليم أمر الإنسان أن يأخذ بالأسباب ، ولو كان هؤلاء المشعوذون يستطيعون ذلك لاستعانت بهم الشرطة في كشف اللصوص فإنهم يستعينون بالكلاب ولا يستعينون بهم ، أو لاستعان بهم المسلمون في دحر أعداء الأمة أو غير ذلك من الأمور المهمات .

ثم نقول لمدعي السلفية : هل كان السلف الصالح يقومون بما يقوم به أكثركم اليوم وترضونه ؟ هل كان عبد الله بن المبارك والثوري وشعبة ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل يفعلون هذه الأفاعيل ؟! حاشاهم من ذلك .

ونحن لا ننكر وجود الجن والشياطين ولا تلبسهم أحياناً نادرة جداً ببعض الناس وإنما ننكر الاشتغال بما ذكرناه من المنكرات وإيهام أي مريض أو صاحب مشكلة بأنه مصاب بتلبس أو أنه مسحور ، كما ننكر إتيان العرافين والكهنة وزاعمي إخراج الجن من الناس .

روى البخاري (١٠/ ١١٤) وغيره عن سيدنا ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : أتت امرأة سوداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : إني أُصْرَع وإني أتكشَّف فادع الله لي . قال : « أن شئتِ صبرتِ ولكِ الجنة ، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك » ؛ فقالت : أصبر . ثم قالت : إني أتكشَّف (يعني إذا صرعت ووقعت على الأرض ينكشف شيء من جسمها وهي لا تحب ذلك لأنها مؤمنة تَقِيَّة) فادعو الله لي أن لا أتكشف ، فدعا لها » .

فانظر كيف لم يقل لها صلى الله عليه وآله وسلم أنت قد تلبسك شيطان ، كما يزعم اليوم أولئك الخرَّاصون ، ثم بين أن علاجها إنما يتم بالدعاء ، لا بالضرب ونحوه مما يفعله اليوم المتمسلفون والدجالون ! فاعلم ذلك جيداً يرحمك الله تعالى .

وعلى فرض أن الراكضين وراء التعامل مع الجن اتصلوا فعلاً بجني يريدون منه أمراً فإنه سيلعب بهم وسيخدعهم ويضللهم تحقيقاً لبعض الآيات التي ذكرناها

قبل قليل والتي فيها قوله تعالى مخبراً عن الشيطان والجن ﴿ **ولأضلنهم** ﴾ لأنه إذا كان في الإنس عفاريت مضلون فما بالك بالجن والعافريت والشياطين الحقيقيين ؟!!!

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في « شرح صحيح مسلم » (١٤/ ٢٢٣):

[**باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان** : قوله صلى الله عليه وآله وسلم « فلا تأتوا الكهان » وفي رواية سئل عن الكهان فقال : « ليسوا بشيء » قال القاضي رحمه الله كانت الكهانة في العرب ثلاثة أضرب :

أحدها : يكون للإنسان ولي من الجن يخبره بما يَسْتَرِقُهُ من السمع من السماء وهذا القسم بطل من حين بعث الله نبينا صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : **أن** يخبره بما يطرأ أو يكون في أقطار الأرض وما خفي عنه مما قرب أو بعد وهذا لا يبعد وجوده ؛ ونفت المعتزلة وبعض المتكلمين هذين الضربين وأحالوهما ، ولا استحالة في ذلك ولا بُعْدَ في وجوده لكنهم يصدقون ويكذبون ، والنهي عن تصديقهم والسماع منهم عام .

الثالث : المنجمون وهذا الضرب يخلق الله تعالى فيه لبعض الناس قوة ما لكن الكذب فيه أغلب ومن هذا الفن العرافة ؛ وصاحبها عرَّاف ، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعي معرفتها بها وقد يعتضد بعض هذا الفن ببعض في ذلك بالزجر والطرق(٣٢٣) والنجوم وأسباب معتادة وهذه الأضرب كلها تسمى كهانة وقد أكذبهم كلهم الشرع ونهى عن تصديقهم وإتيانهم والله أعلم] . انتهى.

وقد ثبت في صحيح مسلم (١٧٤٨/٤) عن معاوية بن الحكم السلمي الصحابي قال : قلت يا رسول الله : « أموراً كنا نصنعها في الجاهلية : كنا ناتي الكهان ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « **فلا تأتوا الكهان** » .

وفي مسلم (٤/ ١٧٥٠) أيضاً عن السيدة عائشة قالت : سأل أناس رسول الله

---

(٣٢٣) الطرق : الضرب بالحصى وهو ضرب من التكهن .

صلى الله عليه وآله وسلم عن الكهان ؟ فقال لهم « **ليسوا بشيء** » **قالوا** : يا رسول الله ؛ فإنهم يحدثون أحياناً الشىء يكون حقاً فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« تلك الكلمة من الجن يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة » .

وفي « صحيح مسلم » (١٧٥١/٤) أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً » .

قال الإمام النووي في « شرحه » عليه (٢٢٧/١٤) :

[قوله صلى الله عليه وآله وسلم (مَنْ أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تُقْبَل له صلاة أربعين ليلة) أما العرّاف فقد سبق بيانه وأنه من جملة أنواع الكهان ، قال الخطَّابي وغيره : العَرَّاف هو الذي يتعاطى معرفة مكان المسروق ومكان الضالة ونحوهما ، وأما عدم قبول صلاته فمعناه أنه لا ثواب له فيها وإن كانت مجزئة في سقوط الفرض عنه ولا يحتاج معها إلى إعادة ، ونظير هذه الصلاة في الأرض المغصوبة مجزئة مسقطة للقضاء ولكن لا ثواب فيها ؛ كذا قاله جمهور أصحابنا ، قالوا فصلاة الفرض وغيرها من الواجبات إذا أتى بها على وجهها الكامل تَرَتَّبَ عليها شيئان سقوط الفرض عنه وحصول الثواب ، فإذا أدَّاها في أرض مغصوبة حصل الأول دون الثاني ، ولا بد من هذا التأويل في هذا الحديث فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلوات أربعين ليلة فوجب تأويله والله اعلم » انتهى .

وفي الحديث الصحيح الآخر قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من أتى عرافاً أو كاهناً فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » رواه أحمد (٤٢٩/٢) والحاكم (٨/١) .

قال العلامة المناوي في « فيض القدير شرح الجامع الصغير » (٢٢/٦) :

« قال النووي : والفرق بين الكاهن والعرّاف أن الكاهن إنما يتعاطى الأخبار عن الكوائن المستقبلة ويزعم معرفة الأسرار ، والعرّاف يتعاطى معرفة الشيء

المسروق مكان الضالة ونحو ذلك ، ومن الكهنة من يزعم أن جنياً يُلقي إليه الأخبار ومنهم من يدَّعي إدراك الغيب بفهم أعطيه وأمارات يستدل بها عليه » .

ثم قال العلامة المناوي هناك :

[(**من أتى عرافاً أو كاهناً**) وهو من يخبر عما يحدث أو عن شيء غائب أو عن طالع أحد بسعد أو نحس أو دولة أو محنة أو منحة (**فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل الله على محمد**) من الكتاب والسنة ، وصرح بالعلم تجريداً ، وأفاد بقوله (**فصدَّقه**) أن الغرض إن سأله معتقداً صدقه ، فلو فعله استهزاء معتقداً كذبة فلا يلحقه الوعيد ، ثم إنه لا تعارض بين هذا الخبر وما قبله لأن المراد أن مصدق الكاهن إن اعتقد أنه يعلم الغيب كفر ، وإن اعتقد أن الجن تلقي إليه ما سمعته من الملائكة وأنه بإلهام فصدَّقه من هذه الجهة لا يكفر ، قال الراغب : العرافة مختصة بالأمور الماضية والكهانة بالحادثة ، وكان ذلك في العرب كثيراً ، وآخر من روي عنه الأخبار العجيبة سطيح وسواد بن قارب] انتهى .

وبذلك يتبين تحريم التعامل مع الجن والكهنة والعرافين وتحضير الأرواح والاشتغال بهذه الأمور التي بيناها في هذا الفصل والله الهادي والموفق .

الإيمان بنعيم القبر وعذابه

/ الذي هو نعيم البرزخ وعذابه في الحقيقة /

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

([ونؤمن] بعذاب القبر لمن كان أهلاً له ، وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه ، على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعن الصحابة رضوان الله عليهم ، والقبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النيران ، ولا نقول : لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله ، ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ولا نأمن عليهم ، ولا نشهد لهم بالجنة ، ونستغفر لمسيئهم ، ونخاف عليهم ، ولا نقنطهم) .

الشرح : أما شرح هذه العبارات المجمل فهو : أن المصنف رحمه الله تعالى بين أنه يجب علينا أن (**نؤمن بـ**) حصول ووقوع (**عذاب القبر لمن كان أهلاً له**) وهم الكفار والعصاة والبغاة من المؤمنين ، وكذلك بحصول نعيم القبر لمن كان أهلاً له وهم المؤمنون والأتقياء على حسب درجاتهم عند الله تعالى ، وقد ذكر المصنف عذاب القبر وأغفل ذكر نعيم القبر وهو خطأ عام يقع فيه أغلب مَن يتكلم في هذا الموضوع ، وعذاب القبر ونعيمه يراد به عذاب البرزخ ونعيمه لقوله تعالى ﴿ **ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾ المؤمنون : ١٠٠ ، وإنما نُسِبَ النعيم والعذاب للقبر لأن غالب البشر يدفنون ؛ والعقل البشري لا يستطيع أن يتصور في العادة إلا عذاباً أو نعيماً في هذا القبر على هذا الجسد الذي أمامه والذي يراه بعينه ، وإلا فمن أحرق أو غرق أو انفجرت فيه طائرة مثلاً فإنه يُنَعَّمُ ويعذب في البرزخ بلا شك ولا ريب ، لأن نعيم البرزخ وعذابه ثابت بقطعي الدلالات ، خلافاً لـ ، (**سؤال منكر ونكير في قبر**) الإنسان (**عن ربه ودينه ونبيه ، على ما جاءت به الأخبار**) وهي من أخبار الآحاد ولم تتواتر (**عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**) ، والحق أن هذا السؤال إن قلنا به فهو على الروح في البرزخ لا على الجسم والروح ؛ لأن

الروح لا تعود إلى الجسم خلافاً لما جاء في بعض الأحاديث والأقوال(٣٢٤) ، وما جاء (**عن الصحابة رضوان الله عليهم**) أيضاً في ذلك مما لا يخالف ما قررناه من القواعد ونصوص القرآن ، لكن الصحيح أن أقوالهم رضي الله تعالى عنهم ليست من الحجج الشرعية التي يصح التمسك بها ، إذ أن قول الصحابي ليس بحجة كما هو القول الصحيح المقرر في علم الأصول ، فقول المصنف رحمه الله هنا في الاحتجاج بكلامهم مرجوح ، وخاصة بعد ثبوت تحديث بعضهم في بعض القضايا عن مثل كعب الأحبار أو عبد الله بن سلام أو عن الكتب القديمة(٣٢٥) ، وقضية أن

---

(٣٢٤) لأننا إذا قلنا بأن الروح تعود للبدن في القبر فإننا نعارض القرآن الكريم الذي ينص على أن هناك حياتين وميتتين في مثل قوله تعالى ﴿ **قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين** ﴾ غافر : ١١ . وقوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ البقرة : ٢٨ . الموتة الأولى هي العدم الذي كان الناس فيه قبل أن يخلقهم الله تعالى ، والحياة الأولى هي الحياة الدنيا ، والموتة الثانية هي الموت بعد هذه الحياة الدنيا ، والحياة الثانية هي إحياؤهم يوم القيامة للبعث .

ولا يصح لأي إنسان أن يتمسك بقوله تعالى ﴿ **ثم إليه ترجعون** ﴾ مستدلاً به على حياة ثالثة لأنه لم يذكر قبله موتاً بل عطف سبحانه هذه الجملة على الحياة الثانية ولم يفصل بينهما بذكر موت ، كما أن القول بخلاف هذا يعارض الآية الأولى التي قررت أن غاية هذا البيان موتتان وحياتان ﴿ **قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين** ﴾.

ولا يرد علينا قول بعضهم : فإن قيل هناك مَنْ أحياهم الله تعالى بعد موتهم كمن أحياهم على يد سيدنا عيسى ابن مريم ، والرَّجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه فهؤلاء أحياهم الله تعالى ثلاث مرات ولا تنطبق عليهم الآية !!

قلنا : هؤلاء مستثنون من عموم الآية لأن إحياءهم معجزة خارقة للعادة وللقانون الذي أجراه الله تعالى ومتى شاء غيره ، فيبقى العموم على عمومه وهؤلاء مستثنون ، وإلا فإن أخرجنا الجميع واستثنيناهم برد أرواحهم إليهم في قبورهم بطل النص وصار لا معنى له لأن جميع أفراده يعتبرون مستثنين ساعتئذ !! وهذا لا يقول به عاقل !! والحمد لله تعالى .

(٣٢٥) وهذا مما لا يمكن أن يجادل فيه أحد فقد ثبت أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان ينقل كثيراً من الإسرائيليات وهو مولع بقراءة كتب أهل الكتاب ، وتجد في « تهذيب الكمال » (٢٤/ ١٨٩) أن ممن روى عن كعب الأحبار : عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، ومعاوية ، وأبو هريرة !! وأن ممن روى عن عبد الله بن سلام الإسرائيلي كما في « تهذيب الكمال » (١٥/ ٧٥) : أنس بن مالك وعبد الله بن مغفل ، وأبو هريرة وغيرهم وعن مثل هؤلاء دخلت الإسرائيليات وتسربت إلى الفكر الإسلامي ، فانتبه لذلك ولا تغفل عنه !!

(القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النيران) جاءت في حديث ضعيف جداً بل موضوع(٣٢٦) ، **(ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله)** لقوله تعالى ﴿ **وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالاً تعلمون بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ البقرة : ٨١ ، **(ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته)** لقوله تعالى ﴿ **فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم** ﴾ النساء : ٩٩ ، وقال تعالى معلماً إيانا أن ندعوه فنقول : ﴿ **ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا وغفر لنا وارحمنا** ﴾ البقرة : ٢٨٦ وقال تعالى ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ، إن الله غفور رحيم** ﴾ التوبة : ١٠٢ ، **(ولا نأمن عليهم)** لقوله تعالى : ﴿ **أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون** ﴾ الأعراف : ٩٩ .

قال الإمام القرطبي في تفسيره (٧/ ٢٥٤) : « قوله تعالى ﴿ **أفأمنوا مكر الله** ﴾ أي عذابه وجزاءه على مكرهم . وقيل مكره استدراجه بالنعمة والصحة » انتهى وقد وقع في هذا الوصف وهو الأمن من المكر كثير من مدعي الولاية والقطبانية ونحوها !! وكذلك كثير من العصاة الذين يتكلمون على رحمة الله ومغفرته دون أن يعملوا ما يستوجب الرحمة والمغفرة !! قال تعالى :

﴿ **اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم** ﴾ المائدة : ٩٨ . وقال تعالى ﴿ **وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب** ﴾ الرعد : ٦ . معناه : أن الله يغفر لمن تاب وأخلص وبقي خائفاً من عقابه لا يتبجح على الناس بطاعة ولا بعمل ، وهو سبحانه شديد العقاب لمن لم يتب أو لمن يرائي ويدعي

---

(٣٢٦) رواه الترمذي في سننه (٤/ ٦٤٠) وفي سنده علل منها : عبيد الله بن الوليد الوصافي ، وهو ضعيف جداً ، وقال النسائي : متروك الحديث ، وقال الحاكم : روى عن محارب أحاديث موضوعة . انظر « تهذيب التهذيب » (٧/ ٥١) . وقال الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » (٤/ ٢٣٨) : « رواه الترمذي والبيهقي كلاهما من طريق عبيد الله بن الوليد الوصافي وهو واه » . ورواه الطبراني في الأوسط كما في « المجمع » (٣/ ٤٦) وضعفه .

الدعاوى الكاذبة والتي منها إظهار الولاية والتبجح بها ، **(ولا نشهد لهم بالجنة)** لأنه لا يشهد بالجنة إلا لمن هو مقطوع له فيها كالأنبياء والمرسلين ومن جاء فيه نص صريح في أنه من أهل الجنة كالعشرة المبشرين والحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة وأمهما ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السيدة فاطمة ، وأمها السيدة خديجة ، والسيدة عائشة ، والسيدة مريم ، ونحوهم رضوان الله تعالى عليهم ، ونقطع للذين وصفهم الله تعالى في القرآن بأنهم من أهل الجنة كالمؤمنين الذين يعملون الصالحات فنقول : كل مؤمن عمل الصالحات في الجنة ولا نعين(٣٢٧) بل نقول كما قال الله تعالى ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى** ﴾ النجم : ٣٢ ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « نحسبه هكذا ولا نزكي على الله

---

(٣٢٧) ولذلك لما عين الصحابة أن فلاناً في الجنة رد عليهم صلى الله عليه وآله وسلم !! فقد روى البخاري (١١/ ٥٩٢) ومسلم (١/ ١٠٨) عن أبي هريرة : أن عبداً كان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقال له مدعم يحط رحلاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بواد القرى بعد الرجوع من خيبر إذا سهم عائر فقتله ، فقال الناس هنيئاً له الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كلا ، والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً » .

ومعنى عائر : قال الحافظ في « الفتح » (٧/ ٤٨٩) : « سهم عائر .... أي لا يُدرى من رمى به ، وقيل هو الحائد عن قصده » انتهى .

وفي صحيح مسلم (١/ ١٠٧) أيضاً عن سيدنا عمر رضي الله عنه قال : لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : فلان شهيد : فلان شهيد ، حتى مروا على رجل فقالوا : فلان شهيد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كلا !! إني رأيته في النار في بردة غَلَّها أو عباءة » .

وفي الحديث الصحيح الآخر : « إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » رواه البخاري (٧/ ٤٧١و٤٧٥) ومسلم (٤/ ٢٠٤٢).

قلت : وهذه النصوص كلها قد تضافرت على المعنى الذي قررناه ، ومنه يتبين شذوذ مثل حديث الصحيحين [البخاري (٣/ ٢٢٨) ومسلم (٢/ ٦٥٥)] عن سيدنا أنس الذي يقول فيه : مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « وجبت » ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً فقال : « وجبت » ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما وجبت ؟ قال : « هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار أنتم شهداء الله في الأرض » .

أحداً »(٣٢٨) ، (**ونستغفر لمسيئهم ، ونخاف عليهم**) من الذنوب والمعاصي ، (**ولا نقنطهم**) أي من رحمة الله تعالى فلا نقول لهم في الترغيب والترهيب ما لا يحصل ولم يثبت عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وسيأتي تفصيل هذا وشرحه أكثر بعد قليل إن شاء الله تعالى .

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(مميت بلا مخافة) .

الشرح :

شرح مسالة الموت ونعيم القبر وعذابه وبيان هذا الأمر بالتفصيل :

يتضمن مبحث الإيمان بالموت عدة مباحث لا بد من تجليتها وبيان حقيقتها وإزالة ما ران في عقول الناس من خطأ يتعلق ببعضها ، وهذه القضايا هي : مسألة الوفاة وقبض الروح وأنها ليست عذاباً ولا ألماً ، ومسألة سكرة الموت وهي أيضاً ليست ألماً ولا عذاباً وهي تحصل لبعض الناس دون بعض ، ومسألة ذهاب الروح - وهي حقيقة الإنسان المدرك الباصر السامع - إلى عالم البرزخ إن كان صالحاً يُنَعَّم مع عباد الله الصالحين وإن كان طالحاً فيعذب مع العباد المجرمين ، ومسألة نعيم القبر وعذابه الذي هو في الحقيقة نعيم البرزخ وعذابه ، فلنذكر هذه المسائل على سبيل التفصيل دون إسهاب ممل فنقول :

مسألة الوفاة وقبض الروح وأنها ليست ألماً ولا عذاباً :

قال الله تعالى ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ النحل : ٣٢ . وقال تعالى ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء ، بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون** ﴾ النحل : ٢٨ ، وقال تعالى ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكّل بكم ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾ السجدة : ١١ .

واعلم أن الوفاة وقبض الروح للمؤمن ليس فيها عذاب ولا ألم البتة خلافاً لما

---

(٣٢٨) رواه البخاري (١٠/ ٤٧٦) وغيره .

يصوره ويقوله بعض الناس !! والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ الزمر : ٤٢ .

بين الله سبحانه في هذه الآية أن النوم نوع من الموت وفيه وفاة ، فالله سبحانه يتوفى الأنفس التي لم تمت حينما تنام وكلنا لا يشعر ألماً في هذه الوفاة ، وسكرة الموت هي مثل نعاس النوم بالضبط ، والفرق بين النوم والموت أن الموت يبقى فيه العبد بكامل إدراكه وينتقل انتقالاً كاملاً إلى عالم البرزخ ، خلافاً للنوم فهو لا يذكر فيه كثيراً ما يراه لأن الروح سترجع بعده للجسد .

وقد زعم بعض القصاص والوعاظ نقلاً من الكتب التي تنقل الأحاديث المنكرة والتالفة الموضوعة أن ألم الموت شديد جداً بحيث أنه ورد في بعض الأحاديث أنه أشد من ألف ضربة بالسيف وفي بعض الروايات أشد من ألف وثلاثمائة ضربة بالسيف(٣٢٩) وكل ذلك باطل لا يصح ، وهل تصح مثل هذه القضايا بعد ثبوت التبشير والاطمئنان للمؤمن في القرآن الكريم ؟!! وبعد مثل قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « واجعل الموت راحة لي من كل شر » رواه مسلم (٤/ ٢٠٨٧) .

فإما أن نصغي للقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وإما أن نصغي لترهات القُصّاص والأحاديث الموضوعة التالفة(٣٣٠) !!

فمن تلك الأحاديث الباطلة المكذوبة :

١- حديث : « إن أهون الموت بمنزلة حسكة كانت في صوف ، فهل تخرج

---

(٣٢٩) حديث موضوع انظر « المطالب العالية » (١/ ١٩٣) والموضوعات لابن الجوزي (٣/ ٢٢٠) .

(٣٣٠) وللأسف الشديد وقعت مثل هذه الروايات الباطلة في كتب بعض العلماء كـ « الإحياء » و « التذكرة » وكتب الشعراني سامحهم الله تعالى وغفر لهم ، كما انتشرت أيضاً عند المشبهة والمجسمة بشكل فظيع ، ووضعت اليوم في كثير من الكتب التجارية التالفة التي تتحدث عن الموت واليوم الآخر !! ومن العجب العجاب أن ترى مثل الحافظ !! ابن رجب قد ملأ كتابه « أهوال القبور » بتلك الأحاديث الموضوعة والتالفة !! فما أدري أين ذهب الحفظ والنقد والمعرفة ؟!

الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف ؟! » رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « ذكر الموت » عن شهر بن حوشب مرسلاً ؛ كما قال الحافظ العراقي في تخريج « الإحياء » (٤/ ٤٦٢) والحافظ السيوطي في « زيادة الجامع الصغير » . وهو واهٍ ، أي ضعيف جداً . وقال الإمام الحافظ عبد الوهاب السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » (٦/ ٣٨٢) : « لم أجد له إسناداً » .

قلت : وهو باطل المتن .

٢- وحديث : « أدنى جبذات الموت بمنزلة مائة ضربة بالسيف » أخرجه ابن أبي الدنيا أيضاً مرسلاً ؛ كما قال الحافظ العراقي في تخريج « الإحياء » (٤/ ٤٦٢) ورجال هذا المرسل ثقات : والمرسل من ضعيف الحديث ، والحديث باطل أيضاً .

٣- وروي أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول : « اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل اللهم فأعني على الموت وهوِّنه عليَّ » قال الحافظ العراقي في تخريج « الإحياء » (٤/ ٤٦٢) : « رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث طعمة بن غيلان الجعفي وهو معضل سقط منه الصحابي والتابعي » انتهى فهو باطل أيضاً .

٤- وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل على مريض ثم قال : « إني أعلم ما يلقى ؛ ما منه عرق إلا ويألم للموت على حدته » قال العراقي : رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث سلمان بسند ضعيف ...» انتهى .

٥- وقال الأوزاعي رحمه الله تعالى : « بلغنا أن الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره » وهذا خرافة إسرائيلية رواها ابن أبي الدنيا في « كتاب الموت » وأبو نُعَيم في « الحلية » عن كعب الأحبار اليهودي الأصل ، ومنه جاءت هذه الأفكار والطامات .

٦- وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال : « إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته في الجنة ، وإذا كان للكافر معروف لم يجز به هون عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار » .

وهذا هراء لا قيمة له ! فانظر كيف يجعل الموت هيناً على الكافر ثقيلاً على المؤمن !! وهذا الهراء رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت بسنده عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ، وعبد الرحمن هذا ضعيف .

٧- ويروى أيضاً : « لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت » قال العراقي : « لم أجد له أصلاً » وكذلك قال السبكي في « الطبقات » (٦/ ٣٨٢) .

٨- وروي عن سيدنا موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه : يا موسى كيف وجدت الموت ؟ قال : وجدت نفسي كالعصفور حين يقلى على المقلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير .

وروي أيضاً عنه عليه السلام أنه قال : وجدت نفسي كشاة حية تسلخ !!!

قلت : وهو هراء إسرائيلي منقول عن أهل الكتاب لا قيمة له ، وهذا من جملة طعنهم في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فإذا كان الأنبياء وهم في حضرة القرب والتجلي والإكرام والإنعام والرَّوح والريحان يحدث فيهم هذا الألم وهذا العذاب من الموت فما بالك بباقي الناس ؟! والله تعالى يقول : ﴿ **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً** ﴾ طه : ١٢٢ .

٩- ومن الكذب الإسرائيلي أيضاً ما روي أن سيدنا عمر رضي الله عنه قال لكعب الأحبار : « يا كعب حدثنا عن الموت ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ الموت كغصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى » .

قلت : قال العراقي : « رواه ابن أبي الدنيا بإسناده عن كعب الأحبار » !! وكأن سيدنا عمر يحتاج لمعرفة الموت أن يترك الكتاب والسنة والواقع ويسأل أمثال كعب الأحبار !! وهو الذي قال له : « لتتركن الأحاديث أو لألحقنك بأرض القردة » . [انظر « تاريخ أبي زُرعة » (١/ ٥٤٤)] ولا يتصور ذلك بعد نهي النبي صلى الله عليه وآله وسلم له عن النظر في كتبهم !

١٠- وروي في حديث مكذوب موضوع أيضاً أن النبي صلى الله عليه وآله

وسلم قال : « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسـ
بعضها على بعض تقول عليك السلام تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة » رو
الديلمي وغيره وفي سنده : إبراهيم بن أبي هُدْبة ؛ قال الذهبي : « كذابٌ
وقال الدارقطني : « متروك » . وقال الحافظ العراقي : « وأبو هُدْبَة هالك » انظر
تخريج الإحياء » (٤/٤٦٣) ، و « الميزان » (١/٧١) .

١١- وقد رويَ أيضاً عن سيدنا أنس مرفوعاً : « الموت كفارة لكل مسلم
أي : ألمه ، وهو حديث موضوع أورده الحافظ ابن الجوزي في كتاب
« الموضوعات » (٣/٢١٨) ، وانظر أيضاً « اللآلي المصنوعة في الأحاديث
الموضوعة » (٢/٤١٥) . وبمعناه أيضاً « الموت كفارة لكل ذنب » .

١٢- وذكروا عن شداد بن أوس أنه قال : « الموت أفظع هول في الد
والآخرة على المؤمن وهو أشد من نشر بالمناشير ، وقرض بالمقاريض ، وغلي في
القدور ، ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا
بنوم » .

وهو كذب بحت مروي عن وهب بن منبه وكان قد قرأ الكتب القديمة المليئة
بالتحريف .

١٣- وعن مكحول (وهو تابعي) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال :
« لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا
بإذن الله تعالى ، لأن في كل شعرة الموت ولا يقع الموت بشيء إلا مات » .

قلت : هو كذب بحت ، وقد كان رأس سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم لما توفي في حجر السيدة عائشة وعلى صدرها فلماذا لم تمت معه ؟!!!

قال العراقي : « رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت » قلت : وأكثر هذا
الكتاب خرافات وطامات ، فليتنبه لذلك .

وقال الحافظ السبكي في « الطبقات » (٦/٣٨٢) : « لم أجد له إسناداً » .

١٤- قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في « الإحياء » (٤/٤٦٢) :
« وروي أن نفراً من بني إسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض : لو دعو

الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتاً تسألونه ، فدعوا الله تعالى فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور ، فقال : يا قوم ما أردتم مني لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبي » .

قال الزَّبِيْدِي في « شرح الإحياء » (١٠/ ٢٦٠) : [رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث جابر بهذا اللفظ ، ورواه ابن أبي شبية في مسنده ، وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وأبو يعلى وابن منيع والضياء عن جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « تحدثوا عن بني إسرائيل فإنه كان فيهم أعاجيب » ثم أنشأ يحدثنا قال : خرجت طائفة منهم ...] وذكر الحديث .

قلت : لا نشك في كذب هذه القصة الإسرائيلية ، وأما الذين ذكرهم الزَّبِيْدِي بأنهم رووا الحديث فليس كذلك !! فقد رجعتُ إلى ابن أبى شيبة (٦/ ٢٣٥ طبعة دار الفكر) فلم أجد هذه القصة وإنما وجدت صدر هذا الحديث هكذا هناك :

[حدثنا وكيع عن الربيع بن سعد عن ابن سابط عن جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « تحدثوا عن بني إسرائيل فإنه كانت فيهم أعاجيب »] هكذا فقط ولم يزد على ذلك ، وإنما الذي زاد تلك القصة الخرافية ابن أبي الدنيا في كتابه !! لذلك قال الزَّبِيْدِي : « بهذا اللفظ » أي عند ابن أبي الدنيا ، وعلى كل حال ففي سنده أيضاً بدون ذكر القصة ضعف شديد وهو :

١- الربيع بن سعد الجعفي : قال الذهبي في « الميزان » (٢/ ٤٠) : « لا يكاد يُعْرَف » .

٢- عبد الرحمن بن سابط : قيل ليحيى بن معين سمع من جابر ؟ قال : لا ؛ هو مرسل . [انظر « تهذيب الكمال » (١٧/ ١٢٥)] . فالقصة لا أصل لها وصدرها ضعيف .

وقد ذكر الحافظ ابن رجب هذه القصة في كتابه « أهوال القبور » حديث رقم (٢٣٧) وذكر أن هذه القصة مُدْرَجَة في الحديث وهي من قول ابن سابط أحد رواته .

وقد حكم على سند الحديث دون هذه القصة المنكرة بأنه جيد ، والواقع ليس

كذلك !! كما بينا ، وكتابه هذا « أهوال القبور » فيه الطم والرم ولا عبرة بما فيه . والله الهادي .

١٥- عن سكين بن عبد العزيز العطار قال : ذكر أبي عن أنس لا أعلمه إلا رفعه قال :

« لم يلق ابن آدم منذ خلقه الله عز وجل أشد عليه من الموت ، ثم أن الموت أهون مما بعده .... » الحديث رواه أحمد (٣/ ١٥٤) والطبراني في « الأوسط » كما في « المجمع » (١٠/ ٣٣٤) .

قلت : وهو ضعيف الإسناد لأن الراوي عن سيدنا أنس هو عبد العزيز بن قيس العبدي العطار أبو سكين وهو مجهول كما قال أبو حاتم (التهذيب ٦/ ٣١٤) ولم يتابعه أحد(٣٣١) ، ومعنى المتن باطل لأن الموت بالنسبة للكافر ليس أهون من نار جهنم .

فكل هذا وأمثاله كذب بحت وأكثره من الإسرائيليات التالفة المخالفة لما جاء في القرآن الكريم ولما ورد في سنة سيد المرسلين الصحيحة الثابتة عنه(٣٣٢) .

قضية سكرات الموت وبيان أنها ليست عذاباً ولا ألماً وأنها تصيب بعض الناس دون بعض :

ما هو تعريف السَّكْرَة ؟! السَّكْرَة مشتقة من السُّكْرِ ، قال الراغب : [السُّكْرُ حالة تعرض بين المرء وعقله ، وأكثر ما يستعمل ذلك في الشراب ، وقد يعتري من الغضب والعشق ، ولذلك قال الشاعر : (سكران سكر هوى وسكر مدام) ومنه سكرات الموت] .

---

(٣٣١) وقد جوَّد إسناد هذا الحديث الحافظ المنذري في « الترغيب » (٤/ ٣٩٠) وتبعه على ذلك الحافظ الهيثمي في « المجمع » (١٠/ ٣٣٤) وهو خطأ كما بينت ، وانظر « مجمع البحرين » (٨/ ٩٠) .

(٣٣٢) وما ذكره الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في هذا الباب في الجزء الرابع من « الإحياء » وهو كتاب ذكر الموت وما بعده من ص (٤٤٨ - ٤٦٨) من روايات وأقوال للعلماء والصالحين والعارفين والصوفية ، لا يجوز التعويل عليها ولا الالتفات إليها وهي باطلة ، مع أن كتاب « الإحياء » وباقي كتب الإمام الغزالي رحمه الله تعالى فيها علم غزير وحق واضح كثير والعصمة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام !! فلا تغفل عن هذا .

أقول : فالسكر هو غياب العقل أو ضعفه ، وسكرة الموت هو غياب الروح في عالم البرزخ ورجوعها إلى الجسد ، وهي مثل النعاس للنائم ، ولم يقل أحد بأن السكر ألم ؛ أو أن السكران هو المتألم ، بل السكران هو الفاقد للشعور ، إذا فهمت ذلك نقول لك :

قال الله تعالى : ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد** ﴾ ومعناه : وجاءت لحظة الموت بالحق أي مع بيان هل هو سعيد أو شقي ، فإن الملائكة كما تقدم تبشر المؤمنين عند موتهم بالرحمة والعفو ودخول الجنة ، وأما الكفار والعصاة البغاة فتضرب وجوههم وأدبارهم .

والسكرة هنا هي الغيبوبة وهو المشاهَد من بعض الأموات دون بعض ، والدليل على ذلك وهو الذي لا مرية فيه أن كثيراً من الناس يموتون وهم نيام أو فجأة أو بانفجار في طائرة أو سيارة أو سفينة أو حادث فيموتون في لحظة ولا تأتيه سكرة الموت التي يتخيلها مَنْ بنى هذه القضية على الخرافات الإسرائيلية التي تقدَّم الكلام على بعضها . وقد عقد البخاري في صحيحه (٣/ ٢٥٤) باباً سماه « باب موت الفجاءة ، البغتة » .

[قاعدة مهمة جداً] : والأصل في هذه المسائل والأبواب في حال المؤمنين والكافرين قول الله تعالى ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي وادخلي جنتي** ﴾ الفجر : ٣٠ ، وقال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ الأنفال : ٥١ ، وقال تعالى : ﴿ **أن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم * .... * فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم** ﴾ سورة سيدنا محمد : ٢٨ .

وقوله تعالى : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ النحل : ٣٢ .

ولا عبرة بأي حديث أو أثر أو قول خالف هذه القواعد التي تقررت في القرآن الكريم . ولا يملك أي إنسان بعد هذا البيان أن يخوف المؤمنين ويدعي أن الخوف والفزع وضغطه القبر ومثل هذه الأمور ستصيب المؤمن والمسلم .
﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون إلا كذباً ﴾ الكهف : ٥ .

قلت : وقد أوردوا في سكرات الموت أحاديث ليستدلوا بها على أنها آلام لا بد من ذكرها والجواب عليها فنقول :

١) حديث السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال عند موته : « اللهم أعني على سكرات الموت » رواه الترمذي (٣/ ٣٠٨) وقال : « حديث غريب »[٣٣٣] وفي نسخة عبد الباقي : « حسن غريب » وهو حديث ضعيف ، لأن في سنده موسى بن سرجس لم يوثقه أحد ولا حتى ابن حبان فهو مجهول ، وأصل الحديث « أن للموت سكرات » فتصرَّف الرواة في لفظه فصار « اللهم أعني على سكرات الموت » غلطاً .

وأصل الحديث في البخاري (١١/ ٣٦١) « إن للموت سكرات » ولا يفيد هذا أن في السكرات عذاب ولا ألم البتة ، بل يقرر هذا النص فقط أن بعض الناس يصابون بسكرة أثناء موتهم ، إن صح هذا الحديث !! فإن الحافظ قال هناك في الشرح « لكن في كل من الطريقين ما ليس في الآخر ، فالظاهر أن الطريقين محفوظان » انتهى .

وقد ذكر هذا الحديث الحافظ الدارقطني في « الالزامات والتتبع » ص (٣٥٠) .

وقد ربط الذين أثبتوا الألم في سكرات الموت بين هذا اللفظ وبين ما جاء في حديث آخر فأخطأوا !! والحديث الآخر هو : عن عبد الله بن مسعود قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يوعك . فقلت : يا رسول الله

---

[٣٣٣] هكذا نقل الحافظ ابن حجر عن الترمذي في « التهذيب » (١٠/ ٣٠٧) في ترجمة أحد رواته الضعفاء المستورين وهو موسى بن سرجس . وقد أخطأ الحافظ رحمه الله تعالى عندما حسَّن هذا الحديث في الفتح (١١/ ٣٦٢) ، والحديث رواه أيضاً ابن ماجه (١/ ٥١٨) وأحمد في المسند (٦/ ٦٤ و ٧٠ و ٧٧ و ١٥١) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٦٥) و (٣/ ٥٦) وهو ضعيف بلا شك .

إنك توعك وعكاً شديداً . قال : « أجل ، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم » . قلت : ذلك بأن لك أجرين . قال : « أجل ، ذلك كذلك ، ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفَّر الله بها سيئاته ، كما تحط الشجرة ورقها » رواه البخاري (١٠/١١١) ومسلم (٤/١٩٩١) .

قال الحافظ ابن حجر في شرحه : « وعن الأصمعي : الوعك الحر ، فإن كان محفوظاً فلعل الحمى سميت وعكاً لحرارتها » انتهى .

فالقضية لا علاقة لها بالسكرات وإنما هي بالحمى التي في المرض .

قلت : وقول الحافظ هنا (فإن كان محفوظاً) يفيد أن هذه الألفاظ يحتمل أنها من تَصَرُّف الرواة فكيف يصح الاعتماد عليها وترك نصوص القرآن القطعية التي تبشر المؤمن بالرَّوح والريحان عند موته .

وقد صح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ... المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان الله تعالى وكرامته ، فليس شيء أحب إليه مما أمامه »(٣٣٤) والمؤمنون وخاصة الأنبياء من أشد الناس حباً للقاء الله تعالى وفرحاً بالموت الذي فيه لهم من الله تعالى الإكرام والإنعام والاستراحة من نصب الدنيا ، وقد جاء أيضاً في حديث صحيح « مستريح ومستراح منه »(٣٣٥) المؤمن مستريح ، والكافر مستراح منه .

فأولئك الذين ربطوا سكرات الموت بالوعك وبالألم أخطأوا لأن هذا ألم الحمى مما يسمى اليوم (السخونة) التي كانت قد أصابت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأجسام البشر عندما تصيبهم الحرارة والحمى والسخونة فإنهم يتألمون ولا علاقة لهذا الأمر بسكرات الموت ! فافهم .

لا سيما وأن الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه ليسوا بمعصومين عن الأمراض الخفيفة كما مر معك قال صاحب « إضاءة الدُّجُنَّة » :

---

(٣٣٤) رواه البخاري (١١/ ٣٥٧) ومسلم (٤/ ٢٠٦٥) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه .

(٣٣٥) رواه البخاري (١١/ ٣٦٢) ومسلم (٢/ ٦٥٦) عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه .

وغير قادح من الأعراض   في حقهم يجوز كالأمارض
للأجر والتشريع والتخلي   عن زهرة الدنيا وللتسلي

وبهذا البيان تبين نفي الخوف والفزع والألم والجزع عن المؤمنين عند موتهم والله يتولانا وهو يهدي إلى سواء السبيل .

فصل

في بيان أن الإنسان يكون بعد موته في البرزخ لا في القبر

اعلم يرحمك الله تعالى أن المراد بنعيم القبر وعذابه على التحقيق هو نعيم البرزخ وعذابه ، لقوله تعالى ﴿ **ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾المؤمنون : ١٠٠ ؛ والبرزخ هو العالَم الذي ينقل الله تعالى إليه الأرواح بعد الممات ، وروح الإنسان هو المدرك العالم الباصر السامع في الإنسان على التحقيق ، والجسم ثوب لا غيره والدليل عليهما ما جاء في الحديث الصحيح أن أهل الجنة يدخلونها وأجسامهم مثل سيدنا آدم ؛ طول أحدهم ستين ذراعاً وعرضه سبعة أذرع(٣٣٦) وغير ذلك .

وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال :

« إذا حُضِرَ المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون : اخرجي راضية مرضياً عنك إلى رَوح الله وريحان ورب غير غضبان ؛ فتخرج كأطيب ريح المسك ؛ حتى أنه ليناوله بعضهم بعضاً حتى يأتون به باب السماء ؛ فيقولون : ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحاً به من أحدكم بغائبه يقدم عليه ؛ فيسألون : ماذا فعل فلان ماذا فعل فلان ؟! فيقولون : دعوه فإنه كان في غم الدنيا ؛ فإذا قال : أما أتاكم قالوا ذُهِبَ به إلى أمه الهاوية .

---

(٣٣٦) جاء في الحديث الثابت في الصحيحين عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « فكل مَنْ يدخل الجنة على صورة آدم ، وطوله ستون ذراعاً » رواه البخاري (٦/ ٣٦٢) ومسلم (٤/ ٢١٨٤) واللفظ له .

وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بِمِسْحٍ فيقولون اخرجي ساخطة مسخوطاً عليك إلى عذاب الله عز وجل فتخرج كأنتن ريح جيفة ، حتى يأتون به باب الأرض ؛ فيقولون : ما أنتن هذه الريح حتى يأتون به أرواح الكفار » .

رواه النَّسائي (٤/٨) والحاكم (١/ ٣٥٣) ؛ وكذا ابن حبان (٧/ ٢٨٥) بلفظ قريب لهما ، وهو حديث صحيح غير معارض . وبمعناه أيضاً مختصراً جاء في صحيح مسلم (٢٢٠٢) .

فنحن نؤمن بالنعيم بعد الموت بل من ساعة الموت إلى قيام الساعة للمؤمنين ، وبالعذاب للكفار والفاسقين والظالمين ، ونعتقد ذلك ونضلل من أنكره لوروده في القرآن والسنة .

قال الإمام اللقاني في شرح منظومته (الجوهرة) وهو مخطوط (٢/ ١٦٤) :

« قال الجلال : قال العلماء : عذاب القبر هو عذاب البرزخ أُضيف إلى القبر لأنه الغالب ، وإلا فكل ميت أراد الله تعذيبه ناله ما أراد به - سواء - قبر أم لم يقبر ، ولو صُلِبَ أو غرق في بحر أو أكله الدواب أو حرق حتى صار رماداً أو ذُرِّيَ في الريح .... وكذا القول في النعيم » انتهى .

وإنما نُسِبَ النعيم والعذاب للقبر لأن أكثر الناس يُقبرون لا غير .

وأما الآيات والأحاديث في إثبات النعيم والعذاب فمنها قوله تعالى ﴿ **فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين * فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم** ﴾ الواقعة : ٩٤ ، وهذه فيها ذكر النعيم والعذاب .

الآيات التي تذكر نعيم القبر (أي البرزخ) :

قال الله تعالى ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم إلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ آل عمران : ١٧٠ ، فانظر إلى قوله تعالى :

﴿ يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾ أي إذا ماتوا وهم متقون مثله ﴿ ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة إلا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم** ﴾ فصلت ٣٨ .

ومن الحديث : ما جاء في « صحيح مسلم » (٣/ ١٥٠٢) من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً : « أرواحهم - الشهداء - في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت .....» الحديث .

وعن كعب بن مالك مرفوعاً : « نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٥٥) والطبراني في « الكبير » (١٩/ ٦٤) ، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٣٧) : « وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم » .

ومعنى قوله « طائر يعلق في شجر الجنة » أو « في جوف طير خضر » أي أن الطائر مَرْكَب له لا أن الإنسان محبوس فيه كما أفاده سيدي عبد الله ابن الصديق أعلى الله درجته في كتابه في الشهداء ، فتنبه .

الآيات التي تذكر عذاب القبر (أي البرزخ) :

قال تعالى ﴿ **النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ غافر : ٤٦ ، فدل على أن هذا العذاب قبل قيام الساعة وما ذاك إلا عذاب البرزخ المسمى بعذاب القبر .

وقال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ الأنفال : ٥١ .

وقال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير**

الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ الأنعام : ٩٣ .

قال المحدث الكتاني في كتابه « نظم المتناثر من الحديث المتواتر » الحديث (١١٣) : [أحاديث عذاب القبر ونعيمه] وبعد أن ذكر رواية ذلك عن (٣٢) من الصحابة ، قال : « وقال الأبِّيُّ في شرح مسلم في الكلام على أحاديث شق العسيب على القبر ما نصه : قال عياض : فيه عذاب القبر ، تواتر ، وأجمع عليه أهل السنة انتهى ... وقال اللَّقَّاني في شرحه لجوهرته لما تكلم على عذاب القبر ونعيمه ما نصه : ودليل وقوعه قوله تعالى : ﴿ **النار يعرضون عليها غدواً وعشياً** ﴾ وأما الأحاديث ، فبلغت جملتها التواتر انتهى ... وقال في « إرشاد الساري » نقلاً عن صاحب « المصابيح » قال : قد كثرت الأحاديث في عذاب القبر حتى قال غير واحد أنها متواترة ، لا يصح عليها التواطؤ ، وإن لم يصح مثلها لم يصح شيء من أمر الدين ... » انتهى .

فالخلاصة من هذا أننا نثبت نعيم القبر وعذابه ونقول بأنهما في البرزخ حقيقة ، لا في القبر الذي يدفن فيه الجسد وأن السؤال يكون في البرزخ ، وأما حديث « القبر أما روضة من رياض الجنة وأما حفرة من حفر النار » فحديث ضعيف جداً أخرجه الترمذي (٤/٦٣٩ برقم ٣٤٦٠) والطبراني كما في « المجمع » (٣/٤٦) وضعفه . وهو غير صحيح المعنى إذا أريد به الموضع الذي يوضع فيه الجسد ، وصحيح المعنى إذا أريد به البرزخ ، هذا مع التنبه لضعفه .

ضمة القبر عقيدة باطلة لا أساس لها من الصحة :

اعلم أنه قد انتشر بين الناس عامة فيما أذاعه الخطباء والوعاظ والقُصَّاص والمدرسون الذين يحملون الغث والسمين دون أن يغربلوه !! أنه إذا وضع الميت في قبره فإنه يكون كما هو الآن في حالة حياته مدركاً عالماً باصراً سامعاً فيضغطه القبر ويضمه ضمة حتى تختلف فيها أضلاعه ولو نجا من ضمة القبر أحد لنجا سيدنا سعد بن معاذ الذي اهتز لموته عرش الرحمن ! هكذا يقولون !! وهو قول باطل فاسد !!

ونحن بدورنا يجب علينا أن نبين ذلك ونجلي أوجه فساد هذه العقيـدة الباطلة فنقول وبالله تعالى التوفيق :

الدليل على بطلان قضية ضمة القبر وخاصة للمؤمنين :

قال الله تعالى ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فلـه أجـره عنـد ربـه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ البقرة : ١١٣ . وقد ذكـر الله تعـالى في آيـات كثيرة أن المؤمن من ساعة وفاته إلى ساعة دخوله الجنـة لا يدخـل عليـه هـم ولا خـوف ولا حزن ؛ وفكرة ضغطة القبر خوف كبير وهلـع مستطير منـاقض ومعـارض لما هو مقرر في القرآن الكريم ، ومن تلك الآيات التي تبين البشرى والطمأنينة التي يجدها من ساعة وفاته قوله تعالى : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بمـا كنتـم تعملـون** ﴾ النحل : ٣٢ ، وتفسـير ذلـك مـا جـاء في الحديث الصحيح عن سيدنا كعب بن مالك قال رسول الله صلـى الله عليـه وآلـه وسـلم : « نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتـى يرجعـه الله إلى جسـده يـوم يبعثه » رواه أحمد (٣/ ٤٥٥) وغيره وهو صحيح ، وبمعناه تقريبـاً مـا جـاء أيضـاً في صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٢) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه .

ولا يكاد قارئ القرآن يحصى الآيات التي فيها تبشير المؤمن الطائع بما لـه عند الله من الأجر والثواب والطمأنينة و ﴿ **أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ .

٢) وقال الله تعالى ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السـيئات أن نجعلهـم كـالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون** ﴾ الجاثية : ٢١ .

في هذه الآية بين الله تعالى لنا أن المؤمـن التقـي لا يكـون كالفـاجر الشـقي في حياته ولا في مماته ؛ وبعموم هذا البيان نقول : يستحيل أن يتساوى المؤمن والكـافر أو التقي والعاصي في أن كل منهما سـيضمه القـبر حتـى تختلـف أضلاعـه وتـزول حمائله !! والذي يؤكد هذا أيضاً قوله تعالى ﴿ **أفنجعل المسـلمين كـالمجرمين مـالكم كيف تحكمون أم لكم كتاب في تدرسون** ﴾ القلم : ٣٧ وقال تعالى ﴿ **ومن يعمـل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً** ﴾ طه : ١٢٢ .

٣) وجاء في صحيح البخاري (٣/ ٢٣٢) ومسلم (٤/ ٢٢٠١) عن قتادة أنه قـال :

« وذكر لنا أنه يفسح له (أي للمؤمن) في قبره سبعون ذراعاً » وهو موصول من غير طريق قتادة عند الترمذي (٣/ ٣٨٣برقم١٠٧١) وابن حبان في صحيحه (٧/ ٣٨١) والحاكم (١/ ٣٧٩) وغيرهم(٣٣٧) . ولم يذكر في هذه الروايات أنه يضم ويضغط القبر على المؤمن بل ذكر أنه يفسح له ، فهذا يعارض أحاديث الضم !!

٤) أن صاحبي الصحيحين لما رويا قصة سيدنا سعد بن معاذ حذفا منها قضية ضغطة القبر وضمته وهذا يؤكد لنا أن هذه القضية مردودة ومعلة بنظرهما ، وهو أمر معتبر عند أهل الحديث وخاصة إذا ضممناه لما قبله ولما بعده من الأدلة من تفنيد أحاديث الضم كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

حجج من أثبت ضغطة القبر على المؤمنين !! :

احتج من أثبت عقيدة الضمة والضغطة بحديث النَّسَائي (٤/ ١٠٠) عن ابن عمر مرفوعاً : « هذا الذي تحرك له العرش (يعني سعد بن معاذ) وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألف ملك لقد ضم ضمة ثم فرج عنه »(٣٣٨) رجاله

---

(٣٣٧) انظر سنن أبي داود وشعب الإيمان (١/ ٣٥٦) للبيهقي ؛ وهذه الأحاديث نوردها لمن يجادل في هذه المسألة ولا ينظر إلا إلى الأحاديث وصحة أسانيدها !! وإلا فنحن لا نسلم بها ولا نقول بذلك !! بل نقول إن الأموات يكونون في البرزخ لا في القبور .

(٣٣٨) ورواه النسائي في الكبرى (١/ ٦٦٠) من طريق ابن إدريس عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر ، وهو في الصغرى من طريق ابن إدريس عن عبد الله عن نافع عن ابن عمر ، ورواه ابن حبان في صحيحه (٧/ ٣٧٩) من طريق نافع عن صفية - امرأة ابن عمر - عن عائشة ، والطبراني في الكبير (٦/ ١٠ و ١٣) من طريق عبيد الله عن نافع عن ابن عمر ، ومن حديث جابر في الموضع الآخر ، وحديث جابر رواه أحمد (٣/ ٣٦٠ و ٣٧٧) والبيهقي في « دلائل النبوة » (٤/ ٢٩) وفي سندها جميعاً عن غير ابن عمر معاذ بن رفاعة وهو وإن كان من رجال البخاري إلا أن ابن معين ضَعَّفه ، وقال الأزدي : لا يحتج بحديثه .

وقد أفاض الزَّبِيْدِي في « شرح الإحياء » (١٠/ ٤٢٢) في ذكر روايات حديث الضمة وكذا ابن كثير في « البداية والنهاية » (٤/ ١٢٦) ، وكلها ضعيفة أو باطلة لا يصح التمسك بها لما بينا .

وقد أورد الحافظ ابن الجوزي حديث سعد بن معاذ في « الموضوعات » (٣/ ٢٣٣) فأصاب ، وحاول ممدارسي في « ذيل القول المسدد » ص (١٢٧) أن يرد ذلك فلم يصب إطلاقاً ! لأنه نظر إلى بعض أسانيد الحديث ولم ينظر إلى معارضته للقرآن .

ثقات إلا أنه مضطرب الأسانيد باطل المتن لأنه يعارض القرآن كما تقدم ولذلك أورده ابن الجوزي من بعض طرقه في « الموضوعات » .

وروى أحمد (٥/٤٠٧) عن سيدنا حذيفة قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في جنازة فلما انتهينا إلى القبر قعد على شفته فجعل يردد بصره فيه ثم قال : « يضغط المؤمن فيه ضغطة تزول منها حمائله ويملأ على الكافر ناراً ...» الحديث وهو ضعيف منكر ، قال الحافظ العراقي : « رواه أحمد بسند ضعيف » . [انظر شرح الإحياء ١٠/٤٢٢] .

وروي أيضاً أن القبر ضغط بنت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زينب لما دفنت رضي الله عنها !! فقد جاء في رواية باطلة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما جاء ليدفن ابنته زينب رضي الله عنها حزن وسئل عن ذلك فقال : « كنت أذكر ضيق القبر وغمه وضعف زينب فكان ذلك يشق عليَّ فدعوت الله أن يخفف عنها ففعل ولكن ضغطها ضغطة سمعها من بين الخافقين إلا الإنس والجن »(٣٣٩) .

أقول : كيف استجاب وفعل ؟ ثم ضغطها هذه الضغطة ؟!! ما هذا التناقض ؟!! الذي يتعالى عنه مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي رواية أشد بطلاناً من هذه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جلس عند قبر ابنته رقية(٣٤٠) رضي الله عنها عند دفنها فتربَّد وجهه ثم سُرِّيَ عنه فسأله أصحابه عن ذلك فقال « ذكرت ابنتي وضعفها وعذاب القبر فدعوت الله ففرج

---

(٣٣٩) رواه الطبراني (١/٢٥٧ رقم ٧٤٥) وكذا (٢٢/٤٣٣ برقم ١٠٥٤) وهو ضعيف ومنكر ، ولذا أورده ابن الجوزي في « الموضوعات » (٣/٣٢١) وفي « العلل المتناهية » (٢/٤٢٦) ، وَرَدُّ مَنْ رد على ابن الجوزي بأنه ليس موضوعاً بل هو ضعيف ليس بشيء !! لأنه قد اقتصر في نظره على السند والحافظ ابن الجوزي نظر إلى السند والمتن المخالف للقرآن فقوله هو الصواب .

(٣٤٠) ذكرها الزَّبِيْدِي في « شرح الإحياء » (١٠/٤٢٣) وعزاها لسعيد بن منصور وابن ابي الدنيا والحديث أورده الحافظ السيوطي في « اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة » بسند سعيد بن منصور وغيره ونقل عن الحافظ ابن الجوزي أنه قال : الحديث لا يصح من جميع طرقه . قلت : فلا تغترن بعد ذلك ببعض الأسانيد الأحرى فالحديث مخالف للقرآن فافهم ولا تتعن !!

عنها ، وأيم الله لقد ضُمَّتْ ضمة سمعها ما بين الخافقين » !!

ثم قال الزَّبِيْدِي في « شرح الإحياء » (١٠/٤٢٣) بعد ذكر هذين الحديثين :

« وقد عُرِفَ مما تقدم من الأخبار والآثار أن ضمة القبر لكل أحد فدخل فيه الصبيان الذين ماتوا صغاراً ، ومما يشهد لذلك ما رواه الطبراني بسند صحيح عن أبي أيوب أن صبياً دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لو أفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي »(٣٤١) .... وروى عمر بن شبة في كتاب المدينة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « ما عفي أحد من ضغطة القبر إلا فاطمة بنت أسد » قيل : يا رسول الله : ولا القاسم ابنك ، قال : « ولا إبراهيم » وكان أصغرهما(٣٤٢)] !!!

فانظروا كيف حصل الاضطراب والتناقض والتضارب في هذه الروايات ففي بعضها أن الذي ضم القبر عليها ؛ رقية وفي بعضها زينب بنتا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكيف دعا أن يخفف عنها ومع ذلك ضُغِطَتْ ضغطة سمعها ما بين الخافقين !!

ومن العجب العجاب أن يحصل هذا في آل بيته صلى الله عليه وآله وسلم وفي مناصريه ولا يحصل في بني أمية أعدائه كما لا يحصل في واضعي هذه الأحاديث الباطلة التالفة المهزولة !!

---

(٣٤١) **والصواب أنه باطل وغير صحيح** ، رواه الطبراني في « الكبير » (٤/١٢١) وفي سنده حماد بن سلمة عن غير ثابت ، وزواه ابن عدي في « الكامل » (٢/٥٣٦) على أنه من منكرات ثمامة بن عبد الله كما هو معلوم عند أهل الحديث ، وأعله الدارقطني كما ذكر الضياء في « المختارة » (٧٠/١ الظاهرية) حيث قال : « قال الدارقطني : رواه حرمي بن عمارة وسعيد بن عاصم الملحي شيخ بصري عن حماد عن ثمامة بن أنس ، وخالفهم وكيع وأبو عمرو الحوضي ، روياه عن ثمامة مرسلاً ، وهو الصحيح » أي أن الصحيح إرساله ، والمرسل من ضعيف الحديث ، وقول الحافظ الهيثمي في « المجمع » (٣/٤٧) : « رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح » ليس كذلك كما بينا ؛ ثم هو وإن كان رجاله رجال الصحيح وظاهر إسناده الصحة فهو معل بالإرسال ومعارض بالقرآن ، وهو باطل والسلام .

(٣٤٢) وهو حديث تالف ، لم يروه أحد من أصحاب كتب السنة المشهورة .

ولا ندري أين ذهبت شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم وأين ذهب قول الله تعالى ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ ؟!!

وإذا كان هذا حال أبناء النبيين والمرسلين الأتقياء البررة الصالحين والصحابة الصادقين فما بالك بحال من بعدهم وحال أهل هذه العصار ؟!! وفي هذه العقيدة الباطلة تيئيس للمؤمن من رحمة الله تعالى ومن عفوه وإنعامه وكرمه !! فوالله ما هذا إلا كذب مبين وافتراء على شريعة سيد المرسلين !!

وعلى كل حال أيضاً فهذه أحاديث آحاد ولا تثبت بمثلها عقائد !! وخاصة أنها معارضة للقرآن !!

ولما رأى المروِّجون تهافت عقيدة الضغطة هذه وبطلانها أمام نصوص القرآن الكريم التي تقرر عدم دخول الخوف والفزع على المؤمنين من ساعة مماتهم وتضارب الأحاديث الواردة في ذلك وضعف أسانيدها ؛ اخترعوا قضية أخرى ليلطفوا الجو في هذه المسألة فزعموا أن القبر يضم المؤمن كالأم الحنون بعدما قالوا إن المؤمن يُضْغَط في القبر ضغطة تزول منها حمائله(٣٤٣) !!

قال الزَّبِيْدِي [« في شرح الإحياء » (١٠/٤٢٣) »] :

[روى ابن أبي الدنيا عن محمد التيمي قال : كان يقال : إن ضمة القبر إنما أصلها أنها - أي الأرض - أمهم ومنها خلقوا فغابوا عنها الغيبة الطويلة(٣٤٤) فلما رُدَّ إليها أولادها ضمَّتهم ضمة الوالدة التي غاب عنها ولدها ثم قَدِمَ عليها ، فمن كان لله مطيعاً ضمته برأفة ورفق ، ومن كان عاصياً ضمته بعنف سخطها منها عليه لربها . وروى البيهقي وابن منده والديلمي وابن النجار عن سعيد بن المسيب أن عائشة قالت :

يا رسول الله منذ يوم حدثتني بصوت منكر ونكير وضغطة القبر ليس ينفعني

---

(٣٤٣) قال الزَّبِيْدِي في « اتحاف السادة المتقين » (١٠/ ٤٢٢) : « قال الأزهري : الحمائل هنا عروق الأنثيين قال : ويحتمل أن يراد موضع حمائل السيف أي عواتقه وصدره وأضلاعه » قلت : والأنثيان معناه في اللغة : الخصيتان ، وكذا الأذنان .

(٣٤٤) أين غابوا عنها وهم يَدُبُّون ويروحون ويجيئون طيلة أيام حياتهم عليها ؟!!

شيء ، قال : « يا عائشة أن أصوات منكر ونكير في أسماع المؤمنين كالإثمد في العين !! وإن ضغطة القبر على المؤمن كالأم الشفيقة يشكو إليها ابنها الصداع فتغمز برأسه غمزاً رفيقاً ، ولكن يا عائشة ويل للشاكين في الله كيف يضغطون في قبورهم كضغطة الصخرة على البيضة »(٣٤٥)] وهو حديث مكذوب موضوع .

وهذا الذي حكاه الزَّبِيْدِي هنا يخالف ما حكاه قبل ذلك بأسطر حيث قال :

« قال أبو القاسم السعدي في كتاب « الروح » له : لا ينجو من ضغطة القبر صالح ولا طالح ؛ غير أن الفرق بين المسلم والكافر فيها دوام الضغطة للكافر(٣٤٦) وحصول هذه الحالة للمؤمن في أول نزوله في قبره ثم يعود إلى الإفساح فيه ، قال : والمراد بضغطة القبر التقاء جانبيه على جسد الميت . وقال الحكيم الترمذي : سبب هذه الضغطة أنه ما من أحد إلا وقد أَلَمَّ بخطيئة ما وإن كان صالحاً فجعلت هذه الضغطة جزاء لها(٣٤٧) ثم تدركه الرحمة ولذلك ضغط سعد بن معاذ في التقصير من البول » انتهى .

أقول : وهذه الأقوال وأمثالها هراء لا ينبغي الالتفات إليها بعد وضوح أدلة القرآن الناصة على فكرة الأمان والاطمئنان والبشرى و ﴿ **أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ والله الهادي .

[تنبيه] : ثم في إثبات العذاب والضغطة والهول والفزع ونحو هذه الأمور للمؤمن بعد موته نسبة الظلم لله تعالى وإثباته له !! وهو أمر مستشنع ومرفوض شرعاً !! وتعالى الله سبحانه أن يظلم أحداً !! قال تعالى ﴿ **إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون** ﴾ يونس : ٤٤ . وقال تعالى ﴿ **ولا يظلم ربك**

---

(٣٤٥) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٤/ ٣٩٨) وهو من مظان الأحاديث الموضوعة .

(٣٤٦) وهذا مما يكذبه الواقع !! فكم رأينا قبوراً لأناس من الكفار لا تزال قبورهم كما حفرت ليس فيها ضغطاً ولا ضماً ولا قرباً ولا بعداً !! والله المستعان على من يتلاعب بعقول الناس ويخوفهم بأمر ظاهر البطلان !! فإذا قالوا : هو ضم معنوي . قلنا : قد بطل إذن أصل كلامكم والحمد لله .

(٣٤٧) وأين ذهبت مغفرته سبحانه لذنوب مَنْ شاء من عباده ؟! ثم إنه أثبت الضمة حتى للصبي !! والصبي غير مكلف ولم يقترف ما يصح أن يسمى إثماً وخطيئة فكيف يتم ويقبل بعد ذلك هذا الكلام المتناقض !!

أحداً ﴾ الكهف : ٤٩ . وقال تعالى ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾ النساء : ٤٠ .

فإن قال قائل : وكيف يصاب الأطفال والأبرياء في الدنيا بالآلام والمصائب ؟!

قلنا : إنما يكون هذا الأمر في دار الدنيا لأنها دار امتحان واختبار وبلاء وقد شاء الله ذلك !! أما بعد الموت فلا يصيب المؤمن من هموم الدنيا وآلامها ومصائبها شيء لأن الله وعد المؤمنين الذين عملوا الصالحات والأتقياء والمسلمين والأصفياء بذلك ، ووعده سبحانه لا بد أن يتم والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم** ﴾ المائدة : ٩ . وقال تعالى ﴿ **وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ الروم : ٦ .

والدليل على أن لا كرب على المسلم من ساعة موته قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لابنته السيدة فاطمة عندما حزنت عليه عندما علمت أنه سيموت فقالت : واكرب أباه . فقال لها « **ليس على أبيكِ كرب بعد اليوم** » رواه البخاري (٨/ ١٤٩) وغيره . فافهم هذا ولا تنسه !!

فصل

في معالجة الخوف المتولد من التفكر بالموت والإنكار على الكتب والأشخاص الذين يعطون صوراً مخطئة عن هذا الموضوع

تقدم معنا قبل قليل الكلام على ضغطة القبر والسكرات ، وبينا هناك أنه ليس هنالك ضغطة بالأدلة من الكتاب والسنة ، وأن الموت ليس ألماً وأن معنى سكرة الموت لحظة الموت ، وأن سكرة الموت هي انكشاف عالم البرزخ للروح قبل خروجها من الجسد لقوله تعالى ﴿ **فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** ﴾ وليس في ذلك على المؤمن ألم ولا عذاب مثاله مثال النعاس للنائم خلافاً للكافر ، فإذا تحققت ذلك وعرفته فنقول :

العجيب الغريب أن المصنفين والمدرسين والمؤلفين والوعاظ يذكرون للناس عذاب القبر ولا يذكرون لهم نعيمه ، ويزيدون على ذلك فيخوفونهم من الموت ومن القبر وظلمته فيوردون لهم أحاديث منكرة وموضوعة وضعيفة في ذلك منها قولهم إذا وضع الإنسان في قبره يقول له القبر :

« أنا بيت الدود ، أنا بيت الظلمة ، أنا بيت الوحدة ، أنا بيت الغربة »(٣٤٨) .

وهذا موضوع وكذب بلا شك . والإنسان بعد موته يكون في البرزخ بعيداً

---

(٣٤٨) رواه الترمذي (٢٤٦٠) والطبراني في الأوسط (٨/ ٢٧٣) والديلمي في مسند الفردوس (٣/ ٤٥٣) وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٤٦) : « رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن أيوب بن سويد وهو ضعيف » . وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٣٨) : « رواه الترمذي والبيهقي كلاهما من طريق عبيدالله بن الوليد الوصافي وهو واهٍ » .
أقول : في إسناد الترمذي عبيد الله بن الوليد الوصافي ، قال النسائي : متروك الحديث ، وقال الحاكم : روى عن محارب أحاديث موضوعة ، كما في تهذيب التهذيب (٧/ ٥١) .

عن الجسد فلا يتأثر لو أحرق بدنه أو أكله الدود(٣٤٩) .

والأحاديث الصحيحة التي يوهم ظاهرها أو يفيد أن النعيم والعذاب يقع في نفس القبر فهي آحاد لا تعارض القطعيات ثم هي مؤولة ولا نحتاج لإطالة الكلام فيها هنا .

ثم إن من حكمة الله تعالى ومشيئته في أمور خلقه التي أرادها أن لا يُتْرَكَ الإنسان وحده لا أثناء حمله ولا عند ولادته ولا في حياته ولا في مماته ولا في محشره ولا في الجنة ولا في النار ، لأنه هو الواحد الأحد الذي شاء أن يجعل خلقه أزواجاً .

فالإنسان في بطن أمه يكون مع أمه قريباً جداً منها وحوله أهله ثم يولد فيكون الناس حوله وهكذا يعيش طيلة حياته ثم يموت فيستقبله في عالم البرزخ أهله الذين ماتوا قبله أو الصالحون من عباد الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى ﴿ **يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ ثم يكون في المحشر مع الناس وكذلك في الجنة والنار كما هو معلوم ، فإياك أن تظنن بأن الله تعالى سيتركك وحدك البتة لا سيما أن الشارع قد نهى عن الوِحْدَة كما جاء في صحيح البخاري (٢٩٩٨) عنه صلى الله عليه وآله وسلم قوله « لو يعلم الناس ما في الوِحْدَة ما أعلم ما سرى منهم راكب بليل » ، وأمر بالجماعة ورَغَّب فيها ونهى عن الشذوذ وحذر منه ، فهذا بيان ذلك وليس بعد هذا بيان .

وقد أدَّى هذا التصور المخطىء عن الموت وكذلك الرُّعْب الناشىء عنه أن تموت روح الجهاد وحب الموت عند المسلمين في هذه الأعصار ، خلافاً لحال الصحابة الكرام رضي الله عنهم الذين كانوا يحبون الموت أكثر من الحياة ، فهذا خالد بن الوليد يقول في بعض رسائله لأحد زعماء الكفر : « لقد أتيتك بأناس يحبون الموت كما أنتم تحبون الحياة » وفي صحيح مسلم (٣/ ١٥١٠) أن الصحابي

---

(٣٤٩) وما رود في بعض الأخبار من إيذاء الميت بالجلوس على قبره مثلاً فهو من باب الإيذاء المعنوي للروح في البرزخ وذلك بعدم احترام الجسد ، إذ أن أجساد المؤمنين لها حرمة فلا يجوز أن يمثل بها ولا أن يفعل بها ما يصح أن يسمى انتهاكاً لحرمتها وعدم احترامها . فافهم .

عمير بن الحمام الأنصاري أخرج تمرات يأكلهن في المعركة ثم قال : « لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، أنها لحياة طويلة . قال فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتِل » .

وروى أحمد (١/ ٣٤٩) بسند صحيح عن سيدنا ابن عباس أنه دخل على السيدة عائشة عند وفاتها فقال لها : « أبشري يا أم المؤمنين فوالله ما بينك وبين أن يذهب عنك كل أذى ونصب أو قال وصب وتلقي الأحبة محمداً وحزبه إلا أن تفارق روحك جسدك » .

ولما حضر بلالاً رضي الله عنه الوفاة قالت امرأته واحزناه فقال : بل واطرباه غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه ، ذكره الزَّبِيْدِي في « شرح الإحياء » (١٠/ ٣٣٠)[٣٥٠] وذكر هناك أقوالاً مثل هذه عن بعض الصحابة ، فليرجع إليها من شاء .

وقال الذهبي [في « سير أعلام النبلاء » وفي « تاريخ الإسلام » (٥/ ٣٥٨) في ترجمة السيدة أسماء] :

« عن ابن عيينة عن منصور بن صفية ، عن أمه ، قالت : قيل لابن عمر : إن أسماء في ناحية المسجد - وذلك حين صلب ابن الزبير - فمال إليها ، فقال : إن هذه الجثث ليست بشيء وإنما الأرواح عند الله ، فاتقي الله واصبري » .

ورجال إسناد هذا الأثر ثقات .

وقد نقل أئمة المسلمين أن كثيراً من العلماء والأولياء الصالحين رآهم الناس بعد موتهم في حالة جميلة من السرور والحبور ، فمثلاً : قال الحافظ الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٨/ ٢٨٧) أن الخطيب البغدادي رُئِي بعد موته في النوم فقيل له : « كيف حالك ؟ قال : أنا في رَوْحٍ وريحان وجنة نعيم » .

وقال الذهبي هناك أيضاً :

« قال أبو الحسن .. الزعفراني : حدثني الفقيه الصالح حسن بن أحمد البصري

---

[٣٥٠] وقد ذكر هناك أن أبي الدنيا رواه ، وذكر إسناده فقال : حدثنا أبو الحسن علي بن محمد حدثنا أبو مسهر حدثنا سعيد بن عبد العزيز قال : قال بلال فذكره . وأبو الحسن الذي في سنده هو الطنافسي الحافظ وهو محدث قزوين شيخ ابن ماجه وهو ثقة . انظر ترجمته في « السير » (١١/ ٤٥٩) .

قال : رأيت الخطيب في المنام - أي بعد وفاته - وعليه ثياب بيض حسان وعمامة بيضاء ، وهو فرحان يتبسم ، فلا أدري قلت : ما فعل الله بك ؟ أو هو بدأني . فقال : غفر الله لي ، أو رحمني وكل من يجيء - فوقع لي يعني بالتوحيد - إليه يرحمه ، أو يغفر له ، فأبشروا ، وذلك بعد وفاته بأيام » .

[تنبيه مهم جداً] :

ولما كان أكثر من يكتب اليوم إنما يريد من كتابته الربح المادي والتجارة(٣٥١) ، وهو واقع في آصار التقليد ومحروم من النظر الصحيح والاجتهاد المعتبر مع وجود آلاته رأينا كتباً كثيرة تطبع وتطرح في الأسواق وفي المكتبات تحمل أفكاراً مخطئة جداً عن الموت !! واليوم الآخر !!

ودأب كاتبي تلك الكتب هو النقل من بعض الكتب القديمة التي تحمل في ثناياها الطم والرم ، والغث والسمين ، ويذكرون فيها الأحاديث التالفة الموضوعة التي لا يستطيع عامة الناس أن يكتشفوا الزغل والكذب منها بل يظنون أنها أشياء صحيحة جاءت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يمكن مناقشتها ولا ردها ولا تزييفها وإبطالها !!!

ويظن أولئك الكاتبون لهذه الخرافات أنهم بذلك يعالجون الناس ويرهبونهم من المعاصي ويجعلونهم ملتزمين بأحكام الدين !! وهذا غلط فاحش !! فمثل هذه الكتب لم تصنع إلا ردة فعل عند الناس وجعلتهم يهربون من الدين والالتزام به أو يصابون بمرض الكآبة والأسقام النفسية المبنية على الأفكار والتصورات الفاسدة الباطلة !!

ثم تفنن الجهلاء في هذا العصر تفنناً ذريعاً حيث ذهبوا إلى تصميم أغلفة لكتبهم الفاسدة التي تحمل تلك الأفكار الهزيلة بتصميمات مرعبة بعيدة عن الطمأنينة والارتياح مخالفين نهج القرآن ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ !! وقوله

---

(٣٥١) كما لا يقصد النصيحة لله تعالى والتقرب إليه سبحانه !! وخدمة الإسلام !! وإنما يقصد أيضاً الجاه والسمعة والرياء !! وأن يذكر في ديوان المصنفين والكُتّاب !! والذي يهمه هو إرضاء الناس لا رضى الله سبحانه !! فلذلك آل الأمر إلى ما ترى . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !!

صلى الله عليه وآله وسلم « بشروا ولا تنفروا »

فوضعوا على تلك الأغلفة مثلاً : صورة ثعبان ملتف على آدمي أو صورة أناس في مكان مذعورين من النار أو صورة دخان وأشباح أو .... إلى غير ذلك من ترهات فارغة !!

كما قاموا بتسجيل أشرطة (كاسيت) يتحدثون فيها عن الموت بصورة غير صحيحة البتة !! **والذي نقوله هو تحريم تأليف هذه الكتب والأشرطة وتحريم نشرها كما نقول بتحريم قراءة تلك الكتب أو سماع تلك الأشرطة إلا من قِبَلِ العلماء الذين يتمكنون من قراءتها لنقدها وتفنيد ما فيها !! والله الموفق .**

ويتلخص من الآيات والأحاديث التي مرَّت معك أن الموت فيه أمران لا بد من معرفتهما واعتقادهما :

الأمر الأول : أن الموت ليس عدماً بالنسبة للإنسان ، بل هو بقاء الروح وهي المدركة العالمة الباصرة السامعة العاقلة ، ويعتبر الإنسان الذي يعتقد أن الإنسان يفنى ويصبح عدما بالموت ضالاً كافراً ليس مسلماً معتقداً لعقيدة الإسلام الحقة .

والأمر الثاني : أن الإنسان لا يكون في القبر المظلم الموحش حتى قيام الساعة ، بل يكون بعد خروج روحه من بدنه مباشرة في عالم البرزخ الذي أخبرنا الله تعالى عنه بقوله ﴿ **ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾ إما منعماً وإما معذباً .

وهذان هما عنصرا الإيمان في قضية الموت وعذاب القبر وفاقدهما أو أحدهما فاقد للإيمان في هذا الموضوع .

ونثبت النعيم والعذاب لمن لم يدفن من الأموات ، كمن انفجرت به طائرة أو صاروخ فضاء أو غرق في البحر أو تفجرت السفينة التي هو بها في حرب وغيرها وأكلته حيتان البحر لأن النعيم والعذاب غير مبسوط بالقبر بل هو في عالم البرزخ كما دل عليه القرآن في قوله تعالى ﴿ **ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾ .

وقد اختلف أهل السنة والجماعة في النعيم والعذاب ، هل عائد على الروح أم على الجسد والروح ، ونرى أن الأقوى أنه على الروح فقط ، ولا مانع أن يكون

على الجسد أيضاً بطريقة لا يمكننا إدراكها ، ولا يخالف هذا ظهور العذاب على بعض الأجساد في الأحيان النادرة ، كما يظهر حفظ بعض الأجساد من البلى على ممر العصور والدهور أحياناً .

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٣/ ٢٣٣) :

« لم يتعرض - البخاري - في الترجمة لكون عذاب القبر يقع على الروح فقط أو عليها وعلى الجسد ، وفيه خلاف شهير عند المتكلمين ، وكأنه تركها لأن الأدلة التي يرضاها ليست قاطعة في أحد الأمرين فلم يتقلد الحكم واكتفى بإثبات وجوده » انتهى أي وجود عذاب القبر دون أن يتعرض هل هو على الروح أو عليها وعلى الجسد ، وقولنا (عذاب القبر) المراد به عندنا أينما ذكرناه وكذا في كلام العلماء حسب ما نرى هو عذاب البرزخ فلا تغفل عن هذه النقطة .

وأما سؤال الملكين الوارد في الأحاديث فالصحيح عندنا أن السؤال واقع في البرزخ إن ثبت فعلاً لا في نفس القبر ويحصل السؤال للمؤمنين بكل راحة وطمأنينة كما يُسْأل الإنسان في الدنيا عن أشياء وهو لم يقترف جريمة وهو يعلم أنه غير مُعَذَّب لأن الملائكة تكون قد بشرت المؤمن عند خروج روحه بأنه من المؤمنين الناجين الذين قال الله عنهم ﴿ **فروح وريحان وجنة نعيم** ﴾ **كما** أنهم لا يخافون لأن الله تعالى وعد بذلك كما جاء في القرآن في قوله سبحانه ﴿ **لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ النحل : ٣٢ .

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٣/ ٢٣٤) عند الكلام على سماع الأموات (في شرح حديث جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما قال صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ») نقلاً عن السهيلي ما نصه :

« وإذا جاز أن يكونوا في تلك الحال عالمين جاز أن يكونوا سامعين إما بآذان رؤوسهم كما هو قول الجمهور ، أو بآذان الروح على رأي من يوجه السؤال إلى

الروح من غير رجوع للجسد » . فتأمل جيداً .

والذي يظهر لنا في باب الجمع بين الأدلة الواردة في هذا الموضوع أن الله تعالى أحدث اتصالاً بين روح الإنسان في عالم البرزخ وبين البقعة التي يدفن فيها الجسد (وهو القبر) فمن ذهب إلى قبر إنسان وسلَّم عليه ، أو دعا له أو غير ذلك فإن ذلك الميت (أي الإنسان في البرزخ) يسمعه ويشعر به ، كما جاء في الحديث الصحيح « ما من أحد يمر على قبر أخيه كان يعرفه في الدنيا يسلم عليه إلا عرفه وردَّ السلام عليه » وهو حديث صحيح رواه الخطيب في تاريخه (١٣٧/٦) وغيره .

وقد أحدث التصور المخطىء عن الموت في هذا العصر عند كثير من الناس اضطراباً وخوفاً شديداً من الموت وما بعده حتى أورث أمراضاً نفسية عند بعضهم وهي ما يسمى اليوم بمرض الكآبة ، وهو قبض روحي لشعور صاحب التصور المخطىء أنه لا بد له أن يمر في يوم من الأيام بمرحلة العذاب والخوف المتعلق بالموت ونحو هذه الأمور ، ونحن نطمئنه ونبشره ونقول له لن يمر بك ذلك وخاصة إن كنت مسلما تقياً ، لأن الله تعالى يقول في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه عن المؤمنين ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ البقرة ٣٨ ، وقال تعالى ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ البقرة : ١١٢، وقال تعالى ﴿ **الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ البقرة : ٢٧٤ ، وقد ذكر الله تعالى للمؤمنين قوله ﴿ **لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ في القرآن في نحو اثني عشر موضعاً تأكيداً لهذا الأمر في نفوس أهل الإيمان .

وقال تعالى ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون** ﴾ الأنبياء : ١٠٣ ، فإذا كانوا لا يفزعون في الفزع الأكبر يوم القيامة وقد أمَّنهم الله تعالى من الخوف ، فما بالك بالفزع الأصغر الموت وما بعده !! وقال تعالى ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون** ﴾ النمل : ٨٩ .

فالله تعالى بشر المؤمنين ، ولكن هؤلاء الوعاظ وبعض العلماء يخوفونهم . ويحدثونهم بالواهيات والضعاف أو بالأحاديث الصحيحة المعارضة بالقطعيات ! ومن تلك الأحاديث حديث ضمة القبر للمؤمن والكافر وأنه لم ينج من ضمة القبر حتى سعد بن معاذ الذي اهتز عرش الرحمن عند موته فرحاً بلقياه(٣٥٢) . والصحيح أننا لا نأخذ بهذا الحديث لأن معناه يخالف ما ثبت في القرآن من الرحمة والبشرى للمؤمنين وأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، هذا ما نعتقده وندين الله تعالى به ، ولا نرد الآيات المحكمات القطعيات التي تبشر المؤمن وتُعْلِمه بأنه لا خوف عليه ولا حزن ، لحديث آحاد يُدْخِلُ الرعب والخوف على قلوب الناس ؛ بل لا نعتقد صحته إسناداً ومتناً .

واعلم أنه لا بد للمؤمن من أن يتعادل عنده جانب الخوف والرجاء لا يطغى أحدهما على الآخر وإلا صار قانطاً أو متواكلاً .

---

(٣٥٢) هذا الحديث رواه النسائي في سننه (٤/ ١٠٠ برقم ٢٠٥٥) فقال : أخبرنا إسحق بن إبراهيم قال حدثنا عمر بن محمد العنقزي قال حدثنا ابن إدريس عن عبد الله عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « هذا الذي تحرك له العرش (يعني سعد بن معاذ) ، وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألف ملك لقد ضم ضمة ثم فرج عنه » وكذا رواه ابن حبان في صحيحه (٧/ ٣٧٩) ورجاله ثقات وظاهر إسناده الصحة إلا أنه غريب وشاذ ومشكل عندي ككثير من الأحاديث التي حكم عليها العلماء بالشذوذ وبعضها في الصحيحين ، وذلك لأمرين ، الأول : أنه معارَض بالقرآن كما ذكرنا ، والثاني : أن نافعاً يرويه تارة عن امرأة ابن عمر عن السيدة عائشة كما في مسند أحمد (٦/ ٥٥) وفيه ما يدل على اضطراب القضية ، وتارة عن ابن عمر ، وروي أيضاً من حديث سيدنا حذيفة عند أحمد (٥/ ٤٠٧) بسند ضعيف . والثالث : أن هناك أحاديث عديدة تكلمت عن الميت المؤمن والكافر وما يلقيان ولم تتعرض البتة لضمة القبر وضغطته بل تعرضت الأحاديث التي بعضها في البخاري ومسلم إلى أن القبر يفسح عليه ، وصاحبا الصحيحين لم يخرجا حديث الضغطة في صحيحهما مع أن إسناده على شرط مسلم ، وهذا الأمر معتبر إذا ضُمَّ إلى ما قبله من التعليل .

وقد روى الطبراني (٤/ ١٢١) عن أبي أيوب مرفوعاً : « لو أفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي » قلت : ولا يثبت لأن في سنده حماد بن سلمة عن غير ثابت ، وهذا غير معقول مع الآيات التي ذكرناها ولأن الصبي ليس مكلفاً ، وهو آحاد غير متواتر فلا يبني عليه أصل في الاعتقاد . وقد نص الدارقطني على أن هذا الحديث مرسل غلط بعض الرواة فجعله متصلاً وقد تقدم الكلام في هذا مفصلاً .

[تنبيه] : وإننا ننصح من يخاف من الموت والقبر أن يتذكر هذه الأمور العقائدية أولاً ويُقنع نفسه بها ، وهي أن الله تعالى بشَّره بالنعيم وأخبر بأن الإنسان لا يفنى بالموت إطلاقاً، وأنه لا يكون في حفرة مظلمة ، وإنما يكون إن كان مؤمناً تقياً مع إخوانه المؤمنين في البرزخ وهم الذين سبقوه والذين قال الله تعالى فيهم ﴿ **يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ وننصح هذا الخائف أيضاً أن يحافظ على الفرائض ويكثر من النوافل وخاصة قيام الليل ولو ركعتين أو أربع ركعات يطيل فيهن السجود ويلتجيء إلى الله ليذهب الخوف والجزع عن قلبه ويدخل عليه الطمأنينة والراحة والسكينة ، وكذلك يقرأ القرآن ويكثر من ذكر الله تعالى ، قال تعالى ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ فكلما قلَّتْ طاعاته وكثرت معاصيه ازداد خوفه والعكس بالعكس .

كما ينبغي أن يتذكر مَنْ يتذكر الموت والقبر أيضاً سعة رحمة الله تعالى والجنة والنبي صلى الله عليه وآله وسلم ورحمته بنا وشفاعته لنا وأمثال هذه الأمور ، لأن الموت والقبر يُدخلان ويوردان على القلب حالات قبض جلالية ، وذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم والشفاعة والجنة ورحمة الله تعالى تورد حالات بسط جمالية ، فيتعادلان فيزول الخوف والقبض اللذان يورثان مرض الكآبة الذي يعجز عن معالجته الأطباء النفسانيون ، لأن الأمر يحتاج إلى علاج روحي وقد ذكرناه لكم الآن ، والأطباء يُعْطون المصاب لمعالجته مُسَكِّنات لن تُجْدي ، ولا يعني ذلك أننا ندعو إلى الذهاب لأهل السحر والكهانة والحجب المرفوضة وإنما ندعو إلى فهم العقيدة الإسلامية من علماء الإسلام المخلصين على الوجه الصحيح لا المخطىء . والله الموفق والهادي .

(فصل) : في إثبات سماع الأموات للأحياء :

اعلموا يرحمكم الله تعالى أن بعض مَنْ توهم أن الأموات لا يسمعون ظنوا أن قول الله تعالى ﴿ **وما أنت بمسمع من في القبور** ﴾ فاطر : ٢٢ دليلاً على ذلك ، وليس كذلك ، بل هذه الآية دليل على أن الكفار المصرِّين على الباطل لن ينتفعوا بالتذكير والموعظة كما أن الأموات الذين صاروا إلى قبورهم لن ينتفعوا بما

يسمعونه من التذكير والموعظة بعد أن خرجوا من الدنيا على كفرهم ، فَشَبَّه الله تعالى هؤلاء الكفار المصرين بالأموات من هذا الوجه ، ونص على ذلك أهل التفسير فراجعه ، وإني أنقل لك قول واحد منهم :

جاء في « تفسير ابن كثير » (٣/ ٥٦٠) في تفسير آية ﴿ **وما أنت بمسمع من في القبور** ﴾ أن المعنى :

« أي كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ، ولا تستطيع هدايتهم ﴿ **إن أنت إلا نذير** ﴾ فاطر : ٢٢ » انتهى .

واعلم أن الله تعالى قال ﴿ **إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولّوا مدبرين** ﴾[٣٥٣] النمل : ٨٠ ، وأنت تعلم أن الأموات لا يولون مدبرين بعد العظة والتذكير وإنما المراد بذلك الكفار ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما في البخاري (١١/ ٢٠٨) : « مَثَلُ الذي يذكر الله تعالى والذي لا يذكره مَثَلُ الحي والميت » .

إذا فهمت ذلك فتدبر الآن في أدلة سماع الأموات :

١- روى الإمام البخاري (٧/ ٣٠١) ومسلم (٢/ ٦٤٣) في صحيحيهما من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : « وقف النبي صلى الله عليه وآله

---

[٣٥٣] الضمير في قوله سبحانه ﴿ **إذا ولوا مدبرين** ﴾ عائد على الموتى وعلى الصم ، لأن المراد بكل منهما الكفار ، وهذا ظاهر بداهة ، فالموتى والصم هم الكفار لا الأجساد ، ونص على ذلك أئمة محققي المفسرين قال الطبري في تفسيره (مجلد ١١ جزء ٢٠ صحيفة ١٢) :

[وقوله ﴿ **إنك لا تسمع الموتى** ﴾ يقول : إنك يا محمد لا تقدر أن تُفْهِم الحق من طبع الله على قلبه فأماته لأن الله قد ختم عليه أن لا يفهمه ﴿ **ولا يسمع الصم الدعاء** ﴾ يقول : ولا تقدر أن تسمع ذلك من أصم الله عن سماعه سمعه ﴿ **إذا ولوا مدبرين** ﴾ يقول : إذا هم أدبروا معرضين عنه لا يسمعون له ، لغلبة دين الكفر على قلوبهم ولا يصغون للحق ولا يتدبرون ولا ينصتون لقائله ، ولكنهم يعرضون عنه وينكرون القول به والاستماع له] انتهى من الطبري .

وهذا يثبت بلا شك أن الضمير في قوله (ولوا) يعود على الأموات وعلى الصم .

وكذا قال الإمام الحافظ أبو حيان في تفسيره « النهر الماد » (٢/ ٦٣٤) فليراجع .

وسلم على قليب بدر فقال : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ ثم قال : إنهم الآن يسمعون ما أقول ...» .

وفي رواية في الصحيح (البخاري ٧/ ٣٠١) : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يا فلان بن فلان ، ويا فلان بن فلان ، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » انتهى .

ومن رد هذا الكلام الصريح بكلام السيدة عائشة قلنا له :

قال ابن حجر في « فتح الباري » (٧/ ٣٠٤) ما نصه :

« ومن الغريب أن في المغازي لابن إسحق رواية يونس بن بكير **بإسناد جيد عن عائشة** مثل حديث أبي طلحة - يعني أنها أثبتت أن الأموات يسمعون - وفيه ما أنتم بأسمع لما أقول منهم . **وأخرجه أحمد بإسناد حسن ، فإن كان محفوظاً فكأنها رجعت عن الإنكار لما ثبت عندها من رواية هؤلاء الصحابة لكونها لم تشهد القصة** » انتهى .

٢- عن سيدنا ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن لله تعالى ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام » رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٢١) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وفي « فيض القدير » (٢/ ٤٧٩) : « رواه أحمد في المسند والنَّسائي وابن حبان والحاكم ، قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح ، وقال الحافظ العراقي : الحديث متفق عليه دون قوله سياحين » انتهى .

٣- قال الحافظ السيوطي « في اللمعة في أجوبة الأسئلة السبعة » (الحاوي ٢/ ١٧٠) : [روى الحافظ ابن عبد البر في الاستذكار والتمهيد من حديث ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلِّم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام » صححه الحافظ

أبو محمد بن عبد الحق] .

قلت : رواه الخطيب في تاريخه (٦/ ١٣٧) وهو صحيح كما بينته في كتابي « الإغاثة بأدلة الاستغاثة » .

٤- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من أحد يسلم علي إلا رَدَّ الله إليَّ روحي حتى أرد عليه السلام » رواه أبو داود وغيره ، وصححه النووي في « رياض الصالحين » وفي « الأذكار » ، وقال الحافظ ابن حجر : رجاله ثقات ، كما في « فيض القدير » (٥/ ٤٦٠) .

قال الإمام الحافظ السيوطي في رسالته « إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء » المطبوع ضمن « الحاوي » (٢/ ١٤٧) : [قوله (رد الله) جملة حالية ، وقاعدة العربية أن جملة الحال إذا وقعت فعلاً ماضياً قُدِّرَتْ (قد) ، كقوله تعالى : ﴿ **أو جاؤوكم حصرت صدورهم** ﴾ النساء : ٩٠ أي قد حصرت ، كذا تُقَدَّر هنا ، والجملة ماضية سابقة على السلام الواقع من كل أحد و (حتى) ليست للتعليل بل مجرد حرف عطف بمعنى الواو ، فصار تقدير الحديث :

(ما من أحد يسلم عليَّ إلا قد رد الله عليَّ روحي قبل ذلك فأرد عليه) .

وإنما جاء الإشكال على من ظن أن جملة (رَدَّ الله عليَّ) بمعنى الحال ، أو الاستقبال ، وظن أن (حتى) تعليلة ، وليس كذلك ، وبهذا الذي قررناه ارتفع الإشكال من أصله وأيَّده من حيث المعنى : أن الرد لو أخذ بمعنى الحال والاستقبال لزم تكرره عند تكرار سلام المُسَلِّمين ، وتكرر الرد يستلزم تكرار المفارقة ، وتكرر المفارقة يلزم عليه محذوران :

أحدهما : تأليم الجسد الشريف بتكرار خروج الروح منه ، أو نوع ما من مخالفة التكريم أن لم يكن تأليم .

والآخر : مخالفة سائر الشهداء وغيرهم ، فإنه لم يثبت لأحد منهم أن يتكرر له مفارقة الروح وعودها في البرزخ ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم أولى بالاستمرار الذي هو أعلى رتبة] . انتهى كلام الحافظ السيوطي .

٥- وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم :

« والذي نفس أبي القاسم بيده لينزلن عيسى ابن مريم إماماً مقسطاً وحكماً عدلاً ، فليكسرن الصليب ويقتلن الخنزير وليصلحن ذات البين وليذهبن الشحناء وليعرضن المال فلا يقبله أحد ، **ثم لئن قام على قبري فقال يا محمد لأجبته** » رواه أبو يعلى (١١/ ٤٦٢ برقم ٦٥٨٤) والحاكم (٢/ ٥٩٥) . قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد» (٨/ ٢١١) : « قلت هو في الصحيح باختصار رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح »(٣٥٤) انتهى .

قلت : وفي قوله (لأجبته) دلالة ظاهرة في سماعه إياه .

٦- وجاء في الصحيحين البخاري (الفتح ٣/ ٢٠٥) ومسلم وكذا عند أحمد والسُدِّي والبزار وابن حبان مرفوعاً :

« إن الميت إذا وضع في قبره إنه يسمع خفق نعالهم » وهو محمول عندنا على سماعه إياهم في البرزخ إن قلنا بصحته .

٧- جاء في حديث أبي هريرة والسيدة عائشة وبُريدة واللفظ له عند مسلم وغيره كما في « تلخيص الحبير » (٢/ ١٣٧) : [أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول إذا ذهب إلى المقابر : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا أن شاء الله بكم لاحقون ، أسأل الله لنا ولكم العافية »] واه مسلم (٢٤٩) .

قلت : وهذا نداء ودعاء للأموات صريح من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وخطاب مَنْ لا يسمع ولا يعقل غير جائز وغير معقول .

وبذلك ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الأموات يسمعون ، وقد كتب بعض الناس في هذه الأيام ما يفيد عدم سماعهم مستدلين بظاهر الآية التي ذكرناها لكن استدلالهم بها خطأ لما بيناه ، والله الموفق .

---

(٣٥٤) مع أننا لا نقول بصحة هذا الحديث ! لأمور أخرى تتعلق بمتنه ! وإنما أوردناه من باب الإلزام للخصم !

انتفاع الأموات بأعمال الأحياء

/ ومن ذلك وصول قراءة القرآن الكريم للأموات وانتفاعهم بها /

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات) .

الشرح :

قال الإمام النووي في كتاب « الأذكار » ص (٢٥٨)(٣٥٥) : « أجمع العلماء على أن الدعاء للأموات ينفعهم ويصلهم ثوابه ، واحتجوا بقوله تعالى ﴿ **والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان** ﴾ الحشر : ١٠ ؛ وغير ذلك من الآيات المشهورة بمعناها ، وفي الأحاديث المشهورة كقوله صلى الله عليه وآله وسلم « اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد »(٣٥٦) وكقوله صلى الله عليه وآله وسلم « اللهم اغفر لحينا وميتنا »(٣٥٧) وغير ذلك .

واختلف العلماء في وصول ثواب القرآن ... » انتهى .

قلت : وأجمع المسلمون على مشروعية صلاة الجنازة التي فيها دعاء للميت كما فيها قراءة الفاتحة ، والمقصود أن تعود بركة الدعاء وثواب قراءة الفاتحة والأذكار فيها على الميت .

وعن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه قال : قال لي أبي :

« يا بني : إذا أنا مت فألحدني فإذا وضعتني في لحدي فقل : بسم الله وعلى ملة رسول الله ثم شن علي التراب شناً ثم اقرأ عند رأسي بفاتحة البقرة

---

(٣٥٥) في كتاب الجنائز منه باب ما ينفع الميت من قول غيره . من طبعة دار الفكر الأولى (١٤٠٣هـ) .

(٣٥٦) رواه مسلم في « صحيحه » (٢/ ٦٦٩) .

(٣٥٧) رواه أحمد في المسند (٢/ ٣٦٨) وفي مواضع أخرى ، وأبو داود (٣/ ٢١١) والترمذي (٣/ ٣٤٤) والنسائي (٤/ ٧٤ صغرى) وابن ماجه (١/ ٤٨٠) وابن حبان في صحيحه (٧/ ٣٤٠) وغيرهم وهو صحيح .

وخاتمتها ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك »(٣٥٨) .

وقال الإمام النووي في « الأذكار » ص (٢٥٤) أيضاً :

[وروينا في سنن أبي داود والبيهقي بإسناد حسن عن عثمان رضي الله عنه قال : « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال : استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » .

قال الشافعي والأصحاب : يستحب أن يقرؤوا عنده شيئاً من القرآن ، قالوا فإن ختموا القرآن كله كان حسناً .

وروينا في سنن البيهقي بإسناد حسن أن ابن عمر استحب أن يقرأ على القبر بعد الدفن أول سورة البقرة وخاتمتها(٣٥٩)] انتهى كلام الإمام النووي .

وقد اعتاد المسلمون في القديم والحديث قراءة القرآن وختمه لأمواتهم وقد فعلوا ذلك لأئمتهم من العلماء والفقهاء والمحدثين . وقد ذكر الحافظ الذهبي في تراجم كثير من الأئمة أن المسلمين فعلوا ذلك ووهبوه للميت منهم ، ففي ترجمة الإمام الحافظ الخطيب البغدادي مثلاً من « سير أعلام النبلاء » (١٨/ ٢٨٦) قال : « وختم على قبره عدة ختمات » .

[ملاحظة مهمة] : ومن الخطأ الشائع عند بعض الناس !! بل وبعض المفتين على بعض المشارب مسارعتهم للقول بأن الميت لا يَنْتَفِعُ بعمل غيره محتجين

---

(٣٥٨) رواه الطبراني في الكبير (١٩/ ٢٢١) قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٣/ ٤٤) : « ورجاله موثوقون » . **قلت** : وهو حديث حسن ، وحسنة شيخنا الإمام المحدث « سيدي » عبد الله ابن الصديق في كتابه « توضيح البيان لوصول ثواب القرآن » المطبوع مع « إتقان الصنعة » ص (١١٠) قلت : بل هو حديث صحيح احتج به يحيى بن معين كما في « تهذيب الكمال » للمزي (٢٢/ ٥٣٧-٥٣٨) ، وأحمد بن حنبل وعلي بن موسى الحداد كما روى ذلك الخلال . وفي معناه حديث آخر ضعيف الإسناد إلا أنه حسن بهذا الشاهد وهو ما رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٤٤٤) والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧/ ١٦) عن سيدنا ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إذا مات أحدكم فلا تحبسوه وأسرعوا به إلى قبره وليقرأ عند رأسه فاتحة الكتاب » .

(٣٥٩) انظر « سنن البيهقي » (٤/ ٥٦) .

بقوله تعالى ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ النجم : ٣٩ ، وبحديث « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة ؛ إلا من صدقة جارية ؛ أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »(٣٦٠) .

وإليكم الجواب على هذا مقتطفاً من رسالة « سيدي » الإمام عبد الله ابن الصديق الغماري « توضيح البيان لوصول ثواب القرآن »(٣٦١) ، قال أعلى الله درجته ورحمه وأثابه : [لم تَنْفِ - الآية - انتفاع الرجل بسعي غيره وإنما نفت ملكه لغير سعيه وبين الأمرين فرق لا يخفى ، فأخبر الله تعالى أن الإنسان لا يملك إلا سعيه ، أما سعي غيره فهو ملك لساعيه ؛ فإن شاء أن يبذله لغيره ، وإن شاء أن يبقيه لنفسه وهو سبحانه لم يقل : لا ينتفع إلا بما سعى .

قال ابن القيم وكان شيخنا - يعني ابن تيمية(٣٦٢) - يختار هذه الطريقة ويرجحها انتهى .

وقال القرطبي : وقيل إن الله عز وجل إنما قال ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ ولام الخفض معناها في العربية الملك والإيجاب فلم يجب للإنسان إلا ما سعى ، فإذا تصدَّق عليه غيره فليس يجب له شيء ، إلا أن الله عز وجل يتفضل عليه بما لا يجب له ، كما يتفضل على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل انتهى .

وفي فتاوى الحافظ ابن الصلاح ما نصه : « مسألة في قوله تعالى ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ وقد ثبت أن أعمال الأبدان لا تنتقل . وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له** » وقد اختلف في القرآن : هل يصل إلى الميت أو لا ؟ وكيف يكون الدعاء يصل إليه والقرآن أفضل ؟! **أجاب رضي الله عنه** : هذا قد اختلف فيه ، وأهل الخير وجدوا البركة في مواصلة الأموات بالقرآن ،

---

(٣٦٠) رواه مسلم (٣/ ١٢٥٥) وغيره .

(٣٦١) وهي مطبوعة بذيل كتابه الذي سماه أعلى الله مقامه : « إتقان الصنعة في تحقيق معنى البدعة » .

(٣٦٢) ونَقْلُ كلامِ الشيخ الحراني وتلميذه ابن زفيل هنا من باب قولهم : من فمك ندينك !! فافهم !!

وليس الاختلاف في هذه المسألة ، كالاختلاف في الأصول ، بل هي من مسائل الفروع ، وليس نص الآية المذكورة دالاً على بطلان قول من قال : إنه يصل ، فإن المراد به - أي نص الآية - أنه لا حق له ولا جزاء إلا فيما يسعى ، ولا يدخل في ذلك ما يتبرع به الغير من قراءة ودعاء وأنه لا حق في ذلك ولا مجازاة ، وإنما أعطاه الغير تبرعاً ، وكذلك الحديث ، لا يدل على بطلان قوله ، فإنه في عمله ، وهذا من عمل غيره انتهى .

وقال الشيخ أبو العباس أحمد بن تيمية : من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله فقد خرق الإجماع وذلك باطل من وجوه :

أحدهما : أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره ، وهو انتفاع بعمل الغير . **ثانيها** : **أن** النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشفع لأهل الموقف في الحساب ، ثم لأهل الجنة في دخولها ، ثم لأهل الكبائر في الخروج من النار . **ثالثها** : **أن** الملائكة يستغفرون ويدعون لمن في الأرض . **رابعها** : **أن** الله تعالى يُخْرِجُ مِن النار مَنْ لم يعمل خيراً قط ، بمحض فضله ورحمته ، وهذا انتفاع بغير عملهم .

خامسها : أن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم .

سادسها : قال تعالى في قصة الغلامين اليتيمين ﴿ **كان أبوهما صالحاً** ﴾ .

سابعها : **أن** الميت ينتفع بالصدقة عنه وبالعتق ، بنص السنة والإجماع .

ثامنها : أن الحج المفروض يسقط عن الميت ، لحج وليه عنه بنص السنة .

تاسعها : **أن** الحج المنذور أو الصوم المنذور ، يسقط عن الميت بعمل غيره ، بنص السنة وهو انتفاع بعمل الغير .

عاشرها : أن المدين قد امتنع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة ، وقضى دَين الآخر علي بن أبى طالب ، وانتفع بصلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو من عمل الغير انتهى باختصار .

فتبين مما تقدم أن الاستدلال بالآية على منع وصول القراءة للميت ، غير صحيح ، لأن الآية لا تفيد ذلك] .

انتهى ما أردنا نقله من كلام سيدي عبد الله ابن الصديق والله الموفق .

أشراط الساعة وعلاماتها

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ونؤمن بأشراط الساعة : من خروج الدجال ، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء ، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها ، وخروج دابة الأرض من موضعها).

الشرح :

ذهب جمهور أهل السنة والجماعة إلى أن للساعة أشراطاً أي علامات لا تقوم حتى تحصل هذه الأمور ، واستدلوا بقول الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ سورة سيدنا محمد : ١٨ .

قالوا : وبعد ظهور بعض علامات الساعة لا يقبل إيمان من آمن أو تاب بعد ذلك لقوله تعالى : **﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ، يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون ﴾** الأنعام : ١٥٨ .

وقد استدلَّ جمهور أهل السنة في قضية الدابة بظاهر قوله تعالى : **﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾** النمل : ٨٢ .

وفي الدخان بظاهر قوله تعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ الدخان : ١٢ .

وفي نزول سيدنا عيسى بظاهر قوله تعالى : ﴿ وإنه لَعِلْمٌ للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ﴾ الزخرف : ٦١ . وقرئ **﴿ وإنه لَعَلَمٌ للساعة ﴾** .

وفي خروج يأجوج ومأجوج بظاهر قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين ﴾ الأنبياء : ٩٧ .

وروى مسلم في « الصحيح » (٢٢٢٥/٤) من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري قال :

« اطلع النبي صلى الله عليه وآله وسلم علينا ونحن نتذاكر . قال : « ماذا تذاكرون ؟ » قالوا نذكر الساعة . قال « إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات » فذكر « الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف ، خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم » .

وعن عبد الله بن عمرو قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على أثرها قريباً » رواه مسلم (٢٢٦٠/٤) .

وعنه أيضاً قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« الآيات - يعني علامات الساعة - خرزات منظومات في سلك ، فإن يقطع السلك يتبع بعضها بعضاً » رواه الإمام أحمد في « المسند » (٢١٩/٢) ، ورواه الحاكم (٥٤٦/٤) من حديث سيدنا أنس وصححه على شرط مسلم .

وعن سيدنا حذيفة بن اليمان قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« لأنا أعلم بما مع الدجال منه . معه نهران يجريان . أحدهما رأيَ العين ماء أبيض . والآخر رأيَ العين نار تأجج . فإما أدركن أحد فليأت النهر الذي يُرَاه ناراً وليغمض . ثم ليطأطئ رأسه فيشرب منه ، فإنه ماء بارد . وإن الدجال ممسوح العين . عليها ظَفَرَةٌ غليظة . مكتوب بين عينيه كافر . يقرؤه كل مؤمن ، كاتب وغيره كاتب » رواه مسلم (٢٢٤٩/٤) .

وروى مسلم في صحيحه (٢٢٥١/٤) ، عن النواس بن سمعان ، قال :

ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدجال ذات غداة . فَخَفَّضَ فيه

ورَفَّع(٣٦٣) . حتى ظنناه في طائفة النخل . فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا . فقال « ما شأنكم ؟ » قلنا : يا رسول الله ذكرت الدجال غداة . فَخَفَّضْتَ فيه ورفَّعْتَ . حتى ظنناه في طائفة النَّخل . فقال : « غير الدجال أخوفني عليكم . إن يخرج وأنا فيكم ، فأنا حجيجه دونكم . وإن يخرج ولست فيكم فامروء حجيج نفسه . والله خليفتي على كل مسلم إنه شاب قطط(٣٦٤) . عينه طافئة . كأني أُشَبِّهُهُ بعبد العُزَّى ابن قَطَن . فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف . إنه خارج خلة بين الشام والعراق(٣٦٥) . فعاث يميناً وعاث شمالاً(٣٦٦) يا عباد الله فاثبتوا » .

قلنا : يا رسول الله وما لبثه في الأرض ؟ قال : « أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم » .

قلنا : يا رسول الله ! فذلك اليوم الذي كسنة ، أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : « لا اقدروا له قدره(٣٦٧) » قلنا : يا رسول الله وما إسراعه في الأرض ؟ قال :

---

(٣٦٣) أغلب التعليقات الشارحة لهذا الحديث مأخوذة من شرح الإمام النووي على صحيح مسلم . فقوله (فخفض فيه ورفع) : بتشديد الفاء فيهما . وفي معناه قولان :

أحدهما : أن (فخفَّض) بمعنى حقر ، وقوله (رفَّع) أي عظمه وفخمه . فمن تحقيره وهوانه على الله تعالى عَوَره . ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « هو أهون على الله من ذلك » وأنه لا يقدر على قتل أحد إلا ذلك الرجل ، ثم يعجز عنه ، وأنه يضمحل أمره ، ويقتل بعد ذلك ، هو وأتباعه . ومن تفخيمه وتعظيم فتنته والمحنة به هذه الأمور الخارقة للعادة .

والوجه الثاني : أنه خفَّض من صوته في حال الكثرة فيما تكلم فيه . فخفَّض بعد طول الكلام والتعب ليستريح ، ثم رفع ليبلغ صوته كل أحد بلاغاً كاملاً مفخماً .

(٣٦٤) (قطط) أي شديد جعودة الشعر ، مباعد للجعودة المحبوبة .

(٣٦٥) (إنه خارج خلة بين الشام والعراق) معناه سمت ذلك وقبالته أي المنطقة الموازية لتلك المنطقة .

(٣٦٦) (فعاث يميناً وعاث شمالاً) العيث الفساد ، أو أشد الفساد والإسراع فيه . وحكى القاضي أنه رواه بعضهم : فَعَاثٍ ، اسم فاعل ، وهو بمعنى الأول .

(٣٦٧) (اقدروا له قدره) قال القاضي وغيره : هذا حكم مخصوص بذلك اليوم ، شرعه لنا صاحب الشرع . قالوا : ولولا هذا الحديث ، ووكلنا إلى اجتهادنا ، لاقتصرنا فيه على الصلوات الخمس عند الأوقات المعروفة في غيره من الأيام . ومعنى (اقدروا له قدره) : أنه إذا مضى بعد طلوع الفجر قدر ما يكون بينه وبين الظهر كل يوم ، فصلوا الظهر . ثم إذا مضى بعده قدر ما يكون بينها وبين العصر فصلوا العصر . وإذا مضى بعد هذا قدر ما يكون بينها وبين المغرب فصلوا المغرب ، وكذا العشاء

« كالغيث استدبرته الريح . فيأتي على القوم فيدعوهم ، فيؤمنون به ويستجيبون له . فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت . فتروح عليهم سارحتهم ، أطول ما كانت ذرًا(٣٦٨) ، وأسبغه ضروعاً ، وأمده خواصر . ثم يأتي القوم . فيدعوهم فيردون عليه قوله . فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين(٣٦٩) ليس بأيديهم شيء من أموالهم . ويمر بالخِرْبَة فيقول لها : أَخرِجي كنوزك . فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل(٣٧٠) .ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً . فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض(٣٧١) ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه . يضحك فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم . فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مَهْرُودَتِين(٣٧٢) . واضعاً كفيه على أجنحة ملكين . إذا طأطأ رأسه قَطَرَ . وإذا رفعه

والصبح ثم الظهر ثم العصر ثم المغرب . وهكذا حتى ينقضي ذلك اليوم ، وقد وقع فيه صلوات سنة ، فرائض كلها ، مؤداة في وقتها . أما الثاني الذي كشهر والثالث الذي كجمعة فقياس اليوم الأول أن يقدر لهما كاليوم الأول ، على ما ذكرناه .

(٣٦٨) (فتروح عليهم سارحتم أطول ما كانت ذرًا الخ) أما تروح فمعناه ترجع آخر النهار . والسارحة : هي الماشية التي تسرح ، أي تذهب أول النهار إلى المرعى . والذُرا الأعالي والأسنمة جمع ذروة ، بالضم والكسر . وأسبغه : أي أطوله لكثرة اللبن ، وكذا أمده خواصر ،لكثرة امتلائها من الشبع .

(٣٦٩) (فيصبحون ممحلين) قال القاضي : أي أصابهم المَحْل ، من قلة المطر ، ويُبس الأرض من الكلأ . وفي القاموس : المحل ، على وزن فَحْل ، الجدب والقحط ، والإمحال كون الأرض ذات جدب وقحط . يقال أمحل البلد إذا أجدب .

(٣٧٠) (كيعاسيب النحل) هي ذكور النحل . هكذا فسره ابن قتيبة وآخرون . قال القاضي : المراد جماعة النحل ، لا ذكورها خاصة . لكنه كنى عن الجماعة باليعسوب ، وهو أميرها .

(٣٧١) (فيقطعه جزلتين رمية الغرض) الجزلة بالفتح على المشهور وحكى ابن دريد كسرها ، أي قطعتين ومعنى رمية الغرض أنه يجعل بين الجزلتين مقدار رمية ، هذا هو الظاهر المشهور . وحكى القاضي هذا ثم قال : وعندي أن فيه تقديماً وتأخيراً . وتقديره : فيصيبه إصابة رمية الغرض فيقطعه جزلتين . والصحيح الأول .

(٣٧٢) (فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مَهْرُودَتين) هذه المنارة موجودة اليوم شرقي دمشق . ومعناه لابس مهرودتين أي ثوبين مصبوغين بوَرْس ثم بزعفران وقيل : هما شقتان ، والشقة نصف الملاءة .

تحدَّر منه جمان كاللؤلؤ(٣٧٣) فلا يحل(٣٧٤) لكافر يجد ريح نَفَسِهِ إلا مات . ونَفَسُهُ ينتهي حيث ينتهي طرفه . فيطلبه حتى يدركه بباب لُدٍّ(٣٧٥) . فيقتله . ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم(٣٧٦) ويحدِّثهم بدرجاتهم في الجنة . فبينما هو كذلك إذا أوحى الله إلى عيسى : إني قد أخرجت عباداً لي ، **لا يَدَانِ لأحد بقتالهم**(٣٧٧) . فَحَرِّزْ عبادي إلى الطور(٣٧٨) . ويبعث الله يأجوج ومأجوج . وهم من كل حَدَبٍ يَنْسِلون(٣٧٩) . فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية . فيشربون ما فيها . ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء . ويُحْصَرُ نبي الله عيسى وأصحابه . حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم ؛ فيرغب نبي الله(٣٨٠) عيسى وأصحابه . فيرسل الله عليهم النَّغَف(٣٨١) في رقابهم فيصبحون فَرْسَى(٣٨٢) كموت نفس واحدة . ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض . فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه

---

(٣٧٣) (تحدر منه جمان كاللؤلؤ) الجمان حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار والمراد يتحدر منه الماء على هيئة اللؤلؤ في صفائه . فسمى الماء جماناً لشبهه به في الصفاء والحُسْنِ .

(٣٧٤) (فلا يحل) معنى لا يحل ، لا يمكن ولا يقع ، وقال القاضي : معناه عندي حق وواجب .

(٣٧٥) (بيا لد) بلدة قريبة من بيت المقدس .

(٣٧٦) (فيمسح عن وجوههم) قال القاضي : يحتمل أن هذا المسح حقيقة على ظاهره . فيمسح على وجوههم تبركاً وبراً ، ويحتمل أنه إشارة الى كشف ما هم فيه من الشدة والخوف .

(٣٧٧) (لا يدان لأحد بقتالهم) يدان تثنية يد . قال العلماء : معناه لا قدرة ولا طاقة . يقال : مالي بهذا الأمر يد ، ومالي به يدان . لأن المباشرة والدفع إنما يكون باليد ، وكأن يديه معدومتان لعجزه عن دفعه .

(٣٧٨) (فحرِّز عبادي إلى الطور) أي ضمهم واجعله لهم حرزاً . يقال : أحرزت الشيء أحرزه إحرازاً ، إذا حفظته وضممته إليك ، وصنته عن الأخذ .

(٣٧٩) (وهم من كل حدب ينسلون) من كل أكمه ، من كل موضع مرتفع . وينسلون يمشون مسرعين .

(٣٨٠) (فيرغب نبي الله) أي إلى الله . أي يدعو .

(٣٨١) (النغف) هو دود يكون في أنوف الإبل والغنم . الواحدة نغفة .

(٣٨٢) (فرسى) أي قتلى واحدهم فريس . كقتيل وقتلى .

زَهَمُهُم (٣٨٣) ونَتْنُهُم . فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البُخْت (٣٨٤) فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله . ثم يرسل الله مطراً لا يَكُنُّ (٣٨٥) منه بيت مَدَرٍ (٣٨٦) ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَفَة (٣٨٧) . ثم يقال للأرض : أنبتي ثمرتك ، ورُدِّي بركتك فيومئذ تأكل العصابة (٣٨٨) من الرُّمَّانة ويستظلون بقِحفها (٣٨٩) . ويبارك في الرِّسْل (٣٩٠) . حتى أن اللِّقْحَة (٣٩١) الإبل لَتكفِي الفِئام (٣٩٢) من الناس . واللِّقْحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس واللِّقْحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس (٣٩٣) . فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم . فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس ، يتهارجون فيها تهارج الحُمُر (٣٩٤) فعليهم تقوم الساعة » .

---

(٣٨٣) (زهمهم) أي دسمهم .

(٣٨٤) (البخت) قال في اللسان : البُخْت والبُخْتِية دخيل في العربية . أعجمي معرَّب . وهي الإبل الخراسانية ، تنتج من عربية وفالج ، وهي جمال طوال الأعناق .

(٣٨٥) (لا يكن) أي لا يمنع من نزول الماء .

(٣٨٦) (مدر) هو الطين الصلب .

(٣٨٧) (كالزلفة) روي : الزَّلَقَة. وروي : الزُّلْفَة . وروي الزَّلَفَة . قال القاضي : كلها صحيحة ، واختلفوا في معناه . فقال ثعلب وأبو زيد وآخرون : معناه كالمرآة . وحكى صاحب المشارق هذا عن ابن عباس أيضاً . شبهها بالمرآة في صفائها ونظافتها . وقيل : كمصانع الماء . أي ان الماء ستنقع فيها حتى تصير كالمصنع الذي يجتمع فيه الماء .

(٣٨٨) (العصابة) هي الجماعة .

(٣٨٩) وهذا وإن كان جائزاً في قدرة الله تعالى فيكاد أن يقال فيه : غير معقول ، ومثله هنا في متن هذا الحديث أشياء . وقوله (بقِحفها) بكسر القاف ، هو مقعر قشرها . شبهها بقحف الرأس ، وهو الذي فوق الدماغ وقيل : ما انفلق من جمجمته وانفصل .

(٣٩٠) (الرسل) هو اللبن .

(٣٩١) (اللِّقْحَة) بكسر اللام وفتحها لغتان مشهورتان الكسر أشهر . وهي القريبة العهد بالولادة ، وجمعها لقح كبركة وبرك واللقوح ذات اللبن . وجمعها لقاح .

(٣٩٢) (الفئام) هي الجماعة الكثيرة .

(٣٩٣) (الفخذ من الناس) قال أهل اللغة : الفخذ الجماعة من الأقارب .

(٣٩٤) (يتهارجون فيها تهارج الحمر) أي يجامع الرجال النساء علانية بحضرة الناس ، كما يفعل

وقد صرح جماعة من العلماء المحدِّثين المحققين بتواتر خروج الدجال ونزول سيدنا عيسى عليه السلام وليس ذلك متواتراً على التحقيق ، آخرهم تأليفاً شيخ الإمام المحدث عبد الله ابن الصديق وقبله الإمام العلامة الكوثري رحمهما الله تعالى وأعلى درجتهما في جنة الخلد وألحقنا بهم غير خزايا ولا مفتونين . آمين .

واسم رسالة العلامة الكوثري « نظرة عابرة في مزاعم مَنْ ينكر نزول عيسى عليه السلام قبل الآخرة » ، ولسيدي عبد الله ابن الصديق في هذا الموضوع رسالتان ، الأولى : « إقامة البرهان على نزول عيسى في آخر الزمان » ، والثانية « عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى عليه السلام » .

وكذا صنف العلامة الفاضل محمد أنور شاه الكشميري الهندي كتاباً سماه « التصريح بما تواتر في نزول المسيح » وهو مطبوع ومتداول ؛ لكن كما قدَّمنا أن الصحيح في هذا الأمر أنه غير متواتر .

وقال العلامة الكتاني في « نظم المتناثر من الحديث المتواتر »(٣٩٥) ص (٢٤٠) :

« قال الأُبّي في شرح مسلم في الكلام على أحاديث الأشراط ما نصه : وتقدَّم في حديث جبريل عليه السلام قول ابن رشد : الأشراط عشرة والمتواتر منها خمسة . انتهى

والذي تقدَّم له في حديث جبريل هو أنه بعدما نقل عن القرطبي أن الأشراط تنقسم إلى **معتاد** كالمذكورات في حديث جبريل ، وكرفع العلم ، وظهور الجهل وكثرة الزنا ، وكثرة شرب الخمر ، **وغير معتاد** كالدجال ، ونزول عيسى ، وخروج يأجوج ومأجوج ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها . قال : قال ابن رشد :

الحمير ، ولا يكترثون لذلك . والهَرْج ، بإسكان الراء ، الجماع . يقال : هرج زوجته ، أي جامعها يهرُجها ، بفتح الراء وضمها وكسرها .

(٣٩٥) كتاب « نظم المتناثر من الحديث المتواتر » لا يُسَلَّم لصاحبه بتواتر كل حديث أورده فيه ، فقد أورد فيه أحاديث ادَّعى تواترها وهي ضعاف كحديث « لا وضوء لمن لم يُسَمِّ الله عليه » مع أنه اعترف بذلك فقال في آخر كلامه على هذا الحديث : « والسيوطي رحمه الله بالغ فعدَّ الحديث كما ترى في المتواتر » !!!

واتفقوا على أنه لا بُدَّ من ظهور هذه الخمسة ، واختلفوا في خمسة أُخَر : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، والدخان ، ونار تخرج من قعر عدن تروح معهم حيث راحوا ، وتَقِيل معهم حيث قالوا ، زاد بعضهم وفتح القسطنطينية وظهور المهدي اهـ » هذا كلام الكتاني في نظم المتناثر .

ويتَّضح من كلامه هذا أن فتح القسطنطينية وخروج المهدي(٣٩٦) غير متفق عليهما أيضاً بين الأمة ولا يُسَلَّم لهم دعوى التواتر فيها لأن الأمة لم تجمع على ذلك ، ونحتاج مستقبلاً لعرض دراسة لأسانيد ذلك(٣٩٧) .

ولم يذكر الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١١/ ٣٥٢-٣٥٧) في شرح حديث طلوع الشمس من مغربها أنه متواتر ، وقد روى البخاري أيضاً في « الصحيح » (١٣/ ٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :

« لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقاتلة عظيمة ، دعوتهما واحدة ، وحتى يُبْعَثَ دجالون كذَّابون قريب ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهَرْج وهو القتل ، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يُهَمَّ ربُّ المال مَنْ يقبل صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه : لا أَرَبَ لي به ، وحتى يتطاول الناس في البنيان ، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها

---

(٣٩٦) قال قوم : ولم تصح أحاديث المهدي على كثرتها وكثرة ما أُلِّفَ فيها من المصنفات الكبار والصغار إلا من طريق اثنين أو ثلاثة من الصحابة رضي الله عنهم ، وفي هذا نظر !

ومن صنف فيها سيدنا الإمام عبد الله بن الصديق اعلى الله درجته ولكنه لم يعط البحث والتمحيص فيها حقه !! وإنما جمع كثيراً من طرق الأحاديث فجزاه الله عنا خير الجزاء .

(٣٩٧) وخاصة أن فتح القسطنطينية قد تم منذ زمن بعيد على يد محمد الفاتح العثماني ، ولم يظهر عند ذلك الدجال كما جاء في بعض روايات حديث الدجال الصحيحة الإسناد ، وهذا مما يدل على أنها ضعيفة أو باطلة وغير صحيحة .

خيراً ، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة قد انصرف الرجل بلبن لَقْحَته فلا يطعمه ، ولتقومنَّ الساعة وهو يُلِيط حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » .

ولنا مناقشة لهذه الأمور بتوسع في مكان آخر إن شاء الله تعالى ، والله الموفق .

ومن قرأ ما كتبه الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١١/ ٣٥٢ - ٣٥٧) في شرح حديث طلوع الشمس من مغربها وكذا من قرأ ما يتعلق بذلك من شرح كتاب الفتن في « الفتح » (١٣/ ٧٤ -١١٠) بعين الفاحص الناقد المقارِن فإنه سيرى بكل وضوح الاضطراب بين الروايات في أخبار أشراط الساعة والحديث عنها ؛ والتخالف في أيها يحصل أولاً !! وكيف أن معاني بعضها يضاد معاني البعض الآخر ، وقد تكلَّف بعض العلماء في الجمع بينها مع ظهور التخالف بين كثير من أخبارها !!

أضف إلى ذلك أيضاً أن من الغريب العجيب في هذا الأمر أشياء أُخَر كحديث الجساسة[٣٩٨] والذي فيه أن المسيح الدجال مُقَيَّد في دَيْرٍ في إحدى الجُزُر !! وهو خبر من أعجب العجب ؛ وفيه من النكارة ما لا يخفى وخاصة أنه صح أيضاً - إسناداً - أن ابن صياد هو الدجال[٣٩٩] !! كما حلف بذلك سيدنا عمر بحضرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وحلف بذلك سيدنا جابر[٤٠٠] وقد أطال الحافظ [في « الفتح » (١٣/ ٣٢٥-٣٢٩)] في بيان التخابط والتخالف في ذلك وصرَّح بأن بعض ما ورد فيه وإن كان رجاله ثقات فهو مُتَلَقَّى من بعض كتب أهل الكتاب !! وقال : « ولشدة التباس الأمر في ذلك سلك البخاري مسلك الترجيح فاقتصر على حديث جابر عن عمر في ابن صياد ، ولم يُخْرِج حديث فاطمة بنت قيس في قصة تميم »[٤٠١] فعلى هذا يمكن أن يقال : لو

---

[٣٩٨] الذي في « صحيح مسلم » (٤/ ٢٢٦١).

[٣٩٩] قصة ابن صياد هي في البخاري (٦/ ١٧٢) ومسلم (٤/ ٢٢٤٠)

[٤٠٠] وهو في البخاري (١٣/ ٣٢٣) ومسلم (٤/ ٢٢٤٣).

[٤٠١] يعني أن البخاري لم يخرج قصة الجساسة واعتبرها مرجوحة .

كان الدجال وأمره هذا صحيحاً وكونه من أشراط الساعة قد جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يقع فيه هذا التخابط والالتباس والتناقض ، فالله أعلم بثبوت هذه العلامات المذكورات في الأحاديث والتي لم يأت لها ذكر في القرآن ، والظاهر أن أحاديث الفتن وأشراط الساعة وبعض ما يحدث يوم القيامة من أمور وكذلك بعض التفصيلات الواردة في قصة الإسراء والمعراج قد دخلتها الإسرائيليات وقد أشرنا إلى ذلك في موضعه من هذا الشرح حسب ما يناسب المقام من اختصار ونسهب فيه أيضاً بإذن الله تعالى في موضع آخر .

حجة الفريق الآخر الذي أنكر علامات الساعة الكبرى التي تحدث قبل قيام الساعة :

قال آخرون : نحن نثبت أشراطاً للساعة لأن موضوع وجود أشراط للساعة أمر مقطوع به لقوله تعالى ﴿ **فقد جاء أشراطها** ﴾ فهذه الآية تثبت أن للساعة أشراطاً ونحن نقول بذلك لكنها مضت وذهبت ، وقد صح في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « بعثت أنا والساعة كهاتين » رواه البخاري (٥٣٠١) ومسلم (٨٦٧) .

فذهبوا إلى نفي هذه الأشراط والعلامات التي تقع إبَّان حصول الساعة ووقوعها ، وقالوا ليس هناك علامات للساعة بعد مبعث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة** ﴾ الأعراف : ١٨٧ ، وبقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة** ﴾ الأنعام : ٣١ ، وبقوله تعالى : ﴿ **بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردَّها ولا هم ينظرون** ﴾ الأنبياء : ٤٠ ، وبقوله تعالى : ﴿ **أو تأتيهم الساعة بغتة** ﴾ يوسف : ١٠٧ ، وبقوله تعالى : ﴿ **ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم** ﴾ الحج : ٥٥ ، وبقوله تعالى ﴿ **هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون** ﴾ الزخرف : ٦٦ .

قالوا : إن منطق القرآن الكريم ودلالته وسياق الآيات دَلَّ على أن الساعة

تأتي بغتة ، وأشراط الساعة بالمفهوم الذي قاله مخالفونا تنافي مفهوم المباغتة . والمباغتة في اللغة هي المفاجأة بالشيء من حيث لا يُحْتَسَب ولا يُرْتَقَب ، وهذا الذي يدل عليه فهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهذه الآيات ففي البخاري (٢/ ٥٤٥) ومسلم (٢/ ٦٢٨) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : خَسَفَتْ الشمس في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقام فزعاً **يخشى أن تكون الساعة ...**» فهو بذلك لم ينتظر أشراطاً لها !!

وأجابوا على ما استدل به الجمهور من الآيات التي قالوا بأنها دالة على أن هناك أشراطاً ستقع وساعدهم في ذلك ما نقله بعض أهل السنة كابن حزم في كتابه « مراتب الإجماع » من أن نزول سيدنا عيسى عليه السلام آخر الزمان مُخْتَلَفٌ فيه بين الأمة حيث قال ابن حزم هناك ص (١٧٣) مانصه - تحت عنوان : (باب من الإجماع في الاعتقادات يكفر مَنْ خالفه بإجماع) - :

« وأنه لا نبي مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا بعده أبداً ، إلا أنهم اختلفوا في عيسى عليه السلام أيأتي قبل يوم القيامة أم لا » .

وأكَّدَ هؤلاء نفيهم لعلامات الساعة المستقبلية التي ذكرناها بقول الله تعالى أيضاً : ﴿ **فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم** ﴾ سورة سيدنا محمد : ١٨ . **قالوا** : ذكر الله تعالى في هذه الآية أن أشراط الساعة قد جاءت ، أي في قوله تعالى ﴿ **فقد جاء أشراطها** ﴾ أي انتهى مجيء أشراطها ومضى ولم يبق إلا قيامها ، والأصل أن (جاء) فعل ماض ، وقد التي قبله للتحقيق ، وفي الحديث « بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين » رواه البخاري (١١/ ٣٤٧) ومسلم (٤/ ٢٢٦٨) . وأما جمهور أهل السنة ففسروا قوله تعالى ﴿ **فقد جاء أشراطها** ﴾ أي : فقد قرب مجيء أشراطها ، فهي في طريقها إليكم وإن لم تقع بعد .

وقال هؤلاء : وأما الدابة المذكورة في قوله تعالى ﴿ **وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون** ﴾ النمل : ٨٢ . فالمراد بهذه الدابة هي ناقة سيدنا صالح التي أخرجها الله تعالى من الصخرة وكانت

مُبْصِرة أي عاقلة ، والإشكال أتى لكم في هذه الآية من لفظه (إذا) التي توهمتم بأنها تدل على المستقبل لا غير ، والصحيح أن لفظه (إذا) لا ينحصر معناها في الدلالة على المستقبل بل تستعمل عربية في الماضي أيضاً [تجدون ذلك في مغني اللبيب لابن هشام] .

وقد ذكر الله تعالى أن ناقة سيدنا صالح عليه السلام كانت مُبْصِرة في قوله سبحانه ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً** ﴾ الإسراء : ٥٩ ، قالوا : ومعنى مبصرة هنا : عاقلة ، وهذا وجه الإعجاز فيها ، وإلا فكل ناقة كانت عند هؤلاء القوم فهي رائية ومرئية وإلا فبأي شيء كانت معجزة ؟!!

قالوا : فالمراد بخروج الدابة إذاً هو إخراج الله تعالى لناقة سيدنا صالح من الصخرة وهي قصة ماضية وليست أمراً سيحدث في المستقبل(٤٠٢)، أضف إلى ذلك أن سورة النمل التي ذُكِرَت فيها هذه الدابة سورة قَصَص لأشياء حدثت في الماضي ، وفي هذه السورة ذِكْرٌ لدواب كانت قد تكلَّمت وهي هدهد سيدنا سليمان والنمل والدابة أيضاً ، وكلها قَصَص لما سلف ، وإن كان ظاهر آية الدابة يفيد بأنها تحدث في المستقبل لكن المراد منها ما حدث في الماضي .

قالوا : وأما يأجوج ومأجوج : فقوم قد ذهبوا ولا عودة لهم في الدنيا ، وقد كان هؤلاء القوم سنة (٦٢٨) قبل الميلاد كما تفيد كتب التاريخ ، وكما جاء في قصة ذي القرنين في القرآن في سورة الكهف ، ثم لا يمكن عادة أن يكون هؤلاء القوم أحياء إلى الآن لأن أعدادهم الضخمة التي ذكرها الحديث الذي وصفهم وكثرة ما يأكلون وشربهم لبحيرة طبريا يثبت استحالة حبسهم في مكان ضيق أكثر

---

(٤٠٢) قال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٢٣٥) :

« واختلف في تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج اختلافاً كثيراً قد ذكرناه في كتاب التذكرة ؛ ونذكره هنا إن شاء الله مستوفى ؛ **فأول الأقوال : فصيل ناقة صالح وهو أصحها** والله أعلم » .

ثم قال : « قلت : ولهذا والله أعلم قال بعض المتأخرين من المفسرين إن الأقرب أن تكون هذه الدابة إنساناً متكلماً يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا » .

من ألفي (٢٠٠٠) عام دون أن يموتوا ، وكذلك لأن الحديث الثابت في البخاري[٤٠٣] الذي فيه إخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم في آخر حياته بأنه لن يبقى على وجه الأرض بعد مائة سنة ممن هو عليها ذلك اليوم أحد ، يَدْخل هؤلاء فيه بلا ريب .

قالوا : والصحيح عندنا أنهم ماتوا في تلك الأحقاب الماضية وذهبوا قبل أن يُبْعَثَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بدهر ، وقد ذُكِرَ خبر يأجوج ومأجوج في سورتي قصص كالكهف والأنبياء وهذا يدل على أن الأمر قد سلف وحصل وليس أمراً سيحدث في المستقبل .

قالوا : وأما الدخان فهو ليس من أشراط الساعة وإنما يحدث عند النفخ أي عقب قيام الساعة ، وقد جاء في الصحيحين البخاري (٨/ ٥٧٤) ومسلم (٤/٢١٥٦-٢١٥٧) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه قال : « خمس قد مَضَيْنَ : الدخان واللِّزام ، والروم ، والبَطْشَة ، والقمر » .

وقد بَيَّنَ ابن مسعود رضي الله عنه كما جاء في صحيح مسلم (٤/٢١٥٧) أمر الدخان فقال « إنما كان هذا ؛ أن قريشاً لما استعصت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا عليهم بسنين كسني يوسُف ، فأصابهم قَحْطٌ وجَهْدٌ ، حتى جعل الرَّجُل ينظر إلى السماء **فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجَهْد** .....» فهذا هو الدخان المراد بالأشراط وقد مضى ، أو هو بعد قيام الساعة بعد النفخة الأولى !!

قالوا : وأما نزول سيدنا عيسى عليه السلام فهو غير ثابت في القرآن ولا هو مقطوع به في الحديث ولذلك وقع الخلاف فيه بين الأمة كما حكى ابن حزم ، ولو كان من الأصول المقطوع بها لما حصل فيها هذا الاختلاف .

قالوا : وأما آية ﴿ **وإنه لَعِلْمٌ للساعة** ﴾ فلا تدل بوجه من الوجوه على أنه سينزل آخر الزمان ، وفكرة نزول سيدنا عيسى كانت عند النصارى قديماً وهي عين التبشير بإرسال سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى

---

[٤٠٣] الحديث في « صحيح البخاري » (٢/ ٤٥) ومسلم (٤/ ١٩٦٥) .

﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ البقرة : ٨٩ ، فلما بُعِثَ سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم حرَّف أهل الكتاب القضية وزعموا أن رجلاً آخر سيبعث آخر الزمان(٤٠٤) ومنهم من قال هو سيدنا عيسى عليه السلام تحريفاً وتضليلاً !! وقد حدَّث أهل الكتاب بهذا قدماء المسلمين والصحابة ، فرووا تلك الأحاديث من باب « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » فصار الأمر بعد ذلك عند بعض الناس أن هذا من كلام النبوة والواقع ليس كذلك بل هو من الإسرائيليات .

وقالوا : بأن حديث النواس بن سمعان الذي فيه ذكر خروج الدجال ويأجوج ومأجوج حديث آحاد لا تبنى عليه عقائد وقواطع وهو خرافة إسرائيلية ولا ريب ، وقد حصل الاضطراب في الدجال كما رأيتم في أنه هل هو في دَيْرٍ أو هو ابن صياد وقد التبس أمره حتى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما جاء في بعض الروايات وهذا أمر منكر ومحال في العادة في حق نبي قد أعلمه الله تعالى به وبصفاته ، زيادة على أن هذا الدجال ما من نبي إلا وقد أنذر أمته منه(٤٠٥) كما جاء في بعض الروايات التي اعتمدها من أثبت مجيئه !!

قالوا : وأما حديث الآيات العشر الذي في « صحيح مسلم » (٤/٢٢٢٥) الذي فيه « **وآخر ذلك نار** تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم » فليس صحيحاً أيضاً لمخالفته لما جاء في البخاري (في مواضع منها ١٣/٧٨) مرفوعاً « **إن أول أشراط الساعة نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب** » !!

قلت : ومن الغريب العجيب أيضاً مما يؤيد إنكارهم لحديث خروج النار آخر الزمان أنه ورد في البخاري (١٣/٨٧) ومسلم (٤/٢٢٢٧ برقم ٢٩٠٢) من حديث أبي

---

(٤٠٤) واتَّكل على ذلك كثير من المسلمين وركنوا إلى التخاذل والانتظار دون العمل والاجتهاد وقد ادعى وزعم كثير من الخراصين والكذابين بأنه المهدي المنتظر ، وقطعاً لا يجوز رد مسألة المهدي وغيرها لأن فلاناً وفلاناً من الدجاجلة يدعيها ويزعم أنه المهدي ، وإنما نرجع في ذلك إلى الأدلة والتحقيقات العلمية والموازنات ، فلا تغفل عن هذا .

(٤٠٥) رواه البخاري (٣٠٥٧) ومسلم (٢٩٣١) .

هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نـ من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى » قال الإمام الحافظ التاج السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » (٨/٢٦٦) أن من الحوادث التي وقعت سنة (٦٥٤هـ) ما نصه : [لـمَّا كان الخامس من جمادى الآخرة مـن هـذه السـنة[٤٠٦] كـان ظهور النار بالمدينة المنورة وقبلها بليلتين ظهر دَوِيٌّ عظيم ثم زلزلة عظيمـة ، ثـم ظهرت تلك النار في الحَرَّة قريباً من قريظة يبصرها أهل المدينة من الدور ، وسـالت أودية منها بالنار إلى وادي شظا سَيْلَ الماء ، وسالت الجبال نيرانـاً ، وسـارت نحـو طريق الحاج العراقي ، فوقفت وأخذت تأكل الأرض أكلاً ، ولها كل يـوم صـوت عظيم من آخر الليل إلى ضحوة ، واستغاث الناس بنبيهم صلـى الله عليـه وآلـه وسلم ، وأقلعوا عن المعاصي واستمرت النار فوق الشـهر ، وهـي ممـا أخـبر بهـا المصطفى صلوات الله عليه حيث يقول : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل بِبُصْرَى » وقد حكى غير واحد ممن كان ببصـرى بـالليل ورأى أعناق الإبل في ضوئها] .

وبين تلك السنة والآن سنين كثيرة فهذه ليست من علاماتها الكبرى التي هـي كالخرزات المتتاليات . وذكر الحافظ في « الفتح » (١٣/٧٩) نقلاً عن الإمام النـووي أنه تواتر العلم بخروج هذه النار يومئذ عند جميع أهل الشام .

ومما ورد من الاضطراب والتخالف في هذا الأمـر - أمـر النـار - أنـه ورد في بعض الأحاديث الصحيحـة الأسـانيد أن هـذه النـار تكـون يـوم القيامـة في أرض المحشر ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« يُحْشَرُ الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق راغبين وراهبيـن ، واثنـان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشـرة علـى بعـير ، وتحشـر بقيتهم النار ، تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث بـاتوا ، وتصبـح معهـم حيث أصبحوا ، وتمسي معهم حيث أمسوا » رواه البخاري (١١/٣٧٧) ومسلم (٤/٢١٩٥) .

---

[٤٠٦] قال محقق الطبقات : يعني سنة أربع وخمسين وستمائة ، كما في « ذيـل الروضتين » (١٩٠) و « البداية والنهاية » (١٣/١٨٧) ، وتاريخ الخلفاء (٤٦٥-٤٦٦) .

وفي بعض الأحاديث ورد أنها أول علامات الساعة كما تقدم ؛ وفي بعضها : « أول شيء يحشر الناس نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب » رواه أبو داود الطيالسي ص (٣٧٣) .

وأقول في ختام بحث أشراط الساعة : لا يخلو كلام هؤلاء القوم الذين نفوا حصول أشراط الساعة الكبرى في المستقبل قبل قيام الساعة بِمُجْمَلِهِ من قوة ، وهذه الأدلة التي ذكروها وخاصة آيات المباغتة (مهما أوَّلها أصحابنا ليجمعوا بينها وبين غيرها من الأدلة) تجعل الأشراط العظام من الأمور التي لا يُقْطَع بها وخاصةً أنه ثبت في صحيح مسلم (١/٣٧) في حديث سيدنا جبريل المشهور عندما سُئِلَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن أشراط الساعة فقال : « أخبرني عن أماراتها » ؟! فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أن تلد الأمَةُ رَبَّتَها وأن ترى الحفاة العراة رِعَاءَ الشاء يتطاولون البنيان » ولم يذكر في هذا الحديث الأشراط المسماة بالكبرى مع أنه ذكر في هذا الحديث الأمور المهمات !! لذلك لا يكفر منكرها !

وملخص الأمر أن المسألة من الفروع وليست من الأصول ، وبالله التوفيق .

(ملاحظة مهمة) : من الخطأ الشائع الذائع أن يأخذ الخطباء والوعاظ والمدرسون في المساجد وغيرها عند حدوث حوادث أو مناسبات معينة أو حروب أحاديث ضعيفة وموضوعة أو كلاماً من كتبٍ غير موثوقة ككتاب الجَفْر أو أحاديث صحيحة لا تنطبق على تلك الحوادث ؛ فيفسرونها للناس على حسب أمزجتهم وأفكارهم ، وقد حدث هذا في حرب الخليج !! فقد جاء كثير من الخطباء بأحاديث موضوعة فنشروها وذكروها على أنها حقائق ثابتة !! وبعضهم ألَّفَ أحاديث ووضعها من عنده لينصر هواه أو تياراً سياسياً معيناً ثم بعد ذلك ما لبث أن أخفقت كلماته وذهبت هباء وبان جهله فيما ادَّعاه وظهر كَذِبُهُ أحياناً !!

والمهم في ذلك أن العامة الذين لا يميِّزون بين الغثِّ والسمين ظنوا أن ما يقوله هؤلاء هو حق جاء من عند الله تعالى ، فلما تَخلَّفَ ما قاله هؤلاء الخطباء والمحاضرون ولم يتحقق كَفَرَ جماعة من العامة بالله تعالى وقد حدث هذا فعلاً وشاهدناه ونُقِلَ إلينا !! وقد أحببت أن أُنَبِّهَ على هذا لأن ذكره مناسب هنا .

الإيمان باليوم الآخر

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة ، والعرض والحساب ، وقراءة الكتاب ، والثواب ، والعقاب ، والصراط ، والميزان ، والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان - والله - باعث بلا مشقة) .

الشرح :

الإيمان باليوم الآخر من أسس الإيمان بالله تعالى وأركانه ، فإن الإيمان بالمعا والجنة والنار والحساب والنعيم والعذاب أمور لا يمكن تصور انفكاك إيمان الإنسا المسلم بدون الإيقان الجازم بها قال الله تعالى في وصف المؤمنين ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ البقرة : ٤ .

وقد قرن الله تعالى الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به سبحانه في آيات عديد منها قوله تعالى ﴿ **وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً** ﴾ النساء : ٣٩ . وقوله تعالى ﴿ **إنما يستئذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون** ﴾ التوبة : ٤٥ .

وقوله تعالى ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله** ﴾ المجادلة : ٢٢ .

وقد بين الله سبحانه وتعالى كفر من لا يؤمن باليوم الآخر في قوله تعالى :

﴿ **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً** ﴾ النساء ١٣٦ .

ويتضمن الإيمان باليوم الآخر عدة مسائل لا بد لنا أن نذكرها ونبين ما يتعلـ بها باختصار دون إطناب وإملال فنقول وبالله تعالى التوفيق :

الإيمان بالنفخ في الصور مرتين والاختلاف في معنى النفخ والصور :

قال الله تعالى : ﴿ **وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور**

فجمعناهم جمعاً * وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً * الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ الكهف : ١٠١ .

واختلف علماء المسلمين في كيفية ذلك النفخ ، فذهب بعضهم إلى أنه بوق يَنْفُخُ فيه المَلَك الموكَّل بذلك وهو سيدنا إسرافيل عليه السلام ، وقال آخرون بل هو نفخ في صُوَر الناس وليس نفخ بقرن ، وفي بعض الآيات جاء بأنه ناقور وهو قوله تعالى ﴿ فإذا نُقِرَ في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير ﴾ المدثر : ٧-٨ ، والناقور هو الطبل(٤٠٧) ، وفي بعض الآيات ذكر أنها صيحة ! قال تعالى ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ يس : ٥٣ ، وقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ ق : ٤٢ . واستعمل فيها النداء ﴿ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ، يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ ق : ٤١-٤٢ . وفي بعضها أنها زجرة ! قال تعالى ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ، وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ الصافات : ١٩، وقال تعالى ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ النازعات : ١٣ .

فيحتمل أن يكون ذلك كناية ومجازاً عن إماتة النفوس وإحيائها ، وقال الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام من علماء العترة المطهرة(٤٠٨) : الصور مجاز عن صوت يحدثه الله تعالى لإفزاع الخلائق وإماتتهم وإحيائهم .

وأحاديث أن الملك التقم القرن لا تثبت عندنا فإنها من رواية أبي سعيد الخدري وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة وهم ممن يروون الإسرائيليات ، فالظاهر أنها متلقاة عن أهل الكتاب .

---

(٤٠٧) والنقر خلاف النفخ وتفسيره بالنفخ خطأ شائع ، والنقير هو الخشب المضروب بالنقر لا المنفوخ فيه ! وفي تاج العروس شرح القاموس (٣/ ٥٨٣) : [وإذا ضرب الرجل رأس رجل قلت : نقر رأسه وكذا العود والدف بإصبعه ..... والناقور : القلب] .

(٤٠٨) كما في كتاب « عدة الأكياس في شرح معاني الأساس » (٢/ ٣٣٩و٣٤٠) الواقع في مجلدين طبع دار الحكمة اليمانية / صنعاء / الطبعة الأولى / ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م . تأليف العلامة أحمد بن محمد بن صلاح الشرفي القاسمي المولود سنة (٩٧٥هـ) والمتوفى سنة (١٠٥٥هـ) .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/٣٦٨) :

[وأخرج أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي ، وصححه ابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ما الصور ؟! قال : « قرن ينفخ فيه » . والترمذي أيضاً وحسنه من حديث أبي سعيد مرفوعاً : « كيف أَنْعَمُ وصاحب الصور قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ » ، وأخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم وابن مردويه من حديث أبي هريرة ، ولأحمد والبيهقي من حديث بن عباس وفيه « جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وهو صاحب الصور يعني اسرافيل » **وفي أسانيد كل منها مقال**[٤٠٩] ، وللحاكم بسند حسن عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة رفعه : « إن طرف صاحب الصور منذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد اليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان »] .

أقول : والنفخ في الصور يكون مرتين ، مرة ليموت الخلق إلا من شاء الله تعالى منهم ، ومرة أخرى لإحيائهم وخروجهم للاجتماع في أرض المحشر ، والدليل عليه قوله تعالى :

﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السموات والأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون * وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون** ﴾ الزمر : ٦٩ ، وفي آية أخرى ﴿ **ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات والأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين** ﴾ النمل : ٨٧ .

فانظر أيها المؤمن التقي لقوله تعالى ﴿ **فصعق مَنْ في السموات والأرض** ﴾ وإلى قوله تعالى في الآية الأخرى ﴿ **ففزع من في السموات والأرض** ﴾ ثم إلى قوله سبحانه وتعالى بعد هاتين الجملتين ﴿ **إلا من شاء الله** ﴾ لتعلم علماً أكيداً قطعياً بأن المؤمن التقي مستثنى من هذا الصعق والفزع لصريح قوله تعالى في آيات

---

[٤٠٩] الذي في الفتح (وفي أسانيد كل منهما مقال) وهو خطأ لأن الضمير هنا لا يصح عوده على اثنين ، فهو تصحيف .

أخرى ، منها قوله تعالى ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون** ﴾ النمل : ٨٩ ، وقوله تعالى ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون** ﴾ الأنبياء : ١٠٣ ، هذا مع قوله تعالى ﴿ **لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ ، وإنما قال الله تعالى ﴿ **ففزع من في السموات والأرض** ﴾ للترهيب وهو كذلك بالنسبة للإنس والجن لأن غالبهم ومعظمهم غير مؤمنين ، فكان الخطاب للأغلب الأكثر والحكم للغالب ، قال تعالى ﴿ **وقليل من عبادي الشكور** ﴾ ونسبة المؤمنين لغيرهم قليلة جداً كما جاء في الحديث الصحيح « ما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود » رواه البخاري (١١/ ٣٧٨) ومسلم (١/ ٢٠١) ، وقال تعالى ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون** ﴾ القلم : ٢٦ .

فافهم هذا واعرفه جيداً ، ولا تغفل عنه .

الإيمان بالبعث والحشر والحساب :

ويتضمن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالبعث وهو خروج الموتى من القبور وكذلك من غير القبور ، كمن مات غريقاً أو في انفجار طائرة أو غيرها فتناثرت أجزاؤه فلم يعثر على شيء من جسده إلى المكان الذي شاء الله سبحانه وتعالى أن يحشر العباد إليه ، وقد وردت بذلك الآيات والأخبار .

قال الله تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ التغابن : ٧ فهذه الآية فيها ذِكْرُ البَعْث .

وقال تعالى : ﴿ **ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً * وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتهم ألن نجعل لكم موعداً * ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون يا ويلتنا مالِ هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك احداً** ﴾ الكهف : ٤٩ .

وقال تعالى : ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً * وسنوق المجرمين إلى جهنم وِرْدَاً** ﴾ مريم : ٨٦ . وقال تعالى ﴿ **والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون**

ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾ الرعد : ٢١ ، وقال تعالى ﴿ **فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب** ﴾ الرعد : ٤٠ ، وقال ، ﴿ **والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب** ﴾ الرعد : ٤١ ، وقال تعالى ﴿ **وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾ غافر : ٢٧ ، وقال تعالى : ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هآؤم اقرأوا كتابيه * إني ظننت أني ملاق حسابيه * فهو في عيشة راضية * في جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية * وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه** ﴾ الحاقة : ٢٦ .

ومن الأحاديث الشاذة المردودة عندنا حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال :

« **يُدْنَى المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل** ، حتى يضع عليه كنفه (أي ستره وعفوه) فيقرره بذنوبه . فيقول : هل تعرف : فيقول أي رب أعرف . قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وإني أغفرها لك اليوم ، فيعطى صحيفة حسناته . وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على الله » رواه البخاري (٨/ ٣٥٣) ومسلم (٤/ ٢١٢٠) . فهذا شاذ مردود .

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ، فقلت : يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً** ﴾ فقال : إنما ذلك العَرْض ، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذِّب » رواه البخاري (١١/ ٤٠٠) .

وقال البخاري في صحيحه (١١/ ٤٠٠) : « باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب » وأورد في الباب عدة أحاديث منها : عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر .. » الحديث .

وهذه الآيات والأحاديث فيها ذِكْرُ الحشر والحساب وفيها أخذ كل إنسان

صحيفته التي كُتِبَتْ فيها أعماله .

والحساب : هو عرض أعمال العباد عليهم ، **والثواب** : هو الجزاء الذي يعطيه الله تعالى للمؤمن ويكرمه به من كل ما يَسُرُّهُ من حين موته حتى يدخل الجنة وهي من أعظم الثواب .

والعذاب : أعاذنا الله تعالى وحمانا برحمته منه هو ما يسوء الكافر والعاصي من ساعة وفاته حتى دخوله النار وهي أعظم العذاب أجارنا الله تعالى منها .

وينبغي أن نلاحظ في هذه الأمور كلها أن المؤمن مُمَيَّزٌ في ذلك اليوم ، وأنه مسرور غير حزين لا يهوله شيء ، ولا يفزع وهو تحت لواء سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ **ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً** ﴾ النساء : ٦٩ ، وينبغي أن نتذكر قوله تعالى : ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين * مالكم كيف تحكمون** ﴾ القلم : ٣٦ . والله تعالى الموفق والهادي .

(مسألة) : هل يُبْعَثُ الناسُ عراة يوم القيامة أم كاسين ؟

لقد وردت أحاديث تنص على أن الناس يبعثون يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً (أي غير مختونين) !! وأحاديث تفيد أنهم يبعثون كاسين ؛ وإليكم بيان ذلك :

روى البخاري (١١/٣٧٧) ومسلم (٤/٢١٩٤) عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « يُحْشَر الناس يوم القيامة حفاة عُرَاة غُرْلاً » قلت : يا رسول الله النساء والرجال !! جميعاً !! ينظر بعضهم إلى بعض ! فقال : « يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » ، ورواه أيضاً البخاري (١١/٣٧٧) ومسلم (٤/ ٢١٩٤) عن ابن عباس .

ووردت أحاديث أخرى تبين أن الناس يُبْعَثُونَ بثيابهم فمنها :

١- ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه لما حضره الموت دعا بثياب جدد فلبسها ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول :

« **إن الميت يُبْعَثُ في ثيابه التي يموت فيها** » .

رواه أبو داود (٣/ ١٩٠) وابن حبان في « الصحيح » (١٦/٣٠٧) والحاكم

(١/ ٣٤٠) والبيهقي (٣/ ٣٨٤) وغيرهم وسنده صحيح على شرط مسلم .

٢- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : إن الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم حدثني : « أن الناس يحشرون يوم القيامة ثلاثة أفواج ؛ فوج راكبين طاعمين كاسين ؛ وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم النار ؛ وفوج يمشون ويسعون ... » الحديث رواه النَّسائي (٤/ ١١٦) والحاكم (٤/ ٥٦٤) وهو صحيح ؛ وصححه أبو حاتم في « العلل » (٢/ ٢٢٥) .

ومن المعلوم أيضاً أن الله تعالى حَيِيٌّ سِتِّير أمر بالسَّتْر ؛ قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما سأله رجل فقال له : يا رسول الله ! عوراتنا ما نبقي منها وما نذر ؟! فقال :

« احفظ عورتك إلا من زوجك أو ما ملكت يمينك » فقال : يا رسول الله أرأيتَ إن كنتُ خالياً ؟! فقال : « إن الله أحق أن يُسْتَحْياً منه » رواه أبو داود (٤/ ٤١) وغيره وهو صحيح .

وقد كان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت عراة !! ويزعمون أن الله تبارك وتعالى أمرهم بذلك !! فأنزل سبحانه وتعالى قوله ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل أن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾(٤١٠) الأعراف : ٢٨ .

قلت : فالشريعة أمرت بالستر . قال الحافظ في « الفتح » (١١/ ٣٨٣) :

[قوله (عراة) قال البيهقي : وقع في حديث أبي سعيد يعني الذي أخرجه أبو

---

(٤١٠) قال الحافظ ابن جرير الطبري في تفسيره (٥/ ٨/ ١٥٤) : « فتأويل الكلام إذاً : وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله الذين جعل الله الشياطين لهم أولياء قبيحاً من الفعل وهو الفاحشة وذلك تعرِّيهم للطواف بالبيت ؛ وتجردهم له فَعُذِلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم وعوتبوا عليه قالوا : وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا فنحن نفعل مثلما كانوا يفعلون ونقتدي بهديهم ونَسْتَنّ بسنتهم والله أمرنا به ؛ فنحن نتبع أمره فيه !! يقول الله جل ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم : قل يا محمد لهم إن الله لا يامر بالفحشاء ؛ يقول : لا يأمر خلقه بقبائح الأفعال ومساويها ؛ أتقولون أيها الناس على الله مالا تعلمون : أَتَرَون عن الله أنه أمركم بالتعري والتجرد من الثياب واللباس للطواف وأنتم لا تعلمون أنه أمركم بذلك » انتهى .

داود وصححه ابن حبان أنه لما حضره الموت دعا بثياب جُدُدٍ فلبسها وقال : سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إن الميت يُبْعَثُ في ثيابه التي يموت فيها » ويُجْمَعُ بينهما في أن بعضهم يُحْشَرُ عارياً وبعضهم كاسياً ؛ أو يحشرون كلهم عراة ثم يكسى الأنبياء[٤١١] ....] انتهى .

وقال الحافظ السيوطي في « الحاوي » (٢/١٩٦) :

« مسألة : أحاديث الحشر عراة عارضها أحاديث أُخَرُ صُرِّح فيها بأن الناس يحشرون في أكفانهم ؛ واختلف العلماء في ذلك ؛ فمنهم من سلك مسلك الترجيح فرجَّح أحاديث الحشر في الأكفان على أحاديث الحشر عراة ؛ وهذا رأي القليل ؛ والأكثرون سلكوا مسلك الجمع فجمعوا بين الأحاديث بأن أحاديث الحشر في الأكفان خاصة بالشهداء ؛ وأحاديث الحشر عراة في غيرهم هكذا نقله القرطبي ؛ وجمع البيهقي بأن بعض الناس يُحْشَر عارياً وبعضهم يحشر في أكفانه ولم يُعَيِّنْ شهداء ولا غيرهم » .

وقد ذكر ذلك العلامة ابن حجر الهيتمي في « حاشيته على شرح الإيضاح في **المناسك** » ص (٥٨) في أول الكتاب في الخصلة الثامنة والعشرين من آداب السفر **حيث قال هناك** :

« لأن ما صح أن الخلق يُحْشرون حفاة عُرَاة ليس على عمومه كما صرَّح به البيهقي وغيره ؛ فإن من المؤمنين مَنْ يُبْعَث في أكفانه كما ورد في عدة أحاديث ؛ وورد من طرق أنه دعا لأم سلمة بأن الله تعالى يستر عورتها يومئذ لـمَّا سألته في ذلك ... » انتهى .

وأما قوله تعالى ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ الأنبياء : ١٠٤ ، فمعناه : كما في « تفسير الجلالين » وهو الصواب باختصار : « ﴿ **كما بدأنا أول خلق** ﴾ عن عدم ﴿ **نعيده** ﴾ بعد إعدامه » أي : ثانياً ، وليس في الآية أية دلالة على إرجاعه أقلف أو إرجاع كل شعرة أو كل ظفر قصه في الدنيا إلى جسمه ، وإنما المعنى العام كما

---

[٤١١] قوله (**أو يحشرون كلهم عراة ثم يكسى الأنبياء**) رأي غير صحيح بنظرنا والأول هو الصواب إن شاء الله تعالى .

يُفْهَمُ عند كل عربي بداهة وسليقة هو : أننا نعيده حياً بعدما أمتناه ؛ كما أحييناه في المرة الأولى ، والحمد لله تعالى .

وبعد هذا أقول : الصحيح عندنا أن الناس يُبْعَثون يوم القيامة كاسين ويحتمل أن يبعث بعض الكفار أو جميعهم عراة زيادة في خزيهم مع أننا نستبعد ذلك أيضاً ؛ وما ورد في بعض الأحاديث أن سيدنا إبراهيم عليه السلام أول مَنْ يُكْسَى يوم القيامة ؛ فمعناه : أول مَنْ يُكْسى مِنْ حُلَلِ الجنة .

[**مسألة أخرى**] : وقد ورد في بعض الآثار أن الناس يقومون يوم القيامة شاخصة أبصارهم ثلاثمائة سنة من أيام الدنيا لا يأتيهم خبر من السماء ولا يؤمر فيهم بأمر !!

وفي بعض الروايات : أربعين عاماً ؛ يمكثون رافعي رؤوسهم إلى السماء لا يكلّمهم أحد ، وفي بعضها مائة عام ، وفي بعضها سبعين عاماً ، وفي بعضها أن الله تعالى يأمر الملائكة أن يوقفوهم على رؤوس أصابعهم هذه المدة !!

وكل ذلك كذب لا يُلْتفت إليه ، وبعضه يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا يصح(٤١٢) ؛ وهي من القضايا التي أصل مصدرها من كعب الأحبار اليهودي الذي سكن حمص كما تجد ذلك في بعض طرق هذه الأحاديث عند ابن جرير !!

قال الحافظ ابن جرير الطبري في « تفسيره » (١٥/ ٣٠/ ٩٣) :

[حدثنا بشر قال : حدثنا يزيد قال : ثنا سعيد عن قتادة ؛ قوله ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ قال : ذُكِرَ لنا أن كعباً كان يقول : يقومون ثلاث مئة سنة » .

وقد صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم ما يخالف هذا بالنسبة للمؤمنين مما يحكم ببطلان هذه الآثار والأخبار !! فمنها :

---

(٤١٢) ومنه حديث رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٩٢) عن سيدنا عبد الله بن مسعود مرفوعاً ؛ وهو كذب بحت لا يشك في بطلانه عاقل ! وقد تكلمت عليه في رسالتي المسماة « تنبيه أهل الشريعة .... » فليرجع إليها من شاء التوسع في معرفة علله ودواعي حكمنا عليه بالوضع !!

عن أبي هريرة قال سرول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« يوم يقوم الناس لرب العالمين مقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة فَيُهَوَّنُ ذلك على المؤمن كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب » رواه أبو يعلى (١٠/ ٤١٥) وهو صحيح .

وعن عبد الله بن عمرو قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« يكون ذلك اليوم أقصر على المؤمنين من ساعة من نهار » قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/ ٣٣٧) : « رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير أبي كثير الزبيدي وهو ثقة »[٤١٣] .

وروى الحاكم في « المستدرك » (١/ ٨٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً :

« يوم القيامة كَقَدْرِ ما بين الظهر والعصر » وهو صحيح[٤١٤] .

وأما قوله تعالى ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ فلا دلالة فيه على ذلك القيام المقدر بثلاثمائة عام شاخصة أبصارهم !! بل معناه يوم يقوم الناس من قبورهم للحساب ولدخول الجنة أو النار ، والله الهادي .

(مسألة) : هل تحشر الحيوانات والبهائم يوم القيامة أم لا ؟!!

نقل العلماء اختلاف السلف والمسلمين في إحياء البهائم وحشرهم يوم القيامة ، وكذا في القِصَاص بينها ؛ وأصل اختلافهم في ذلك اختلافهم في معنى قوله تعالى : ﴿ **وإذا الوحوش حُشرت** ﴾ التكوير : ٥ ، فبعضهم ذهب إلى أن ذلك إنما هو في الدنيا عند النفخة الأولى ؛ وسياق الآيات التي وردت فيها يدل على ذلك عندهم ؛ وهو قوله تعالى ﴿ **إذا الشمس كوِّرَت * وإذا النجوم انكدرت * وإذا الجبال سيرت * وإذا العشار عطلت * وإذا الوحوش حشرت * وإذا البحار سجرت** ﴾ فهذا دال كما هو ظاهر على أن هذه الأمور تقع عند قيام الساعة في الدنيا .

وقوله تعالى بعد تلك الآيات ﴿ **وإذا الموؤدة سئلت * بأي ذنب قتلت * وإذا**

---

[٤١٣] وانظر « باب خفة يوم القيامة على المؤمنين » في « المجمع » (١٠/ ٣٣٧) .

[٤١٤] وقد صححه أيضاً متناقض عصرنا !! في « صحيحته » (٥/ ٥٨٤) .

الصحف نشرت ﴾ لا يدل ذكر هذه الأمور مع ما ذكر أولاً عندهم على أن ما ذكر أولاً يكون بعد قيام الناس من قبورهم إلى أرض المحشر ؛ وإنما هو تصوير وبيان لعدة مواقف بعضها في الدنيا عند قيام الساعة ؛ وبعضها يوم القيامة بعد قيام الناس ومجيئهم للحساب(٤١٥) .

وأجابوا عن الأحاديث الواردة في ذلك بأنها آحاد لا يبنى عليها اعتقاد .

قال الحافظ أبو حيان في تفسيره « البحر المحيط» (١٠/ ٤١٥) في تفسير قوله تعالى ﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾ ما نصه :

« (حُشِرَتْ) : أي جُمِعَتْ من كل ناحية ؛ فقال ابن عباس : جُمِعَتْ بالموت فلا تُبْعَث ولا يحضر في القيامة غير الثقلين ، وعنه وعن قتادة وجماعة : يُحْشَر كل شيء حتى الذباب ؛ وعنه تحشر الوحوش حتى يُقْتَصَّ من بعضها لبعض ... » .

قال الحافظ ابن جرير الطبري في تفسيره (٣٠/ ٦٧) :

[حدثني علي بن مسلم الطوسي قال : ثنا عباد بن العوام ؛ قال : أخبرنا حصين عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾ قال : حشر البهائم موتها ؛ وحشر كل شيء : الموت ؛ غير الجن والإنس فإنهما يوقفان يوم القيامة] .

قلت : وهذا سند صحيح عن ابن عباس رجاله ثقات عند أهل الحديث ، وله سند آخر ذكره الزَّبِيْدِي في « شرح القاموس » (٣/ ١٤٢) من طريق أبي الطيب اللغوي في كتابه « الأضداد » .

---

(٤١٥) قال الحافظ الشريف الحسني : السيد أحمد ابن الصديق الغماري في كتابه « مطابقة الاختراعات العصرية بما أخبر به سيد البرية » ص (٢٤) :

« وقد قدّمنا أن أُبي بن كعب وابن عباس وأبا العالية وجماعة من السلف قالوا : إن هذه في الدنيا قبل يوم القيامة ؛ قالوا ذكر الله تعالى في هذه السورة الكريمة اثنتي عشرة علامة ؛ ستة منها في الدنيا وستة منها في الآخرة ؛ فالتي في الدنيا آخرها : ﴿ **وإذا البحار سُجِّرَتْ** ﴾ وما بعدها فهو في الآخرة كما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .. » .

ثم ذكر أن معنى قوله تعالى ﴿ **وإذا العشار عُطِّلَت** ﴾ أي الإبل عطلت بالسيارات : أي في الدنيا وأن معنى قوله تعالى ﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾ أي في بساتين الحيوانات .

وقد ذكر أهل اللغة أن من معاني (الحشر) : الموت ؛ قال العلامة اللغوي محمد مرتضى الزَّبِيْدِي في « تاج العروس شرح القاموس » (٣/ ١٤٢) :

« والحشر : الموت ؛ قال الأزهري في تفسير قول الله تعالى ﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾ : قال بعضهم : حشرها موتها في الدنيا » .

وقال الإمام المحدِّث الدَّمِيري(٤١٦) في « حياة الحيوان » (١/ ٢٣٠) : في الكلام على (البهيمة) :

[**فائدة** : قال ابن دِحْيَة ، في كتاب « الآيات البينات » : اختلف الناس في حشر البهائم ، وفي جريان القَصاص بينها ؛ فقال الشيخ أبو الحسن الأشعري : لا يجري القصاص بين البهائم لأنها غير مُكَلَّفة وما ورد في ذلك من الأخبار نحو قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « يُقْتَصُّ للجَمَّاء من القَرْناء ويُسأل العود لِمَ خدش العود »(٤١٧) فعلى سبيل المثل والإخبار عن شدة التقصِّي في الحساب . وأنه لا بد

---

(٤١٦) هو الإمام العلامة المحدِّث المفسر الأصولي اللغوي الأديب ذو الفنون : محمد بن موسى بن عيسى بن علي الكمال أبو البقاء الدَّمِيري الأصل القاهري الشافعي المولود سنة (٧٤٢هـ) المتوفى سنة (٨٠٨هـ) . قال الحافظ السخاوي في ترجمته في « الضوء اللامع » (١٠/ ٥٩) :
[وبرع في التفسير والحديث والفقه وأصوله والعربية والأدب وغيرها وأُذِنَ له في الإفتاء والتدريس ؛ وتصدَّى للإقراء فانتفع به جماعة ، وكتب على ابن ماجه شرحاً في نحو خمس مجلدات سماه : الديباجه ؛ مات قبل تحريره ؛ وكذا شرح المنهاج وسمَّاه : « النجم الوهاج » لَخَّصَهُ من السبكي والأسنوي وغيرهما وعظم الانتفاع به خصوصاً بما طرَّزه به من التتمات والخاتمات والنكت البديعة ... ونظم في الفقه أرجوزة طويلة فيها فروع غريبة وفوائد حسنة وله تذكرة مفيدة ؛ و « حياة الحيوان » وهو نفيس أجاده وأكثر فوائده مع كثرة استطراده فيه من شيء الى شيء ...] .
ودَمِيرة بفتح أوله وكسر ثانية قرية كبيرة بمصر قُرْبَ دمياط ، كما في معجم البلدان (٢/ ٤٧٢) .

(٤١٧) رواه مسلم (٢٥٨٢) وابن حبان في صحيحه (١٦/ ٣٦٤) وأحمد وغيرهم من حديث أبي هريرة ، ورواه أحمد (١/ ٧٢) من حديث عثمان بن عفان ، والتحقيق عندي أن هذا حديث إسرائيلي اخذه أبو هريرة من سيدنا سلمان الفارسي فيما يرويه عن أهل الكتاب ، فقد قال ابن عدي في « الكامل في الضعفاء » (٢/ ٢٣٢) : [ووهم أيضاً حجاج بن نصير في حديث آخر يعني لشعبة ، ثنا بن صاعد ثنا أحمد بن سنان والفضل بن سهل وأحمد بن منصور والعباس بن محمد قالوا : أخبرنا حجاج بن نصير ، ثنا شعبة عن العوام بن مراجم عن أبي عثمان النهدي عن عثمان قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « يقتص للجمَّاء من القرناء يوم القيامة » قال العباس في حديثه : « يقتص كل شيء

من أن يُقْتَصَّ للمظلوم من الظالم ، وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني : يجري القصاص بينها ، ويحتمل أنها كانت تعقل هذا القدر في دار الدنيا] .

وقال الإمام الدميري أيضاً في « حياة الحيوان » (٢/ ٥٣٦) في الكلام على (الوحش) :

[**تتمة أخرى** : قوله تعالى : ﴿ **وإذا الوحوش حُشِرَتْ** ﴾ أي جُمِعَتْ وقوله تعالى : ﴿ **ما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾ اختلف العلماء في حشر البهائم والوحش والطير ؛ فقال عكرمة : حشرها موتها . وقال أُبي بن كعب : حُشِرت أي اختلطت . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : حشر كل شيء الموت ، غير الجن والإنس فإنهما يوفيان يوم القيامة . وقال الجمهور : الجميع تحشر وتبعث حتى الذباب ويقتص لبعضها من بعض ، فَيُقْتَصُّ للجمَّاء من القرناء ، ثم يقول الله تعالى : كوني تراباً فعند ذلك يتمنى الكافر أن يكون تراباً فذلك قوله عز وجل حكاية عن الكافر : ﴿ **يا ليتني كنت تراباً** ﴾] .

قلت : فخلاصة الكلام في هذه المسألة أنها من الفروع وفيها اختلاف فيأخذ المرء بما كان دليله راجحاً عنده .

من شيء حتى تقاد الجماء من القرناء يوم القيامة » قال لنا ابن صاعد : وليس هذا في حديث عثمان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، إنما رواه أبو عثمان عن سلمان من قوله ، حدثنا بن صاعد ثنا بندار ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن العوام بن مراجم عن أبي السليل عن أبي عثمان النهدي عن سلمان قال : « إن الله عز وجل ليؤدي الحقوق إلى أهلها حتى تقتص الشاة الجلحاء من القرناء نطحتها] .

فصل

الإيمان بوزن الأعمال ومعنى الميزان

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(والميزان) .

الشرح :

قال الله تعالى ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة** ﴾ الأنبياء : ٤٧ فذكر في هذه الآية موازين عديدة وليس ميزاناً واحداً ، وقال تعالى ﴿ **والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ۝ ومن خفَّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون** ﴾ الأعراف : ٩ .

ولا يشترط في هذا الميزان أن يكون ذا كِفَّتِين كما يتصور البعض ، لكن يجب الإيمان بالميزان ، لأن الميزان في لغة العرب يستعمل في الميزان الحسي أي الآلة وفي الميزان المعنوي أي : كناية عن العدل ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله تعالى جناح بعوضة ، وقال : اقرؤوا ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا** ﴾ » الكهف : ١٠٦ رواه البخاري (٨/ ٤٢٦) ومسلم (٤/ ٢٤١٧) عن أبي هريرة .

قال الراغب الأصفهاني في كتابه « المفردات » ص (٥٢٢) :

« وزن : الوزن معرفة قدر الشيء ، يقال وزنته وزناً وَزِنَةً ، والمتعارف في الوزن عند العامة ما يُقَدَّر بالقسط والقبان . وقوله ﴿ **وزنوا بالقسطاس المستقيم** ﴾ ﴿ **وأقيموا الوزن بالقسط** ﴾ إشارة إلى مراعاة المَعْدَلة في جميع ما يتحراه الإنسان من الأفعال والأقوال . وقوله ﴿ **وأنبتنا فيها من كل شيء موزون** ﴾ فقد قيل هو المعادن كالفضة والذهب ، وقيل بل ذلك إشارة إلى كل ما أوجده الله تعالى وأنه خلقه باعتدال كما قال ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ وقوله ﴿ **والوزن يومئذ الحق** ﴾ فإشارة إلى العدل في محاسبة الناس كما قال

﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة** ﴾ وذكر في مواضع الميزان بلفظ الواحد اعتباراً بالمحاسِب وفي مواضع بالجمع اعتباراً بالمحاسَبين ويقال وزنت لفلان ووزنته كذا ، قال : ﴿ **وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** ﴾ ، ويقال قام ميزان النهار إذ انتصف » انتهى .

والمراد من الميزان فيما يظهر هنا هو العدل وبيان صحائف الأعمال حتى أنه يتضح للعبد جميع ما عمله من خيرات ومن شرور ومن تقييم لها ، والإنسان يقول أحياناً : وَزَنْتُ فلاناً فلم أره رجلاً مستقيماً ، قال تعالى ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ الحديد : ٢٥ .

وقال تعالى : ﴿ **والسماء رفعها ووضع الميزان * إلا تطغوا في الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان** ﴾ الرحمن : ٩ .

وقال الحافظ أبو حيان في « البحر المحيط » (٥٦/١٠) عند تفسير قوله تعالى ﴿ **والسماء رفعها ووضع الميزان** ﴾ ما نصه :

« وقال مجاهد والطبري والأكثرون : الميزان : العدل ، وتكون الآلات من بعض ما يندرج في العدل » .

وقال الحافظ أبو حيان أيضاً في « البحر المحيط » (١٤/٥) :

« اختلفوا هل ثَمَّ وزن وميزان حقيقة ، أم ذلك عبارة عن إظهار العدل التام والقضاء السوي والحساب المحرر ؟ فذهبت المعتزلة إلى إنكار الميزان وتقدَّمهم إلى هذا مجاهد والضحاك والأعمش وغيرهم ، وعَبَّر بالثِّقَل عن كثرة الحسنات وبالخفة عن قِلَّتها ، وقال جمهور الأمة بالأول وأن الميزان له عمود وكِفَّتان ولسان وهو الذي دل عليه ظاهر القرآن والسنة ، ينظر إليه الخلائق تأكيداً للحجة وإظهاراً للنَّصَفة وقطعاً للمعذرة ، كما يسألهم عن أعمالهم فيعترفون بها بألسنتهم وتشهد عليهم بها أيديهم وأرجلهم وتشهد عليهم الأنبياء والملائكة والأشهاد ، وأما الثقل والخفة فمن صفات الأجسام وقد ورد أن الموزون هي الصحائف التي أثبتت فيها الأعمال ، فَيُحْدِثُ الله تعالى فيها ثِقَلاً وخِفَّة وما ورد في **هيئته وطوله وأحواله لم يصح إسناده** ، وجُمِعَتْ الموازين باعتبار الموزونات والميزان واحد ، هذا قول

الجمهور . وقال الحسن : لكل أحد يوم القيامة ميزان على حِدَةٍ ، وقد يعبر عن الحسنات بالموازين فيكون ذلك على حذف مضاف أي مَنْ ثقلت كِفَّة موازينه أي موزوناته فيكون موازين جمع موزون لا جمع ميزان ، وكذلك مَنْ خفَّت كِفَّة حسناته » انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٣/٥٣٨) :

« وقد ذهب بعض السلف إلى أن الميزان بمعنى العدل والقضاء » .

والحاصل أننا نؤمن بالميزان ونكفِّر مُنْكِرَهُ لكن لا نجزم بأنه آلة ، فيجوز أن يكون الآلة التي توزن بها الأشياء ويجوز أن يكون كناية عن العدل وهو الراجح فيما يظهر ، والله تعالى أعلم .

الصــــراط

وبيان أن معناه الإسلام وليس جسراً منصوباً

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(والصراط) .

الشرح :

قضية الصراط بمعنى أنه جسر ممدود على متن جهنم أدق من الشعرة وأحد من السيف يَمُرُّ عليه الناس واحداً واحداً فمنهم مَنْ يقع عنه فيسقط في النار ومنهم من ينجو وعليه كلاليب مثل شوك السعدان تخطف الناس فيقعون في النار قضية مرجوحة ، ولا بد لنا هنا أن نناقش هذه الأفكار التي بُنِيَتْ عليها هذه القضية ونناقش عمدة أدلتها حتى يتبين لنا جلية الأمر في ثبوتها أو عدم ثبوتها :

(مناقشة الفكرة الأولى) : كون الصراط أدق من الشعرة وأحد من السيف :

لم يأت في القرآن الكريم أن الصراط أدق من الشعرة وأحَدُّ من السيف ، وكذا لم يصح حديث في أن الصراط أدق من الشعرة وأحد من السيف إطلاقاً وقد استعرض الإمام الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١١/ ٤٥٤) الروايات الواردة في ذلك وبيَّن أنه لا يثبت منها شيء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال هناك :

[ووقع عند مسلم « قال أبو سعيد : بلغني(٤١٨) أن الصراط أحَدُّ من السيف

---

(٤١٨) قوله (بلغني) هي في صحيح مسلم (١/ ١٧١) وهذه اللفظة تدل على أنه سمعه من أهل الكتاب ، وليس هو حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جزماً ، وإلا لما قال (بلغني) ، وقول الصحابي ليس حجة ، وعلى كل الأحوال لم يثبت هذا في القرآن كما لم يثبت عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قاله ، وأبو سعيد وأبو هريرة وعبد الله بن عمرو وبعض الأفراد الآخرين من الصحابة الكرام كانوا يستمعون ويروون عن مثل كعب الأحبار وعبد الله بن سلام كما تجد ذلك في تراجمهم من كتب الرجال كـ « تهذيب الكمال » و « تهذيب التهذيب » ، وفي « سير أعلام النبلاء » (٣/ ٤٨٩) : أن كعباً جالس أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكان

وأدق من الشعرة ، ووقع في رواية ابن مَنْدَه من هذا الوجه « قال سعيد بن أبى هلال : بلغني » ووصله البيهقي عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مجزوماً به **وفي سنده لِيْن**[٤١٩] ، ولابن المبارَك **من مرسل عبيد بن عُمَير** « إن الصراط مثل السيف وبجنبتيه كلاليب ، وإنه ليؤخذ بالكلّوب الواحد أكثر من ربيعة ومضر » وأخرجه ابن أبن الدنيا من هذا الوجه وفيه « والملائكة على جنبتيه يقولون : رَبِّ سَلِّمْ سلم » ، وجاء عن الفضيل ابن عياض قال « بلغنا أن الصراط مسيرة خمسة عشر ألف سنة ، خمسة آلاف صعود وخمسة آلاف هبوط وخمسة آلاف مستوي أدق من الشعرة وأحَدُّ من السيف على متن جهنم ، لا يجوز عليه إلا ضامر مهزول من خشية الله » أخرجه ابن عساكر في ترجمته ، **هذا معضل لا يثبت** ، وعن سعيد ابن أبي هلال قال « بلغنا أن الصراط أدق من الشعر على بعض الناس ، ولبعض الناس مثل الوادي الواسع » أخرجه ابن المبارك وابن أبى الدنيا وهو مرسل أو معضل ، وأخرجه الطبري من طريق غنيم بن قيس أحد التابعين قال « تمثل النار للناس ، ثم يناديها مناد : أمسكي أصحابك ودعي أصحابي ، فتخسف بكل ولي لها فهي أعلم بهم من الرجل بولده ويخرج المؤمنون ندية ثيابهم » ورجاله ثقات مع كونه مقطوعا[٤٢٠]] انتهى كلام الحافظ ابن حجر .

يحدثهم عن الكتب الاسرائيلية » .

وقال الحافظ البيهقي في « الأسماء والصفات » ص (٣٤٣) إن : « عبد الله بن عمرو كان ينظر في كتب الأوائل فما لا يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحتمل أن يكون مما رآه فيما وقع بيده من تلك الكتب » أي الإسرائيلية بل إن كثيراً من المرفوعات المنقولة عنه هي من هذه البابة . وذكر مثل هذا أيضاً الحافظ ابن الجوزي في كتابه « منهاج الوصول » .

هذا وأُنَبِّه على أنني كنت قد أخطأت في حاشية لي في كتاب « عقيدة أهل السنة والجماعة » حيث ذكرت هناك أن كون الصراط أحدُّ من السيف وأدق من الشعرة : رواه البخاري ومسلم اعتماداً على كلام الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء حيث وقع ذلك مني تقليداً دون تمحيص ، فتنبهوا لذلك واعلموه ، وقد صححته في الطبعات التالية .

[٤١٩] معنى لين : أي ضَعْف ، أي : فهو ضعيف غير ثابت .

[٤٢٠] أي فهو ضعيف .

قلت : وهناك حديث آخر لم يذكره الحافظ في هذه القضية وهو عن سيدنا سلمان رضي الله عنه مرفوعاً : « يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السموات والأرض لوسعت ، فتقول الملائكة : يا رب لمن يزن هذا ؟ فيقول الله تعالى : لمن شئت من خلقي ، فتقول الملائكة : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ويوضع الصراط مثل حَدِّ الموسى فتقول الملائكة مَنْ تجيز على هذا ؟! فيقول مَنْ شئت من خلقي ، فيقولون : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك » وقد رواه الحاكم (٤/ ٥٨٦) وفي سنده مجهول وهو المسيب بن زهير لم يوثقه أحد ، وكذا حماد بن سلمة لا يعول عليه في مثل هذه المضايق فالحديث ضعيف جزماً[٤٢١] .

وقال الحافظ البيهقي في « شعب الإيمان » (١/ ٣٣٢) عند ذكره قضية أن

---

[٤٢١] ومن الغريب العجيب أن متناقض عصرنا !! صحح هذا الحديث في « سلسلته الصحيحة » (٢/ ٦٥٦) وأورد له شاهداً أضعف منه صححه به ! وهو ما رواه الحاكم أيضاً (٥/ ٥٩٠) عن ابن مسعود مرفوعاً وفيه « فيمرُّون على الصراط كحدِّ السيف دحض مزلة » وزعم المتناقض هناك أن أبا خالد الدالاني الذي في سند هذا الحديث مختلف فيه وأن الحافظ قال عنه : « صدوق يخطىء كثيراً » !!

ونسي المسكين أنه تناقض إذ جزم في موضع آخر من كتبه بأن أبا خالد الدالاني ضعيف !! وذلك أنه قال في « سلسلته الضعيفة » (٤/ ٢٢٩) عنه أثناء كلامه على حديثٍ هناك : [رواه الحاكم (٣/ ٧٣) من طريق أبي خالد الدالاني عن أبي خالد مولى آل جعدة عن أبي هريرة .... فذكره وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ! كذا قالا وذلك من أوهامهما فإن الدالاني هذا وشيخه : لم يخرج لهما الشيخان شيئاً ، ثم الأول منهما ضعيف (أي أبا خالد الدالاني) ، أورده الذهبي في الضعفاء ....] انتهى كلام المتناقض فتأمل كيف يتناقض ويصحح الحديث بالضعفاء حتى بنظره !!

وأقول : وأزيد الآن فأعلمكم بأن الذهبي حكم على هذا الحديث بالنكارة في تعليقه على « المستدرك » (٤/ ٥٩٢) حيث قال : « ما أنكرَهُ على جودة إسناده ...» ، مع أن إسناده ضعيف وغير جيد في الواقع وقد ضعَّف هو نفسه الدالانيَّ أحدَ رواته .

وأبو خالد هذا قال عنه ابن سعد أيضاً في « الطبقات » (٧/ ٣١٠) : « منكر الحديث » ، وقال عنه الحافظ ابن حبان في « كتاب المجروحين » (٣/ ١٠٥) : « كان كثير الخطأ فاحش الوهم يخالف الثقات في الروايات ، حتى إذا سمعها المُبْتَدِىء في هذه الصناعة علم أنها معمولة أو مقلوبة ، لا يجوز الاحتجاج به إذا لم يوافق الثقات ، فكيف إذا انفرد عنهم بالمعضلات !! » . فإذاً هذه الأحاديث لا تصح بحال ولا تقوم لها قائمة والله الموفق والهادي .

الصراط أدق من الشعرة وأَحَدُّ من السيف ما نصه :

[وهذا اللفظ من الحديث لم أجده في الروايات الصحيحة . وروي عن زياد النميري « الصراط كحد الشفرة أو كحد السيف » وهي أيضاً رواية ضعيفة[٤٢٢]] انتهى .

فإذاً لم يثبت في الكتاب أو السنة في هذا الأمر شيء كما ترى حتى عند الحافظ البيهقي والحافظ ابن حجر .

وفي شرح الدردير على « الخريدة » ص (٥٤) ما نصه :

« وأنكر القَرَافي[٤٢٣] تبعاً لشيخه العز[٤٢٤] كونه - أي الصراط - أدق من الشعرة وأحدُّ من السيف » .

---

(٤٢٢) ومن الخطأ ما وقع في « المقاصد الحسنة » للسخاوي ص (٣٣٣) أنه نقل كلام الحافظ البيهقي من « شعب الإيمان » وزعم أنه قال عن حديث سيدنا أنس المرفوع هذا : « وهي رواية صحيحة » والصواب ما أثبتناه من « شعب الإيمان » أنه ضعَّفه ، وكلمة أيضاً قبلها هناك تؤكد أنه ضعفه وتنفي الشك .

(٤٢٣) القرافي المراد هنا هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي القرافي من علماء المالكية ، صنهاجة قبيلة من برابرة المغرب ، والقرافة بمصر هي المحلة المجاورة لقبر الإمام الشافعي بالقاهرة ، وهو مصري المولد والمنشأ والوفاة ، له مصنفات جليلة في الفقه والأصول . منها كتاب « الفروق » ، توفي سنة (٦٨٤هـ) انظر الأعلام (١/ ٩٥) ، وهناك عالم آخر يلقَّب بالقرافي وهو : بدر الدين محمد بن يحيى بن عمر القرافي فقيه مالكي أيضاً ، ولغوي من أهل مصر ولي قضاء المالكية فيها ، له كتاب « توشيح الديباج لابن فرحون » و « شرح الموطأ » ، ولد سنة (٩٣٩هـ) وتوفي سنة (١٠٠٨هـ) .

(٤٢٤) هو عزالدين ابن عبد السلام ، وهو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب السُّلمي المغربي الأصل الدمشقي المولد ثم المصري الشافعي مذهباً الأشعري عقيدة ولد سنة (٥٧٧هـ) وتوفي سنة (٦٦٠هـ) .

فصل

ولا بد لنا أولاً قبل أن نناقش الفكرة الثانية وهي فكرة أن الصراط جسر فوق جهنم وقبل أن نعرض هذه الفكرة على القرآن الكريم ينبغي أن نذكر أشياء نحتاج إليها هنا قبل مناقشة هذه الأفكار لأنها من القواعد المتفق عليها ولا بُدَّ من استحضارها حال المناقشة والرجوع والتحاكم إليها وهي :

الأمر الأول :

أن معنى الصراط في لغة العرب التي نزل القرآن بها هو : الطريق الواسع السهل ، قال الإمام الراغب في « المفردات » ص (٢٣٠) : « السراط الطريق المستسهل » وقال أيضاً : « الصراط الطريق المستقيم » ، وفي القاموس مع شرحه للزَّبيدي (٥/ ١٥٢) في مادة (سرط) : « والسراط بالكسر السبيل الواضح ، وبه فُسِّرَ قوله تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ ، أي : ثبتنا على المنهاج الواضح كما قاله الأزهري » .

وفي مادة (صرط) منه ص (١٧٤) قال : « (الصراط بالكسر الطريق) قال الله تعالى : اهدنا الصراط المستقيم » .

ثم ذكر معناه عند أهل السنة وهذا لا يعنينا هنا إنما يعنينا معناه عند العرب حسب لغتهم(٤٢٥) .

---

(٤٢٥) ينبغي أن نَتَنَبَّه هنا إلى مسألة دقيقة تتعلق بموضوع إخراج معنى الكلمة من القواميس والمعاجم اللغوية وهي أنه في كثير من الأحيان يُدْخِلُ مصنفو ومؤلفو تلك الكتب على المعاني اللغوية البحتة معان شرعية أو آراء لأشخاص تتعلق بموضوع معنى الكلمة لا علاقة له بموضوعها اللغوي فيظنها بعض الناس عند مراجعة تلك الكتب اللغوية كـ « لسان العرب » أو « تاج العروس شرح القاموس » من معاني تلك الكلمة الثابتة عند العرب في لغتهم وهذا غير صحيح ، وبالتالي فإن إخراج معنى الكلمة من معاجم اللغة يحتاج أن يكون الباحث أو المخرج لتلك الكلمة فاهماً لهذه القضية حتى لا يختلط عليه الحابل بالنابل !!

ومثال ذلك إدخال « أن الصراط جسر فوق جهنم أدق من الشعرة وأَحَدّ من السيف » في معنى الصراط عند الزَّبِيْدِي مثلاً في « تاج العروس » مع كون هذا المعنى هو معنى عند بعض طوائف المسلمين وفرقهم لا كلهم ، وهو معنى شرعي غير معروف في لغة العرب ولا علاقة له به !! وخاصة

فلما كان الصراط في لغة العرب هو الطريق الواسع السهل استعير شرعاً لفظ الصراط للإسلام والقرآن ، قال تعالى : ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُل** ﴾ .

الأمر الثاني : أن الصراط بمعنى أنه جسر منصوب على متن جهنم أو فوقها أو بين حافتيها لم يَرِد في القرآن الكريم الذي هو الأصل في معرفة العقائد ، وإنما ورد في حديث آحاد معارَض بالقطعيات كما سيأتي إن شاء الله تعالى عند مناقشة الفكرة الثانية ، فكيف لا يُذكر في القرآن هذا الأمر العظيم ويُغْفَل ذكره فيه ولا يُبَين بأنه جسر ممدود فوق جهنم ؟! وإذا كان أصلاً في اليوم الآخر وهو بذلك العِظَم والهول كما يصفونه فكيف يُسْكَت عنه ولا يذكر ؟! والله تعالى لم يترك في كتابه الكريم ذكر ما دونه وما هو أقل شأناً منه من أمور الآخرة كالصُحُف التي يأخذها الناس وطعام أهل الجنة والنار وآنيتهم التي يشربون فيها ، وهي ليست في عظم الشأن والحال كالجسر العظيم ذي الأهوال الذي يَرِدُهُ الناسُ كافة حتى الأنبياء الذين يقولون عند جوازه اللهم سَلِّم سَلِّم كما ورد !!!

والمتأمل في آي الذكر الحكيم لا يجد نصاً واحداً يذكر فيه صراحة أن الصراط

عند بحث معنى لفظه (صراط) في لغة العرب وماذا يقصدون بها !!

ومثال ذلك أيضاً إدخال بعض المؤلفين كابن منظور في « لسان العرب » أن تفسير الاستواء بالاستيلاء يقتضي معنى المغالبة !! وهذا الاقتضاء لا دليل عليه شرعاً ولا لغة وهو لازم بعيد لا عبرة به كما أنه أيضاً رأيُ شخصٍ يتبع فيه رأيَ فرقة من الفرق ، فأُدْخِلَ في بعض كتب اللغة فظنه البعض قاعدة لغوية ! وهو ليس كذلك !! ويتبين هذا الأمر لكل من نظر بعين الفاحص المتجرِّد عن العصبية والتعصب ، فلا يعنيه ساعتئذ مذهب صاحب المعجم اللغوي ولا نحلته وإنما يدرك بأن ما طرحه من المعاني اللغوية بعضها لغوي مجرَّد وهذا ما يعني الباحث ويهمه وبعضها اصطلاحي شرعي أو مذهبي أو غير ذلك ، والله الموفق .

ومما يجب التنبيه عليه هنا أن المجسمة والمشبهة يُنَفِّرُون طلاب العلم عن مراجعة مثل كتاب « المفردات » للإمام الراغب الاصفهاني مع أنه كتاب دقيق جداً في اللغة يعطي الباحث مدى ربط الكلمة بعدة معان مذكورة في القرآن يتبين منها حقيقة معناها اللغوي ، ويظهر من عباراته بكل وضوح الفرق بين المعاني اللغوية والاصطلاحات الشرعية عند طائفةٍ ما أو عند جميع الطوائف والفرق الإسلامية ، فكتابه هذا يُعَدُّ من أهم المراجع اللغوية لِقِدَمِهِ ووضوحه في البيان ، والله الموفق .

هو جسر فوق جهنم ، والآيات التي يَسْتَدِلُّ بها مَنْ يُثْبِتُ الصراط ليس فيها ذكر ذلك وإنما هم يستنبطون ذلك منها استنباطاً بناء على فكرة قامت بمخيلتهم لا غير !!! زد على ذلك أن الصحابة والسلف والعلماء والمفسرين قد اختلفوا في تفسيرها كما سترى إن شاء الله تعالى !!!

فمن تلك الآيات الكريمات التي يستدلون بها عليه قوله تعالى : ﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً** ﴾ مريم : ٧١ .

والصحيح أن هذه الآية واردة في الكافرين وفي أصحاب الكبائر الذين فعلوا المنكرات العظيمة ومشوا مع الظلمة وكان جزاؤهم دخول النار ، بدليل الآيات التي قبلها والتي لا يذكرها في هذا المقام المستدلون بها على أن الصراط جسر منصوب على جهنم .

فيكون معنى قوله تعالى ﴿ **وإن منكم** ﴾ أي : أيها الكافرون(٤٢٦) ﴿ **إلا واردها** ﴾ ، وهذا العموم في قوله تعالى ﴿ **وإن منكم** ﴾ لا يشمل الخلق جميعاً ولذلك نظائر في القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿ **ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم** ﴾ ومعلوم من نصوص الكتاب والسنة أن هناك من يدخل الجنة بغير سؤال ولا حساب ، قال تعالى ﴿ **إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾ الزمر : ١٠ ، وجاء في الحديث « يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب » رواه مسلم (١/١٩٧) والبخاري بلفظ قريب منه (١١/٤٠٥ - ٤٠٦) .

وقوله تعالى ﴿ **ثم نُنَجِّي الذين اتقوا** ﴾ هذا التفات من الكلام على قوم إلى آخرين ، أي ننجيهم من أن يدخلوا فيها أو يقتربوا منها لقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

---

(٤٢٦) قال الإمام الرازي في « التفسير » (١١/٢٤٣) :

« واعلم أنه تعالى لما قال من قبل ﴿ **فوربك لنحشرنهم والشياطين** ﴾ ثم قال ﴿ **ثم لنحضرنهم حول جهنم** ﴾ أردفه بقوله ﴿ **وإن منكم** إلا واردها ﴾ يعني جهنم ؛ واختلفوا فقال بعضهم المراد مَنْ تَقَدَّم ذِكْرُه من الكفار فكنى عنهم أولاً كناية الغيبة ثم خاطب خطاب مشافهة ، قالوا : إنه لا يجوز للمؤمنين أن يَرِدُوا النار ؛ ويدل عليه أمور (**أحدها**) قوله تعالى ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون** ﴾ والمبعد عنها لا يوصف بأنه واردها (**والثاني**) قوله ﴿ **لا يسمعون حسيسها** ﴾ ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها (**وثالثها**) قوله ﴿ **وهم من فزع يومئذ آمنون** ﴾ .....» انتهى .

سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ، لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ..... ﴾ الأنبياء : ١٠١ ، [وفسَّرها بعضهم ﴿ **ثم نُنَجِّي الذين اتقوا** ﴾ أي اتقوا الشرك(٤٢٧) والكبائر ، ومعناه : اتقوا الله تعالى بعدم اقترافهم للشرك والكفر لكن ظلموا أنفسهم بأنواع من المعاصي الكبائر التي استوجبت دخولهم النار ، فهؤلاء يخرجهم الله تعالى وينجيهم من الخلود في النار](٤٢٨) ويذر ﴿ **الظالمين** ﴾ أي الكافرين ﴿ **فيها جثياً** ﴾ أي مخلدون لا يخرجون منها ، والظالمون هنا الكافرون ؛ وقد سمى الله تعالى الكفر ظلماً في القرآن الكريم لأن الكفر من أكبر الظلم وأشده على الحقيقة ، قال الله تعالى ﴿ **أن الشرك لظلم عظيم** ﴾ لقمان : ١٣ ، وقال تعالى ﴿ **ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم** ﴾ الحج : ٢٥ .

ولنرجع إلى سياق آية الورود وإلى الآيات التي قبلها فنقول : قال الله تعالى : [﴿ **ويقول الإنسان** ﴾ أي الإنسان الكافر بدليل ما بعده ﴿ **أءذا ما مِتُّ لسوف أخرج حياً** ﴾ ؟! وهذا لا يقوله المؤمن الذي يوقن بالبعث وإنما يقوله الكافر ﴿ **أولا يذكر** ﴾ هذا ﴿ **الإنسان** ﴾ الكافر ﴿ **أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً * فوربك لنحشرنهم** ﴾ أي الكفار والعتاة وكذا بعض عصاة المؤمنين الذين مشوا في ركاب هؤلاء وأعانوهم ، والدليل على أنها في الكافرين قوله تعالى بعد ذلك ﴿ **والشياطين** ﴾ أي التي كانت تضلهم وتَأُزُّهم أزاً في الدنيا ، أما المؤمنون بما فيهم من أنبياء وصديقين وصالحين فلا يحشرون مع الشياطين ، فآية الورود تتحدث عن نوع من أنواع الحشر وهو حشر الكافرين والظالمين من أصحاب الكبائر ، وهو خلاف حشر المؤمنين الآمنين المستبشرين ، ثم قال الله سبحانه بعد ذلك عن هؤلاء الكفار ومن معهم من الظلمة العاصين ﴿ **ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً** ﴾ أي سيحضرهم الله تعالى حول جهنم جميعاً فيكونون قريباً منها وهذا من جملة ما

---

(٤٢٧) قال الإمام الرازي في « تفسيره » (١١/ ٢٤٣) : « قال ابن عباس : المتقي هو الذي اتقى الشرك بقول لا إله إلا الله ، واعلم أن الذي قاله ابن عباس هو الحق الذي يشهد الدليل بصحته ...» .

(٤٢٨) هذا التفسير لا يقول به العدلية الذين يقولون بخلود أصحاب الكبائر في النار ، والذين يقولون بأنه من دخل النار لا يخرج منها .

سَيَلْقَونَ من العذاب ، وأما المؤمنون الأتقياء والناجون حتى المسيئين من المؤمنين الذين يعفو الله تعالى عنهم فقد قال الله عنهم كما في سورة الأنبياء : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها ﴾ ، ثم بَيَّنَ الله لنا ماذا سَيُفْعَل بهم إذ أُحضروا حول نار جهنم حيث قال سبحانه ﴿ **ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً** ﴾ أي يوضع في النار ويدخلها أولاً أشد الظالمين والكافرين الذين كانوا في الدنيا عتاة من سفاكي الدماء وقاهري الخلق ليعلم أتباعهم بأن سادتهم هؤلاء هم قادتهم إلى النار وأنهم سيدخلون النار قبلهم وهذا أيضاً معنى قوله تعالى : ﴿ **ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صِلِياً** ﴾ ، ويقال لهم جميعاً أي الكفار وبعض العصاة إذا أُحْضِروا حول جهنم ﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً** ﴾ وهذا تخويف لهم وزيادة في عذابهم بسبب إجرامهم وكفرهم بالله تعالى وظلمهم العباد وإزهاقهم للأرواح ، ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا** ﴾ هذا التفات تقدَّم الكلام عليه ومعناه ثم اعلموا أننا ننجي المتقين فلا يدخلون النار ولا يقربون منها [وبعضهم فسَّرها بقوله : أي اتقوا الله تعالى بعدم شركهم وكفرهم به فيخرجهم بعد انقضاء مددهم](٤٢٩) ﴿ **ونذر** ﴾ أي نترك ﴿ **الظالمين فيها جِثِياً** ﴾ أي باقين وماكثين] . أجارنا الله منها بمنه وكرمه .

ومما يدل ويؤكد أن هذه الآية ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ ليست دليلاً على الجسر المنصوب على متن جهنم أن الصحابة والسلف اختلفوا في تفسيرها كما تجد ذلك في التفاسير ، انظر مثلاً تفسير الحافظ ابن جرير (٩/١٦/١٠٩) وتفسير القرطبي (١١/١٣٦) والرازي (١١/٢٤٤) ومنه قول الإمام القرطبي هناك :

[**واختلف الناس في الورود** ؛ فقيل : الورود الدخول ، .... وقالت فرقة : الورود الممر على الصراط ....، وقالت فرقة : هو ورود إشراف وإطّلاع وقُرْب ؛ وذلك أنهم يَحْضُرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم ، فَيَرَونها وينظرون إليها في حالة الحساب ، ثم ينجي الله الذين اتقوا مما نظروا إليه ويصار بهم إلى الجنة ؛

---

(٤٢٩) وهذا التفسير الثاني غير معتمد عندنا ! ولكنه ملزم للمخالفين .

وقال مجاهد : ورود المؤمنين النار هو الحمى التي تصيب المؤمن في دار الدنيا ، (لحديث) أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عاد مريضاً من وعك به فقال له صلى الله عليه وآله وسلم : « أبشر فإن الله تبارك وتعالى يقول : هي ناري أُسَلِّطها على عبدي المؤمن لتكون حظه من النار »(٤٣٠) . وقالت فرقة الورود : النظر إليها في القبر ، .... وقال الأكثر : المخاطب العالم كله ، ولا بد من ورود الجميع ، وعليه نشأ الخلاف في الورود » انتهى كلام القرطبي .

وقال الحافظ أبو حيان في « البحر المحيط » (٧/ ٢٨٩) :

[وقرأ الجمهور ﴿ **منكم** ﴾ بكاف الخطاب ، والظاهر أنه عام للخلق وأنه ليس الورود الدخول لجميعهم ، فعن ابن مسعود والحسن وقتادة هو الجواز على الصراط لأن الصراط ممدود عليها . وعن ابن عباس : قد يَرِدُ الشيء ولم يدخل كقوله ﴿ **ولما ورد ماء مدين** ﴾ ووردت القافلة البلد ولم تدخله ، ولكن قَرُبَتْ منه أو وصلت إليه . قال الشاعر :

فلما وردن الماء زرقاً جمامة وضعن عصى الحاضر المتخيم

وتقول العرب : وردنا ماء بني تميم وبني كلب إذا حضروهم ودخلوا بلادهم ، وليس يراد به الماء بعينه . **وقيل : الخطاب للكفار أي قل لهم يا محمد فيكون الورود في حقهم الدخول ،** وعلى قول من قال الخطاب عام وأن المؤمنين والكافرين يدخلون النار ولكن لا تضر المؤمنين ، **وذكروا كيفية دخول المؤمنين النار بما لا يعجبني نقله في كتابي هذا لشناعة قولهم أن المؤمنين يدخلون النار وإن لم تضرهم**] انتهى .

قلت : ومنه يتبين أن المسألة خلافية وليست مسألة إجماعية كما يصورها البعض ، كما أن هذه الآية الكريمة ليست دليلاً على الصراط المراد الذي هو جسر منصوب على متن جهنم ، فكيف يستدلون بها على الجسر ؟!

وقد جاءت لفظة (الورود) في القرآن بمعنى الدخول قال تعالى ﴿ **أنتم وما**

---

(٤٣٠) رواه أحمد (٢/ ٤٤٠) وغيره وهو صحيح ، وحديث « الحمى من فيح جهنم » رواه البخاري (١٠/ ١٧٤) ومسلم (٤/ ١٧٣٢) .

تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ الأنبياء : ٩٨ .

قال الإمام الرازي في تفسيره (١١/ ٢٢٣) : « (**إنكم**) خطاب لمشركي مكة وعبدة الأوثان » .

وقال الإمام الرازي في حق المؤمنين في « تفسيره » (١١/ ٢٢٧) :

« ﴿ **أولئك عنها مبعدون** ﴾ أن المراد الذين سبقت لهم منا الحسنى لا يدخلون النار ولا يقربونها البتة ، وعلى هذا القول بطل قول من يقول إن جميع الناس يَرِدُون النار ثم يخرجون إلى الجنة ، لأن هذه الآية مانعة منه .... » .

ومن الآيات التي استدلوا بها على وجود الصراط الذي هو جسر قوله تعالى ﴿ **ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون** ﴾ وهذه أيضاً ليس فيها أي دليل على أن الصراط جسر على متن جهنم بل إن هذه الآية تخبر عن حال الكافرين في الدنيا بأنهم استبقوا صراط الغي وسارعوا إليه أي ركضوا في طريق الضلال وتركوا طريق الهدى فكيف سيبصرون الحق ويَتّبِعُونه ؟! وقد فسَّرها بذلك سيدنا ابن عباس كما تجد ذلك في التفاسير [انظر تفسير الحافظ ابن جرير الطبري (١٢/ ٢٣/ ٢٧)] .

وقال الإمام القرطبي في « تفسيره » (١٥/ ٤٩) :

[قوله تعالى ﴿ **ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون** ﴾ ... قال ابن عباس : المعنى لأعميناهم عن الهدى ، فلا يهتدون ابداً إلى طريق الحق . وقال الحسن والسُّدِّي : المعنى لتركناهم عمياً يترددون . فالمعنى : لأعميناهم فلا يبصرون طريقاً إلى تصرفهم في منازلهم ولا غيرها . وهذا اختيار الطبري] .

وروي عن عبد الله بن سلام وكان يهودياً ثم أسلم أنه فسَّر هذه الآية بأن هذا الأمر هو المرور على الصراط الذي هو جسر حينما يُمَدُّ يوم القيامة فيطمس الله أبصارهم وهم عليه [انظر ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٠)] .

فالظاهر أنه حدَّث بهذا إن ثبت عنه مما كان يحفظه ويعلمه من التوراة ، فتكون هذه الفكرة قد دخلت على المسلمين من باب الإسرائيليات ثم انتشرت عند

كثيرين وأصبحت معتمدة لديهم(٤٣١) .

ومن الآيات التي استدلوا بها على الجسر أيضاً قوله تعالى ﴿ **فاهدوهم إلى صراط الجحيم** ﴾ وهذه لا دلالة فيها على الجسرية وإنما فيها الأمر بدلالتهم على طريق الهلاك أو طريق النار ، وإذا أثبتوا بها جسراً للجحيم فيلزمهم إثبات جسر آخر لجنات النعيم ولم يقولوا بذلك(٤٣٢) !! فتأمل !!!

---

(٤٣١) وخاصة أن راوي الحديث وهو أبو هريرة عنه ممن روى عن عبد الله بن سلام كما تجد ذلك في كتب الجرح والتعديل [انظر مثلاً « تهذيب الكمال » (١٥/ ٧٥)] وهذا مثل كثير من الأمور التي يتداولها العوام ويحسبونها حقائق كقولهم إن سيدنا أيوب عليه السلام قد مرض حتى كان الدود يمشي على بدنه فكلما سقطت دودة أعادها وقال لها : إرجعي وكلي نصيبك !! وهذا من الكذب الإسرائيلي البحت ، لأن الأنبياء معصومون من الأمراض الظاهرة المنفرة ومرض سيدنا أيوب كان باطنياً ولم يظهر عليه ما ينفر الإنسان منه ، وليس بعيداً منا أيضاً حديث التربة الذي في مسلم (٤/ ٢١٤٩برقم٢٧٨٩) والذي نص البخاري في « التاريخ الكبير » (١/ ٤١٣-٤١٤) بأن الأصح أنه من كلام كعب الأحبار حيث رواه عنه أبو هريرة فظنه الرواة الذين جاءوا بعده أنه كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وهو في الواقع ليس كذلك ، وبالتالي فهو حديث إسرائيلي دخل في الصحيح ، ومنه تعلم بأن كتاب الصحيح ليس معصوماً من أن يدخله الخطأ والوهم والإسرائيليات بشهادة علماء هذا الفن ، واعلم أن الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو كتاب الله تعالى فاعرف ذلك جيداً .

وليس هذا هو أول حديث ولا آخر حديث يتكلم عليه العلماء من أحاديث الصحيحين كما هو معلوم ، بل إن هناك أحاديث أخرى ، منها مثلاً حديث شَرِيك الذي في الإسراء والذي رواه البخاري (١٣/ ٤٧٨) وقد نقل الحافظ ابن حجر في شرحه هناك (١٣/ ٤٨٣) قول أهل العلم الذين سبقوه فيه ومن ذلك قوله هناك : « قال الخطَّابي : ليس في هذا الكتاب يعني صحيح البخارى حديث أشنع ظاهراً ولا أشنع مذاقاً من هذا الفصل » ثم قال الحافظ بعد ذلك : « وقد روي هذا الحديث عن أنس من غير طريق شَرِيك فلم يذكر فيه هذه الألفاظ الشنيعة » . وهذا يدلنا على أن في الصحيح أشياء شنيعة ، وهي مستشنعة بشهادة فحول الحفاظ وكبار العلماء والمحدثين ، فافهم هذا ولا تنسه .

ثم إن النقد ليس مقيداً في الأحاديث التي نصوا عليها في الصحيح ، وإنما قد يُدْرِكُ ويَنْقُدُ الباحث والعالم المحقق ما لا يدركه وينقده غيره وليس الباب مقفلاً ومقتصراً على أناس دون آخرين ما دام النقد مبنياً على العلم والمعرفة . وقد روى البخاري نفسه في الصحيح (١/ ٢٠٤) عن أبي جحيفة قال : قلت لعلي (رضوان الله عليه) هل عندكم كتاب ؟ فقال : « لا إلا كتاب الله **أو فَهْمٌ أُعْطِيَهِ رجل مسلم** ..... » فتأمل !!

(٤٣٢) مع أن بعض العلماء قال بذلك كما سيأتي ! خلافاً لهؤلاء الذين يناقشوننا ويخالفوننا !!

الأمر الثالث : أن الأحاديث التي وردت في الصراط هي أحاديث آحاد ، لا تفيد إلا الظن ، وهي معارَضة بقطعي الدلالات كما سترى إن شاء الله تعالى ، وعمدة استدلالهم على الجسر ذي الكلاليب هو حديث أبي هريرة وأبي سعيد الذي فيه : « .... يجمع الله الناس - يوم القيامة - فيقول : من كان يعبد شيء فَلْيَتَّبِعْهُ ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون فيقول : أنا ربكم ، فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا أتانا ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه ، ويضرب جسر جهنم ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : فأكون أول من يجيز ، ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلِّم سلِّم ، وبه كلاليب مثل شوك السعدان ، أما رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله ، فتخطف الناس بأعمالهم ، منهم المُوبَقُ بعمله ، ومنهم المُخَرْدَل ثم ينجو ... » .

وهذا رواه البخاري (١١/ ٤٤٥) ومسلم (١/ ١٦٤) وهو حديث شاذ بمرة كما ذكرت ذلك في التعليق على كتاب « دفع شبه التشبيه » ص (١٥٧) وأزيد هنا موضحاً : بأن هذا هو حديث الصورة الذي فيه إشكالات كثيرة مخالفة لما جاء في القرآن الكريم ولما هو مقرر بقطعي الدلالات في الكتاب والسنة ، لأن في طياته أفكاراً باطلة مردودة لا يمكن الأخذ بها ، وتجد ذكر بعضها في الحاشية هنا(٤٣٣) .

---

(٤٣٣) قد ذكرت أن في جزء من هذا الحديث وهو صدره ستة عشر إشكالاً في كتابي « الأدلة المقومة لاعوجاجات المجسمة » وإنني أذكر بعضها هنا فأقول :

١- في هذا الحديث أن الله يتشكل فتارة يأتيهم بغير صورته وتارة يأتيهم بصورته وهذا محال لأن الله تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ .

٢- وفيه أيضاً أن لله تعالى صورة وهذا محال أيضاً وباطل من القول للآية .

٣- ثم يقال أين رأوه وعرفوه سبحانه قبل ذلك حتى يصح أن يقال : « فيأتيهم بغير صورته التي يعرفون » ؟!!!!

٤- وفيه أن المنافقين يرون الله تعالى في أرض المحشر !! وهذا معارض لقوله تعالى ﴿ **كلا إنهم عن ربهم**

وهناك حديث آخر مثله في مسلم (١/ ١٨٧) من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما وفيه « قال وفي حافَّتَي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به فمخدوش ناج ومكدوس في النار » وهذا آحاد أيضاً لا يُقْطَع به ، وهو من طريق أبي مالك الأشجعي وقد قال فيه أبو حاتم : صالح الحديث يكتب حديثه وقال النَّسَائي : ليس به بأس ، كما في « تهذيب الكمال » (١٠/ ٢٧٠) فهو ليس في الدرجة العلياً من الحفظ والضبط ، وليس حديثه هذا مقطوعاً به بل هو معارض للقطعي كما سترى إن شاء الله تعالى عند مناقشة الفكرة الثانية .

وبقي من الأحاديث المهمة في هذه المسألة ما رواه مسلم أيضاً (١/ ١٧٩) عن سيدنا جابر وفيه « ثم نَعَتَ وضع الصراط ومَرَّ الناس عليه . قال : **وأخاف أن لا أكون أحفظ ذلك** . قال : غير أنه قد زعم أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها » . ففيه شك صريح فيما رواه في الصراط ، وقد اعترف بذلك الراوي فكيف نبني على الشك أصول الدين ؟!

وروى أحمد (٤/ ١٨٢) والترمذي (٥/ ١٤٤) عن النواس بن سمعان أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ضَرَبَ الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جَنْبَي الصراط سوران فيهما أبواب مُفَتَّحَة وعلى الأبواب ستور مُرْخَاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتفرجوا وداع يدعو من جوف الصراط فإذا أراد يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال ويحك لا تفتحه فإن تفتحه تَلِجْهُ ، **والصراط الإسلام** ، والسوران حدود الله تعالى ، والأبواب المفتحة

يومئذ لمحجوبون ﴾ .

٥- تقرر عند أهل السنة القائلين بإثبات رؤية المؤمنين لله تعالى في الآخرة أن الرؤيا إنما تكون في الجنة تحقيقاً لقوله تعالى ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ عندهم ، وهذا الحديث يدل على أن الرؤية تقع في أرض المحشر عندما يكون المنافقون - الذين أخبر الله تعالى بأنهم في الدرك الأسفل من النار - مختلطين بالمؤمنين في أرض المحشر .

٦- ورد في هذا الحديث أن الله تعالى إذا أتاهم بصورته التي يعرفونها اتبعوه !! فهذا فيه أنه جسم ينطلق فيتبعونه ، مثل اتباع عبده الشمس والقمر لآلهتهم ، وهذا مستحيل جداً .

وبالتأمل في هذه الأمور وغيرها أيضاً لا يتردد أي عاقل في الحكم على هذا الحديث بالبطلان .

محارم الله تعالى ، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله عز وجل ، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم » وهو صحيح ، **والصراط هنا هو الطريق وهو ضَرْبُ مَثَلٍ في هذا الحديث .**

ولنا جزء خاص تتبعنا فيه أحاديث الصراط وأقوال فرق الأمة ورددنا فيه على بعض المتنطعين الجهلة ممن يعترض علينا بحقد وبلا علم في ذلك .

وكثير من الناس عند سماعهم لكلمة صراط لا يتخيلون إلا الجسر الدقيق الذي هو أدق من الشعرة وأَحَدّ من السيف ، مثل الحبل الذي يمشي عليه بعض الناس أحياناً فربما وقع وربما سار عليه !! وبذلك يتضح لنا جلياً أن قضية تفسير الصراط بأنه الجسر الممدود على ظهر جهنم لم تأتِ في القرآن الكريم ، لكن جاءت في حديث آحاد لم يبلغ التواتر ، وفيه إشكالات جمة ، تجعلنا نقول عنه أنه ليس حديث آحاد فحسب ؛ وإنما هو مردود للإشكالات الواقعة في أفكاره وقضاياه التي تخالف ما جاء في القرآن الكريم كما سيتبين لنا الآن إن شاء الله تعالى .

ولا بُدَّ لنا هنا أن نصرِّح بأن الأصوليين (أي علماء الأصول) وعلماء الحديث نصوا على أن حديث الآحاد إذا عارض نص القرآن رددناه ولم نأخذ بما فيه ، وقد نص على ذلك الخطيب البغدادي في كتابه « الفقيه والمتفقه » (١/ ١٣٢) وغيره من علماء السلف والخلف حتى الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، وقد نقلت ذلك بتوسع في كتابنا هذا عند الكلام على حديث الآحاد وأنه لا يفيد العلم وإنما يفيد الظن مطولاً موسعاً مدللاً فارجع إليه إن شئت .

(مناقشة الفكرة الثانية) : وهي أن الصراط جسر فوق جهنم :

لقد حوت القضية القائلة بأن الصراط جسر فوق جهنم عدة أفكار لا بد أن نناقشها واحدة واحدة وهذه الأفكار هي : أن فكرة الصراط بهذا المعنى تنص على أن المؤمنين يقربون من النار ويجوزون عليها من بين حافتيها ، وأن في هذا الأمر مهما كانت صورته نوع من الهلع والخوف والفزع ، وفي ذلك تساوي المؤمنين مع الكافرين في أن الجميع يمرون بهذا الموقف المخيف الصعب الذي يقول فيه الرسل اللهم سلّم سلّم ، وأن الناس مِنْ بَرِّهم وفاجرهم يمرُّون عليه واحداً واحداً على

اختلاف طريقة السير والسرعة ، وأن طريقة دخول النار تتم بالسقوط من هذا الجسر والهوي فيها ، وأن المرء لا يدري ما هو مصيره عندما يمشي عليه هل سيقع فيها أم لا وهل سيأخذه أحد كلاليب الصراط أم لا !!! إلى غير ذلك من قضايا وأفكار .

والمتأمل في القرآن الكريم يجده ينقض هذه الأفكار التي وردت في حديث الآحاد هذا ، وما علينا هنا إلا أن نناقش هذه الأفكار فكرة فكرة بحسب مفهوم كتاب الله تعالى الذي ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾ فنقول وبالله تعالى التوفيق :

أولاً : تنص فكرة الجسر الذي فوق جهنم على أن الناس يمرون عليه ويكونون قريبين من النار بل يمرون ما بين حافتيها !! فيجوزون عليها من فوقها !!

وهذه الفكرة تعارض ما هو مقرر في القرآن الكريم من أن المؤمنين لا يقربون من نار جهنم ولا يسمعون صوتها قال الله تعالى ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها** ﴾ الأنبياء : ١٠١ .

ثانياً : فكرة الصراط بمعنى الجسر الممدود على متن جهنم بين حافتيها فيها من الهلع والخوف والفزع ما لا يستطيع أحد أن ينفيه حتى عن الأنبياء الذين يقولون كما جاء في ذلك الحديث : اللهم سلّم سلّم !!

وهذه الفكرة أيضاً تعارض ما ثبت في القرآن الكريم من أن المؤمنين فضلاً عن الأنبياء يكونون آمنين مطمئنين لا يصيبهم خوف ولا فزع ، قال الله تعالى ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون** ﴾ الأنبياء : ١٠٣ ، وقال تعالى : ﴿ **مَنْ جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون** ﴾ النمل : ٨٩ ، وقال تعالى : ﴿ **فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسروراً** ﴾ الإنسان : ١١ ، وقال تعالى : ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ البقرة : ١١٢ . وقال تعالى ﴿ **وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ الأنعام :

٤٨ . وقال تعالى : ﴿ **ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين** ﴾ آل عمران : ١٧١ . وقد ذكر الله تعالى ﴿ **لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ في كتابه الكريم في نحو ثلاثة عشر موضعاً فأين تطبيق هذه الآية في الجسر الذي على متن جهنم ؟!!!

ثالثاً : وتفيد فكرة الصراط تساوي المؤمنين مع الكافرين في الخوف والصعوبة التي يلقونها على الصراط ، وإن كان هناك بعض الفروق كما جاء في ذلك الحديث « فمخدوش ناج ومكدوس(٤٣٤) في النار » ، والرُسُل تقول : اللهم سلّم سلّم !!

وهذه الفكرة أيضاً تنافي ما هو مقرر في القرآن من أن حال المؤمنين يختلف تماماً عن حال الكفار والمجرمين قال الله تعالى : ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين * مالكم كيف تحكمون** ﴾ القلم : ٢٦ ، وقال تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم** ﴾ الجاثية ٢١ .

رابعاً : تنص فكرة الصراط على أن الناس يمرون على الصراط الذي هو جسر جهنم واحداً واحداً وليسوا جماعات !!

وهذا أيضاً مخالف لما جاء في القرآن الكريم من أنه يُذْهَبُ بالناس من أرض الحساب والمحشر إلى الجنة والنار أفواجاً أفواجاً وزُمَراً زمراً ، قال الله تعالى ﴿ **ووفيت كل نفس ما عملت هو أعلم بما يفعلون * وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً** ﴾ الزمر : ٧١ ، وقال سبحانه ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ الزمر : ٧٣ .

خامساً : تنص فكرة الصراط الذي هو جسر على متن جهنم أن كيفية دخول النار تتم بالسقوط من هذا الجسر المنصوب على حافتيها والهوي في النار !!

---

(٤٣٤) أي : مدفوع ومطروح .

وهذا الأمر مخالف لما هو مقرر في القرآن الكريم من أن دخول النار يتم بمجيء الكفار والعصاة إلى أبوابها مثل مجيء المؤمنين إلى أبواب الجنة والدخول فيها بعدئذ ، قال الله تعالى : ﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها أبداً فبئس مثوى المتكبرين** ﴾ الزمر : ٧٢ .

وقال الله تعالى في وصف جهنم أعاذنا الله منها : ﴿ **وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم** ﴾ الحجر : ٤٤ .

وجاء في الأحاديث الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما رأى النار ليلة الإسراء وقف على بابها ولم يقف على جسر منصوب عليها !! قال صلى الله عليه وآله وسلم : « قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين ، وقمت على باب النار فإذا عامة من يدخلها النساء » رواه البخاري (٩/٢٩٨و١١/٤١٥) ومسلم (٤/٢٠٩٦) .

سادساً : تفيد فكرة الصراط الذي هو جسر بأن المار عليه لا يعرف مصيره هل سيقع في النار وهل سيأخذه أحد الكلاليب بسبب بعض معاصيه أم سينجو ! وبالتالي فهو بعد الحساب وقراءة صحيفته هل سيقع في النار أم سيدخل الجنة !!

وهذا أيضاً مضاد ومخالف لما تقرر في القرآن الكريم وفي الأحاديث الصحيحة الأخرى من أن المؤمن وغيره من ساعة موته يعرف مصيره ، وأنه يقوم من قبره ضاحكاً مستبشراً آمناً نوره يسعى بين يديه وتُبَشِّره الملائكة ويشرب من الحوض فيذهب ظمؤه ، قال تعالى : ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون** ﴾ الأنبياء : ١٠٣ ، وقال تعالى : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ يونس : ٦٤ . وقال تعالى : ﴿ **يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم * يوم**

يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ الحديد : ١٣ .

وقال تعالى : **﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ﴾** النحل : ٣٢ .

والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وقد جاء في الأحاديث أن العبد المؤمن بعد موته يرى مقعده من الجنة ، والعبد الكافر يرى مقعده من النار ، وكل ذلك مما يبطل تلك الفكرة !!

فتأملوا جيداً هدانا الله تعالى للحق وللسبيل القويم !!

وإذا تأملنا في نصوص القرآن الكريم وتدبرناها وجدنا أن الصراط قد عُبِّرَ فيه عن الطريق الواضح الذي شرعه الله تعالى لعباده وهو دين الإسلام الذي بعث الله تعالى به رسله وأنبياءه ،

ومن ذلك قوله تعالى : **﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾** الأنعام : ١٥٣ . وقال تعالى : **﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾** وقال تعالى **﴿ وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ﴾** الأنعام : ١٢٦ .

قال الحافظ ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية (٥/٨/ ٣٢) ما نصه :

« يقول تعالى ذكره : وهذا بيانه لك يا محمد في هذه السورة وفي غيرها من سور القرآن هو صراط ربك ، يقول : طريق ربك ودينه الذي ارتضاه لنفسه ديناً ، وجعله مستقيماً لا اعوجاج فيه .... وعن ابن عباس قوله ﴿ وهذا صراط ربك مستقيماً ﴾ يعني به الإسلام » انتهى مختصراً فتأمل !!

[تنبيه] : إذا تقرر ذلك فاعلم أن كل نص جاء فيه مثلاً لفظة (أُلْقِيَ في النار) فمعناه وُضِعَ في النار ؛ ولا يلزم من ذلك أنه مَرَّ على الجسر فسقط فيها ، وهذا تماماً كما يقال مثلاً في اللغة (أُلْقِيَ في السجن وطُرِحَ فيه) والسجن ربما يكون على رأس جبل والمتكلم أخفض منه ، وذلك لأن مكان الإذلال والقهر يرمز له بالسُّفْل في لغة العرب ، ومكان التكريم يرمز له بالعلو والرِّفعة ، وكذلك الجنة والنار فاعرف ذلك ولا تغفل عنه .

[تكميل] : **وإذا** تأملنا في هذه القضية بِتَمَعُّنٍ ونظرنا في اختلاف الصحابة فَمَنْ بعدهم في معنى آية الورود وغيرها علمنا أن قضية الجسر الذي على متن جهنم غير مجمع عليها بين الأمة خلافاً لدعوى البعض ، وأعجبني قول العلامة السالمي رحمه الله تعالى حيث يقول في « مشارق أنوار العقول » :

وقوله الصراط فهو الحق لا جسر كما بعضهم تأولا

واعلم أنه لا بد في مسائل أصول الدين أن يكون الأمر مجمعاً عليه بين الأمة جميعها بكافة فرقها المعتد بها ، فلا يكفي في هذا الأمر إجماع فرقة من فرق الأمة فحسب ، ولا يكفي إجماع أهل السنة والجماعة !! وذلك لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في الحديث الصحيح الذي هو مستند الإجماع الصريح : « لا تجتمع أمتي على ضلالة »(٤٣٥) ، ولم يقل صلى الله عليه وآله وسلم (لا يجتمع أهل السنة والجماعة على ضلالة) ، فلا بد من النظر في مثل هذا الأمر في قول الزيدية والمعتزلة والإباضية والإمامية وهؤلاء لم يجمعوا مع أهل السنة في القضية على زعم من قال إنها مجمع عليها فصار أن الأمر غير مجمع عليه لا زمن الصحابة والسلف ولا في الأزمان التي بعدهم بدليل وجود الخلاف بين فرق الأمة(٤٣٦) .

---

(٤٣٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ١١٦) وغيره وهو صحيح .

(٤٣٦) وفي مقدمة كتاب « الإبانة » للعبد الفقير ص (٤٠) بحث في الرد على الشيخ عبد القاهر البغدادي في دعواه الباطلة بأن الشافعي رحمه الله تعالى لا يرى الصلاة خلف المعتزلة ونقل كلام أئمة الشافعية في جواز الصلاة خلفهم مع بيان أن شيخ الشافعي هو المعتزلي إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى وهو معتزلي قدري رماه عامة المحدثين بالتجهم وسوء الاعتقاد والشافعي يقول بانه ثقة لا يُتَّهَم !!
ومما يجدر التنبيه عليه أيضاً هنا أن أئمة أهل السنة والجماعة جوزوا الصلاة خلف المعتزلة ، قال الخطيب الشربيني في « مغني المحتاج » (٤/ ١٣٥) : « قاله البيهقي وغيره من المحققين لإجماع السلف والخلف على الصلاة خلف المعتزلة ومناكحتهم وموارثتهم » . والذين لا يعتد بهم في الاتفاق والاختلاف من الفرق هم الكرامية المجسمة الذين أكفرهم سائر فرق الإسلام .
وقد عاب أهل السنة على الزيدية أنهم جعلوا إجماع العترة إجماعاً معتبراً ومعتداً به ، وعللوا إبطالهم هذا الأمر بأن هذا إجماع طائفة من الأمة ، ولم يعيبوا على أنفسهم أنهم جعلوا إجماعهم دون سائر فرق الإسلام حجة لا يجوز مخالفتها ولا العدول عنها فانظروا إلى هذا التخابط وإلى هذا العدول عن قوله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تجتمع أمتي على ضلالة » !! مع أن ما قاله الزيدية أقرب للحق مما قاله

ويكفي أن الحافظ البيهقي لم يذكر الصراط في كتاب « الاعتقاد والهداية » ولم يبين أنه هو جسر جهنم مع أنه ذكر العرض والحساب والميزان !! وكذلك ابن حزم لم ينقل في كتاب « مراتب الإجماع » أن أهل الحق اتفقوا على الجسر بل قال هناك ص (١٧٥) : « واتَّفَقوا أن البعث حق ، وأن الناس كلهم يبعثون في وقت تنقطع فيه سكناهم في الدنيا يحاسبون عما عملوا من خير وشر ، وأن الله تعالى يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء . **واختلفوا في تفسير هذه الجملة بعد اتفاقهم على هذا اللفظ** » انتهى .

ومما يدل على اضطراب العلماء في هذه القضية وعدم بَتِّهِم فيها بمثل هذا الوضوح الذي بيناه هنا آنفاً ؛ أنهم اختلفوا هل يمر جميع الناس على الصراط أم لا وهل هناك جسر واحد للناس كافة أم أن هناك جسرين اثنين جسر للمؤمنين وجسر للكافرين ؟! وإليكم نموذجاً ومثالاً من اختلافهم في ذلك منقولاً من كلام الإمام الحافظ السيوطي نختم به هذا البحث ليخرج الإنسان بنتيجة واضحة بعد التأمل فيما كتبناه ليتيقن صحته أولاً وما وقع من الخطأ في هذه المسألة ثانياً ؛ فلو كانت عقيدة مجمعاً عليها لما وقع فيها هذا التخالف !! فنقول قال الإمام السيوطي كما في « الحاوي للفتاوي » (٢/١٩٦) في جواب سؤال ما نصه :

[**أحوال البعث : مسألة** : هل يمر إبليس وكفار الإنس والجن على الصراط ؟
الجواب : صرح ابن بَرَّجان[٤٣٧] في الإرشاد بأن الكفار لا يمرون على

اصحابنا مجرداً بلا دليل ، لأن الزيدية احتجوا بدليل واضح وهو أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأمة جمعاء بالتمسك بالحبلين كتاب الله تعالى وعترته صلى الله عليه وآله وسلم وهو في « صحيح مسلم » (٤/ ١٨٧٣ برقم ٢٤٠٨) وغيره .

وانظر ما قلناه وقررناه في مبحث الإجماع ص (١٨٣) في هذا الكتاب .

(٤٣٧) هو كما في « سير أعلام النبلاء » (٢٠/ ٧٢) : « الشيخ الإمام العارف القدوة أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن اللَّخْمي المغربي الأفريقي ثم الأندلسي الإشبيلي شيخ الصوفية ، .... قال أبو عبد الله ابن الأبَّار : كان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث ، والتحقيق بعلم الكلام والتصوف ، مع الزهد والاجتهاد في العبادة ، وله تصانيف مفيدة .... توفي مُغَرَّباً عن وطنه بمرَّاكُش سنة ٥٣٦ » .

أقول : وهناك ترجمة لرجل آخر بنفس الاسم والكنية في السير (٢٢/ ٣٣٤) توفي سنة (٦٢٧) .

الصراط ، وفي الأحاديث ما يشهد له وفي أحاديث أُخَر ما يقتضي خلاف ذلك وأنهم يمرون فحمل ذلك على المنافقين لكون بعض الروايات فيها ما يدل على ذلك ، **ثم رأيت القرطبي صرَّح بأن في الآخرة صراطين ،** صراط لعموم الخلق إلا مَنْ يدخل الجنة بغير حساب ومن يلتقطهم عنق النار ، وصراط للمؤمنين خاصة ، وهذا جمع حسن وعُرِفَ منه أن من يلتقطهم عنق النار وهم طوائف مخصوصة من الكفار لا يمرون على الصراط أصلاً ، وكذلك بعث النار الذي يخرج من الخلق إليها ، قبل نصب الصراط ، دلَّت الأحاديث على أنهم لا يمرون على الصراط أصلاً وهم طوائف من الكفار والظاهر أنه لا يمر على الصراط من الكفار إلا المنافقون وأهل الكتابين اليهود والنصارى فإن هؤلاء الفرق الثلاث ورد في الحديث أنهم يُحْمَلون عليه فيسقطون منه في النار ، وكذلك من يُنْصَب له الميزان من الكفار وهم طائفة مخصوصة منهم يمرون عليه فيحضرون وزنهم فإن الميزان إنما هو على الصراط - هذا ملخص القول في ذلك - وبسطه في كتابنا المسمى - بالبدور السافرة في أمور الآخرة - والله أعلم] انتهى .

وبمقارنة هذا الكلام مع التحقيق الذي ذكرناه هنا يلاحظ اضطرابهم الشديد في مسألة الصراط !!

فهذا ما وقفنا عليه في مسألة تفسير الصراط بالجسر وأحببنا أن نعرضه بأسلوب علمي محقق ومنقح والله تعالى هو الهادي إلى سواء السبيل ، إنه نعم المولى ونعم الوكيل .

الإيمــــان بالحــــوض

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(والحوض الذي أكرمه الله تعالى به غياثاً لأمته حق) .

الشرح :

الحوض الذي أعطاه الله تعالى لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الكوثر الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر * فصلِّ لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر** ﴾ . قال القرطبي في تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » (٢٠/٢١٤) :

[العرب تسمي كل شيء كثير في العدد والقَدْرِ والخطر كوثراً .... ، واختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أُعْطِيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ستة عشر قولاً(٤٣٨) :

الأول : أنه نهر في الجنة ، رواه البخاري عن أنس والترمذي أيضاً ؛ وقد ذكرناه في كتاب « التذكرة » ، وروى الترمذي أيضاً عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الكوثر نهر في الجنة ، حافتاه من ذهب ، ومجراه على الدر والياقوت ، تُرْبَته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج »(٤٣٩) هذا حديث حسن صحيح .

الثاني : أنه حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الموقف قاله عطاء . وفي صحيح مسلم عن أنس قال : « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(٤٣٨) وذكر الحافظ أبو حيان في « البحر المحيط » (١٠/٥٥٦) أن في ذلك ستة وعشرين قولاً . وكذا نقل الاختلاف بين السلف في هذا الحافظ ابن جرير الطبري في تفسيره (١٥/ ٣٠/ ٣٢٠) فيكون هذا مما اختلف فيه السلف في العقائد أيضاً . وأما باقي الأقوال التي ذكروها في تفسير نهر الكوثر فهي مثل قولهم : هو النبوة والكتاب ، أو القرآن أو الإسلام ، أو تيسير القرآن وتخفيف الشرائع ، أو كثرة الأصحاب والأمة والأشياع ، أو الإيثار ، أو رفعة الذكر .... إلى آخر ما ذكره الإمام القرطبي هناك . ولا شك أن ذلك كله قد أعطاه الله تعالى له أيضاً صلى الله عليه وآله وسلم .

(٤٣٩) هو في سنن الترمذي (٥/ ٤٥٠) .

وسلم إذ أُغْفِيَ إغفاءه ؛ ثم رفع رأسه مُتَبسِّماً فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : أُنْزِلَتْ عليَّ آنفاً سورة فقرأ : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم * إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر** ﴾ ثم قال : « أتدرون ما الكوثر » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « **فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل ، عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم** ، فيختلج العبد منهم فأقول إنه من أمتي ، فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعدك »(٤٤٠) . والأخبار في حوضه في الموقف كثيرة] انتهى كلام القرطبي .

ومنه يتبين أن الكوثر هو الحوض نفسه وإلا فقد أعطى الله تعالى نبيه ولا ريب أنهاراً لا عدد لها في الجنة وإنما خص ذكر الكوثر لأنه يكون في أرض المحشر أو يصب في أرض المحشر كما هو واضح وظاهر .

وقد ذكر البخاري في صحيحه (١١/٤٦٣) في باب الحوض قوله تعالى ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ بياناً منه إلى أن الكوثر هو الحوض عنده أيضاً(٤٤١) .

أقول : وبذلك نستطيع أن نقول لقد ثبت الحوض في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة بالأحاديث الصحيحة المتضافرة التي لا معارض لها ؛ وقد صرَّح الحافظ ابن عبد البر بتواترها كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

والحوض هو عطية الله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وذلك في أرض المحشر قبل دخول الجنة ، فهو ليس في الجنة ويمكن أن يكون ممتداً منها أو ينقل إليها بعد ذلك ، فيشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة فلا يظمأوون بعد

---

(٤٤٠) هو في صحيح مسلم (١/٣٠٠) .

(٤٤١) وقد قال الحافظ في « الفتح » (١١/٤٦٦) في أوائل شرح « باب الحوض » : « وإيراد البخاري لأحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة وبعد نصب الصراط إشارة منه إلى أن الورود على الحوض يكون بعد نصب الصراط والمرور عليه » .

قلت : وهو كلام خطأ من الحافظ رحمه الله تعالى ولم يُرِدِ البخاري ذلك !! وقد أدرك الحافظ تهافت هذا الكلام فقال بعد ذلك : « وقد استشكل كون الحوض بعد الصراط » !!! ثم هو نظر للموضوع من جهة واحدة ، وعلى نمط ما تربَّى عليه وورثه من أشياخه ! وقد بينا أن الصراط بمعنى الجسر المنصوب على ظهر جهنم لا وجود له في الحقيقة إذ لا دليل عليه وهو فكرة معارضة للقرآن الكريم ، والسلام .

الشرب منه أبداً ويُذاد عنه الكافرون وبعض عصاة المؤمنين .

[فائدة] : وهناك مناسبة في سورة الكوثر بين هذا النهر وبين عترته وآل بيته صلى الله عليه وآله وسلم وهي أن الله تعالى قال في هذه السورة ﴿ **أن شانئك هو الأبتر** ﴾ وذلك أن بعض الكفار(٤٤٢) كان يقول : إن محمداً أبتر ليس له ولد ذَكَر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ أي مبغضك الذي يقول في حقك هذا الكلام هو الأبتر الذي لا يذكره أحد ، وقد ذكر الإمام الفخر الرازي في ذلك كلاماً جميلاً أحببت نقله هنا ؛ وهو قوله هناك في تفسيره (٣٢/ ١٢٤) أن من معاني الكوثر في قوله تعالى ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ :

[والقول الثالث : الكوثر أولاده ؛ قالوا : لأن هذه السورة إنما نزلت رداً على من عابه عليه السلام بعدم الأولاد ؛ فالمعنى أنه يعطيه نسلاً يَبْقُون على مَرِّ الزمان ؛ **فانظر كم قُتِلَ من أهل البيت ثم العالم ممتلىء منهم ، ولم يبق من بني أمية في الدنيا أحد يعبأ به**(٤٤٣) ، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم] انتهى .

وقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ،

---

(٤٤٢) قيل هو العاص بن وائل ، وقيل أبو جهل ؛ وقيل عقبة بن أبي مُعَيط . انظر تفسير « البحر المحيط » (١٠/ ٥٥٧) .

(٤٤٣) لأنهم قبحهم الله تعالى هم أعداؤه عليه الصلاة والسلام إلا من رحم ربك منهم وهم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، فقد روى الترمذي (٥/ ٤٤٤) وغيره بسند صحيح عن يوسف بن سعد قال : قام رجل إلى الحسن بن علي بعدما بايع معاوية ، فقال : سوَّدت وجوه المؤمنين ، أو يا مُسَوِّد وجوه المؤمنين ، فقال : لا تؤنبني رحمك الله ، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى بني أمية على منبره فساءه ذلك فنزلت ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ يا محمد ، يعني : نهراً في الجنة ، ونزلت ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ يملكها بنو أمية يا محمد . قال القاسم : فعددناه فإذا هي ألف يوم (الصحيح : شهر) لا يزيد يوم ولا ينقص .

قلت : رجاله رجال مسلم وهو صحيح ، قال الترمذي إن يوسف بن سعد : مجهول . والصواب ليس كذلك بل هو ثقة ، وثقه يحيى بن معين « تهذيب الكمال » (٣٢/ ٤٢٦) والحافظ في « التقريب » ، والذهبي في « الكاشف » ؛ فافهم !!

وكيزانه كعدد نجوم السماء ، من شرب منه فلا يظمأ أبداً » رواه البخاري (١١/٤٦٣) ومسلم (٤/١٧٩٣) .

وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن شراب الحوض فقال :

« أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل يَغُتُّ (أي يدفق ويصب فيه الماء دفقاً شديداً) فيه ميزابان يمدَّانِهِ من الجنة ، أحدهما من ذَهَب ، والآخر من وَرِق (أي فضة) » رواه مسلم (٤/١٧٩٩) .

وقد رويَ في حديث ضعيف عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : من أحب أن يسمع خرير الكوثر فليجعل إصبعيه في أذنيه . قال ابن كثير في « التفسير » (٤/٥٩٦) « معنى ذلك أنه يسمع نظير ذلك لا أنه يسمعه نفسه والله أعلم » .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

« إني فَرَطُكم على الحوض « أي سابقكم) مَنْ مَرَّ عليَّ شَرِبَ . ومَنْ شَرِبَ لم يظمأ أبداً . ليردنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثم يحال بيني وبينهم » رواه البخاري (١١/ ٤٦٤) ومسلم (٤/ ١٧٩٣) .

وعن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« يَرِدُ عليَّ يوم القيامة رَهْطٌ من أصحابي فيُجْلَون عن الحوض . فأقول : يا رب أصحابي ، فيقول : إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك ، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى » رواه البخاري (١١/ ٤٦٤) ومسلم (١/ ٢١٧) .

وفي رواية أبي سعيد في البخاري (١١/ ٤٦٤) فيقول لهم : « سُحْقاً سحقاً لمن غَيَّرَ بعدي » .

وفي رواية عند مسلم (٤/ ١٧٩٣) : « أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم » ففي قوله « يعرفوني » دلالة واضحة على أنهم من أصحابه ، ويؤكِّد ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم في رواية أخرى عند مسلم (١/ ٢١٧) أيضاً « ولَيُصَدَّنَّ عني طائفة منكم فلا يَصِلُون . فأقول : يا رب هؤلاء من أصحابي .

فيجيبني مَلَك فيقول : وهل تدري ما أحدثوا بعدك ؟» .

ويؤكّد هذا أيضاً ما جاء في رواية أخرى في البخاري ومسلم (١٨٠٠/٤) :

« ليردنَّ عليَّ الحوض رجالٌ ممن صاحبني » .

وقد أثبت هذا الحديث بلفظ « أصحابي » عبد الله بن مسعود عند مسلم (برقم ٢٢٩٧) وسيدنا أنس عند مسلم برقم (٢٣٠٤) ، ورواه سعيد بن المسيب عن جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما في البخاري (٤٦٥/١١) .

وهذا هو مصداق الحديث الآخر الذي رواه مسلم في صحيحه (٢١٤٣/٤) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال :

« في أصحابي اثنا عشر منافقاً فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يَلِجَ الجمل في سَمِّ الخياط ...» الحديث(٤٤٤) .

وهذا محمول عند جماعة من الأئمة وأكابرَ من محققي العلماء على أن هؤلاء هم رؤوس القوم الذين قاتلوا سيدنا علياً ونازعوه الخلافة والأمر ، ما عدا السيدة عائشة والزبير وطلحة رضي الله عنهم لأنهم تابوا وأقلعوا واستغفروا فرجعوا الصراط المستقيم ، وقد عين هؤلاء المقصودين بالخروج على سيدنا علي عليه السلام والرضوان الحديث الآخر الصحيح المتواتر المُخَرَّج في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال :

« عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الله ، ويدعونه إلى النار » انظر البخاري (٣٠/٦) .

وفي لفظ عند البخاري (٥٤١/١) أيضاً « يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » وسيدنا عمار رضوان الله تعالى عليه قُتِلَ في صِفِّين وهو يقاتل معاويه مع سيدنا علي رضي الله عنه وأرضاه .

---

(٤٤٤) فإنْ قال قوم هذا الحديث محمول على ابن أبي سلول وجماعته المنافقين . قلنا : ليس كذلك ، إذ لو كان الحديث محمولاً عليهم لما قال في حديث الحوض « إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » . لأن ابن أبي سلول لم يعش بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل مات في حياة النبي عليه الصلاة والسلام . فبطل بذلك قولهم .

قال الحافظ ابن عبد البر في « التمهيد » (٢/ ٢٩١) :

« الأحاديث في حوضه صلى الله عليه وآله وسلم متواترة صحيحة ثابتة كثيرة ، والإيمان بالحوض عند جماعة علماء المسلمين واجب ، والإقرار به عند الجماعة لازم » .

فتبين من هذا وجوب الإيمان بالحوض لتواتر الأحاديث فيه ، وعدم المعارض لها في الكتاب والسنة . وقد استشكل بعض الناس في حديث الحوض أمرين :

(الأول) : قوله أن الحديث ينص على أن هذا الحوض مَنْ شرب منه لا يظمأ أبداً ، وهذا يناقض أن أهل الجنة يأكلون ويشربون فيها كما جاء في الكتاب والسنة ، فَشُرْبُ الناس في الجنة كيف يكون مع أنهم ارتووا من الحوض ولن يظمأوا بعد ذلك ؟!

قلنا : هذا مردود ؛ والجواب عليه : أن الظمأ في لغة العرب هو أشد العطش ، والمؤمنون متى دخلوا الجنة لن يصيبهم ظمأ كما كان يصيبهم في الدنيا أحياناً عند انقطاع الماء عنهم ، فشربهم في الجنة على وجه التلذذ والتمتع لا على وجه شدة العطش ، وذلك لأنهم متى أصابهم العطش قبل اشتداده عليهم شربوا الماء وغيره مما أعدَّه لهم من الشراب الطيب في الجنة ، فالخدم بين أيديهم متى أرادوا الشرب جاءهم الولدان المخلدون بما يشتهون ، قال تعالى ﴿ **يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين** ﴾ الواقعة : ١٨ وقال تعالى : ﴿ **ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رايتهم حسبتهم لؤلواً منثوراً** ﴾ إلى قوله ﴿**وسقاهم ربهم شراباً طهوراً** ﴾ الإنسان : ٢١ ، وقال تعالى ﴿ **يطاف عليهم بكأس من معين * بيضاء لذة للشاربين** ﴾ الصافات : ٤٦ .

(الإشكال الثاني) : قال بعضهم كيف يكون الحوض بعد الصراط عند مَنْ يُثْبِتُ وجود صراطٍ بمعنى الجسر المنصوب على ظهر جهنم والذي يمر عليه الناس ، ثم ينجو من الوقوع في النار جماعة من المرتدين والمنافقين الذين يذادون عن الحوض ويمنعون من الشرب منه ، فلا يقعون في النار ويجوزون الصراط ولا تأخذهم الكلاليب التي عليه ؟!

قلنا : أولاً : الجسر المنصوب غير ثابت بل غير موجود على التحقيق كما بيناه . **وثانياً** : ينبغي أن يقال الصواب عند مَنْ أثبت الجسر أن الحوض قبل الصراط لا بعده ولا يشرب منه إلا الذين سبقت لهم الحسنى ؛ ويذاد عنه مَنْ ذُكِروا في الأحاديث التي قدَّمناها ، فالحوض قبل الصراط لا بعده ، وعلى القول الصحيح المختار نقول :

إن الحوض في أرض المحشر فيشرب منه المؤمنون عند الحساب وعند رؤيتهم لصحفهم فيأتي أشخاص غَيَّروا وبدَّلوا ، أو خانوا وتلاعبوا ، أوعصوا وفسقوا ، أو بغوا وظلموا ، ليشربوا منه فيذادون ولا يذاد عن الحوض إلا شقي ، فيقول لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم سحقاً سحقاً ، فتسوق الملائكة المؤمنين إلى الجنة زُمَراً زُمَراً دون مرور على جسر فوق جهنم أعاذنا الله تعالى منها ، لقوله تعالى في حق المؤمنين ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون * لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون** ﴾ الأنبياء : ١٠٣ .

اللهم اسقنا من حوض نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم شربة هنيئة مريئة لا نظما بعدها أبداً يا رب العالمين .

[فائدة] : وأما ما جاء من أن لباقي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أحواضاً يوم القيامة فلم يثبت في القرآن الكريم كما أنه لم يثبت في حديث صحيح الإسناد(٤٤٥) .

وينبغي أن نلفت نظر طالب الحق هنا إلى أننا إذا قلنا أن الكوثر هو الحوض وأخذنا برواية صحيح مسلم المثبتة لذلك ورجحناها تبين لنا أن الله تعالى ذكر

---

(٤٤٥) ومنه يتبين لنا خطأ متناقض عصرنا !! الذي صحح حديث أحواض الأنبياء في « صحيحته » (٤/ ١١٧) مع اعترافه هناك بأنه ليس فيها ما يصح إسناده !! ومع ذلك صححها بتعدد طرقها !! أضف إلى هذا جهله بمعارضة ذلك لمزيته صلى الله عليه وآله وسلم على سائر الأنبياء والمرسلين بذكر كوثره في القرآن الكريم دون غيره !! فكلامه هناك مما لا يجوز الالتفات إليه ولا التعويل عليه لبطلانه وفساده وضعف الأسانيد فيه !!

خصيصة ومزية لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد أُعْطِيَتْ له يوم القيامة وهي الحوض وهذا يستلزم ويفيد بأن غيره من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والتسليم لم يعطوا مثلها ولذلك خص هو بذكرها ، ومعنى ذلك أنه لا حوض يوم القيامة إلا حوضه وأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يشربون منه أيضاً ويستأنس لذلك بعموم قوله صلى الله عليه وآله وسلم « آدم فَمَنْ دونه تحت لوائي يوم القيامة » .

الإيمان بالشفاعة

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(والشفاعة التي ادَّخرها لهم حق كما رُوِيَ في الأخبار ، ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يَعْفُوَ عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ولا نأمن عليهم ، ولا نشهد لهم بالجنة ، ونستغفر لمسيئهم ونخاف عليهم ، ولا نُقَنِّطُهُم) .

الشرح :

لقد ثبتت الشفاعة منطوقاً ومفهوماً في القرآن الكريم وخاصة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن تلك الآيات قوله تعالى ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ الضحى : ٣ ، وقال تعالى : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ الإسراء : ٧٩ ، وتفسير المقام المحمود بالشفاعة ثابت في الصحيحين وغيرهما(٤٤٦) .

وقال الله تعالى : ﴿ **يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً** ﴾ طه : ١٠٩ .

وقال تعالى : ﴿ **ما من شفيع إلا من بعد إذنه** ﴾ يونس : ٣ .

وفي شفاعة الملائكة قوله تعالى ﴿ **بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول * وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون** ﴾ الأنبياء : ٢٨ .

قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١١/٤٢٦) :

« وجاءت الأحاديث في إثبات الشفاعة المحمدية متواترة ، ودل عليها قوله

---

(٤٤٦) انظر البخاري (٣/ ٣٣٨ و ٨/ ٣٩٩ و ١٣/ ٤٢٢) ومسلم (١/ ١٧٩) .

ومن الغريب العجيب أن يُعْرِضَ المجسمة والمشبهة عن هذا الوارد الثابت في الصحيحين ويفسروا المقام المحمود بجلوس سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على العرش بجنب الله تعالى !! تعالى الله عن إفكهم وكذبهم علواً كبيراً ! وهم يعتمدون على ذلك على ما يروى عن مجاهد من أنه قال ما ذكرناه من التفسير المنكر المستشنع ، وتكفَّل الخلال في كتابه السنة (١/ ٢٠٩) بنصرة التفسير المخطىء المستبشع وقد نطق بما هو مستشنع عند جميع العقلاء .

تعالى ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً** ﴾ » .

وعن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« لكل نبي دعوة مستجابة ، فَتَعَجَّلَ كل نبي دعوته . وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله تعالى مَنْ مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً » رواه الإمام مالك في الموطأ (١/ ٢١٣) والبخاري (١١/ ٩٦) ومسلم (١/ ١٨٩) .

والشفاعة تكون للمسلمين فقط ، فلا يُشْفَع في كافر لقوله تعالى ﴿ **فما تنفعهم شفاعة الشافعين** ﴾ المدثر : ٤٨ ، كما لا يُشفَع في صاحب كبيرة لقوله تعالى ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً ﴾ النساء : ٣١ .

فيشفع الأنبياء والملائكة وكذلك العلماء العاملون والشهداء ، فعن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« شَفَعَت الملائكة ، وشفعت النبيون ، وشفع المؤمنون » رواه البخاري (١٣/ ٤٢١) ومسلم (١/ ١٧٠) ، وعن سيدنا أنس بن مالك مرفوعاً « إن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة » رواه البَزَّار (٤/ ١٧٣) قال الحافظ الهيثمي في « المجمع » (١٠/ ٣٨٢) : « رواه البزار ورجاله رجال الصحيح » .

وأما أحاديث الشفاعة الطويلة في الصحيحين فلم أذكرها هنا لأن فيها ألفاظاً وأموراً منكرة وقد تَسَرَّبَتْ إليها أفكار إسرائيلية سأبينها في كتاب آخر مفصلة إن شاء الله تعالى .

[**تنبيه مهم جداً**] : يتخيل بعض الناس أن رب العالمين على صورة إنسان جالس على العرش يوم القيامة ، وأنه يحاسب العباد واحداً واحداً بمعنى أنهم يمرُّون من أمامه واحداً واحداً فيرونه وهو جالس على كرسيه ، أو نحو هذا التصور الفاسد ، وهذا ضلال مبين وكفر وإلحاد برب العالمين الذي ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السمع البصير** ﴾ فيجب على كل مسلم أن يزيل هذا التصور الفاسد من قلبه وعقله ومخيلته ، لأن الله سبحانه لا يدخل في التصور والخيال إطلاقاً بوجه

من الوجوه ولأنه أخبر بأنه ﴿ **لم يكن له كفواً أحد** ﴾ بل إن الناس لا يرون الله تعالى في أرض المحشر لأن النظر إلى الله تعالى من أكبر النعم والعطايا ، ولا يعطى هذه النعمة إلا أهل الجنة في الجنة على قول مَنْ يثبت الرؤية لله تعالى في الآخرة ، وفيها خلاف بين الأمة يأتي في محله إن شاء الله تعالى ، والمعتقد الحق عندنا عدم الرؤية في الدنيا والآخرة .

فمحاسبة الله تعالى لعباده معناها إيجادهم في ذلك اليوم للحساب حيث تعطي الملائكة الصحف للناس وتذود بعض الناس عن الحوض ، وتسوق المؤمنين إلى الجنة والكافرين إلى النار ،

وأما الكفار والمجرمون الطغاة فلا يُكَلِّمهم الله تعالى ولا ينظر إليهم أي لا يرحمهم ، لقوله تعالى ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فيما أصبرهم على النار** ﴾ البقرة : ١٧٥ ، وقال تعالى : ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم** ﴾ آل عمران : ٧٧ .

وقد ذكرنا أن معنى يكلِّمهم أي يرحمهم لا أنه يشافههم وينطق إليهم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ! وقد تقدم النقل عن القرطبي أنه قال في تفسيره (٢/ ٢٣٥) عند قوله تعالى ﴿ ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ... ﴾ ما نصه :

ـ هذا ـ [عبارة عن الغضب عليهم وإزالة الرضا عنهم ، يقال فلان لا يكلم فلاناً إذا غضب عليه ، وقال الطبري : المعنى : ولا يكلمهم بما يحبونه ، وفي التنزيل : ﴿ اخسئوا فيها ولا تُكَلِّمُون ﴾ ، وقيل : المعنى ولا يرسل اليهم الملائكة بالتحية] .

ثم ألا ترى إلى سيدنا موسى عليه السلام كليم الله تعالى لم يكن بجنب الله ولم يكن الله جسماً حالاً في ذلك المكان الذي كان يواعد فيه سيدنا موسى وهو جانب الطور الغربي ؛ فاعتبر بذلك ولا تنسه ، والله الموفق .

[فائدة أخرى مهمة جداً] : تفسير قوله تعالى ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس ما عَمِلَت وهو أعلم بما يفعلون** ﴾ الزمر : ٦٩.

المقصود تفسيره هنا هو قوله تعالى ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها** ﴾ والصواب في تفسيره هو أن الله تعالى يخلق نوراً يوم القيامة غير نور الشمس لأنها تكون يومئذ قد ذهبت وأضافه إلى نفسه ليؤكّد لنا بأنه هو المتصرف في الدنيا والآخرة ، وهذه الإضافة تشريف كما قال الله تعالى ﴿ **أن طهرا بيتيَ** ﴾ فأضاف البيت له ، وقال ﴿ **ناقة الله** ﴾ وهكذا ، وقد شرح هذه الآية الإمام الفخر الرازي والإمام القرطبي بما ينشرح له قلب المؤمن الموحد وإليك ما قالا فيه فإن فيه كفاية :

قال الإمام الفخر الرازي في « تفسيره » (١٤/ ٢٠) : [ولما بين الله تعالى هاتين النفختين قال ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها** ﴾ وفيه مسائل : **(المسألة الأولى)** : هذه الأرض المذكورة ليست هي هذه الأرض التي نقعد عليها الآن بدليل قوله تعالى ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض** ﴾ وبدليل قوله تعالى ﴿ **وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة** ﴾ بل هي أرض أخرى يخلقها الله تعالى لمحفل يوم القيامة .

(المسألة الثانية) : قالت المجسمة : إن الله تعالى نور محض ، فإذا حضر الله في تلك الأرض لأجل القضاء بين عباده أشرقت تلك الأرض بنور الله ، وأكّدوا هذا بقوله تعالى ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾[٤٤٧] .

---

[٤٤٧] ومن الكفر الشنيع الفظيع قول ابن القيم كما في « مختصر الصواعق المرسلة » (٢/ ٢٤٨) أن الله تعالى ينزل إلى الأرض يوم القيامة وأن هذا مما تواترت به الأحاديث والآثار ودل عليه القرآن صريحاً !! فنعوذ بالله تعالى من هذا الضلال الصراح والكفر البواح !! سبحان ربك رب العزة عما يصفون !!

وأيضاً ذكر ابن قيم الجوزية أن الله تعالى يطوف في الأرض في موضع آخر مما يؤكد قوله السابق وأنه مجسم مشبه وذلك في كتابه « زاد المعاد » (٣/ ٦٤) في وفد بني المنتفق حيث ذكر حديثاً فيه ذكر قيام الساعة وفيه : « ثمَّ تبعث الصائحة فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها شيئاً إلا مات .... **فأصبح ربك يطوف في الأرض وخلت عليه البلاد** .... » !! ثمَّ يقول عقبه (٣/ ٦٦) : « هذا حديث كبير جليل تنادي جلالته وفخامته وعظمته على أنه خرج من مشكاة النبوَّة .... » !! فتأملوا التشبيه والتجسيم في أعرض صوره !

واعلم أن الجواب عن هذه الشبهة من وجوه (الأول) أنا بينّا في تفسير قوله تعالى ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ أنه لا يجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى نوراً بمعنى كونه من جنس هذه الأنوار المشاهدة ، وبينّا أنه لما تعذّر حمل الكلام على الحقيقة وجب حمل لفظ النور ههنا على العدل ، فنحتاج ههنا إلى بيان أن لفظ النور قد يستعمل في هذا المعنى ، ثم إلى بيان أن المراد من لفظ النور ههنا ليس إلا هذا المعنى ، أما بيان الاستعمال فهو أن الناس يقولون للمَلِكِ العادل : أشرقت الآفاق بعدلك ، وأضاءت الدنيا بقسطك ، كما يقولون أظلمت البلاد بجورك ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم « الظلم ظلمات يوم القيامة »[٤٤٨] وأما بيان أن المراد من النور ههنا العدل فقط أنه قال ﴿ **وجيء بالنبيين والشهداء** ﴾ ومعلوم أن المجيء بالشهداء ليس إلا لإظهار العدل ، وأيضاً قال في آخر الآية ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ فدل هذا على أن المراد من ذلك النور إزالة ذلك الظلم ، فكأنه تعالى فتح هذه الآية بإثبات العدل وختمها بنفي الظلم **(والوجه الثاني)** : في الجواب عن الشبهة المذكورة أن قوله تعالى ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها** ﴾ يدل على أنه يحصل هناك نور مضاف إلى الله تعالى ، ولا يلزم كون ذلك صفة ذات الله تعالى لأنه يكفي في صدق الإضافة أدنى سبب ، فلما كان ذلك النور من خلق الله وشرَّفه بأن أضافه إلى نفسه كان ذلك النور نور الله ، كقوله : بيت الله ، وناقة الله وهذا الجواب أقوى من الأول ، لأن في هذا الجواب لا يحتاج إلى ترك الحقيقة والذهاب إلى المجاز] انتهى .

قلت : معنى قوله تعالى ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ أي مُنَوِّرهما أو هادي أهلهما لنور الإيمان ، وهذا تفسير ابن عباس لهما وهو الصحيح وغيره باطل .

وقال الإمام الحافظ القرطبي في « تفسيره » (١٥/ ٢٨٢) :

[قوله تعالى ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها** ﴾ إشراقها إضاءتها ، يقال :

---

[٤٤٨] رواه البخاري (٥/ ١٠٠) ، ومسلم (٤/ ١١٩٦) .

أشرقت الشمس إذا أضاءت وشرقت إذا طلعت ، ومعنى (بنور ربها) بعدل ربها ، قاله الحسن وغيره . وقال الضحاك : بحكم ربها ، والمعنى واحد أي أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده . والظلم ظلمات والعدل نور . وقيل : إن الله يخلق نوراً يوم القيامة يُلْبِسُهُ وَجْهَ الأرض فتشرق الأرض به . وقال ابن عباس : **النور المذكور ههنا ليس من نور الشمس والقمر** ، بل هو نور يخلقه الله فيضيء به الأرض . وروي أن الأرض يومئذ من فضة تشرق بنور الله تعالى حين يأتي لفصل القضاء . والمعنى أنها أشرقت بنور **خلقه الله** تعالى ، فأضاف النور إليه على حد إضافة المِلْك إلى المالك . وقيل : إنه اليوم الذي يقضي فيه بين خلقه ؛ لأنه نهار لا ليل معه . وقرأ ابن عباس وعبيد بن عمير : « وأُشْرِقَتْ الأرض » على ما لم يسم فاعله وهي قراءة على التفسير وقد ضل قوم ها هنا فتوهموا أن الله عز وجل من جنس النور والضياء المحسوس ، وهو متعال عن مشابهة المحسوسات ، بل هو منوِّر السموات والأرض ، فمنه كل نور خلقاً وإنشاء » انتهى .

قلت : فيتضح الآن أن الحديث الذي فيه أن الشمس تدنو من رؤوس الخلائق يوم القيامة وإن كان في الصحيح فهو شاذ مردود ، لأن الله تعالى أخبر بأن الشمس تكوَّر في قوله تعالى ﴿ **إذا الشمس كوِّرت** ﴾ أي انطفأت وذهب نورها وانتهى عملها من حين قيام الساعة ثم لا تعود لأنه لم يخبر سبحانه بعودتها لتشرق الأرض بها ؛ بل أخبر بأن الأرض تشرق بنور يخلقه الله يومئذ ، ولو كانت الشمس ستعود لأخبر سبحانه بذلك لا سيما والشمس قد ذُكِرَت في مواضع كثيرة في القرآن الكريم . فحديث دنو الشمس من رؤوس العباد معارض للقرآن لا يؤخذ به ، ثم إن دنوها من رؤوس العباد مستحيل وهو نوع من العذاب وقد أخبر الله تعالى أن المؤمنين مبعدون عن النار والعذاب ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر** ﴾ فالصحيح أنه لا وجود للشمس يوم القيامة والظاهر أن الفكرة إسرائيلية ، والله الموفق وهو أعلم .

فلوا قال قائل : بل الشمس تكون موجودة يوم القيامة ، وقد وردت أحاديث تنص على أن هناك سبعة أقسام من الناس - المؤمنين - في ظل عرش الرحمن وهذا يثبت وجود الشمس .

قلنا : بل هذا قول باطل من وجوه عديدة منها : أن في هذا إثبات أن الشمس أكبر من العرش وهذا مستحيل وتكون يومئذ فوقه ، فيكون هو أصغر من الأرض التي يُحْشَرُ الناس عليها حتى أن ظِلَّهُ يكون قد سَتَرَ جزءاً من الأرض دون جُزْء آخر أكبر !!

وهذا كله يخالف كون العرش مخلوقاً عظيماً أكبر من السموات والأرض ـ عند من يقول بأن العرش جسم خلافاً لمن يقول بأنه كناية عن المُلك ـ وقد وَصَفَهُ الله تعالى بقوله ﴿ **رب العرش العظيم** ﴾ .

فيكون معنى « سبعة يظلهم الله تعالى تحت ظل عرشه » وفي رواية « يظلهم الله في ظله » دون ذكر العرش ، أي : يكونون في كنف الرَّحمن سبحانه وفي حمايته فلا يصيبهم خوف ولا فزع ولا نحو ذلك ؛ وهذا مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم « جُعِلَ رزقي تحت ظل رُمْحِي(٤٤٩) » ومثل قوله « كل امرئ في ظل صدقته .. »(٤٥٠) ومثل قوله « السلطان ظل الله في الأرض »(٤٥١) ، إلى غير ذلك ؛ والله الموفق .

---

(٤٤٩) ذكره البخاري في صحيحه (٦/ ٩٨) معلقاً بلا سند .

(٤٥٠) رواه أحمد (٤/ ١٤٧) والحاكم (١/ ٤١٦) وصححه .

(٤٥١) رواه ابن ابي عاصم في « سنته » (٢/ ٤٧٨) .

الإيمان بالجنة والنار

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(والجنة والنار مخلوقتان ، لا تفنيان أبداً ولا تبيدان ، وإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق وخلق لهما أهلاً ، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه) .

الشرح :

يجب على كل مسلمٍ أن يؤمن بوجود الجنة والنار وأنهما داران أعدَّهما الله تعالى لعباده ، فالجنة مثوى المؤمنين ، والنار مستقر الكافرين ، وأن الناس بعد أخذ الصحف يوم القيامة والحساب يُذْهَبُ بفريق منهم إلى الجنة وهم المؤمنون ، وفريق إلى النار وهم الكفار وأصحاب الكبائر العصاة ، قال تعالى ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ، قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ، وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ الزمر : ٧٤ .

وقد وردت آيات في القرآن الكريم في وصف الجنة والنار وأحوال أهلهما وطعامهم وشرابهم بما لا يخفى على كل مسلم ومؤمن .

ومما يجب اعتقاده في الجنة والنار أنهما دائمتان لا تفنيان أبداً وكذلك مَنْ فيهما ، ويكفر مَنْ اعتقد فناءهما أو واحدة منهما لقوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** ﴾ الجن : ٢٣ ، ولقوله تعالى : ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ البقرة : ١٦٧ ، ولقوله تعالى ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾ المائدة : ٣٧ .

وقال تعالى في أهل الجنة : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ النساء : ١٢٢ .

وللإمام الحافظ السبكي رسالة في هذا الموضوع رد فيها على ابن تيمية الحراني سماها « الاعتبار ببقاء الجنة والنار » مهمة جداً ، جعلنا الله تعالى من أهل الجنة الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

لكن قول المصنف هنا (**وخلق لهما أهلاً ، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه**) باطل مردود لأن في هذا تأييد للجبر وأن العباد مكرهون على دخول الجنة والنار وأن الله خلق قسماً منهم للجنة وقسماً منهم للنار وهذا باطل من القول ! وقد تقدَّم الكلام عليه مطوَّلاً فيما سبق !

ومن الأحاديث الموضوعة في ذلك التي صححها بعض الحفاظ الأقدمين ما رواه ابن حبان في صحيحه (٦١٦٩/٤٣/١٤) عن عبد الله بن الديلمي قال : دخلت على عبد الله بن عمرو(٤٥٢) فقلت : إنهم يزعمون أنك تقول الشقي مَنْ شقيَ في بطن أمه ! فقال : لا أحل لأحد يكذب عليَّ سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول :

« إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره(٤٥٣) فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأ ضل » فلذلك أقول : جف القلم عن علم الله جل وعلا .

هذا حديث موضوع ومن الإسرائيليات لأن الهدى والضلال عبارة عن حظ وبخت (ويانصيب) وليس بالعمل والاجتهاد وما يفعله الإنسان ! وابن عمرو بن

---

(٤٥٢) وقع سهواً في هذه الرواية عند ابن حبان عبد الله بن عمر في طبعة مؤسسة الرسالة تحقيق (!!) الشيخ شعيب الأرناؤوط ، والصواب عبد الله بن عمرو بن العاصي .

(٤٥٣) وفي رواية أخرى لابن حبان عقب هذه الرواية جاء بلفظ « ثم أخذ نوراً من نوره فألقاه عليهم ، فأصاب من شاء وأخطأ من شاء ، وقد عَلِم من يخطئه ممن يصيبه ، فمن أصابه من نوره شيء اهتدى ، ومن أخطأه فقد ضلَّ » .

العاص من أكبر رواه الإسرائيليات ! وهذا معلوم ومشهور عند الحفظ وفي كتب التراجم والرجال(٤٥٤) ! ثم ما هو نوره الذي ألقاه عليهم ؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !!

---

(٤٥٤) وقد أخطأ الألباني حيث صحح هذا الحديث الموضوع الإسرائيلي في صحيحته (٣/ ٦٤/ ١٠٧٦) ولم يتفطن إلى أن عبد الله بن عمرو بن العاص من رواة الإسرائيليات ومن الناقلين من كتب أهل الكتاب بالإضافة إلى عدم وعي بمناقضة معنى هذا الحديث للاختيار وتأييده لمذهب الجبر ! وتابعه على تصحيحه شعيب الأرناؤوط في التعليق على ابن حبان وغيره فأساء وهو الذي يزعم أنه الفطن المدرك لبطلان المتون المخالفة لقواعد المعقول والمنقول !! فالله تعالى المستعان .

فصل

القول في مرتكب الكبيرة

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحِّدون وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين مؤمنين ، وهم في مشيئته وحكمه ، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله(٤٥٥) ، كما ذكر عز وجل في كتابه : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ، وإن شاء عذَّبهم في النار بعدله ، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ثم يبعثهم إلى جنته ، وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته ، ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته الذين خابوا من هدايته ، ولم ينالوا من ولايته) .

الشرح :

أقول : لا نوافق المصنف على ما يقوله من (أن أصحاب الكبائر لا يخلدون في نار جهنم بل يخرجون منها) ! والكلام في هذه القضية يكون بالأمور التالية :

١ - أن فكرة خروج أحد من النار بعد أن يدخلها فكرة لم تأت في القرآن وهي فكرة يهودية جاءت في أحاديث ولم تأت في القرآن ! وتقول أئمة آل البيت القدماء والزيدية والمعتزلة والإباضية(٤٥٦) عن هذه الأحاديث إنها من جملة الإسرائيليات ؛ والقرآن جاء يقرر ويقعِّد أن الذي يدخل في النار لا يخرج منها في آيات كثيرة ؛ واستفدنا من القرآن أن هذه فكرة يهودية رد عليها القرآن الكريم وفندها في قوله تعالى ﴿ **وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً** قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن

---

(٤٥٥) نقل ابن حزم في كتاب « مراتب الإجماع » ص (١٧٥) أن المسلمين : « اتَّفقوا ....أن الله تعالى يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء . **واختلفوا في تفسير هذه الجملة بعد اتفاقهم على هذا اللفظ** » انتهى .

(٤٥٦) وقد فَصَّل مذهبهم وقولهم من علماء الإباضية فضيلة العلامة مفتي عمان الشيخ أحمد الخليلي في كتابه القيم الفذ « الحق الدامغ » فليرجع إليه مَنْ شاء الاطلاع والتوسع .

يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ، **بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ البقرة : ٨١ ، وقال تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ آل عمران : ٢٤ ، فهذه الآيات صريحة في الرد على من زعم أن المكث في النار إنما يكون لمدة معينة .

٢- **كون المعاصي من الكبائر** : والآية السابقة صريحة أيضاً في أن من كسب سيئة وخطيئة والمراد بذلك الكبائر فهو من المخلدين في النار !

ومما يؤكد هذا قوله تعالى ﴿ **وَمَنْ يَعْصِ**(٤٥٧) اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** ﴾ الجن : ٢٣ .

ومما يبين أن المراد بالمعاصي الكبائر : قوله تعالى ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ النساء : ٣١ وقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ الشورى : ٣٧ .

وقال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ، إِلا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ الفرقان : ٦٩ ، وزعم بعض الناس بأن سبب الخلود في النار في هذه الآية هو الشرك وهو من يدعو مع الله إلهاً آخر !!

والجواب : أن كلاً من الزنا ومن القتل موجب لوحده دخول النار ، بصريح قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ النساء : ٩٣ فبطل قولهم بأن سبب الخلود هو الشرك !

٣- والأحاديث المعارضة لأحاديث الخروج من النار كثيرة ! والتي فيها ذِكْرُ أشخاص لا يدخلون الجنة ؛ منها :

أ ـ ما رواه مسلم في الصحيح (٢١٢٨) عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله

---

(٤٥٧) ومن أول ههنا العصيان بالكفر فقد أبعد النجعة وتكلّف في التأويل !

عليه وآله وسلم : « صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البُخْتِ المائلة **لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها** وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » .

ب ـ روى البخاري (٦٠٥٦) ومسلم (١٠٥) عن سيدنا حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يدخل الجنة قتات » أي نمام .

جـ ـ روى مسلم (٩١) وغيره عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر » قال رَجُل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة قال : « إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن مرتكب الكبائر لا يخلد في النار بل يخرج منها ولو بعد طول مكث ، قال النووي رحمه الله تعالى في « شرح صحيح مسلم » (٢١٧/١) :

« واعلم أن مذهب أهل السنة وما عليه أهل الحق من السلف والخلف(٤٥٨) أن من مات موحداً دخل الجنة قطعاً على كل حال(٤٥٩) ، فإن كان سالماً من المعاصي كالصغير والمجنون والذي اتصل جنونه بالبلوغ والتائب توبة صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصي إذا لم يُحْدِث معصية بعد توبته ، والموفق الذي لم يُبْتَلَ بمعصية أصلاً فكل هذا الصِّنْف يدخلون الجنة ولا يدخلون النار أصلاً لكنهم يردونها(٤٦٠)

---

(٤٥٨) في هذا نظر لأن هذا الكلام ليس صحيحاً على إطلاقه ! فقد خالف في هذا أئمة أهل البيت والزيدية والمعتزلة والإباضية وغيرهم .

(٤٥٩) من مات موحداً ولكنه مرتكب لجميع الكبائر والموبقات غارقاً في الشهوات والملذات منحلاً عن ربقة التكليف نابذاً لأحكام الشريعة أي غير ملتزم لما فرض الله عليه فكيف يقطع على أنه ممن يدخل الجنة والله تعالى يقول ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ البقرة : ٨١ ويقول ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ الجن : ٢٣ .

(٤٦٠) بل الناجين الذين سيدخلون الجنة لا يردون النار ولا يقربون منها البتة ! قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ الأنبياء : ١٠١ ، والمراد بقوله تعالى ﴿ وإن منكم إلا

على الخلاف المعروف في الورود(٤٦١) ، والصحيح أن المراد به المرور على الصراط وهو منصوب على ظهر جهنم(٤٦٢) أعاذنا الله منها ومن سائر المكروه . وأما من كانت له معصية كبيرة ومات من غير توبة فهو في مشيئة الله تعالى فإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة وإن شاء عَذَّبَهُ القدر الذي يريده سبحانه وتعالى ثم يدخله الجنة فلا يخلد في النار أحد مات على التوحيد ولو عمل من المعاصي ما عمل(٤٦٣) كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر ولو عمل من أعمال البر ما عمل هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة ، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة **وإجماع مَنْ يُعْتَدُّ به من الأمة على هذه القاعدة**(٤٦٤) ، وتواترت بذلك نصوص تُحَصِّلُ العلم القطعي فإذا تقررت هذه القاعدة حمل عليها جميع ما ورد من أحاديث الباب وغيره فإذا ورد حديث في ظاهره مخالفة وجب تأويله عليها ليجمع بين نصوص الشرع » انتهى كلام النووي .

واردها ﴾ الكفار والطغاة والمجرمون ، والدليل عليه قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ الأنبياء : ٩٨ .

(٤٦١) أثبت أن فيه خلافاً وهذا أمر جيد يفيد أن أهل السنة غير مجمعين على أن معنى الورود هو المرور على الصراط .

(٤٦٢) **قلت** : تقدَّم في الكلام على الصراط أن اعتبار الصراط جسراً ممدوداً على ظهر جهنم غير صحيح لقوله تعالى ﴿ **أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها** ﴾ ولأن القرآن ذكر أن الكفار يدخلون نار جهنم من أبوابها في قوله تعالى ﴿ **حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم** ﴾ وللبحث تفصيل وقد تقدم .

(٤٦٣) هذا معارض للنصوص الشرعية من الآيات الكريمة التي ذكرناها .

(٤٦٤) دعوى الإجماع في هذه المسألة منتقض وغير مُسَلَّم لأن أئمة آل البيت والزيدية والمعتزلة والإباضية وغيرهم يقولون بخلاف ذلك !

مسألة الرؤية

الكلام على رؤية الله تعالى في الدنيا والآخرة

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(والرؤية حق لأهل الجنة ، بغير إحاطة ولا كيفية ، كما نطق به كتاب ربنا : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾ . وتفسيره على ما أراده الله تعالى وعَلِمَهُ ، ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم ، أو تأولها بفهم) .

الشرح :

أولاً : قوله (ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم ، أو تأولها بفهم) اضطراب في الكلام يثبت أنه ينفي الرؤية بعد قوله (والرؤية حق) ! ونفي الرؤية معزو إلى الإمام أبي حنيفة(٤٦٥) رحمه الله تعالى وعليه جماعة من أئمة الحنفية ومنهم الجصاص في « أحكام القرآن » (٣/ ٤-٥) .

ثانياً : اعلم يرحمك الله تعالى أن نصوص الشريعة نَصَّتْ على أن رؤية الله سبحانه وتعالى في الدنيا لا تقع لأحد إطلاقاً ، لعموم قوله تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ ولقوله تعالى لسيدنا موسى ﴿ لن تراني ﴾ الأعراف : ١٤٣ فسيدنا موسى نبي مرسل طلب الرؤية لِيُعْلِمَ قومَهُ أن رؤية الله تعالى لا تجوز لإنسان حينما قالوا له كما في القرآن ﴿ **أرنا الله جهرة** ﴾ النساء : ١٥٢ ونحوها من الآيات الدالة على أنهم طلبوا منه أن يروا الله تعالى فلم ير الله تعالى هو فضلاً عن أن يَرَوْهُ هم .

وأما حديث : « واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا » الذي أورده مسلم

---

(٤٦٥) فإن عثمان بن سعيد الدارمي قال في كتابه (النقض) (١/ ١٩٨ محقق في مجلدين) : « وأعجب من ذلك ما رويت عن أبي حنيفة إن صدقت عنه روايتك أنه ذهب في الرؤية إلى أن يرو لآياته وأفعاله وأموره فيجوز أن يقال رآه » . وقول أبي حنيفة رحمه الله تعالى بحدوث القرآن أمر مشهو نقله كثير من المتقدمين في التشنيع عليه ! وهو الصواب الموافق لكتاب الله تعالى ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ... ﴾ !

عقب الحديث (٤/ ٢٢٤٥) فإنه من مدرجات الزهري ، وقد رواه أبو داود في سننه (٤٣٢٠) دون هذه الزيادة فهي شاذة مردودة(٤٦٦) .

وأما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فَبَيْنَ أَهْلِ السنة والجماعة خلافٌ في أنه هل رأى الله تعالى ليلة الإسراء أم لا ؟ والصحيح عندنا أنه لم يره(٤٦٧) .

وأما مَنْ ادَّعى رؤية الله تعالى في اليقظة - كما يهذي بذلك بعض المنحرفين ممن يدَّعي التصوف مع أن الصوفية ملتزمون بالعقيدة الحقة - فضالٌ مُضِلٌ ، قال العلامة عبد السلام اللقاني وَلَدُ ناظم الجوهرة في شرح منظومة والده ص (١٧٥) أن مدعي ذلك : « ضال بإطباق المشايخ ، وقد ذهب الكواشي والمهدوي إلى تكفيره » .

ثالثاً : وأما رؤية الله في النوم فالصحيح عندنا أنها لا تصح ؛ لأنها تُعْتبر رؤية في الدنيا أولاً ؛ ولأن الله تعالى لا شَكْلَ له ولا صورة ولا هيئة وليس كمثله شيء ولم يكن له كفواً أحد ، والمعروف أن من يقول بأنه رأى ربه في النوم أن يرى رجلاً أو صورة إنسان يُكَلِّمُهُ ويقع في قلبه أنه الله تعالى ، فهذا ما يسميه بعضهم بحجاب الصورة ، والله تعالى مُنَزَّهٌ عن الصور والأشكال ، فعلى التحقيق يكون هذا الرائي لم ير الله تعالى ، وما نقله بعضهم من أن أحمد بن حنبل رأى الله تعالى مائة مرة وأنه قال لله تعالى في المرة الأخيرة : بما يتقرَّب إليك المُتَقَرِّبون ؟ قال له بكلامي يا أحمد .... إلى آخر ما ذكروه فكذب محض(٤٦٨) ؛ وليس هذا من الحجج التي يمكننا

---

(٤٦٦) راجع الحديث رقم (١٧و٣٤) في رسالة الرؤية للتوسع .

(٤٦٧) والأحاديث التي منها « نور انى اراه » وحديث « رايت نوراً » وما شابه هذا كلها احاديث متعارضة فيما بينها ومضطربة رغم أن بعضها في الصحيح فلا تدل على شيء .
وقد أنكرت السيدة عائشة رضي الله عنها على من قال « إنه راى ربه » بآيات قاطعة عامة وقول من قال : بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاطبها على قَدْرِ عَقْلها !! قول باطل مهزول لا يجوز الالتفات إليه ، وهو يتضمن قضيتين باطلتين بالاضافة إلى كونه قولاً متهافتاً لا دليل عليه ، الأول : الطعن في السيدة عائشة رضوان الله عليها ، والثانية : دعوى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول الباطل ويبلغها غير الحق وحاشاه صلى الله عليه وآله وسلم ؛ فافهم!!

(٤٦٨) ممن ذكر هذه القصة الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في « الإحياء » وهي قصة موضوعة رواها

الاعتماد عليها لو صَحَّتْ ، والأحكام لا تثبت بالرؤيا إجماعاً ، وهذا لم يتفرَّد به أحمد بن حنبل بل إن كثيراً من الناس يَرَون إنساناً ما في المنام فيقع في قلوبهم أنه الله فيُكَلِّمُهُم ويُكَلِّمونه ، ونحن نقطع بأن هذا الذي رأوه ليس الله تبارك وتعالى الذي ليس كمثله شيء ، والحاصل أننا نقول بأن الله تعالى لا يُرَى في النوم البتة .

رابعاً : وأما في الآخرة فإننا نجزم بأن الله تعالى منزَّه متعالٍ يستحيل أن يراه أحد ، ولنا رسالة خاصة في ذلك أسميناها « مسألة الرؤية » .

وهنا نذكر أدلة المثبتين والنافين للرؤية على وجه الاختصار فنقول :

ذهب جمهور أهل السنة إلى إثبات رؤية الله تعالى للمؤمنين في الجنة ، واحتجوا بقوله تعالى ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة** ﴾ وبقوله تعالى عن الكافرين ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ وبحديث « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا البدر » وفي رواية « كما ترون الشمس في رابعة النهار ليس دونها سحاب » وهو في البخاري ومسلم .

وخالفهم في ذلك جماعة من أهل السنة وغيرهم كالسيدة عائشة رضي الله عنها ومجاهد وأبي صالح السَّمَّان(٤٦٩) وعكرمة وغيرهم وكذا المعتزلة والإباضية والزيدية ، واحتجوا بقول الله تعالى ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ . وأوَّلوا الآيات التي احتج بها جمهور أهل السنة بأن المراد بالآية هو :

وجوه ناضرة مسرورة لأنها تنتظر ثواب ربها وعطاءه وجنته وإنعامه ، كما أنه هناك بالمقابل ﴿ **وجوه يومئذ باسرة** ﴾ عابسة ﴿ **تظن أن يفعل بها فاقرة** ﴾ أي مصابة بداهية كبيرة ، وهذا الكلام هو بيان لما يكون في أرض المحشر وحال المؤمنين

الخلال في « أماليه » في المجلس الخامس بسند فيه أحمد بن محمد بن مقسم وهو كذاب !! انظر « لسان الميزان » (١/ ٢٦٠) . وأوردها الذهبي في ترجمة أحمد بن حنبل في « السير » (١١/ ٣٤٧) بسندين فيهما هذا الكذاب المشهور فتنبه !!

(٤٦٩) كما نقل عنهما - أي مجاهد وأبا صالح - الحافظ ابن جرير الطبري السلفي في تفسيره (١٤/ ٢٠/ ١٩٢- ١٩٣) بأسانيد صحيحة ، والحافظ في الفتح (١٣/ ٤٢٥) عن عكرمة . والبخاري ومسلم عن السيدة عائشة كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

والكافرين يومئذ ، والرؤية إنما تكون في الجنة .

قالوا : فالمقام هنا مقام مقابلة بين وجوه تنتظر الثواب ووجوه تنتظر العقاب ورؤية الله تعالى غير مُرادة هنا وخصوصاً أن الكلام يتعلق بالموقف قبل الدخول للجنة والنار وأنتم - يا جمهور أهل السنة والجماعة - تقولون بأن الرؤية إنما تتم في الجنة لا في أرض المحشر(٤٧٠) ، وهذا الكلام يتعلق في أرض المحشر .

وردَّ هؤلاء على مَنْ قال من أهل السنة [بأن لفظ (ناظرة) لا يأتي عربية بمعنى منتظرة] فقالوا : إن ذلك ليس صحيحاً ؛ بل قد ورد القرآن الكريم بإثبات أن معنى ناظرة منتظرة !! من ذلك قوله تعالى عن بلقيس : ﴿ **وإني مُرْسِلَة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون** ﴾ النمل : ٣٥ ، أي منتظرة بم يرجع المرسلون ، وهو واضح ظاهر .

كذلك قالوا بأن المراد بقوله تعالى ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ أي عن ثواب ربهم وإكرامه وإنعامه ، والحجاب أيضاً هو عن كلامه لا عن رؤيته لأن الله تعالى يقول وهو أصدق القائلين ﴿ **ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم** ﴾ البقرة : ١٧٤ .

قال الإمام الغزالي في « المستصفى » (٢/١٩٢) :

« واحتج - أي الأشعري - في مسألة الرؤية بقوله تعالى ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ قال : وهذا يدل على أن المؤمنين بخلافهم ، وقال جماعة من المتكلمين ومنهم القاضي وجماعة من حذاق الفقهاء ومنهم ابن سُرَيج أن ذلك لا دلالة له وهو الأوجه عندنا ، ويدل عليه مسالك .... » .

وقالوا بأن قوله تعالى ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ لا يمكن تأويله إلا بتأويل بعيد مستقل ، ولكن تأويل الآيات التي أوردها جمهور أهل السنة قريب سائغ غير مستهجن .

وذكروا ما رواه البخاري (٨/٦٠٦) ومسلم (١/١٥٩) عن مسروق عن السيدة

---

(٤٧٠) وقد نقل الاتفاق على هذا ابن العربي المالكي في العارضة « شرح الترمذي » عند حديث الصورة .

عائشة رضي الله عنها ، قال مسروق :

« قلت لعائشة رضي الله عنها : يا أُمَّتَاهُ ، هل رأى محمد ربَّه ؟ فقالت : « لقد قَفَّ شعري مما قلت ، أين أنت من ثلاث من حَدَّثَكَهُنَّ فقد كذب : مَنْ حدَّثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب** ﴾ .... » .

قالوا : لقد استدلَّت بعموم آيتين على نفي رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء ، ويبقى العموم على عمومه عندها وقولكم (إنما قصدت نفي رؤية الله تعالى في الدنيا لا في الآخرة) تَحَكُّمٌ وقول بلا دليل ولو كان كذلك لَذَكَرَتْهُ .

وَرَدَّ نفاة الرؤية بعد ذلك الأحاديث الواردة في الرؤية واحتجوا بأنها آحاد ولا تثبت العقائد بالآحاد وهو احتجاج مسوَّغ مقبول . وقد ادعى بعض العلماء بأن أحاديث الرؤية متواترة والواقع أنها ليست كذلك بعد التتبع ، قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٣/ ٤٣٤) :

[جمع الدارقطني طرق الأحاديث الواردة في رؤية الله تعالى في الآخرة فزادت على العشرين ، وتتبعها ابن القيم في « حادي الأرواح » فبلغت الثلاثين وأكثرها جياد ، وأسند الدارقطني عن يحيى بن معين قال : عندي سبعة عشر حديثاً في الرؤية صحاح] .

قلت : ليست الأحاديث بجياد ولا صحاح ، ولم يستطع أن يصرح بتواترها كأحاديث الشفاعة والحوض ، وأما ما ذكره عن الدارقطني فلم يثبت لأن الكتاب الذي جمع الدارقطني فيه الطرق مدسوس على الدارقطني على الصحيح الراجح ولم يثبت عنه كما بينت ذلك في رسالة خاصة صنفتها في ذلك وهي مطبوعة في آخر كتاب « دفع شبه التشبيه » ص (٢٨٩) وأسميتها « البيان الكافي » ، والأحاديث التي في ذلك الكتاب ذكرها ابن القيم وزاد عليها ، وقد تتبعت ما ذكره ابن القيم في « حادي الأرواح » (من ص ٢٦٠ - ٣٠٣) ونظرت في متون وأسانيد تلك الأحاديث

التي أوردها وأكثرها ضعيف أو موضوع ، ولم أجد ما يصح التمسك به إلا حديث جرير في الصحيحين وحديث أبي موسى وهو مشكِل ، وباقي الأحاديث مشكلة جداً ، وبعضها شاذ مردود لا يصح الاستدلال به كحديث أبي سعيد وأبي هريرة الذي في الصحيحين والذي فيه « فيأتيهم في غير صورته التي يعرفون .... » الحديث المعروف ؛ وقد تكلَّمنا عليه وبَيَّنَّا شذوذه في التعليق على « دفع شبه التشبيه » ص (١٧٥) وفي هذا الكتاب وبقية ما ذكره من الأحاديث وهو أكثرها ضعيف منكر أو موضوع تالف ، وقد فصلنا البحث في هذه الأحاديث جميعها التي ذكرها ابن القيم وبينا عللها في رسالة خاصة في **مسألة الرؤيا** وهي مطبوعة متداولة .

وبالجملة فإن ما ذكره ابن القيم ينقسم إلى أربعة أقسام **(الأول)** : أحاديث صحيحة تنص على إثبات الرؤية ولا يستقيم منها إلا حديث واحد وهو حديث جرير وهو آحاد .

(والثاني) : أحاديث في الصحيحين إما شاذة أو فيها ألفاظ منكرة وتَصَرُّفِ رواةٍ فلا يصح استدلال بها . **(والثالث)** : أحاديث صحيحة وضعيفة لا علاقة لها بالموضوع وإنما استنبط ابن القيم منها ذلك واستنباطه مخطىء هناك . **(والرابع)** : وهو أكثرها أحاديث ضعيفة ومنكرة وتالفة موضوعة أتى بها لِيُكَثِّر بها عدد رواة الرؤية وهي لا تسمن ولا تغني من جوع .

ولذلك لم يصرح الحافظ ابن حجر بتواتر الحديث مع أنه صرَّح بتواتر أحاديث أخرى لم تبلغ طرقها العدد الذي بلغه عدد طرق أحاديث الرؤية ، فالحديث غير متواتر قطعاً .

وحديث جرير بن عبد الله المرفوع هذا هو قوله : « كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر . قال : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامُّون في رؤيته »(٤٧١) .

---

(٤٧١) حديث جرير بن عبدالله أقوى ما روي في الصحيحين وغيرهما في هذه القضية وهو حديث معلل وشاذ مردود ، وقد ذكر الذهبي في « سير النبلاء » (١١/ ٥٣) في قصةٍ هناك أنَّ علي بن المديني

رواه البخاري (١٣/ ٤١٩) ومسلم (١/ ٤٣٩) .

قال العلماء المثبتون للرؤية :

معناه : أنكم إذا رأيتم الله تعالى في الجنة فإنكم لن تَشُكُّوا في أن الذي رأيتموه هو الله كما أنكم لا تشكون في رؤيتكم الآن لهذا القمر ليلة البدر أنه القمر .

وفي بعض الروايات في الصحيحين ذِكْرُ الشمس « هل تضارون بالشمس ليس دونها سحاب ؟ » .

قال الحافظ ابن حجر في شرحه « الفتح » (١١/ ٤٤٧) :

[قال البيهقي : سمعت الشيخ أبا الطيب الصعلوكي يقول : « تُضَامُّون » بضم أوله وتشديد الميم ، يريد لا تجتمعون لرؤيته في جهة ، ولا ينضم بعضكم إلى بعض (أي لا تتزاحمون في رؤيته تعالى) فإنه لا يُرَى في جهة ، ومعناه بفتح أوله (تَضَامّون أي :) لا تضامون في رؤيته بالاجتماع في جهة ، وهو بغير تشديد من الضيم ، معناه لا تظلمون فيه برؤية بعضكم دون بعض ، فإنكم ترونه في جهاتكم كلها وهو متعال عن الجهة ، قال : والتشبيه برؤية القمر لِتَعَيُّنِ الرؤية دون تشبيه المرئي سبحانه وتعالى] انتهى وما بين القوسين ( ) من توضيحاتي وزياداتي .

ثم قال الحافظ : [قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة : ..... وفي عطف الشمس على القمر مع أن تحصيل الرؤية بذكره كافٍ ، لأن القمر لا يدرك وصفه الأعمى حساً بل تقليداً ، والشمس يدركها الأعمى حساً بوجود حَرِّهَا إذا قابلها وقت الظهيرة مثلاً فَحَسُنَ التأكيد بها ، قال : والتمثيل واقع في تحقيق الرؤية لا في الكيفية ، لأن الشمس والقمر متحيزان والحق سبحانه منزه عن ذلك] .

أقول : وحديث جرير معلل كما تقدَّم ، ثم لو فرضنا أنه خال من العلة وانضم له حديث آخر أو حديثان عن غير جرير يكون من قبيل الآحاد الذي لا يفيد القطع في هذه المسألة ، فالمسألة ظنية ليست من أصول العقيدة وإنما هي من

قال عن حديث جرير هذا : « في هذا الإسناد مَنْ لا يُعمل عليه ، ولا على ما يرويه ، وهو قيس بن أبي حازم ، إنما كان أعرابياً بوَّالاً على عقبيه » . وانظر كلامنا عليه في التعليق على الحديث الثالث من أحاديث رسالة الرؤية .

الفروع ، وفيها خلاف بين أهل السنة أنفسهم كما تقدَّم ؛ وكذا بين جمهور أهل السنة وبين من ينفيها كالمعتزلة والإباضية والزيدية وغيرهم ، وقد أخطأ مَنْ ادَّعى الإجماع فيها .

وقد أنشأ الزمخشري بيتين يَرُدُّ بهما على القائلين بالرؤية وَرَدُّوا عليه بأبيات كثيرة ربما تزيد على مائة بيت لم يأتوا فيها بأكثر مما ذكرناه من الأدلة ، وَرَدَّ عليهم جميعاً في قصيدة طويلة طنانة العلامة الشيخ ناصر بن سالم الرواحي الإباضي رحمه الله تعالى مطلعها :

نَزِّهْ إلهك أن يُرَى كي تعرفه   أَتُرَاكَ تعرفه وتثبت ذي الصفة

ثم يقول فيها :

رَمزتَ عن تجسيمه ونَصَبْتَهُ   غرضاً لعينك من وراء البَلْكَفَه
وَأَحَلْتَ كيف وما وأين وشببها   وعبدتَ ذاتاً بالحجاب مُكَنَّفَه
هذا التناقض في اعتقادك شاهد   يقضي عليك بأن دينك عجرفه
إن كنت تعقل ما تراه فهذه   ماهية محدودة متوقفه
أَوَلَسْتَ تعقله فأنت مخلّط   دَركٌ ولا درك فأين المعرفة

[انظر ديوانه ص ٢٥٢] والله الهادي .

[فائدة] : وأما قوله تعالى ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ سورة النجم : ١٨ ، فمعناه أنه صلى الله عليه وآله وسلم رأى سيدنا جبريل على خِلْقته الأصلية التي خلقه الله تعالى عليها مرة أخرى وهي الثانية ليلة الإسراء عند سدره المنتهى ، وكان قد رآه المرة الأولى في أوائل البعثة في مكة وقد سَدَّ الأفق وله ستمائة جناح . فالمرة الثانية كانت عند سدرة المنتهى ، ولذلك قال الله تعالى في هذه الآيات الكريمة ﴿ **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ ولم يقل رأى الله وإنما قال رأى من آيات الله وسيدنا جبريل بهذه من آيات الله تعالى الكبرى .

روى البخاري (٦/ ٣١٣) ومسلم (١/ ١٥٩) وابن جرير الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٧/ ٥٠) واللفظ لمسلم والطبري عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت في آية ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى** ﴾ :

[أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خُلِقَ عليها غير هاتين المرتين . رايته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض »] .

قال الحافظ أبو حيان في « البحر المحيط » (١٠/ ١٢) :

« قالت - عائشة - : أنا سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآيات ، فقال لي : هو جبريل عليه السلام فيها كلها .... وحديث عائشة قاطع لكل تأويل في اللفظ ، لأن قول غيرها إنما هو منتزع من ألفاظ القرآن ، وليست نصاً في الرؤية بالبصر بل ولا بغيره ... » .

وروى البخاري (٦/ ٣١٣) ومسلم (١/ ١٥٨) واللفظ له عن عبد الله بن مسعود قال : ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾ قال : رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح . وكذا روى مسلم (١/ ١٥٨) مثل ذلك عن أبي هريرة . وروى البخاري (٦/ ٣١٣) عن مسروق أنه قال للسيدة عائشة رضي الله عنها : فأين قوله ﴿ **ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى** ﴾ ؟! قالت : ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرَّجُل ، وإنما أتى هذه المرة في صورته التي هي صورته ، فَسَدَّ الأُفُق .

فتبين من هذا كله أن هذه الآيات لا يصح الاستدلال بها في مسألة إثبات الرؤية والله تعالى الموفق .

مسائل متفرقة
تتعلق
بالعقيدة

باب

في مسائل متفرقة تتعلق بالعقيدة

الإيمان بالإسراء والمعراج

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(والمعراج حق ، وقد أسري بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وعُرِجَ بشخصه في اليقظة إلى السماء ، ثم إلى حيث شاء الله من العلا ، وأكرمه الله بما شاء ، وأوحى إليه ما أوحى ، ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ فصلى الله عليه وسلم في الآخرة والأولى) .

الشرح :

إسراء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعروجه إلى السماء وإلى سدرة المنتهى ثابتان بقطعي الدلالات في الكتاب الكريم والسنة المطهرة قال الله تعالى ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير** ﴾ الإسراء : ١ .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ النجم : ١٨ .

هذه الآيات الكريمة تثبت لنا الإسراء والمعراج ثبوتاً قطعياً وأن ذلك حصل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بروحه وجسده معاً ، وقد ثبت ذلك في السنة أيضاً .

لكن حديث الإسراء الطويل في الصحيحين فيه أمور ننكرها ولا نقول بها ، والحديث هو ما رواه البخاري (٢٠١/٧) ومسلم (١٤٩/١) وغيرهما عن سيدنا أنس عن مالك بن صعصعة قال :

« إن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم حدثه عن ليلة أسري قال : بينما أنا في

الحطيم ـ وربما قال في الحِجْرِ ـ مضطجعاً ، إذ أتاني آتٍ فَقَدَّ ـ قال وسمعته يقول : فَشَقَّ ـ ما بين هذه إلى هذه . فقلت للجارود وهو إلى جنبي : ما يعني به ؟ قال : مِنْ ثُغْرَة نَحْرِهِ إلى شِعْرته ـ وسمعته يقول من قَصِّهِ إلى شعرته ـ فاستخرج قلبي ، ثم أتيت بِطَسْتٍ من ذهب مملوءة إيماناً ، فغسل قلبي ، ثم حُشِيَ ، ثم أعيد ، ثم أتيتُ بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض . ـ فقال له الجارود : هو البراق يا أبا حمزة ؟ قال أنس : نعم ـ يضع خطوة عند أقصى طَرْفِهِ ، فَحُمِلْتُ عليه ، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح ، فقيل : من هذا قال : جبريل . قيل ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه[٤٧٢] ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، فنعم المجيء جاء . ففتح . فلما خَلَصْتُ فإذا فيها آدم ، فقال : هذا أبوك آدم ، فسلِّم عليه . فَسَلَّمْتُ عليه ، فردَّ السلام ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح . ثم صَعِدَ بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، فنعم المجيء جاء . ففتح . فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهم ابنا خالة . قال : هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما ، فسلمت ، فردا ، ثم قالا : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، فنعم المجيء جاء . ففتح ، فلما خلصت إذا يوسف ، قال : هذا يوسف فسلِّم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صَعِدَ بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أوقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، فنعم المجيء جاء . ففتح . فلما خلصت فإذا إدريس ، قال : هذا إدريس فسلِّم عليه ، فسلَّمتُ عليه ، فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد بي حتى أتى السماء

---

[٤٧٢] هل يعقل أن الملائكة بعد عشر سنوات من مبعثه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكونوا يعرفون بأنهَ قد بُعِثَ ؟!! وإذا ثبت هذا بطل قول من قال إنه صلى الله عليه وآله وسلم مرسل للملائكة !!

الخامسة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، فنعم المجيء جاء . ففتح . فلما خلصت فإذا هارون ، قال : هذا هارون فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، فنعم المجيء جاء ففتح . فلما خلصت فإذا موسى ، قال : هذا موسى فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . فلما تجاوزت بكى . قيل له ما يبكيك ؟ قال : أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي(٤٧٣) ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم . قال :

---

(٤٧٣) أنا أُنزّه سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام من هذا ، فهو لا يسمي ولا يصف سيد الخلق وشفيعهم ومن أخذ منه العهد والميثاق على الإيمان به بغلام !! وخاصة أنَّ سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كان عمره ساعتئذ خمسين سنة !! ثمَّ أتساءل هل يجوز لنبي أن يتحسَّر ويبكي على أنَّ الذين يتبعون سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أكثر ممن يتبعه هو ؟!!

وأرى أن الفكر الإسرائيلي الذي أدخل بعض هذه التفاصيل على هذه القصة أو سردها بهذا الترتيب فلمَّا وصل إلى ذكر سيدنا موسى فيها وقف عنده وأظهر بعض ما يجول من الأفكار بذهن ذلك الفكر تجاه شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ووضعها على لسان سيدنا موسى عليه السلام الذي أُنزّهه أنا من هذا كله !!

ثمَّ لم يكتف بذلك بل بين أنَّ إدراك سيدنا موسى لعدم تحمّل هذه الأمة لخمسين صلاة فوق إدراك الله - جل جلاله وتعالى عما يقولون - لذلك !!! حتى جعل يُغيِّر فيها حتى أوصلها لخمس ولم يدرك ذلك سيدنا محمد ولا سيدنا إبراهيم وجعلوا تجارب سيدنا موسى متفوقة على تجارب سيدنا محمد وسيدنا إبراهيم عليهما الصلاة والسلام وعلى إدراك الله تعالى لما يناسب عباده !! لكن غفل مُرَكِّب القصة بهذا السياق عن أنَّ سيدنا جبريل قد مرَّت عليه تجارب سيدنا موسى وما عاناه وكذا جميع تجارب ومعاناة الأنبياء والمرسلين فلم يتفطن لذلك وتفطنها سيدنا موسى عليه السلام الذي ينتمي واضع هذا السياق إليه وهو عليه السلام بريءٌ منه ومن عمله !! فتأملوا في هذا كله فما وجدتموه حقاً فخذوه وما سوى ذلك فانبذوه !! والمقصد في ذلك كله تنزيه الله سبحانه عما لا يليق به وكذا والأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام !! والحمد لله رب العالمين !! اللهم ارزقنا صدق العبودية والخضوع إليك !!

مرحباً به ، فنعم المجيء جاء . فلما خلصت فإذا إبراهيم ، قال : هذا أبوك فسلم عليه ، قال : فسلمت عليه ، فرد السلام ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح . ثم رُفِعْتُ إلى سدرة المنتهى فإذا نَبْقُهَا مثل قِلال هَجَر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة . قال : هذه سدرة المنتهى ، وإذا أربعة أنهار : نهران باطنان ، ونهران ظاهران . فقلت : ما هذان يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات . ثم رفع لي البيت المعمور . ثم أُتِيتُ بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل ، فأخذتُ اللبن ، فقال : هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك . ثم فرضت عليَّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم ، فرجعت فمررت على موسى ، فقال : بما أمرت ؟ قال : أمرت بخمسين صلاة كل يوم . قال : إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وإني والله قد جرَّبتُ الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشدَّ المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك(٤٧٤) ، فرجعت فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله . فرجعت فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله . فرجعت فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله . فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم ، فرجعت فقال مثله . فرجعت فأُمرتُ بخمس صلوات كل يوم ، فرجعت إلى موسى فقال : بما أمرت ؟ قلت : أمرت بخمس صلوات كل يوم . قال : إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم ، وإني قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع

---

(٤٧٤) وقع استدلال المجسمة والمشبهة بهذه الجملة على موضوع العلو الحسي الذي يريدون إثباته ! ولا يتم لهم الاستدلال به !! وذلك لأنَّ معنى الجملة إن صحت وثبتت : أي ارجع إلى المكان الذي خاطبك فيه ربك أو أوحى إليك فيه فاسأله التخفيف !! لا أنَّ الله تعالى موجود في مكان معين يرجع إليه فيه !! ومما يؤكد ذلك أنَّ نفس سيدنا موسى صاحب هذه المحاورة في هذه القصة لمّا كان في الدنيا وعلى وجه الأرض إذا أراد أن يناجي ربه ويكلمه كان يذهب إلى الطور فيكلمه ولا يعني ذلك أنَّ الله كان في الطور فافهم !! والله الهادي .

ثمَّ وجدت الإمام النووي رحمه الله تعالى يقول في « شرح صحيح مسلم » (٢/ ٢١٤) :

[قوله صلى الله عليه وآله وسلم (فرجعت إلى ربي) معناه : رجعتُ إلى الموضع الذي ناجيته منه أولاً فناجيته فيه ثانياً] . فالحمد لله تعالى على توفيقه .

إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قال سألت ربي حتى استحييت ، ولكن أرضى وأُسَلِّم . قال فلما جاوزت نادى منادٍ أمضيت فريضتي ، وخَفَّفْتُ عن عبادي » .

وأقول بعد ذكر حديث الإسراء والمعراج هذا : إن الإسراء والمعراج ثابتان وهما قطعيان استدلالاً بالقرآن الكريم لكن هذه القصة الطويلة التي أوردناها وبهذا التفصيل الدقيق الذي ورد في كتب الصحاح وغيرها فيها ألفاظ منكرة مردودة يستبعد جداً أن تكون من كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد دخلها شيء من الإسرائيليات !! فالنهران الظاهران والباطنان مثلاً خرافة إسرائيلية لا شك في ذلك لأن هذه القضية في هذا الحديث معارضة للقرآن الكريم الذي نص على أن الله تعالى أخرج الأنهار والعيون من ينابيع سلكها في الأرض بعدما أمطرت السماء عليها . قال تعالى ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض** ﴾ .

ثم إن العلوم الكونية تخالف أيضاً ما جاء في هذا الحديث من أن منابع نهر النيل والفرات ودجلة من أماكن معروفة ومشهورة يعرفها أدنى مطلع على الجغرافيا والثقافة العامة التي يشترك فيها العام والخاص .

ثم إن بُعْدَ ما بين السماء السابعة والجنة وسدرة المنتهى وبين الأرض مسافة شاسعة جداً لا يمكن أن يتصور عاقل أن منابع هذه النهار عند سدرة المنتهى فوق السماء السابعة وهي تقطع هذه المسافة الطويلة فضلاً عن أن ينطق بهذا سيد البشر والعقلاء وأعلمهم صلى الله عليه وآله وسلم .

وبالسؤال والتتبع وجدنا أن أصل هذه القصة موجود في كتب أهل الكتاب اليهود والنصارى مما أكَّد لنا أن هذه القصة بهذا الشكل والتصوير الوارد في هذا الحديث المنسوب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها ما هو مَنْحُول من كتب الأمم السابقة وهم اليهود والنصارى .

فهذه القصة موجودة في كتاب (إخنوخ) وهو من الأسفار القديمة عند اليهود ، ولكن الكنيسة بأقسامها الثلاث (وهي المجامع الكنيسية المتأخرة) اعتبرته سِفْرَاً غير قانوني .

ولكن الكنيسة الحبشية لا تزال تعتبره ، والثابت أن المفسرين والمسلمين المتقدمين بما فيهم جماعة الصحابة رضوان الله عليهم اطلعوا على هذا السِّفْر ، ولذلك ورد اسم (إخنوخ) في بعض التفاسير كتفسير القرطبي مثلاً عند تفسير قوله تعالى في حق سيدنا إدريس عليه السلام ﴿ **ورفعناه مكانا علياً** ﴾ وسِفْر (إخنوخ) اليهودي هذا يحتوي على قصة رحلة (إخنوخ) وهو سيدنا إدريس للسموات السبع وإعلانات الله لإخنوخ (كما يُعَبِّر) !!

وكذلك يحتوي - كما يقول - على تحذيرات إخنوخ لأبنائه !! وفي الفصل الثاني من سفر التكوين العدد (١٠و١١و١٢و١٣و١٤) ورد ذكر هذه الأنهار الأربعة ببعض تغيير للأسماء وهي : فيحون وجيحون وحداقل والفرات . فالذي ألَّف القصة حور ودور في هذه الأسماء إلى ما يناسب معلومات العرب آنذاك فينبغي التدبر والتأمل والتفكر الدقيق في هذا الأمر !!

وهو أن بعض الإسرائيليات تسرَّبت إلى الأحاديث بل قد صنع بعضهم من بعضها أحاديث كاملة نسبوها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ! ولا أدل على ذلك مما اعترف به أئمة أهل الحديث وجهابذة فنونه .

وهو أن مثل حديث « خلق الله التربة يوم السبت » الوارد في صحيح مسلم (٢١٤٩/٤ برقم ٢٧٨٩) من طريق أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو في الواقع أو في الأصح كما قال الإمام البخاري شيخ مسلم في « تاريخه الكبير » (٤١٣/١-٤١٤) من رواية أبى هريرة عن كعب الأحبار اليهودي الأصل . فانقلب بعد ذلك على الرواة فأصبح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدل أن يظل من كلام كعب الأحبار اليهودي الأصل .

ومثل ذلك كثير ، وأكثر ما يتعلق بموضوع الفتن والموت وأهوال يوم القيامة ووصف ذلك اليوم وما يحصل فيه وكذا ما يتعلق بالإسراء أو المعراج وأحاديث الشفاعة الطويلة قد دخلتها أشياء من الإسرائيليات .

وبالمناسبة فإننا نُنَبِّهُ على أن كتاب (الإسراء والمعراج) الذي يباع في الأسواق المنسوب لابن عباس ما هو إلا كذب وافتراء على سيدنا ابن عباس رضي الله

عنهما وهو من جملة الأكاذيب المدسوسة في هذه القضية ، قضية الإسراء والمعراج ، فتنبهوا لذلك ولا تغفلوا عنه .

(فصل) في بعض الإشكالات المتعلقة بقصة الإسراء والمعراج(٤٧٥) من ناحية التجسيم الذي يتبناه المتمسلفون اليوم أنقله من كتابنا « تنقيح الفهوم العالية بما ثبت وما لم يثبت من حديث الجارية » ص (٥٩) وبالله تعالى التوفيق :

لقد استدل المجسمة المتمسلفون من حديث الإسراء على أن الله تعالى في السماء !! ولا بد أن نزيّف استدلالهم ونبطل كلامهم في ذلك فنقول :

هذا الحديث ليس فيه أي استدلال لما يريدون من كون معبودهم في السماء أو فوق السماء !! ومن تأمّل أوائل سورة الإسراء عرف ذلك وفهمه جيداً ، فقد افتتح سبحانه هذه السورة الكريمة بقوله ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير** ﴾ .

استفتح سبحانه هذه الآية الكريمة بالتسبيح فقال ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده** ﴾ والتسبيح هو التنزيه ؛ فكأنه يشير إلى ما قد يخطر في الأذهان من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذهب لمكان فيه رب العالمين فقطع هذا الخيال ونزَّه نفسه

---

(٤٧٥) وقع في بعض روايات حديث الإسراء والمعراج وخاصة رواية شَرِيك بن أبي نَمِر ألفاظ منكرة ! قال الحافظ ابن الجوزي في « دفع شبه التشبيه » ص (١٣٦) : « فإن قيل : فقد أُخرج في الصحيحين عن شَرِيك بن عبد الله بن أبي نَمِر عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أنه ذكر المعراج فقال فيه : (فعلا به إلى الجبار تعالى) فقال (وهو في مكانه يا رب خفف عنا) فالجواب : أن أبا سليمان الخطَّابي قال : هذه لفظة تفرَّد بها شريك ، ولم يذكرها غيره وهو كثير التفرُّد بمناكير الألفاظ ، والمكان لا يضاف إلى الله عز وجل ...» .

وأقول : لقد نصَّ على هذا أيضاً الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٣/ ١٣٧) حيث قال هناك : « قال الخطَّابي : ليس في هذا الكتاب يعني صحيح البخاري حديث أشنع ظاهراً ولا أشنع مذاقاً من هذا النصل ... » وقال الحافظ هناك أيضاً عن شريك : « هو مختلف فيه فإذا تفرَّد عُدَّ ما ينفرد به شاذاً وكذا منكراً ....» الخ ما قال ونقلته في التعليق على « دفع الشبه » ص (١٣٧) وقد ذكر الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٨٥) أن شريكاً خالف الحفاظ في عشرة أشياء في هذا الحديث (يعني حديث الإسراء والمعراج) ، فينبغي التنبه لذلك والتوسع فيه بالمراجعة .

عنه فقال ﴿ **سبحان الذي أسرى** ﴾ أي : تَنَزَّه عن المكان .

ثمَّ بَيَّنَ سبحانه أنه أسرى بعبده ليس ليراه ويَقْرُب منه بالمكان ، وإنما قال سبحانه ﴿ **لنريه من آياتنا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ وآياته تعالى هي مخلوقاته وعجائب مصنوعاته ، فسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أُسْرِيَ وعُرِجَ به ليريه الله سبحانه ملكوت السموات والأرض والجنة والنار وما إلى ذلك مما ذكر في الإسراء ، وليس ليذهب إلى مكان فيه رب العزة سبحانه المنزه عن الزمان والمكان !!

فإن قيل : وكيف كلَّمه ورآه وفرض عليه الصلوات الخمس ألا يدل ذلك على أنه ذهب إليه ؛ أي إلى مكان هو فيه ؟!!

قلنا : ليس كذلك !! فإنه سبحانه كما كلَّم سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فوق السماء عند سدرة المنتهى فقد كلَّم سيدنا موسى عليه السلام في الواد المقدس طوى بجانب الطور وذلك في أرض فلسطين ، ولا يعني ذلك أن الله سبحانه كان هناك ، فكما أنه سبحانه مُنَزَّهٌ عن المكان لما خاطب سيدنا موسى بجانب الطور فهو أيضاً منزه عن المكان لما خاطب سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في السماء أو فوقها .

والسماء والأرض والأكوان والعوالم مخلوقة لله تعالى وهو منزه عن الحلول فيها و ﴿ **لله ما في السموات وما في الأرض** ﴾ والدليل على أن الله كلم سيدنا موسى في الوادي مع تنزيهنا لله تعالى عن أن يكون في الوادي قوله تعالى ﴿ **فلما أتاها نودي يا موسى * إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري** ﴾ طه : ١١-١٤ .

فانظروا كيف خاطبه سبحانه وفرض عليه الصلاة أي - سيدنا موسى - في الأرض !! كما خاطب سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وفرض عليه الصلاة وهو في السماء أو فوقها !! فكما أنه منزه عن أن يكون في الأرض فهو منزه أيضاً عن أن يكون في السماء وكذا في البقعة التي خاطب سيدنا محمداً صلى الله

عليه وآله وسلم فيها !!

وقال تعالى أيضاً ﴿ **فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أو جَذْوة من النار لعلكم تصطلون * فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين * وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جآن ولى مدبراً ولم يعقِّب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين** ﴾ .

فهذه الآية فيها قرائن كثيرة يوهم ظاهرها على أن الله تعالى كان في تلك البقعة عندما كلم سيدنا موسى والسياق يفيد ذلك مع أننا نؤوله ولا نقول بظاهره !!

فأولاً : نحن ننزه الله تعالى أن يكون ناراً !! لأن سيدنا موسى رأى ناراً فذهب إليها فكلَّمه الحق سبحانه !!

وثانياً : ننزه الله تعالى أن يكون بجانب الطور !! أي ننزهه أن يكون قد حَلَّ في منطقة في الأرض .

وثالثاً : ننزهه سبحانه عن أن يكون في شاطىء الواد الأيمن !! وفي البقعة المباركة وعن أن يكون في الشجرة !!

ورابعاً : قد يقول قائل إن قوله ﴿ **أقبل ولا تخف** ﴾ قرينة أيضاً على أنه سبحانه كان في ذلك المكان أو تلك البقعة أو ذلك الوادي !! ونحن نقول كل ذلك لا يجوز على الحق سبحانه وهو مُنَزَّه عنه !! فكما أننا لا نأخذ من قصة سيدنا موسى أن الله تعالى كان في الواد المقدس طوى وفي الشجرة باتفاق فكذلك لا نأخذ من قصة الإسراء والمعراج أن الله في السماء أو فوقها كما تقول المجسمة !!

وأما رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لله تعالى في تلك الليلة فهي محل خلاف بين العلماء وغالب المجسمة ينفونها ويقولون بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يَرَ الله تعالى تلك الليلة ؛ هذا مع قول الله تعالى ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم** ﴾ الشورى : ٥١ .

وفي صحيح مسلم (١/ ١٦١) عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل رأيت ربك ؛ قال : « نور أنى أراه »(٤٧٦) .

وفي البخاري (٨/ ٦٠٦) ومسلم (١/ ١٥٩) عن مسروق قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : يا أمتاه هل رأى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ربه ؟ فقالت : لقد قف شعري مما قلت !! أين أنت من ثلاث من حدثكهُنَّ فقد كذب : مَنْ حدَّثَكَ أن محمداً رأى ربه فقد كذب . ثم قرأت ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ . ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من رواء حجاب** ﴾ ....الخ .

وذكر بعض العلماء أن قوله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تفضلوني على يُونُس بن متى »(٤٧٧) معناه :إياكم أن تظنوا بأنني قَرُبت من الله تعالى بالمسافة أكثر من النبي يونس الذي كان في جوف الحوت في قعر البحر ، وإلا فما مناسبة ذكر سيدنا يونس هنا ؟!! مع اعتقادنا جميعاً بأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من سيدنا يونس بلا خلاف والله تعالى يقول ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلَّم الله ورفع بعضهم درجات** ﴾ !! وقال تعالى ﴿**ولقد فضَّلنا بعض النبيين على بعض** ﴾ !!

قال المحدث الزَّبِيْدِي « في إتحاف السادة المتقين » (٢/ ١٠٥) :

[ذكر الإمام قاضي القضاة ناصر الدين بن المُنَيِّر الإسكندري المالكي في كتابه « المنتقى في شرف المصطفى » لما تكلَّم على الجهة وقرر نفيها ، قال : ولهذا أشار الإمام مالك رحمه الله تعالى في قوله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تفضِّلوني على

---

(٤٧٦) مع ملاحظة أن الله سبحانه وتعالى ليس نوراً بمعنى الضوء ، وإنما معنى اسمه سبحانه النور أي الهادي كما فسَّره بذلك الصحابة وسيدنا ابن عباس منهم وهو ترجمان القرآن وهذا هو الموافق للمنقول والمعقول ، وفي الحديث نفي الرؤية ليلة الإسراء وعدم ثبوتها وهو المعتمد عندنا لأن الله تعالى لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة .

(٤٧٧) وأصل الحديث في صحيح البخاري (٦/ ٤٥١) ومسلم (٤/ ١٨٤٦) بلفظ : « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » .

يونُس بن متى » فقال مالك : إنما خُصَّ يونس بالتنبيه على التنزيه لأنه صلى الله عليه وآله وسلم رُفِعَ إلى العرش ويونس عليه السلام هبط إلى قاموس البحر ونسبتهما مع ذلك من حيث الجهة إلى الحق جل جلاله نسبة واحدة ؛ ولو كان الفضل بالمكان لكان عليه السلام أقرب من يونس بن متى وأفضل ؛ ولَمَا نهى عن ذلك » انتهى . أي لَمَا نهى عن ذلك التفضيل .

وبقيَ أمر أخير لا بُدَّ من إيضاحه في قصة الإسراء وهو أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كان في تلك الليلة بعدما فرض الله عليه الصلاة وعاد فوصل إلى سيدنا موسى في السماء السادسة كان يقول له سيدنا موسى ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ؛ فما هو معنى ذلك ؟!

وأقول : معناه إن صح(٤٧٨) : أي ارجع إلى المكان الذي خاطبت فيه رب العزة وكلَّمك عنده واسأله أن يخفف عن أمتك ؛ فالله تعالى شاء أن يقع الكلام بينه وبين سيدنا محمد في بقعة ومنطقة مُعَيَّنَة فوق السماء السادسة ، كما كان سيدنا موسى يكلِّم الله تعالى ويكلمه الله في منطقة معينة بجانب الطور ولم يكن رب العالمين ثَمَّ هناك في تلك المنطقة !! إذ لا يجوز عليه المكان فتنبه !!

قال تعالى ﴿ **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلَّمه ربه** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وما أعجلك عن قومك يا موسى * قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك ربِّ لترضى** ﴾ فظاهر هذا أن سيدنا موسى سبق قومه إلى الله بالمسافة فوصل إلى البقعة التي كان يخاطب الله تعالى ويكلمه فيها قبل قومه وكانوا هم خلفه على أثره ، لأن الله واعدهم مرة كما كان يواعد سيدنا موسى في الجانب الأيمن من الطور وقد أخبرنا سبحانه عن ذلك إذ قال : ﴿ **يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن** ﴾ ومثل هذا قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم ﴿ **إني ذاهب إلى ربي سيهدين** ﴾ .

وبذلك يتضح لنا أن قصة الإسراء والمعراج ثابتة قطعاً فيجب الإيمان بها ،

---

(٤٧٨) مع علمنا بأنه في الصحيحين لكنه منكر .

وأن فيها معجزة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن تفاصيل القصة الواردة في الحديث غير قطعية ، وأنه لا دليل للمجسمة في هذه القصة على أن الله تعالى في السماء أو فوق السماء بذاته والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل .

معنى الميثاق المأخوذ على العباد

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق)

الشرح :

ينبغي عند ذكر الميثاق أن نتكلم عن مسألتين تتعلقان به ، **(المسألة الأولى)** : الميثاق الذي أُخِذَ من مفهوم قوله تعالى ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربك قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ الأعراف : ١٧٢ ، وتحقيق القول في معنى هذا الميثاق هل هو إخراج الذرية من صلب سيدنا آدم أم إقامة الدلائل للإنسان على وجود الخالق من هذا الخلق الذي ندركه .

(المسألة الثانية) : الميثاق الذي أخذه الله تعالى على المؤمنين عامة وعلى العلماء خاصة من تبيين أحكام الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فلنشرع في بيان هاتين المسألتين وبالله تعالى التوفيق فنقول :

[المسألة الأولى] : معنى قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ الأعراف : ١٧٢ .

ذهب قوم من أهل السنة ومن غيرهم ومن الصوفية خاصة إلى أن الله تعالى عندما خلق سيدنا آدم عليه السلام وأهبطه الأرض أخرج ذريته من صُلْبِهِ وهو في عرفات بقرب مكة وخاطبهم فقال لهم ألست بربكم .... وأجابوه : بلى شهدنا .... وذهب قوم من أكابر أهل العلم من أهل السنة وغيرهم إلى أن شيئاً من ذلك لم يكن ! لأن الآية ليس فيها أن الله أخرج من ظهر سيدنا آدم وإنما من ظهور بني آدم ذريتهم وليس (ذريته) .... الخ

وإنما فُسِّرت الآية بأن الله أخرج من ظهر سيدنا آدم ذريته بناء على آثار ونصوص من الإسرائيليات فليس ذلك بثابت !

قال العلامة البزدوي الحنفي(٤٧٩) في « أصول الدين » ص (٢١٨) :

« وقالت القدرية .... إن أخذ الميثاق لم يكن ، وبه قال بعض أهل السنة والجماعة فيهم الشيخ أبو منصور الماتريدي ، فهؤلاء قالوا : إنه لا فائدة في أخذ الميثاق على الذرية لأنه لو كان كذلك كان حكم الكفار حكم المرتدين وليس كذلك بإجماع الأمة ..... » .

ومعنى الآية عندنا هو ما ذكره الحافظ أبو حيان وغيره وهو قوله في تفسيره « البحر المحيط » (٥/٢١٨) :

[﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى** ﴾ روي في الحديث من طرق : أخذ - الله - من ظهر آدم ذريته وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأن لا إله غيره فأقروا بذلك والتزموه . واختلفوا في كيفية الإخراج وهيئة المخرج والمكان والزمان وتقرير هذه الأشياء محلها ذلك الحديث والكلام عليه ، وظاهر هذه الآية ينافي ظاهر ذلك الحديث ولا تلتئم ألفاظه مع لفظ الآية ، وقد رام الجمع بين الآية والحديث جماعة بما هو مُتَكَلَّف في التأويل ، وأحسن ما تُكُلِّمَ به على هذه الآية ما فَسَّرَه به الزمخشري قال :

هي من باب التمثيل والتخييل ومعنى ذلك أنه تعالى نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركّبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكأنه سبحانه ﴿ **أشهدهم على أنفسهم** ﴾ وقررهم وقال ﴿ **ألست بربكم** ﴾ وكأنهم ﴿ **قالوا بلى** ﴾ أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا لوحدانيتك ، وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وفي كلام العرب ، ونظيره قول الله عز وجل ﴿ **إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾ . ﴿ **فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا آتينا طائعين** ﴾ وقول الشاعر :

---

(٤٧٩) هو من شيوخ نجم الدين محمد النسفي صاحب العقائد النسفية ، توفي في بخارى سنة (٤٩٣هـ) .

إذا قالت الأنساع للبطن الْحَقِي   تقول له ريح الصبا قرقار

ومعلوم أنه لا قول ثَمَّ ؛ وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى ، وأن تقولوا مفعول له أي فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها كراهة أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين لم نُنَبَّهْ عليه ، أو كراهة أن تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم فاقتدينا بهم لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نُبِّهوا عليه قائم معهم فلا عذر لهم في الإعراض عنه ، والإقبال على التقليد والاقتداء بالآباء ، كما لا عذر لآبائهم في الشرك وأدلة التوحيد منصوبة لهم !

(فإن قلتَ) : بنو آدم وذريتهم مَنْ هم ، قلتُ : عنى ببني آدم أسلاف اليهود الذين أشركوا بالله تعالى حيث قالوا : ﴿ **عزير ابن الله** ﴾ وبذريتهم الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أخلافهم المقتدين بآبائهم ، والدليل على أنها في المشركين وأولادهم قوله تعالى ﴿ **أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل** ﴾ والدليل على أنها في اليهود الآيات التي عُطِفَتْ عليها وهي على نمطها وأسلوبها وذلك على قوله ﴿ **واسألهم عن القرية** ﴾ و ﴿ **إذ قالت أمة منهم** ﴾ ﴿ **وإذ تأذن ربك** ﴾ ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم** ﴾ ﴿ **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا** ﴾ انتهى كلام الزمخشري وهو بسط كلام مَنْ تَقَدَّمه] .

وهذا أيضاً هو الذي اعتمده الحافظ ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية حيث ذكر ذلك في أول تفسيرها (٦/ الجزء التاسع/ ص١١٠) وكذا في آخرها ص (١١٨) . وكذلك ابن كثير في تفسيره . وكذلك الإمام القرطبي حيث قال في تفسيره (٧/ ٣١٤) ما نصه :

« وقوله تعالى ﴿ **وإذ أخذ ربك** ﴾ أي واذكر لهم مع ما سبق من تذكير المواثيق في كتابهم ما أَخَذْتُ من المواثيق من العباد يوم الذر . **وهذه الآية مُشْكَلَة**(٤٨٠) .

وقد تَكَلَّمَ العلماء في تأويلها وأحكامها ، فنذكر ما ذكروه من ذلك حسب ما وقفنا عليه فقال قوم : معنى الآية أن الله تعالى أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من

---

(٤٨٠) اي مُشْكَلَة المعنى ، فمعناها غير محدد بالضبط .

بعض . قالوا : ومعنى ﴿ **أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم** ﴾ دَلَّهُم بخلقه على توحيده ، لأن كل بالغ يعلم ضرورة أن له رباً واحداً . ﴿ **ألست بربكم** ﴾ أي : قال : فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم والإقرار منهم ، كما قال تعالى في خلق السموات والأرض ﴿ **قالتا أتينا طائعين** ﴾ ، ذهب إلى هذا القفال وأطنب . وقيل إنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد ، وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها » . انتهى من القرطبي .

وذهب جماعة من أهل العلم إلى قول ضعيف مرجوح عندنا في تفسير هذه الآية وهو أنهم قالوا بأن الله تعالى أخرج حقيقةً جميع ذرية سيدنا آدم من صلبه (أي الأرواح) وأنه خاطبهم وقال لهم : ألستُ بربكم ؟ قالوا : بلى . ثم أعادهم في صلب سيدنا آدم عليه السلام .

وإنني أنقل ثلاثة أحاديث هي عمدة أدلتهم على تفسير هذه الآية الكريمة بإخراج الذرية من صلب سيدنا آدم عليه السلام ، والتي خالفوا لأجلها المعنى الذي قررناه ونقلناه عن أهل العلم الذين تقدَّم ذكرهم :

(الحديث الأول) : روى ابن جرير في تفسيره عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما رفعه قال : «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنَعْمان » يعني عرفة « فأخرج من صُلْبِهِ كل ذرية ذَرَأها فنثرهم بين يديه كالذَّرِّ ، ثم كلَّمهم فتلا فقال : ﴿ ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا ..... ﴾ الآية - إلى ما فعل المبطلون » .

قلت : هذا الحديث لم يثبت رَفْعُه بل الصواب أنه موقوف على سيدنا ابن عباس رضي الله عنه (أي أنه كلام ابن عباس وليس هو كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم) وقد صَرَّح بذلك جماعة من الحفاظ وأهل العلم ، منهم ابن كثير في تفسيره[٤٨١] ، وجزم الطبري بالقول الذي اخترناه كما تقدَّم .

والصواب أن هذا الحديث من الإسرائيليات المنقولة عن أهل الكتاب فهذا

---

[٤٨١] حيث قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٧٢) عن روايات الموقوف : « فهذا أكثر وأثبت » .

الأَثَر لا تقوم به حجة في الاستدلال لا سيما وقد تقرَّر في علم الأصول بأن الراجح أن مذهب الصحابي ليس بحجة يجب الأخذ بها .

(الحديث الثاني) : ما رواه البخاري (١١/٤١٦) ومسلم (٤/٢١٦١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً : « يقول الله تعالى لأَهْوَنِ أهل النار عذاباً يوم القيامة : لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به ؟ فيقول : نعم . فيقول : أردتُ منك أهون من هذا وأنت في صُلْبِ آدم : أن لا تشرك بي شيئاً فأبيتَ إلا أن تشرك بي » .

قلت : هذه اللفظة « وأنت في صلب آدم » مُدْرَجَة ، وهي من زيادات أبي عمران الجوني أحد رواته ، وذلك لأن البخاري ومسلماً رويا هذا الحديث من طرق عن قتادة عن سيدنا أنس وليس فيه هذه الزيادة (انظرالبخاري ١١/ ٤٠٠ ومسلم ٤/ ٢١٦١ وغيرهما) .

(الحديث الثالث) : حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وممن رواه ابن جرير في تفسيره (٦/٩/١١٣) وفيه : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾ قال : « أُخِذُوا من ظَهْرِه كما يؤخذ بالمِشْط من الرأس ، فقال لهم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، قالت الملائكة : شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » .

وهذا الحديث لا يصح سنده لأن في سنده أحمد بن أبى طيبة حدث بأحاديث كثيرة أكثرها غرائب كما **قال ابن عَدِيٍّ ، وقال أبو حاتم : يكتب حديثه**(٤٨٢) .

قلت : وقد شذَّ في روايته لهذا الحديث عن غيره فزاد فيه .

وقد اعتمد ما قلته فيه ابن كثير في « تفسيره » (٢/ ٢٧٣) وقال الحافظ ابن جرير الطبري عن هذا الحديث في « تفسيره » (٩/٦/١١٨) : « **ولا أعلمه صحيحاً** » . فتأمل جيداً !!

---

(٤٨٢) كما في « تهذيب التهذيب » (١/ ٣٩) وهذا تضعيف من أبي حاتم لهذا الرجل . قال الذهبي في « السير » (٦/ ٣٦٠) : « قلت : قد علمتُ بالاستقرار التام أن أبا حاتم الرازي إذا قال في رجل : يُكْتَبُ حديثه ، أنه عنده ليس بحجة .. » .

وبذلك يتبين ضعف ووهاء أدلة المستدلين لتفسير الآية بإخراج الذرية من صلب سيدنا آدم المخالف لظاهر الآية وصحة ما ذكرناه وبالله تعالى التوفيق .

ومن الأحاديث الموضوعة في هذا الموضوع أيضاً حديث :

« إني سألت ربي أولاد المشركين فاعطانيهم خدماً لأهل الجنة ، لأنهم لم يدركوا ما أدرك آباؤهم من الشرك ، ولأنهم على الميثاق الأول »(٤٨٣) .

[المسألة الثانية] : الميثاق الذي أُخِذَ علينا في وجوب إفشاء العلم وأن يتعلم الناس ويُعَلِّم بعضهم بعضاً ، وخاصة العلماء الأحكام التي أنزلها الله تعالى على رسله وأمر الناس بتطبيقها وتنفيذها والعمل بها .

والذي يتلخص الأمر بها في قوله تعالى : ﴿ **وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيينه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون** ﴾ آل عمران : ١٨٧ . وفي قوله تعالى ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون * إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم** ﴾ البقرة : ١٦٠ . وقوله تعالى : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم** ﴾ البقرة : ١٧٤ .

وقال ابن حبان في صحيحه (١/٢٩٧) : ذِكْرُ إيجاب العقوبة في القيامة على كاتم العلم الذي يُحْتَاجُ إليه في أمور المسلمين : ثم روى عن أبي هريرة قال رسول الله

---

(٤٨٣) أورده الحافظ السيوطي في « الجامع الصغير » برقم (٢٦٤١) وعزاه للحكيم الترمذي من حديث سيدنا أنس !! وتعقَّبه المُناوي في « فيض القدير » (٣/١٨) فقال : [إطلاق المصنف عزوه إليه غير سديد فإنه إنما ساقه بلفظ : « يروى عن أنس ولم يذكره له إسناداً » كما أورده الحافظ السيوطي برقم (٣٢٢٥) وأوله « سألت ربي فأعطاني أولاد المشركين » وقال عقبه : « رواه أبو الحسن بن مُلَة في أماليه عن أنس » قلت : وهو هو الأول ؛ الموضوع لا غير . والصواب فيما أرى أن اسمه : أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن مِيلَه الأصبهاني . مترجم في « سير أعلام النبلاء » (١٨/٢٩٧) قال الذهبي هناك : « وأملى عدة مجالس وقع لنا منها » .

صلى الله عليه وآله وسلم : « مَنْ كَتَمَ علماً تَلَجَّمَ بلجام من نار يوم القيامة »(٤٨٤) .

قال الإمام القرطبي في تفسيره (٧/ ٣١٢) : [قوله تعالى : ﴿ **ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** ﴾ الأعراف : ١٦٩ .

وهذا الذي لزم هؤلاء وأخذ عليهم به الميثاق في قول الحق لازم لنا على لسان نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وكتاب ربنا ، على ما تقدَّم بيانه في سورة النساء ، ولا خلاف فيه في جميع الشرائع ، والحمد لله] .

أقول : بَثُّ العلم وإظهاره ونشره والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصيحة الفُسَّاق وغير الملتزمين ووعظهم من الأمور الواجبات والقضايا المهمات التي بها قوام الإسلام في الأرض وقوته ، قال البخاري في « صحيحه » (١/ ١٩٤) :

« وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم(٤٨٥) : انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاكتبه ، فإني خِفْتُ دُروسَ(٤٨٦) العلم وذهاب العلماء ، ولا تقبل إلا حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ولتفشوا العلم . ولتجلسوا حتى يُعَلَّم مَنْ لا يَعْلَم ، **فإن العلم لا يهلك حتى يكون سِراً** » .

وعن سيدنا علي رضوان الله تعالى عليه : أنه ذكر فتناً تكون آخر الزمان ، فقال له عمر متى ذلك يا علي ؟ قال : « إذا تُفُقِّهَ لغير الدين ، وتُعُلِّمَ العلم لغير العمل ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة »(٤٨٧) .

فيجب على العلماء أن يخترعوا الطرق والأساليب لتفقيه الناس وتعليمهم

---

(٤٨٤) والحديث صحيح رواه أحمد في مسنده (٢/ ٢٦٣) وأبو داود (٣/ ٣٢١) وغيرهم .

(٤٨٥) أبو بكر بن حزم هو أحد الأئمة الكبار من التابعين وهو من رجال الستة وهو غير ابن حزم الظاهري فتنبه لذلك وبينهما أربعة قرون تقريباً . انظر ترجمته في « تهذيب التهذيب » (١٢/ ٤٠) وغيره .

(٤٨٦) دروس العلم : أي ضياع العلم وذهابه ، وفي القاموس المحيط : « درس الرسم : عفا ، ودَرَسَتْه الريح » أي أذهبت أثره ومَحَتْهُ . وفي كتاب « المفردات » للإمام الراغب : فسر الدروس بالانمحاء .

(٤٨٧) رواه الإمام عبد الرزاق في المصنف (١١/ ٣٦٠) والحاكم (٤/ ٤٥١) وهو صحيح ، وسليم الراوي عن سيدنا عمر هو أبو الشعثاء والله تعالى أعلم .

أحكام الإسلام لا سيما في هذا الزمان الذي استهتر أهله بتعلم العلوم الشرعية وتطبيقها ، وظن أكثر المتظاهرين بالإسلام أن الدِّين هو حضور الصلوات الخمس جماعة في المسجد فقط مع الجهل التام بأحكام الإسلام ، والكلام في الأوضاع السياسية العالمية وما يصيب المسلمين من ويلات في مشارق الأرض ومغاربها ، مع كون هؤلاء المنشغلين بهذه الأمور جهلاء بكثير نت أسس الإسلام وكليات الدين مبتعدين عن التفقه في الدين وقراءة القرآن ودراسة الحديث النبوي الشريف محجوبين عن الله تعالى بحجاب الحزبية أو العصبية والتعصب ! أعاذنا الله تعالى من ذلك !

لذا يجب نشر العلم وبثه وتعليم الناس ، كما يجب التفكير العميق الجاد لإنشاء معاهد ومدارس وجامعات تُخَرِّج علماء أكفاء مخلصين محتسبين ، ويجب أن يُدَرِّسَ في هذه المعاهد والمدارس علماء مخلصون على طريقة السلف الصالح وعلى قدم النبوة ، رؤيتهم وحالهم يُذَكِّرُ بالله تعالى ، يبثون ويبعثون في أجيال المجتمع الإسلامي العلم والعمل والإخلاص والجد والتشمير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحب الله ورسوله والتضحية والشهامة والنجدة والنخوة والتواضع وعدم الغش وتجنب المكر والخيانة وغير ذلك من الأمور التي بها قوام المجتمع الإسلامي السليم الصحيح المعافى من الأمراض الخبيثة والأسقام وإلا فالأمر كما قال صلى الله عليه وآله وسلم :

« إن الله لا يَقْبِضُ العلمَ انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يُقْبَضُ العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » رواه البخاري (١/ ١٩٤) ومسلم (٤/ ٢٠٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو .

وقد أكَّد النبي صلى الله عليه وآله وسلم على وجوب بَثِّ العلم لذلك ، فقد خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً ثم قال : « ما بال أقوام لا يُفَقِّهُون جيرانهم ولا يُعَلِّمونهم ولا يَعِظونهم ولا يأمرونهم ولا يَنْهَونَهم وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا

يتفقهون ولا يتَّعِظون ...» الحديث رواه الطبراني(٤٨٨) .

---

(٤٨٨) وهو حديث حسن في الفضائل أورده الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » (١/ ١٢٢) والحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١/ ١٦٤) .

فصل

الأولياء وكراماتهم

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ولا نُفَضِّلُ أحداً من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ونقول نبي واحد أفضل من جميع الأولياء ، ونؤمن بما جاء من كراماتهم ، وصح عن الثقات من رواياتهم ؛ والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن ، وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن) .

الشرح :

لا شكَّ ولا ريب أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكذلك الرسل أفضل من الأولياء ؛ وقد غالى بعض أهل الضلال في هذا الباب فزعموا أن الأولياء أفضل الخلق ثم يليهم الأنبياء ثم الرسل فعكسوا الحق رأساً على عقب !! ومن اعتقد هذا الاعتقاد كفر وارتد والعياذ بالله تعالى ، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في « الإصابة » (١/ ٤٣٠) في ترجمة سيدنا الخضر عليه الصلاة والسلام :

« وكان بعض أكابر العلماء يقول : أوَّل عقد يُحَلُّ من الزندقة اعتقاد كون الخضر (عليه السلام) نبياً لأن الزنادقة يتذرَّعون بكونه نبي إلى أن الولي أفضل من النبي !! كما قال قائلهم :

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي » انتهى .

وأما الإيمان بأن عباد الله تعالى فيهم أولياء فهذا أمر ثابت في القرآن الكريم يكفر من جحده وأنكره ؛ قال الله تعالى ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ يونس : ٦٤ .

والصحيح عندنا في تعريف الولي هو : المسلم المؤمن الذي تعلَّم ما يجب عليه معرفته من التوحيد والفقه الضروري المحافظ على أداء الفرائض ثم الزائد عليها من

النوافل ؛ ولا يشترط الإتيان بالنوافل كلها وإنما بقدر الاستطاعة ، المتوجِّه بصدق القلب والإخلاص لله تعالى في أعماله ، الذي تكره نفسه المعاصي وتحب الطاعات ، الغائر على حرمات الله تعالى المهتم بأمر المسلمين ، ولا يشترط في حقه ظهور كرامة على يديه .

هذا هو التعريف الصحيح الجامع المانع في تعريف الولي عندنا .

أما قولنا (المؤمن المسلم) فهذا قيد لا بُدَّ منه فخرج بذلك الكافر والمشرك إذ يستحيل أن يكون الواحد منهما من أولياء الله تعالى ويُلْحَق بهما الفاسق والمنافق لما ورد في القرآن من ذمِّهما .

وأما قولنا (الذي تَعَلَّم ما يجب عليه معرفته من التوحيد والفقه الضروري) فهذا هو أسُّ التقوى ولا بد من تحقق هذا في الولي ؛ وأبسط تعريف للتقوى هي : معرفة ما أوجبه الله تعالى وفَرَضَهُ مع الإتيان به ومعرفة ما حرَّمه والانتهاء عنه ، وغير هذا خرط القتاد !! والدليل عليه قوله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث الصحيحين : « مَنْ يُرِدِ الله به خيراً يُفَقِّه في الدين »(٤٨٩) قال الحافظ ابن حجر في شرحه في « الفتح » (١/ ١٦٥) :

[ومفهوم الحديث أنَّ مَنْ لم يتفقه في الدين أي يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع فقد حُرِمَ الخير ، وقد أخرج أبو يعلى حديث معاوية من وجه آخر ضعيف وزاد في آخره « ومن لم يتفقه في الدين لم يُبَالِ الله به » والمعنى صحيح .

لأن من لم يعرف أمور دينه لا يكون فقيهاً ولا طالب فقه فيصح أن يوصف بأنه ما أُرِيدَ به الخير وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس ولفضل التَّفَقُّه في الدين على سائر العلوم] .

وبذلك يتبين أن الولي لا يكون إلا متفقهاً في دينه وإلا لم يكن فيه خير ، ومن

---

(٤٨٩) روا البخاري (١/ ١٦٤) ومسلم (٢/ ٧١٨) ، ورواه أحمد (١/ ٣٠٦) وغيره بسند صحيح من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، ورواه أحمد (٢/ ٣٤) وابن ماجه (١/ ٨٠) وغيرهما بسند صحيح عن أبي هريرة . وعند الطحاوي في مشكل الآثار (٢/ ٢٨١) من حديث ابن عمر وهو حسن .

لم يكن فيه خير لم يكن ولياً ، على أن الإنسان المتفقه في الدين لا يَعْرِفُ أنه مُتَفَقِّهٌ في دينه إلا المتفقهون والمشتغلون بالعلم أما العامة وأشباههم ومن يدَّعي العلم فإنه قد يصف إنساناً بالعلم والفقه والورع والتقوى وهو ليس كذلك !! ولذلك مشى على كثير من العامة ورُوِّج عليهم أن فلاناً عالم أو ولي !! وهو ليس كذلك والله المستعان !!

ولذلك قال بعض العلماء نظماً :

وجاهل لفرض عين لم يجز   إطلاق لفظ صالح عليه فاحترز
لأنه بتركه التعلما   لم يَن(٤٩٠) فاسقاً يقول العلما

وأما قولنا (المحافظ على أداء الفرائض ثم الزائد عليها من النوافل ؛ ولا يشترط أن يأتي بالنوافل كلها وإنما بقدر الاستطاعة) لأن العالم الذي لا يعمل بما عَلِمَ وخاصة الفرائض لا يكون ولياً ولا يعتبر مستقيماً على الشريعة ؛ ويدل عليه قوله تعالى ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ الأحقاف : ١٣ ، فالاستقامة على أمر الشريعة أمرٌ مُحَتَّمٌ في ذلك ولذلك قيل : الاستقامة أعظم كرامة ، وقال تعالى ﴿ **وألَّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً** ﴾ الجن : ١٦ .

ولحديث البخاري (١١/٣٤١) : « وما تقرَّب إليَّ عبدي بأحب مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ... » .

وقولنا (المتوجه بصدق القلب والإخلاص لله تعالى في أعماله) فلقوله تعالى ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ البقرة : ١١٢ ، وقال تعالى ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً** ﴾ الروم : ٣٠ وقال

---

(٤٩٠) قال الشيخ العلامة محمد حبيب الله الشنقيطي في « زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم » (٣/ ٣٣٢) : « وقوله لم يَنِ معناه لم يزل ؛ لأنه مِنْ وَنَى بمعنى زال ؛ أي يقول العلما : إنه لم يزل فاسقاً بتركه التعلم الواجب عليه ؛ فالصالح لا يطلق شرعاً إلا على القائم بحقوق الله وحقوق العباد ؛ ولا يمكن ذلك بدون العلم » .

تعالى ﴿ **فأقم وجهك للدين القيم** ﴾ الروم : ٤٣ ، وقال تعالى ﴿ **فاعبد الله مخلصاً له الدين * ألا لله الدين الخالص** ﴾ الزمر : ٣ .

وقولنا (الذي تكره نفسه المعاصي وتحب الطاعات الغائر على حرمات الله تعالى) فلقوله تعالى ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون** ﴾ الحجرات : ٧ .

وجاء في الحديث « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »(٤٩١) أي لا يبلغ كمال الإيمان حتى يكون كذلك .

وقولنا (المهتم بأمر المسلمين) لحديث « مَنْ لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم »(٤٩٢) ولأن الذي لا يهتم بأمر المسلمين وأحوالهم لا يكون مهتماً بدين الله تعالى ولا لديه حرص على انتشاره في الأرض وبين الناس ، فلا يدل ذلك على موالاته لله ومعاداته أعداء الله تعالى ، فيكون مُقَدِّماً حب غير الله ورسوله عليهما ، بحيث لا يظهر منه في أحواله وكلامه وأفعاله حب الله ورسوله ، وكل ذلك مناف لأن يُحِبَّهُ الله تعالى حتى يصبح من أوليائه ، وقد جاء في الحديث الصحيح « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مَثَلُ الجسد ، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه مسلم (٤/ ١٩٩٩) من حديث النعمان ، وعن جرير بن عبد الله البَجَلي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « مَنْ لا يَرْحَم لا يُرْحَم » رواه البخاري (١٠/ ٤٣٨) ، ورواه مسلم (٤/ ١٨٠٩ برقم ٦٥) من حديث أبي هريرة .

---

(٤٩١) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٣/ ٢٨٩) : [ويجمع ذلك كله حديث أبي هريرة « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ، ورجاله ثقات وقد صححه النووي في آخر الأربعين] اهـ . ومنه تعلم خطأ من اقتصر على تخريج الحديث وتضعيفه من رواية عبد الله بن عمرو كالمتناقض !! في تعليقه على سنة ابن ابي عاصم ص (١٢) حديث رقم (١٥) وفي تخريج المشكاة (١/ ٥٩ برقم ١٦٧) .

(٤٩٢) رواه الطبراني في الأوسط كما في « مجمع البحرين » (١/ ١٢٨) والصغير (الروض الداني ٢/ ١٣١) وأبو نُعَيم في « تاريخ أصبهان » (٢/ ٢٢٢) وهو حسن خلافاً لما زعم المتناقض !! في ضعيفته برقم (٣١٢) .

فمن لم يرحم المؤمنين ويتفقدهم بماله وجاهه وغير ذلك كتعليمه لهم وغيره مما يقدر عليه لا يعتبر مُهْتَمّاً بهم فلا يستحق الولاية ، والله الموفق .

ومما جاء من الأحاديث الشريفة النبوية في ذكر الأولياء : ما رواه البخاري في « الصحيح » (٣٤١/١١) عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« إن الله تعالى قال : مَنْ عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرَّب إليَّ عبدي بأحب مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأُعِيذَنَّه .... » الحديث[٤٩٣] .

قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٢١٩/١٠) : « وروى البخاري حديث من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب عن ابن كرامة عن خالد وهو غريب جداً لم يروه سوى ابن كرامة عنه » .

وإنني أنقل جُمَلاً وعبارات من شرح الحافظ ابن حجر في « الفتح » على هذا الحديث فأقول : قال الحافظ رحمه الله تعالى :

[**قوله (مَنْ عادى لي ولياً)** المراد بولي الله العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته... قال أبو القاسم القشيري : قُرْبُ العبد من ربه يقع أولاً بإيمانه ، ثم بإحسانه ، وقرب الرب من عبده ما يخصُّه به في الدنيا من عرفانه ، وفي الآخرة من رضوانه ، وفيما بين ذلك من وجوه لطفه وامتنانه ، ولا يتم قرب العبد من الحق إلا ببعده من الخلق ، قال : وقُرْبُ الرَّب بالعلم والقدرة عام للناس ؛ وباللطف والنصرة خاص بالخواص ، وبالتأنيس خاص بالأولياء .

---

[٤٩٣] ولشيخنا المحدث العلامة السيد عبد العزيز بن الصديق رحمه الله تعالى رسالة ردَّ بها على الذهبي الذي قال في « الميزان » (٦٤٠/١) في ترجمة خالد بن مخلد القطواني « فهذا حديث غريب جداً لولا هيبة الجامع الصحيح لعدوه من منكرات خالد بن مخلد » !! واسم هذه الرسالة « إثبات المزية بإبطال كلام الذهبي في حديث مَنْ عادى لي ولياً » فلينظرها من يشاء الاستزادة والتوسع والتحقيق في هذه المسألة .

وقال الفاكهاني : معنى الحديث أنه إذا أدّى الفرائض وأدام على إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرهما أفضى به ذلك إلى محبة الله تعالى . وقال ابن هبيرة : يؤخذ من قوله (ما تَقرَّبَ ....) الخ أن النافلة لا تُقَدَّمُ على الفريضة لأن النافلة إنما سُمِّيتْ نافلة لأنها تأتي زائدة على الفريضة فما لم تؤدَّ الفريضة لا تحصل النافلة ، ومن أدّى الفرض ثم زاد عليه النفل وأدام ذلك تحققت منه إرادة التقرُّب .

كما قال بعض الأكابر : مَنْ شغله الفرض عن النَّفْل فهو معذور ، ومن شغله النَّفْل عن الفرض فهو مغرور .

قوله (كنت سمعه الذي يسمع به ....) الخ : اتفق العلماء ممن يعتد بقوله أن هذا مجاز وكناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته .

قوله (ولئن سألني أعطيته) وقد استشكل بأن جماعة من العباد والصلحاء دعوا وبالغوا ولم يجابوا !! والجواب : أن الإجابة تتنوع فتارة يقع المطلوب بعينه على الفور وتارة يقع ولكن يتأخر لِحِكْمَةٍ فيه ، وتارة قد تقع الإجابة ولكن بغير عين المطلوب حيث لا يكون في المطلوب مصلحة ناجزة وفي الواقع مصلحة ناجزة أو أصلح منها .

وقد تَمسَّك بهذا الحديث بعض الجهلة من أهل التَّجلّي والرياضة فقالوا : القلب إذا كان محفوظاً مع الله كانت خواطره معصومة من الخطأ ، وتَعَقَّبَ ذلك أهل التحقيق من أهل الطريق فقالوا : لا يُلْتَفَتُ إلى شيء من ذلك إلا إذا وافق الكتاب والسنة ، والعصمة إنما هي للأنبياء ، ومَنْ عداهم فقد يخطىء ، فقد كان عمر رضي الله عنه رأس المُلْهَمين ومع ذلك فكان ربما رأى الرأي فيخبره بعض الصحابة بخلافه فيرجع إليه ويترك رأيه ، فمن ظن أنه يكتفي بما يقع في خاطره عما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام فقد ارتكب أعظم الخطأ ، وأما من بالغ منهم وقال : حَدَّثني قلبي عن ربي فإنه أشد خطأً فإنه لا يأمن أن يكون قلبه إنما حدَّثه عن الشيطان ، والله المستعان] . انتهى من « الفتح » .

هذا مختصر ما يتعلق بالولي وأما الكرامة فقد تقدَّم في الكلام على معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن الأمر الخارق للعادة ينقسم إلى خمسة أنواع

أعظمها المعجزة التي تكون للرسول والنبي ، ويليها الكرامة وهي : أمر خارق للعادة يُظْهِرُه الله تعالى على يد المؤمن التقي الصالح المنقاد لشرع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن علامات هذا المؤمن أن تكون عقيدته صحيحة وأن يكون قد تعلَّم وعرف ما فرضه الله عليه ، ولذلك قال العلماء : (ما اتخذ الله ولياً جاهلاً ولو شاء أن يتخذه لعلَّمَهُ) فمن ظهرت على يديه الخوارق ولم يكن مستقيماً شرعاً بنظر العلماء في اعتقاداته وعباداته فليس بولي ، وما يظهر على يديه ليس كرامة ، والعوام لا يميزون بين الولي التقي العالم إلا بالمنظر والمظهر !! فيحسبون بعض الناس أولياء أخذاً بمظهرهم وليسوا كذلك !!

وقد نَبَّهْنَا أيضاً على أن قول من قال : (ما كان معجزة لنبي صح أن يكون كرامة لولي) خطأ وليس صوباً على إطلاقه ، والله الموفق .

ومن الأدلة على ثبوت الكرامة في القرآن قوله تعالى عن السيدة مريم ﴿ **كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ آل عمران : ٣٧ .

والسيدة مريم عليها السلام لم تكن من الأنبياء لقوله تعالى ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى** ﴾ يوسف : ١٠٩ .

والكرامات المنقولة عن الأمم السابقة والصحابة والأولياء كثيرة منها إجابة الطفل الرضيع وعُمُرُهُ أيام لِجُرَيج الراهب لما سأله « مَنْ أبوك ؟» فأجاب بأنه الراعي فبرَّأه الله تعالى مما رماه به بنو إسرائيل من الزنا وهو في البخاري (٦/ ٤٧٦) ومسلم (٤/ ١٩٧٧) ، والبقرة التي تكلَّمت فقالت لمن ركبها وضربها :

« لم أُخْلَق لهذا ، إنما خُلِقْتُ للحَرْث » وهي في البخاري (٦/ ٥١٢) ، والغلام الذي كان يأتي الراهب فيتعلم منه وهو في الترمذي (٥/ ٤٣٧) .

قال الإمام الدميري في « حياة الحيوان » (١/ ٢٨٩) :

« فائدة : قال شيخنا اليافعي رحمه الله : لا يلزم أن يكون مَنْ له كرامة من الأولياء أفضل ممن ليس له كرامة منهم ؛ بل قد يكون بعض مَنْ ليس له كرامة منهم أفضل من بعض مَنْ له كرامة ، لأن الكرامة قد تكون لتقوية صاحبها ؛

وكمال المعرفة بالله » انتهى .

وبالجملة فالمؤمنون الأتقياء الذين يؤدون ما فرض الله عليهم وينتهون عما نهاهم الله تعالى عنه أولياء الله تعالى لقوله جل وعز : ﴿ **وما لهم إلا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ الأنفال : ٣٤ .

ولقوله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلاً من غفور رحيم** ﴾ فصلت : ٣٢ .

اللهم اجعلنا منهم وألحقنا بهم مؤمنين مسلمين غير خزايا ولا مفتونين آمين آمين .

فصل

معنى الجماعة والفرقة وأنواع الاختلاف

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ونرى الجماعة حقاً وصواباً والفرقة زيغاً وعذاباً)

الشرح :

قال الإمام الرغب في « المفردات » : « الاختلاف والمخالفة أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو قوله ، والخلاف أعم من الضد لأن كل ضدين مختلفان وليس كل مختلفين ضدين ، ولما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يقتضي التنازع استعير ذلك للمنازعة والمجادلة » .

قلت : الاختلاف منه ما هو جائز ومحمود ، ومنه ما هو محرم ومذموم ، وقد جاء ذكر كل من هذين القسمين في القرآن الكريم والسنة المطهرة الصحيحة فلنذكر بعض النصوص التي وردت في ذلك :

النصوص التي فيها تجويز الاختلاف ومدحه :

قال الله تعالى : ﴿ **فهدى الله الذي آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ البقرة : ٢١٣ . وقال تعالى : ﴿ **ما قطعتم من لِيْنة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله** ﴾ الحشر : ٥ . وقد كان الصحابة اختلفوا في قطع الأشجار وهدم البيوت في يهود بني النضير ، فقطع قوم منهم ، وترك آخرون ، قال الإمام الماوردي رحمه الله تعالى : إن في هذه الآية دليلاً على أن كل مجتهد مصيب . [نقله عنه القرطبي في تفسيره (٨/١٨)] .

وقال تعالى ﴿ **وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً** ﴾ الأنبياء : ٧٨ - ٧٩ . وكان كل منهما عليهما الصلاة والسلام كان قد خالف الآخر في حكمه فحكم بشيء مخالف للآخر .

وفي صحيح البخاري (٢/ ٤٣٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لنا لما رجع من الأحزاب « لا يُصَلِّيَنَّ أحد العصر إلا في بني قريظة » فأدرك بعضهم العصر في الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلي حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلي لم يُرِدْ منا ذلك ، فذكر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم يعنف واحداً منهم ، وهو صلى الله عليه وآله وسلم لا يقر على الباطل !!

وروى البخاري (١٣/ ٣١٨) ومسلم (٣/ ١٣٤٢) عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » .

وفي البخاري (٩/ ١٠١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أنه سمع رجلاً يقرأ آية سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ خلافها ، فأخذتُ بيده فانطلقت به إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « **كلاكما مُحْسِنٌ** » .

النصوص التي فيها تحريم الاختلاف وذمه :

قال الله تعالى : ﴿ **وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم** ﴾ آل عمران : ١٩ . وقال الله تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم** ﴾ آل عمران : ١٠٥ . وقال تعالى ﴿ **إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون** ﴾ الأنعام : ١٥٩ . وقال تعالى ﴿ **ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك** ﴾ هود : ١١٩ . وقال تعالى ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا** ﴾ آل عمران : ١٠٣ .

وروى البخاري (١٣/ ٢٥١) ومسلم (٢/ ٩٧٥) عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ذروني ما تركتكم فإنما هلك مَنْ كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » .

ضابط الاختلاف الجائز والاختلاف المحرّم :

قال الله تعالى : ﴿ **وما تَفَرّق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة**

*** وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** ﴾ البينة : ٤-٥ .

إذا وجد الإخلاص والصدق ، وخلا القلب عن البغضاء والحسد والظلم وحب الرياسة وإظهار التفوق والسيادة وحب قهر الغير ، وكان القلب وضمير المرء مهموماً بخدمة الدين وإعلاء الحق والشفقة على المسلمين وإنصاف المظلومين وما إلى ذلك من العناصر المضادة للبغي كان الاختلاف جائزاً بشرط أن لا يخرج عن إطار الشرع واللغة وإلا كان محرماً مؤدياً إلى مُحَرَّم أكبر ألا وهو التفرُّق والشحناء والانقسام إلى شِيَعٍ وأحزاب ﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون * فذرهم في غمرتهم حتى حين** ﴾ المؤمنون ٥٢ - ٥٤ .

ومتى تبين للمسلمين بالعلم أو بالقرائن أن دافع المخالِف اتّباع الهوى أو الترخُّص لشهوة النفس أو الطمع في أمر دنيوي يضاد المقصد الأسمى الذي هو رضى الله تعالى ، أو يضاد مبدأ خدمة الدين وحراسته وصيانته ، أو أن المخالف بعيد عن حب الأُلْفَة والرحمة والمحبة لعباد الله والاجتماع على طاعته ورضاه كان خلافه مذموماً وكان صاحبه خاسراً ؛ لا يجوز لإنسان أن يوافقه أو يؤيده أو يسير معه أو يناصره .

وقد يختلف اثنان فيكون كل منهما مخطئاً موزوراً ، قال الله تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد** ﴾ البقرة : ١٧٦ . وقال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون** ﴾ التوبة : ٣٠ .

فهذه الآيات واضحة في أن هاتين الفرقتين اختلفتا وكل منهما على ضلالة وكفر .

وقد يختلف اثنان فيكون أحدهما مصيباً على هدى والآخر مخطئاً على ضلالة ، قال الله تعالى : ﴿ **ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما**

جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴾ البقرة : ٢٥٣ . فتبين من هذا أن المختلفَين في أمر قد يكون أحدهما أو أحد الفريقين على ضلالة والآخر على هدى ، ومن هذا الباب ما وقع بين بعض الصحابة وما وقع بين سيدنا علي رضوان الله عليه ومن معه من الصحابة الكرام وبين معاوية وحزبه ، وقد أجمع أهل الحق على أن معاوية وحزبه بغاة لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « عمار تقتله الفئة الباغية ، عمار يدعوهم إلى الله ، ويدعونه إلى النار » رواه البخاري (٦/ ٣٠) بهذا اللفظ ومسلم (٤/ ٢٢٣٥ - ٢٢٣٦) مختصراً ، وهو عند البخاري في موضع آخر في الصحيح (١/ ٥٤١) بلفظ : « يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » ، وهذه المسألة مشروحة في بابها .

وقد يختلف اثنان فيكون كل منهما على صواب وهدى - سواء كان خلافهما خلاف تضاد أو تنوع[٤٩٤] - قال الله تعالى : **﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴾** البقرة : ٢١٣ .

وتقدَّمَتْ الأحاديث الصحيحة في إقرار النبي صلى الله عليه وآله وسلم للمختلفين في صلاة العصر وكذا في القراءة عندما قال : « **كلاكما مُحْسِن** » .

ما هو المطلوب الواجب عند وجود الخلاف في الرأي أو التنازع :

قال الله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾** النساء : ٥٩ .

يجب شرعاً على مَنْ رأى خلافاً أن لا يعتزل الأمر وأن لا يَبْتعد عنه ، بل يجب عليه أن يعرف قول كل من المختلفين وأن يجتهد في معرفة الحق حتى يقوله ويبدي رأيه فيه ويقوم بالإصلاح أن كان مطلوباً شرعاً ، فإن كان الحق مع أحد المختلفين وجب أن يناصره ويقف معه ، وإذا كان الحق ليس معهما فيجب عليه أن

---

[٤٩٤] على رأي من يقول بأن الخلاف على نوعين : الأول خلاف تضاد : كتحريم شيء في نص مقابل تحليله في نص آخر ، وخلاف تنوع : مثل الأخذ بأي صيغة من صيغ التشهد الواردة عنه صلى الله عليه وآله وسلم لأنها متنوعة في الألفاظ .

يبين لهما الحق بأي وسيلة يراها ناجعة وصواباً ، ثم إن أذعنا للحق فيجب عليه أن يصلح بينهما . والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾ ولا يتم الإصلاح إلا بعد فهم القضية الدائرة بينهما ومعرفة الحق فيها ، وبعد معرفة المُحِقِّ من المُبْطِل ﴿ **فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله** ﴾ انظر كيف أمر المسلمين والمؤمنين أن لا يتركوا اقتتال الفئتين الناشئ عن اختلافهم بل أمر سبحانه بمحاربة الفئة الباغية ومناصرة المُحِقَّة منهما والوقوف معها وإرغام الباغية على الرجوع للحق وعدم ترك هذا الأمر على الدوام إلى حين رجوع الفرقة المخطئة ﴿ **فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾ الحجرات : ٩ ، أمر سبحانه بإزالة الشحناء والرضوخ للحق وحمل الجميع على التحاب فيما بينهم وعلى الألفة إذا عادت الفئة الباغية للحق ورضخت له ، وفي هذا أكبر بيان ودليل على ما قررناه ، والله الموفق .

[فائدة مهمة] : من الناس اليوم - وهم ممن لم يُرْزَقوا الإخلاص فيما يظهر - يجعلون الاختلاف تارة ممدوحاً وتارة مذموماً على حسب ما تشتهي أنفسهم وتوحيه نزغاتهم(٤٩٥) وتتم به مقاصدهم !! فتراهم يقولون حال ابتعادهم عن العلم وأهله وحثهم الناس على ذلك وتعصبهم لحزبهم أو لآرائهم : (انظروا إلى فلان وفلان أو إلى أولئك وأولئك كيف يختلفون ويتنازعون !!) فنراهم في مثل هذا الموضع يذكرون الاختلاف في معرض الذم والقدح !! وتارة أخرى نراهم يقولون في بابة التلفيق وإتباع رخص العلماء المختلفين والتأويلات والشهوات والميل للدَّعَة والتفلُّت من الأحكام وعدم الانقياد للشرع مع التظاهر بالديانة إذا صادمت أهواءهم مسألة حرَّمها الشرع وصادم التحريم نزغاتهم : (هذه المسألة اختلفوا فيها فيجوز أن نفعلها) !!

فيجعلون ههنا الاختلاف في معرض المدح المحمود الذي يُسَهِّلُ عليهم

---

(٤٩٥) أي وساوسهم .

الوصول لرغباتهم وشهواتهم وأهوائهم !! - في ظلال الجهل والتعصب المذموم - ولولا أنه محمود ههنا عندهم لما أخذوا منه جواز الأخذ بالأسهل عليهم !! فانظر إلى الشيطان كيف يلعب بهذا الفريق من الناس !!

فصل

في بيان بطلان حديث الافتراق

وأما حديث الافتراق فهو حديث باطل لضعف إسناده ولبطلان معناه ومخالفة ظاهره للقرآن الكريم ؛ وأسانيده من جميع طرقه ضعيفة لا تخلوا من مقال !! وإليكم بعض ذلك :

الحديث : « افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة ؛ وتفرَّقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ؛ وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » رواه أحمد في المسند (٢/ ٣٣٢) وأبو داود في السنن (٤/ ١٩٨) وغيرهما .

وفي إسناده من حديث أبي هريرة محمد بن عمرو بن علقمة وهو ضعيف كما بينته في « التناقضات الواضحات » (٢/ ٢٤٠) ، وفي إسناده من حديث معاوية : أزهر بن عبد الله الهوزني : وهو غير ثقة ؛ قال ابن الجارود كان يَسُبُّ علياً رضوان الله عليه(٤٩٦) ؛ كما في ترجمته في « التهذيب» (١/ ١٧٩) وقال أزهر هذا : « كنت في الخيل الذين سَبَوا أنس بن مالك فأتينا به الحجاج » قلت : فلعنة الله عليه . والحديث مسلسل بالنواصب .

وأما إسناد الحديث عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه فله سبعة طرق

---

(٤٩٦) وهنا ينبغي أن يطبق النواصب ما قاله أبو زُرْعة الرازي : « إذا رأيت رجلاً ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاعلم أنه زنديق » !! وما بالنا نراهم يطبقون هذه القاعدة التي لا دليل عليها على من انتقص بني أمية وأتباعهم وأذنابهم ولا يطبقونها على من انتقص سيدنا علياً رضي الله عنه أو بعض أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المصطفين الأخيار ؟!!

تقريباً لا تخلو طريق منها من كذَّاب أو وضاع أو ضعيف أو مجهول(٤٩٧) !!

وأما إسناد عوف بن مالك ففيه عَبَّاد بن يوسف وهو ضعيف ؛ قال الحافظ في « التقريب » : « مقبول » وليس له في الكتب الستة إلا هذا الحديث ؛ وقال ابن عَدِي : « روى أحاديث تفرَّد بها » قلت : وهذا منها [انظر « تهذيب التهذيب » (٥/ ٩٦)] . وهو في « ديوان الضعفاء » للذهبي برقم (٢٠٨٩)(٤٩٨) .

وأما إسناد حديث عبد الله بن عمرو فرواه الترمذي (٥/ ٢٦) وفي إسناده عبد الرحمن بن زياد الإفريقي وهو ضعيف(٤٩٩) .

وأما حديث أبي أمامة فرواه ابن أبي عاصم في « سنته » (١/ ٣٤ برقم ٦٨) وهو ضعيف ؛ ففي سنده قَطَن بن عبد الله وهو مجهول ، وكذا أبو غالب وهو ضعيف ؛ قال أبو حاتم : « ليس بالقوي » وقال النَّسَائي : « ضعيف » وقال ابن حِبَّان « لا يجوز الاحتجاج به إلا فيما وافق الثقات » ، وقال ابن سعد : « منكر الحديث » [انظر « تهذيب التهذيب » (١٢/ ٢١٦) وهذا قول مَن ضعَّفه و « تهذيب الكمال » (٣٤/ ١٧١)] .

وأما حديث ابن مسعود فرواه ابن أبي عاصم في « سنته » (١/ ٣٥) وهو موضوع في إسناده عقيل الجعدي قال الحافظ ابن حجر في « لسان الميزان »

---

(٤٩٧) وقد اعترف بذلك متناقض عصرنا في « صحيحته » (١/ ٣٥٩ - ٣٦١) ومع ذلك صححه وزعم أن ذوي الأهواء حاولوا تضعيفه والحكم عليه أو على بعض ألفاظه بالبطلان !! مع أن حكم ذوي الأهواء هو الصواب لا ما ذهب إليه ذاك المتناقض !!

(٤٩٨) قال البوصيري في « زوائد ابن ماجه » (٣/ ٢٣٩) عن حديثه هذا : « هذا إسناد فيه مقال ، راشد بن سعد قال فيه أبو حاتم : صدوق ، وعباد بن يوسف لم يخرج له أحد سوى ابن ماجه ...» ومنه تعلم أن قول المتناقض !! في « صحيحته » (٣/ ٤٨٠) عن إسناده إنه « جيد » غير جيد !!

(٤٩٩) ومن الغريب العجيب أن نرى الشيخ المتناقض !! يتناقض في هذا الحديث من رواية ابن عمرو إذ نجده يذكره في « صحيح الترمذي » (٢/ ٣٣٤) وينص على ضعفه في « صحيحته » (٣/ ٣٣٤) حيث يقول : « بل الحديث صحيح فإن له شاهداً من حديث عبد الله بن عمرو نحوه ، أخرجه الترمذي والحاكم (١/ ١٢٩) بسند ضعيف ، كما بينته في تخريج المشكاة (١٧١) » !!! فيا للعجب !!! وقال في المشكاة (١/ ٦١) أيضاً : « قلت : عِلَّتُهُ عبد الرحمن بن زياد الإفريقي وهو ضعيف » !!

(٤/ ٢٠٩فكر) : « قال البخاري : منكر الحديث ، .... وقال ابن حبان : منكر الحديث ؛ يروي عن الثقات ما لا يشبه حديث الأثبات فبطل الاحتجاج بما روى ولو وافق فيه الثقات » . وله سند آخر بعده عند ابن أبي عاصم وهو سند تالف ، والله الموفق .

وأما حديث سيدنا علي كرم الله وجهه فممن رواه ابن أبي عاصم في « سنته » (٢/ ٤٦٧ برقم ٩٩٥) وهو ضعيف جداً في إسناده ليث ابن أبى سُلَيم وحاله معروف ؛ ضعيف واختلط .

هذا من ناحية إسناده أما من ناحية متنه فنقول :

نحن نقول ببطلان هذا الحديث سواء بزياداته أم بدونها ؛ والتي منها « كلها في النار إلا واحدة » و « كلها في الجنة إلا واحدة » فَبِغَضٍّ النظر عن هذه الزيادات نحن نقول بأن أصل الحديث باطل للأمور التالية :

١- لأن الله تعالى يقول عن هذه الأمة المحمدية في كتابه العزيز ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ آل عمران : ١١٠ ؛ ويقول أيضاً ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً** ﴾ البقرة : ١٤٣ ، فهذه الآيات تقرر أن هذه الأمة هي خير الأمم وأنها أوسطها ومعنى أوسطها أفضلها وأعدلها ؛ قال الفخر في مختار الصحاح : « والوسط من كل شيء أعدله » ، وأما هذا الحديث فيقرر أن هذه الأمة شر الأمم وأكثرها فتنة وفساداً وافتراقاً !! فاليهود افترقوا على إحدى وسبعين فرقة ثم جاء النصارى فكانوا شراً من ذلك وأسوأ حيث افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة ثم جاءت هذه الأمة فكانت أسوأ وأسوأ فافترقت على ثلاث وسبعين فرقة !!! والله تعالى يقول ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءتهم البينات** ﴾ آل عمران : ١٠٥ .

فمعنى ذلك الحديث باطل بصريح القرآن الكريم الذي قرَّر بأن هذه الأمة خير الأمم وأفضلها !!

٢- ويؤكد بطلان هذا الحديث من حيث متنه ومعناه أيضاً أن كل مَنْ صَنَّف في الفِرَق كتب أسماء فِرَقٍ يغاير في كتابه لما كتبه الآخر ولا زالت تَحْدُثُ في كل عصر فرق جديدة بحيث أن حصرهم لها غير صحيح ولا واقعي ، فمثلاً كتب

الشيخ عبد القاهر البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩هـ كتاباً في الفِرَق وهو « الفَرْق بين الفِرَق » ذكر فيه ثلاثاً وسبعين فرقة !! وقد حدث من زمانه إلى اليوم فرق كثير أخرى ربما تزيد على أضعاف تلك الفرق التي ذكرها .

وقول من قال : « إن ما استحدث من الفرق الجديدة لا تخرج في مبادئها عن ما ذكره غير صحيح بل باطل والواقع يرفضه ويثبت فساده .

٣- أن متن هذا الحديث مضطرب !! ففي بعض طرقه « ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة في الأهواء » [ابن ابي عاصم ٦٩] وفي بعضها « فواحدة في الجنة واثنتان وسبعين في النار» [ابن ابي عاصم ٦٣] وفي بعضها « لم يَنْجُ منها إلا ثلاث » [ابن ابي عاصم ٧١] وفي بعضها « كلها في النار إلا السواد الأعظم » [ابن ابي عاصم ٦٨] ....!!

وفي بعضها كما عند ابن حبان (١٥/ ١٢٥) قال : « إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة **والنصارى على مثل ذلك** ....»[٥٠٠] !

وقد استغلَّ الحديث طوائف من الناس فبعضهم قال : « من أخبثها الشيعة » !! وبعضهم قال : « شرهم الذين يقيسون الأمور بآرائهم » !! - يشير إلى السادة الأحناف !! - وفي بعض رواياتهم التالفة : « كلهم في الجنة إلا القدرية» وفي بعضها « إلا الزنادقة » .. وهكذا !! وكل ذلك كذب وافتراء على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

٤- وقد وقع في بعض روايات هذا الحديث : [كلهم في النار إلا ملة واحدة ؛ قالوا ومن هي يا رسول الله ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابي »] وهي رواية الترمذي (٥/ ٢٦) من حديث عبد الله بن عمرو وفي رواية « ما عليه الجماعة » .

قلت : وهذا باطل من القول !! **أولاً** : من جهة إسناد فإنه ضعيف كما بَيَّنَّاه .

وثانياً : أن قوله « ما عليه أنا وأصحابي » لا يصح صدوره منه صلى الله عليه وآله وسلم لأمور أذكر واحداً منها :

---

[٥٠٠] وارجع لتدرك الاضطراب الشديد في متن هذا الحديث الى « مجمع الزوائد » (٧/ ٢٥٨ - ٢٦٠) .

وهو أن الصحابة افترقوا في عهد رابع الخلفاء سيدنا ومولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه إلى ثلاث فرق ؛ فرقة مع سيدنا علي وهي التي على الحق بنصوص الأحاديث الكثيرة المقطوع بها ؛ وفرقة مع معاوية وحزبه وهي الفئة الباغية بنص الحديث وإجماع مَنْ يعتد به ، وفرقة اعتزلت وقد أخطأت فيما ذهبت إليه ؛ فعبارة « ما عليه أنا وأصحابي » مع أي فرقة من هذه الفرق تكون ؟! ومحال أن تكون معهم جميعاً وخاصة مع الفرقة الباغية الداعية إلى النار كما جاء في الحديث الصحيح بأن سيدنا عماراً « يدعوهم إلى الله ويدعونه إلى النار » !! [رواه البخاري (١/ ٥٤١) و (٦/ ٣٠) ومسلم] .

لا سيما وقد ورد في الصحيحين أن ناساً من أصحابه صلى الله عليه وآله وسلم يذادون عن الحوض يوم القيامة فيقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « أصحابي » فيقال له « إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » [وهو في الصحيحين انظر البخاري (٦/ ٣٨٦) و (٨/ ٢٨٦)] هذا مع قوله صلى الله عليه وآله وسلم « في أصحابي اثنا عشر منافقاً ثمانية منهم لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل من سَمِّ الخياط » رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٤٣ برقم ٩) فهل يؤمر المسلم بأن يكون على ما عليه هؤلاء !! وهل يصح بعد هذا أن يقال بأن الصحابة كانوا على أمر واحد ؟! وخاصة بعد أن نقل الحافظ ابن حجر في مقدمة « الإصابة » أسماء بعض الصحابة الذين ارتدوا والعياذ بالله تعالى !! زيادة على مَنْ ارتدَّ من الناس بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ومنه يتبين بطلان هذه الزيادة التي بينَّاها أيضاً !!

٥ - أن هذا الحديث وخاصة بزيادته التي يتشبث بها المجسمة والنواصب والتي هي « كلهم في النار إلا واحدة »(٥٠١) مخالف للأحاديث الكثيرة المتواترة في معناها التي تنص على أن « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وجبت له الجنة » ؛ ومن تلك الأحاديث ما رواه البخاري (٣/ ٦١) : « أن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله » ولفظ مسلم (١/ ٦٣) :

---

(٥٠١) والتي صححها متناقض عصرنا !! في « صحيحته » (١/ ٣٥٨ برقم ٢٠٤) بلفظ « ... وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ؛ ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة » .

« لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فيدخل النار أو تطعمه » والمراد بهذه الأحاديث من التزم بالفرائض وانتهى عن المحرمات ولم يأت بالكبائر .

والفِرَقُ المختلفة قليل منها يكفر ببدعته وأما أكثرها كالمعتزلة وغيرهم فإنهم لا يكفرون حتى يستحقوا دخول النار ، لذلك نقل بعض الأئمة كالبيهقي وغيره إجماع السلف والخلف على « الصلاة خلف المعتزلة ومناكحتهم وموارثتهم » [انظر « مغني المحتاج » (٤/ ١٣٥)] .

والذي أقوله أخيراً : أن هذا حديث موضوع باطل ولبني أمية اليد الطولى في وضعه والله الهادي !!

فصل

في الإمامة وما يتعلق بها

قال الإمام الطحاوي رحمه الله :

(ونرى الصلاة خلف كلِّ بَرٍّ وفاجر من أهل القبلة ، وعلى من مات منهم ، ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا من وجب عليه السيف ، ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ، ولا ندعوا عليهم ، ولا ننزع يداً من طاعتهم ، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ، ما لم يأمروا بمعصية ، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة) .

الشرح :

الصلاة خلف البَرِّ والفاجر مُقْتَبَسَةٌ من ثلاثة أحاديث واهية (ضعيفة جداً) وهي :

الحديث الأول : حديث « صلوا خلف كل بَرٍّ وفاجر » رواه أبو داود (١/ ١٦٢) وغيره ، ولفظ رواية أبي داود : « الصلاة المكتوبة واجبة خلف كل مسلم بَرًّا كان أو فاجراً وإن عمل الكبائر » والحديث شامي يؤيد مذهبهم !! وفيه انقطاع بين مكحول وأبي هريرة رضي الله عنه ، لذا أورده الحافظ ابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١/ ٤٢٢) ولو أورده في كتاب « الموضوعات » لكان أقرب إلى الصواب .

وذكر الحافظ الزيلعي في « نصب الراية » (٢/ ٢٧) أن أبا داود نفسه ضَعَّف هذا الحديث .

وقال الحافظ البيهقي في السنن (٤/ ١٩) : « قال علي [يعني الدارقطني] : مكحول لم يسمع من أبي هريرة ومَنْ دونه ثقات ، قال الشيخ [يعني البيهقي] : **قد روي في الصلاة على كل بَرٍّ وفاجر** والصلاة على من قال لا إله إلا الله أحاديث كلها ضعيفة غاية الضعف ، وأصح ما روي في هذا الباب حديث مكحول عن أبي هريرة وقد أخرجه أبو داود في كتاب السنن إلا أن فيه إرسالاً كما ذكره

الدارقطني رحمه الله » انتهى من سنن البيهقي .

الحديث الثاني : حديث سيدنا أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « صلوا على من قال لا إله إلا الله ، وصلوا خلف من قال لا إله إلا الله » رواه الدارقطني (٢/٥٦) وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١/٤٢٠) وفي أسانيدها عن ابن عمر كذابون ووضاعون كما قال الحافظ ابن الجوزي ص (٤٢٤) .

الحديث الثالث : حديث سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً : « صلوا خلف كل إمام ، وقاتلوا مع كل أمير » رواه الدارقطني (٢/ ٥٥) ، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٩٠) وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١/ ٤٢٣) وقال العقيلي : « وليس لهذا المتن إسناد يثبت » .

ورُوِيَتْ هذه الأحاديث بألفاظٍ متقاربة بنفس المعنى عن سيدنا علي وابن مسعود وواثلة ابن الأسقع ولا يثبت شيء منها ، كما حقق ذلك الحافظ ابن الجوزي في كتابه « العلل المتناهية » والحافظ الدارقطني والحافظ البيهقي وغيرهم .

وهذه الأحاديث الواهية تثبت ما كان يدعو إليه بنو أمية وأذنابهم كالحَجَّاج والنواصب من ترسيخ اعتقاد وجوب الرضوخ للطغاة وتعزيز القهر في نفوس الأمة للظَّلَمة والفجار وتأمين عدم الخروج عليهم بأحاديث مكذوبة يَرْوونها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو منها بريء .

وقد حاولوا أن يدعموا ذلك بإثبات صلاة مثل ابن عمر وسيدنا أنس وسيدنا الحسن وسيدنا الحسين عليهما السلام وغيرهم خلف الحَجَّاج ومروان بن الحكم وأمثالهما كما ثبت بعض ذلك في البخاري وغيره ، وهذا من أبطل الباطل في الاستدلال لعدة وجوهٍ من أهمها :

أولاً : أن ذلك من حالات الإكراه والقهر التي لا يُلْتَفَتُ إليها ولا يعوَّل عليها .

ثانياً : أن مما يؤكِّد ذلك أن سيدنا الحسين مثلاً وعبد الله بن الزبير وهما من الصحابة وغيرهم ثاروا على الطغاة المتجبرين الفسقة كيزيد بن معاوية وأبيه وغيرهما من أذيالهما كعبد الملك بن مروان والحجَّاج ، وهذا مما يؤكِّد أيضاً أنهم لم

يكونوا راضين بالصلاة خلف أولئك السفاكين الطغاة ولا موالاتهم ، بل كانوا يعتقدون بأنهم بغاة تسلطوا على الرقاب والعباد والبلاد وأن من الواجب تحرير البلاد والعباد وتخليصها منهم ، لا موالاتهم والسمع والطاعة لهم والصلاة خلفهم وعليهم ! فافهم هداك الله تعالى !!!

روى الحاكم في « المستدرك » (٣٥٧/٣) أن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه قام قائماً في وسط دار أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محمداً أبا القاسم يقول :

سيلي أموركم من بعدي رجال يُعَرِّفونكم ما تنكرون وينكرون عليكم ما تعرفون فلا طاعة لمن عصى الله ؛ فلا تَعْتِبوا أنفسكم فوالذي نفسي بيده إن معاوية من أولئك ؛ فما راجعه عثمان حرفاً . وهو صحيح .

وما ثورة ابن الأشعث ومعه علماء وأساطين وجهابذة علماء أهل السنة والجماعة وواقعة الجماجم منا ببعيد !! وقد ترك النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة على فلان وفلان من الناس لأجل الدَّيْن وغيره فضلاً عن الفجور والنفاق كما ثبت في الصحاح والسنن !! وصلاته على ابن أبى سلول منسوخة نهاه الله عنها كما هو معلوم !!

وكل ذلك مما يهدم الفكرة القائلة بأن من أصل الدين : الصلاة خلف كل بَرٍّ وفاجر والجهاد مع كل أمير ولك أجرك .

ويثبت ما قلناه أيضاً قول الله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ، لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ، يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ، اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ، كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا**

وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ، لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ المجادلة : ٢٢ .

ففكرة عدم الخروج على أئمة الجور ليست صحيحة ، وهي مخالفة للقرآن والسنة وعمل الصحابة وأئمة التابعين من أهل السنة والجماعة ، وخَلَف من بعدهم خَلْف غَيَّروا وبَدَّلوا هذه الفكرة خوفاً من التنكيل والتعذيب قهراً وذلة واستكانة(٥٠٢) ، وتَقِيَّة من سيف وسوط بني أمية الذين بغوا وطغوا وبلغ الأمر من حَجَّاجهم الملعون أن يستهزئ بخادم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويحتقره !! كما هو معروف ومشهور .

قال الحافظ الذهبي في « تاريخ الإسلام » (٥/ ٢٩٤) :

[وقال الأعمش : كتب أنس بن مالك إلى عبد الملك بن مروان ، يعني لما آذاه الحجاج : إني خدمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسع سنين ، والله لو أن النصارى أدركوا رجلاً خدم نبيهم لأكرموه .

وقال جعفر بن سليمان : ثنا علي بن زيد قال : كنت بالقصر ، والحجاج يَعْرِضُ الناس ليالي ابن الأشعث ، فجاء أنس بن مالك ، فقال ــ الحجاج ــ : يا خبيث جوَّال في الفتن ، مَرَّة مع عليٍّ ، ومرة مع ابن الزُّبير ، ومرة مع ابن الأشعث ، أما والذي نفسي بيده لأستأصلنك كما تستأصل الصَّمْغَة ، ولأُجَرِّدَنَّك كما يُجَرَّد الضَّب . قال : يقول أنس : مَنْ يعني الأمير ؟ قال : إياك أعني ، أصم الله

---

(٥٠٢) وما كتبه أمثال صاحب كتاب « الجهاد في الإسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه » ما هو إلا كلام إنشائي لا قيمة له ولا تعضده نصوص الكتاب والسنة فلا يجوز الالتفات إليه ولا التعويل عليه لا سيما وقد صرح في كتابه ص (١٥٩) من طبعته الأولى بمقصوده الباطل الفاسد ، والذي نعتقده أن أمثال ذلك الشيخ المؤلف يقول ويكتب ما لا يعتقده وهي مصيبة وكارثة ابتلي بها بعض من يسمونهم بعلماء ومفكري هذا العصر الإسلاميين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !!

سمعك ، فاسترجع أنسُ وشُغِلَ الحجَّاج ، وخرج أنس ، فتبعناه إلى الرَّحبة ، فقال : لولا أني ذكرت ولدي وخشيته عليهم بعدي لَكَلَّمْتُهُ بكلام لا يستحييني بعده أبداً .

وقال عبد الله بن سالم الأشعري ، عن أزهر بن عبد الله قال : كنت في الخيل الذين سَبَوا أنس بن مالك ، وكان فيمن يؤلِّب على الحجَّاج ، وكان مع عبد الرحمن بن الأشعث ، فأتوا به الحجاج ، فوسم في يده : « عتيق الحجاج »] انتهى ما أردنا نقله من كلام الذهبي في « تاريخ الإسلام » .

وأما الإمام التقي العادل المقسط فهو واجب الطاعة وإن صدرت منه الهفوة(٥٠٣) لقوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً** ﴾ النساء : ٥٩ .

قال الحافظ ابن جرير الطبري السلفي في تفسيره (٥/ ١٥٠) : « يعني بذلك جل ثناؤه : فإن اختلفتم أيها المؤمنون في شيء من أمر دينكم أنتم فيما بينكم أو أنتم **وولاة أمركم** فاستجرتم فيه فردُّوه إلى الله » انتهى ، ففيه بيان جواز الاختلاف بين الرعية وبين الرعاة ووجوب الاحتكام في ذلك إلى الله ورسوله .

ولقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح : « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكَرِهَ ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أُمِرَ بمعصية فلا سمع ولا طاعة » رواه البخاري (١٣/ ١٢١) من حديث ابن عمر وقد عقد البخاري باباً هناك سماه : « باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية » .

وأما حديث سيدنا أنس مرفوعاً « اسمعوا وأطيعوا وإن استُعْمِلَ عليكم عبدٌ حَبَشِيٌّ كأن رأسه زبيبة » الذي رواه البخاري (١/ ١٨٤) فمقيَّدٌ بكون هذا العبد يقود الأمة بكتاب الله تعالى كما جاء في رواية صحيحة في صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٨) عن يحيى بن الحصين قال سمعت جدتي تُحَدِّثُ أنها سمعت النبي صلى الله عليه وآله

---

(٥٠٣) دليل قولنا (وإن صدرت منه هفوة) قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر » رواه البخاري (١٣/ ١٢١) ومسلم (٣/ ١٤٧٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ولقول الصديق : (أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم) .

وسلم يخطب في حجة الوداع يقول :

« إنْ أُمِّرَ عليكم عبدٌ مُجَدَّعٌ أسود **يقودكم بكتاب الله** فاسمعوا له وأطيعوا »

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٢/ ١٨٧) في شرح حديث أنس هذا :

« واستُدِلَّ به على المنع من القيام على السلاطين وإن جاروا لأن القيام عليهم يُفْضِي غالباً إلى أشد مما ينكر عليهم ، ووجه الدلالة منه أنه أَمَرَ بطاعة العبد الحبشي والإمامة العظمى إنما تكون بالاستحقاق في قريش فيكون غيرهم مُتَغَلِّباً ، فإذا أمر بطاعته استلزم النهي عن مخالفته والقيام عليه . وردَّه ابن الجوزي بأن المراد بالعامل هنا مَنْ يستعمله الإمام لا من يلي الإمامة العظمى ، وبأن المراد بالطاعة فيما وافق الحق . انتهى » .

قلت : وما قاله ابن الجوزي هو الصواب وما قبله خطأ مضاد للدليل الصحيح الثابت في الكتاب والسنة .

وأما حديث سيدنا عبادة الذي فيه « بايعنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأُثْرَةٍ علينا وأن لا ننازع الأمر أهله ، إلا **أن تروا كفراً بواحاً** عندكم من الله فيه برهان » الذي رواه البخاري (١٣/ ٥) ومسلم (٣/ ١٤٧٠) فليس فيه دليل على عدم الخروج إلا بكفر وذلك لأن لفظة « كفراً بواحاً » التي فيه مِنْ تَصَرُّفِ الرواة ومن تلاعب بني أمية بالأحاديث النبوية !! وقد رواه الثقات بلفظ : « معصية بواحاً » [انظر صحيح ابن حبان ١٠/ ٤٢٩] وبلفظ « ما لم يأمروك بإثم بواحاً » [انظر مسند احمد ٥/ ٣٢١] .

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٣/ ٨) :

[**قوله (وأن لا ننازع الأمر أهله)** أي المُلْك والإمارة ، زاد أحمد من طريق عمير بن هاني عن جنادة ، « وإن رأيت أن لك » - أي وإن اعتقدت أن لك - في الأمر حقاً فلا تعمل بذلك الظن بل اسمع وأطِعْ إلى أن يصل إليك بغير خروج عن الطاعة ، زاد في رواية حبان أبي النضر عن جنادة عند ابن حبان وأحمد . « وان أكلَوا مالك وضربوا ظهرك » وزاد في رواية الوليد بن عبادة عن أبيه « وأن

نقوم بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم »(٥٠٤) وسيأتي في كتاب الأحكام .

قوله (إلا أن تروا كفراً بواحاً) بموحَّدة ومهملة ، قال الخطَّابي : معنى قوله (بواحاً) يريد ظاهراً بادياً من قولهم : باح بالشيء يبوح به بَوْحَاً وبواحاً إذا أذاعه وأظهره ، وأنكر ثابت في الدلائل بواحاً وقال : إنما يجوز بَوْحاً بسكون الواو وبؤاحاً بضم أوله ثم همزة ممدودة ، وقال الخطَّابي : مَنْ رواه بالراء فهو قريب من هذا المعنى ، وأصل البراح الأرض القفراء التي لا أنيس فيها ولا بناء ، وقيل البراح البيان ؛ يقال : بَرَح الخفاء إذا ظهر ، وقال النووي : هو في معظم النُسَخ من مسلم بالواو وفي بعضها بالراء . قلت : ووقع عند الطبراني من رواية أحمد بن صالح عن ابن وهب في هذا الحديث كُفْراً صُرَاحاً ، بصاد مهملة ومضمومة ثم راء ، **ووقع في رواية حبان أبي النَّضْر المذكورة ، « إلا أن يكون معصية لله بواحاً » وعند أحمد من طريق عمير بن هانىء عن جنادة « ما لم يأمروك بإثم بواحاً » وفي رواية إسماعيل بن عبيد عند أحمد والطبراني والحاكم من روايته عن أبيه عن عبادة « سيلي أموركم من بعدي رجال يعرفونكم ما تنكرون وينكرون عليكم ما تعرفون ، فلا طاعة لمن عصى الله » وعند أبي بكر ابن أبي شيبة من طريق أزهر بن عبد الله عن عبادة رفعه « سيكون عليكم أمراء يأمرونكم بما لا تعرفون ويفعلون ما تنكرون فليس لأولئك عليكم طاعة » . قوله (عندكم من الله فيه برهان)** أي نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل ، ومقتضاه أنه لا يجوز الخروج عليهم ما دام

---

(٥٠٤) يلاحَظ تضارب معاني هذه المتون فبعضها ينص على السكوت وإن « أكلوا مالك وضربوا ظهرك » وبالتالي اقناع معتقد صحتها بأن مأكول المال ومضروب الظَّهر في طاعة !! وان ضاربه وآكل ماله واجب الطاعة !! وبعضها يقول : « وأن نقوم بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم » كما ترى يثبت تلاعب أصابع بني أمية الخفية وبقية حكام الجور في القرون الماضية بالسنة النبوية الشريفة لتوطيد مُلْكِهم والأمن من الخروج عليهم ، ويُجَلُّ سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن ينطق بهذه الأفكار المتضاربة بعدما قال « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » انقياداً لقول الله تعالى **﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾** . ومحاولات الشُرَّاح في التأليف بين هذه الروايات المتضاربة هو لعدم إدراكهم لهذا الأمر وكذا لتلاعب بني أمية بالروايات الحديثية ووضعهم فيها ما يوافق أهواءهم .

فعلهم يحتمل التأويل(٥٠٥) ، **قال النووي : المراد بالكفر هنا المعصية ، ومعنى الحديث لا تُنَازِعوا وُلاةَ الأمور في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكراً محقَّقاً تعلَمونه من قواعد الإسلام ؛ فإذا رأيتم ذلك فأنكروا عليهم وقولوا بالحق حيثما كنتم . انتهى**(٥٠٦) . وقال غيره : المراد بالإثم هنا المعصية والكفر ، فلا يُعْتَرَض على السلطان إلا إذا وقع في الكفر الظاهر ، والذي يظهر حمل رواية الكفر على ما إذا كانت المنازعة في الولاية فلا ينازعه بما يقدح في الولاية إلا إذا ارتكب الكفر ، وحمل رواية المعصية على ما إذا كانت المنازعة فيما عدا الولاية ، فإذا لم يقدح في الولاية نازعه في المعصية بأن ينكر عليه بِرِفْق ويتوصل إلى تثبيت الحق له بغير عُنْف ، ومَحَلُّ ذلك إذا كان قادراً والله أعلم . ونقل ابن التين عن الداوودي قال : **الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنه إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب ، وإلا** فالواجب الصبر . وعن بعضهم لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداء ، فإن أحدث جوراً بعد أن كان عدلاً فاختلفوا في جواز الخروج عليه ، والصحيح المنع(٥٠٧) إلا أن يكفر فيجب الخروج عليه] انتهى كلام الحافظ من الفتح .

وكل ذلك مما يهدم الفكرة القائلة بأنَّ من أصل الدِّين : الصلاة خلف كل بَرٍّ وفاجر والجهاد مع كل أمير ولك أجرك .

---

(٥٠٥) قد أغمض معنى التأويل هنا على كثير من الناس ، والمراد به هنا هو تأويل له وجه مقبول في الشرع ومعقول ، أما مَنْ تأوَّل لمن ضل واضل بتأويل تضحك منه الثكالى فهو مردود ولا حياه الله ولا بياه ، ومن ذلك تأويل معاوية لحديث الصحيحين « عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » بأن الذي قتله هو سيدنا علي لأنه أخرجه معه في جيشه فهو من التأويل الذي يستخف بصاحبه رَبَّات الحِجَال !! ولذلك ردوا عليه بأنه يلزم من قوله هذا أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قتل حمزة لأنه اخرجه معه في معركة أحد !! فتأمل في هذا جيداً ولا تنسه !!

(٥٠٦) وما نقله الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرح هذا الحديث في « شرح مسلم » من الإجماع على عدم الخروج على الأئمة الفساق مع اعترافه بأن هناك خلاف في المسألة عند السلف الصالح والعلماء بعد ذلك ، فهو من الإجماع الموهوم المنقوض الباطل وهذه المسألة أخطأ فيها خطأ واضحاً ولذلك اقتصر الحافظ ابن حجر هنا عندما نقل كلامه على القسم الصحيح منه واعتمده وترك ما أخطأ فيه .

(٥٠٧) بل الصحيح عدم المنع ، كما قال الداودي « إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب » .

الحب والبغض في الله تعالى

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ونحب أهل العدل والأمانة ونبغض أهل الجور والخيانة) .

الشرح :

دليل هذه القاعدة الصحيحة قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ ومقتضى الأُخُوَّة التحاب والتآلف ، وقال تعالى : ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدينَ فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله إلا أن حزب الله هم المفلحون** ﴾ المجادلة : ٢٢ .

وقال تعالى : ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً** ﴾ .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « المرء مع من أحب » رواه البخاري (١٠/٥٥٧) ، ومسلم (٤/ ٢٠٣٤) .

وقال الإمام البخاري في الصحيح (١/ ٤٥) : « والحب في الله والبغض في الله من الإيمان » . قال الحافظ ابن حجر في شرحه في « الفتح » (١/ ٤٧) :

[**قوله** (والحب في الله والبغض في الله من الإيمان) هو لفظ حديث أخرجه أبو داود من حديث أبي أمامة ومن حديث أبي ذر ولفظه « أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله » . ولفظ أبي أمامة « مَنْ أَحَبَّ لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » . وللترمذي من حديث معاذ بن أنس نحو حديث أبي أمامة وزاد أحمد فيه « ونصح لله » وزاد في أخرى « ويعمل لسانه في ذكر الله » وله عن عمرو بن الجموح بلفظ « لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يُحِبَّ لله

ويُبْغِضَ لله » ولفظ البزار رفعه « أوثق عرا الإيمان الحب في الله والبغض في الله » وسيأتي عند المصنف « آية الإيمان حب الأنصار » واسْتُدِلَّ بذلك على أن الإيمان يزيد وينقص ، لأن الحب والبغض يتفاوتان] .

ومما يجب ذكره هنا مما يتعلق في الحب والبغض في الله تعالى : وجوب اعتقاد أن الله سبحانه يحب المؤمنين ويبغض الكافرين ، وفلسفة بعض منحرفي المتصوفة (أدعياء التصوف) وغيرهم في قولهم : « إن الله تعالى يحب الكفار ؛ ولولا أنه يحبهم ما أرسل الرسل لهم لينقذهم من النار » قول مخالف للقرآن والسنة وهو كفر بحت لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **فإن الله لا يحب الكافرين** ﴾ ولقوله سبحانه : ﴿ **والله لا يحب كل كفَّار أثيم** ﴾ .

وبالمناسبة فإننا نذكر هنا بعض الآيات الكريمة التي ذكر فيها بعض الأصناف **الذين ذكر الله تعالى في كتابه أنه لا يحبهم :**

قال الله تعالى : ﴿ **إنَّ الله لا يحب المعتدين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إنَّ الله لا يحب من كان خواناً أثيماً** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إنَّ الله لا يحب الخائنين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إنه لا يحب المستكبرين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إنَّ الله لا يحب كل مختال فخور** ﴾ .

ذكر الآيات التي فيها مَنْ يُحِبهم الله تعالى :

قال تعالى ﴿ **إنَّ الله يحب المحسنين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إنَّ الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **فإن الله يحب المتقين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **والله يحب الصابرين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **والله يحب المطهرين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إنَّ الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾.

ومن الخطأ الشائع الذائع بين العلماء المتأخرين في هذه الأعصار وخاصة المتأثرين بالتصوف منهم قول بعضهم : (**نحن لا نكره ولا نبغض الكافر لذاته وإنما نبغضه لعمله**) ويستدل بعضهم لذلك بقوله تعالى : ﴿ **إني لعملكم من القالين** ﴾ !! فيقولون لم يقل لذواتكم وإنما قال لعملكم !!

ونقول لهم : هذا خطأ محض ؛ وذِكْرُ الشيء لا ينفي ما عداه ؛ كما هو مُقَرَّرٌ في

علم الأصول ؛ وهذا التفصيل باطل بصحيح المنقول وصريح المعقول ، ولم يرد على لسان أحد من المتقدمين فيما نعلم ، وخاصة أنَّ كتب الجرح والتعديل تحوي كلام آلاف العلماء الذين يُجَرِّحون الرجال ويبغضون المجروح في الله ويوثقون آخرين ويحبونهم .

وإذا كان ما يقول هؤلاء حقاً لبطل الحب في الله والبغض في الله !! وخاصة أنَّ الله تعالى يقول ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله** ﴾ ولم يقل يوادون أعمال من حاد الله ورسوله !! ومن ذلك يتبين فساد هذا المذهب الذي نبهنا عليه والله الموفق .

ذكر المسح على الخفين وبيان عدم اتفاق الأمة عليه :

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ونرى المسح على الخفين في السفر والحضر كما جاء في الأثر) .

الشرح :

لا معنى لإيراد هذه المسألة هنا في كتب العقائد ، وإنما مكانها في باب المسح على الخفين في كتاب الطهارة من كتب الفقه ، وفي مسائل الفقه المجمع عليها ما هو أولى إنَّ يورده هنا لو قبلنا طرح أمثال هذه المسألة هنا ، مثل قولنا : ونرى أنَّ صلاة الصبح ركعتان وأن في كل ركعة ركوعاً واحداً وسجدتين .... الخ ، فتنبه !!!

والأمة لم تجمع على المسح على الخفين فأئمة العِتْرَة المطهرة والزيدية والإمامية والإباضية ومالك في آخر أقواله(٥٠٨) على عدم جواز المسح على الخفين .

بالإضافة إلى خلاف جار في عهد الصحابة في جواز ذلك .

في حواشي كتاب « المجموع شرح المهذب » للإمام النووي رحمه الله تعالى

---

(٥٠٨) في حواشي كتاب المجموع شرح المهذب للإمام النووي رحمه الله تعالى (١/ ٤٨٤) : « قال في البحر : وروى ابن أبي ذئب عن مالك أنه أبطل المسح على الخفين في آخر أيامه ، وروى الشافعي عنه أنه قال : يكره ذلك ، ..... قال ابن أبي فديك : أبطل مالك في آخر عمره المسح على الخفين ، ..... قال مالك : أقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي بالمدينة ستاً وثلاثين سنة فما نُقِلَ عن أحد منهم أنه مسح على الخفين » .

(١/ ٤٨٤) : « قال في البحر : وروى ابن أبي ذئب عن مالك أنه أبطل المسح على الخفين في آخر أيامه ، وروى الشافعي عنه أنه قال : يكره ذلك ، ..... قال ابن أبي فديك : أبطل مالك في آخر عمره المسح على الخفين ، ..... قال مالك : أقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي بالمدينة ستاً وثلاثين سنة فما نُقِلَ عن أحد منهم أنه مسح على الخفين »[٥٠٩] .

وقال الحافظ في « الفتح » (١/ ٣٠٥) : « وقال ابن عبد البر : لا أعلم رويَ عن أحد من فقهاء السلف إنكاره ـ أي المسح على الخفين ـ إلا عن مالك ، مع أن الروايات الصحيحة عنه مصرحة بإثباته ... » .

أقول : لقد تراجع الإمام مالك عما يصفه ابن عبد البر بالروايات الصحيحة وصرَّح قبل موته بإنكار المسح على الخفين كما تقدَّم واعترفوا بذلك !

واعترف بذلك ابن تيمية كما في الفتاوى الكبرى (٤/ ٣٨٩) في أول باب المسح على الخفين حيث قال :

[باب المسح على الخفين : قال أبو العباس : وخفيَ أصله **على كثير من السلف والخلف**[٥١٠] **؛ حتى أنكره بعض الصحابة وطائفة من أهل المدينة وأهل البيت** ؛ وصنف الإمام أحمد كتاباً كبيراً في الأشربة في تحريم المسكر ولم يذكر فيه خلافاً عن الصحابة فقيل له في ذلك فقال : **هذا صح فيه الخلاف عن الصحابة** بخلاف المسكر ، **ومالك مع سعة علمه وعلو قدره أنكره في رواية** ؛ وأصحابه خالفوه في ذلك ؛ قلت : وحكى ابن أبي شيبة إنكاره عن عائشة وأبي هريرة وابن عباس وضعف الرواية عن الصحابة بإنكاره غير واحد والله أعلم] .

ولنذكر ما في كتاب « الروض النضير شرح مجموع الفقه الكبير »[٥١١] وهو من كتب السادة الزيدية من المجلد الأول باب المسح على الخفين الذي نقل فيه قول

---

[٥٠٩] وانظر فتح الباري (١/ ٣٠٥-٣٠٦) عند شرح الحديث رقم (٢٠٢) .

[٥١٠] هذا اعتراف من ابن تيمية الحراني بأن كثيراً من السلف والخلف أنكروه ولم يأخذوا بالمسح على الخفين ، وبالتالي فليس هذا مجمعاً عليه ولا متواتراً ولا من العقائد !!

[٥١١] وهو من الكتب المتداولة المطبوعة .

سيدنا علي والعترة المطهرة عليهم السلام والسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وابن عباس وأبي هريرة وغيرهم ليطلع القارىء على خلاف الصحابة وغيرهم في هذه المسألة التي يدَّعون فيها التواتر والإجماع ، قال الشرفي في « الروض النضير » :

[باب المسح على الخفين والجبائر :

قال المصنف رحمه الله تعالى : (حدثني زيد بن علي عن أبيه ، عن جده ، عن علي عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسح قبل نزول المائدة فلما نزلت المائدة لم يمسح بعدها) .

الشرح : أخرج المؤيد بالله في « شرح التجريد » ما يشهد لصحته ، فقال : أخبرنا أبو الحسين بن إسماعيل(٥١٢) قال : أخبرنا الناصر ، قال : حدثنا محمد بن منصور ، قال : أنا أحمد بن عيسى ، عن حسين ، عن أبي خالد ، عن زيد بن علي ، عن آبائه ، عن علي عليه السلام قال : لما كان في ولاية عمر جاء سعد بن أبي وقاص فقال : يا أمير المؤمنين ما لقيت من عمَّار ، قال : وما ذاك ، قال : حيث خرجت وأنا أريدك ومعي الناس فأمرت منادياً فنادى بالصلاة ، ثم دعوت بطهور ومسحت على خفي ، وتقدمت أصلي فاعتزلني عمار ، فلا هو اقتدى بي ولا تركني وجعل ينادي من خلفي يا سعد أصلاة بغير وضوء ، فقال عمر : يا عمَّار ، أخرج مما جئت به ، فقال : نعم ، كان المسح قبل المائدة ، فقال عمر : يا أبا الحسن ما تقول ؟ قلتُ : أقول إن المسح كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيت عائشة والمائدة نزلت في بيتها ، فأرسل عمر إلى عائشة : فقالت عائشة : كان المسح قبل المائدة وقل لعمر والله لأن تقطع قدماي بعقبيهما أحب إليّ

---

(٥١٢) هو عليّ بن إسماعيل بن إدريس أبو الحسين المعروف بالفقيه شيخ السيدين الإمامين المؤيد بالله ، وأبي طالب كان من جلة أهل طبرستان رياسةً وستراً وعلماً وفضلاً ، قال في « تيسير المطالب » : كان سماعه على الناصر سنة اثنتين وثلاثمائة ، وتوفي في حدود الخمسين والثلاثمائة ، وأفرد له في « الطبقات » ترجمة ممتعة وذكره القاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال في « تاريخ الزيدية » انتهى .

من أمسح عليهما ، قال عمر : لا نأخذ بقول امرأة ، ثم قال أُنْشِدُ الله أمرءاً شهد المسح من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما قام ، فقام ثمانية عشر رجلاً كلهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمسح وعليه جُبَّة شامية ضيقة اليدين فأخرج يده من تحتها ثم مسح على خُفَّيه ، فقال عمر : ما ترى يا أبا الحسن ؟ فقال : سلهم أقبل المائدة أو بعدها ، فسألهم فقالوا : ما ندري ، فقال عليّ أنشد بالله امرءاً مسلماً علم أن المسح كان قبل نزول المائدة لما قام ، فقام اثنان وعشرون رجلاً فتفرَّق القوم ، وهؤلاء فئام يقولون لا نترك وهؤلاء فئام(٥١٣) يقولون لا نترك ما رأينا انتهى .وإسناد هذا الحديث فيه خمسة من أئمة أهل البيت ، وأربعة من أشياعهم ممن نص المؤيد بالله وغيره ، على عدالتهم وثقتهم .

وقد أخرج في « شرح التجريد » بهذا الإسناد أحاديث كثيرة وبني عليها أحكاماً عديدة ، وروى المؤيد بالله من طريق أبي بكر بن أبي شَيْبَةَ ، عن حاتم بن إسماعيل ، عن جعفر عن أبيه قال : قال عليّ عليه السلام : سبق الكتاب الخفين ، وأُعِلَّ بالانقطاع لأن أبا جعفر الباقر لم يدرك جده أمير المؤمنين عليه السلام ، ولكنه سيأتي في « المجموع » من رواية زيد بن علي موصولاً .

وَرَوَى نحوه المؤيد بالله من طريق أبي بكر بن أبي شَيْبَةَ ، عن عليّ بن مُسْهِر ، عن عثمان بن حكيم ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : « سبق الكتاب الخفين »(٥١٤) .

وفي مسند علي من « جمع الجوامع » ما لفظه عن رجل من الموالي قال : سمعت منادي عليًّ ابن أبي طالب ينادي يا أيها الناس إن الكتاب قد سبق المسح على الخفين ثلاث مرات أخرجه ابن جرير انتهى .وأُعِلَّ بأنّ الراوي عن عليّ مجهول .

وأخرج المؤيد بالله عن شيخه أبي العباس الحسني ، قال : أخبرنا عليّ بن الحسن المروزي ، قال حدثنا الفضل بن العباس ، قال أنا عمرو بن حصين ،

---

(٥١٣) الفئام ككتاب جماعة لا واحد له من لفظه انتهى « قاموس » .

(٥١٤) رواه ابن أبي شيبة (١/ ١٧٠) .

قال : أنا أبو عوانة ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : « مسح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الخفين فَسَلْ الذين يزعمون ذلك أقبل المائدة أم بعدها ؟ ما مسح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد المائدة ، ولأن أمسح على ظهر عَيْر في الفلاة أَحَبُّ إليَّ من أن أمسح على الخفين »(٥١٥) انتهى . وفيه عمرو بن حصين العقيلي وهو ضعيف جداً ، ولكنه منجبر بما رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في مسند عبد الله ابن عباس ، من كتاب أبيه أحمد بن حنبل قال : حدثني أبي ، ثنا أبو الوليد ، أنا أبو عوانه ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : « قد مسح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الخفين ، فسلوا هؤلاء الذين يزعمون أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مسح قبل نزول المائدة أو بعدها ، والله ما مسح بعد نزول المائدة ، ولأَنْ أمسحَ على ظهر عابرٍ بالفلاة أحب إليّ من أن أمسح عليهما »(٥١٦) .

قال في « التخريج » وهذا إسناد رجاله رجال الصحيح .

وبما أخرجه البيهقي في « سننه »(٥١٧) ، بسنده إلى عبد الرزاق ، أنا أبا جرير ، أخبرني خُصَيفٌ أن مقسماً مولى عبد الله بن الحارث ، أخبره أن ابن عباس أخبره قال : أنا عند عمر حين سأله سعد وابن عمر عن المسح على الخفين ، فقضى لسعد قال فقلت لسعد : قد علمنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسح على خفيه ، ولكن أقبل المائدة أم بعدها ، لا يخبرك أحد من أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسح بعد المائدة ، فسكت عمر وهو في مسند أحمد بن حنبل(٥١٨) عن عبد الرزاق بتمام السند .

---

(٥١٥) رواه أحمد (١/ ٣٢٣) والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٤٥٤) وهو صحيح بمتابعة خصيف الجزري عند الطبراني لعطاء عند أحمد . وما ذهب إليه مخرج مسند أحمد (طبع مؤسسة الرسالة) من تضعيفه للحديث لمعارضته لأحاديث أخرى فهو لتقليد المحقق لمن يتناقض في الحكم على الأحاديث دون فهم حقيقة المسألة ، وعدم إدراك بطلان دعوى التواتر في المسح على الخفين .

(٥١٦) رواه أحمد (١/ ٣٢٣) كما تقدم وهو صحيح .

(٥١٧) السنن (١/ ٢٧٣) .

(٥١٨) المسند (١/ ٣٦٦) .

قال في « التخريج » : وهذا إسناد رجاله رجال الصحيح ، إلا خصيف بن عبد الرحمن وهو إن ضعفه أحمد بن حنبل فقد وثقه يحيى بن معين وأبو زُرْعَة ، وقال ابن عَدِي إذا حدَّث عنه ثقة فلا بأس به ، وروى عنه أهل السنن الأربعة ، وذكر الذهبي اختلاف قول أحمد فيه فتارة قال : ضعيف ، وأخرى قال : ليس بقوي ، وهي مرتبة دون الأولى ، ولهذا أخرج له في مسنده .

وفي « مجمع الزوائد »(٥١٩) عن ابن عباس أنه قال : ذُكِرَ المسح على الخفين عند عمر من سعد وعبد الله بن عمر فقال : عمر : سعد أفقه منك ، فقال عبد الله بن عباس : يا سعد : إنا لا ننكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسح ولكن ما مَسَحَ منذ نزلت المائدة ، فإنها أحكمت كلَّ شيء ، وكانت آخر سورة نزلت في القرآن إلا براءة ، قال فلم يَتَكَلَّمْ أحد ، رواه الطبراني في « الأوسط »(٥٢٠) وروى ابن ماجه طرفاً منه ، وفيه عبيد بن عبيدة التمَّار وقد ذكره ابن حبان في « الثقات » وقال : يُغْرِبُ انتهى .

قال في « شرح التجريد » : قد ثبت عن أمير المؤمنين ، وابن عباس ، وعائشة وأبي هريرة(٥٢١) وغيرهم إنكار المسح على الخفين .

وروى أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ قال : حدثنا هشيم ، قال ، أنا يحيى بن سعيد ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة أنها قالت : « لأَنْ أجذّهما بالسكين أحبُّ إلي من أن أمسح عليهما » .

وروى ابن أبي شَيْبَةَ ، عن يحيى ابن أبي بكير ، قال أنا شعبة ، عن أبي بكر بن حفص ، قال : سمعت عروة بن الزبير ، عن عائشة قالت : « لأَن أجذهما أو أجذ أصابعي بالسكين أحبُّ إلي من أمسح عليهما »(٥٢٢) .

وروى ابن أبي شَيْبَةَ قال : أنا يونس بن محمد ، قال : أنا عبد الواحد بن

---

(٥١٩) الجمع (١/ ٢٥٦) .

(٥٢٠) الأوسط (٣/ ٢٠٥) .

(٥٢١) وهو في تاريخ البخاري (٣/ ٢٢٠) .

(٥٢٢) ابن أبي شيبة (١/ ١٧٠) .

زياد ، قال أنا اسماعيل بن سُمَيع ، قال : أنا أبو رزين ، قال : قال لي أبو هريرة : « ما أبالي على ظهر خفي مسحت أم على ظهر حمار »(٥٢٣) انتهى .

قال في « التخريج » : وهذه الأسانيد إلى عائشة رجالها رجال الصحيح ، ورجال حديث أبي هريرة على شرط مسلم وفيه إسماعيل ابن سُمَيع وهو إن كان فيه بدعة من خارجية ، فقد روى له مسلم وغيره . وقال الخزرجي في « الخلاصة » : وثَّقَهُ أحمد وابن معين انتهى . وذكره الذهبي في « جزء من تُكُلِّمَ فيه وهو موثق » وأخرج الذهبي في ترجمة زكريا بن يحيى الكسائي الكوفي من « الميزان » عن زاذان أنه قال : قال علي لأبي مسعود ، أنت المُحَدِّثُ أن رسول الله مسح على الخفين ؟! قال : أَوَلَيْسَ كذلك ؟! قال : أقبل المائدة أم بعدها ؟ قال : لا أدري ، قال : لا دَرَيْتَ ، إنه من كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متعمداً فليتبوأ مقعده من النار .

وهذه الأدلة حجة القائلين بنسخ سنية المسح على الخفين بالآية الكريمة ، **وهو إجماع أهل البيت المحقق** لانحصارهم في زمن الصحابة ، بدليل ما رواه في « المجموع » عن الحسين بن عليّ قال : « إنَّا ولد فاطمة لا نمسح على الخفين » .

وما أخرجه السيد أبو العباس الحسني في كتاب « أسماء التابعين » الذين رَوَوْا عن زيد بن علي فساق بإسناده إلى نصر البارقي ، قال : سألت زيد بن علي عن المسح على الخفين فقال : نحن أهل بيتٍ لا نمسح ، وكان أبونا لا يمسح ، وما رأيت أحداً من أهل بي تي يمسح على خفٍ قط .

وروى إجماعهم أيضاً في كتابه « الجامع الكافي »(٥٢٤) وقال فيه بعد حكاية

---

(٥٢٣) رواه ابن أبي شيبة (١/ ١٧٠) .

(٥٢٤) فإن قلتَ : أَخَذَ الإجماعَ من قول الحسين عليه السلام : (إنَّا ولد فاطمة ..) ومن قول حفيده (نحن أهل البيت لا نمسح ...) يرد عليه أن علياً وفاطمة رضوان الله عليهما غير داخلين في ولد فاطمة مع أنهما من أهل البيت ، وأيضاً فليس في ذلك ما يدلّ على نقل الإجماع صريحاً ، وقوله (لا نمسح ..) يحتمل أن ذلك عندهم اختيار للأولى مع جواز غيره ، قلتُ : أما الأول : فنعم ، والظاهر من سماع زين العابدين أباه الحسين لهذا القول إنما هو بعد وفاة علي وفاطمة عليهما السلام ، ولكن قد ذكر أهل الأصول خلافاً للأول منهم أن تحقق إجماع الموجودين من أهل البيت حجة يجب العمل بها ، فإخبار

الإجماع : سمعنا عن عليّ ، وابن مسعود وغيرهم من الصحابة والتابعين أنهم قرأوا (وأرجلَكم) نصباً ، وقالوا : أعاد الأمر إلى الغَسل ، ثم ذكروا حديث « ويل للأعقاب من النار » .

وروى الإجماع أيضاً المؤيَّد بالله عليه السلام في « شرح التجريد » ، وقد قررّ المحققون من أهل الأصول حجية إجماعهم بأدلة ناهضة ، حتى قال العلامة المقبلي في « نجاح الطالب » بعد الإشارة إليها ومن أنصف علم ، إن هذا الدليل أقوى من أدلة إجماع الأمة بمراتب ، ولكن إهمال الخصوم لدليله كالجواب عنه في قوله صلى الله عليه وآله وسلم « انظروا كيف تخلفوني فيهما »(٥٢٥) ، وممن تابعهم على ذلك الإمامية والخوارج ، وأبو بكر بن داود ورواية عن مالك] .

انتهى كلام العلامة السياغي من « الروض النضير » .

الحسين عن نفسه ومن عاصره من أهل بيته بذلك مع تيسر انحصارهم كافٍ في الحجية ، إذ لا قائل باشتراط دخولهما فيه ، في صحة إجماعهم . وأما الثاني : فلأن دلالة السياق ظاهرة في حكاية الإجماع وإلا لما ساغ للحسين عليه السلام إطلاق هذا اللفظ في مقام الاستدلال ، ولا سيما قول زيد عليه السلام : وما رأيت أحداً من أهل بيتي يمسح قط ، وقد قال أهل التحقيق : إن دلالة السياق لا يقام عليها دليل لإمكان المشاغبة في مدلول اللفظ المساق ، بل يرجع فيها الناظر إلى ذوقه والناظر إلى دينه وإنصافه ، وقالوا أيضاً : هي ترشد إلى تبيين المجملات وترجيح المحتملات وكذا يؤخذ منها أنه لا يجوز عندهم خلافه وإن لم يدل عليه اللفظ بنصه وتصريحه ، وأن أَبَيْتَ إلا التصريح فخذه من قول الإمام زيد بن عليّ فيما سيأتي عنه آخر الباب من قوله : (فإن استطاع الغسل لم يُجْزِهِ المسح) ومن قوله أيضاً فيما سيأتي آخر كتاب الجنائز (إن الصلاة لا تجزيء خلف من مسح على الخفين) فتأمل والله أعلم تمَّت من خط المصنف رحمه الله تعالى انتهى .

(٥٢٥) رواه الترمذي (٣٧٨٨) وهو حديث صحيح ، وأصله في مسلم (٢٤٠٨) .

الحج والجهاد مع أولي الأمر

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين بَرُّهم وفاجرهم إلى قيام الساعة ، لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما) .

الشرح :

اعلم أنه ليس من شرط مُضِيِّ الحج والجهاد أنْ يكونا مع أولي الأمر من المسلمين سواء بَرُّهم وفاجرهم والله تعالى يقول ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون** ﴾ ؟! والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم مَنْ خالفهم حتى يأتي أمر الله » رواه البخاري (١٣/ ٢٩٣) ومسلم (٣/ ١٥٢٣) وفي مسلم (٣/ ١٥٢٤) أيضاً « لا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة » . وهذه الروايات الصحيحة الثابتة المبينة بأن هؤلاء هم بالدرجة الأولى المجاهدون تُبْطِلُ قول مَنْ زعم بأن هذه الطائفة هي أهل الحديث !!

قلت : وفي « صحيح ابن حبان» (١٥/ ١١١) عن أبي أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لَتُنْقَضَنَّ عُرى الإسلام عروة عروة ، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها ، فأولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة » .

قلت : ولم يذكر الفقهاء في باب الحج أنَّ من شروط صحته ومُضِيِّه أن يكون مع أولي الأمر سواء كانوا بررة أو فجاراً !! لقوله تعالى ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً** ﴾ ولم يشرط ذلك بأولي الأمر !!

فإذا احتجَّ إنسان على وجوب ذلك بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يُؤَمِّرُ على المسلمين رجلاً في الحج أو يحج هو بهم فيكون أميرهم !!

قلنا : ليس ذلك من شرطه وإنما هو من صور السفر وطلب الإمارة التي حثت عليها الشريعة في جميع الأحوال للمسلمين وليس في الحج خاصة .

ثم الأمر كان على حسب تصور هذا القائل يومئذ على أمير واحد

للمسلمين ، واليوم لهم أمراء كثر بعدد الدول الإسلامية في العالم !! فَتَحْتَ راية أيَّ أمير منهم سيحجون ؟!! وما هو الدليل على ذلك ؟!!

ومسلمو الدول الغير الإسلامية كمسلمي فرنسا والنرويج وأمريكا وأشباهها تحت راية أي أمير سيحجون ؟!! براً كان أو فاجراً !! وبأي دليل يتم التعيين ؟!!

لذا نرى أنَّ هذا الذي قاله المصنف رحمه الله تعالى غير صواب فضلاً عن أنَّ ذِكْرَه ليس مناسباً في أبواب العقائد !!

والظاهر أنَّ الزمن الذي كانوا يعيشون فيه اضطرهم لقول ذلك تقليداً لمن كان قبلهم ممن أَثَّرَ فيهم الفكر الأموي ثم فِكْرُ جبابرة العباسيين الذين نهجوا نفس النهج في هذه القضية !! والمُكْرَه له أحكام !!

[تكملة في بيان جهاد النفس] : ومن أنواع الجهاد أيضاً مجاهدة المؤمن لنفسه في رَدْعِها عن المحرمات وقيامنا بأداء الأوامر الشرعيات وقد ورد ذلك في الكتاب والسنة ؛ قال تعالى ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى** ﴾ وقال تعالى ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ .

وجاء في الحديث الصحيح : « أفضل الجهاد من جاهد نفسه في ذات الله ، وأفضل المجاهدين من جاهد نفسه وهواه في ذات الله » رواه أحمد (٦/ ٢١) والترمذي (٤/ ١٦٥) والطبراني (١٨/ ٣٠٩) والحاكم (١/ ١١) وقال الحافظ الهيثمي في « المجمع » (٣/ ٢٦٨) : « رواه البزار والطبراني في الكبير باختصار ورجال البزار ثقات »(٥٢٦) .

وحديث جابر مرفوعاً « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » رواه الخطيب في تاريخه (١٣/ ٥٢٣) وغيره ، قال السيد الحافظ أحمد بن الصديق الغماري في تخريج أحاديث العوارف ص (١٨ مخطوط) :

« رواه البيهقي في الزهد ، والخطيب في التاريخ من حديث جابر وضعفه البيهقي **وليس كذلك بل هو** حديث حسن إن شاء الله ولي فيه جزء مفرد » .

---

(٥٢٦) قلت : ومن الغريب العجيب أن الشيخ المتناقض !! صحح الحديث في « صحيحته »(٣/ ٤٧٨) واقتصر على عَزْوِهِ لابن نصر في الصلاة من حديث عبد الله بن عمرو !! لكنه ذكره في صحيحته (٢/ ٨١) معزواً لهم !!

فصل

في ذكر الصحابة رضي الله عنهم

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا نُفَرِّطُ في حب أحد منهم ، ولا نتبرأ من أحد منهم ، ونبغض من يبغضهم ، وبغير الخير يذكرهم ، ولا نذكرهم إلا بخير ، وحبهم دين وإيمان وإحسان ، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان .

ونثبت الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أولاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، تفضيلاً له وتقديماً على جميع الأمة ، ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثم لعثمان رضي الله عنه ، ثم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهم الخلفاءُ الراشدون والأئمة المهتدون ، وأنّ العشرة الذين سماهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبشّرهم بالجنة ، نشهد لهم بالجنة ، على ما شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقوله الحق ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمّة ، رضي الله عنهم أجمعين) .

الشرح :

أي ونحب أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذين ذكرهم هنا وغيرهم ممن لم يسيء ويغير أحكام الإسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا نفرِّط في حب أحد منهم تفريطاً يجعلنا نخرج عن نصوص الشرع وميزان الكتاب والسنة ، فنحن نبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم ولا نذكرهم إلا بخير ، وحب جميع الصحابة دين وإيمان وإحسان ، وبغض جميع الصحابة كفر لأنَّ الله أثنى على جمهورهم ، وبُغْضُ بعض الصحابة نفاق وطغيان وخاصة بغض سيدنا

علي رضوان الله عليه لقوله صلى الله عليه وآله وسلم له « لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق » وكذا من النفاق بغض السيدة فاطمة والحسن والحسين وآل البيت وقد وقع في جناية بغضهم معاوية وأصحابه وآله بنو أمية[٥٢٧] إلا نفراً يسيراً منهم كعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى .

ونثبت الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوّلاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ثم لسيدنا عمر ، ثم لسيدنا عثمان ، ثم لسيدنا علي رضي الله عنهم أجمعين .

وذهب قوم من أهل السنة والجماعة إلى أنَّ إثبات خلافة سيدنا أبي بكر وأوليتها يدل على تفضيله وتقديمه رضي الله تعالى عنه على جميع الأمة ، وذهب قوم منهم إلى إنَّ السيدة فاطمة أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومنهم سيدنا عمر بن الخطاب ، وذهب قوم إلى أنَّ جعفر الطيار أفضل ومنهم أبو هريرة ، وذهب جماعة كثيرون من الصحابة والسلف والخلف إلى إنَّ

---

[٥٢٧] ومن سار على درب بني أمية وناصب سيدنا علياً والسيدة فاطمة وآل البيت الأطهار وطعن فيهم ابن تيمية الحراني وأصحابه النواصب ، وقد وقع أكثر ذلك من ابن تيمية في كتابه الذي يزعم أنه « منهاج السنة » وفي الرسالة الخاصة التي صنفناها في هذا الموضوع تجدون بإذن الله تعالى بيان ذكر المواضع التي وقع بها هذا الناصبي !!

وأما كتاب « العواصم من القواصم » لابن العربي المالكي فقد أجتزأ منه الناصبي المشهور محب الدين الخطيب قسماً يتعلق بالكلام على بعض الصحابة بأمر من سادته وقام بالتعليق عليه بعبارات نقلها من منهاج سنة الشيخ الحراني !! وهي تعليقات ممجوجة مكشوفة هزيلة لا تصمد أمام البحث العلمي !!

ومن المعلوم المعروف أن العواصم والتعليقات التي عليه حوت كثيراً من المغلطات والأوهام المصادمة للحقائق العلمية الثابتة في كتب الأحاديث والسنة النبوية بالأسانيد الصحيحة القوية حتى أن أتباع الشيخ الحراني ومقلديه أنكروا كثيراً مما هو مدوّن في العواصم وحواشي الخطيب الناصبي على ذلك الكتاب ! كما تجد بعض ذلك في صحيحة متناقض عصرنا !! (١/ ٧٧٠ - ٧٧٢) وغيرها !!

وكذلك كتاب « تطهير الجنان واللسان » للهيتمي بناه على أحاديث موضوعة ومهزولة ولم يتعرض لذكر الأحاديث الصحيحة الثابتة التي تعارضها ولم يستوعب في كتابه ذلك ، بحيث لا يصح لعاقل أن يتمسك بما فيه كما لا يجوز له أن يعوِّل عليه !! ولنا إن شاء الله تعالى مستقبلاً تعليقات على الكتابين المذكورين !! والله الموفق .

سيدنا علياً أفضل وهكذا فالمسألة خلافية بين الصحابة وبالتالي بين الأمة كما مر في مقدمة هذا الشرح في (فصل اختلاف السلف في مسائل الاعتقاد) ، ومن ذهب إلى تقديم سيدنا أبي بكر قال : إنَّ الأفضلية بعد ذلك لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثم اختلفوا بعد ذلك فبعضهم ذهب إلى إنَّ الأفضل سيدنا عثمان رضي الله عنه ثم سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقسم كبير من السلف عَكَسَ فقدَّم سيدنا علياً على سيدنا عثمان رضي الله عن الجميع ، ثم قالوا بأفضلية باقي العشرة المبشرين بالجنة الذين ذكر المصنف رحمه الله تعالى أسماءهم هنا في المتن ، وكل هذا يدل على إنَّ هذه المسألة ليست من العقائد وإنما هي مسألة اجتهادية من مسائل الفروع هذا هو التحقيق .

هذا واعلم أنَّ لنا رسالة خاصة في هذا الموضوع تعرّضنا فيها لهذه المواضيع بالتفصيل الدقيق وإلى بني أمية وما يعلق بهم ، وذكرنا فيها مسألة عدالة الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأنهم عدول ثقات إلا نفراً يسيراً استثنته نصوص الكتاب والسنة ونص عليهم كثير من علماء الأمة وأكابر الأئمة المحدّثين من أهل السنة والجماعة وكذا تعرضنا فيها لمسألة التفضيل بما لا تجده في كتاب مجموعاً محققاً ومغربلاً ، فنسأل الله تعالى التوفيق والهداية لما يحبه ويرضاه .

ولنا كتاب أسميناه « زهر الريحان ... حول معاوية ابن أبي سفيان » والله الموفق والهادي .

فصل

في وجوب محبة آل البيت وتوقيرهم وموالاتهم

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ومَنْ أحسن القول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأزواجه الطاهرات من كل دنس ، وذرياته المقدّسين من كل رجس ، فقد برئ من النفاق) .

الشرح :

تقدَّم الكلام فيما يتعلق بالصحابة الكرام رضي الله عنهم وهنا نقول :

محبة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فريضة عقائدية من الله تعالى على كل مسلم ومؤمن ، والدليل عليها من القرآن قوله تعالى ﴿ **قل لا أسالكم عليه أجراً إلا المودة في القربى** ﴾(٥٢٨) الشورى :٢٣ .

والدليل على تفضيل الله لهم قوله تعالى ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ الأحزاب : ٣٣ .

وثبت في صحيح مسلم (٤/١٨٧٣برقم ٢٤٠٨) وغيره عن سيدنا زيد بن أرقم رضي الله عنه قال :

قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً خطيباً فينا بماء يدعى خُمّاً بين مكة والمدينة ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذَكَّرَ ، ثم قال :

« أما بعد : ألا أيها الناس : فإنما أنا بشر يوشك أنْ يأتي رسول ربي فأُجيب ؛ وأنا تارك فيكم **ثقلين** : أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » .

---

(٥٢٨) وقد زعم النواصب أعداء النبي وآل بيته الأطهار أن المراد بلفظ (القربى) هو الطاعة التي هي بمعنى (القربة) لِيَحْرِفوا الناس عن فَهْم القرآن باللغة التي أنزله الله تعالى بها بقصد صرف الناس عن محبة آل البيت !! فلا تغفل عن هذا !!

فحثَّ على كتاب الله ورَغَّب فيه ثم قال :

« **وأهل بيتي** ؛ أُذكّركم الله في أهل بيتي أُذِكّركم الله في أهل بيتي ، أُذكركم الله في أهل بيتي » .

ورواه الترمذي (٥/ ٦٦٣ برقم ٣٧٨٨) بسند صحيح بلفظ :

« إني تارك فيكم ما إنْ تمسكتم به لن تضلوا بعدي ؛ أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ؛ وعِتْرَتي أهل بيتي ، ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض ؛ فانظروا كيف تخلفوني فيهما »(٥٢٩) .

والمراد بالتمسك بآل البيت هو محبتهم والمحافظة على حرمتهم والتأدب معهم والاهتداء بهديهم وسيرتهم والعمل برواياتهم والاعتماد على رأيهم ومقالتهم واجتهادهم وتقديمهم في ذلك على غيرهم .

والمراد بهم بعد وفاة أهل الكساء ذريتهم من أهل العلم والمجتهدون الأتقياء الورعون منهم ، العارفون المطلعون على سيرته صلى الله عليه وآله وسلم الواقفون على طريقته منهم ، بهذا يكونون مقابل كتاب الله سبحانه كما جاء في الأحاديث الصحيحة .

ولا يفيد هذا عدم احترام غير العالم منهم ما دام غير خارج عن أحكام الشريعة وأوامر الله تعالى ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وقد جاء في البخاري (٧/ ٧٨) عن أبي بكر الصديق رضوان الله تعالى عليه أنه قال : « ارقبوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في أهل بيته » .

وأهل البيت هم سيدنا علي والسيدة فاطمة وسيدنا الحسن وسيدنا الحسين عليهم السلام وذريتهم من بعدهم ومن تناسل منهم للحديث الصحيح الذي نص

---

(٥٢٩) وأما حديث « تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي » الذي يُرَدِّدُهُ الناس فيما بينهم ويقوله الخطباء على المنابر فحديث موضوع مكذوب وضعه الأمويون وأتباعهم ليصرفوا الناس عن هذا الحديث الصحيح في العِتْرة ؛ فانتبه لذلك جداً وقد ذكرت جميع طرقه وبينت ما في أسانيده من الكذّابين والوضاعين في آخر كتابي « صحيح صفة صلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم » ص (٢٨٩) فارجع إليه إن شئت التوسع .

النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيه على ذلك ؛ ففي الحديث الصحيح :

[نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ في بيت أُمّ سلمة ، فدعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة وحسناً وحسيناً فَجَلَّلهم بكساءٍ وعليٌّ خلف ظهره فجلّله بكساء ثم قال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » .

قالت أم سلمة : وأنا معهم يا نبي الله ؟ قال : « أنت على مكانك وأنت إلى خير » .

هذا لفظ الترمذي (٥/ ٦٦٣ برقم ٣٧٨٧) من حديث عمرو بن أبي سلمة ، وهو في صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٣برقم٢٤٢٤) من حديث السيدة عائشة(٥٣٠) .

قال البخاري في صحيحه (٧/ ٧٧) : [باب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ومنقبة فاطمة عليها السلام بنت النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة »(٥٣١)] .

وفي البخاري (٧/ ٧٨) أيضاً عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : « ارقبوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في أهل بيته » .

وتواتر الخبر عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن « الحسن والحسين عليهما السلام سيدا شباب أهل الجنة »(٥٣٢) .

---

(٥٣٠) ورواه من حديث أم سلمة : أحمد في « المسند » (٦/ ٢٩٢و٢٩٨و٣٠٤) والطبراني (٣/ ٥٤) ؛ ومن حديث سعد بن أبي وقاص : الحاكم (٣/ ١٤٧) ، ومن حديث صفيَّة : الحاكم (٣/ ١٤٨) ومن حديث واثلة : ابن حبان (١٥/ ٤٣٣) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٦٦) والحاكم (٣/ ١٤٧) والبيهقي في « السنن » (٢/ ١٥٢) وغيرهم .

(٥٣١) هذا حديث صحيح أخرجه البخاري موصولاً في الصحيح (٦/ ٦٢٨) في المناقب باب رقم (٢٥) ، وقال الحافظ في « الفتح » (٧/ ١٠٥) : [وعند الحاكم من حديث حذيفة بسند جيد « أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم مَلَك وقال : إن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة »] .

(٥٣٢) ممن رواه : أحمد في المسند (٥/ ٣٩١) والترمذي (٥/ ٦٥٦) وقال : حسن صحيح ، وانظر فيض القدير (٣/ ٤١٤-٤١٥) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت أحَدٌ إلا أدخله الله النار » رواه الحاكم (٣/ ١٥٠) بسند صحيح . وكذا ابن حبان في صحيحه (١٥/ ٤٣٥) بسند حسن .

وقد نص على محبة العترة جمهور أهل السنة والجماعة لكنها بقيت مسألة نظرية لم يُطَبِّقُها كثيرون فهي مفقودة حقيقة في أرض الواقع وهذا مما يؤسف له جد الأسف .

وقد حاول النواصب وهم المبغضون لسيدنا علي رضوان الله عليه ولذريته - وهم عترة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأطهار - أنْ يصرفوا الناس عن محبة آل البيت التي هي قُرْبة من القُرَب فوضعوا أحاديث في ذلك وبنوا عليها أقوالاً فاسدة منها : أنهم وضعوا حديث : « آل محمد كلُّ تقي » وحديث « أنا جَدُّ كلِّ تقي » ونحو هذه الأحاديث التي هي كذب من موضوعات أعداء أهل البيت النبوي .

ومن الباطل قول أحد النواصب المبتدعة(٥٣٣) أثناء كلام له في هذا الموضوع .

« وأهل بيته في الأصل هم نساؤه صلى الله عليه وآله وسلم وفيهنَّ الصدّيقة عائشة رضي الله عنهنَّ جميعاً(٥٣٤) ، كما هو صريح قوله تعالى في سورة الأحزاب : **﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهير ﴾** بدليل الآية

---

(٥٣٣) في ما يسميه !! « صحيحته » (٤/ ٣٥٩) الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ .

(٥٣٤) يريد هذا المبتدع هنا أن يصرف الناس عن اعتقاد أن أهل البيت هم على وجه الخصوص أصحاب الكساء سيدنا علي والسيدة فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فادّعى أن أهل البيت هنا أزواجه صلى الله عليه وآله وسلم !! وكأن هذا المبتدع يحترم أزواجه صلى الله عليه وآله وسلم !! وقد حاول أن يظهر هنا أنه يحترمهن رضوان الله تعالى عليهن مع أنه يصفهن في صحيحته (٤/ ٥٣١) بأن الزنا يجوز عليهن وأنهن غير محفوظات ولا معصومات منه ! كبرت كلمة تخرج من فمه !! فعلى الناس أن يسألوه ما فائدة إثارة هذا الموضوع الباطل الفاسد بعد خمسة عشر قرناً من وفاتهن رضوان الله تعالى عليهن ؟! ولذلك فقد رد عليه بعض من كان قد صحبه ورافقه أكثر من ٢٥ عاماً في كتاب مستقل أسماه « **نوال المنى في بيان عصمة أزواج الأنبياء وأمهات المؤمنين من الزنا** » وكانت هذه المسألة سبباً للفراق بينهما !! فاعتبروا يا ذوي الأبصار ؟!

التي قبلها والتي بعدها ﴿ **يا نساء النبي لستنَّ كأحد من النساء إنْ اتقيتُنَّ** .... ﴾ وتخصيص الشيعة (أهل البيت) في الآية بعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم دون نسائه صلى الله عليه وآله وسلم من تحريفهم لآيات الله تعالى انتصاراً لأهوائهم كما هو مشروح في موضعه(٥٣٥) ، وحديث الكساء وما في معناه غاية ما فيه توسيع دلالة الآية ، ودخول علي وأهله فيها ، كما بينه الحافظ ابن كثير وغيره ، وكذلك حديث « العِتْرَة » قد بَيَّن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ المقصود أهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم بالمعنى الشامل لزوجاته وعلي وأهله » .

قلت : اقترف هذا الناصبي عدة كذبات أو مغالطات !! :

الأولى : أنه كذب على ابن كثير وحرّف كلامه وأخذ منه ما يوافق هواه مما يتوهم منه مَنْ لم يرجع إلى كلامه أنه قال كذلك !!

والثانية : أنه ردّ ما جاء في القرآن والأحاديث الصحيحة التي نصَّ فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن آله هم على وجه الخصوص سيدنا علي والسيدة فاطمة وسيدنا الحسن وسيدنا الحسين !!

ثالثاً : أنه رَدَّ بذلك كلام الصحابة الذين بيَّنوا أنَّ آله صلى الله عليه وآله وسلم هم عِتْرَته وذريته ومنهم هؤلاء الأربع وقدَّم على كلامهم قول ابن كثير الذي حرَّفه أيضاً !!

ورابعاً : ردَّ إجماع الأمة واتفاقها على أنَّ آل البيت هم ذرية سادتنا علي والحسن والحسين ودخول آل جعفر وآل عقيل وآل العباس وغيرهم من نسل قرابته الأدنون معهم .

أما كذبه على ابن كثير : فقد صوّر هذا المبتدع الناصبي أنَّ ابن كثير يقول إنَّ الأصل في الآل هم الأزواج كما جاء في سياق آية التطهير وأن دخول أصحاب

---

(٥٣٥) وهذا من تلبيساته وتمحُّله في رَدِّ السنة الثابتة في تفسيره لأهل البيت ، وهو بهذا أراد أن يُلَبِّس على القارئ بأنّ من قال إن أهل البيت هم أهل الكساء أنهم هم الشيعة !! والحق أن من قال ذلك جميع أهل السنة والجماعة وقبلهم الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وآله وسلم !! ولكن هذا هو النَّصْب الذي يُفضي بصاحبه إلى ما ترى !! كما شرحنا هذا في موضعه !!

الكساء من باب التوسع في معنى الآية !! والصواب أنَّ ابن كثير قال عكس هذا !! فقد اعتبر أنَّ أصحاب الكساء هم الأصل واعتبر هذه الآية نص في دخول الأزواج في الآل !! فمن التوسع في معنى الآية هو إدخال الأزواج فيها !! لا العكس كما زعم هذا المبتدع !! حيث قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٩١) هناك ما نصه :

« وهذا نص في دخول أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أهل البيت ههنا لأنهن سبب نزول هذه الآية ... وإن أُريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ففي هذا نظر فإنه قد وردت أحاديث تدل على إنَّ المراد أعمُّ من ذلك ... » .

ثم قال ابن كثير ص (٤٩٤) إنَّ الإمام مسلماً روى في صحيحه (٤/ ١٨٧٤) عن يزيد بن حيان أنه قال لسيدنا زيد بن أرقم رضي الله عنه :

« مَنْ أَهْلُ بيته ؛ نساؤه ؟ قال لا ، وأيمُ الله إنَّ المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يُطَلِّقُها فترجع إلى أبيها وقومها ، أهل بيته أصله وعَصَبَتُهُ الذين حُرِمُوا الصدقة بعده » .

ثم قال ابن كثير :

« ثم الذي لا يشك فيه مَنْ تدبر القرآن أنَّ نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم داخلات في قوله تعالى ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ فإن سباق الكلام معهن » .

فتأملوا جيداً أيها الناس كيف اعتبر الصحابة والعلماء أنه هل يدخل أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أهل البيت مع آله صلى الله عليه وآله وسلم وأقربائه أم لا ثم بينوا أنَّ هذه الآية تجعلهم ممن يدخلون في عموم الآية !! ومحاولة دعوى أنَّ آله هم أزواجه فقط دعوى فاشلة قديمة ردّها سيدنا زيد بن أرقم وغيره وتبناها بنو أمية وأذيالهم النواصب الذين يريدون أنْ يصرفوا الناس عن محبة آل البيت والتعلّق بهم وموالاتهم فلا تغفلوا عن هذا !!

ثم قد بَيَّنَ الله تعالى في كتابه الكريم أنَّ ذرية الرجل هم آله بالدرجة الأولى ثم بعد ذلك نساؤه ؛ قال تعالى ﴿ **فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم** ﴾

آل عمران : ٦١ . فذكر الأبناء قبل النساء على عادة العرب في لغتهم التي نزل بها القرآن الكريم في تقديم الأهم فالأهم والأقرب فالأقرب !!

وقال تعالى ﴿ **والذين آمنوا واتّبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء** ﴾ الطور : ٢١ .

وأما السنة النبوية فقد صحَّت أحاديث كثيرة جداً منها ما هو صريح في قوله صلى الله عليه وآله وسلم « يا أيها الناس تركت فيكم ما إنَّ أخذتم به لن تضلوا ؛ كتاب الله وعِتْرَتي أهل بيتي » .

وهو حديث صحيح وقد تقدّم ، ولَمَّا خرجت السيدة عائشة على سيدنا علي عليه السلام كان الحق مع سيدنا علي لا معها باتفاق لأدلة كثيرة جداً ولقوله تعالى ﴿ **وقَرْنَ في بيوتكنّ ولا تبرجن تبرّج الجاهلية الأولى** ﴾ وقد تابت وندمت ورجعت ؛ والتائب من الذنب كمن لا ذنب له رضي الله عنها .

وقال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٢/ ١٧٧) : « ولا ريب أن عائشة ندمت ندامة كلية على مسيرها إلى البصرة وحضورها يوم الجمل .... » .

وفي البخاري (٧/ ٧٨) أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا ابنته السيدة فاطمة في مرضه الأخير فقالت وهي تخبر عن ذلك :

« سارَّني فأخبرني أنه يُقبَضُ في وجعه الذي توفي فيه فبكيت ثم سارَّني فأخبرني أني أول أهل بيته أتبعه فضحكت » .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٧/ ٧٨) في شرح باب « مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » أسماءهم عليهم السلام فقال :

« **وقوله (قرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم)** يريد بذلك من ينسب إلى جده الأقرب وهو عبد المطلب ممن صحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم ، أو مَنْ رآه مِنْ ذَكَرٍ وأنثى ، وهم علي وأولاده والحسن والحسين ومحسن وأم كلثوم من فاطمة عليها السلام ، وجعفر وأولاده عبد الله وعون ومحمد ، ويقال إنه كان لجعفر رضي الله عنه ابن اسمه أحمد ، وعقيل بن أبي طالب وولده مسلم بن عقيل ، وحمزة بن عبد المطلب وأولاده يعلى وعمارة وأُمامة ، والعباس بن عبد

المطلب وأولاده الذكور عشرة وهم : الفضل وعبد الله وقثم وعبيد الله والحارث ومعبد وعبد الرحمن وكثير وعون وتمام .... كان له من الإناث أم حبيب وآمنة وصفية وأكثرهم من لبابة أم الفضل ، ومعتب بن أبي لهب ، والعباس بن عتبة بن أبي لهب وكان زوج آمنة بنت العباس ، وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب وأخته ضُبَاعة وكانت زوج المقداد بن الأسود ، وأبو سفيان(٥٣٦) ابن الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وابناه المغيرة والحارث ؛ .... وأميمة وأروى وعاتكة وصفية بنت عبد المطلب » .

فهؤلاء كلهم آل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم أهل البيت وأزواجه معهم ؛ لكن خلاصتهم ولبهم أصحاب الكساء عليهم السلام والرضوان الذين جاء نص الحديث الصحيح فيهم .

وجاء في صحيح مسلم (١٨٧٣/٤) كما تقدم أنَّ سيدنا زيداً لما سُئِلَ عن أهل البيت فقيل له : « ومَنْ أهل البيت ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته . ولكن أهل بيته مَن حُرِمَ الصدقة بعده . قال - السائل - ومَنْ هم ؟ قال : هم آل علي ، وآل عقيل ؛ وآل جعفر ؛ وآل العباس » .

فتأمل !!!!

وقد نص علماء أهل السنة والجماعة على وجوب محبة آل البيت وأكَّدوا عليها إلا إنَّ بعضهم جعل ذلك أمراً نظرياً ولم يُطبِّقوه عملياً في أرض الواقع للأسف الشديد متابعة منهم للنواصب أعداء آل البيت النبوي الشريف !! حتى صنف بعض أهل العلم كتاباً بهذا المعنى سماه « أهل البيت النبوي طائفة ممدوحة بالألسن والأقلام مبغوضة في المعاملات والأحكام » ، فينبغي لنا أن لا نقع بما وقع به أولئك ؛ ويجب علينا أن نغرس حب آل بيت نبينا في قلوبنا وقلوب أهلنا وأزواجنا وذرياتنا ، وللموضوع بيان وتفصيل كبير في كتاب آخر والله تعالى يهدي إلى الحق وإلى سواء السبيل ، والحمد لله رب العالمين .

---

(٥٣٦) وهذا ليس أبو سفيان المشهور والد معاوية الأموي .

قال الإمام المحدِّث الدميري في « حياة الحيوان » (١/ ١٩١) :

« قال نصر الله بن يحيى : وكان من الثِّقات ومن أهل السنة : رأيت علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في المنام ؛ فقلتُ له : يا أمير المؤمنين ! تفتحون مكة فتقولون :مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن ! ثمَّ يَتِمُّ على ولدك الحسين ما تمَّ فقال لي : أما سمعت أبيات ابن الصيفي في هذا ؟ فقلتُ : لا . فقال : اسمعها منه . ثم انتبهت فبادرت إلى حَيْص بَيْص (وهو ابن الصيفي) فذكرت له الرؤيا فشهق وبكى وحلف بالله لم تخرج من فمه ولا خطّه إلى أحد وما نظمها إلا في ليلته ثم أنشدني قوله :

ملكنا فكان العفو منا سجية　　فلما ملكتم سال بالدم أبطحُ
وحللتمو قتل الأسارى وطالم　　غدونا على الأسرى فنعفو ونصفحُ
وحسبكمو هذا التفاوت بيننا　　وكل إناء بالذي فيه ينضحُ(٥٣٧) »

وقد أبدع سيدنا الإمام الجهبذ أبو بكر بن شهاب رضوان الله تعالى عليه حيث يقول في قصيدة يخاطب بها سيدنا علياً كرّم الله وجهه ورضي عنه :

ألا يا أمير المؤمنين وسيدَ الـ　　منيبين إنْ جَنَّ الدُّجا وتعكرا
عليك سلام الله يا مَنْ بهديه　　تَبَلَّجتِ الأنوار والحق أسفرا
وتبّاً لقوم خالفوك وزخرفوا　　لأشياعهم زوراً من القول منكرا
وتبّاً لمن والاهم وارتضاهمُ　　أئمته في الدين يا بئس ما اشترى
لئن ظفروا من هذه الدار بالذي　　أرادوا فإن المرءَ يحصد ما ذرا

---

(٥٣٧) قال الإمام الدميري بعد ذلك : « واسم الحَيْص بَيْص : سعد بن محمد أبو الفوارس التميمي ؛ شاعر مشهور . ويعرف بابن الصيفي ولُقِّبَ بالحَيْص بَيْص لأنه رأى الناس يوماً في حركة مزعجة وأمر شديد فقال : ما للناس في حَيْص بَيْص ؟ فبقي عليه هذا اللَّقَب . ومعنى الكلمتين الشدة والاختلاط ، وتفقه على مذهب الإمام الشافعي وغلب عليه الأدب ونظم الشعر ؛ وكان مجيداً فيه ؛ وكان إذا سئل عن عُمُره يقول : أنا أعيش في الدنيا مجازفة !! لأنه كان لا يحفظ مولده ؛ وتوفي سنة أربع وسبعين وخمسمائة » . وقد ذكره الذهبي في « السير » (٢١/ ٦١) والإمام السبكي في « الطبقات » (٧/ ٩١) وغيرهما .

وبعدك جاءت ذات ودقين يا أبا   تراب وجاءت بعد أم حبوكرا
دماء بنيك الغر طُلَّت وبُدِّلَت   حفيظة قرباهم عقوقاً مكفرا
لقد عم كرب الدين في كربلاء إذ   بتربتها أمسى الحسين معفرا
على حين قرب العهد بالوحي أصبحت   مواثيق طه فيه محلولة العرا
ومن دونه العباس خرٌ مجندلاً   فيا الأخ والى فأودى فاعذرا
لتذ بدع إن نالوا الشهادة بل لهم   بيحيى وعيسى أسوة بالذي جرى
ولادكار ذاك اليوم فليبك كل ذي   فؤاد به خط السعادة سطرا
فكم ماجد من آل بيت محمد   تحكم فيهم نابذو الدين بالعرا
ومَنْ ليس إلا قينة أو حظية   قصاراه أو عوداً وخمراً وميسرا
ضغائن في سود الكلاب أمية   أكنت بها من بدر الغدر مضمرا
مواليد سوء حاربوا الله عنوة   وفي الأرض عاثوا مفسدين تجبرا
على ظالمي آل الرسول وَهُمْ هُمُ   لعاينُ ما لبّى الحجيج وكبرا
وصب عليهم ربهم سوط نقمة   وجرّعهم طين الخبال وتَبَّرا
ألا يا ذوي المختار إنا عصابة   نَمُتُّ اليكم بالولادة والقَرَا / بة
نوالي مواليكم ونقلى عدوكم   ونجتث عرق النُّصْب ممن به اجترى
ويا ليتنا في يوم صفين والذي   يليه شهدنا كي نفوز ونظفرا
ونشرب بالكاس الذي تشربونه   فإما وإما أو نموت فنعذرا
بني المصطفى طبتم وطاب ثناؤكم   رثاءً ومدحاً بالبديع محبرا

وقال رحمه الله تعالى ورضي عنه في قصيدة أخرى طنانة :

قال لي بعض مدعى العلم ممن   أضرم الحمق بين جنبيه نارا
هل ترفضت قلت لم أدر ما   الرفض(٥٣٨) لديكم حقيقة واعتبارا
فرفيع مقام قومى وسام   أن يجاروا السفيه والمهذارا
غير إنَّ الضرورة اقتضت الـ   إيضاح فالصمت يوهم الإقرارا
فاستمع ما أقوله ثم قل ما   شيئت بعد اعتذارا او إنكارا
إن لي من تمسكى بكتاب الـ   له ما أتّقى به الأخطارا
ولما صح من حديث أبى القا   سم أنقاد راضياً مختارا
لا أُعانى التأويل فيها اتباعا   للهوى أو تعصباً أو ضرارا(٥٣٩)
مذهبى مذهب الوصى أبى   السبطين فالحق دائر حيث دارا(٥٤٠)
أعلم الصحب للمدينة باب   كم به الله أرغم الكفارا(٥٤١)
وتمسكت بالشهيدين إنى   سائر في عقيدتى حيث سارا(٥٤٢)

---

(٥٣٨) التعليقات على هذه الأبيات هي للسيد العلامة محمد بن عقيل الحسيني الحضرمي رحمه الله تعالى . قال : الرفض يطلق في الاصطلاح على من رفض ابا بكر وعمر رضي الله عنهما وسبهما وتبرأ منهما وقد ولع أخابث النواصب وسفهاؤهم بإطلاقه على كل موالٍ لأهل البيت معادٍ لأعدائهم .

(٥٣٩) قد صرح أكابر العلويين بأن طرقة العلويين الحضرميين هي الاعتصام بالكتاب والسنة .

(٥٤٠) أي أنه يوالي من والى ويعادي من عادى ويقتفيه في مسائل الأسماء والأحكام فيعدل من عدل ويفسق من فسق .

(٥٤١) إشارة لحديث « أنا مدينة العلم وعلي بابها » وقد تكلّم بعضهم في هذا الحديث وقد حكم الحافظ السيوطي بصحته والحافظ العلائي بحسنه وله طرق متعددة وما قيل من أن ابن معين كذبه يخالفه ما ذكره الحافظ عنه في ترجمة أبي الصلت في « تهذيب التهذيب » .

[قال حسن : والحديث صححه ابن معين كما في « تاريخ بغداد » (١١/ ٤٩) ، والحافظ ابن جرير الطبري في « تهذيب الآثار » في مسند سيدنا علي ص (١٠٤) حديث رقم (٨) حيث قال :

« وهذا خبر صحيح سنده ....» ، وحسنه الحافظ العلائي في « النقد الصحيح » والحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة ، والحافظ ابن حجر كما في « اللالي المصنوعة » (١/ ٣٣٤) والحاكم في المستدرك والسيوطي وغيرهم وهو حديث صحيح بلا شك ولا ريب » .

(٥٤٢) أراد بهما الحسن والحسين عليهما السلام ، شهيد المواضي والشهيد المسمَّم .

أشرف العالمين أُمًّا وجدًّا   أطيب الناس عنصراً ونجارا
والمثنى وابن الحسين علي   مَنْ به كل مقتد لن يضارا(٥٤٣)

---

(٥٤٣) هما الإمامان الحسن بن الحسن السبط عليه السلام توفي سنة ٩٧ وعلي بن الحسين السبط زين العابدين عليه السلام توفي سنة ٩٤ مسموماً سَمَّه الوليد بن عبد الملك .

(٥٤٤) هما محمد الباقر ابن الحسين عليه السلام توفي سنة (١١٤هـ) وأخوه زيد بن علي عليه السلام قتل يوم عاشوراء أول سنة ١٢٢ .

(٥٤٥) يريد أن الإمام علي عليه السلام ومن بعده من ذريته حصنوا العلم فلم يذلوه بالتملق للمستبدين واللين للمستأثرين ولكنهم قاتلوا على الشورى والتسوية والعدل هم وأعقابهم رضي الله عنهم وأرضاهم .

(٥٤٦) كتغيرهم أساس الحكومة الإسلامية فنقلوها من الشورى إلى الاستبداد ومن الخلافة إلى المُلْك ، وتغيرهم أحكام الإسلام في الشؤون المالية فجعلوا بيت المال مُلكاً لهم يتصرفون فيه كما شاؤوا بعد أن كان مُلْكَاً للأمة ، واستولوا على أرض الخراج كلها وتملكوها بعد أن كانت وقفاً على المسلمين ، حتى صار نصفها إقطاعات بأيديهم في مشارق الأرض ومغاربها كما قاله عمر بن عبد العزيز ، وكاستيلائهم على الأخماس فاحتجنوها دون ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وكتبديلهم بعض أحكام الحج والصلاة فكانوا يصلون الجمعة قبل الغروب ، وكتركهم الجهر بالتكبير ونظائر ذلك مما يطول شرحه ، وطغوا على خيار الأمة قتلاً وتطريداً وذلك مصداق حديث حذيفة « لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم وتجتلدوا بأسيافكم ويرث دنياكم شراركم » [رواه أحمد (٥/ ٣٨٩) وابن ماجه (٢/ ١٣٤٢) والترمذي (٤/ ٤٦٩) وحسَّنهُ] . وهم بنوا أمية وأتباعهم وحديث « ما اختلفت أمة بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها » [رواه الطبراني في الأوسط كما في « المجمع » (١/ ١٥٧) وقال : وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف] » .

(٥٤٧) يشير بهذا إلى الحديث الذي رواه الحاكم في المستدرك قال قام رجل إلى الحسن بن علي عليه السلام فقال يا مُسَوِّدَ وجوه المسلمين : فقال الحسن لا تؤنّبني رحمك الله فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد رأى بني أمية يخطبون على منبره رجلاً رجلاً فساءه ذلك فنزلت ﴿ **إنا اعطيناك الكوثر** ﴾ ونزلت ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ تملكها بنو أمية ، فحسبنا ذلك فإذا هو لا يزيد ولا ينقص ، وقد جهد الذهبي أن يطعن في هذا الحديث فوجد أن طرقه الثلاثة صحيحة فقال ما أدري آفته من أين ؟ والصواب إن شاء الله أن المصاب بالآفة التي هي موالاة الجبابرة من بني أمية هو الذهبي نفسه ؛ وأما الحديث فصحيح لا آفة به ! وكيف لا وشاهده الصحيح الذي صححه الذهبي نفسه والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إني رأيت في منامي كأن بني الحكم بن أبي العاص ينزون على منبري كما تنزو القردة » قال فما رؤي النبي صلى الله عليه وآله وسلم مستجمعاً ضاحكاً حتى توفي .

وعلى الباقر اعتمادي وزيد في   سبيلى فلست أخشى العثارا(٥٤٤)
حصنوا العلم إذ بنوا عبد شمس   خبط عشواء يخبطون سكارى(٥٤٥)
غيروا بدلوا طغوا وتعامى   حاملوا العلم خيفة واضطرارا(٥٤٦)
ألف شهر تمتعوا ثم حُقّت   نقمة الله فاستحقوا الدمارا(٥٤٧)

إلى أنْ يقول فيها عن ذرية سيدنا علي كرّم الله وجهه :

وبنيه الأئمة العلويين الـ   أولى حوّلوا العتيم نهارا
سالكى المنهج الذي لم تجد فيـ   ـه انعطافاً ولست تلقى ازوارا
هؤلاء الأعلام أشرف بيت   في الورى بيتهم وأعلا منارا(٥٤٨)
أيها الغمر هل سؤالك إيا   ي لجهل أم خفة واغترارا
إننا أيها المغفل نقفو   هؤلاء الأئمة الأطهارا
ولنا الشافعى خير إمام إنْ   وجدنا في النقل عنهم غبارا
إن يطوفوا نطف ونستلم الر   كن ونرمى كما رموها الجمارا
أعلم الناس بالكتاب وبالسـ   ـنة حيث الهدى هناك استنارا
بالذي صح عنهم الأخذ أحرى   فاقرء الكتب وافحص الأخبارا
إن تقل ما به يدينون رفض   فهو دينى عقيدة وائتمارا
أعلى الحق تجتري أم عليهم   كيف تسري سرى النسور الحبارى
عن أبيهم أتى الهدى ثم عنـ   ـهم يتلقّى ويودع الأسفارا
فهو في دورهم وفيهم عريق   ولدى غيرهم يرى مستعارا

---

(٥٤٨) لأنهم من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكفاه بذلك فضلاً مع ما لهم من جليل الفضائل والمناقب ، والمكارم التي لا يحصيها قلم كاتب ولا حاسب ، وحسبك أنه يوجد فيهم إلى اليوم من لم ينقطع العلم والصلاح في سلسلة نسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهذه منقبة قلّ أن توجد لأحد على بسيط الأرض ، وإلى مثل ذلك أشار الإمام عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس بقوله :

عالم صالح أبي ثم جَدّي   هكذا هكذا إلى المختار

ما من الشام جاء أو أرض طوس   أو سمرقند أو أتى من بخارى
ديننا حب أهل بيت رسول الـ   ـلـه حباً يكفر الأوزارا
وكذا حب صاحبيه الضـ   ـجيعين العليين عنده مقدارا
بهما رُبَّ فتنة أخمد الله   أزاغت لهولها الأبصارا
والأولى بشروا بأن لهم في   جنة الخلد مستقراً ودارا
ونحب المهاجرين وأصحا   ب النبي الخيار والأنصارا
ضاعف الله أجرهم وعليهم   صيب العفو والرضا مدرارا
وأحل الجميع في جنة الخلـ   ـد وأجرى من تحتها الأنهارا
هذه السنة التي أمر الله   بها الناس صبية وكبارا
ونهاهم عن التولي لمن نا   فق أو جَدَّ في الفساد وجارا
ما تريدون بعد إنا شرحنا   ما الصدور انطوت عليه مرارا
هل تسوموننا انتقاص على   فنغيظ المهيمن القهارا
أو على ابنيه نجتري وسخيف   من يعيب الشموس والأقمارا
أم تريدون أن نحب ابن هند   وعن النص مثلكم نتوارى
لم تجد مؤمناً كما أخبر الـ   ـلـه محباً من حارب الجبارا
وحديث النبي أقوى عرى الـ   إيمان في الله بغضنا الأشرارا
فهو باغ ولا كرامة للبا   غي ومن النار الشرار استطارا
حارب المرتضى وسمم سبط الـ   مصطفى بئس ما ارتضاه قرارا
يقتل الصالحين صبراً كحُجْر   يأكل الفيء يلعن الكرارا
وتمادى يعيث فيهم فسادا   وعلواً في الأرض واستكبارا
خاض لج الضلال عشرين عاما   ثم ولى يزيده الخمّارا
وتقولون باجتهاد مشاب   يا لهذا معرة وشنارا
لو يكون الذي زعمتم صوابا   لارعوى بعد قتله عمّارا
هل ترى عالم الخفيات يرضى   ما صنعتم ويقبل الأعذارا
ومن المخجل احتجاج أُناس   بأحاديثَ تشبه الأسمارا

ساقهم نصبهم إليها افتراها   ورواها من يعبد الدينارا
ولهم كم مقلد رام ربحا   لم يزده التقليد إلا اخسارا
أين ربح الذي يرى القار مسكا   يقتنى أو يرى النحاس نضارا
ربنا افتح بين الجميع بحق   وارفع الخلف بيننا والشجارا
واهدنا أقوم السبيل ولا تحـ   ـمل علينا اصراً ولا إصرارا
وارفع الضنك عن عبادك والبا   ساء وارحم وأرخص الأسعارا
وصلاة على نبيك طه   أعظم الرسل رتبة وفخارا
وعلى العترة الكرام أمان   الأرض من أن تميد أو تنهارا
وعلى الصحب مَنْ لنصر رسو   ل الله ساموا النفيس والأعمارا
وعلى التابعين ما غرّد الـ   قمري أو ناوح الحمام الهزارا

والحمد لله رب العالمين .

فصل

في ذكر العلماء والسابقين بالخير ما لم يقترفوا شيئاً

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(وعلماء السلف من السابقين ومَنْ بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر ، وأهل الفقه والنظر لا يذكرون إلا بالجميل ، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل) .

الشرح :

ينبغي لكلِّ مؤمن أن يذكر أهل الحق من المسلمين بكل جميل سواء كانوا من السلف أو من الخلف ، فأهل العلم واجب احترامهم وتعظيمهم وتوقيرهم وخدمتهم في أي عصر ومِصْر ، أما أخطاؤهم التي لا تخرجهم من دائرة الإسلام ولا هي فسق ظاهر فينبغي على من أدركها اجتنابها مع الثبات على احترامهم وتبجيلهم !!

أما أهل الباطل ممن تشبهوا بالعلماء وترسموا بسمتهم وادّعوا أنهم منهم فيجب الرد على أهوائهم وأرائهم التي يخالفون بها أهل الحق المتمسكين بنصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة وقواعد الشريعة الغراء .

ولذلك قيد الإمام الطحاوي علماء السلف بصفة أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر وهؤلاء هم أهل الحق من علماء المسلمين في السابق واللاحق .

قال الله تعالى ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ وقال تعالى ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ . والأحاديث في فضل العلماء كثيرة جداً .

ولا يلزم من قول المصنّف رحمه الله تعالى (وعلماء السلف .... لا يُذكرون إلا بالجميل) أنه لا يجوز ذكر ما أخطأ فيه أفرادهم من المسائل العلمية ومناقشتهم فيما بحثه بعضهم من الأمور الشرعية ؛ وإنما يعني أنَّ وقوع الخطأ من بعضهم إن لم

يخرجه من دائرة الإسلام أو يحكم بفسق الواحد منهم لا يقتضي ذمهم وذكرهم بالسوء ، وكتب الجرح والتعديل مليئة بنقد علماء السلف والخلف ، فقوله (ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل) أي على سبيل الجملة لا أفراداً . والملاحظ أنَّ أهل السنة والجماعة أقل الناس احتراماً لعلمائهم بحيث ينقلبون على العالم لمجرد مخالفته لأهوائهم وأغراضهم والأمثلة على ذلك كثيرة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وقد وقع جماعة في ذم كبار من علماء السلف تعصباً عليهم لمجرّد مخالفتهم لمذهبهم كما وقع لجماعة من أهل الحديث في تطاولهم على مدرسة أهل الرأي وخاصة في تطاولهم على الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى ورضي عنه ، ومنهم الخطيب البغدادي في نقله مثالب موضوعة على الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه في تاريخه ! وتَبِعَهُ على ذلك قوم من المتعصبين حاولوا ترجمة ما دوّنه الخطيب البغدادي في كتابه في حق الإمام أبي حنيفة إلى اللغة الهندية الأُردية في سبيل إقناع العامة هناك للانفضاض من مذهبه رحمه الله تعالى السائد هناك !! وأبى الله تعالى ذلك بجهود الإمام المحدّث الكوثري عليه الرحمة والرضوان .

ولا زال المتعصبة من المجسمة والمشبهة يطعنون في أهل الحق وأكابر العلماء كإمام الحرمين والغزالي والرازي والنووي وابن حجر وغيرهم لأجل أنهم يخالفونهم في مشربهم !! والله تعالى يدافع عن الذين آمنوا ؛ والموضوع في هذه القضية طويل الذيل سنتكلّم فيه إن شاء الله تعالى في رسالة خاصة والله الموفق وهو سبحانه يقول الحق ويهدي إلى سواء السبيل .

مباحث الردة والشرك وما يتعلق بهما

باب الردة
وما يتعلّق بها من الأحكام

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ولا يَخْرُجُ العبد من الإيمان بجحود ما أدخله فيه ، ومَنْ وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر ، فمن أبصر هذا اعتبر ، وعن مثل قول الكفار انزجر ، وعلم أنه بصفاته ليس كالبشر ، ولا نخوض في الله ولا نماري في دين الله ، والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام ، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة ، ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من أهل الحَيْن [أي الهلاك] ، ولا نُنْزِلُ أحداً منهم جنة ولا ناراً ، ولا نشهد عليهم بكفرٍ ولا بشركٍ ولا بنفاق ، ما لم يظهر منهم شيء من ذلك ، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى ، لأن العلم علْمان علم في الخلق موجود وعلم في الخلق مفقود ، فإنكار العلم الموجود كفر ، وادّعاءُ العلم المفقود كفر . ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود ، وترك طلب العلم المفقود) .

الشرح :

بعد أنْ عرفنا قواعد التوحيد وأصوله وبعض فرعياته وما ينبثق عنها ، وفهمنا معنى الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) بشرح مُفَصَّل متوسط ، لا بُدَّ لنا أن نعرف الآن كيف ينبغي أن يحافظ الإنسان المسلم على عقيدته ، وكيف ينبغي له أن لا يفرّط فيها ، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة الرّدة وتفاصيل مسائلها ، لا سيما وأن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة تعرّضا لهذا الموضوع المهم الخطير ونصا على أنَّ الإنسان بعد إسلامه وإيمانه قد يعتقد اعتقادات أو يتلفظ بكلمات أو يفعل أموراً يظنها من الجائزات يخرج بها من الإسلام ويُعْتَبر عند الله تعالى وعند

المسلمين في الدنيا والآخرة كافراً مرتداً يستحق دخول النار والخلود فيها والعياذ بالله تعالى .

وها نحن ذا نشرع في عرض تلك النصوص الواردة في الكتاب والسنة التي تعرّضت لهذا الموضوع المهم فنقول وبالله تعالى التوفيق :

قال تعالى : ﴿ **ومن يَرْتَدِدْ منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعماهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ البقرة : ٢١٧ .

وقال تعالى : ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم** ﴾ التوبة : ٧٤ ، وقال تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا مَنْ يرتَدَّ منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله** ﴾ المائدة : ٥٤ .

وقال تعالى ﴿ **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ المائدة : ٥ .

وقال تعالى : ﴿ **إنَّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون * إنَّ الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يُقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين** ﴾ آل عمران : ٩١ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال صلى الله عليه وآله وسلم :

« إنَّ العبد ليتكلّم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » رواه البخاري (١١/٣٠٨) ومسلم (٤/ ٢٢٩٠) .

وفي رواية أخرى للبخاري (١١/٣٠٨) عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ : « إنَّ العبد ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله لا يُلْقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلّم بالكلمة من سخط الله لا يُلْقي لها بالاً يهوي بها في جهنم » .

فيتقرر إذ ذاك أنَّ الكلمة المقصودة في الأحاديث المتقدّمة التي ينطق بها العبد ولا يُلقي لها بالاً فيهوي بها في النار سبعين خريفاً هي كلمة الكفر لا غير .

تعريف الرِّدة وبيان الأمور المكفّرة الموقعة في الردّة :

الردة هي قطع الاستمرار في دين الإسلام إما بقول أو بفعل أو اعتقاد ، ولا يشترط فيها اجتماع الثلاثة معاً فلو فعل أو قال قولاً كفرياً دون اعتقادٍ كَفَرَ واعتُبِرَ مرتداً ، مثال ذلك مَنْ سَبَّ الدِّين أو الرب مثلاً ثم قال لم أقصد الخروج من الإسلام ولا قطع الاستمرار فيه ولم ينشرح صدري للكفر لم ينفعه هذا الاعتذار حقيقة بل يُعتبر كافراً مرتداً خارجاً من الملّة ويجب عليه أن يعود إلى الإسلام بالنطق بالشهادتين بِنِيَّة التوبة والبراءة من الكفر والشرك .

ويظن كثير من الناس اليوم أنَّ المسلم لا يرتدُّ ولا يُعتبر خارجاً عن ملّة الإسلام إلا إذا أعلن للناس بأنه ترك دين الإسلام وكفر بالله العظيم وبرسوله الكريم ، والحقيقة أنَّ الأمر ليس كذلك بل هذا الأمر أحد الأمور المُخْرِجَة من الإسلام ، ولا يشترط فعل هذا الأمر حتى يعتبر مرتداً بل قد يتلفظ الإنسان المسلم كما قدّمنا بكلمة (أي عبارة) أو يفعل فعلاً يعتبر به كافراً مرتداً ، وسيمر تفصيل هذه الأمور إنَّ شاء الله تعالى بعد قليل .

قال العلامة السيد عبد الله بن حسين بن طاهر الباعلوي رحمه الله تعالى [المتوف سنة ١٢٧٢ هـ في حضرموت] في كتابه « سلّم التوفيق » :

« يجب على كل مسلم مكلّف حفظ إسلامه وصونه عما يفسده ويبطله ويقطعه وهو الردة والعياذ بالله تعالى ، وقد كثر في هذا الزمان التساهل في الكلام حتى أنه تخرج من بعضهم ألفاظٌ تُخْرِجُهم عن الإسلام ولا يرون ذلك ذنباً فضلاً عن كونه كفراً » .

وقال الإمام النووي في « الروضة » (١٠/ ٦٤) :

[الرِّدَّة هي أفحش أنواع الكفر وأغلظها حكماً ، وفيها بابان :

الأول : في حقيقة الرِّدة ، ومَنْ تَصِحُّ منه ، وفيه طرفان .

الأول : في حقيقتها ، وهي قطع الإسلام ، ويحصل ذلك تارة بالقول الذي هو كفر ، وتارة بالفعل ، والأفعال الموجبة للكفر هي التي تصدر عن تعمد واستهزاء بالدين صريح ، كالسجود للصنم أو للشمس ، وإلقاء المصحف في القاذورات ،

والسحر الذي فيه عبادة الشمس ونحوها .... وتحصل الردة بالقول الذي هو كفر ، سواء صدر عن اعتقاد أو عناد أو استهزاء ، هذا قول جُمْلِي ، وأما التفصيل فقال المتولي :

من اعتقدَ قَدِمَ العالَم ، أو حدوث الصانع ، أو نفى ما هو ثابت للقديم بالإجماع ، ككونه عالماً قادراً أو أثبت ما هو منفي عنه بالإجماع ، كالألوان أو اثبت له الاتصال والانفصال كان كافراً ، وكذا من جحد جواز بعثة الرسول ، أو أنكر نبوة نبي من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، أو كَذَّبه ، أو جحد آية من القرآن مجمعاً عليها ، أو زاد في القرآن كلمة واعتقد أنها منه ، أو سب نبياً ، أو استخف به ، أو استحل محرماً بالإجماع ، كالخمر والزنى واللواط ، أو حرم حلالاً بالإجماع ، أو نفى وجوبه كركعة من الصلوات الخمس أو اعتقد وجوب ما ليس بواجب بالإجماع ، كصلاة سادسة وصوم شوال ، أو نسب عائشة رضي الله عنها إلى الفاحشة ، أو ادَّعى النبوة بعد نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، أو صدّق مدّعياً لها ، أو عظم صنماً بالسجود له ، أو التقرب إليه بالذبح باسمه ، فكل هذا كفر .

قلت ــ النووي ــ : قوله : (إنَّ جاحد المجمع عليه يكفر) ليس على إطلاقه ، بل الصواب فيه تفصيل سبق بيانه في باب تارك الصلاة عقب كتاب الجنائز ، ومختصره أنه إنَّ جحد مجمعاً عليه يُعلم من دين الإسلام ضرورة كفر إنْ كان فيه نص ، وكذا إنْ لم يكن فيه نص في الأصح ، وإن لم يعلم من دين الإسلام ضرورة بحيث لا يعرفه كل المسلمين ، لم يكفر . والله أعلم] انتهى .

ذِكْرُ الأمور المترتبة على مَنْ وقع في الردة :

ينبغي أنْ تعلم يرحمك الله تعالى أنه من وقعت منه ردّة والعياذ بالله تعالى يترتب عليه أمور :

(الأمر الأول) : يخرج من دائرة الإسلام ويسمّى مرتداً أو كافراً ولا تجري عليه أحكام المسلمين مثل الصلاة عليه إنْ مات فإنها تحرم ، وكذا دفنه في مقابر المسلمين ونحو ذلك ، ويجب استتابته من الكفر ومناظرته إنْ كانت لديه أو عنده شبهة ، وهو مطالبٌ حالَ ردته وقبل موته بأداء الصلاة وصيام رمضان ولا تقبل

منه هذه العبادات إلا أن يعود إلى الإسلام .

ومتى فاتته صلواتٌ حالَ ردته فإنه يجب عليه قضاؤها وكذلك قضاء ما فاته من الصيام أو ما وقع منه حال ردّته وقس على هذا .

قال الحافظ في « الفتح » (١٢/ ٢٧٢) :

[وقد وقع في حديث معاذ أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أرسله إلى اليمن قال له : « أَيُّمَا رَجُلٍ ارتدَّ عن الإسلام فادعه فإن عاد وإلا فاضرب عنقه ، وأيما امرأةٍ ارتدّت عن الإسلام فادعها فإن عادت وإلا فاضرب عنقها » وسنده حسن] .

(الأمر الثاني) : حسنات المرتد تذهب جميعها وتلغى فلا تبقى له حسنة واحدة ، فلو عبد الله تعالى مائة عام يقوم الليل ويصوم النهار أو يجاهد في سبيل الله تعالى ليلاً ونهاراً ثم وقعت منه ردّة كَسَبِّ الله تعالى أو سب الأنبياء أو الدِّين أو القرآن أو أي ردّة أخرى كانت ؛ فإنه يكفر وتذهب جميع حسناته فلا تبقى له حسنة واحدة ، لقوله تعالى ﴿ **وَقَدِمْنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً** ﴾ الفرقان : ٢٣ .

وإذا عاد للإسلام وتبرأ من الكفر وذلك بأن يتشهد بنية الدخول في الإسلام لم تعد له حسناته الذي ذهبت وإنما يستأنف أعمالاً بحسنات جديدة ، وإذا كان صادقاً في توبته نادماً منكسراً لله تعالى حريصاً على طلب العلم عاملاً فإن الله تعالى يُبَدِّلُ سيئاته المتبقية إلى حسنات أي بعد محو حسناته التي ذهبت لقوله تعالى ﴿ **إلا مَنْ تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ الفرقان : ٧٠ ، وأما حسناته التي محقها الله تعالى وأذهبها فإنها لا تعود .

[تنبيه] : اعلم أنَّ معنى قوله تعالى ﴿ **إنَّ الله لا يغفر إنْ يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ النساء : ٤٨ ، أي أنَّ الله تعالى لا يغفر لمن مات مشركاً أو وصل لحال الغرغرة وعاين الحق وعرفه ساعتئذ ، أما من تاب من الكفر والشرك في أي وقت في حياته قبل ذلك فإنه مقبول قطعاً ، وأكثر الصحابة رضي الله عنهم كانوا قبل أن يستجيبوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ويؤمنوا به يعبدون الأصنام

والأوثان ويشركون بالله تعالى ثم تابوا من ذلك الكفر فتاب الله عليهم وجعلهم من أكابر أوليائه ، قال تعالى ﴿ **وليست التوبة على الذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إني تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً** ﴾ النساء : ١٨ .

وأما معنى قوله تعالى ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ أي أنه شاء أن يغفر الصغائر وأما الكبائر فشاء أن لا يغفرها إلا إذا تاب صاحبها منها ؛ بيَّن ذلك سبحانه في آية أخرى ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إلا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ النجم : ٣٢ ، وقال تعالى : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ النساء : ٣١ ، والقرآن يُفَسِّر بعضه بعضاً .

وقال تعالى : ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعه فرعون وجنوده بغياً وعدواً ، حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * آلآن وقد عصيتَ قبلُ وكنت من المفسدين** ﴾ يونس : ٩١ .

(**الأمر الثالث**) : بالنسبة لعقد نكاح المرتد فإنه ينفسخ قبل الدخول إجماعاً ؛ وأما بعد الدخول فعند السادة الحنفية ينفسخ فوراً أيضاً ويجب التفريق بينهما لكن لا يعتبر طلاقاً ، ويحتاجان إنْ رجع المرتدُّ منهما إلى الإسلام إلى تجديد عقد النكاح بمهر جديد ، وعند السادة الشافعية لا يحصل التفريق إلا بعد انقضاء العدة فإن لم يرجع المرتد منهما إلى الإسلام ومضى زمن العدة بَانَ الانفساخ وفرّق بينهما فإن أرادوا العود بعد انقضاء العدة برجوع المرتد احتاج الأمر إلى عقد جديد بولي وشاهدي عدل ولا يعتبر الفسخ طلاقاً ، وهذه بعض نصوص أئمة المذاهب في ذلك :

قال في « شرح العناية » على « الهداية » المطبوع على هامش « فتح القدير » (٣/ ٤٢٨) للبَابَرْتِي الحنفي : « قوله (وإذا ارتدَّ أحد الزوجين عن الإسلام وقعت الفُرْقَة) في الحال (بغير طلاق) قبل الدخول أو بعده ، وبه قال مالك وأحمد في رواية ، وقال الشافعي وأحمد في أخرى قبل الدخول هو كذلك ، وأما بعده فيتوقف إلى انقضاء العِدَّة ، فإنْ جمعهما الإسلام قبل انقضائها يستمرُّ النكاح

وإلا تبيّن الفراق من وقت الردة » انتهى .

وقال الخطيب الشِّربيني الشافعي في « مغني المحتاج » (٣/ ١٩٠) :

[(ولو ارتدَّ زوجان) معاً (أو أحدها قبل دخول) حيث لا عدّة باستدخال مني الزوج المحترم (تَنَجَّزَتِ الفُرْقَة) بينهما لعدم تأكُّده بالدخول أو ما في معناه ، وحكى الماوردي فيه الإجماع (أو بعده) أي الدخول أو ما في معناه (وُقِفَتْ) تلك الفُرْقة ، وحينئذ (فإن جَمَعَهُما الإسلام في العدّة دام النكاح) بينهما لتأكُّدِهِ بما ذُكِر (وإلا) بأن لم يجمعهما (فالفرقة) بينهما تتبين (من) حين (الرِّدَّة) منهما أو من أحدهما لأنه اختلاف دِيْنٍ بعد المسيس ، فلا يوجب الفسخ في الحال كإسلام أحد الزوجين الكافرين الأصليين .

(**ويحرم الوَطْء في**) **مدّة** (**التوقف**) لاحتمال انقضاء العدة قبل اجتماعهما في الإسلام ، فيتبين انفساخ النكاح من وقت الردة ، وحصول الوَطْء في البينونة (و) لكن لو وطيء (لا حدَّ) عليه للشبهة وهي بقاء أحكام النكاح وتجب العدّة منه] انتهى .

(**الأمر الرابع**) : أنه لا يَرِث و يُورَّث وماله فيء (أي غنيمة) إلى بيت المال .

قلت : هذا عند وجود بيت المال في الدولة الإسلامية التي تحكم بالإسلام والتي تتكفل بسد حاجات الناس وتوزيع الزكوات وغيرها على المحتاجين والفقراء ، أما اليوم فلا ينبغي أن يترك الوارث حقه في التركة من مورِّثِهِ لفقد بيت المال أولاً لأنه سيأخذ حصته مَنْ هو شَرٌّ من صاحب التَّرِكة لذا ينبغي أنْ يأخذ حصته من التركة على أنها فيء .

أما إذا كان الوارث مرتداً فينبغي أنْ يسعى صاحب التركة المسلم أنْ لا يوصل إليه شيء من ماله الذي سيتركه بعد وفاته وأن لا ينفعه به إن قَدَر واستطاع .

أقسام الردة وأنواعها

الردة اعتقادات وأفعال وأقوال

اعلم يرحمك الله تعالى أنَّ الرِّدَّة تتنوّع إلى ثلاثة أنواع إما أقوال أو أفعال أو اعتقادات ويدخل تحت كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة عدّة تقسيمات ، ومعنى ذلك أنَّ الإنسان يخرج من الإسلام إما بأقوال يقولها وإما بأفعال وإما باعتقادات ، فلنشرع في بيان هذه الأقسام وتفصيلها :

الردة الاعتقادية :

هناك أمور اعتقادية قلبية مضادّة لعقيدة الإسلام الحقة قد يعتقدها الإنسان ويعقد قلبه عليها معتقداً صحتها أو أحقيتها فيكون بذلك كافراً مرتدّاً خارجاً عن دائرة الإسلام .

ويستثنى من هذا الأمر الوسوسة القلبية التي تخطر في ذهن بعض الناس ويدفعها الإنسان عن قلبه وهو كاره لها ، والتي ورد ذكرها في بعض الأحاديث النبوية الصحيحة التي منها ما رواه مسلم في « الصحيح » (١/ ١١٩) عن أبي هريرة قال : جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسألوه : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أنْ يتكلّم به . قال : « وقد وجدتموه ؟ » قالوا : نعم . قال « ذلك صريح الإيمان » .

قال العلماء : صريح الإيمان هو تعاظم الأمر وكراهية قلوبهم لهذا الوارد القلبي المضاد لعقيدة الإسلام . فقوله صلى الله عليه وآله وسلم « وقد وجدتموه » أي هل كَرِهَت قلوبكم تلك الواردات والوساوس الشيطانية ؟! فلما أعلموه بأن قلوبهم كرهت ذلك وتعاظمته أخبرهم أنَّ ذلك منهم دليل على صريح إيمانهم ، وقد صرّح الإمام النووي رحمه الله تعالى في « شرح مسلم » (٢/ ١٥٤) بذلك حيث قال : « فقوله صلى الله عليه وآله وسلم (ذلك صريح الإيمان) ومحض الإيمان معناه استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان ، فإن استعظام هذا

وشدّة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً وانتفت عنه الريبة والشكوك » .

ونعود إلى الكلام عن الردة الاعتقادية فنقول : إنَّ من أمثلة الاعتقادات المخرجة للإنسان عن ملة الإسلام الشك في الله تعالى من أي جهة من الجهات ، وكأن يعتقد الإنسان ويتصوّر بأن الله تعالى على صورة إنسان أو أنه جالس على كرسي عظيم في مكان فوق السماء السابعة ، أو إذا اعتقد أنَّ له شكلاً أو صورة أو هيئة ، أو اعتقد ثبوت ما يجب تنزيه الله تعالى عنه إجماعاً كالجسمية ، أو أنَّ له طولاً وعرضاً وعمقاً ، أي حدوداً متناهية أو غير متناهية ، أو شَبَّهَهُ بشيء من المخلوقات ، أو اعتقد أنَّ له لوناً أو أنه كالماء والهواء لا لون لهما ، أو أنه من قبيل الأشياء اللطيفة كالهواء والنار والضوء ، أو أنه من قبيل الأجسام الكثيفة كالتراب والصخر والمعادن ، أو أنَّ مخلوقاً يمكن إنَّ يتصوّره ويتخيله سبحانه ، أو أنَّ له وقتاً ابتدأ فيه أو وقتاً وزمناً ينتهي إليه .

أو اعتقد قِدَمَ العالم ، نوعاً أو فرداً ، أو حدوث الصانع سبحانه ، أو تسلسل الحوادث إلى غير بداية بحيث أنه لم يكن وحده ، أو أنَّ صفاته سبحانه حادثة أو ما يقتضي بأن صفاته حادثة ، أو أنه يحدث له علم الأشياء بعد أنْ لم يكن عالماً بها ، أو يعلم الكليات دون الجزئيات والتفاصيل ، فإن ذلك يقتضي النقص والحدوث وهو منافٍ للألوهية .

أو اعتقد اتصال أو انفصال الله تعالى بالعالم ، أو قال بأنه خارج العالم أو داخله . لأنه يكون بذلك قد تصوّره جسماً يجوز عليه الاتصال والانفصال أولاً ، ووصفه بما لم يرد ولا يجوز وصفه به ثانياً ، أو اعتقد أنه يوصف بالحركة أو السكون ، أو الحلول أو الاتحاد ، أو التناسخ ، فكل ذلك وما أشبهه أو ما جرى مجراه كفر موجب للخروج من ملة الإسلام .

وكذلك مَنْ اعتقد تحليل أمر مُحَرَّم بإجماع المسلمين معلوم من الدين بالضرورة كالزنا وشرب الخمر وأكل أموال الناس بالباطل ، إلا إن كان قريب عهد بإسلام أي أسلم جديداً ولم يعرف ويتعلم أحكام الإسلام المهمة بعد ، فإن أصرَّ

وعاند بعد أن عرّفناه وعلّمناه ارتدَّ وعاد كافراً .

وكذلك إذا اعتقد نفي وجوب مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة كالصلوات الخمس ، فاعتقد أنَّ الصلاة والزكاة والقيام بالشعائر ليس مهماً ولا واجباً إنما الواجب أن يكون قلبه نظيفاً طاهراً كما يدَّعي بعض الناس اليوم فذلك كفر ناقل من الملة ، فإن تلفَّظ بذلك أيضاً وقاله للناس صار ردة قولية أيضاً زيادة على كونها ردة اعتقادية ، فانتبه لذلك .

وكذلك إنْ اعتقد تحريم أمر حلال بإجماع المسلمين كالبيع والنكاح ، فمن اعتقد حرمة نكاح زوجة ثانية وثالثة ورابعة كفر ، لأنه يكون معارضاً لقول الله تعالى ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة** ﴾ النساء : ٣ ، ومما يؤسف له جد الأسف أننا نسمع كثيراً من الناس يُكْمِلُون الآية فيزيدون عليها من كيسهم قولهم (ولن تعدلوا) وبعضهم لجهلهم بدينهم وإسلامهم يظنها تكملة الآية ، فيزعمون بذلك أنَّ الله تعالى بين لنا أننا لن نعدل ولذلك يعتقدون حرمة الزواج بامرأة ثانية ، ولو تأملوا فيما يتخيلونه ويزعمونه بعقولهم لوجدوا أنه لا معنى ساعتئذ لقوله تعالى ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع** ﴾ ولو علم الله تعالى بأنّ الإنسان لن يعدل في هذا الأمر لما قال ذلك بل لحرّمه من أصله ، فانتبه لهذا الأمر .

على أن هناك آية أخرى يقول الله تبارك وتعالى فيها ﴿ **وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا** ﴾ النساء : ١٢٩ ، ومعناها أنكم لا تستطيعون أن تعدلوا قلبياً بأن تحبوا كل زوجة مثل حب الأخرى لكن يجب عليكم أن تعدلوا في النفقة وفي المبيت .

ويستثنى من هذه المسألة مَنْ اعتقد حرمة نكاح زوجة ثانية أو أكثر مع ظلم إحداهن ، أي حرمة نكاح فلان لامرأة ثانية لأنه معروف بالظلم والاستبداد ، فهذا ليس كفراً بل قوله هنا صحيح شرعاً .

وكذلك يكفر إنْ اعتقد وجوب مالم يجب إجماعاً كرواتب الصلوات

المفروضات (أي سننها) .

وكذلك يكفر فوراً من نوى الكفر في المستقبل كمن عَزَمَ على أن يكفر بعد يوم أو سنة ويرجع عن دين الإسلام أو يفعل أمراً يوجب الردة في المستقبل فإنه يكفر من تلك اللحظة التي عزم فيها ، وكذا من أنكر نبوة نبي مجمع على نبوته ، أو رسالة رسول مجمع على رسالته .

وكذلك مَنْ أنكر حرفاً مجمعاً عليه في القرآن ، فخرجت بذلك البسملة في أوائل السور فإنها غير مجمع عليها ، أو اعتقد زيادة حرف في القرآن مجمع على أنه ليس منه .

وكذلك يكفر من كذّب رسولاً أو نقّصه أو صغر اسمه بقصد تحقيره ، ومن أمثلة تكذيب الرسول اليوم أن يسمع إنسانٌ أمراً أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعرف أنَّ ذلك قد صحَّ عنه صلى الله عليه وآله وسلم فقال - وهو يريد ويقصد تكذيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم - : إنَّ ما قاله النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطأ وباطل . فمن عرف مثلاً أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « نِعْمَ الإدامُ الخَلّ »(٥٤٩) فقال هو : كلا ، بل بئس الإدام الخل ، قاصداً تكذيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما قاله كفر بلا شك .

وبمناسبة ذكر هذه المسألة نقول : إنَّ الحديث الذي يتناقله بعض الناس « بئس الإدام الخل » كذب موضوع(٥٥٠) .

---

(٥٤٩) رواه مسلم (٢٠٥١) .

(٥٥٠) قال العلامة العجلوني في كتابه « كشف الخفاء » (حديث٢٨٢٥) : « وأما (بئس الإدام الخل) فلا أصل له » .

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(وكل دعوى النبوة بعده فغَيٌّ وهوى) .

الشرح :

وكذلك يكفر من جوّز نبوة إنسان بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أي أنَّ الوحي نزل على إنسان بالنبوة بعدما بُعِثَ سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، باستثناء سيدنا عيسى الذي ينزل آخر الزمان حيث يكون تابعاً لشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عند من يقول بنزوله .

وكذلك يكفر (كما في مغني المحتاج ٤/ ١٣٥) من قال : إنَّ النبوة مُكْتَسَبَة ، أو ينال العبد رتبتها بصفاء القلوب ، أو زعم إنسان أنه يوحَى إليه ولو لم يدّعِ النبوّة ، أو صدّقَ مُدَّعِياً للنبوّة بعد نبينا صلى الله عليه وآله وسلم) .

قلت : لقوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ الأنعام : ٩٣ .

قال القاضي عياض في آواخر كتابه « الشفا » (٢/ ٦٠٦) : « وكذلك - يكفر - من ادّعى مجالسة الله والعروج إليه ومكالمته أو حلوله في أحد الأشخاص كقول بعض المتصوِّفة والباطنية .... » وكذا كل مَنْ دافع عن تلك الضلالات المسطورة في كتب مَنْ يدَّعي التصوُّف أو الكلمات المنقولة عن بعض مدَّعي الصوفية (أي أدعياء التصوف) التي هي كفر وضلال ظاهر وادعى إنَّ لهم اصطلاحات خاصة بهم لا يعرفها غيرهم ولا يخاطبون بها إلا الخواص أمثالهم فهو ضال مضل مارق من الدين ، ولا يجوز لأي شخص أن يلتفت لقول هذا المدافع عن الضلالات الذي يدّعي تارة بأنها مدسوسة على أولئك الذين يزعم بأنهم من الأولياء المقرّبين ، وتارة بأنها على اصطلاحهم الخاص ، حتى آل الأمر أن ينقلب الكفر هدى والهدى كفراً ، كتلك الشطحات التي يزعمونها أعاذنا الله تعالى من ذلك الهراء ، حتى قال بعض العلماء كما في « لسان الميزان » لابن حجر (٥/ ٣٥٢) : « فوالله لأن يعيش المسلم جاهلاً خلف البقر لا يعرف من العلم شيئاً سوى سور من القرآن يصلّي بها الصلوات ويؤمن بالله واليوم الآخر خير له من كثير من

العرفان وهذه الحقائق ولو قرأ مائة كتاب أو عمل مائة خلوة » .

وقد تقدّم في آخر موضوع صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن الإمام الغزالي رحمه الله تعالى أنَّ من زعم أنَّ الحقيقة تخالف الشريعة وأن الباطن يخالف الظاهر فهو إلى الكفر أقرب إليه من الإيمان . أي أنه كافر حقيقة .

والقاعدة في ذلك أنَّ كُلَّ اعتقاد فيه تشبيه لله تعالى بخلقه أو قياسه على الخلق أو وصفه بما لا يجوز وصفه به مما لم يَرِدْ في الكتاب والسنة ولا أجمعت الأمة على جواز وصفه به ، أو اعتقد وصفه للفظ ورد مضافاً له في الكتاب والسنة لكن لا يجوز وصفه به كالنسيان والمرض والجوع ونحو هذه الأمور ، فكله كفر ورِدَّة ناقلة من الملة إلى الكفر أعاذنا الله تعالى من ذلك .

وكذلك كل انتهاك لحرمة الله تعالى أو حرمة ملائكته أو رسله وأنبيائه أو كتبه أو شعائره لقوله تعالى ﴿ **ذلك ومَنْ يُعَظِّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب** ﴾ الحج : ٣٢ وكل ما فيه استهزاء ومعاندة لله تعالى ورسله لقوله تعالى ﴿ **ولئن سألتهم ليقولُنَّ إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم** ﴾ التوبة : ٦٦ .

وقد قال بعض العلماء : كل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك ، أخذاً من قوله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ومن قوله تعالى ﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ وغيرها .

ولا يتم اجتناب هذا الأمر وعدم الوقوع فيه إلا بعد تعلم التوحيد والعقيدة والحرص على عدم الإتيان بمخالفة أصولها وقواعدها .

[مسألة مهمة جداً] : بحث ما روي عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه في نفيه أنَّ سورتي المعوذتين من القرآن :

قلت : أخرج هذا الأثر البخاري في صحيحه (٨/ ٧٤١) مُبْهَما ، وهو أثر باطل عندنا وقد حكم ببطلانه الحافظ النووي وابن حزم والإمام الفخر الرازي ، وهذا نص الأثر وهو من طريق سفيان بن عُيَيْنَة عن عبدة وعاصم عن زر بن حبيش قال : « سألتُ أُبيَّ بن كعب قلت : يا أبا المنذر إنَّ أخاك ابن مسعود يقول

كذا وكذا . فقال أُبيٌّ : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لي : قيل لي ، فقلت . قال : فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » .

قلت : هذا لفظه المُبْهَم ولاحظ أسلوب التعمية هذا !! وهل هذا لفظ يناسب إنَّ يُنتقى في كتاب وضع لصحيح الحديث ؟!!

قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » في شرحه (٨/ ٧٤٢) :

[قوله (يقول كذا وكذا) هكذا وقع هذا اللفظ مُبْهَماً ، وكأنَّ بعض الرواه أبهمه استعظاماً له . وأظن ذلك من سفيان فإن الإسماعيلي أخرجه من طريق عبد الجبار بن العلاء عن سفيان ، كذلك على الإبهام ، وكنت أظن أولاً أنَّ الذي أبهمه البخاري لأنني رأيت التصريح به في رواية أحمد عن سفيان ولفظه « قلت لأُبي إنَّ أخاك يَحُكُّهَا من المصحف » وكذا أخرجه الحميدي عن سفيان ومن طريقه أبو نُعَيم في « المستخرج » وكأن سفيان كان تارة يُصرِّحُ بذلك وتارة يبهمه . وقد أخرجه أحمد أيضاً وابن حبان من رواية حماد بن سلمة عن عاصم بلفظ « إنَّ عبد الله بن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه » ، وأخرج أحمد عن أبي بكر بن عياش عن عاصم بلفظ « إنَّ عبد الله يقول في المعوذتين » وهذا أيضاً فيه إبهام ، وقد أخرجه عبد الله بن أحمد في زيادات المسند والطبراني وابن مردويه من طريق الأعمش عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد النخعي قال « كان عبد الله بن مسعود يحك المعوذتين من مصاحفه ويقول إنهما ليستا من كتاب الله » قال الأعمش وقد حدثنا عاصم عن زر عن أُبي بن كَعب فذكر نحو حديث قتيبة الذي في الباب الماضي ، وقد أخرجه البزار ، وفي آخره يقول : إنما أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنْ يتعوذ بهما » قال البزار : ولم يتابع ابن مسعود على ذلك أحد من الصحابة] . انتهى كلام الحافظ .

قلت : وهذه الأحاديث جميعها التي ذكرها ابن حجر كذب بحت نقطع بكذبها وبطلانها ، لأنه من أبعد ما يمكن أن يكون سيدنا عبد الله بن مسعود لا يدرك كون المعوذتين من القرآن ولا يعلم ذلك وندركه نحن ونعلمه !! والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول « مَنْ أَحَبَّ أن يقرأ القرآن غضّاً كما أُنْزِل فليقرأه على قراءة ابن

أمِّ عبد » أي : عبد الله بن مسعود ؛ رواه أحمد (١/ ٤٤٥) وابن ماجه (١/ ٤٩) وغيرهما وهو صحيح .

فهل يتصور عاقل أنَّ ابن مسعود العربي القُح لا يدرك بسليقته أنَّ المعوذتين من القرآن ؟! لذلك قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في « شرح المهذب » (٣/ ٣٩٦) :

« أجمع المسلمون على أنَّ المعوذتين والفاتحة وسائر السور المكتوبة في المصحف قرآن ، وأن من جحد شيئاً منه كفر ، وما نُقِل عن ابن مسعود في الفاتحة والمعوذتين باطل ليس بصحيح عنه ، قال ابن حزم في أوّل كتابه المحلى : هذا كذب على ابن مسعود موضوع وإنما صَحَّ عنه قراءة عاصم عن زرٍ عن ابن مسعود وفيها الفاتحة والمعوذتان » .

وكذلك قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره (١/ ٢٢٣) ونقله عنه الحافظ في « الفتح » (٨/ ٧٤٣) . ثم إنَّ ما ذكره الحافظ هناك من كلام يدافع به عن عصمة الصحيح التي يراها ويَذُبُّ به عن بطلان أسانيد أحاديث الآحاد فيه المعارضة ليس بشيء وهو مما لا يعوّل ولا يُلْتفت إليه .

قال الإمام الرازي : « إنْ قلنا إنَّ كونهما من القرآن كان متواتراً في عصر ابن مسعود لزم تكفير مَنْ أنكرهما ، وإن قلنا إنَّ كونهما من القرآن كان لم يتواتر في عصر ابن مسعود لزم أنَّ بعض القرآن لم يتواتر وهذه عُقدة صعبة » .

قلت : وهل يتصوّر عاقل أنَّ القرآن لم يتواتر كله ولم يكن قطعياً حتى بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الزمن الذي انتقل فيه عبد الله بن مسعود إلى الكوفة ؟! ثمَّ بقي كذلك حتى مات وأجمعوا بعده على أنَّ المعوذتين من القرآن ؟! والله ما هذه التصوّر إلا هراء !!

الرِّدَّة الفعلية :

الردة الفعلية هي : الفعل الذي ينتهك فاعله حرمة الله تعالى أو حرمة رسول من رسله أو كتاب غير محرف من كتبه أو مَلَك من ملائكته أو حكم من أحكام الله تعالى أو شعيرة من شعائره ، ويقوم به فاعله وهو مدرك مختار غير مُكْرَهٍ وهو يتمتع بكامل قواه العقلية ، ومن أمثلته :

إلقاء مصحف أو ورقة عليها اسم الله تعالى أو مَلَك من ملائكته أو نبي من أنبيائه في قذر أو نجاسة ، أو أي فعل فيه انتهاك له ، كأن يدوسه أو يقف عليه فيجعله تحت قدميه عمداً والعياذ بالله تعالى ، وكذلك أوراق وكتب العلوم الشرعية .

[تنبيه مهم] : ومما يجب الانتباه له في هذا الباب : استعمال الجرائد والمجلات والصحف وهي مليئة بأسماء الله تعالى ومكتوب فيها : عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرزاق .... ومحمد وإبراهيم وموسى وعيسى وغير ذلك زد على ذلك الوفيات في الجرائد ، فلا يجوز استعمال الجرائد لوضع الطعام عليها ثم إلقاؤها في القمامة ونحوها ، أو استعمالها في أي مجال فيه انتهاك لها كتنظيف الزجاج وتجفيفه وتلميعه بها ، أو في دهان السيارات ، وإنما تتلف تلك الجرائد والأوراق التي كُتِبَ عليها الأسماء المعظمة بالحرق ، كما أحرق سيدنا عثمان المصاحف بعد نسخ المصحف الإمام ، ويجب أنْ يسعى كل مسلم لإيجاد مكان لحرق تلك الأوراق أو دفنها أو نحو ذلك محافظة على حرمتها ، فإن مَزّق وقَطّع الورقة التي كتب عليها الاسم المعظم بحيث تناثرت الحروف أو أُزيلت ولم تَعُدْ مجتمعة لتكوّن ذلك الاسم جاز ، ومن ذلك تلك الآلات الكهربائية التي تقطع الورق بحيث لا تُبقي كلمات الورقة حروفاً مجتمعة تُشَكّل اسماً معظماً جاز ، وإلا فلا يجوز إلقاؤها بعد ذلك بل يجب حرقها .

وأشنع من ذلك أنّ أُناساً يستعملون أوراقاً مكتوب عليها أو جرائد في عملية الاستنجاء ، وقد دَخَلْتُ مرّة إلى الخلاء في أحد المساجد فوجدت ورقة ملقاة هناك قد استنجى بها جاهل جهول مكتوب عليها بسم الله الرحمن الرحيم !! فغسلتها

وطَهَّرتها !! فانظروا إلى هذا الجهل المؤدي للكفر الشنيع أعاذنا الله تعالى من ذلك وحمانا[٥٥١] .

ومن الأمور التي توجب الرِّدَّة أيضاً أنْ يُعَلِّق إنسان مسلم في عنقه صليباً بشرط تعظيمه[٥٥٢] ، أو يتاجر به كذلك معظماً كالصائغ الذي يبيع صلبان الذهب والفضة وغيرها وبيعه حرام .

ومن الأفعال المُكَفِّرَة أيضاً السجود للصنم أو الركوع له ، ومنها ما يحصل في المراسيم التي تفعل للصنم المسمى بالجندي المجهول فمن ركع أو سجد له كفر بلا شك .

وأما من انحنى راكعاً أو سجد لملك من الملوك أو سلطان أو رئيس للتحية وليس لعبادته وتعظيمه فلا يكفر ولكنه يكون بذلك قد اقترف كبيرة من الكبائر المحرّمة في شريعتنا ، والسجود لإنسان على وجه التحية وليس على وجه العبادة لا يكون كفراً ، لأنه كان جائزاً في شرائع الأنبياء السابقين ، ومنه سجود إخوة سيدنا يوسف وأبيه - وهو نبي - وأمه كذلك له وقد ذكر الله سبحانه ذلك لنا في القرآن الكريم وهو قوله تعالى ﴿ **ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجداً** ﴾ يوسف : ١٠٠ ، وكذلك أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لسيدنا آدم عليه السلام كما قال تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من**

---

[٥٥١] ومن يحتاج إلى الورق في صناعته كمن يدهن السيارات أو ينظف الزجاج فينبغي أن يشتري ورقاً غير مكتوب عليه شيء فيستعمله !! ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب !

[٥٥٢] روى ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ١٦٤) عن ابن عون عن محمد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى على بعض أزواجه ستراً فيه صليب فأمر به فقصَّت . والعلماء كفروا من يعبد الصليب ، وقد ذكر ابن حزم في المحلى (٩/ ٨) أن بيع الخمر والخنزير والصليب من المحرمات ، وقال الإمام النووي في « شرح المهذب » (٣/ ١٨٠) : « وأما الثوب الذي فيه صور أو صليب أو ما يلهي فتكره الصلاة فيه وإليه وعليه للحديث » . ولم يقل بأن ذلك كفر ، بل في باب حكم المرتد في كتاب « الفروع » لابن مفلح في « باب حكم المرتد » ما نصه : « وفي الانتصار : من تزيا بزيِّ كُفْرٍ من لبس غيار وشد زنار وتعليق صليب بصدره حرم ولم يكفر » والكلام في هذا طويل الذيل يحتاج لرسالة خاصة .

الكافرين ﴾ البقرة : ٣٤ .

بل إنَّ التوجه لبعض الجمادات في السجود دون قصدها بالعبادة لا يُعَدُّ كفراً ولا إلحاداً ، فسجودنا نحن مثلاً إلى جهة الكعبة في أي بقعة من الأرض كنا ، لا يعدُّ كفراً ولا حراماً بل هو تقرب لله تعالى نثاب عليه ونعاقب على تركه ، إذ ليس في هذا السجود اعتقاد في تلك الأحجار وإنما هو سجود لله تعالى الآمر بالتوجه إلى تلك الجهة وهو سبحانه منزه عن الحلول والوجود فيها وفي غيرها ، فافهم ذلك جيداً .

وأُنبِّهُ هنا إلى أنَّ السجود أو الركوع إلى الصنم المسمى بالجندي المجهول إنما يكون لذاته ، والراكع له لا يقصد الركوع أو السجود لله تعالى رب العالمين مع كون هذا الفعل غير مأمور به شرعاً ، خلافاً لسجودنا لله تعالى مستقبلين الكعبة المشرَّفة ، فلاحظ ذلك ولا تغفل عنه .

والدليل على تحريم السجود لغير الله تعالى قوله عز وجل ﴿ **لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خَلَقَهُنَّ إنْ كنتم إياه تعبدون** ﴾ فصلت : ٣٧.

روى عبد الله بن أبي أوفى فقال : لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

« **ما هذا يا معاذ ؟!** » قال : أتيتُ الشامَ فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطاركتهم ، فوددت في نفسي أنْ نفعل ذلك بك . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تفعلوا . فإنِّي لو كنت آمراً أحداً أنْ يسجد لغير الله تعالى لأمرت المرأة أنْ تسجد لزوجها ، والذي نفس محمد بيده ؛ لا تؤدِّي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها ، ولو سألها نفسها وهي على قَتْبٍ ، لم تمنعه » رواه أحمد (٤/ ٣٨١) وابن ماجه (١/ ٥٩٥) وغيرهما وهو حديث صحيح .

وفي صحيح ابن حِبَّان (٩/ ٤٧٠) عن أبي هريرة مرفوعاً : « ما ينبغي لأحد إنَّ يسجد لأحد ، ولو كان أحد ينبغي إنَّ يسجد لأحد لأمرت المرأة إنَّ تسجد لزوجها لما عظَّم الله عليها من حقه » .

الردة القولية :

اعلم أنَّ أوسع أبواب الردة وأكثرها وقوعاً هو الردة القولية الحاصلة باللسان ، حيث تخرج من بعض الناس كلمات توقعهم في الردة والكفر ولا يرون ذلك ذنباً فضلاً عن كونه كفراً وارتداداً ، وأكثر النصوص الشرعي المُبيِّنَة لمسألة الرِّدة نجدها واردة في هذا القسم لأنه الأكثر وقوعاً .

وقد تقدّم قول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم** ﴾ التوبة : ٧٤ .

وقال الله تعالى ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ ق : ١٨ ، وقال تعالى : ﴿ **إذ تَلَقَّوْنَهُ بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وَتَحسَبُونه هيناً وهو عند الله عظيم** ﴾ النور : ١٥ .

وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « إنَّ العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » رواه البخاري (١١/ ٣٠٨) ومسلم (٤/ ٢٢٩٠) . وفي رواية أخرى « إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة لِيُضْحِكَ بها جلساءه يهوي بها - في النار - أبعد من الثريا » رواه أحمد (٢/ ٤٠٢) و (٣/ ٣٨) وابن حبان في صحيحه (١٣/ ٢٤) وهو حسن بالشواهد .

وعن سيدنا معاذ بن جبل قال : قلتُ : يا نبي الله : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « ثكلتك أمّك يا معاذ ! وهي يَكُبُّ الناس على وجوههم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم ؟! »(٥٥٣) .

---

(٥٥٣) رواه أحمد (٥/ ٢٣١) والترمذي (٥/ ١٢/ ٢٦١٦) وابن ماجه (٢/ ١٣١٥) وغيرهم وهو صحيح . وأما حديث الطبراني (١٠/ ٢٤٣) عن سيدنا ابن مسعود « أكثر خطايا ابن آدم من لسانه » فحديث باطل مع أن رجاله رجال الصحيح ، كما صرّح بذلك الحافظ أبو حاتم الرازي في « العلل » (٢/ ١٠١) ونقله عنه الذهبي في « الميزان » (٤/ ٤٩٦) في ترجمة أبي بكر النهشلي لأنه مما تفرّد به ولم يتابعه عليه أحد وكان مغفلاً ، هكذا قالوا وقد نص على ذلك أيضاً ابن حبان في المجروحين (٣/ ١٤٥) ، وقد فات هذا الأمر على الحافظ المنذري في « الترغيب » (٣/ ٥٣٤) والهيثمي في « المجمع » (١٠/ ٣٠٠) ، ومن قلدهما في هذا العصر واغتر بظاهر السند كالشيخ المتناقض !! في « صحيحته » (٢/ ٦٠) وغيره .

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليَّ ؟ قال : « هذا ، وأخذ بلسانه » رواه الترمذي (٤/٦٠٧) وقال : حسن صحيح .

وعن سهل بن سعد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « مَنْ يضمن لي ما بين لِحْيَيْهِ وما بين رِجْلَيه أضمن له الجنة » رواه البخاري (١١/٣٠٨) .

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١١/٣٠٩) : « قوله (لحييه) هما العظمان في جنبي الفم والمراد بما بينهما اللسان وما يتأتى به النُطق ، وبما بين الرجلين الفرج » .

إذا تأمّلت هذه النصوص التي أوردناها تعلم أنَّ أوسع أبواب الردة هو القول والكلام الذي يصدر من الناس ولا يُلْقُوْنَ له في غالب الأحوال أي بالٍ ، وأمثلة هذا القسم لا تكاد تحصر ولا يشترط عند التلفظ بها أنْ يقصد الكفر ، بلْ لو نطق بما هو كفرٌ كَفَرَ وارتدَّ وإن قال لم أقصد الكفر ، وقد اتفق أهل العلم على ذلك وأجمعوا عليه كما يجد ذلك من تَتَبَّعَ أقوالهم ونصوصهم بعد الاطلاع على نصوص الكتاب والسنة .

إلا أنَّ بعض المعاصرين اليوم خالف ذلك كالسيد سابق في كتابه « فقه السنة » (٣/٤٥٣) فأخطأ خطأ كبيراً حيث قال هناك ما نصه :

« إنَّ المسلم لا يعتبر خارجاً عن الإسلام ولا يحكم عليه بالردة إلا إذا انشرح صدره بالكفر ، واطمأنَّ قلبه به ، ودخل فيه بالفعل ، لقول الله تعالى ﴿ **ولكن من شرح بالكفر صدراً** ﴾ .... » !!!

وأقول : أخطأ الشيخ سيد سابق جداً لأنه أتى بآية الإكراه فحملها على من نطق بالكفر مختاراً !! فاستدلَّ بآية تتحدث في موضوع آخر أو عن نوع خاص من أنواع الردة فعممها على جميع الأقسام !! ولو أنه ذكر الآية بتمامها وما قبلها وما بعدها لاتَّضحَ الموضوع للقارئ وأدرك خطأه في اجتهاده هذا ، مع أنه اجتهد مع وجود النصوص ، ولا اجتهاد في مورد النص كما هو معلوم ومقرر في علم الأصول .

ولا بد لنا أنْ نناقش رأيه هذا حتى نبين أنه مخطئ فيه ، هذا مع أنني ناقشت الشيخ سيد سابق في منزله بمكة المشرفة في هذا الموضوع وغيره وأقمت له الحجج والبراهين والأدلة على خطئه في هذه المسألة ووعد بالتراجع وتبيين ذلك وتغييره في الطبعات القادمة من كتابه « فقه السنة »(٥٥٤) ولكنه لم يفعل للأسف .

ولنعد إلى نقل دليله الذي أتى به فنقول : قال الله تعالى : ﴿ **من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب اليم** ﴾ النحل : ١٠٦ .

فهذه الآية تتحدّث عن الإنسان المسلم الذي أُكره على الكفر حيث بيَّن الله تعالى فيها أن من أُكْرِهَ على الكفر فانشرح صدره إليه ووافق من أكرهه على الكفر فإنه يكون كافراً حقيقة ، وأما مَنْ أُكره على الكفر وهُدِّد لينطق بكلمة الكفر فنطق بها وقلبه غير منشرح لها ولا للكفر فلا يكفر وهو مما تجاوز الله عنه في هذا الأمر .

وأما في غير حالة الإكراه فلا يشترط الانشراح البتة ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم** ﴾ التوبة : ٧٤ ، فهؤلاء الذين جاءوا يحلفون أنهم ما قصدوا الكفر (أي لم ينشرح صدرهم له) لم يُقْبَل ذلك منهم واعتبر الله كلامهم كفراً وَرِدّة ، فتأمّل ذلك جيداً !!

---

(٥٥٤) وكتاب « فقه السنة » ضَخُّموه أكبر من حجمه بكثير ، وفيه من الأخطاء ما لا يكاد يحصى ، وأغلبها في نقل مذاهب العلماء حيث يقول مثلاً في مسألة : وقال الشافعي بالوجوب ، مع أنها في الحقيقة عند الشافعي رحمه الله تعالى من السنن لا الواجبات ، وكذا يفعل هذا كثيراً في سائر المذاهب ، وفي مسائل الأحاديث يصحح الضعيف ويضعف الصحيح ، ثم هو أحياناً يستقل برأي أو استنباط غير مبني على دليل معتبر قوي وإنما يقصد منه التسهيل والتيسير برأيه !!
ثم إن الأمر المهم في كتابه هذا أنه من أكبر العوامل المعاصرة المساعدة على تمييع الفقه الإسلامي واتباع الرُّخَص والتأويلات والتلفيق الذي هو محرم بإجماع العلماء كما نقلت ذلك في مقدمة كتابي « صحيح صفة صلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم » ص (١٧-٢٢) ، ومما أود تأكيده وتقريره هنا أن الكتاب المذكور « فقه السنة » لا يصح العمل بما فيه ولا التعويل عليه ، وأسأل الله تعالى أن تتاح لي فرصة في المستقبل لأن أخرج كتاباً بديلاً عنه وآخر نقداً له ، من باب النصح الواجب للمسلمين ، نسأله التوفيق والهداية .

ويعود سبب عدم وجود بديل لهذا الكتاب إلى تكاسل علماء العصر وعدم قيامهم بواجبهم الشرعي !!

وقد ذكر العلماء المفسرون كابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ١٤/ ١٨١) والقرطبي أيضاً (١٠/ ١٨٠) أنَّ هذه الآية نزلت في سيدنا عمار بن ياسر رضي الله عنه ، فعن محمد بن عمار بن ياسر قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه ، فلما أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ما وراءك ؟ » قال : شرٌّ يا رسول الله !! ما تُرِكْتُ حتى نِلْتُ منك وذكرتُ آلهتهم بخير ، قال : « كيف تجد قلبك ؟» قال : مطمئناً بالإيمان . قال : « إنَّ عادوا فَعُدْ »(٥٥٥) .

وَيَرُدُّ على ما جاء في كتاب « فقه السنة » أيضاً قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المتقدم الذي رواه البخاري ومسلم « إنَّ العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها .... » وفي رواية أخرى للبخاري أيضاً « لا يُلْقِي لها بالاً .... » وهذا يدل دلالة واضحة على أنه غير قاصد الكفر ولا منشرح صدره به .

وقال الإمام القرطبي : « أجمع أهل العلم على أنَّ مَنْ أُكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إنَّ كفر وقلبه مطمئن بالإيمان » .

وقال بعض العلماء نظماً :

يَرْتَدُّ عن إسلامه من انْتَهَكْ   حرمة ذي العرش ورسل ومَلَكْ
وَشَرْطُ قَصْدِ الكفر من يَنْتَهِك   على الصحيح مذهب لا يُسْلَكَ
وشددوا تأديب مُفْتٍ أخبرا   بعدم الكفر لمن قد كفرا
بل ذاً من الكفر عليه يُرْهَبُ   إذ لازم المذهب قيل مَذْهَبُ

وكل ذلك مما يبطل هذا الرأي الشاذ المدون في كتاب « فقه السنة » ، فتنبه أخي المؤمن لذلك ولا تغفل عنه .

ومن الألفاظ الكفرية التي يتناقلها بعض الناس : أنْ يقول إنسان مسلم لمسلم

---

(٥٥٥) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ١٤/ ١٨٢) والحاكم (٢/ ٣٥٧) وصححه على شرطهما ، والبيهقي (٨/ ٢٠٨) في باب المكره على الردة ، وهو صحيح .

آخر دون أنْ يقترف أمراً يوجب الكفر والارتداد : يا كافر . قال الإمام النووي في « الروضة » (١٠/٦٥) : « قال المتولي : ولو قال المسلم ـ لمسلم ـ يا كافر بلا تأويل : كَفَرَ ، لأنه سمى الإسلام كفراً ، والعزم على الكفر في المستقبل كُفْرٌ في الحال » .

ومثال ذلك أنْ يقول شخص لآخر وقد غضب منه : هل تريدني أنْ أكفر لك الآن ؟! أو إذا لم تَسْكُتْ سأكفر ، أو قال : إذا لم يفعل لي الله كذا في السنة الآتية أو في الشهر القادم سأكفر ، أو أصابته مصيبة فجعل يخاطب السماء أو غير السماء كأنه يخاطب الله ويقول : لماذا فعلت بي كذا ، أو هل أعجبك أنك فعلت بي كذا ، أو سأكفر بك إذ فعلت بي كذا ، وقد حصل هذا فعلاً من بعض الناس ، وهذا كله كفر وَرِدَّة يخرج من الملة .

قال الإمام النووي : « وكذا التعليق بأمر مستقبل ، كقوله إن هلك مالي أو ولدي تهودت أو تنصرت . قال : والرضى بالكفر كفر ، حتى لو سأله كافر أنْ يلقنه كلمة التوحيد فلم يفعل ، أو أشار عليه بأن يُسْلِم ، أو على مسلم بأن يرتد فهو كافر ، بخلاف ما لو قال لمسلم : سلبه الله الإيمان ، أو لكافر لا رزقه الله الإيمان ، فليس بكفر ، لأنه ليس رضى بالكفر لكنه دعا عليه بتشديد الأمر والعقوبة عليه .

ولو أكْرَه مسلماً على الكفر ، صار المُكْرِه كافراً ، والإكراه على الإسلام والرضى به والعزم عليه في المستقبل ليس بإسلام » انتهى كلام النووي .

ويكفر بلا شك وبلا مثنوية مَنْ يسب الله تعالى أو يسب الدين أو الأنبياء أو الإسلام سواء في حال الرضى أو في حال الغضب ، لأن الله تعالى واجب تعظيمه في الرضى والغضب ، ويكفر من قال إنَّ الساب في مثل هذه الأحوال لا يكفر بلا شك أيضاً .

وكذلك من يقول اليوم من العامة : **(جنّنت ربي)** أو **(جننت دين ربي)** أو **(خوَت ربي)** أو **(زيح عن ربي)** أو **(أبعد عن ربي)** أو **(إيش دين رب هذا الرجل)** أو **(حل عن ربي)** وغيرها من الكلمات الشنيعة التي يطلقها بعض السفهاء في حق الباري سبحانه وتعالى أو في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام أو

في حق الإسلام والدين .

ويجب على كل إنسان أنْ يكون ضابطاً لنفسه منقاداً للشرع خاضعاً لله تعالى في الرضا والغضب فإن غَضِب ، استرجع وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ومما يؤسف له جد الأسف أننا نرى اليوم كثيراً من الناس في عداد الهمج الرعاع قد تربّوا على الكفر والإلحاد ومعصية الله ورسوله وتعوّدوا على ذلك والعياذ بالله تعالى ، وما ذلك إلا لفساد كثير من الآباء والأمهات ، لأنهم لم يَنْشأوا ويستقيموا على الإسلام ، فيخرج عندئذٍ الأبناء فُجَّاراً مثلهم ، نسأل الله تعالى السلامة .

ولا يستطيع أنْ يتصور العاقل الموحّد المؤمن بل لا يستطيع إنسان أنْ يُدْرِك ويستوعب كيف يُقْدِمُ إنسانٌ يدّعي الإسلام في بعض الأوقات على شتم الرب أو الدين الذي ينتمي إليه ، وهذا يدلُّ على فقدان تعظيم الله تعالى وفقدان قيمة ربه ودينه من قلبه !! وإلا فلو كان معظماً لدينه وربه فإنه لن يفعل هذا الكفر الشنيع ، ومثل هذه الظواهر ما هي إلا أحد الأسباب الكبرى في اندحار هذه الأمة وسقوطها وعدم توفيق الله لها ، حيث أنَّ كثيراً من أفرادها يتمتعون بمثل هذه المواصفات !! بالإضافة إلى البطش والجبروت بخلق الله تعالى أيضاً بأكل أموال الناس بالباطل والتحايل على الشرع والمجتمع والناس وخداعهم !! والله تعالى يقول لهم سبحانه ﴿ **إنَّ الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ .

هذا وقد عقد الإمام النووي رحمه الله تعالى فرعاً مهماً في كتاب الردة من « الروضة »(٥٥٦) ذكر فيه أمثلة كثير من الألفاظ التي يخرج بها الإنسان من الإسلام ، لا بدَّ أنْ ننقلها من هناك ونعلّق عليها ونشرحها ونوضحها بأسهل عبارة

---

(٥٥٦) وأصل كتاب « الروضة » هو كتاب « شرح الوجيز » للإمام الرافعي رحمه الله تعالى حيث اختصره الإمام النووي وزاد عليه زيادات قيدها بقوله في أولها « قلت » وفي آخرها بقوله « والله أعلم » فحيثما وجدت فيه كلاماً واقعاً بين « قلت » وبين « الله أعلم » فهو كلام الإمام النووي وما سواه فهو كلام الإمام الرافعي رحمهما الله تعالى فاعلم ذلك وتنبه له .

وأبسط أسلوب وهي تناسب أنْ تكون شرحاً **لقول الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى في عقيدته :**

(ولا نخوض في الله ولا نماري في دين الله) .

الشرح :

يكفر من سَخِرَ باسمٍ من أسماء الله تعالى ، أو من استهزأ بالله تعالى أو بآياته ، أو بوعده أو وعيده (أو صنع فكاهاتٍ ونكتاً في ذلك أو استمع لمن فعل ذلك ورضي به ولم ينكر عليه) قال الله تعالى ﴿ **ولئن سألتهم ليقولنَّ إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم** ﴾ التوبة : ٦٥ ، وقال تعالى : ﴿ **وقد نَزَّلَ عليكم في الكتاب إنَّ إذا سمعتم آيات الله يُكْفَرُ بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، إنكم إذا مثلهم إنَّ الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً** ﴾ النساء : ١٤٠ ، وقال تعالى : ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، وأما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين** ﴾ الأنعام : ٦٨ .

ومثال السخرية بوعد الله تعالى أنْ يسخر إنسان بما أعده الله تعالى للمؤمنين من الثواب ومن الأمور الحسية في الجنة كالحور العين وكالأواني التي يشرب بها أهل الجنة وكالطعام والشراب الذي أعدَّه الله لهم ، فكل ذلك كفر وَرِدَّة لأنه يتضمن تكذيب كلام الله تعالى أي القرآن الكريم الذي ذكر الله فيه هذه الأمور ، وكذلك تكذيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم المخبر بها عن الله أيضاً والاستهزاء والاستخفاف بوعد الله تعالى .

وأما وعيده فمعناه : أنْ يستهزأ إنسان بما أعدّه الله تعالى للكفار والمنافقين والمجرمين وأمثالهم من العذاب والنكال والنار ، مثل قول بعضهم عند ذكر جهنم (غداً نتدفأ عليها) وهذا يتضمن تكذيب ما جاء في القرآن والسنة من شدة حَرِّها وفيحها بالإضافة إلى استخفافه بخالقها .

ومما يُكَفِّر أيضاً قول إنسان مثلاً : لو أمرني الله بكذا لم أفعل ، أو لو صارت

القبلة في هذه الجهة ما صليت إليها ، أو لو أعطاني الله الجنة ما دخلتها(٥٥٧) .

وكذا لو قال له غيره : لا تترك الصلاة فإن الله يؤآخذك بتركها ، فقال لو آخذني الله بتركها مع ما بي من المرض ظلمني . أو قال إنسان مظلوم : هذا بتقدير الله . فقال الظالم : أنا أفعل بغير تقدير الله تعالى كفر هذا الظالم ، وكذلك يكفر الحراس والمحققون الذين يقولون للناس في السجون أو في مواضع الاعتقالات أو عند ضربهم أو تعذيبهم والتضييق عليهم : هل يستطيع الله أنْ ينجيك من هنا ؟! أو ادع الله أنْ ينجيك من هنا !! أو لا يستطيع الله إنَّ يخلصك الآن ولا ينجيك أو نحو هذه الكلمات !!

فإن هذا كفر وظلم وقائل مثل هذه الكلمات والراضي بها أول ما تُسْعَر به نار جهنم يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ **فَوَرَبِّكَ لنحشرنهم والشياطين ثم لنُحْضِرنَّهم حول جهنّم جثيّاً * ثم لَنَنْزعنَّ من كل شيعة أيهم أشدُّ على الرحمن عيتاً * ثمَّ لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً** ﴾ فإذا أحضرهم الله تعالى يومئذ حول جهنم قيل لهم بعد ذلك لتنمحق قلوبهم ويُزاد عليهم في العذاب بعد أنْ يروا جهنم ويدركوا عذابها وشدة حرها وهم خارجها ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ أي داخلها ﴿ **كان على ربك حتماً مقضياً** ﴾ مريم : ٧١ ، أي ستدخلونها أيها الكفار العتاة جميعاً وستذوقون عذابها فمن ينجيكم الآن منها ؟!!

وقال تعالى ﴿ **واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين * إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهةً ما وردوها وكلٌّ فيها خالدون * لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون** ﴾ الأنبياء : ١٠٠ .

ويكفر أيضاً من قال : لو شهد عندي الأنبياء والملائكة بكذا ما صدّقتهم ،

---

(٥٥٧) ذكر الإمام النووي في « الروضة » (١٠/ ٦٦) أن من قال « لو أعطاني الله الجنة ما دخلتها » لا يكفر . قلت : قال ذلك على مقتضى قاعدة الزهاد ، أي التي قاله بعضهم من انه يعبد الله لله ، أي لأنه يستحق سبحانه العبادة لا طمعاً في الجنة ، ولا خوفاً من النار ، لكن من قال ذلك استهزاءاً أو استخفافاً بالله تعالى أو بوعده فإنه يكفر كما أثبتناه ، والله تعالى أعلم وأحكم .

وكذا لو قيل له مثلاً : قَلِّم أظافرك فإنه سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال لا أفعل هذا وإن كان سنة قاصداً العناد والاستخفاف والاستهزاء .

ولو قال : فلان يهودي أو كاليهودي فإنه لا يكفر إن كان قصده تشبيهه في أعماله ولؤمه وخسته باليهود أو غيرهم . ولو قال : لو كان فلانٌ نبياً ما آمنت به ، كفر .

ولو تنازع رجلان ، فقال أحدهما : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال الآخر لا حول لا تغني من جوع ، كَفَرَ .

ولو سمع أذان المؤذن فقال : إنه يكذب . أو قال : ما هذا الشرع التافه ؟ أو لعن كل عالم وأراد الاستغراق الشامل ولم يرد الذين يستأكلون بالعلم ويضلون الناس مثلاً ، كفر .

أو قال أنا بريء من الله وأطلق ، أو بريء من الله إن حدث كذا ، أو بريء من ملائكته ، أو من الأنبياء ، أو من النبي ، أو من القرآن ، أو من الشريعة ، أو من الإسلام ، كفر .

وكذلك من قال وهو يتعاطى قدحاً أو كأساً من الخمر أو من يُقْدِمُ على الزنا أو على أمر محرم : باسم الله استهزاء أو استخفافاً أو (تنكيتاً) أي على سبيل الفكاهة ، فقد كفر .

قلت : وكذلك الممثل الذي يمثل أدوار الكفار والملاحدة ويتلفظ بالكلمات كفرية ، فإنه يكفر ويرتد ويخرج من دائرة الإسلام فليتنبه لذلك(٥٥٨) .

وكذلك من يقول لم يصبني الخير منذ صلَّيت ، أو لم أُصب خيراً مذ صليت ، أو الصلاة لا تنفعني ، أو أتشاءم من الصلاة ، أو من قال : ليس الإسلام والدين بالصلاة والصيام إنما المهم أن يكون قلبك طاهراً أبيض نظيفاً ، فهذا كفر

---

(٥٥٨) وللإمام المحدّث أحمد بن الصديق الغماري رسالة مهمة في بيان مسالة تحريم التمثيل أسماها « إقامة الدليل على حرمة التمثيل » وهي مهمة جداً فليطلبها من شاء معرفة حكم هذا الموضوع بالتفصيل . ولسيدي عبد الله ابن الصديق شقيقه رسالة أيضاً في هذه المسالة مطبوعة مع الرسالة الأولى ، فارجع إليها .

وارتداد لإنَّ فيه إنكار وجوب ما عُلِمَ من الدين بالضرورة .

وكذلك يكفر من قال لشريف أي إنسان من آل البيت أنا عدوك وعدو جدك إن إراد بجدّه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد قال الله تعالى ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى** ﴾ ، وأما إن قصد بجده سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام ورضي الله عنه ، وكان مبغضاً له منكراً لفضائله فهو فاسق ضال منافق ، لأنه تواتر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « من كنت مولاه فعليٌّ مولاه اللهم والِ من والاه وعادِ مَنْ عاداه » قال الحافظ الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٨/ ٣٣٥) : « **متواتر** » .

وفي صحيح مسلم (١/ ٨٦) عن سيدنا علي رضوان الله عليه قال : « إنه لعهد النبي الأمي صلى الله عليه وآله وسلم إليَّ : إنه لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق » .

وقد قال الفضل بن دُكَين (من رجال الستة وهو الإمام الحافظ الكبير من شيوخ أحمد بن حنبل والبخاري وابن معين وإسحق بن راهويه والذُّهْلِي وأبو خيثمة وأبو زرعة وأبو حاتم والدارمي صاحب السنن وغيرهم وروى عنه أيضاً عبد الله بن المبارك توفي سنة ٢١٩) ما نصه :

« حُبَّ علي رضي الله عنه عبادة » .

ولو قال إنسان : قصعة ثَرِيْدٍ خير من العلم . كفر .

ولو حضر جماعة ، وجلس أحدهم على مكان رفيع تشبهاً بالمُذَكّرين والوعّاظ فسألوه المسائل وهم يضحكون ، ثم يضربونه بالمِخْراق(٥٥٩) ، أو تَشَبَّه بالمُعَلّمين ، فأخذ خشبة ، وجلس القوم حوله كالصبيان وضحكوا واستهزؤوا ، كفروا هم وهو واختار النووي في الروضة إنَّ الصواب لا يكفرون .

قلت : والظاهر أنَّ مراده بعدم تكفيرهم أنهم إذا فعلوا هذا لا على سبيل الاستهزاء بالدين والشرع .

---

(٥٥٩) المخراق هو المنديل إذا فُتِل وَلُفَّ ليضرب به ، أو السيف أيضاً .

ولو طال مرض إنسان واشتد فقال ؛ إن شئت توفَّني مسلماً ، وإن شئت توفني كافراً ، صار كافراً ، وكذا لو ابتلي بمصائب ، فقال : أخذتَ مالي ، وأخذتَ ولدي ، وكذا وكذا ، وماذا تفعل أيضاً ؟! أو ماذا بَقِي ولم تفعله ؟! كفر .

ولو غضب على ولده أو غلامه فضربه ضرباً شديداً ، فرآه رجل فقال له شخص : ألست بمسلم ؟! فقال الضارب : لا لست مسلماً ، كفر .

قال الإمام الرافعي في أصل الروضة : ولو أسلم كافر ، فأعطاه الناس أموالاً ، فقال أحد المسلمين : ليتني كنت كافراً فأسلم فأُعطى ، قال بعض المشايخ⁽⁵⁶⁰⁾ : يكفر .

قال الإمام النووي عقبه : [قلت : في هذا نظر - أي الصواب لا يكفر - لأنه جازم بالإسلام في الحال والاستقبال ، وثبت في الأحاديث الصحيحة في قصة أسامة رضي الله عنه حين قَتَل من نطق بالشهادة ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ » قال : حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل يومئذ⁽⁵⁶¹⁾ ، ويمكن الفرق بينهما . والله أعلم] .

وقد أجمع علماء المسلمين على تكفير من قال : لا أُكَفِّر من دَانَ بغير دين الإسلام ، أو شك بعدم كفرهم ، أو توقَّف فقال : أنا لا أقول كفار ولا غير كفار .

وقد نقل الإجماع في ذلك القاضي عياض في آخر كتابه « الشفا » (٢/ ٦٠٣) .

[**قلت** : قد ذكر القاضي الإمام الحافظ أبو الفضل عياض رحمه الله في آخر كتابه « الشفا بتعريف حقوق نبينا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه » جملة في الألفاظ المكفرة غير ما سبق ، نقلها من الأئمة ، أكثرها مجمع عليه ، وصرح **بنقل الإجماع فيه . والله أعلم** .

فمنها : أنَّ مريضاً شُفِيَ ثم قال : لقيت في مرضي هذا ما لو قتلت أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لم استوجبه ، فقال بعض العلماء : يكفر ويُقْتَل ، لأنه

---

(٥٦٠) يعني بقوله بعض المشايخ : أي بعض أئمة أهل العلم من السادة الحنفية ، وليس المقصود بذلك بعض الناس الذين يطلق عليهم اليوم مشايخ فتنبه .

(٥٦١) رواه البخاري (٧/ ٥١٧) ومسلم (١/ ٩٦) .

يتضمن النسبة إلى الجور ، وقال آخرون : لا يتحتم قتله ويستتاب ويعزَّر ، وأنه لو قال : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أسود ، أو توفي قبل أن يلتحي ، أو قال : ليس هو بقرشي ، فهو كفر ، لأن وصْفَهُ بغير صفته نَفْيٌ له وتكذيب به ، وأن من ادعى أنَّ النبوة مكتسبة ، أو أنه يبلغ بصفاء القلب إلى مرتبتها ، أو ادَّعى أنه يوحى إليه وإن لم يدَّعِ النبوة ، أو ادّعى أنه يدخل الجنة ويأكل من ثمارها ، ويعانق الحور ، فهو كافر بالإجماع قطعاً ، وأن من دافع نص الكتاب أو السنة المقطوع بهما المحمول على ظاهره ، فهو كافر بالإجماع ، وأن من لم يكفِّر من دان بغير الإسلام كالنصارى ، أو شك في تكفيرهم ، أو صحح مذهبهم ، فهو كافر وإن أظهر مع ذلك الإسلام واعتقده ، وكذا يُقْطَعُ بتكفير كل قائل قولاً يتوصل به تضليل الأمة ، أو تكفير الصحابة - أي جميعهم - ، وكذا من فعل فعلاً أجمع المسلمون أنه لا يصدر إلا من كافر ، وإن كان صاحبه مُصَرِّحاً بالإسلام مع فعله ، كالسجود للصليب ، أو النار والمشي إلى الكنائس مع أهلها بزيهم من الزنانير وغيرها ، وكذا مَنْ أنكر مكة ، أو البيت ، أو المسجد الحرام ، أو صفة الحج ، وأنه ليس على هذه الهيئة المعروفة ، أو قال : لا أدري أنَّ هذه المسماة بمكة هي مكة أم غيرها ، فكل هذا أو شبهه لا شك في تكفير قائله إن كان ما يظن به علم ذلك ، ومن طالت صحبته المسلمين .

فإن كان قريب عهد بإسلام ، أو مخالطة المسلمين ، عرَّفناه ذلك ، ولا يعذر بعد التعريف ، وكذا من غيَّر شيئاً من القرآن ، أو قال : ليس بمعجز ، أو قال : ليس في خلق السماوات والأرض دلالة على الله تعالى ، أو أنكر الجنة أو النار ، أو البعث أو الحساب ، أو اعترف بذلك ، ولكن قال : المراد بالجنة والنار والبعث والنشور والثواب والعقاب غير معانيها] . انتهى كلام الإمام النووي .

وقال الإمام النووي في أول هذا الباب : « في كتب أصحاب أبي حنيفة رحمه الله تعالى اعتناء تام بتفصيل الأقوال والأفعال المقتضية للكفر ، وأكثرها مما يقتضي إطلاق أصحابنا الموافقة عليه ، فنذكر ما يحضرنا مما في كتبهم » . انتهى وذَكَرَ ما ذكرناه وقدّمناه في هذا الفصل والله الموفق والهادي .

فصل

مسائل مهمة تتعلّق بالردة

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ، وما داموا بما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم معترفين ، وله بكل ما قاله وأخبر مُصَدِّقين ، ولا نخوض في الله ولا نماري في دين الله ، ولا نكفِّر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله) .

الشرح :

[**المسألة الأولى**] : يقول بعض الناس اليوم كيف تقولون بأن فلاناً الذي فعل كذا أو اعتقد كذا أنه كافر مرتد ، مع أنَّ المقرر عند أهل السنة والجماعة أنهم لا يُكَفِّرون مؤمناً بذنب ؟!!

ونقول مجيبين لهم : هذه مغالطة واضحة !! وذلك لأن علماء أهل السنة قالوا : لا نكفِّر من اقترف ذنباً كالسرقة أو شرب الخمر أو الزنا أو غير ذلك من الذنوب ما لم يستحله ، ولا علاقة لهذا الموضوع بمسألة تكفير مَنْ خالف العقيدة الإسلامية الحقة ، ولذلك قال الإمام الحافظ النووي رحمه الله تعالى في « شرح صحيح مسلم » (١/ ١٥٠) :

[واعلم أنَّ مذهب أهل الحق أنَّه لا يُكَفَّر أَحَدٌ من أهل القبلة بذَنْبٍ ولا يُكَفَّر أهل الأهواء والبدع ، **وأن من جحد ما يُعلم من دين الإسلام ضرورة حُكِمَ بردَّته وكفره إلا أن** يكون قريب عهد بالإسلام أو نشأ ببادية بعيدة ونحوه ممَّن يخفى عليه فيُعَرَّف ذلك فإن استمرَّ حُكِمَ بكفره . وكذا حُكْمُ مَنْ استحلَّ الزنا أو الخمر أو القتل أو غير ذلك من المحرمات التي يُعْلَم تحريمها ضرورة ، فهذه جمل من المسائل المتعلقة بالإيمان قدّمتها في صدر الكتاب تمهيداً لكونها مما يكثر الاحتياج إليه] .

وإيراد بعضهم عند هذه المسألة حديث « مَنْ كفَّر مسلماً فقد كفر » ليس في

محله ، بل لم يَرِد الحديث بهذا اللفظ وإنما ورد بلفظ : « مَنْ قال لأخيه : يا كافر فقد باءَ بها أحدهما » رواه الإمام مالك رحمه الله تعالى في « الموطأ » (ص٩٨٤) والبخاري (١٠/ ٥١٤) ومسلم (١/ ٧٩) من حديث ابن عمر مرفوعاً .

ورواه البخاري (١٠/ ٤٦٤) عن أبي ذرٍ مرفوعاً بلفظ :

« لا يرمي رَجُلٌ رجلاً بالفسوق . ولا يرميه بالكفر ، إلا ارتدّت عليه ، إن لم يكن صاحبه كذلك » .

فهذا الحديث يتناول ويقرر حكم مَنْ يرمي مسلماً بكفر ولم يقع الإنسان الذي رمي بالكفر بما يوجب الكفر والارتداد ، وإلا فالعلماء حكموا على كثير من الأشخاص بأعيانهم بالكفر ، ومن ذلك تكفير علماء السلف للحجاج بن يوسف الثقفي كما يجد ذلك من يطالع ترجمته في « تهذيب التهذيب » (٢/ ١٨٤) ومما جاء فيها قول الحافظ ابن حجر هنالك :

[وكفَّره جماعة منهم سعيد بن جُبَير والنخعي ومجاهد وعاصم بن أبي النجود والشعبي وغيرهم ....] . فأين هذا من كلام من يجادل ويماري ويدافع عن هذا الظالم القاتل السَّفَّاك .

وبذلك يتبين أنَّ مَنْ يجادل ويماري في هذه المسألة ويستعملها في غير ما وُضِعَتْ له مُتَنَكِّب عن سبيل أهل الهدى والحق وكذا مخالفٌ لما عليه علماء أهل السنة والجماعة ، فافهم .

[المسألة الثانية] : يخطىء بعض الناس الذين ينسبون أنفسهم للعلم فيقول أحدهم عن قول كُفْريٍّ : نعم أوافقك على أنَّ هذا الأمر كفر ، ولكن نقول : هذا كفر ولا نُكَفِّر صاحبه !!

ونقول لهم : ليس كذلك !! وقد خالفتم القرآن الكريم الذي بَيَّنَ الله فيه أنَّ صاحب الكلمة الكُفْرِية يُحْكَم عليه بالكفر أيضاً ، وذلك في قوله تعالى ﴿ **ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم** ﴾ التوبة : ٧٤ .

فقد بَيَّن الله تعالى لنا في هذه الآية بصريح العبارة أنَّ مَنْ صدرت منه كلمة الكفر صار كافراً وليس بعد بيان الله تعالى بيان ، فافهم .

[المسألة الثالثة] : لا يجوز الإقدام على التكفير والمسارعة بإطلاق الحكم فيه دون تَثَبُّتٍ البتة ، إلا في الأشياء الظاهرة الواضحة كَسَبِّ الربِّ والدِّين والأنبياء والكتب المنزلة والملائكة ، وأما ما يحتاج إلى نظر وتأمُّل ومعرفة المقصود بالكلام فلا ينبغي فيه التكفير العشوائي والإسراف فيه ، لأن هناك طائفة من الناس تُكَفِّر فيما لا يوجب تكفيراً ولا ارتداداً ، وتسرف في ذلك ، وقد وقع من بعض مَنْ رأيتهم يكَفِّرون أشخاصاً بلا موجِبٍ لذلك ثم تبين لهم أنهم مخطؤون فيما ذهبوا إليه !!

فليكن قصد الإنسان هنا هو تخليص مَنْ وقع في الكفر بإرشاده ونصحه إلى التوبة لا لِيُثْبِتَ له أنه كفر وارتدَّ ، وإنما الواجب أن يأخذ بيده لينقذه إن أمكن فيقول له : هذه كلمات خطيرة تُخْرِج الإنسانَ من دينه ولا بدَّ أن تتشهد للتخلص من الكلام الذي وقعت فيه بنية تجديد الإيمان .

فليحذر الإنسان العاقل من المسارعة في التكفير أيما حذر وخاصة الطلبة المبتدئون في العلم ، وقد تقدّم الحديث الواقع في هذه المسألة : « مَنْ قال لأخيه : يا كافر ، فقد باء بها أحدهما » رواه البخاري (١٠/ ٥١٤) ومسلم (١/ ٧٩) من حديث ابن عمر مرفوعاً .

قال الحافظ ابن حجر في شرح الحديث في « الفتح » (١٠/ ٤٦٦) :

« والتحقيق أنَّ الحديث سيق لزجر المسلم عن أنْ يقول ذلك لأخيه المسلم ، ... وقيل معناه رَجَعَتْ عليه نقيصته لأخيه ومعصية تكفيره ، وهذا لا بأس به . وقيل يخشى أن يؤول به ذلك إلى الكفر كما قيل : المعاصي بريد الكفر ، فيخاف على مَنْ أدامها وأصرَّ عليها سوء الخاتمة ، وأرجح من الجميع أنَّ من قال ذلك لمن يُعْرَفُ منه الإسلام ولم يقم له شبهة في زعمه أنه كافر فإنه يكفر بذلك كما سيأتي تقريره ، فمعنى الحديث فقد رجع عليه تكفيره .... والحاصل أنَّ المقول له إن كان كافراً كفراً شرعياً فقد صدق القائل وذهب بها المقول له ، وإن لم يكن رجعت للقائل معرّة ذلك القول وإثمه .... وهو من أعدل الأجوبة » .

وقال الحافظ قبل ذلك :

« وهذا يقتضي أنَّ مَنْ قال لآخر أنت فاسق أو قال له أنت كافر فإن كان ليس

كما قال كان هو المستحق للوصف المذكور ، وأنه إذا كان كما قال لم يرجع عليه شيء لكونه صدق فيما قال ، ولكن لا يلزم من كونه لا يصير بذلك فاسقاً ولا كافراً أنْ لا يكون آثماً في صورة قوله له : أنت فاسق ، بل في هذه الصورة تفصيل : إنْ قصد نُصْحَهُ أو نُصْحَ غيره ببيان حاله جاز ، وإن قصد تعييره وشهرته بذلك ومحض أذاه لم يجز ، لأنه مأمور بالسَّتْرِ عليه وتعليمه وعظته بالحسنى ، فمهما أمكن ذلك بالرِّفق لا يجوز أنْ يفعله بالعنف لأنه قد يكون سبباً لإغرائه وإصراره على ذلك الفعل كما في طبع كثير من الناس من الأَنَفَة ، لا سيما إنْ كان الآمر دون المأمور في المنزلة » .

ونقل الإمام النووي في « الأذكار » ص (٥١٧) أنه يُكره إنَّ يقال لأحد عند الغضب : اذْكُرِ الله تعالى خوفاً من أنْ يحمله الغضب على الكفر ، وكذا لا يقال له : صلِّ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم خوفاً من هذا .

[المسألة الرابعة] : وهي من مسائل الرِّدة القولية والاعتقادية أفردتها هنا بالذكر لمسيس الحاجة إليها ولأنها تتعلّق بالاعتقاد والقول ؛ وهي مسألة ضرب الرجل زوجته .

فلو قال قائل : لا يجوز لزوجٍ أنْ يضرب زوجته في أي حالة كانت ، فإن كان لا يعرف القرآن والسنة ونصوص الشرع الناصة على ذلك أو غابت عنه عرّفناه وذكّرناه ، فإن عاند وأبى وأَصرَّ على عدم الجواز في أي حال كفر لأن الله تعالى يقول في كتابه العزير : ﴿ **الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتي تخافون نشوزهنَّ فعظوهنَّ واهجروهنَّ في المضاجع واضربوهنَّ ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهنَّ سبيلاً ، إنَّ الله كان عليّاً كبيراً * وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إنْ يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ، إنَّ الله كان عليماً خبيراً** ﴾ النساء : ٣٥ .

وعن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم : « لا يُسأل الرَّجُلُ فِيْمَ ضرب امرأته »(٥٦٢) .

قال الإمام النووي في « الأذكار » (ص٥٢٨) : « فصل : يُكْرَه أنْ يُسأل الرجل فيم ضرب امرأته من غير حاجة » .

قلت : وكل هذا محمول على إذا لم يكن الزوج ظالماً مستبداً عسوفاً .

---

(٥٦٢) رواه أبو داود (٢/ ٢٤٦) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٧٢) وابن ماجه (١/ ٦٣٩) وصححه الحافظ ابن حجر كما في « شرح الأذكار » (٧/ ١٤٠) للعلامة ابن علان الدمشقي .

فصل

عدم تصديق العرافين وأمثالهم

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(ولا [نصدق] مَنْ يَدَّعي شيئاً يُخالِف الكتاب والسُّنة وإجماع الأمة) .

الشرح :

[المسألة الخامسة] : من الأمور التي تثار في هذا العصر وتخالف ما عليه عقائد جمهور المسلمين الآن في العالم دون أنْ ينتبهوا لها : بعض أنباء الفلكيين مثلاً الذين يقولون على سبيل المثال إنه بعد خمس سنوات مثلاً أو سنة ٢٠٠٠ للميلاد سيرتطم المذنَّب أو النجم الفلاني بالكرة الأرضية وسيُفني الحياة على الكوكب الأرضي .

هذا الكلام الذي يُبَثُّ أحياناً في الصحف والجرائد والمجلات يخالف ما عليه المسلمون مما هو مقرر في القرآن الكريم من أنه لا يتم فناء الحياة على الكرة الأرضية إلا بالنفخ في الصور ، هذه هي عقيدة الإسلام وهي تضاد ذلك التنبوء . **وكذلك يدفع هذا التنبوء عند من ثبتت لديه الأشراط في المستقبل** بأن هناك علامات للساعة لا بُدَّ إنَّ تظهر ، والتي منها : ظهور المهدي حيث يحكم سبع سنين ثم سيدنا عيسى عليه السلام سيحكم أربعين سنة ، ثم يبعث الله ريحاً لطيفة تقبض أرواح المؤمنين فلا يبقى على ظهر الأرض مؤمن ، بل يبقى شرار الخلق وعليهم تقوم الساعة ، ويقاس على هذا التنبوء أشباهه .

[المسألة السادسة] : نرى اليوم في هذا الزمن بعض الأفراد في هذه المجتمعات بل وبعض العائلات أيضاً الذين ينتسبون للإسلام وهم بمنأى ومعزل عن الدين !! حيث يعيشون حقيقة دون أنْ يؤدّوا شعائر الدين ودون أنْ يعرفوا أحكامه ، فنراهم لا يصلون ولا يصومون ولا يزكون ولا يحجون ولا يدعون الله تعالى ولا يلتجئون إليه ، وبعضهم لا يعهد عنه أنه دخل مسجداً وصلى فيه يوماً

من الدهر !! بل لا يقرأون القرآن ولا يعرفون آياته ولا سوره !! وكذلك نجد نساءهم يخرجن بلا انقياد لأمر الله تعالى فلا يلبسن اللباس الذي أمر الله به ولا يحتشمن ولا يتستّرن ، ويرون حالهم هذا طبيعياً جداً ولا يرون أنفسهم مسيئين فضلاً عن كونهم مذنبين وظالمين ، كما نجد أبناءهم مُنْحَلّين من الأخلاق والمبادئ والدِّين ! بل ويتمادون ويقولون بأن الصلاة والصيام والدعاء وسائر الشعائر ليست من الأمور المهمة وإنما المهم نظافة القلب وبياضه وأن الإيمان بالقلب وليس بهذه الشعائر !! مع أنَّ قلوبهم في الحقيقة سوداء مفحمة !!

وخلاصة الأمر أنَّ الدِّين عندهم أمر ثانوي جداً لا قيمة له !! فهؤلاء كفار لا شك بأنهم من المرتدين وإن كانوا منحدرين من أصول مسلمة وعروق مؤمنة ، لأنَّ الإيمان هو : اعتقاد بالجَنَان (أي القلب) وقول باللسان وعمل بالأركان ، فتنبه .

وقد صار حال هؤلاء كالنصارى واليهود الذين حرَّفوا وغيَّروا في دينهم ، بل نجد في كثير من الأحيان أنَّ النصارى أحسن حالاً منهم في أخلاقهم وعاداتهم واحتشامهم وذلك بسبب شدة فسق هؤلاء وبغيهم وطغيانهم ، حتى انطبق فيهم ما قاله تعالى عن بعض أهل الكتاب ﴿ **لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحَرِّمون ما حرَّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق** ﴾ التوبة : ٢٩ .

ونجدهم اليوم يُؤثرون المال والنساء والمعاصي على الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم !! وفي مثلهم يقول الله تعالى : ﴿ **قل إنْ كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربَّصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ التوبة : ٢٤ .

[المسألة السابعة] : اعلم بأننا لا نوافق بعض المتأخرين من الفقهاء على أشياء ذكروها في باب الردة لمخالفتهم للنصوص أولاً ، ولأئمة مذاهبهم ثانياً ، وللمتقدمين ثالثاً ، ولأن أقوالهم لا تعتبر نصوصاً شرعية لا يمكن مخالفتها رابعاً .

ومن تلك المسائل قول بعضهم[٥٦٣] بأن المجسمة مبتدعة لكنهم غير كفار ؛ وهذا خطأ محض لا يوافقُون عليه البتة ، والصواب القول بتكفير المجسمة كما قال الإمام النووي في « شرح المهذب » (٤/٢٥٣) .

وقال الإمام القرطبي في كتابه « التذكار في أفضل الأذكار » ص (٢٠٧) :

« ثمَّ متبعو المتشابه لا يخلو أنْ يتَّبعوه ويجمعوه طلباً للتشكيك في القرآن وإضلال العوام كما فعلته الزنادقة والقارمطة والطاعنون في القرآن . أو طلباً لاعتقاد ظاهر المتشابه كما فعلته المجسمة الذين جمعوا ما في الكتاب والسنة مما يوهم ظاهره الجسمية حتى اعتقدوا أنَّ الباري تعالى جسم مُجَسَّم وصورة مصوَّرة وذات ووجه وغير ذلك من يدٍ وعين وجنب وأُصْبع تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً » .

ثم قال القرطبي :

« فأصحاب القسم - الأول (وهم الزنادقة وأشباههم) : لا شكَّ في كفرهم وأن حكم الله فيهم القتل من غير استتابة . _ وأما أصحاب القسم _ الثاني (وهم المجسمة) : فالصحيح القول بتكفيرهم إذ لا فرق بينهم وبين عُبّاد الأصنام والصُّوَر ، ويستتابون فإن تابوا وإلا قُتِلوا كما يُفعل بمن ارتدَّ » انتهى .

وقال الشيخ عبد القاهر البغدادي (توفي ٤٢٩هـ) في « أصول الدين » ص (٣٣٧) :

« وأما مجسمة خراسان من الكرّامية فتكفيرهم واجب ؛ لقولهم : بأنَّ الله له حَدٌّ ونهاية من جهة السُّفْل ومنها يماس عرشه ، ولقولهم بأنَّ الله تعالى مَحَلٌّ للحوادث » .

[المسألة الثامنة] : يستثنى من الردة حالة سَبْق اللّسان والخطأ كَمَنْ جرى على لسانه كلمة ولم يقصدها لحديث الصحيحين « إنما الأعمال بالنيات » وللحديث الآخر « رُفِعَ عن أمتي النسيان والخطأ وما استكرهوا عليه » (تخريج) وهو صحيح وقد تقدَّم .

---

[٥٦٣] ومنهم العز ابن عبد السلام ومَنْ قلّده في ذلك !! لأن قولهم في ذلك مخالف للدليل !!

واستدلوا له أيضاً بحديث أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لَله أشدُّ فَرَحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاةٍ فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلِّها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : **اللهم أنت عبدي وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح** » . رواه مسلم (٤/ ٢١٠٤ برقم ٢٧٤٧) .

وكذلك تُسْتثنى حالة فقدان العقل بجنون أو مرض أو نوم كمن يتكلم وهو نائم أو نحو ذلك ، إلا مَنْ ارتدَّ وهو سكران فإن للعلماء فيه اختلافاً ، قال الإمام النووي في « المنهاج » : « والمذهب صحة ردَّة السكران » . وكذلك تستثنى حالة الإكراه وقد مر الكلام عليها مُفَصَّلاً .

فصل

في وجوب التوبة من الردة وكيفيتها

قال العلماء : يجب على مَنْ وقعت منه رِدَّةٌ أنْ يعود فوراً للإسلام بالنطق بالشهادتين بنية الدخول في الإسلام أو تجديد الإيمان بنية البراءة من الكفر الذي وقع فيه ، ويجب عليه أن يستشعر النَّدم على ما صدر منه ، ويعزم على أن لا يعود لذلك ولا لمثله ، وإلا فإنه يبقى كافراً مرتداً حتى يثبت لنا أنه عاد للإسلام بالشهادتين كما ثبت لدينا أنه خرج من الإسلام ونقض الشهادتين .

قال الله تعالى ﴿ **إلا مَنْ تاب وآمَن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يُبَدِّل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ الفرقان : ٧٠ .

وقد تقدّم أنَّ حسنات المرتد تذهب فيخسرها ولا تعود ، لكن إن تاب توبة صادقة كما في هذه الآية الكريمة فإنَّ الله تعالى يقلب له سيئاته المتبقية بعد ذهاب حسناته فيجعلها حسنات .

ولا يكفي أن يتشهَّد لعادته ، كمن كانت عادته أنْ يقوم كل صباح فيتشهد عند استيقاظه من النوم دون أن ينوي تجديد إسلامه ودون أن يتبرأ من الكفر الذي وقع فيه ، وينبغي له بعد أن يأتي بالشهادتين بالشرط المعتبر أن يُكْثر من الاستغفار والندم ، ولا يكفي لمن ارتدَّ أنْ يستغفر الله تعالى دون أنْ يأتي بالشهادتين لأنه لا يدخل في الإسلام مَنْ أراد الدخول فيه إلا بالشهادتين وليس بالاستغفار ، فلو استغفر بعد أنْ سبَّ الله تعالى أو الدِّين مثلاً ألف مرة لم ينفعه ذلك البتة إلا أنْ يتشهد ، فافهم ذلك جيداً ولا تغفل عنه .

اللهم احفظ علينا إيماننا وديننا الذي هو عصمة أمرنا ولا تسلط علينا بذنوبنا مَنْ لا يخافك ولا يرحمنا .

فصل

في الشرك وما يتعلّق به

الشرك بالله تعالى ضَرْبٌ من الكفر ، ومعناه : أنْ يجعل العبد لله تعالى شريكاً سواء في العبادة أو في الملك أو في الخلق أو في أي معنى من معاني ألوهية المولى سبحانه وتعالى .

قال العلامة الزَّبِيْدِي في « شرح القاموس » :

« قال أبو العباس في قوله تعالى ﴿ **والذين هم به مشركون** ﴾ معناه : الذين صاروا مشركين بطاعتهم للشيطان وليس المعنى أنهم آمنوا بالله وأشركوا بالشيطان ، ولكن عبدوا الله وعبدوا معه الشيطان فصاروا بذلك مشركين ليس أنهم أشركوا بالشيطان وآمنوا بالله وحده » .

ثم قال :

[وفي الحديث : « الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل »(٥٦٤) قال ابن الأثير : يريد به الرياء في العمل فكأنّه أشرك في عمله غير الله تعالى . وقال الله تعالى ﴿ **إنَّ الشرك لظلمٌ عظيم** ﴾ المراد به الكفر] . هذا كلام الزَّبِيْدِي .

وأقول : ويطلق لفظ المشركين على الكفار الأصليين الذين لم يعبدوا الله تعالى قط . فتلخّص من هذا أنَّ الشرك يطلق أحياناً على الكفر الأصلي وأحيانا على الإشراك بالله بعد الإيمان به مع بعض خلقه في أمر ما .

قال تعالى : ﴿ **ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾ الزمر : ٦٦ .

وقال الله تعالى : ﴿ **ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون** ﴾ الأنعام : ٨٨ .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سألتُ رسول الله صلى الله عليه

---

(٥٦٤) رواه أحمد (٤/٤٠٣) وهو حسن .

وآله وسلم : أيُّ الذنب أعظم عند الله ؟! فقال :

« أنْ تجعل لله نِدّاً وهو خلقك » رواه البخاري (١٢/ ١١٤) ومسلم (١/ ٩٠) .

قال الراغب الأصفهاني في « المفردات » ص (٤٨٦) ونقل كلامه الحافظ في « الفتح » (١٣/ ٤٩١) :

« نَدِيْدُ الشيء مُشَارِكُهُ في جوهره ، وذلك ضربٌ من المماثلة ، فإن المثل يقال في أي مشاركة كانت ، فكل نِدٍّ مِثْلٌ وليس كلُّ مِثْلٍ نِدّاً » .

وعن حذيفة عنْ أبي بكر الصديق قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« الشِّرْك فيكم أخفى من دبيب النَّمل ، وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره ، تقول : اللهم إني أعوذ بك أنْ أُشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفر لما لا أعلم ، تقولها ثلاث مرات »(٥٦٥) .

قال العلامة المُنَاوي في شرح أحاديث الشرك هذه في « فيض القدير » (٤/ ١٧٢) :

[(**الشِّرْك في أُمتي أخفى من دبيب النمل**) في روايةٍ النملة بالإفراد لأنهم ينظرون إلى الأسباب كالمطر غافلين عن المسبب ، ومن وقف مع الأسباب فقد اتخذ من دونه أولياء فلا يخرج عنه المؤمن إلا بهتك حجب الأسباب ومشاهدة الكل من رب الأرباب ، وأشار بقوله (**على الصفا**) إلى أنهم وإن ابتلوا به لكنه مُتَلاشٍ فيهم لفضل يقينهم فإنه وإن خطر لهم فهو خطورٌ خفي لا يؤثِّر في نفوسهم كما لا يؤثر دبيب النمل على الصفا ، بل إذا عرض لهم خطرات الأسباب ردتها صلابة قلوبهم بالله .

(**تنبيه**) : قال الإمام الرازي السلامة في القيامة بقدر الاستقامة في نفي الشركاء فمن الناس مَنْ أثبت ظاهراً وهو الشرك الظاهر ، والاستقامة في الدنيا لا

---

(٥٦٥) هكذا أورده الحافظ السيوطي في الجامع الصغير برقم (٣٩٣٤) معزواً للحكيم الترمذي عن سيدنا أبي بكر الصديق رضوان الله عليه ، وأورده الدارقطني في العلل (١/ ١٩١) . وحاول المناوي أن يستدرك عليه واستدراكه عليه في هذا الحديث والذي قبله ليس بشيء كما هو معلوم ، وأما شرحه على الحديث فجيد وحَسَن .

تحصل إلا بنفي الشركاء ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً** ﴾ ومنهم من أقرَّ بالوحدانية ظاهراً لكنه يقول قولاً يهدم ذلك التوحيد كأن يضيف السعادة والنحوسة إلى الكواكب ، والصحة والمرض إلى الدواء والغذاء أو العمل إلى العبد استقلالاً ، وكل ذلك يبطل الاستقامة في معرفة الحق سبحانه وتعالى ، ومنهم من ترك كل ذلك لكنه يطيع النفس والشهوة أحياناً وإليه أشار بقوله ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ وهذا النوع من الشِّرْك هو المسمى بالشِّرك الخفي والمراد من قوله سبحانه وتعالى حكاية عن إبراهيم وإسماعيل ﴿ **واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لك** ﴾ وقول يوسف ﴿ **توفني مسلماً** ﴾ وأن الأنبياء مبرؤون عن الشرك الجلي ، أما الحالة المسماة بالشرك الخفي وهو الالتفات إلى غير الله فالبشر لا ينفك عنه في جميع الأوقات فلهذا السبب تضرَّع الأنبياء والرسل في أنْ يصرف عنهم الأسباب تردُّها صلابة قلوبهم بالله].

وقال العلامة المناوي أيضاً :

[(**الشرك فيكم**) أيها الأمة (**أخفى من دبيب النمل**) قال الغزالي : ولذلك عجز عن الوقوف على غوائله سماسرة العلماء فضلاً عن عامة العُبَّاد والأتقياء ، وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها وإنما يبتلى به العلماء والعُبَّاد المشمِّرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة ، فإنهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم ، فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى اطّلاع الخلق ولم تقنع باطّلاع الخالق ، وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه للشهوات وتوقيه للشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء وبالغوا في التفريط والإطراء ، ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ورغبوا في بركته ودعائه وفاتحوه بالسلام والخدمة وقدَّموه في المجالس والمحافل وتصاغروا له فأصابت النفس في ذلك لذة هي من أعظم اللذات وشهوة

هي أغلب الشهوات فاستحقرت فيه ترك المعاصي والهفوات واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات فهو يظن أنَّ حياته بالله وبعبادته المرضية وإنما حياته لهذه الشهوة الخفية التي يعمى عن دركها إلا العقول النافذة القوية ويرى أنه يخلص في طاعة رب العالمين وقد أُثبت اسمه في جريدة المنافقين .

(وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب الله عنك صغار الشرك وكباره) قال الحكيم : صغار الشرك كقوله ما شاء الله وشئت ، وكباره كالرياء **(تقول اللهم إني أعوذ بك أنْ أُشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم تقولها ثلاث مرات)** يحتمل كل يوم ويحتمل كل ما سبق إلى النفس الوقوف مع الأسباب وذلك لأنه لا يدفع عنك إلا مَنْ وَلِيَ خَلْقك فإذا تعوَّذت به أعاذك لأنه لا يخيِّب مَنْ التجأ إليه وقصر نظر قلبه عليه ، وإنما أرشد إلى هذا التعوذ لئلا يتساهل الإنسان في الركون إلى الأسباب ويرتبك فيها حتى لا يرى التكوين والتدويم إلا رؤية الإيمان بالغيب فلا يزال يضيع الأمر ويهمله حتى تُحَلَّ العقدة منه عقدة الإيمان فيكفر وهو لا يشعر فأرشده إلى الاستعاذة بربه ليشرق نور اليقين على قلبه] .

وقال العلامة المناوي أيضاً :

[**(الشِّرْك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء وأدناه أنْ تحب على شيء من الجور أو تبغض على شيء من العدل وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله)** أي ما دين الإسلام إلا ذلك لأن القلب لا بُدَّ له من التعليق بمحبوب فمن لم يكن الله وحده له محبوبه ومعبوده فلا بد أنْ يتعبد قلبه لغيره وذلك هو الشرك المبين فمن ثَمَّ كان الحب في الله هو الدين ، ألا ترى أنَّ امرأة العزيز لما كانت مشركة كان منها ما كان مع كونها ذات زوج ويوسف لَمَّا أخلص الحب في الله ولله نجا من ذلك مع كونه شاباً عزباً مملوكاً قال الله تعالى **﴿ قل إنْ كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾**] انتهى .

فتأمل جيداً !!

ومما يجب التنبيه عليه هنا : أنْ بعض الناس في هذا العصر قد حصروا الكلام

على الشِّرْك في مواضع أكثرها ليس شركاً ولا كفراً ، ومن تلك الأمور :

زيارة القبور ، والتوسل ، والاستغاثة ، والرقي . ، التمائم ، والتِّوَلَةُ ، والتطير ، والنشرة ، والكهانة ، والحكم بغير ما أنزل الله .

ولنتكلم عليها واحدة واحدة بكلام مختصر مفيد فنقول وبالله تعالى التوفيق :

أما الكهانة فقد تقدّم الكلام عليها في موضوع الإيمان بوجود الجآن .

[القضية الأولى زيارة القبور] :

١ - **أما زيارة القبور** : فسنة بالاتفاق ؛ وخاصة قبور الأنبياء وآل البيت عليهم سلام الله تعالى والصحابة الأبرار الكرام وأئمة السلف الصالحين والصالحين والشهداء ، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة وليس لها معارض ومنها حديث أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها »(٥٦٦) .

وقد نهى الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم عن زيارة قبور المنافقين والكافرين فقال سبحانه ﴿ **ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون** ﴾ التوبة : ٨٤ ، فأفاد ذلك جواز زيارة قبور المؤمنين والمسلمين .

وقد سألت السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : ماذا أقول إذا أتيت البقيع ؟ قال : « قولي : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين ، وإنا إنْ شاء الله بكم للاحقون » رواه مسلم (٢/ ٦٧١) ومنه يؤخذ جواز زيارة المرأة للقبور أيضاً إذا أمنت الفتنة .

أما حديث الصحيحين(٥٦٧) « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » فهو حديث شاذ مردود كما قال سيدي عبد الله بن الصديق في كتابه

---

(٥٦٦) رواه مالك في الموطأ ص (٤٨٥) ومسلم (٢/ ٦٧٢) والنسائي (٨/ ٣١١) وغيرهم وهوصحيح .

(٥٦٧) رواه البخاري (٣/ ٢٥٥) ومسلم (١/ ٣٦٦) .

« **الفوائد المقصودة في بيان الأحاديث الشاذة المردودة** »[٥٦٨] ص (١٠٥) لأنَّ في الحديث إشكالاً كبيراً وهو : كيف يُلْعَنُ النصارى بسبب اتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد مع أنه ليس لهم إلا نبي واحد وهو سيدنا عيسى عليه السلام ولم يُدْفَن وإنما عُرِجَ به الى السماء ؟!

ثم كيف يحترم اليهود الأنبياء ويجعلون على قبورهم مساجد وقد اشتهر عنهم معاداة النبيين والمرسلين حتى قال الله تعالى عنهم ﴿ **ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون** ﴾ البقرة : ٨٧ .

ثمَّ لو سلّمنا بصحة الحديث فليس مراداً به البناء على القبر البتة ، وإنما المراد به اتخاذ القبر مسجداً ومعنى ذلك الصلاة على القبر ، كما قاله ابن حجر الملكي في « الزواجر » (١/١٤٨) . ثمَّ نقول أيضاً على فرض صحة الحديث : إنَّ هذا الذم واقع على اليهود والنصارى لا على هذه الأمة بالإجماع ، لأن الصحابة دفنوا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بناءٍ وهو بيت السيدة عائشة وهذا بإجماع الأمة زمن الصحابة حتى هذا اليوم .

فإن قال قائل : هذا خاص بالأنبياء فقط .

قلنا : ليس كذلك ! بل إنَّ هذا القول ظاهر البطلان لإجماع الأمة على دفن سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر رضي الله عنهما بجنبه صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك البناء ، وذلك البناء ملصقاً بمسجده النبوي الشريف ثم أدخل في عهد السلف بإشراف الخليفة الراشد الإمام المجتهد القدوة السلفي عمر بن عبد العزيز في المسجد عندما وُسِّع (انظرالبخاري والفتح ٣/ ٢٥٥ و ٢٥٧) وقد انعقد على ذلك إجماع الأمة بلا نكير ، ومخالف الإجماع ضال مضل ، وهذا كله مع قوله تعالى في معرض الثناء على أناس من المؤمنين في كتابه العزيز : ﴿ **وقال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذنّ عليهم مسجداً** ﴾ والمقرر أنَّ الكفر والشِّرْك لا يكون حلالاً ممدوحاً في شريعة دون شريعة ، والله تعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل .

---

[٥٦٨] وقد حققت هذا الكتاب بفضل الله تعالى ووقع هذا الحديث ص (٣٨) من النسخة المحققة طبع دار الإمام النووي ١٤٢٦هـ .

وقد نقل الذهبي في « سير أعلام النبلاء » عن السلف أشياء كثيرة في الدعاء عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقبور آل البيت النبوي الشريف والعلماء والصالحين ، منها :

١- ما ذكره عن محمد بن المنكدر أنه كان يجلس مع أصحابه ، فكان يصيبه صُمات ، فكان يقوم كما هو حتى يضع خده على قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم يرجع ، فعوتب في ذلك ، فقال : « إنه يصيبني خطر ، فإذا وجدت ذلك ، استعنت بقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم » . [انظرالسير ٥/ ٣٥٩] .

٢- وقال في ترجمة منصور بن زاذان (٥/ ٤٤١) وهو من رجال الستة : « وقبره بواسط ظاهر يُزَار » .

٣- وقال في ترجمة السيدة نفيسة وهي من آل البيت (١٠/ ١٠٧) :
« والدعاء مستجاب عند قبرها بل وعند قبور الأنبياء والصالحين » .

٤- وقال في ترجمة يزيد بن هارون وهو من رجال الستة (٩/ ٣٦٨) : « أما من سار إلى زيارة قبر فاضل من غير شد رحل فَقُرْبَةٌ بالإجماع بلا تردد » .

٥- وقال في ترجمة معروف الكرخي (٩/ ٣٤٣) :
« قال إبراهيم الحربي : قبر معروف الترياق المجرَّب . يريد إجابة دعاء المضطر عنده لأن البقاع المباركة يستجاب عندها الدعاء » .

والأمثلة في ذلك كثيرة لا تكاد تحصى .

فتبين من هذا أنَّ زيارة القبور ليست من الشِّرْك ولا من مظاهر الشِّرْك بوجه من الوجوه ، وبعض الناس يقولون ليست زيارة القبور شركاً إنما الشِّرْك هو ما يقترن بزيارة القبور من أفعال شركيات كدعاء الأموات والتوسل والاستغاثة بهم !!

ونقول : اعلموا أنَّ الجواب على هذا من وجهين :

(الأول) : نقول لهم لماذا إذا تعمّمون القول وتُنَفِّرون الناس عن زيارة القبور ؟! والنبي صلى الله عليه وآله وسلم رغّب فيها ؟! ونرى واقعكم أيضاً يخالف ما تدّعونه من أنَّ المنهي عنه هو ما يقترن بزيارة القبور حيث نجدكم لا

تذهبون لزيارتها ولا تحافظون على السنن المأثورة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

(والثاني) : أنَّ دعاء الأموات الذي معناه خطابهم ونداؤهم ، والتوسل بمن نقل لنا صلاحه منهم وإمامته في الدين ، والاستغاثة بهم ليس كفراً ولا شركاً كما سنبين بكل وضوح واختصار بعد قليل في الكلام على القضية الثانية والثالثة بالنصوص والبراهين والحجج والأدلة التي لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها ، لكننا ننبّه هنا ونستثني فنقول :

إنَّ مَنْ عَظَّم أولئك الأولياء واعتقد أنهم يتصرّفون في الكون وأن بيدهم الخير والنفع أشرك وكفر وارتدّ ، لأنَّ حال الميت كحال الحي تماماً إلا في وصف الموت والحياة ، فهم يدركون ويسمعون كما مرَّ معنا وتقدَّم في آخر « فصل الإيمان بنعيم القبر » من هذا الكتاب ، ومن اعتقد في إنسان حيٍّ أيضاً أنه يتصرف في الخلق وبيده الخير والشر لا على سبيل المجاز كفر وارتدَّ .

وأما المتصوّفة (الذين يدعون التصوف وهم ليسوا صوفية في الحقيقة) الذين أساءوا في هذه القضية وفي غيرها من القضايا فإليك ما قاله الجهابذة العارفون بحالهم وحقائقهم عنهم وهو القول الفصل :

قال السيد العلامة الجهبذ محمد بن عقيل الباعلوي عليه رحمه الله تعالى :

« والصوفية قد خدم الإسلام صالحوهم رضي الله عنهم ، ولكن المنتسبين إليهم من المتصوفة والزنادقة قد أفسدوا الإسلام وأهله وعمموا عقيدة الجبر الصِّرْف وأخَّروا الإسلام بأضعاف ما قدَّمه ونفعه به المخلصون ...» .

وقال السيد العلامة الجهبذ أبو بكر بن شهاب في « الترياق النافع شرح جمع الجوامع » (٢/ ١٧٤) : [وقال أبو بكر الدقاق : « كل حقيقة لا تتبع شريعة فهي كفر » أقول : ومن هذا الباب دخل كثير من المتصوفة الكذابين إلى التخريق في أمور الشريعة وادعوا أنَّ ذلك إلهامٌ من الله ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله] .

وقد ذمهم أيضاً العلامة تقي الدين الحصني في « كفاية الأخيار » في غير ما موضع منها . ومن السيء للأسف ما نراه اليوم من إعراض كثير ممن ينسبون

أنفسهم إلى التصوّف ويتخيلون أنهم من الأولياء والأصفياء عن العلم والعلماء ، حتى قال بعضهم : العلم حجاب بين العبد وربه ، وقال آخرون منهم : مَنْ اشتغل بالعلم والحديث خاصة ولم يَسِرْ على طريقتهم العرجاء النكراء محروم من رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم !! حيث يدّعي هؤلاء أنهم يرون النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو يجتمعون به كذباً وزوراً !! ولذلك نراهم لا يلتفتون إلى تحريم الله تعالى الكذب في كتابه العزيز ، ولا إلى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « من أفرى الفِرَى إنَّ يُريَ عينيه ما لم ترَ » رواه البخاري (١٢/٤٢٧) .

وما أجمل قول الإمام عبد الرحمن الأخضري المالكي الصوفي رحمه الله تعالى وهو تلميذ الشيخ أحمد زروق حيث يقول :

قد ادّعوا من الكمال منتهى ... تَكِلُّ عن تحصيله أولوا النهى
فزعموا أنَّ لهم أحوالا ... وأنهم قد بلغوا الكمالا
والقوم لا يدرون ما الأحوال ... فكونها لمثلهم مُحالُ
حاشا بساط القدس والكمال ... تطؤه حوافر الجهال
واتخذوا مشايخاً جُهّالا ... لم يعرفوا الحرام والحلالا
فنفروهم من دعاة الدين ... أولي الهدى والعلم والتمكين
فظهرت في جملة البلادِ ... طائفة البلع والازدراد
آهٍ على طريقة الرجال ... أفسدها طوائف الجهال

وقال آخر :

يا سائلاً عن سَنَن الفقير ... سألت ما عزَّ عن التحرير
إن الذي سألت عنه ماتا ... وصار بعد أعظماً رُفاتا
فَطُمِسَتْ أعلامه تحقيقا ... فلم تجد بعد لها طريقا
عاش بها القوم بخير عيشه ... فَصُيِّرَت من بعدهم معيشه
يُدعى الذي يسير فيها سالك ... وسالكوها اليوم حزب هالك

ومن عادة هؤلاء المتصوفة (أدعياء التصوف) المنحرفين أنْ يحاربوا كلَّ مَنْ

أراد نصيحتهم وإرشادهم وتصحيح ما هم عليه من الجهل والخرافات وهذا فعلهم في الماضي والحاضر ، أما الحاضر فقد شاهدنا ذلك منهم كثيراً لمن حاول تقويم طريقتهم من السادة العلماء وأما في الماضي فعلى ذلك أمثلة كثيرة منها أنَّ الإمام القدوة أبا الحسن ابن ميلة المولود سنة نيف وعشرين وثلاث مائة « كان ينكر على المتشبهين بالصوفية وغيرهم من الجهال فسادَ مقالاتهم في الحلول والإباحة والتشبيه ، وغير ذلك من ذميم أخلاقهم فعدلوا عنه لَمَّا دعاهم إلى الحق جهلاً وعناداً » . [انظر « سير أعلام النبلاء » (١٧/٢٩٨) و « أخبار أصبهان » (٢/ ٢٤) للحافظ أبو نُعَيم] .

وفي هذا كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد .

هذا ونحن نسعى ليلاً نهاراً لإثبات وخدمة التصوف المحرَّر الذي كان عليه سلفنا الصالح المبني على الكتاب والسنة ، كسعينا وحرصنا على بثّ الفقه الإسلامي والعقيدة الإسلامية الصافية المحررة المبنية على نصوص الكتاب والسنة ، ولا يعني هذا أيضاً أنْ لا نخالف مَنْ قَبْلنا في بعض آرائهم أو اجتهاداتهم لأن الإنسان سواء كان من السابقين أو اللاحقين أو كان من السلف أو من الخلف ليس معصوماً من الخطأ ولا من الزلل !! وإنما المنزه عن الخطأ والزلل هو القرآن الكريم وقول الرسول الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى إنْ هو إلا وحي يوحى ، فافهم ذلك ولا تغفل عنه .

وكما أنه يجب إن يكون في كل عصر ومصر مجددون في الفقه والحديث والعقائد ومغربلون لها مما قد يدخل عليها مما لا أصل له في الكتاب والسنة ، فكذلك ينبغي أنْ يكون في كل عصر ومصر مجددون ومغربلون للتصوف لأنه أكثر هذه الأمور تعرضاً لمن يُدْخل فيه ما ليس منه مما لا يمت إلى الكتاب والسنة بصلة من الصِّلات ، وإنما كان هو الأكثر تعرضاً لدخول الخطل والزلل فيه لأن أكثر المنتمين له في الأعصار المتأخرة قد أقفلوا عقولهم وجعلوا المشايخ في مقام العصمة وابتعدوا عن العلم الذي بواسطته يملكون الموازين التي يميزون بها بين الغث والسمين ، ولأن نفوس أكثر المترسمين بهذا الأمر فرعونية وإن كانت صورهم في

الظاهر صوراً محمدية صديقية !! لكن نفوسهم تأبى النصح والنصيحة وتأنف من الاعتراف بالحق والانصياع للشرع ، لا سيما إذا كان المترسم بهذا الأمر يتمتع بجهالة وسفسطائية ، ويتخيل أنه غوث البرية ، وقطب رحى الدوائر الإلهية ، وغير ذلك من الترهات المحكية ، لا سيما إذا انضاف إلى ذلك جمع الأموال والتلبيس على العامة والبسطاء والغوغاء الذين تغرهم الصور والرسوم ، ولا يدركون حقائق الأمور ، نسأل الله تعالى أن يحفظ علينا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، ويرزقنا التواضع والخشية ، ويجعلنا ممن يجاهد في سبيله ، ويقول الحق ولا يخشى في الله تعالى لومة لائم ، ولا تقريع حاسد أو عاذل هائم ، إنه سميع مجيب ، وبصير رقيب .

[القضية الثانية : التوسل بالأنبياء والصالحين وغيرهم] :

التوسل هو : التوجه إلى الله تعالى في الدعاء بجاه نبي أو عبدٍ صالح ، فيقول الداعي مخاطباً الله تعالى مثلاً : اللهم بجاه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم اغفر لي ذنوبي ، أو اللهم شَفِّع فيَّ نبيك صلى الله عليه وآله وسلم في قضاء حاجتي .

وهذا تقرّبٌ إلى الله تعالى وليس شركاً بوجه من الوجوه ، وقد جاءت به الأحاديث والآثار الصحيحة عن الصحابة رضي الله عنهم فمنها :

١- **ما جاء في التوسل بالأنبياء** : فعن سيدنا عثمان بن حُنَيْف : أنَّ رجلاً أعمى أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال :

إنّي أُصِبْتُ في بصري فادع الله لي قال :

« اذهب فتوضأ وصلِّ ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيي محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني استشفع بك على ربي في رد بصري فشفّعني في نفسي وشفع نبيي في رد بصري ، وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك » رواه الترمذي (٥/ ٥٦٩ برقم ٣٥٧٨) وقال : حسن صحيح(٥٦٩) .

---

(٥٦٩) وكذا رواه النسائي في السنن الكبرى (٦/ ١٦٩) وابن ماجه (١/ ٤٤١) والحاكم (١/ ٣١٣ و ٥١٩ و ٥٢٦) ، والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٧) وصححه ، وقوله فيه « وإن كانت حاجة فافعل

وفي رواية صحيحة عند الطبراني وغيره أنَّ الصحابي الجليل سيدنا عثمان ابن حُنَيف عَلَّم رجلاً بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنْ يدعو بهذا الدعاء ، وقد صحح ذلك الطبراني نفسه ، [انظر الروض الداني في تخريج المعجم الصغير للطبراني ١/٣٠٦ - ٣٠٧] . وأقرَّه الحافظ المنذري في « الترغيب » (١/ ٤٧٦) والحافظ الهيثمي في « المجمع » (٢/ ٢٧٩) وغيرهما ، وأورد العلماءُ هذا الحديث في صلاة الحاجة لِيُطَبِّقَهُ الناس ويعملوا بما جاء به بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما فعل سيدنا عثمان بن حنيف [انظر الأذكار للإمام النووي ص ٢٨٢] .

قال العلامة المناوي في « فيض القدير » (٢/ ١٣٥) :

« قال السبكي : ويحسن التوسل والاستعانة والتشفع بالنبي إلى ربه ولم ينكر ذلك أحد من السلف ولا من الخلف حتى جاء ابن تيمية فأنكر ذلك وعدل عن الصراط المستقيم وابتدع ما لم يقله عالم قبله وصار بين أهل الإسلام مُثْلة انتهى » .

فكيف يُعَلِّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً أنْ يتوسل به إلى الله في قوله في الدعاء « اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة » ؟! إذا كان التوسل شركاً بالله تعالى ؟! وهل يُعَلِّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الناس ما يقود إلى الشرك ؟!

سبحانك هذا بهتان عظيم !!

٢- ما جاء في التوسل بالأولياء : توسل سيدنا عمر رضي الله عنه في خلافته بسيدنا العباس عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما ثبت ذلك في صحيح البخاري (٢/ ٤٩٤) ومن قوله هناك : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فَتَسْقِينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . قال فَيُسْقَون » .

ومن باب إلزام المخالف في هذا الأمر نقول : ذكر ابن كثير في تاريخه « البداية والنهاية » (١٤/ ٤٥) أنَّ ابن تيمية أجاز التوسل ولم يجز الاستغاثة ، قال ابن كثير هناك : « لكنه قال لا يستغاث إلا بالله ، لا يستغاث بالنبي استغاثة بمعنى

مثل ذلك » رواها فيه ابن ابي خيثمة في تاريخه ، وانظر إسناده في رسالة الإمام المحدث المفيد سيدي عبد الله ابن الصديق المسماة « إرغام المبتدع الغبي بجواز التوسل بالنبي » ص (١٧) .

العبارة ، ولكن يتوسل به ويتشفع به إلى الله » .

قلت : ووقفت له على رسالة في الاستغاثة يجيزها في أمور دون أمور كما سيأتي إنْ شاء الله تعالى بعد قليل .

[القضية الثالثة : الاستغاثة] :

الاستغاثة هي أنْ يطلب شخص من النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حياته أو بعد موته موجهاً الخطاب إليه أنْ يدعو الله تعالى له في جلب منفعة أو دفع مضرة أو نحو ذلك ، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وآله وسلم هو والأنبياء والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون(٥٧٠) وأن الأموات يسمعون كما تقدَّم .

ومثال الاستغاثة المشروعة أنْ يقول شخص وقف على قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم : يا رسول الله ادع الله تعالى أنْ يغفر لي .

ودليلها أحاديث كثيرة ، منها ما يُثْبِت الاستغاثة به صلى الله عليه وآله وسلم في حياته ، ومنها ما يثبتها بعد وفاته فيما فعله بعض الصحابة وأقرَّه الباقون منهم دون نكير حتى مِنْ كبارهم رضي الله عنهم .

فمما جاء في حياته : ما رواه البخاري (٥٠١/٢) عن سيدنا أنس قال :

إنَّ رجلاً دخل يوم الجمعة من باب كان وِجَاهَ المنبر ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخطب ، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائماً فقال : يا رسول الله : هلكت المواشي ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغيثنا (أي يمطرنا) .

قال سيدنا أنس : فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يديه فقال : « اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا » .

قال سيدنا أنس : ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قَزَعَةٍ ولا

---

(٥٧٠) الذي قال ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ قال أيضاً ﴿ ولا تحسبن الذين ... بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون » وهو حديث صحيح . رواه أبو يعلى في مسنده (١٤٧/٦) وصححه متناقض عصرنا الألباني في الصحيحة برقم (٦٢١) .

شيئاً ، وما بيننا وبين سَلْعٍ من بيت ولا دار ، قال : فطلعت من ورائه سحابة مثل التُرْس ثمّ انتشرت ، ثم أمطرت ....

قلت : هذا الرجل أُصيب ماله بالهلاك وجاء مستغيثاً بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أنْ يدعو الله في أنْ يمطرهم ، فلم يقل له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : عليك أنْ تدعو الله أنت لأنّ الله يقول : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب** ﴾ أو ﴿ **وقال ربكم ادعوني أستجب لكم** ﴾ بل دعا له فأُجيب .

وفي البخاري (٣/ ٣٣٨) في حديث الشفاعة أنَّ الخَلْقَ يوم القيامة :

« بينا هم كذلك **استغاثوا** بآدم ثم بموسى ثم بمحمد فيشفع ليقضى بين الخلق ... » .

فدلَّ ذلك على أنَّ الاستغاثة ليست شركاً ولا كفراً .

وأما بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم : فقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٢/ ٤٩٥) :

[روى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن أبي صالح السمان عن مالك الدار وكان خازن عمر قال : أصابَ الناسَ قَحْطٌ شديد في زمن عمر فجاء رجل إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله استسقِ لأمتك فإنهم قد هلكوا . فأُتيَ الرجل في المنام فقيل له : « ائت عمر وأقرئه السلام وأخبره أنهم يسقون »(٥٧١)] .

قلت : حصل هذا الفعل في زمن سيدنا عمر رضي الله عنه بمحضرٍ من الصحابة ومعرفتهم معه فلم ينكروا عليه ؛ أي فأقرّوه ، فدلَّ على إجماع سكوتي منهم رضي الله تعالى عنهم .

ولنا رسالة في هذه المسألة أسميناها « الإغاثة بأدلة الاستغاثة » فلتراجع .

قال الإمام النووي أيضاً في « المجموع » (٨/ ٢٧٤) مُبَيِّناً ما يستحب أنْ يقوله من يزور النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا وقف أمام القبر الشريف مخاطباً رسول الله

---

(٥٧١) وقد حاول بعضهم عبثاً أن يضعِّف هذا الأثر ، ورددت عليه مفنداً ما قال في مقدمة « إرغام المبتدع » ص(٧-٩) فارجع إليه إن شئت .

صلى الله عليه وآله وسلم ، ما نصه :

[ثم يرجع إلى موقفه الأول قُبالة وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم **ويتوسل به في حق نفسه ويستشفع به إلى ربه** سبحانه وتعالى ، ومن أحسن ما يقول ما حكاه الماوردي والقاضي أبو الطيب وسائر أصحابنا - يعني سائر الشافعية - عن العُتْبي مستحسنين له قال :

كنتُ جالساً عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجاء أعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول : ﴿ **ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً** ﴾ وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ...] انتهى كلام النووي .

فانظر رحمك الله تعالى وهداك كيف استحسن العلماء ومنهم الإمام النووي هذه الصيغة في نداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وطلب العفو وأن يستغفر الله له ، ونحن لا نفعل إلا ذلك ولا نستحب إلا هذا ، ولا نزيد على ما ورد في الأحاديث المتقدمة أو ما جاء عن العلماء الكبار في العلم !! ولا نعتقد في المخلوقين أنهم يرزقون بذاتهم أو يحيون ويميتون ، فالله تعالى بيَّن لنا في كتابه أنَّ إسناد الفعل لغيره على طريق المجاز ليس شركاً ولكن ماذا نصنع بمن لا يُدْرِك المجاز وينكره أشد الإنكار ، قال تعالى في شأن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام :

﴿ **وأُبرِئُ الأكْمَهَ والأبرص وأُحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وتدّخرون في بيوتكم** ﴾ آل عمران : ٤٩ .

فلو قال شخص أنَّ سيدنا عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ، لم يكن كافراً ، مع أنَّ الله تعالى هو محيي الموتى حقيقة وهو الذي يبرىء الأكمه والأبرص ، وكلنا يعتقد أنَّ التاثير لله لا لسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام في الإحياء وفي الإبراء ، وكذلك إذا استغاث رجل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم راجياً أنْ يدعو الله له في تفريج مصيبته أو كربه معتقداً أنه حي في قبره يَبْلُغُهُ سلام أمته أينماكانوا وتُعْرَضُ عليه أعمالهم ، لم يكن ذلك شركاً عند من تجرّد من العصبية واتقى الله تعالى ، بل سيتحقق أنَّ ذلك سُنَّة وردت بها الأحاديث

الصحيحة ونص عليها علماء الأمة الثقات من السلف والمحدثين .

ومن باب قولهم من فمك ندينك نقول : قال ابن تيمية في « مجموعة الرسائل الكبرى » (١/ ٤٨٥) وذلك في رسالة « الاستغاثة » ما نصه :

« والاستغاثة بمعنى أنْ يُطْلَب من الرسول ما هو اللائق بمنصبه لا ينازع فيها مسلم ، ومن نازع في هذا المعنى فهو إما كافر إنْ أنكر ما يكفر به ، وأما مخطىء ضال ، وأما بالمعنى الذي نفاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو أيضاً مما يجب نفيها ، ومن أثبت لغير الله ما لا يكون إلا لله فهو أيضاً كافر إذا قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها » .

فتأمل !! وهذا موافق لما قررناه .

وأما حديث : « إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله تعالى » رواه أحمد (٥/٣١٧) والطبراني كما في « المجمع » (٨/ ٤٠) ففي سنده ابن لهيعة وهو ضعيف عن غير العبادلة ، فلا يصح الاحتجاج به .

فتبين بذلك أنَّ الاستغاثة ليست شركاً ولا كفراً بالله تعالى وقد وردت بجوازها الأحاديث الصحيحة ، ونسأل الله تعالى الهداية والتوفيق .

[القضية الرابعة : الرُّقَى] :

قال صاحب القاموس : « الرُّقية بالضم العُوْذَةُ وجمعها رُقَى » .

قلت : وهي أنْ يقرأ الإنسان على نفسه أو على غيره آيات من القرآن أو بعض الأدعية المأثورة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فعن سيدنا سهل بن حُنَيف رضي الله عنه قال : مررنا بسيلٍ فدخلت فاغتسلت فيه فخرجت محموماً فَنُمِيَ ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « مُرُوا أبا ثابت يتعوذ » فقلت : **يا سيدي والرقى صالحة** ؟ فقال : « لا رُقَى إلا في نفس أو حُمَةٍ أو لدغة »(٥٧٢) .

قلت : الصواب هنا في « حُمَةٍ » هي « **حمَّى** » وهي السخونة في الجسم(٥٧٣) .

---

(٥٧٢) رواه الحاكم (٤/ ٤١٣) واللفظ له ، وأحمد (٣/ ٤١٣) ، وأبو داود (٢/ ١٥٤) وهو صحيح وانظر تحقيق ذلك في كتابنا « التناقضات الواضحات » (٢/ ٧٢-٧٦) .

وقال أبو داود عقبه مباشرة (٣٨٨٨) : الحمة من الحيات وما يَلْسَع .

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول في الرقية : « بسم الله تُرْبَتُ أرضنا ، وريقة بعضنا يُشفى سقيمنا بإذن ربنا » رواه البخاري (١٠/ ٢٠٦) ومسلم (٤/ ١٧٢٤) والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٤١٢) .

وعن جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الرُّقى . فجاء آل عمرو بن حزم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : يا رسول الله : إنه كانت عندنا رقية نَرْقي بها من العقرب . وإنك نهيت عن الرُّقى . قال فعَرَضوها عليه ؛ فقال :

« ما أرى بأساً ، من استطاع منكم أنْ ينفع أخاه فلينفعه » رواه مسلم (٤/ ١٧٢٧) .

وعن عوف بن مالك الأشجعي قال : كُنا نرقي في الجاهلية . فقلنا يا رسول الله : كيف ترى في ذلك : فقال : « اعرضوا عليَّ رقاكم لا بأس بالرُّقَى ما لم يكن فيه شرك » رواه مسلم (٤/ ١٧٢٧) .

وعن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعوِّذ الحسن والحسين ويقول :

« أنْ أباكما - يعني سيدنا إبراهيم - كان يعوِّذ بهما إسماعيل وإسحق : أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامَّة ، ومن كل عين لامَّة » رواه البخاري (٦/ ٤٠٨) .

والهامة واحدة الهوام من ذوات السموم ، واللامَّة : قال الخطّابي : المراد به كل داء وآفة تلم بالإنسان من جنون وخبَل .

والرقى المذمومة هي كما قال الإمام النووي في « شرح مسلم » (١٤/ ١٦٩) :

---

(٥٧٣) لأن العادة جرت فيمن يستحم ويخرج فيبرد أن تصيبه السخونة ، ثم العطف هنا يلزم منه التغاير عادة ؛ وبما أن الحمة هي اللدغة لفلا يليق التكرار ههنا ، فاقتضى أن تكون حمى بمعنى السخونة .

« هي التي من كلام الكفار والرقى المجهولة والتي بغير العربيةِ ، وما لا يُعْرَف معناها فهذه مذمومة لاحتمال أنَّ معناها كفر أو قريب منه أو مكروه ، وأما الرقى بآيات القرآن وبالأذكار المعروفة فلا نهي فيه بل هو سنة » .

قلت: ويدخل في الرُّقى المحرمة ما تحققنا أنها تحوي كلمات كفرية شركية من باب أولى . وإذا رقى الإنسان نفسه أو غيره بالقرآن أو بالأذكار فَيُسَنُّ أنْ ينفث (أي ينفخ) على كفّيه فيمسح بهما وجهه وما أقبل من بدنه أو على موضع الألم أو الداء وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة ، ففي صحيح البخاري (١٠/ ١٩٥) عن السيدة عائشة :« أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه المعوذات ، فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن ، وأمسح بيده نفسه لبركتها » وبهذا يتبين بأن الرُّقَى أمر مسنون مأثور عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وليست من الشرك في شيء إلا أنْ تكون بكلمات كفرية فتكون حراماً وشركاً .

وأما الرقى بكلمات لا يُدرى معناها وقد جُرِّبت منفعتها ففيها خلاف بين أهل العلم الراجح عندنا حسب الأحاديث التي تقدَّمت جوازها للأحاديث التي مرّت والتي منها « اعرضوا عليَّ ، رقاكم ... » لكن إنْ ظهر منها ما يوهم كفراً أو شركاً كانت محرمة لا تجوز بحال ويجب أنْ يعتقد الراقي والمرقي بأن النفع والضر من الله لا من ذات الكلمات المقروءة أو المكتوبة ، وتجوز الرُّقى بالكتابة وبالقراءة ، ولا ضير في ذلك والله الموفق .

[القضية الخامسة : التمائم والتِّوَلَة والوَدَعَة] :

روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « إنَّ الرقى والتمائم والتولة شرك »(٥٧٤) .

قال العلامة المُناوي في شرح هذا الحديث في « فيض القدير » (٢/ ٢٤٣) :

[**(إنَّ الرُّقى)** أي التي يُفهم معناها إلا التعوذ بالقرآن ونحوه فإنه محمود ممدوح **(والتمائم)** جمع تميمة وأصلها خرزات تُعَلِّقها العرب على رأس الولد

---

(٥٧٤) رواه احمد (١/ ٣٨١) وابو داود (٤/ ٩) وابن ماجه (٢/ ١١٦٧) وابن حبان (١٣/ ٤٥٦) والحاكم (٤/ ٢١٧و٤١٨) وهو صحيح .

لدفع العين توسعوا فيها فسموا بها كل عُوْذَة (**والتِّوَلَةُ**) بكسر التاء وفتح الواو كعنبة ما يُحَبِّبُ المرأةَ إلى الرجل من السِّحر (**شرك**) أي من الشرك سماها شركاً لأن المتعارف منها في عهده ما كان معهوداً في الجاهلية وكان مشتملاً على ما يتضمن الشرك ، أو لأن اتخاذها يدل على اعتقاد تأثيرها ويُفْضِي إلى الشِّرْك ذكره القاضي ، وقال الطيبي رحمه الله : المراد بالشرك اعتقاد أنَّ ذلك سبب قوي وله تأثير وذلك ينافي التوكل والانخراط في زمرة الذين لا يسترقون ولا يتطيَّرون وعلى ربهم يتوكلون ؛ لأنَّ العرب كانت تعتقد تأثيرها وتقصد بها دفع المقادير المكتوبة عليهم فطلبوا دفع الأذى من غير الله تعالى وهكذا كان اعتقاد الجاهلية فلا يدخل في ذلك ما كان بأسماء الله وكلامه ولا مَنْ علَّقها تبركاً بذكر الله عالماً أنه لا كاشف إلا الله فلا بأس به] انتهى . **قلت** : وهو كلام حسن جيد نفيس .

وعن عُقْبَة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « مَنْ علَّق تميمة فلا أتمَّ الله له ، ومَنْ علَّق وَدَعةً فلا وَدَعَ الله له » وهو حديث ضعيف مع صحة معناه(٥٧٥) .

وهناك خرزة تسميها العرب أُخْذَةً كانوا يعتقدون أنها تجعل الإنسان لا يحب إنساناً آخر أو تُفَرِّق بين الزوجين أو تجعل الرجل أو المرأة لا يتزوجان ، قال

---

(٥٧٥) رواه أحمد (٤/ ١٥٤) وأبو يعلى (٣/ ٢٩٦) وابن حبان (١٣/ ٤٥٠) والحاكم (٤/ ٢١٦) والبيهقي (٩/ ٣٥٠) والطبراني (١٧/ ٢٩٧) والطحاوي في « معاني الآثار » (٤/ ٣٢٥) وغيرهم من طريق خالد بن عبيد المعافري ولم يوثقه إلا ابن حبان كما لم يرو عنه إلا حيوة بن شريح ، ورواه خالد هذا عن مشرح بن هاعان عن عقبة بن عامر ومشرح ناصبي وهو علة الحديث حقيقة وأحاديثه عن عقبة مناكير ، قال الحافظ ابن حبان في كتاب « المجروحين » (٣/ ٢٨) : « مشرح بن هاعان .. يروي عن عقبة بن عامر ، أحاديث مناكير لا يتابع عليها .. والصواب في أمره ترك ما انفرد به من الروايات والاعتبار بما وافق الثقات » وقال الذهبي في « تارخ الإسلام » (٧/ ٤٧٠) : « كان على المنجنيق الذي رمى به الكعبة » في جيش الحجاج اللعين الملعون الكافر .

والحجاج كافر مرتد عن دين الإسلام كما صرَّح بذلك جماعة من أئمة السلف كما ذكر الحافظ ابن حجر في « تهذيب التهذيب » (٢/ ١٨٥) وممن صرَّح بكفره هناك : سعيد بن جبير والنخعي ومجاهد وعاصم بن أبي النجود والشعبي ، فلا تغفل عن هذا الأمر في هذا اللعين ، ويحاول النواصب بين الحين والآخر إظهاره بمظهرٍ حسن ويدّعون بأنه مظلوم ومفترى عليه فلا حياهم الله ولا بياهم .

صاحب المثلثات :

ومـرَّةُ الأخـذ تسـمَّى أخـذَهْ　　وحفـرةٌ كـالحوض تلـك إخـذه
والسحر في منع النكـاح أُخْـذَهْ　　خـرزة تمنـع حـب الغـير

ومما يجدر التنبيه عليه هنا مما يدخل في التمائم المحرمة المنهي عنها تعليق حذوة حصان أو تمثالها في البيت أو السيارة ، وكذلك تعليق الحذاء على السيارة ، وكذلك الخرزة الزرقاء ، فكل ذلك منهي عنه في الشرع ومحرّم ، إلا إذا وجدت خرزة زرقاء مثلاً في عقد أو شيء آخر بقصد الزينة لا بقصد دفع الحسد والعين ، وليتعوّد الإنسان كل يوم على التعوذ بشيء من القرآن والذِّكْر كسورتي المعوذتين وغيرهما مما مرَّ في الرُّقَى وكذلك يعوِّذ أهله وأولاده وغيرهم بذلك ، والله الموفق .

[القضية السادسة النُّشْرَةُ] :

قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١٠/٢٣٣) : « قال ابن الجوزي : النُّشْرَة حَلُّ السحر عن المسحور ، ولا يكاد يقدر عليه إلا مَنْ يعرف السحر . وقد سئل أحمد عمن يطلق السحر عن المسحور فقال : لا بأس به وهذا هو المعتمد .

ويجاب عن الحديث والأثر بأن قوله « النشرة من عمل الشيطان » إشارة إلى أصلها ، ويختلف الحكم بالقصد ، فمن قصد بها خيراً كان خيراً وإلا فهو شر ، ثم الحصر المنقول عن الحسن ليس على ظاهره لأنه قد ينحل بالرقى والأدعية والتعويذ ، ولكن يحتمل أنْ تكون النشرة نوعين » .

وقال البخاري في صحيحه (١٠/٢٣٢) :

[بَاب هَلْ يَسْتَخْرِجُ السِّحْرَ ؟ وَقَالَ قَتَادَةُ : قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ : رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ (أي سحر) أَوْ يُؤَخَّذُ عَنِ امْرَأَتِهِ أَيحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنَشَّرُ ؟ قَالَ لا بَأْسَ بِهِ إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلاحَ فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ] .

قال الحافظ ابن حجر هناك :

[وصله أبو بكر الأثرم في « كتاب السنن » .. عن قتادة (أي سأل سعيداً) بلفظ (هل) : « يُلْتَمَسُ مَنْ يداويه ؛ فقال : إنما نهى الله عما يضر ولم ينه عما

ينفع » وأخرجه الطبري في « التهذيب » ، من طريق يزيد بن زريع عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يرى بأساً إذا كان بالرجل سِحْرٌ أنْ يمشي إلى مَنْ يطلق عنه فقال : هو صلاح . قال قتادة : وكان الحسن يكره ذلك يقول : لا يَعْلَمُ ذلك إلا ساحر ، قال : فقال سعيد بن المسيب : إنما نهى الله عما يضر ولم ينه عما ينفع . وقد أخرج أبو داود في « المراسيل » عن الحسن رفعه « النشرة من عمل الشيطان » ووصله أحمد وأبو داود بسند حسن عن جابر] .

[القضية السابعة : التَّطيُّر أو الطِّيَرَةُ والتشاؤم] :

التطير هو التشاؤم من الشُؤْم ، قال تعالى ﴿ **قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم** ﴾ وقال تعالى عن ثمود لما لقالوا لسيدنا صالح عليه السلام ﴿ **قالوا اطَّيَّرْنا بك وبمن معك ، قال طائركم عند الله ، بل أنتم قوم تُفتنون** ﴾ النمل : ٤٧ .

وقال سبحانه عن بني إسرائيل : ﴿ **فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطَّيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ الأعراف : ١٣١ .

بيَّن الله سبحانه وتعالى أنَّ التشاؤم من عادات المشركين الذين كانوا يتشاءمون من أنبياء الله تعالى ورسله وعباده الصالحين الذين يدعونهم للإيمان والهداية ولِمَا فيه مصلحتهم وطاعة خالقهم فيأبون ويقولون إنا تشاءمنا منكم ، فردَّ الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله ﴿ **ألا إنما طائرهم عند الله** ﴾ أي الضر الذي أصابكم ليس من عند مَنْ تتشاءمون بهم من الأنبياء والصالحين وإنما هو من الله لأنه سبحانه وتعالى هو الضار والنافع وهو الذي يأتيكم بالعذاب حيث اتَّهَمْتُم الرسل والصالحين من عباده بأنهم مشؤومون .

وأصل الطِّيَرَة أنَّ العرب كانوا في جاهليتهم إذا أراد الرجل منهم أنْ يفعل شيئاً ذهب إلى مكامن الطير وطيَّرها من أماكنها فإذا طارت لجهة اليمين فعل ذلك الأمر الذي عزم عليه وإن طارت فذهبت إلى جهة الشمال لم يفعل .

وفي صحيح مسلم (٤/١٧٤٦) عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« لا عدوى ولا طِيَرَة وأُحِبُّ الفألَ الصالح » .

وعن سيدنا ابن عباس رضوان الله تعالى عليهما أنْ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كان يتفاءل ولا يتطيَّر ، وكان يحب الاسم الحسن »(٥٧٦) .

قال الشيخ العلامة المُناوي في « فيض القدير » (٥/ ٢٠٢) شارحاً هذا الحديث : [« **كان يتفاءل** ») بالهمز أي إذا سمع كلمة حسنة تأولها على معنى يوافقها (**ولا يتطيَّر**) أي لا يتشاءم بشيء كما كانت الجاهلية تفعله من تفريق الطير من أماكنها فإن ذهبت إلى الشمال تشاءموا ، وذلك لأن مَنْ تفاءل فقد فهم خيراً وإن غلط في جهة الرجاء ومَنْ تَطَيَّر فقد أساء الظن بربه (**وكان يحب الاسم الحسن**) وليس هو من معاني التطير بل هو كراهة الكلمة القبيحة نفسها لا لخوف وراءها كرجل سمع لفظ خَنَا فكرهه وإن لم يَخَف على نفسه منه شيئاً ذكره الحَلِيمي] انتهى .

أقول : ويستحب لِمَنْ تطير من شيء أنْ يقول : اللهم لا خَيْرَ إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك .

فقد ورد هذا في حديث رواه أحمد في المسند (٢/ ٢٢٠) بسند فيه ضَعْف ، يُعْمَل به في الفضائل .

وأما حديث الصحيحين : « لا عدوى(٥٧٧) ولا طِيَرَة ، وإنما الشؤم في ثلاثة : في المرأة والدار والفرس » البخاري (١٠/ ٢١٢) ومسلم (٤/ ١٧٤٧) من حديث ابن عمر فغير مُسَلَّم ولا يصح على التحقيق من وجوه : **(الأوّل)** : أنَّ السيدة عائشة أنكرت هذا وإليك ذاك : روى أبو داود الطيالسي (ص ٢١٥) عن مكحول قيل لعائشة إنَّ أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

---

(٥٧٦) رواه أحمد (١/ ٢٥٧) والطيالسي (٢٦٩٠) وفي إسناده ليث بن أبي سُلَيم وهو ضعيف ، وقد روى هذا الحديث ابن حبان في صحيحه (١٣/ ١٤٠) وسقط من إسناده ليث هذا والراوي عنه وهو جرير لا تُعرف له رواية عن عبد الملك بن سعيد شيخ ليث !! فلم يعرف ذلك متناقض عصرنا !! لذا صححه في صحيحته (٢/ ٤٢١) فأخطأ جداً !!

(٥٧٧) الصحيح أن هناك عدوى وقد ثبت ذلك طبياً وهذا كاف لبيان بطلان هذا الحديث .

« الشؤم في ثلاث في الدار والمرأة والفرس » فقالت عائشة : لم يحفظ أبو هريرة لأنه دخل ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « قاتل الله اليهود يقولون إنَّ الشؤم في ثلاث في الدار والمرأة والفرس » سمع آخر الحديث ولم يسمع أوله .

وقال الحافظ في « الفتح » (٦/ ٦١) : [وروى أحمد وابن خزيمة والحاكم من طريق قتادة عن أبي حسان : أنَّ رجلين من بني عامر دخلا على عائشة فقالا : إنَّ أبا هريرة قال : إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الطِيَرَة في الفرس والمرأة والدار » فغضبت غضباً شديداً وقالت : ما قاله ! وإنما قال : « إنَّ أهل الجاهلية كانوا يتطيرون من ذلك »] .

(**الوجه الثاني**) : الأصل في ذلك أنه لا طيرة في الإسلام من شيء ، وإنما المشؤوم العمل السيىء الطالح الذي يَجُرُّ صاحبه إلى النار والعياذ بالله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ **قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم أءِن ذُكِّرْتُمْ بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ يس : ١٩ ، وجاء في الحديث الصحيح أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الطيرة شرك »(٥٧٨) لذلك ردّت السيدة عائشة رضي الله عنها ذلك ، وظهر لنا بردّها أنَّ الراوي لخبر الآحاد ولو كان في أعلى مراتب التوثيق كأبي هريرة الصحابي فإن خبره يفيد الظن ولا يفيد العلم لجواز خطئه وغير ذلك ، ولذلك جاز رَدُّهُ خلافاً للآية والخبر المتواتر .

[القضية الثامنة : الحكم بغير ما أنزل الله تعالى] :

يظن بعض الناس في هذه الأيام أنَّ الحكم بغير ما أنزل الله تعالى ولو في قضية واحدة كفر وشرك وخروج عن الملة وليس الأمر كذلك بل في المسألة تفصيل وهو : أنَّ مَنْ حكم بغير ما أنزل الله تعالى وهو يعتقد بأن الأحكام الوضعية أفضل من أحكام الله تعالى أو تساوي حكم الله تعالى كان كافراً مرتداً .

وأما مَنْ حَكَم بغير ما أنزل الله تعالى وهو يعتقد بأن حكم الله تعالى هو الأفضل مستشعراً أنه عاص مذنب فيما قام به فهو معصية وفسق وليس كفراً ،

---

(٥٧٨) رواه أبو داود (٤/ ١٧) ، والترمذي (٤/ ١٦١) ، وابن حبان (١٣/ ٤٩١) ، وغيرهم ، وهو صحيح .

وهذا مثل مَنْ يشرب الخمر أو يزني مثلاً فإنْ كان مستحلاً لذلك فهو كافر وإن كان معتقداً أنه مخالف لأمر الله تعالى وعاص بفعله فهو فاسق ليس كافراً ، وتقدَّمت القاعدة المعروفة عند أهل السنة والجماعة أننا لا نُكَفِّر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ، فإن استحلَّه كفَّرناه .

وعلى هذا التفصيل يُحمل قوله جل وعز في آية ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأُولئك هم الكافرون** ﴾ المائدة : ٤٤ وفي آية أخرى ﴿ **ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله فأُولئك هم الفاسقون** ﴾ المائدة : ٤٧ وفي آيةٍ ثالثة ﴿ **ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ المائدة : ٤٥ . قال الإمام القرطبي في « أحكام القرآن » (٦/ ١٩٠) :

[قوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأُولئك هم الكافرون** ﴾ و ﴿ الظالمون ﴾ و ﴿الفاسقون ﴾ نزلت كلها في الكفار ؛ ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث البراء ، وقد تقدَّم . وعلى هذا المُعْظَم . **فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة** . وقيل : فيه إضمار ؛ أي ومن لم يحكم بما أنزل الله رداً للقرآن وجحداً لقول الرسول عليه الصلاة والسلام فهو كافر ؛ قاله ابن عباس ومجاهد ، فالآية عامة على هذا . قال ابن مسعود والحسن : هي عامة في كل مَنْ لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار أي معتقداً ذلك ومستحلاً له ؛ فأما من فعل ذلك وهو معتقد أنه راكبُ مُحَرَّمٍ فهو من فساق المسلمين ، وأمره إلى الله تعالى إنْ شاء عَذَّبه ، وإن شاء غفر له] انتهى .

خاتمة لموضوع الشرك

أعاذنا الله تعالى منه وتوفانا على الإيمان الكامل وعلى كلمة / لا إله إلا الله /

والغريب العجيب أننا نرى في هذه الأيام أنَّ بعض الناس يرمون مَنْ يقوم ببعض الأمور الجائزة بالشِّرك والكفر بدون إدراكٍ وتمييز ، ويتركون الشِّرْك والكفر الحقيقي فلا يبينونه بل يستحبونه ويدعون الناس إليه !!

فمثلاً نرى مَنْ يتَّهِمُ زائري الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين يستقبلون الحجرة المشرَّفة ويدعون الله تعالى رافعين أيديهم بأنهم مشركون ، ويتركون مَنْ يدعو إلى تجسيم الله تعالى وتشبيهه بخلقه يكتب ويصنف ويدرِّس دون أنْ يبيِّنوا كفره وارتداده وضلاله وإلحاده !! ولا أدل على ذلك مِنْ سكوتهم على مَنْ صنَّف كتاب « عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن » بل تقريظهم لكتابه وإقرارهم له في هذيانه !!

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى :

(فهذا جملة ما يحتاج إليه مَنْ هو منوَّرٌ قلبه مِنِ أولياء الله تعالى وهي درجة الراسخين في العلم . فهذا ديننا واعتقادنا ظاهراً وباطناً ونحن برآء إلى الله من كل ما خالف الذي ذكرناه وبيناه ، ونسأل الله تعالى أنْ يثبتنا على الإيمان ويختم لنا به ويعصمنا من الأهواء المختلفة والآراء المتفرِّقة والمذاهب الردية مثل المشبهة والمعتزلة والجهمية والجبرية والقدرية وغيرهم من الذين خالفوا السنة والجماعة وحالفوا الضلالة ، ونحن منهم برآء وهم عندنا ضُلَّال وأردياء ؛ اللهم يا ولي الإسلام وأهله ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به ، وبالله العصمة والتوفيق) .

الشرح : في كلام المصنف هذا ما هو مقبول وما هو مردود وليس بصحيح ولا

نوافقه عليه !!

معنى كلام المصنّف : أنَّ ما هو مذكور هنا سواء كان من أصول العقيدة أو من فروعها المختلف فيها يجب على كل مسلم عاقل بالغ أنْ يعتقده إنْ كان أصلاً وأن يتمسك بالصحيح الراجح إنْ كان فرعاً ، وهذه المسائل إذا تعلّمها المسلم وعرفها كان من عباد الله المؤمنين الذين نور الله عقولهم وقلوبهم بنور الإيمان والإسلام ، ولا يمكن أنْ يُسَمَّى الإنسان منوَّر القلب قبل معرفته بعقيدته لأن الجهل ظلمات والعلم نور .

ثم ذكر المصنّف رحمه الله تعالى أنْ ذلك ؛ أي الجزم بعقيدة أهل الحق يوجب الولاء والبراء ؛ أي موالاة أهل الحق المنزّهين والتبري من أهل الكفر والإلحاد والمبتدعين ؛ ثم مَثَّلَ على أهل البدعة بطوائف أصاب في بعضها ولم يصب في البعض الآخر فقوله (المشبهة والجبرية) أصاب في التمثيل بها ؛ وأما المعتزلة والقدرية الذين يرميهم المشبهة وبعض المنخدعين بهم بالجهمية فلم يصب في ذمهم والتمثيل بهم على المبتدعة لأنهم لا يخالفون المذهب الحق في أصول الاعتقاد وإنما يخالفون أهل السنة في مسائل فرعية والصواب فيها أحياناً بجانبهم كما تقدّم شرح ذلك في فصول مختلفة من هذا الكتاب ، فنحن نعتقد ضلال المشبهة والمجسمة والكرامية وغيرهم ولا نرى ضلال المعتزلة والإباضية والزيدية والشيعة مع أنه يوجد في كل طائفة من هذا الطوائف مغالون شاذون كما يوجد ذلك في أهل السنة أيضاً ! فلا التفات لهم ولا تعويل عليهم ، والله تعالى الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل .

انتهى الكتاب بحمد الله تعالى

متن العقيدة الطحاوية

ملاحظة

وضعنا كل فقرة في المتن بين قوسين وذكرنا بعدها مباشرة وقبل إقفال القوس الثاني موضعها في الشرح ببيان رقم الصحيفة نحو المثال التالي :

[قديم بلا ابتداء ٢٥٣]

فعبارة (قديم بلا ابتداء) مشروحة أو موجودة في هذا الشرح صحيفة ٢٥٣ وما بعدها ، فهذا نوع من أنواع الفهرسة أيضاً .

بسم الله الرحمن الرحيم

متن العقيدة الطحاوية

هذا ذكر بيان عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملّة : أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري ، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني رضوان الله عليهم أجمعين ، وما يعتقدون من أصول الدين ويدينون به رب العالمين .

[نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله ٣٧] [أنْ الله واحد لا شريك له ٢٣٢] ، [ولا شيء مثله ٢٥٤] ، [ولا شيء يعجزه ٢٦١] ، [ولا إله غيره ٢٢٣] ، [قديم بلا ابتداء ٢٤٧] ، [دائم بلا انتهاء ، لا يفنى ولا يبيد ٢٥١] ، [ولا يكون إلا ما يريد ٢٦١] ، [لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام ، ولا يشبه الأنام ٢٥٤] ، [حي لا يموت ٢٩٠] ، [قيوم لا ينام ٢٥٢] ، [خالق بلا حاجة ٢٥٥] ، [رازق بلا مؤنة ٢٥٨] ، [مميت بلا مخافة ٢٦١و٤٦٨] ، [باعث بلا مشقة ٢٦١و٥٢٢] ، [ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه ٢٤٧و٢٥٧] [لم يزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته ٢٥٣و٢٥٧] ، [وكما كان بصفاته أزلياً كذلك لا يزال عليها أبدياً ٢٥١و٢٥٧] .

[ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق ، ولا بإحداث البرية استفاد اسم الباري ٢٥٥و٢٥٧] ، [له معنى الربوبية ولا مربوب ، ومعنى الخالق ولا مخلوق ٢٤٧و٢٥٠و٢٥٧] ، [وكما أنه محيي الموتى بعدما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم ، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم ٢٥٥و٢٥٧] ، [ذلك بأنه على كل شيء قدير ٢٦١] ، [وكل شيء إليه فقير ٢٥٣] ، [وكل أمر عليه يسير ٢٦١] ، [لا يحتاج إلى شيء ٢٥٣] . [**﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾** ٢٥٩ و ٢٨٢] .

[خلق الخلق بعلمه ٢٨٧] ، [وقدَّر لهم أقداراً ، وضرب لهم آجالاً ٢٥٨] ، [ولم يخف عليه شيء قبل أنْ يخلقهم وعلم ما هم عاملون قبل أنْ

يخلقهم ٢٨٧] ، [وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته ، وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته ، ومشيئته تنفذ ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم ، فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن ، يهدي مَنْ يشاء ويعصم ويعافي فضلاً ، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلاً ، وكلهم يتقلّبون في مشيئته بين فضله وعدله ٢٦١ و ٢٦٩] .

[وهو متعال عن الأضداد والأنداد ٢٥٤] ، [لا راد لقضائه ، ولا معقّب لِحُكْمه ، ولا غالب لأمره ، آمنا بذلك كله ، وأيقنًا أنَّ كلاً من عنده ٢٦١و٢٧٠] .

[وأن محمداً عبده المصطفى ونبيه المجتبى ، ورسوله المرتضى ، وأنه خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء ، وسيد المرسلين وحبيب رب العالمين ٤١٩] ، [وكل دعوى النبوّة بعده فغي وهوى ٦٨٤] ، [(وهو المبعوث إلى عامة الجن ٤٥٢) وكافة الورى بالحق والهدى ، وبالنور والضيا ٤١٩] .

[وأن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً ، وأنزله على رسوله وحياً ، وصدّقه المؤمنون على ذلك حقاً ، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ، ليس بمخلوق ككلام البرية ، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر ، حيث قال تعالى **(سأصليه سَقَر) فلما** أوعد الله بسقر لمن قال : ﴿ **إنْ هذا إلا قول البشر** ﴾ علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر ٢٩٣] .

[ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر ، فمن أبصر هذا اعتبر وعن مثل قول الكفار انزجر ، وعلم أنه بصفاته ليس كالبشر ٣١٣ و٦٧٣] .

[والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنا ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة** ﴾ وتفسيره على ما أراده الله تعالى وعَلِمَهُ ٥٨٢] ، [وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهو كما قال ، ومعناه على ما أراد ، لا نَدْخُلُ في ذلك متأوّلين بآرائنا ، ولا متوهمين بأهوائنا ، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلّم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وردّ علم ما اشتبه عليه إلى عالمه ١٥٥] .

[ولا تثبت قَدَم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام ، فمن رام علم ما

حظر علمه ولم يقنع بالتسليم فهمه حجبه مرامه عن خالص التوحيد وصافي المعرفة وصحيح الإيمان ، فيتذبذب بين الكفر والإيمان والتصديق والتكذيب والإقرار والإنكار موسوساً تائها شاكاً ، لا مؤمنا مصدّقاً ولا جاحداً مُكذّباً ٢٣] .

[ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم أو تأولها بفهم ٥٨٢] ، [إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية بترك التأويل ولزوم التسليم ، وعليه دين المسلمين ١٣٨] ، [ومن لم يتوقَّ النفي والتشبيه زلَّ ولم يصب التنزيه ٣٦١] ، [فإنَّ ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية ، منعوت بنعوت الفردانية ، ليس في معناه أحد من البرية ، تعالى عن الحدود والغايات ، والأركان والأعضاء والأدوات ، (لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات ٢٤٢) ٣١٨] .

[والمعراج حق ، وقد أُسرِيَ بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وعُرِجَ بشخصه في اليقظة إلى السماء ، ثم إلى حيث شاء الله من العلا ، وأكرمه الله بما شاء ، وأوحى إليه ما أوحى ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾ فصلى الله عليه وسلم في الآخرة والأولى ٥٩٣] .

[والحوض الذي أكرمه الله تعالى به غياثاً لأمته حق ٥٦٠] ، [والشفاعة التي ادَّخرها لهم حقّ ، كما روي في الأخبار ٥٦٨] ، [والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق ٦٠٥] ، [وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد مَنْ يدخل الجنة وعدد مَنْ يدخل النار جملة واحدة ، فلا يزاد في ذلك العدد ولا ينقص منه ، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أنْ يفعلوه ٢٨٧] ، [وكلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلِقَ له ، والأعمال بالخواتيم ، والسعيد مَنْ سُعِدَ بقضاء الله ، والشقي مَنْ شقي بقضاء الله ، وأصل القَدَر سِرُّ الله تعالى في خلقه ، لم يطّلع على ذلك مَلَك مُقَرَّب ولا نبي مُرْسَل ، والتعمق والنَّظَر في ذلك ذريعة الخذلان وسُلَّم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه ، كما قال تعالى في كتابه ﴿ **لا يُسْئَلُ عما يفعل وهم يسألون** ﴾ فمَنْ سأل لِمَ فَعَلَ ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن ردَّ حكم الكتاب كان

من الكافرين ٢٦١] .

[فهذا جملة ما يحتاج إليه مَنْ هو منوَّر قلبه من أولياء الله تعالى وهي درجة الراسخين في العلم ٧٣٧] ، [لأن العلم علمان : علم في الخلق موجود وعلم في الخلق مفقود ، فإنكار العلم الموجود كفر ، وادّعاء العلم المفقود كفر ، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود ، وترك طلب العلم المفقود ٦٧٣] .

[ونؤمن باللوح والقلم وبجميع ما فيه قد رَقَم ٤٣٥] ، [فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه ، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ليجعلوه كائناً لم يقدروا عليه ، جفَّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، وعلى العبد أنْ يعلم أنَّ الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه فقدَّر ذلك تقديراً محكماً مُبْرَمَاً ، ليس فيه ناقض ولا مُعَقِّبٌ ولا مزيل ولا مغير ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه ، وذلك من عَقْد الإيمان وأصول المعرفة ، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته ، كما قال تعالى في كتابه ﴿ **وخلق كل شيء فقدَّره تقديراً** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وكان أمر الله قَدَراً مقْدوراً** ﴾ ، فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً ، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً ، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً ، وعاد بما قال فيه أفَّاكاً أثيماً ٢٦٢] .

(والعرش والكرسي حق ، [وهو مُسْتَغْنٍ عن العرش وما دونه ، محيط بكل شيء وبما فوقه ٤٣٥) ، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه ٣١٨] .

[ونقول : إنَّ الله اتخذ إبراهيم خليلاً ، وكلَّم الله موسى تكليماً ، إيماناً وتصديقاً وتسليماً ، (ونؤمن بالملائكة والنبيين ، والكتب المنزلة على المرسلين ٣٨٥،٤٥٠) ، ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين ٣٩٨] .

[ونسمّي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم معترفين ، وله بكل ما قاله وأخبر مصدّقين ، (ولا نخوض في الله ، ولا نماري في دين الله ٦٧٣و٧٩٧) ٧٠٣] ، [ولا نُجادل في القرآن ، ونشهد أنه كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين ، فعلَّمه سيد المرسلين محمداً صلى الله عليه وآله

وسلم ، وهو كلام الله تعالى لا يساويه شيء من كلام المخلوقين ولا نقول بخلقه ٢٩٣] .

[ولا نخالف جماعة المسلمين ١٧٤] ، [ولا نُكَفِّر أحداً من أهل القبلة بِذَنْب ، ما لم يستحلّه ٧٠٣] ، [ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله ، (ونرجو للمحسنين من المؤمنين أنْ يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ، ولا نأمن عليهم ، ولا نشهد لهم بالجنة ، ونستغفر لمسيئهم ونخاف عليهم ولا نُقَنِّطُهم ٥٦٨) ٤٦٤] ، [والأمن والإياس ينقلان عن ملّة الإسلام ، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة ٦٧٣] ، [ولا يَخْرُجُ العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه ٦٧٣] .

[والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجَنَان ، وأن جميع ما أنزل الله في القرآن وجميع ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الشرع والبيان كله حق ، (والإيمان واحد ، وأهله في أصله سواء ، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى ، وملازمة الأولى ٨٩) ٣٧] ، [والمؤمنون كلّهم أولياء الرحمن ، وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن ٦١٤] ، [والإيمان هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه وحلوه ومرّه من الله تعالى ، ونحن مؤمنون بذلك كله ٣٧] ، [لا نفرّق بين أحد من رسله ونصدّقهم كلّهم على ما جاؤوا به ٣٩٨] .

[وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحّدون وإن لم يكونوا تائبين بعد أنْ لقوا الله عارفين مؤمنين ، وهم في مشيئته وحُكْمه إنْ شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله ، كما ذكر عز وجل في كتابه ﴿ **ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ وإن شاء عذّبهم في النار بعدله ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ثم يبعثهم إلى جنته ، وذلك بأن الله تعالى تولّى أهل معرفته ولم يجعلهم في الدارين كأهل نُكْرَته الذين خابوا من هدايته ولم ينالوا من ولايته ٥٧٨] ، [اللهم يا ولي الإسلام وأهله ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به ٧٣٧] .

[ونرى الصلاة خلف كلِّ بَرٍّ وفاجر من أهل القبلة وعلى من مات منهم

٦٣٣] ، [ولا نُنْزِلُ أحداً منهم جنة ولا ناراً ، ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق ما لم يَظْهَر منهم شيء من ذلك ، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى ٦٧٣] ، [ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا مَنْ وجب عليه السيف ، ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ، ولا ندعوا عليهم ، ولا ننزع يداً من طاعتهم ، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية ، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة ٦٣٣] ، [(ونتَّبع السُّنَّة ١١٤) والجماعة ، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة ١٧٤] ، [ونحب أهل العدل والأمانة ، ونبغض أهل الجور والخيانة ٦٤١] ، [ونقول : الله أعلم فيما اشتبه علينا علمه ١٥٣] ، [ونرى المسح على الخفين في السفر والحضر كما جاء في الأثر ٦٤٣] .

[والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين بَرُّهم وفاجرهم إلى قيام الساعة لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما ٦٥١] ، [ونؤمن بالكرام الكاتبين فإن الله قد جعلهم علينا حافظين ، ونؤمن بمَلَك الموت الموكَّل بقبض أرواح العالمين ٣٨٥] ، [وبعذاب القبر لمن كان له أهلاً ، وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه ، على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن الصحابة رضوان الله عليهم ، والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران ٤٦٤] .

[ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة ، والعرض ، والحساب وقراءة الكتاب ، والثواب ، والعقاب ، (والصراط ٥٣٨) ، (والميزان ٥٣٥) ، (والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان ٥٧٥) ٥٢٢] ، [وأن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق ، وخلق لهما أهلاً ، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه ، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه ٥٧٥] ، [وكلٌّ يعمل لما قد فُرِغ له ، وصائر إلى ما خُلِق له ، والخير والشر مقدّران على العباد ، والاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يجوز أنْ يوصف المخلوق به فهي مع الفعل ، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل وبها

يتعلّق الخطاب ، وهو كما قال تعالى ﴿ **لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ .

(وأفعال العباد هي بخلق الله وكسب من العباد ٢٨١) ، ولم يُكَلّفهم الله تعالى إلا ما يطيقون ولا يطيقون إلا ما كلّفهم وهو تفسير : لا حول ولا قوّة إلا بالله ، نقول لا حيلة لأحد ولا حركة لأحدٍ ولا تحوّلٍ عن معصية الله إلا بمعونة الله ، ولا قوّة لأحدٍ على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلّا بتوفيق الله ، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره ، غلبت مشيئته المشيئات كلها ، وغلب قضاؤه الحِيَلَ كلها ، يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبداً ٢٦٢] ، [تقدّس عن كل سوء وحَيْن ، وتَنَزَّه عن كل عيب وشين ، ﴿ **لا يُسْئَلُ عما يفعل وهم يسئلون** ﴾ ٣١٣] .

[وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات ٥٠٢] ، [والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات ٢٨٥] ، [ويملك كل شيء ولا يملكه شيء ، ولا غنى عن الله تعالى طَرْفَةَ عين ٢٥٣] ، [ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من أهل الحَيْن ٦٧٣] ، [والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى ٣٠٨] .

[ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا نفرِّطُ في حُبِّ أحدٍ منهم ، ولا نتبرأ من أحد منهم ونبغض مَنْ يبغضهم وبغير الخير يذكرهم ولا نذكرهم إلا بخير ، وحبهم دين وإيمان وإحسان ، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان .

ونثبت الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوّلاً لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه ، تفضيلاً له وتقديماً على جميع الأمة ، ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثم لعثمان رضي الله عنه ، ثم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون ، وأن العشرة الذين سمّاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقوله الحق وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وسعيد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة بن الجرّاح وهو أمين هذه الأمة ، رضي الله عنهم أجمعين ٦٥٣] . [ومَنْ أحسن القول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأزواجه

الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدّسين من كل رجس فقد بريئ من النفاق ٦٥٦] ، [وعلماء السلف من السابقين ومَنْ بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر ، وأهل الفقه والنظر لا يُذْكرون إلا بالجميل ، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل ٦٧١] .

[ولا نفضّل أحداً من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام ، ونقول : نبي واحد أفضل من جميع الأولياء ، ونؤمن بما جاء من كراماتهم وصح عن الثقات من رواياتهم ٦١٤] .

[ونؤمن بأشراط الساعة من خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء ، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها ، وخروج دابّة الأرض من موضعها ٥٠٦] ، [ولا نصدّق كاهناً ولا عرّافاً ٤٥٨] ، [ولا مَنْ يدّعي شيئاً يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة ٧٠٨] ، [ونرى الجماعة حقاً وصواباً والفرقة زيغاً وعذاباً ٦٢٢] ، [ودين الله في الأرض والسماء واحد وهو دين الإسلام ، قال الله تعالى ﴿ **إنَّ الدين عند الله الإسلام** ﴾ **وقال تعالى** ﴿ **ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ ٩٣] ، [وهو بين الغلو والتقصير ، وبين التشبيه والتعطيل ٣١٣] ، [وبين الجبر والقَدَر ، وبين الأمن والإياس ٢٦٢و٢٧٩] .

[فهذا ديننا واعتقادنا ظاهراً وباطناً ، ونحن بُرَآءٌ إلى الله من كل مَنْ خالف الذي ذكرناه وبيّناه ، ونسأل الله تعالى أنْ يثبتنا على الإيمان ويختم لنا به ، ويعصمنا من الأهواء المختلفة والآراء المتفرّقة والمذاهب الرَّدِية ، مثل المشبهة والمعتزلة والجهمية والجبرية والقدرية وغيرهم من الذين خالفوا السنة والجماعة ، وحالفوا الضلالة ، ونحن منهم بُرآءُ ، وهم عندنا ضُلاّل وأردياء ، وبالله العصمة والتوفيق ٧٣٧] .

فهرس الكتاب

الموضوع رقم الصفحة
نسب مؤلف الكتاب السيد حسن السقاف ٥
مقدمة الكتاب ٧
تمهيد ومقدمة في الحث على الخلق الحسن ١٠
ترجمة مختصرة للإمام الطحاوي وسيرته ١٤
عقيدة الطحاوي ١٥
الإسناد إلى الإمام الطحاوي ١٧
فصل في مناقشة ما قاله الحافظ السبكي عن الطحاوي وعقيدته ١٨
تلقي الأمة لكتاب لا يعني أن كل ما فيه صحيحاً ٢٢
فصل في مميزات شخصية المسلم ونظرة الإسلام إلى الكون والإنسان والحياة ٢٣
كلام السيد الزمزمي ابن الصديق في حال أكثر الناس اليوم وإعراضهم عن الشرع ٢٦
فصل في تحريم تتبع رخص العلماء والإفتاء بالأهون والأسهل ٣٠
قواعد وأصول في العقيدة ٣٥
علم التوحيد تعريفه وأهميته وموضوعه ٣٧
فصل في بيان أن علم التوحيد أشرف العلوم ووجوب تعلمه وتعليمه ٤١
بيان ان كل علم يكون الكلام عليه من عشرة أوجه : الحد والموضوع والثمرة ٤٢
من هو واضع علم التوحيد ٤٣
تكملة في كلام بعض العلماء فيما يتعلق بمعنى التوحيد وتعريفه ٤٥
فصل في بيان معنى علم الكلام وحكم تعلمه وتعليمه ٤٩
إيضاح مسألة ذم بعض السلف لعلم الكلام وبيان أنه محمود وليس مذموماً ٤٩
المجسمة وضعوا كتابين على الشافعي وهما (عقيدة الشافعي) و (وصية الشافعي) ٥٤
فصل في مناقشة رجوع بعض الأئمة عن علم الكلام ٥٥
بعض من زعموا أنه رجع عن عقيدته : الأول : إمام الحرمين رحمه الله تعالى ٥٧

الثاني : الفخر الرازي رحمه الله تعالى ٦٥
الثالث : الآمدي رحمه الله تعالى ٦٨
بطلان وكذب قصة الجعد بن درهم ودعوى أن خالد القسري الناصبي ضحى به ٦٨
الرابع : الأشعري والكلام فيه ٧٠
فصل في المكلف والتكليف وما يتعلق بهما ٧١
حكم أهل الفترة ونجاتهم وعدم تكليفهم ٧٧
والدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ناجيان لأنهما من أهل الفترة ٧٩
فصل في الأحاديث الشاذة المردودة التي وردت في عدم نجاة والديه الكريمين ٨٠
شذوذ حديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم أُذِن له في زيارة قبر أمه دون أن يستغفر لها ٨٠
شذوذ حديث إن أبي وأباك في النار ٨١
أخبار أخرى شاذة في عدم نجاة أهل الفترة مع مناقشتها (حديث أربعة يحتجون) ٨٢
فصل في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه ٩٠
لقب الإسلام خاص بهذه الأمة دون غيرها ٩٣
تنبيه : لا يقال الأديان السماوية وإنما يقال الشرائع السماوية ٩٧
فصل في بيان بطلان تقسيم التوحيد إلى ألوهية وربوبية وأسماء وصفات ٩٨
بيان أن من اعترف بوجود الله تعالى ولم يوحده ويذعن له لا يعد مسلماً ولا مؤمناً ١٠٥
فصل في بطلان القسم الثالث من التوحيد عند المبتدعة وهو الأسماء والصفات ١٠٧
فصل في أدلة التوحيد / الدليل الأول القرآن ١١٠
قاعدة : في كيفية التمييز بين أصول العقائد وفروع العقائد ١١٣
الدليل الثاني السنة النبوية ١١٤
فصل إثبات أن خبر الواحد يفيد الظن ولا يفيد العلم ١١٦
دحض استدلال من زعم أن خبر الواحد يفيد العلم بقصة إرسال سيدنا معاذ لليمن ١١٩
دحض استدلالهم بقصة إرسال سيدنا مصعب لأهل المدينة قبل الهجرة ١٢٠
فرع : نص الرسول على أن حديث الآحاد لا يفيد العلم ١٢٣

فرع : رد الصحابة بعض أحاديث الآحاد الثابتة واستيثاقهم منها ١٢٤

رد السيدة عائشة لحديث تعذيب الميت ببكاء أهله ١٢٥

ردها لحديث الرؤية ليلة الإسراء ١٢٦

ردها لحديث دخلت امرأة النار في هرة ١٢٧

ردها لحديث الشؤم في المرأة والدار والفرس ١٢٧

خبر الواحد يفيد الظن عند أبي بكر الصديق ١٢٨

خبر الواحد يفيد الظن عند عمر بن الخطاب ١٢٩

خبر الواحد يفيد الظن ولا يفيد العلم عند أئمة السلف ١٣١

فرع : خبر الواحد يفيد الظن عند كبار الحفاظ والمحدثين ١٣٤

ابن تيمية يعترف في منهاج سنته أن خبر الواحد يفيد الظن ١٣٥

إثبات التأويل عند السلف ١٣٨

الدليل على أن التأويل من السنة ١٤٢

فصل : التأويل هو المجاز في القرآن والسنة ١٥٣

فصل : التفويض كان أيضاً مذهب لبعض السلف ١٥٥

قول ابن تيمية بأن التفويض من شر أقوال أهل البدع والإلحاد ١٥٨

فصل : موقفنا من التفويض ١٦١

فصل : وجوب عرض الحديث على القرآن ١٦٥

الدليل الثالث من أدلة التوحيد : الإجماع ١٧٤

قاعدة في الإجماع فيها أن المطلوب إجماع جميع فرق الأمة وليس أهل السنة فقط ١٨٣

الدليل الرابع من أدلة التوحيد : العقل ١٨٦

شرح مسألة إذا تعارض الدليل العقلي والدليل النقلي يقدم العقلي ١٩١

فصل : في بيان ما هي الأدلة الباطلة الموهومة التي يستدل بها بعضهم في العقائد ١٩٦

الدليل الباطل الأول : الفطرة ١٩٦

الدليل الباطل الثاني : دين العجائز ٢٠٠

الدليل الباطل الثالث : فهم السلف ٢٠٣
فصل : في بيان أنه ليس هناك مذهباً يُسَمى مذهب السلف ٢٠٥
أمثلة على اختلاف السلف في قضايا عقائدية أو مذكورة في كتب العقائد ٢٠٦
الدليل الباطل الرابع : القياس ٢١٥
بداية مباحث الإلهيات ٢٢١
فصل الإيمان بالله عز وجل ٢٢٣
وجوب النظر والتفكر وهما من أسباب الإيمان وزيادة اليقين ٢٢٣
الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه ٢٢٦
المقام الأول الفكر في حقيقة ذاته تعالى وصفاته وهو ممنوع ٢٢٦
المقام الثاني الفكر في أفعاله وخلقه وعجائب صنعه ٢٢٧
الأدلة العقلية على وجود الله تعالى / منها النظر في خلق الإنسان ٢٢٨
قضية الصفات وتعريفها وبيان أنها عين الذات ٢٣٥
فصل في صفة الوجود وبيان ما وقع لبعض المتكلمين فيها من الغلط والخطأ ٢٤١
تنزيه وجود الله تعالى عن الزمان والمكان ٢٤٢
الكلام حول صفة القدم ٢٤٧
الكلام في صفة البقاء ٢٥١
صفة القيومية ٢٥٢
صفة الغنى ٢٥٣
صفة المخالفة للخلق ٢٥٤
صفة الخالقية ٢٥٥
صفة الرزق ٢٥٨
الله سبحانه وتعالى موصوف بأنه رازق قبل خلق المخلوقين ٢٥٩
مسألة في الرزق ٢٥٩
صفة القدرة وصفة الإرادة والمشيئة ٢٦١

مناقشة قو بعضهم بأن السكين لا تقطع والنار لا تحرق ٢٨٠
مسألة الكسب وخلق أفعال العباد ٢٨١
صفة العلم ٢٨٧
الملائكة والأنبياء لا يعلمون الغيب إلا ما يطلعهم الله تعالى عليه ٢٨٨
صفة السمع وصفة البصر ٢٨٩
صفة الحياة ٢٩٠
صفة الرحمة ٢٩١
صفة الحكمة ٢٩٢
صفة الكلام ٢٩٣
الغضب والرضا ٣٠٨
فصل في ألفاظ لا يصح إطلاقها صفات لله تعالى ٣١٠
القواعد التي يجب مراعاتها عند إطلاق صفة على الله تعالى ٣١٣
فصل في تطبيق هذه الأسس على بعض الآيات والأحاديث ٣١٨
الكلام على اليد واليدان ٣١٩
الكلام على الاستواء ٣٢٢
الكلام على موضوع العلو ٣٢٨
الكلام على بعض الآيات المتعلقة بموضوع العلو ٣٢٩
فصل في بيان أن الله تعالى لا داخل العالَم ولا خارجه وتنزيه الله عن ذلك ٣٣٤
فصل مناقشة قضية داخل العالَم وخارج العالَم من جهة أخرى ٣٤٠
نصوص الأئمة والعلماء التي ينزهون الله تعالى عن أن يكون داخل أو خارج العالَم ٣٤٣
كل ما سوى الله مخلوق فليس هناك منطقة ومكان يقال له خارج العالم ٣٤٤
بيان منطقة خارج العالم حسب تفكير المجسمة والمشبهة ٣٤٦
الكلام على حديث النزول ٣٥٢
الكلام على حديث الجارية ٣٥٥
الكلام على حديث الأوعال ٣٥٩

قاعدة مهمة : الأصل في معرفة الله هو النفي أي نفي مشابهته للمخلوقات لا الإثبات ٣٦١
فصل : قاعدة مهمة للتعريف بالمجسمة والمشبهة ٣٦٨
فصل في الكلام حول قضية لازم المذهب هل هو مذهب أم لا ٣٧١
فصل في أسماء الله تعالى الحسنى ٣٧٥
بداية مباحث النبويات والسمعيات ٣٨٣
الإيمان بالملائكة ٣٨٥
قصة هاروت وماروت وما يتعلق بها ٣٩١
نصوص بعض الأحاديث الواردة في قصة هاروت وماروت ٣٩٣
الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ٣٩٨
صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : الصفة الأولى العصمة ٤٠٥
بطلان حديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد سُحِرَ ٤٠٨
الصفة الثانية للأنبياء : الصدق ٤١٠
الصفة الثالثة للأنبياء : الفطانة ٤١٠
الصفة الرابعة للأنبياء : تبليغهم ما أمروا بتبليغه وعدم كتمانهم للشريعة ٤١٠
تنبيه : مسألة الباطن والظاهر والشريعة والحقيقة ٤١٢
ضلال وكفر كل من يدَّعي النبوة بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ٤١٤
الرد على ابن عبد السلام في قوله بأن النبوة أفضل من الرسالة وما يتعلق بذلك ٤١٥
الإيمان برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعموم بعثته ٤١٩
معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ٤٢٨
الأمر الخارق للعادة : معجزة أو كرامة أو إعانة أو ٤٢٩
سرد بعض معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ٤٣٠
بعض معجزات سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ٤٣١
الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون ٤٣٣
الكلام على اللوح والقلم والعرش والكرسي ٤٣٥

فصل في بيان أربعة أحاديث باطلة تتعلق بالكرسي ٤٤٦

الإيمان بالكتب السماوية ٤٥٠

الإيمان بوجود الجان وما يتعلق بذلك ٤٥٢

حرمة اتيان الكهان والعرافين والتعامل مع الجان وكذب من ادَّعى إخراجهم ٤٥٨

الإيمان بنعيم القبر وعذابه الذي هو في البرزخ حقيقة ٤٦٤

سرد الأحاديث الباطلة في أن للموت ولسكراته ألماً وعذاباً ٤٦٩

قضية سكرات الموت وبيان أنها ليست عذاباً ولا فيها ألم ٤٧٤

بيان أن الإنسان أي روحه تكون بعد موته في البرزخ لا في القبر ٤٧٨

الدليل على بطلان قضية ضمة القبر وخاصة للمؤمنين ٤٨١

حجج من أثبت ضغطة القبر على المؤمنين ٤٩٥

فصل في معالجة الخوق والقلق المتولد من التفكر بالموت ٤٨٩

فصل في إثبات سماع الأموات للأحياء ٤٩٧

انتفاع الأموات بأعمال الأحياء ومنها وصول ثواب قراءة القرآن ٥٠٢

أشراط الساعة وعلاماتها ٥٠٦

الإيمان باليوم الآخر ٥٢٢

الإيمان بالنفختين والاختلاف في معنى النفخ ومعنى الصور ٥٢٢

الإيمان بالبعث والحشر والحساب ٥٢٥

مسألة : هل يبعث الناس عراة يوم القيامة أم كاسين ٥٢٧

بطلان قضية أن الخلق جميعاً ينتظرون ثلاثمائة سنة شاخصة أبصارهم قبل الحساب ٥٣٠

مسألة : هل تحشر الحيوانات والبهائم يوم القيامة أم لا ؟! ٥٣١

فصل : الإيمان بوزن الأعمال يوم القيامة ومعنى الميزان ٥٣٥

الكلام على الصراط ٥٣٨

فصل في مناقشة فكرة أن الصراط أدق من الشعرة وأحد من السيف ٥٣٨

الكلام في معنى الورود في آية ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ ٥٤٤

مناقشة كون الصراط جسر منصوب فوق جهنم بين حافتيها وبيان بطلان هذه الفكرة ٥٥٢

الإيمان بالحوض ٥٦٠
في الصحيحين جماعة من الصحابة يطردون ويمنعون من الشرب من الحوض ٥٦٣
الإيمان بالشفاعة ٥٦٨
فائدة : معنى قوله تعالى ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ ٥٧١
الإيمان بالجنة والنار ٥٧٥
فصل القول في مرتكب الكبيرة ٥٧٨
مسألأة الرؤية والكلام فيها ٥٨٢
مسائل متفرقة تتعلق بالعقيدة ٥٩١
الإيمان بالإسراء والمعراج ٥٩٣
الكلام في الميثاق المأخوذ على العباد ٦٠٥
فصل في الأولياء وكراماتهم ٦١٤
فصل في معنى الجماعة والفرقة وأنواع الاختلاف ٦٢٢
فصل في بطلان حديث الافتراق وعدم صحته سنداً ومتناً ٦٢٧
فصل في الكلام على الإمامة والصلاة خلف البر والفاجر ٦٣٣
الحب في الله والبغض في الله من الإيمان ٦٤١
ذكر المسح على الخفين وبيان عدم اتفاق الأمة عليه ٦٤٣
الحج والجهاد مع أولي الأمر ٦٥١
تكملة في بيان جهاد النفس ٦٥٢
فصل في ذكر الصحابة رضي الله عنهم ٦٥٣
فصل في وجوب محبة آل البيت وتوقيرهم وموالاتهم ٦٥٦
فصل : في ذكر العلماء والسابقين بالخير ما لم يقترفوا شيئاً ينبغي الاعتراض عليه ٦٧١
مباحث الردة والشرك وما يتعلق بهما / باب الردة وما يتعلق بها من الأحكام ٦٧٣
تعريف الردة وبيان الأمور الموقعة في الردة ٦٧٥
معنى قوله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ٦٧٧

أقسام الردة وأنواعها / الردة الاعتقادية ٦٨٠
الكلام فيما روي في البخاري من إنكار ابن مسعود للمعوذتين مع بيان بطلانه ٦٨٥
الردة الفعلية / وحكم استمال الجرائد في الأمور الممتهنة ٦٨٨
الردة القولية ٦٩١
مسائل تتعلق بالردة / معنى لا نكفر مؤمناً بذنب وسوء استعمال البعض لها دون فهم ٧٠٣
خطأ قول البعض هذا قول كفري لكننا لا نكفر صاحبه ٧٠٤
خطورة الإقدام على التكفير بلا علم وبجرأة بالغة ٧٠٥
عدم جواز تصديق العرافين وأمثالهم ٧٠٨
يستثنى من الردة أو الكفر حالات سبق اللسان وتفصيل ذلك ٧١٠
فصل في وجوب التوبة من الردة وكيفية ذلك ٧١٢
فصل في الشرك وما يتعلق به من مباحثه ٧١٣
القضية الأولى : زيارة القبور وبيان أنها ليست من مظاهر الشرك كما يزعم البعض ٧١٧
القضية الثانية : التوسل بالأنبياء والصالحين ٧٢٣
القضية الثالثة : الاستغاثة ٧٢٥
القضية الرابعة : الرُّقى ٧٢٨
القضية الخامسة : التمائم والتولة والودعة ٧٣١
القضية السادسة : النشرة ٧٣٢
القضية السابعة : التطير والتشاؤم ٧٣٣
القضية الثامنة : الحكم بغير ما أنزل الله تعالى ٧٣٦
خاتمة لموضوع الشرك أعاذنا الله منه وتوافانا على الإيمان الكامل ٧٣٧
متن العقيدة الطحاوية على ترتيب مؤلفها ٧٤٠